مارسيل بروست مكتبة ١

بحثاً عن الزمن المفقود

جانب منازل سوان

ترجمة: إلياس بديوي

مراجعة: د. جمال شحيد

منشورات الجمل

رواية

إهداء لـ ..

مواليد الزمن الجميل ..

الزمن المفقود ..

جيل الثمانينيات

مكتبة

t.me/soramnqraa

مارسيل بروست

بحثاً عن الزمن المفقود

- 1 -

جانب منازل سوان

الياس بديوي (١٩٣٠-١٩٩٧)، من مواليد قرية المسمية في حوران. حاصل على إجازة في اللغة الفرنسية وآدابها من جامعة السوربون ١٩٥٦. عُيّنَ موجّهاً للغة الفرنسية في وزارة التربية السورية (١٩٦٦-١٩٨٣) وأستاذاً للترجمة الفورية في جامعة دمشق. كان عضواً في هيئة تحرير مجلة **الآداب الأجنبية** التي يصدرها اتحاد الكتّاب العرب. له العديد من الترجمات المنشورة، منها: ميشيل كاروج: **أندريه بروتون والمعطيات الأساسية للحركة السريالية** (دمشق، ١٩٧٣)؛ اولفن فنك: **فلسفة نيتشه** (دمشق، ١٩٧٤)؛ آلن تورين: **إنتاج المجتمع** (دمشق، ١٩٧٧)؛ الأجزاء الخمسة الأولى من سباعية مارسيل بروست: **بحثاً عن الزمن المفقود** (دمشق، ١٩٧٧-١٩٩٧).

جمال شحيّد (مواليد عام ١٩٤٢). دكتوراه في الأدب المقارن (السوربون الجديدة، ١٩٧٤). من أعماله النقدية: **في البنيوية التكوينية** (بيروت، ١٩٨٢؛ **الذاكرة في الرواية العربية المعاصرة** (بيروت، ٢٠١١)؛ **خطاب الحداثة في الأدب. الأصول المرجعية** (دمشق، ٢٠٠٥). بعض مترجماته: **رحلة لامارتين إلى الشرق** (الكويت، ٢٠٠٦)؛ الجزآن الأخيران من سباعية **بحثاً عن الزمن المفقود** لمارسيل بروست (القاهرة، ٢٠٠٣-٢٠٠٥)؛ كلاريس هيرينشميدت: **الأبجديات الثلاث**، اللغة والعدد والرمز (البحرين، ٢٠٠٧)؛ دومينيك أورفوا: **المفكرون الأحرار في الإسلام** (بيروت، ٢٠٠٨)؛ جاك لوغوف: **التاريخ والذاكرة** (بيروت، ٢٠١٧)؛ مارسيل بروست: **المسرات والأيّام** (أبو ظبي، ٢٠١٤). جورج فيغاريلّو: **تاريخ الجمال** (بيروت، ٢٠١١). ادغار موران: **المنهج** (الجزآن الثالث والرابع) (بيروت، ٢٠١٢). جيل دولوز: **سينما (الصورة الحركة، الصورة الزمن)** (بيروت، ٢٠١٤-٢٠١٥).

مارسيل بروست

مكتبة
t.me/soramnqraa

بحثاً عن الزمن المفقود

- 1 -

جانب منازل سوان

رواية

ترجمة: إلياس بديوي

مراجعة: د. جمال شحيد

منشورات الجمل

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

انقر هنا .. اتبع الرابط!

مارسيل بروست

بحثاً عن الزمن المفقود – 1: جانب منازل سوان، رواية، الطبعة الأولى

ترجمة: إلياس بديوي، مراجعة: د. جمال شحيد

كافة حقوق النشر والاقتباس باللغة العربية

محفوظة لمنشورات الجمل، بيروت – بغداد ٢٠١٩

تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ١ ٣٥٣٣٠٤

ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

Marcel Proust: *A La recherche du temps perdu I: Du côté de chez Swann*, 1913

© *Al-Kamel Verlag* 2019

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

مقدّمة عامّة

بقلم: جان إيف تادييه(*)

مكتبة
t.me/soramnqraa

كتابة تاريخ «**بحثاً عن الزمن المفقود**» تعني استعراض وجوه التقدّم التي تحرزها موهبة ما. إنّه لم ينعم فنان كبير في العصر الحديث باستمرار السعادة، ولكنّ القليل منهم خبر هذه الفترات الطويلة من انهيار العزائم وسنوات الصمت وصنوف التردّد حول العمل المزمع كتابته والتي ما كانت تقابلها سيطرة متماثلة في جميع الأجناس، بل شعور بالفشل في كلّ منها؛ ولا بدّ أن مارسيل بروست، وقد بلغ الثامنة والثلاثين، ظنّ، بين تخلٍّ ولا إنجاز، أنه كاتب يحكمه الإخفاق، حتى إذا استفاق لديه في نهاية المطاف ينبوع اللغة الرائع الذي لن ينضب رفض الناشرون الواحد تلو الآخر عمله الادبيّ، فعندما نُشِرَ تجاهله النقّاد أو هم لم يفهموه. إن الرسالة نقيض المهنة الناجحة؛ ولعلّ المؤلف الذي أنجز في الثالثة والعشرين، بنوع من التبكير الوقح، كتاب «المسرات والأيّام»، لعلّه كان استطاع، شأن «اناتول فرانس» و«موريس باريس» و«بول بورجيه» و«فرانسوا مورياك» من بعدهم، إصدار كتاب في كلّ عام والفلاح في حياته وبلوغ المجد الذي توفّره

(*) يعتبر الأستاذ جان إيف تادييه من أهم الباحثين الجامعيين المختصين بأدب مارسيل بروست، وأدرج هذه المقدمة الغنية في مقدمة السباعية التي ضبط نصها انطلاقاً من مخطوطات بروست وأشرف على نشرها في سلسلة لابلياد La Pléiade التي تصدرها دار غاليمار الباريسية (المدقق).

المؤسّسات. ولكنّ بروست، في أعقاب بدايات واعدة وحياة اجتماعيّة ناجحة، يغوص في لجّة المرض ويموت فتيّاً، ولعل روايته العظيمة، وقد جاءت بعد عشرين عاماً من صمت تقطّعه، ولا تكاد، ترجمتان وبعض المقالات، والثلث منها نُشر بعد مماته، ما وفّرت له درب النجاح الذي حلم به أهلوه والذي سبق أن قدّم الأستاذ «أدريان بروست» عنه مثالاً واضحاً في الركن الخاصّ به.

أمّا دراسة مارسيل بروست في حياته وآثاره فإنّما تعني جعل العلاقة بين هاتين الكلمتين مبعث سخرية، إذ نحن نتابع عن كثب تحطّم رجل وتشييد كتاب واستحالة رجل روايةً وتحوّلات رواية وحيدة تزداد على الدوام اختلافاً عن ذاتها والتصاقاً بذاتها. لقد جرى في الخفية، وبفرط من صنوف الصمت في العلن والإضافات في الخفاء، تسطير آخر حلم كبير في القرن التاسع عشر وأول رواية حديثة في القرن العشرين. لقد جعل بروست لنفسه معلّمين لا يرحمون، لا صاحب مجد زائل وواضع كتب رائجة من سنوات الـ ١٩٠٠ تتعفّن كتبه الآن في صناديق بائعي الكتب القديمة ولم يعد فيها ما تقوله لأنّها باحت بكلّ شيء لقرّائها الذين ذهبوا معها، بل «بلزاك» و«سان سيمون» و«بودلير». فهم على مثاله ضحّوا بحياتهم وكتبوا في الليل وصادفوا مجداً تزايد بقدر ما يتباعد تاريخ وفاتهم، وذلك لقاء عنوان واحد: **الكوميديا الإنسانية**، **والمذكّرات**، **وأزاهير الشرّ**. معهم - وإلى جانبهم «**مذكرات ما بعد الموت**» و **رسائل** السيّدة «دو سيفينييه» - يتحاور بروست الذي ربّما كان، لو مات بعد «جان صانتوي»، نِدّاً لِـ«آلان فورنييه». إن أسباب هذا الانتظار الطويل كائنة في طريقة عمل بروست: فالرفض والتشطيب واللاإنجاز من جهة، ومن جهة أخرى إعادة الكرّة والإعادة على مستوى أعلى والإضافة، فإذا ظننتَ أنْ انتهى كلّ شيء، فالتركيب والتفكيك وإعادة التركيب زاخر في الصفحات والحلقات والشخصيّات. وربّما جعل هذا الشعور بالقدرة الدائمة على «المضيّ أبعد فأبعد»، ربّما جعل

من مؤلّف «**بحثاً عن الزمن المفقود**» لا كاتباً ملهماً، بل من أكثر الصنّاع وجداناً وجدّاً. ويداخل القارئَ بدوره شعور بأنّه، فيما يبوء كلّ شيء لدى الآخرين بالفشل عاجلاً أم آجلاً، قد سيق إلى أبعد نقطة ممكنة في المتعة والمعرفة سواء بسواء.

المهمّ إذن جلاء الطريقة التي تَشكّلَ بها هذا الكتاب الفريد. وإنّما «**بحثاً عن الزمن المفقود**» هو مجموع حالاته المتتالية، من صياغة أولّية ومسوّدات وحواشٍ متفرقة وكتب تحت كتاب؛ كما يسترجع المؤلّف التقليد السابق، من الكتاب المقدّس إلى «فلوبير» و«تولستوي»، وسائر الأجناس الأدبيّة. وهو يقدّم أخيراً الحلم الرومانسي والرمزي الذي شاطره إيّاه «مالارميه» و«فاغنر» والذي قوامه تأليف بين الفنون جميعها من رسم وموسيقى وعمارة. هكذا تنشأ الأعمال التي تُفْلِتُ من زمانها وبلادها وواضعها ولا تنفكّ أمجادها تتعاظم. لطالما قِيل إنْ كان لانكلترا شكسبير ولألمانيا غوته ولإيطاليا دانتي فإن فرنسا لا تملك أحداً يساويهم، ولكنّ ما يدعو للظنّ بأن لها الآن، وبأن لها في غدٍ، مارسيل بروست، نظراً لعدد الدراسات التي خُصّ بها.

يطلعنا أوّل كتاب له بعنوان «**المسرات والأيام**» صادر عن دار «كالمان ليفي» عام ١٨٩٦ على الكثير من طريقة مؤلفه وموضوعاته. ومع أن هذا الكتاب قاصر عن مساواة «**بحث أعن الزمن المفقود**» وحتى «**جان صانتوي**» فيكاد كلّ شيء أن يكون ماثلاً فيه بذوراً. فأوّل سمة تجدر الإشارة إليها أن الأمر أمر نصوص متنوّعة، خمسين وتزيد. لقد وجد الكاتب منذ شبابه طريقة كتابته التي لن يبدّل فيها وسوف تجعله في قمّة السعادة وفي قمّة التعاسة: على هيئة أجزاء ومقطوعات شديدة الاختلاف طولاً ولوناً ومضموناً. وسبق أن صدر بعضها على صفحات المجلاّت. وعلى النحو نفسه سوف تصدر مقتطفات من «**بحثاً عن الزمن المفقود**» في صحيفة «**الفيغارو**» و«**المجلة الفرنسيّة الجديدة**». لقد صرف بروست وقتاً طويلاً في تسطير هذه الصفحات، فهو يصرّح بأنّه باشرها في التجهيز في

«الرابعة عشرة»[١]، وقد اقتضاه الأمر، إن صدق القول، عشر سنوات. أمّا «**جان صانتوي**» فيقتضيه أربعاً دون أن يُنجَز، وتشغله أعماله حول «راسكين» ستّ سنوات و«**بحثاً عن الزمن المفقود**» أخيراً أربع عشرة. أمّا السمة الثانية التي تدهشك لدى قراءة «**المسرات والأيّام**» فتنوّع التقنيّات المستخدمة، ذلك لأنّ الكتاب يحوي سبع قصص وقصائد نثرية أو موزونة ومعارضات ورسوماً على طريقة «لابروبير». وفِكَراً أخلاقية على طريقة «لاروشفوكو»، ومقطوعات وصف منفردة، هي تنقيل بين الفنون أو لوحات. ويتوزّع التخييل والنقد الاجتماعي والشعر تبعاً للأشكال المستخدمة.

وتظهر للمرّة الأولى، في مؤلَّف فترة الشباب هذا، موضوعات وأوضاع وشخصيّات لن يهجرها بروست من بعد ويدهش القارئ أنّ يعود فليقاها في «**بحثاً عن الزمن المفقود**» فربّما لم يدع المؤلّف شيئاً نهب الضياع؛ حتى النصوص التي لم تُجمع في «**المسرات والأيّام**» سوف تُعاد قراءتها، كما سنرى، ويُعاد إدراجها وكتابتها ويجرى تجاوزها بالتأكيد، ولكنّما يُحَافَظُ عليها أيضاً. والأمر يفسّر لنا أنن بروست استطاع منذ عام ١٩١٣ أن ينادي بفضائل كتابه الأول وبمساوئه في آن معاً وأنّ بعض القُرّاء اكتشفوا ذلك بإعجاب، شأن «أندريه جيد»: «حينما أُعيد اليوم قراءة «**المسرات والأيّام**» تبدو لي مزايا هذا الكتاب الرقيق الذي صدر عام ١٨٩٦ من ألق أعجب معه أنْ لم يَنْبَهِرْ به القارئ منذ البداية. ولكنّ عيننا اليوم أصبحت خبيرة وكلّ ما أمكن أن نُعْجَبَ به مذ ذاك في كتب مارسيل بروست الأخيرة نتعرّفه ههنا حيث لم نفلح قبلُ في اكتشافه»[٢]. إن

---

(١) رسالة مؤرخة في ٢٨ أيّار (مايو) ١٩٢١ إلى النقيب «بونييه» - نشرة رابطة أصدقاء بروست، العدد ٣ - ١٩٥٣، ص ١٦.

(٢) أندريه جيد: في قراءة ثانية لِـ«**المسرات والأيام**»، تحيّة لمارسيل بروست - غاليمار (في طبعة معادة لعدد «**المجلة الفرنسية الجديدة**»، ١ كانون الثاني (يناير) ١٩٢٣، ص ١١٠).

القصص الخمس في المجموعة تصف مسيرة بطل أو بطلة، وقد لبث بروست على الدوام أميناً على هذا الشكل. فالبطل في «موت بالدراسار سيلفاند» يتعلّم كيف يموت: وهو دون مستوى رسالته ولكنما تجتاحه الذكريات التي ربّما استطاعت أن تغذّيها: «عاد يرى أمّه حينما تقبّله لدى عودتها ثم حينما تضعه في سريره مساءً وتدفئ قدميه بين يديها وتظلّ بالقرب منه إن لم يستطع النوم. وتذكّر كتاب «**روبنسون كروزو**» والعشيات في الحديقة حينما تغنّي شقيقته، وأقوال أستاذه الخاصّ الذي يتنبّأ بأنّ سيضحي ذات يوم موسيقيّاً عظيماً، وانفعال والدته حينذاك، وعبثاً تجهد في إخفائه. أمّا الآن فقد ولّى زمن تحقيق تطلّعات أمّه وشقيقته التي تنضح حماسة والتي خيّبها خيبة شديدة القسوة»[١]. وتصادف قصور الإرادة نفسها «فيولانت، أو حُبّ الدنيويّات»: فالبطلة تقصيها دنيا المجتمعات عن «الينبوع الطبيعيّ للمسرّات الحقيقيّة»، وهي، شأن دوقة «غيرمانت» فيما بعد، تخسر، وقد شاخت، مملكة المجتمعات التي «سبق أن احتلّتها وهي بعد طفلة أو تكاد»[٢]. ويَرْوي «اصطياف السيّدة دوبريف الحزين» قصّة «حبّ لا تفسير له» يفرض إيقاعه على كامل حياة هذه المرأة «على لحن من مقام القلق»[٣]. فالشخص المحبوب مقرون فيه بجملة من «سادة الغناء» تعزفها لنفسها على البيانو تلك التي تحبّه. إنّ الحبّ من طرف واحد، الحبّ المذنب، الحبّ اللوطيّ هو الامتحان الأكبر والتدريب الوحيد الذي يستبقيه هذا الكتاب الذي ترف على جنباته الشهوة: إنه «اعتراف فتاة» و«نهاية الغيرة». إن الحبّ المحرَّم - الفعلة التي تتمّ تحت بصر الأمّ فتموت من جرّائها - الذي يعقبه انتحار الفتاة، أو غيرة «هونوريه» التي تؤذن بغيرة «سوان» وتخلص إلى ميتة يسبّبها حصان، كما هي ميتة

---

(١) م. بروست: «**جان صانتوي**»، يسبقه «**المسرات والأيام**»، طبعة أعدّها ب. كلاراك وإ. صاندر، مكتبة لابلياد، ص ٢٧.

(٢) «**المسرات والأيام**»، الطبعة المذكورة، ص ١٧.

(٣) المرجع نفسه، ص ٧٨.

«أليبرتين»، تظهر لنا أننا إذا نضّدنا هذه القصص وقرنّا بها قصة «قبل الليل» التي لم يَسْتَبْقها بروست[1]، وجدنا هذه المراحل نفسها: طفولة طاهرة تظلّ ذكراها ماثلة أبداً، فدنس، فوالدة مجروحة الإحساس، فموت. سوف يقتل الحبّ كذلك «أليبرتين» والجدّة وأميرة «غيرمانت».

إن الفنّ في ذلك العصر موضوع مهم ولكنّه في موقع تبعيّة. فصور الرسامين والموسيقيين، ووجود «فاغنر» و«بوتيشيللي» إذا ما قُرِنَتْ بالأشخاص المحبوبين على نحو ما، قُرن هذا الأخير فيما بعد بشخص «أوديت»، لا تكفي لقلب التراتبيّة التي تجعل من الحبّ الحدث الرئيسيّ وينبوع السعادة الأوحد. ليس «المسرات والأيّام» كتاباً موضوعه الفنّ. وليس كذلك كتاباً حول الذاكرة مع أنّه يحوي ذكريات كثيرة وأن بروست يوحّد أحياناً بين الفنّ والذاكرة حينما يستذكر، في جملة تبشّر بالحياة في «دونسيير» في مجلّد «**جانب غيرمانت**»، «الرسم الهولندي الذي لذاكرتنا»[2]. في مقابل ذلك يملك الأبطال ملامح كثيرة ويأتون أفعالاً ويحسّون بمشاعر سوف يأخذها الراوي لحسابه في «**بحثاً عن الزمن المفقود**»: فالصلات بالأم، ومأساة النوم، وقصور الإرادة، وتوهّم الحب، وجدوى الغمّ، ونظرة النساء «اللواتي يَعِدْنَ بحبّ لن يخلص له فؤادهن»[3] والمناظر المفضّلة من شجر أو بحر، والقلق الذي في غرفة الفندق، ونوبات «الربو العصبي»[4]؛ وتبشّر السحاقيّات بـ«عامورة» فيما لا نجد لوطياً في هذه القصص، و«هيبوليتا» بالسيّدة «دوغيرمانت» من جانب جنسها المتحدّر دون شكّ من إلهة وطائر»[5]؛ أمّا الساديّة المازوشيّة التي

---

(١) «**المسرات والأيام**»، الطبعة المذكورة، ص ١٦٧-١٧١؛ «قبل الليل» صدرت في «**المجلّة البيضاء**» في كانون الأول (ديسمبر) ١٨٩٣.

(٢) «**المسرات والأيام**»، الطبعة المذكورة، ص ١٣٠.

(٣) المرجع نفسه، ص ١٢٥.

(٤) المرجع نفسه، ص ١٦٠.

(٥) المرجع نفسه، ص ٤٣.

كانت فيما بعد من نصيب «شارلوس» فقائمة منذ «اعتراف فتاة».

في عام ١٨٩٣ يؤلّف بروست عدّة نصوص لا يدرجها في «المسرات والأيّام»؛ إنّها رواية بأسلوب الرسائل غير منشورة وغير مكتملة، وقد تمّت بالتعاون مع «دو لاسال» و«دانييل هاليفي» و«فيرنان غريغ»، وكتب بروست فيها القسم الخاص بامرأة مجتمع عاشقة لضابط صفّ وتفيد من خدمات العقيد آمر هذا الأخير. تغادر البطلة باريس «لتشعر أنّها على الأقلّ في مأمن من الإغراءات المجنونة»، و«تعاني من التغريب الذي بها» في أماكن جديدة، وبخاصة في شقّة جديدة، والأقسى من ذلك في سرير جديد؛ وهي تحلم قبالة «حصن خرب» بأسياده المتوفين: «أيّة جرائم وأيّة عيوب وراثيّة كانوا يمضون، من جيل إلى جيل، للدفاع عنها، في عش النسور هذا، حيال كلّ صنوف الفضول والأحقاد جميعها ووجوه العنف جميعاً». «وسوف يُسْنَدُ حلم القسوة الإقطاعيّة هذا لـ«شارلوس» في «**الزمن المستعاد**». أمّا البطلة فهي في النهاية ضرب من «جيلبيرت» مقلوبة أو راوٍ أنثى: «حزينة أنا من تذكر الزمن الذي كنت ألبث فيه وأنا فتاة صغيرة جدّاً، ساعات إلى النافذة لأرى إن كان الطقس سيصبح جميلاً وإن كانت خادمتي ستصطحبني إلى «الشانزيليزيه» حيث يلعب معي الصبيّ الصغير الذي كنت أحبّه بقدر ما سأحبّ في يوم طوال حياتي كلّها. كانت أقلّ غيمة في السماء تبعث الغمّ في نفسي وتستدرّ بعض قطرات من المطر الدمع من عينيّ. وإنّي في كلّ مرّة يهطل المطر، أصلّي من أجل جميع البُنيّات العاشقات اللواتي لن يذهبن إلى «الشانزيليزيه» وسوف يتألمن دون أن يدري أحد بالأمر»(١). وبعد انقضاء بضعة شهور على تسطير هذا العمل اللامكتمل ينشر بروست في «المجلّة البيضاء» قصة «قبل الليل» التي تتضمّن نظريّة حول اللوطيّة. ففي حين يرفض شخوص هذه القصّة القصيرة جدّاً توجيه اللوم لعادات كان سقراط «يقرّها بانتهاج لدى أصدقائه المفضّلين»،

---

(١) «**لوموند**»، ٢٦ تموز (يوليو) ١٩٨٥، ص ١٤.

وفي حين يعترفون بسموّ الحب «الخصب» على «الحبّ الشهواني الصرف»، فهم يؤكّدون أن «لا تراتبية بين صنوف الحبّ العقيم» وأن إحراز امرأة للذّة مع امرأة أخرى بدلاً من شخص من الجنس الآخر ليس أكثر منافاة للأخلاق. فسبب هذا الحب كامن في اضطراب عصبيّ حصريّ بما يفوق إمكان تحميله مضموناً أخلاقيّاً»[١]. سوف يتخلّى بروست، في «**سادوم وعامورة**» (القسم الأول)، عن التبرير السقراطيّ لا عن «الاستعداد الفطريّ» أو صورة المدوسة التي يستعيرها من «ميشليه»: «أكثر الناس ينفرون قرفاً من المدوسة. أمّا «ميشليه» الذي كان يحسّ برقّة ألوانها فكان يستمتع بجمعها»[٢]، وتضحي هذه العبارة في «**سادوم وعامورة**» (القسم الأول): «حينما كنت لا أنساق[٣] إلا وراء غريزتي كانت المدوسة تثير اشمئزازي في «بالبيك»؛ فإن عرفت أن أنظر إليها، مثل «ميشليه»، من وجهة نظر التاريخ الطبيعيّ وعلم الجمال، كنت أبصر فيها حزمة من ضياء لازورديّ». فالشذوذ يلقي جماله في النظرة التي تحطّ عليه، ومنشأه في قدريّة وراثيّة. إن صورة المدرسة، كالكثير غيرها ممّا نلقاه في مؤلفات الشباب قبل أن نعود فنقرأه في «بحثاً عن الزمن المفقود»، وكمثل «أميرة الصين الحبيسة داخل قنيّنة» في القصّة التي بأسلوب المراسلات والتي تعود فتظهر في «**جانب غيرمانت**» و«**السجينة**» إنّما تُبرز أن بروست حينما يجمع بين فكرة وصورة، بين نظرية وصورة مجازيّة، فإنّه لا يتخلّى من بعد عن هذه الخليّة الأوّلية.

أمّا النصّ الثالث لعام ١٨٩٣ الذي لم يُسْتَعَد في «المسرات والأيّام» فهو«اللامبالي»[٤] وفيه نقرأ رواية طفولة وقصة حبّ تؤذن بـ«من حبّ

---

(١) «**المسرات والأيام**»، الطبعة المذكورة، ص ١٦٩.
(٢) المرجع نفسه، ص ١٧٠.
(٣) المجلد الثالث من هذا الإصدار.
(٤) صدر في آذار (مارس) ١٨٩٦ في مجلة «**الحياة المعاصرة**» عثر عليه وأعاد نشره «فليب كولب» - غاليمار - ١٩٧٨.

لسوان». ولذلك يبحث بروست، حينما يكتب روايته العظيمة عام ١٩١٠، عن نسخة مطبوعة لهذا الكتاب الذي لا يحتفظ بمخطوطته. تسيطر على هذه الطفولة نوبة أولى من الربو تظهر طابع السيرة الذاتية في كتابات تلك الفترة: «ليس يعلم طفل يتنفّس منذ مولده، دون أن يكون انتبه للأمر في يوم، كمّ الهواء الذي ينفخ صدره، على نحو يبلغ من العذوبة مبلغاً لا يلحظ معه الأمر، أساسيّ لحياته، أفيتّفق له في هجمة للحمَّى واختلاجة أن يختنق؟ إنّه إذ ذاك، في جهد كيانه اليائس، إنّما يكافح في سبيل الحياة وفي سبيل طمأنينته المفقودة التي لن يعود فليقاها إلا مع الهواء الذي ما كان يظنّها لا تنفصل عنه»(١). أمّا بالنسبة للباقي فالقصّة خطوط أوليّة لـ«من حبّ لسوان»، والبطلة تتبنّى القول المأثور: «إن كنتُ لا أحبّك فأنت تحبّني»(٢) وتحمل أزهار الكاتليّا.

حينما صدر كتاب «**المسرات والأيام**» عام ١٨٩٦ كان بروست قد باشر «**جان صانتوي**» منذ سنة خلت. وتمثّل هذه الرواية في الآن نفسه مرحلة مهمّة في مسيرة مؤلّفها الأدبيّة وفشلاً دائم النتائج. أمّا المرحلة فالانتقال من الشكل المختصر، من الرسوم والطبائع التي على طريقة «لابروبير» والقصائد المنثورة والقصص إلى الجنس الروائي، إلى مخطوطة باهظة الطول: سبع مئة وثمانون صفحة مطبوعة(٣). لقد أراد بروست، في الفترة التي قرأ فيها روايات «غوته» ومراسلاته مع «شيلر»، أن يكتب رواية طويلة تثقيفيّة كانت تدفعه إليها بنية قصص «**المسرات والأيام**»، هذه الرحلة عبر حياة بطل مركزيّ يستطيع المؤلّف الاختباء داخلها، بما أن القصّة مكتوبة بضمير الغائب، والكشف عن ذاته بما أن الطفل، بما أن الشاب يقضي فيها حياته الخاصّة: «هل يسعني أن أسمّي هذا الكتاب

(١) **اللامبالي**، الطبعة الآنفة الذكر، ٤٢ - ٤٣.
(٢) المرجع نفسه، ص ٤١ - ٤٢ - انظر في هذا المجلد توطئة «من حبّ لسوان».
(٣) «**جان صانتوي**» يسبقه «**المسرات والأيام**»، طبعة من وضع بيير كلاراك بالتعاون مع إيف صاندر، مكتبة البلياد، ١٩٧١.

رواية؟ ربّما كان أقلّ وأكثر بكثير، إنّه جوهر حياتي بذاته، وقد جُمِعَ دون أن يخالطه شيء من ساعات التمزّق هذه التي يسير فيها»، هذا ما جاء في مشروع المقدّمة غير المنجز الذي وضعه الناشرون في مستهلّ الرواية[١]. وتتضمّن الجملة التالية السبب الرئيسيّ للفشل المقبل: «لم يوضع هذا الكتاب في يوم، بل جُمع، وليس ذلك التماس عذر عن كسلي». وهذا التجميع يضع عدداً كبيراً جدّاً من المقطوعات المختلفة بعضها إلى جوار بعض وقد سطّرت تارة على ورقات طيّارة وطوراً على صفحات دفتر[٢] ويبقى له أن يخرجها وينظمها ويربط ما بينها. لقد رقّم بروست نفسه بعض الفصول، زهاء مئة صفحة من الطبعة غير متعاقبة. إن معظم عناوين الفصول المنشورة ليست من وضع بروست، ولا حتى العنوان العام، وسوف نرى أن عناوين «**بحثاً عن الزمن المفقود**» التي تفرض نفسها الآن بهذا القدر من البداهة ستكون موضوع بحث طويل ومتردّد ومتأخّر. لقد صُنّفت هذه المقاطع، لا على يد المؤلّف، بل على يد الناشرين، طبقاً لمبدأين: «عمر «جان صانتوي» والموضوعات المطروقة. وهكذا تلملم الطفولة ومطارح الإقامة «إيلييه» و«بيغمْيل» و«ريفييون» ومدينة الحامية العسكرية، ثم الأحداث السياسيّة كفضيحة ماري وقضيّة دريفوس وحياة المجتمعات والحبّ وشيخوخة الأبوين، الصحفات المخطوطة لما سبق أن كان محض مسوّدة تتراكب فيها المقاطع وينتسخ بعضها بعضاً وتتناقض وتبدّل أسماء الأماكن والشخوص كما هو الأمر بعد ذلك في دفاتر ترسيمات «**بحثاً عن الزمن المفقود**».

فمنذ سنة ١٩٠٨-١٩٠٩ يعود بروست إلى «**جان صانتوي**» فيعيد قراءته بل ويعيد نسخه؛ فلا سبيل إذاً للدهشة من أن نعود فنلقى في «**بحثاً عن الزمن المفقود**» موضوعات وأشخاصاً ومشاهد برمّتها. لقد جرى

(١) «**جان صانتوي**»، الطبعة الآنفة الذكر، ص ١٨١.

(٢) مارسيل بروست: **مراسلات**. وضع النصّ وقدّم له وعلّق عليه «فيليب كولب»، دار بلون - مجلد ١٩٧٦/٢، ص ١٢٤.

جردها[1] والطبعة الحاضرة تشير إليها. وإن ما دعاه المؤلّف نفسه «الفصل الأول»، وهو توطئة لرواية كلاسيكيّة تعيد رسم الظروف التي مكّنت صديقين من التقاء الكاتب ج. صاحب المخطوطة إنّما يوفّر معلومات ثمينة حول الطريقة التي يكتب بها بروست: «قطرات من المطر تشرع بالهطول وشعاع للشمس يعود للظهور كانت كافية لتذكّره بفصول خريف ماطرة وفصول صيف مشمسة وفترات كاملة من حياته وساعات مظلمة في نفسه تنجلي آنذاك، كافية لينتشي بها ذكرى وشعراً. فكم مرة شاهدناه حينذاك وأنا أختبئ مع صديقي. كان يبدو وكأنّه ينظر قبالته إلى شيء لا يفهمه تماماً، ويبدو أن كامل جسمه، بسلسلة من الحركات القويّة والدقيقة، ولا سيّما لليدين اللتين تنغلقان بشدّة في حين يرفع رأسه، كان يقلّد الجهود التي يبذلها فكره. وفجأة كان يبدو فرحاً وقد جهز للكتابة»[2]. فالذكرى والتأمّل يولّدان الحكاية، كما هو شأن قطعة المادلين (المجدلية) الصغيرة والاحتلام قبالة أزاهير الزعرور في «**جانب منازل سوان**». وفي حين نجدهما في هذا المؤلف الأخير جزءاً لا يتجزأ من مغامرة البطل لا يُسْتَجْلَى معناهما الخفيّ استجلاءً كاملاً إلّا في ختام الرواية، فإن معناهما يُكْشَفُ هنا في الحال وكامل جماليّات «**جان صانتوي**» كائن في هذه الصفحات الأولى. وهكذا يقطع الكاتب سرد القصّة بفِكَر على طريقة بعض الروائيّين الإنكليز الذين أحَبَّهم فيما مضى حبّاً جمّاً»؛ وهكذا نراه يؤكّد، شأن بروست فيما بعد، أنْ ليس يحمل «أيّ ابتكار» ولا يسعه أن يكتب إلّا «عمّا سبق أن أحسّ به إحساساً شخصيّاً»[3]. أمّا الأسئلة التي تشغل بال «جان صانتوي» حينئذٍ والتي يقتضي حلّها، فيما يعتقد، حياة كاملة فسوف تكون تلك الموجّهة في كتابي «**ضدّ سانت بوف**» و«**الزمن المستعاد**»: «[. . .] ما هي الصلات الخفيّة والتحوّلات اللازمة الكائنة

---

(١) ميريّي مارك ليبيانسكي: «**مولد عالم بروست في جان صانتوي**»، نيزيه ١٩٧٤.
(٢) «**جان صانتوي**»، الطبعة الآنفة الذكر، ص ١٨٦.
(٣) المرجع نفسه، ص ١٩٠.

بين حياة الكاتب ومؤلفاته، بين الواقع والفنّ، أو بالأحرى كما كنّا نعتقد آنذاك بين مظاهر الحياة والواقع نفسه الذي يشكّل خلفيّتها الدائمة والذي استخلصه الفنّ»[1]. هذه الملاحظات سوف تلد «بيرغوت» و«إيلستير» و«فانتوي» الذين يميّز بروست بصددهم بعناية بين الحياة والأعمال، ونظرتهم الجماليّة القائمة دوماً على البحث عن الجوهر خلف المظهر.

إنّ سيرة «جان صانتوي»، مثلما يروي بروست بوساطة الكاتب ج.، تبشّر بسيرة الراوي في «**بحثاً عن الزمن المفقود**». إن مشهد قبلة المساء وألعاب العشّاق في «الشانزيليزيه» و«العطلة في إيلييه» والقراءات والمصباح السحريّ والنزهات ويوم الأحد إنّما هي مذ ذاك «**جانب منازل سوان**» والإقامة في «بيغ ميل» تبشّر بـ«بالبيك» التي «**في ظلال ربيع الفتيات**»، وقطارها الصغير بالقطار في «**سادوم وعامورة - ٢**». أمّا «**جانب غيرمانت**» ففي طور النشوء في القسم المخصّص لآل «ريفييون» والصفحات حول المدن ذات الحاميات وقضيّة «دريفوس» وحياة «جان» الاجتماعيّة. وفي هذا الكتاب، وهو أوفر ثراء بالرسوم الشخصيّة منه بالدسائس، وأكثر جموداً منه روائيّة، تكثر الترسيمات لشخوص اسْتُعِيْدَتْ في «**بحث عن الزمن المفقود**»؛ فالديبلوماسي «دوروك» يبشّر بـ«نوربوا»[2]، و«بيرتران دو ريفييون» بـ«روبير دو سان لو»[3]، والروائي العبقري «تراف» بـ«بيرغوت» و«روستنلور» بـ«لوغرانداان». ويتّفق لـ«جان» أن يكتب: «ما إن يجلس أمام ورقته حتى يكتب ما لم يكن يعرفه بعد، ما كان يوجّه له الدعوة من خلف الصورة التي يختبئ وراءها (والذي ما كان في شيء رمزاً)، لا ما ربّما بدا له بالمحاكمة العقليّة ذكيّاً وجميلاً»[4]. «إن

---

(١) «**جان صانتوي**»، الطبعة المذكورة آنفاً، ص ١٩٠.
(٢) المرجع نفسه، ص ٤٣٦ - ٤٤٦.
(٣) المرجع نفسه، ص ٤٤٧ - ٤٥٥.
(٤) المرجع نفسه، ص ٧٠٣.

سرّ الفنّ كامن في انطباع تختصره صورة، لا في قوّة المحاكمة العقليّة ولا في الذكاء، وهذا شيء يشبه مذ ذاك «**ضدّ سانت بوف**»، وبروست الذي يتنازعه الإحساس والتفكير، الشعر والتجريد. إن القسم الذي يتضمّن الصفحات التي تعالج الحبّ(١) مسوّدة لِـ«من حبّ لسوان»، ولا سيّما مشهد «الجملة الصغيرة» وهي هنا لـ«سان صانس»(٢)، والبحث عن الغيرة وعلاقات البطلة الجنسيّة الشاذّة. أمّا مرور الزمان فيبرز في المقطوعات المخصّصة لشيخوخة والدي «جان صانتوي» بعد مرور عشرين عاماً على بداية الرواية(٣) والتي يبدو أن بروست أراد بها بالأحرى أن يتّقي موت والديه أكثر من أن يكتب «رقصة رؤوس»، كما هي الحال في الدفاتر التي تهيّئ لِـ«**الزمن المستعاد**». إن الانخطافات بالذاكرة، وهي الجانب الإيجابي في «**الزمن المستعاد**»، ماثلة على وجه الخصوص حينما تذكّر عاصفة في «ريفييون» بمقاطعة «بريتانيا» وتكشف واقعاً جديداً، «واقعاً هو ذاك الذي لا نحسّه بينما نعيش اللحظات لأنّنا نردّها إلى هدف أنانيّ، ولكنّه خلال هذه العودات المفاجئة في الذاكرة المتجرّدة يجعلنا نطفو بين الحاضر والماضي في جوهرهما المشترك الذي يذكّرنا بالماضي في الحاضر، هذا الجوهر الذي يشبع فينا الاضطراب بما هو نحن [. . .]»(٤).

في مقابل ذلك لن تستعاد بعض المشاهد في «**بحثاً عن الزمن المفقود**». إنّها دراسة «جان» في تجهيز هنري الرابع وفي مدرسة العلوم السياسيّة، وشجار عنيف بين «جان» ووالديه، والرواية المباشرة لقضيّة دريفوس والدعوى ضدّ «زولا»، وكلّها موجودة في «**جانب غيرمانت**» تلميحاً وانعكاسات وأقوالَ شخصيّات لا أكثر، وبعض الأماكن التي ذهب

---

(١) «**جان صانتوي**»، الطبعة المذكورة، ص ٧٤٥ - ٨٣٥.

(٢) المرجع نفسه، ص ٨٤٢ - ٨٤٤.

(٣) المرجع نفسه، ٨٦٤ - ٨٧٩.

(٤) المرجع نفسه، ص ٥٣٧.

مكتبة
t.me/soramnqraa

إليها بروست، مثل «بيغ - ميل» وضفاف بحيرة «ليمان». ونلاحظ أنّ الأمر يتناول دوماً مشاهد سيرة ذاتية لم تخضع بعد على صعيد الشخصيّات للحبكة ولوهم التخييل. ذلك أحد الأسباب الداعية إلى تخلٍّ كبير، التخلّي عن هذا الكمّ من الصحفات: لقد كان بمقدور بروست، بين الخامسة والعشرين والثلاثين من عمره، أن يروي قصّة حياته وانطباعاته، لا أن يزوّدها ببنية إجماليّة ومبدأ مُنظِّم. فليس «**جان صانتوي**» قصّة حياة بعثتها الذاكرة ولا قصّة رسالة في الحياة، فالذكرى والآداب ليست مميَّزة ههنا ولا تعدو كونها موضوعات كغيرها من الموضوعات.

ثمّة سبب آخر يفسّر اللاإنجاز في «**جان صانتوي**»، ولا بدّ لإدراكه من أن تبرز في جمل المؤلف، في أسلوب المؤلّف مميّزاته، ؛ لأن كلّ هذه الفراغات الواجب ردمها وكلّ صنوف الصمت الواجب ملؤها إنّما تشير إلى عمر بروست المقبل. نلاحظ بادئ الأمر هوامش تحديد المكان والإخراج، وهي شواهد على التردّد: «في آخر مشهد السيّد «وورمز». إن لم يبدُ ذلك إلى حدّ بعيد شبيهاً بمجموعات رسوم شخصيّة وضعت الواحد تلو الآخر»، ربّما انبغى أن نقول قبل ذلك [. . .]»، «محاولة إقامة تعارض بين [. . .]»، «ربّما انبغى أن نضع قبل سُكْر «أونوريه» [. . .]»، «جَعْلُ هذا الأمر [. . .] في رواية أول يوم ماطر في «الشانزيليزيه»، «حواشٍ لبدايات الحبّ»[١]. فالمؤلّف متردّد مذ ذاك حول موضع الملاحظات والأحداث في البنية الإجمالية لأنّه يسطّر وحدات قصيرة، مع احتمال أن يضع أحياناً ترسيمة لبعض تصاميم كذاك الذي يستلهم «التربية العاطفيّة»[٢] (L'Education sentimentale). وأكثر منها الأجزاء اللامكتملة بداعي الرقابة الأخلاقية والتي تتوقّف بانقطاع غريب: «جرى قبل ذلك في منزل «دالتوزي» مشاهدة «جان» لصورة أمّه الفوتوغرافية.

---

(١) «**جان صانتوي**»، الطبعة المذكورة، الصفحات على التوالي: ٤٤٣، ٤١٣، ٤٢٣، ٦٨٤، ٦٧٤، ٨٢٤.

(٢) المرجع نفسه، ص ٨٣٠.

ويفكّر، ذات يوم يقوم فيه «هنري» بعرضها عليه على هذا النحو في الوحل، بالنظرات التي ستسدّدها إليه أمّه من علٍ. إنّها تجهل كلّ ذلك! فيقسم أن لا يعرّض أمّه في يوم لتأمّل من هذا القبيل»[١]. لن يتناول بروست هذا المشهد إلّا في «كومبريه» وهو يقدّم لنا الآنسة «فانتوي» وصديقتها. أمّا واقعة راهبة «انفرس» الماجنة فلا خاتمة لها: «ههنا كان يكمن السرّ، وهو الآن لا يُجدي، سرٌّ ما ينفخ اللّه به الحياة، بعيوب لن توفّر له كلّ يوم إلّا قسطاً أقلّ من المتع، ولكنما...»[٢]. وتنتهي زيارة إلى أحد بيوت الدعارة وكذلك باستذكار راهبة ونقاط وقف[٣].

بعض اللفظات يسبّب القطع، وفي مقدّمتها «و»[٤]. إن المقفز، إن الارتداد الذي سيحلّله بروست في عام ١٩٠٩ في دراسة عن «فلوبير» لم يعمل. الأغرب من ذلك أن المفعول به المباشر هو الذي يغيب أحياناً[٥] حتى الجملة الأخيرة في الطبعة المنشورة غير مكتملة هي الأخرى في حين تبحث أو هي لا تفلح في بحث موضوع الذاكرة. هذا التوقّف في لحظات عصيبة إنّما يذكّر، في آخر رواية غير مكتملة لِـ«هنري جيمس» بعنوان «**معنى الماضي**»، بالتوقّف التالي «عليه قبل كلّ شيء أن يرى [ ]» هنالك موضوعات تتسبّب كذلك بهذه الانقطاعات. فتارة يتوقّف تراكم الصفات[٦]، في حين تجري متابعة أثرها الساحر ويتمّ بلوغ هذا الأثر في «**بحثاًعن الزمن المفقود**». وهكذا يفشل في الغالب التحليل النفسي. إليك مثلاً بشأن ذكاء القادة العسكريّين: «كان يصغي، يهزّه الطرب، إلى

(١) «**جان صانتوي**»، الطبعة المذكورة، ص ٨٤٨.
(٢) المرجع نفسه، ص ٨٥٠.
(٣) المرجع نفسه، ص ٢٤٢.
(٤) المرجع نفسه، ص ٢٠١، ٢٤٥، ٦٠٠، ٦٥٩، ٦٩٣، ٨٧٨ على سبيل المثال.
(٥) المرجع نفسه، ص ٢٨٠.
(٦) المرجع نفسه، ص ٥٣٩.

تفاصيل من هذا القبيل: «إنّه لا [ ]»[١]، والتفصيل لن يرد كذلك في «**جانب غيرمانت -١**» الذي يُسْتَفَادُ فيه هذا النصّ. أو أن العبارة يستحيل إيضاحها: «كانت آلة التشيلو تعبّر عن [ ]»[٢]. وأحياناً يتوقّف بروست عندما يشير به إلى التوقّف: «مثل حلم [توقّف (ويشطبها)]»[٣]. لقد حمل الحلم الكاتب على التراجع وهو أراد بادئ الأمر قطعه ثمّ ظلّ على قطع الانقطاع. كذلك استذكار الكسل يمكن أن يكون قاضياً: «كان خموله المعتاد [ ]»[٤]. فإن قمنا بجرد النصوص غير المكتملة في «جان صانتوي» لقينا بادئ الأمر المقاطع الوصفيّة: «لقد تعرّف هذه الشمس التي ما كان يُشَاهَدُ [شكلُها (ويشطبها)] [كرتُها (ويشطبها)] ولكنّها كانت محتجبة»[٥]، ولا سيّما حينما يهيج المنظر الذكرى: «كان لديه شعور بـ [ ]» «تعطّره ذكرى [ ]»، أو كما «لو أن روح هذا الزمن كانت ترفرف في حدائق مماثلة حيث تبادر الفراشات في الساعة الدافئة نفسها إلى [ ]»[٦]. ثمّة أمثلة كثيرة[٧] تكشف عن معرفة غائبة ونواقص في كفاءة الكاتب وخياله. وهناك نصوص أخرى غير مكتملة وهي جماليّة، وترتبط بالذكرى أيضاً: «لا بدّ لي بعد انقضاء فترة طويلة على الصدفة من [ ]»؛ وبالتماثل: «إنه يش- (بهه) [ ]»؛ وبالعذاب: «آلام كنت [ ]»[٨]. وعلى وجه الخصوص حينما يستمع دوق «إيتامب» وزوجته لرباعيّة سيزار فرانك فيلقيان فيها الماضي فإذا باللحن ينقطع مثلما تنقطع

---

(١) «**جان صانتوي**»، الطبعة المذكورة، ص ٥٤٣.
(٢) المرجع نفسه، ص ٥٥٨.
(٣) المرجع نفسه، ص ٥٦٠ الحاشية ١.
(٤) المرجع نفسه، ص ٧٠٧.
(٥) المرجع نفسه، ص ٣٨٦ والحاشية ٣.
(٦) المرجع نفسه، ص ٢٩٧، ٣٥٣، ٤٧٣.
(٧) المرجع نفسه، ص ٤٧٣، ٥٣١، ٦٤٨، ٨٠٧.
(٨) المرجع نفسه، ص ٤٩٠، ٢٠٠ (نردّ الجزء الناقص في الكلمة)، ١٩٠.

رواية لحظات الانخطاف[1]. يجري كل شيء وكأن استذكار بعض الموضوعات يوقف السرد ويصطدم بعقبة خفيّة ويلتقي بما يمتنع على القول. وتحتفظ رواية غير مُسْتَكْمَلَة ومخطوطة أوقف البحث في أمرها جزئيّاً بآثار هذه الانغلاقات في اللغة والفكر. تلك هي المعركة نفسها التي سيخوضها الكاتب طوال حياته وفي سائر مؤلفاته إلى أن يفلح في ملء جميع فراغات اللغة. في عام ١٨٩٩ يدع بروست جانباً أهمّ ما يشغله في «**جان صانتوي**» ويباشر ترجمة مؤلّف لـ«جون راسكين» يضع له عنوان «كتاب آميان المقدّس» ويقدّم له بدراسة.

وفي ٥ كانون الأول (ديسمبر) وفي واحدة من نجاواه القليلة حول «**جان صانتوي**» يكتب لِـ«ماري نوردلينغر»، وهي ابنة خال إنكليزيّة لِـ«رينالدو هان» ستمدّ له يد العون في ترجماته، يكتب قوله: «إنّي أعمل منذ زمن طويل جدّاً في كتاب يقتضيني أعظم الجهد والوقت، ولكن دون أن أُنجز شيئاً. وتمرّ بي لحظات أتساءل فيها إن كنت لا أشبه زوج «دوروثي بروك» في «ميدلمارتش» وإن كنت لا أجمع الخرائب. إنّي أهتم منذ قرابة خمسة عشر يوماً بعمل يسير، يختلف تمام الاختلاف عمّا أفعله بعامّة، حول «راسكين» وبعض الكاتدرائيات»[2]. هذه الرسالة تتضمّن كلّ شيء: الإعلان عن التخلّي عن «**جان صانتوي**»، وبداية عمل جديد، والهاجس الكبير الذي يشغل مارسيل بروست. إن السيّد «كازوبون» في رواية «جورج إيليوت» يؤلّف مثله مقطوعة فمقطوعة، وبطاقة فبطاقة ثم يقوم بجردها على دفتر صغير ولا يفلح في تصنيف أيّ شيء ويخلّف لدى مماته هذه الكومة من الخرائب[3]. إن أبحاث بروست حول «راسكين»

---

(١) «**جان صانتوي**»، الطبعة المذكورة، ص ص ٧٢٥، ٨٧٠.

(٢) **مراسلات**، مجلد، ص ٣٧٧.

(٣) قارن بـ«**جان صانتوي**»، الطبعة المذكورة، ص ٤٨٩: «نحن نشبه، في عملنا على وجه الخصوص، نشبه جميعاً إلى حدٍ ما السيّد «اكزوبون» في «**ميدلمارتش**» الذي عمل طوال حياته في سبيل آثار أدبية عبثيه لا طائل تحتها.

تقرن به الكاتدرائيات منذ البداية، وذلك أمر طبيعيّ بشأن كتاب حول «آميان». وليس بروست من أدخل الكاتب الإنكليزي إلى فرنسا، بل «روبير دولا سيزران» بكتابه «**راسكين ودين الجمال**» الصادر عام ١٨٩٧، فهناك مقطع في مقدّمة «**كتاب آميان المقدّس**» يشهد بذلك، وقد جرى حذفه في الطبعة الصادرة: «كان راسكين قد انتزع، عبر كتاب السيّد «دولا سيزران» الرائع، السلطان على خيالي من يدي «إيمرسون» أو «فلوبير» أو «جورج إيليوت»، لست أدري مِنْ بعد، وكان يبسط آنذاك سلطته منذ بعض الوقت. إن الرجل العظيم آنَ يبسط كامل سلطانه علينا إنما هو بمثابة وسيط بين الواقع وبيننا»(١). وسيظلّ بروست دوماً بحاجة إلى شفيع، إلى من يضع قدمه على الطريق، إلا أنه سيمضي حينذاك أبعد من أي شخص آخر. ولسوف يعي، إذ يعيد خلق فكر «راسكين»، تمام الوعي فكره الخاصّ ويضعه في دائرة الضوء. وهكذا نرى أن مقدّمة «**كتاب آميان المقدّس**» التي تتألّف على أيّ حال من مقالات صدرت في وقت سابق، وهذا مثال جديد على التوليف، تنفصل عن المؤلّف، بعدما تبعته عن كثب، لتندّد في تعقيب لها بالوله الراسكيني الذي يخلط بين الجمال والحقيقة. ويمكننا أن نلحظ في هذه المقدمة ما يشبه الرواية الصغيرة الفكريّة، إذ يروي الفصل الأول أو المقالة الأولى بعنوان «سيّدة آميان بحسب راسكين» عن رحلة لبروست إلى «آميان»، ويتناول الثاني، بعنوان «جون راسكين»، الرجل العبقري فيما تطلع من هذا النصّ شيئاً فشيئاً جماليّة بروست الشخصيّة وفيها يعارض آنذاك عالم الجمال البريطاني بقوله: «لا، لن أجد اللوحة أوفر جمالاً لأن الفنّان رسم زهرة زعرور في مقدّمة اللوحة، مع أنّني لا أعرف شيئاً أكثر جمالاً من الزعرور، لأنّي أودّ أن أكون صريحاً ولأني

---

(١) «**ضدّ سانت بوف**»، يسبقه «**معارضات وأخلاط**»، ويليه «**دراسات ومقالات**»، طبعة وضعها «بيير كلاراك» بالتعاون مع «إ. صاندر»، مكتبة لابلياد، ١٩٧١، ص ٧٢٤.

أعلم أن جمال اللوحة لا يرتبط بالأشياء الممثّلة فيها»[١]. على أنّ بروست يرينا، إذ يستعيد قصّة مسيرته الروحيّة التي قطعها بفضل «راسكين»، كيف أعانه هذا الأخير على أن يفهم لا الفنّ القوطيّ فحسب، بل إيطاليا. ويذكر إذ ذاك رحلته إلى البندقيّة التي سيسندها للراوي في «اختباء ألبيرتين» والتي مكّنته من رؤية «أفكار راسكين حول فنّ العمارة المنزلية في العصر الوسيط»[٢] وقد تجسّدت في الحجر.

نلاحظ التقدّم الحاصل منذ المؤلفات الأولى. إن بروست في طور التزوّد، بين ١٩٠٠ و١٩٠٥، وهو تاريخ إنجاز ترجمته الثانية بجماليّة سوف تتعمّق ولكنّها لن تبدّل في مبادئها من بعد. إن الفنان يتعلّم كيف ينظر إلى العالم، أمّا الاستغناء بالذات عن كلّ تأثير فيعني ألا نصادف إلّا الفراغ. إن الناقد قد يصبح كاتباً بالخضوع لفكر وفنّ خارجيّين: أضف أنّ «موضوع الروائيّ ورؤية الشاعر وحقيقة الفيلسوف إنّما تفرض نفسها عليهم بطريقة تكاد تكون ضروريّة وخارجة عن فكرهم، إن جاز القول. وإنّما يصبح الفنّان ذاته حقاً بإخضاع فكره لردّ هذه الرؤية والاقتراب من هذه الحقيقة»[٣]. إن بروست وراسكين إنّما هما حياةُ وموتُ هوى بعثته فيما بعد الذاكرة الإراديّة التي تفضح مقدّمةُ **«كتاب آميان المقدّس»** قصورَها لأنّها بالضبط إراديّة. وربّما وجد نقد استشرافي في هذا النصّ إذن وفي راسكين، وقد أصبح من شخوص بروست، «إيلستير» و«بيرغوت» وكنيسة «بالبيك»، التي ستستكمل ويعاد النظر فيها تحت تأثير «إميل مال»، والرحلة إلى البندقيّة؛ وقد يلاحظ أن جلّ الآثار القوطيّة واللوحات الإيطالية التي يحكي عنها **«بحثاً عن الزمن المفقود»** سبق أن علّق عليها

---

(١) **«معارضات وأخلاط»**، الطبعة المذكورة، ص ١٣٧، وتعيد هذه الطبعة نص مقدّمة بروست لـ«كتاب آميان المقدّس» (ميركور دو فرانس ١٩٠٤).

(٢) المرجع نفسه، ص ١٣٩.

(٣) المرجع نفسه، ص ١٤٠ - ١٤١.

بادئ الأمر واستنسخها راسكين، ولكنّ التبحّر في العلوم يتوقّف حيث يبدأ الإبداع الروائيّ: ويتحوّل معنى هذه الآثار.

وبعد انقضاء عامين يبشّر كتاب «**سمسم والزنابق**» في مقدّمته بِـ«كومبريه» الغد. إن كتاب راسكين يدور حول القراءة. وينتهز بروست بمناسبته الفرصة لاستذكار قراءاته الطفوليّة في إثناء العطلة بتحسين بعض صفحات «**جان صانتوي**»؛ أمّا الموضوعات واستعمال ضمير المتكلّم فتنبئ بِـ«**جانب منازل سوان**». ولئن استطاعت الكتب القديمة استذكار الماضي الذي يطلع فجأة وسط الحاضر من خلال ظاهرة الذاكرة اللاإرادية، شأن «فرانسوا لو شامبي» في «**الزمن المستعاد**»، فإن القراءة تقودنا إلى عتبة الحياة الروحية ولكنّها لا تؤلّفها. وهذه المقدّمة التي أصدرتها مجلّة «**النهضة اللاتينيّة**» في حزيران (يونيو) عام ١٩٠٥ ونُشِرَتْ ثانية في جزء خاص في أيّار (مايو) ١٩٠٦، أعيد إصدارها في «**معارضات وأخلاط**» عام ١٩١٩ بعنوان «**أيّام قرائيّة**»[١]؛ وإنّما يعني ذلك الأهميّة التي يوليها إيّاها مؤلّفها. وهو إلى ذلك قد ضرب فيها صفحاً عن الماضي وعن راسكين الذي يودّعه، إذ لا بدّ له من الاختيار بين القراءة والكتابة، بين آثار الغير وآثاره الخاصّة: «لسنا نستطيع تطوير قوّة إحساسنا وإدراكنا إلا داخل ذواتنا وفي أعماق حياتنا الروحيّة»[٢]. إن بروست يتّخذ لنفسه من نفسه مرجعاً، أي من الإبداع الروائيّ. لقد فشل في الهروب داخل أعمال آخر سواه ونجح في آن معاً لأنه كوّن عقله ووسّع ثقافته، بما أن تزويد كتب راسكين بالحواشي يشهد على ضخامة الجهد التوثيقيّ، ويغني لغته. فالقلم الذي باشر به «**جان صانتوي**» يكاد لا يشبه القلم الذي يخطّ أوّل سطور «**حول القراءة**»: «ليس ثمة أيام في طفولتنا عشناها تمام العيش كتلك التي ظنّنا أننا تركناها دون أن نعيشها، تلك التي قضيناها بصحبة

(١) احتفظ بهذا العنوان في الطبعة المذكورة، ص ١٦٠.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٨٩.

كتاب هو الأفضل عندنا»[١]. والجملة التالية تتطاول حتى لتشغل اثنين وعشرين سطراً وقد أُثْقِلَتْ بأحاسيس زالت وصور وبُنِيَتْ على وجه الخصوص، وقد نُضّدَت جملاً تابعة ومعطوفة، وفق قواعد الجملة اللاتينيّة والبلاغة والكلاسيكيّة وجمل «**بحثاً عن الزمن المفقود**» الطويلة، هذه الجمل التي تقودك على نحو لا يرحم، ولكن دونما إرهاق، إلى درج واسع نبلغ قمّته دهشين مأخوذين لإرسال النظرة النهائية التي تحتضن الأفق بكامله.

لقد زوّد «راسكين» بروست إذن، عبر الفعل وردّ الفعل، بفرصة تحديد الجماليّة التي تنقصه وتغذيه هذه المكتبة التي يملكها أقلّ الناس هواية للمجموعات، لا في شقته، بل في عقله. إن هذا العمل يجعلك تستشعر هيكليّة «**بحثاً عن الزمن المفقود**»، لأن «**جان صانتوي**» كان يحمل معه وهم الرواية الشخصيّة، فيما تحمل الترجمتان جزءاً من الفكرة التي تتناول الفنّ والتي سنلقاها في «**الزمن المستعاد**». لقد سبق أن ساور بروست في عام ١٩٠٢ إحساس قويّ بالحاجة إلى إعادة الرواية وذلك حينما كان يكتب لـ«أنطوان بيبسكو» قوله: «كلّ ما أقوم به ليس عملاً حقيقياً، بل توثيق فحسب، ترجمة، إلخ... وذلك كافٍ ليوقظ تعطشي إلى الإنجازات دون أن يرويه شيء بالطبع. وبما أنني منذ هذا الحذر الطويل أدرت للمرّة الأولى ناظريّ إلى الداخل باتجاه فكري، فإنّي أحسّ بكامل عدميّة حياتي، وثمّة مئة من شخوص الروايات وألف من الفِكر تسألني تزويدها بجسد كتلك الأشباح التي تسأل «أوليس» في «**الأوديسّة**» أن يسقيها قليلاً من الدم ليمضي بها إلى الحياة، فيبعدها البطل بسيفه»[٢].

---

(١) «**معارضات وأخلاط**»، الطبعة المذكورة، ص ١٦٠.

(٢) **مراسلات**، المجلّد ٣، ص ١٩٦. قارن بالرسالة التي من عام ١٩٠٣. «**معارضات وأخلاط**»، الطبعة المذكورة، ص ٢٦٦ التي يحدّث بروست فيه أمّه عن «بعثه الحقيقيّ».

كان بروست يبدو في تلك الفترة التي ينجز فيها «**كتاب آميان المقدس**» على أتمّ الاستعداد للانصراف مجدّداً إلى الرواية. ولكنه يفضّل فيما بعد الالتفاف إلى «**سمسم والزنابق**»، بيد أن والدته تفارق الحياة في ٢٦ أيلول (سبتمبر) ١٩٠٥. ويحلّ إذ ذاك الحداد والصمت وخمول يكاد لا يقطعه تصحيح الترجمة الثانية لراسكين. ولسنا نملك، بشأن مشروع آخر ينبئ بمشهد رئيسيّ في «**جانب منازل سوان**»، لسنا نملك من شهادة سوى رسالة يشبه مضمونها مشهد «مونجوفان» بين الآنسة «فانتوي» وصديقتها و«اعتراف فتاة» في كتاب «**المسرات والأيّام**». والأمر يدور حول مسرحية يفكّر بروست بكتابتها مع المؤلّف المسرحي «رونيه بيتر» صديقه وصديق «دوبوسّي»: ثمّة رجل يعبد امرأته؛ ولما كان ساديّاً فإنّه «يصادف متعة في توسيخ مشاعره الطيّبة الخاصّة. وإذ الساديّ بحاجة دائمة إلى ما كان أشدّ وقعاً فإنّه يبلغ به في النهاية أن يوسّخ امرأته في حديثه» إلى مومسات، و«أن يحمل على قول السوء بحقّها وأن يفعل بدوره (ويتقزّز اشمئزازاً من فعلته بعد خمس دقائق). وفيما هو يتحدّث على هذا النحو ذات مرّة تدخل زوجته إلى الحجرة دون أن يسمعها فلا تستطيع تصديق ما تسمع وترى وتسقط. ثمّ تهجر زوجها» ويقتل نفسه(١).

ولأن سبق له أن نوى آنذاك تأليف مسرحيّة فسيسعه أن يكتب في «**جانب منازل سوان**»: «إنّما يستطيع المرء على ضوء خشبة مسارح الشارع أكثر منه على ضوء مصباح منزل ريفيّ حقيقي أن يرى ابنة تحمل صديقتها على أن تبصق على رسم والد لم يعش إلّا من أجلها، وليس ثمّة سوى الساديّة تقريباً ما يعطي أساساً في الحياة لجمالية للميلودراما»(٢).

وإنّما يعود بروست أيضاً إلى الكتابة في كانون الثاني (يناير) ١٩٠٧ تحت شعار الفاجع والمحظور، وكان بدا أنّه توقّف عن التأليف منذ وفاة

---

(١) **مراسلات**، المجلد ٦، ص ٢١٦ رسالة مؤرّخة في أيلول (سبتمبر) ١٩٠٦ إلى «رينالدو هان».

(٢) «**جانب منازل سوان**»، ص ١٦١.

والدته. والانطلاقة الجديدة عنوانها «المشاعر البنويّة لقاتل أبيه». إنّه يزوّد النصّ للمرّة الأولى بوحدة دائريّة «لأن لفظة قاتل الأب هذه التي افتتحت المقال كانت تختتمه، وقد فُرضَ على المقال من جرّاء ذلك نوع من الوحدة»[1]، يقول بروست في كتابه لمدير صحيفة «**الفيغارو**» الذي أوعز باقتطاع آخر فقرة منه. إن حركة سير هذه الصفحات التي سطّرت على مدى بضع ساعات، وهي لذلك أكثر إيحاءً، إنّما هي حركة سير ذاكرة الراوي الذي يتذكّر والديه وعائلة قاتل أبيه «هنري فان بلارنبيرغه» بالصورة التي سيظهر أمامنا فيها شخوص «**بحثاً عن الزمن المفقود**» أي «اللقطات الآنيّة». إن عيني من يتذكّر تمثّلان «مناظير العالم اللامرئي»: إنك لتحسّ أفضل الإحساس، وأنت ترى النظرة التي تنشدّ للذكرى، النظرة المتعبة من كثرة مطابقتها لأزمان شديدة الاختلاف، وفي الغالب مغرقة في البعد، نظرة الشيوخ الصدئة، إنّك لتحسّ أحسن الإحساس أن مسيرتها التي تجتاز «عتمة الأيّام»[2] المعيشة سوف تحطّ على بضع خطوات أمامهم، فيما يبدو لك، وهي في الواقع على مدى خمسين أو ستين عاماً إلى الوراء». ذلك لأنّ هذه النظرة، كمثل نظرة الأميرة «ماتيلد» التي يذكرها بروست ههنا كانت تقرن، بنوع من النشاط الانبعاثي، الحاضر بالماضي»[3]. ويعقب حركة الذكرى استذكارُ اليَقَظَة، وهي الانطلاقة الحقيقيّة لبروست إن نحن فكّرنا بافتتاحيّة «**جانب منازل سوان**» و«**جانب غيرمانت**» و«**السجينة**» وقراءة «**الفيغارو**» التي تليها تبشّر في الآن نفسه بقراءة «**ضد سانت بوف**» و« **البيرتين المختفية**» والمتعة التي تجنيها السيّدة «فيردوران» في أثناء الحرب من قراءة بعض الكوارث وهي تأكل قطعة «كرواسّان». حينما

(١) **مراسلات**، المجلّد ٧، ص ٥٣، رسالة مؤرّخة في ١ شباط (فبراير) ١٩٠٧ إلى «غاستون كالميت».
(٢) عنوان أحد كتب الكونتيسّة «دو نُواي».
(٣) «العواطف البنويّة لقاتل أبيله»، «**معارضات وأخلاط**»، الطبعة المذكورة، ص ١٥٢.

يكتشف بروست الحدث اليوميّ التافه فإنه يقرأه على ضوء المأساة اليونانيّة، «أجاكس» أوّلاً ثم «أوديب ملكاً»: وإذ تُنْتَزَع إحدى عيني القاتل بعد انتحاره، فإن بروست يتعرّف فيها، «في الحركة الأشدّ رهبة في ما أورثنا التاريخ من المعاناة الإنسانية، ذاتَ عين «أوديب» التعيس»[1]. إن بروست يقرأ الواقع، في عصر «فرويد» الذي ما كان يعرفه، على ضوء الخرافة والأدب والتبحر في العلم كذلك إذ هو يستقي معلوماته حول قتل الوالد قديماً من «دروس في **الأدب الدرامي**» لِـ«سان مارك جيراردان»:

أردت أن أبرز في أيّ جوّ من الجمال الأخلاقي الصافي العامر بعبق الدين تفجّر ذاك الجنون وذاك الدم الذي يلطّخه دون أن يقوى على تدنيسه. أردت أن أبدّل هواء غرفة الجريمة بنفحة تجيء من السماء وأن أبرز أن هذه الواقعة العادية كانت بالضبط واحداً من أعمال الدراما اليونانية التي يكاد تمثيلها أن يكون احتفالاً دينيّاً [. . .]»[2]. سيظلّ بروست، بعدما فكّ رموز العالم بواسطة راسكين والمأساة من بعده، بحاجة إلى «سانت بوف» و«بلزاك» و«بودلير» و«فلوبير» قبل أن يقرأ، أن يكتب إذن، بمفرده. ولكنّما تميط هذه المقالة اللثام، في ما كان أبعد من اللجوء إلى التأمّل الأدبيّ، وهو أمر طبيعيّ جداً بما أن الأدب يمكّن من إضاءة ليل العالم والنفس، عن فكرة حول الجنون والموت، ولا يستطيع بروست أن يؤمن بهما «دون مشقّة»، كما تكشف على وجه الخصوص، إذ هو يحتفظ بالجوهري للخاتمة، عن اعتراف: «إننا في الأساس نشيخ ونقتل كلّ ما يحبّنا بما نوليه من هموم وبالحنان المضطرب نفسه الذي نوحي به ولا ننفكّ نستثيره»[3]. إن رؤية انحطاط «جسد عزيز» والشعور بالذنب والرغبة في

---

(١) المرجع نفسه، ص ١٥٦ - قارن بالتذكير بنهاية «**الملك لير**» و«**الإخوة كارامازوف**» في المرجع نفسه، ص ١٥٧. أمّا «أوديب» فلن يجيء ذكره في «**بحثاً عن الزمن المفقود**» إلّا مقروناً بالبارون «دو شارلوس».

(٢) المرجع نفسه، ص ١٥٧.

(٣) المرجع نفسه، ص ١٥٨ - ١٥٩.

العقاب، كلّ ذلك سوف يُسْتَعَاد في «**سادوم وعامورة**» بشأن العلاقات بين الراوي وجدّته التي ينحي على نفسه باللائمة لموتها. وفي عام ١٩٠٧ تلقى بنية أقاصيص «**المسرات والأيّام**»، ولا تزال أدبيّة، حقيقتها الإنسانية لقاء رؤية لا تُطاق. إن جدلية الذنب والتكفير المشار إليها أيضاً في «**السجينة**» بصدد دوستيوفسكي والفداء عبر الأدب ستنظّم حياة الراوي الأخلاقية وتنجّيه في نهاية المطاف من الشعور الرهيب بأنّه قتل جدّته و«ألبيرتين».

وهنالك تدرّب أكثر خفاء توالى منذ الشباب على هيئة حواشٍ على القراءات ومقالات قصيرة ودراسات نشرها بروست في صحف ومجلّات أو احتفظ بها غير منشورة[١]، بعضها تحيّات موجّهة إلى أصدقاء أو معارف: «غاندراكس، شوليه، سوسين، رينييه، لوسيان دوديه، مونتسكيو، الكونتيسة دو نواي». وستعود بعض الخلاصات إلى تقديم شيء منها، وفق الطريقة التي عرضها بروست بشأن مدرسة «ميشليه» في «المشاعر البنويّة لقاتل أبيه»: [. . .] يمكن أن نتساءل إن كان «ميشليه» لم يقتصر في هذه الجملة على استخدام واحدة من «فضلات المطابخ» التي سرعان ما يمتلكها كبار الكُتّاب ويضمنون بها إمكان أن يقدّموا على نحو مفاجئ لزبائنهم المتعة الخاصّة التي يطالبونهم بها»[٢]. ولم يستعد بروست أيّة من هذه المقالات عام ١٩١٩ في كتابه «**معارضات وأخلاط**»؛ لقد كان يعلّق عليها إذن القليل من الأهميّة. ولكنّما ينبغي أن نؤكّد أهميّة «الصالونات الباريسيّة» التي نُشِرَتْ في «**الفيغارو**» بين عامي ١٩٠٣ و١٩٠٥ وتَقدّم وصفاً لصالونات الأميرة «ماتيلد» و«مادلين لومير» والأميرة «إدمون دو بولينياك»[٣] والكونتيسّة «دو صونفيل» والكونتيسّة «بوتوسكا»

---

(١) جمعت في «**دراسات ومقالات**»، الطبعة المذكورة، ص ٣١٦ - ٦٤٧.

(٢) «**معارضات وأخلاط**»، الطبعة المذكورة، ص ١٥٧ - ١٥٨.

(٣) التي سترفض التصريح لبروست عام ١٩١٨ بإهداء «**في ظلال ربيع الفتيات**» إلى روح الأمير (رسالة غير منشورة مؤرّخة في ١٣ آب (أغسطس) ١٩١٩ إلى السيّدة «لوماريه»).

والكونتيسة «دو غيرن». وما يسترعي الانتباه، علاوة على التشابهات الجزئيّة، إنّما هو اللجوء إلى تقنيّة سوف تكون تقنيّة «من حبّ لسوان» و«**جانب غيرمانت**» و«**سادوم وعامورة**» و«**الزمن المستعاد**» والكثير من الصبيحات والأمسيات التي تتضمّنها دفاتر المسوّدات والتي لن يستعيدها بروست جميعها في آخر صياغة لروايته.

قوام وظيفة الصالون جمع أرباب المجتمع والفنانين والكتاب. ولكلّ منها روّاده وقواعده وأهواؤه، وقد سبق أن أحسن «بلزاك» إبرازها إلى حدّ أن عارضها بروست في الصفحة التي يفتتح بها وصف صالون «لومير»(١). وهي مناسبة يغتنمها مؤلف «**جانب غيرمانت**» العتيد للدفاع عن نفسه إزاء اتهام يغلب ترداده: «جدير بالفنان ألا يخدم سوى الحقيقة. وألا يدين للمركز بأي إجلال. يجدر به فقط أن يأخذه في الحسبان في صنوف رسمه بما هو مبدأ تفريق، كالجنسيّة مثلاً والعرق والوسط. فلكلّ وضع اجتماعيّ أهميّته وربّما كان إبراز تصرّفات الملكة فيرّا في نظر الفنان كإبراز عادات إحدى الخيّاطات»(٢). «إن صالون صاحبة السموّ الإمبراطوري الأميرة «ماتيلد» يرينا هذه الأخيرة كما سنراها في «**بحثاً عن الزمن المفقود**» ببساطتها وممازحاتها وأصدقائها من الكُتّاب: «ميريميه» و«فلوبير» و«غونكور» و«سانت بوف» و«موسيّه» و«تين» و«رونان» و«هيريديا». وهناك حدث كامل، هو زيارة «نقولا الثاني»، يُسْتعادُ في مجلّد «**في ظلال ربيع الفتيات**»(٣). ويُعاد استخدام مشهد جنازة الأمير، نقلاً عن صالون الأميرة «إدمون دو بولينياك»، لتقوم مقام جنازة «روبير دو سان لو»(٤) والكونتيسّة

---

(١) «**دراسات ومقالات**»، الطبعة المذكورة، ص ٤٥٧.
(٢) صالون سمو الأميرة «ماتيلد»، المرجع الآنف الذكر، ص ٤٥١.
(٣) ص ٥٣٣.
(٤) «**دراسات ومقالات**»، الطبعة المذكورة، ص ٤٦٥ و«**الزمن المستعاد**» في القسم الرابع من هذه الطبعة.

«غريفّول» مقام دوقة «غيرمانت» وتُشَبَّهُ مثيلتها بالطائر[1] انطلاقاً من بيت شعر في مجموعة «مغانم النصر» (Les Trophées). ويستهلّ «صالون الكونتيسّة بوتوسكا» باستذكار «أسرار الأميرة دو كادينيان»، وهي من أعمال «بلزاك» التي يفضّلها بروست، إضافة إلى استذكار «محبس بارما» (La Chartreuse de Parme). إن الكونتيسّة سليلة «إينوصان الثاني عشر»، وهي مناسبة للاستشهاد بـ«سان سيمون»[2]: فالشخصيّة المُسْتَذْكرة تصلنا مغلّفة تحميها أسوار الأدب، فإن أضفنا درجة أصبح أدبُ الآخرين أدبَ بروست، والأشخاصُ الحقيقيّون في الأخبار اليوميّة الأبطالَ الخياليّين في الرواية.

لا في المذكّرات. ذلك أن مقالة صدرت في آذار (مارس) ١٩٠٧ بعنوان «أيّام قرائيّة»[3] تروي عن اكتشاف مهم لبروست: حكايات عمّة: مذكّرات الكونتيسّة دو بوانيي المولودة «دوسيمون» (١٧٨١-١٨٦٦) التي شرعت بالصدور. فبالإضافة إلى الصفحة حول الهاتف[4] التي استعيدت في «**جانب غيرمانت**»، ولكنّها مأخوذة بالأصل من «**جان صانتوي**»، نلقى فيها تخيّلات حول الأسماء التي تعيد الماضي كاملاً: «وهو ماض ربّما كان واسعاً جدّاً. ويحلو لي الظنّ بأنّ هذه الأسماء التي لم ترد إلينا إلا بصورة نماذج شديدة الندرة بفضل ما تبدي بعض الأسر من تعلّق بالتقاليد، كانت فيما مضى أسماء شائعة جدّاً، - أسماء من العامّة والنبلاء على حدّ سواء - وهكذا فإننا لا نبصر، من خلال لوحات المصباح السحريّ

---

(١) المرجع نفسه، ص ٤٦٨ و«**جانب غيرمانت**» من الطبعة الحالية، ص ٣٦١.

(٢) في طبعة «شيرويل» التي كان بروست يستخدمها.

(٣) **الفيغارو**، ٢٠ آذار (مارس) ١٩٠٧؛ **دراسات ومقالات**، الطبعة المذكورة، ص ٥٢٧ - ٥٣٣، وبالنسبة للصفحة التي اتطعتها «**الفيغارو**»، ص ٩٢٤ - ٩٢٩. وقد كتب بروست لِ«رينالدو هان» في ١٨ آذار (مارس) ١٩٠٧ يقول «لقد اقتطعت هذه الصحيفة كامل المقطع الطويل الذي سطرت المقالة من أجله، وهو الشيء الوحيد الذي كان يمتعني» (**مراسلات**، القسم السابع، ص ١١٠).

(٤) «**مقالات ودراسات**»، الطبعة المذكورة، ص ٥٢٨ - ٥٢٩.

الساذجة الألوان التي تعرضها علينا هذه الأسماء، السيّد القويّ ذا اللحية الزرقاء أو الأخت «آن» داخل برجها فحسب، بل الفلاح الذي ينحني فوق العشب المخضوضر والمسلّحين الذين يجوبون على صهوات خيولهم عجاج الدروب في القرن الثالث عشر»[١]. لكنّ ثمّة مرحلة ثانية تفرغ الأسماء من شاعريّتها، وهي لقاء الناس والأمكنة، وهؤلاء وهذه لا يبدون جديرين بها. إنّها النظريّة التي تشكّلت مذ ذلك، نظريّة الأسماء في «دفتر ١٩٠٨» و«**بحثاً عن الزمن المفقود**». على أن المذكّرات مفيدة لأنّها تولي الحاضر خلفيّة تاريخيّة «هي جسر خفيف ينطلق من الحاضر إلى ماضٍ أصبح بعيداً ويربط الحياة بالتاريخ[٢] ليبعث في التاريخ حياة أوفر وليجعل من الحياة ما يقرب أن يكون تاريخاً». ولئن كان هذا الصنف يستثير الأحلام ثمّ يخيّبها ولا يحتبس سوى الزمن المبتذل فإننا ندرك ألا يكون بروست كاتب مذكرات وأنّه يكتفي بأن يستمدّ من «سان سيمون» والسيّدة «دو بوانيي» والسيّدة «فوريموزا» والكونت «دوصونفيل» ما يمكن أن يقدّموه له: موادّ يعالجها، عناصر من ماضٍ خام. إن الصفحات التي اقتطعتها «**الفيغارو**» تشكّل امتداداً للتفكير في معنى هذا الماضي. وليس في المذكرات ما كان تفصيلاً غير ذي بال لأن هذه التفاصيل، حالما تناول الأمر «تيسيوس» و«سرجون» و«أشوربنيبال»، هي التي أيضاً تبقى: «[...] يستطيع السيّد «ماسبيرو» تزويدنا بأسماء السلوقيات التي يمسكون بمقاودها [...]»[٣]. وبروست نفسه سوف يملأ أعماله بهذه التفصيلات، من أزياء وصور من الحياة اليومية، على حساب التاريخ الكبير، تاريخ الجنرالات والملوك والمعارك لأنّه لم يُفْقَدْ شيء على الإطلاق من هذه التفصيلات المتواضعة المبتذلة الهشّة. إنّ لنساء المجتمعات اللواتي يكتبن مذكراتهن

---

(١) «**مقالات ودراسات**»، الطبعة المذكورة، ص ٥٣١.
(٢) المرجع نفسه، ص ٥٣٢.
(٣) «**دراسات ومقالات**»، ص ٩٢٥ - راجع كذلك «**في ظلال ربيع الفتيات**»، ص ٤٦٩.

مكانّهنّ إذن «في هذا البقاء الشاسع لكلّ ما ظهر على صفحة الأرض»[١].
إن الصفحات التي يكرّسها بروست في «**جانب غيرمانت**» لصالون السيّدة «دو فيلباريسيس» ومذكراتها واردة هنا بحذافيرها وكذلك فلسفة التاريخ التي يُعبّر عنها هذا الجزء من القصّة، وتصبح السيّدة «دو بوانيي» السيّدة «دو فيلباريسيس» لأن نوعية مذكرّاتهما تضلّلك بشأن نوعية صالونهما؛ ولأنّهما على علاقة طويلة مع رجل دولة عتيق يجيء ليحدّثهنّ في السياسة كلَّ مساء»[٢]. ثمّ إن السيّدة «دو بوانيي» ستكون بمثابة نموذج للسيّدة الوهميّة «دو بروسيرجان» التي تقرأ جدّة الراوي مذكراتها. ويحتفظ بروست لنفسه بـ«سانت بوف» الذي كثيراً ما يستشهد به في هذه المقالة، وبـ«سان سيمون».

يقضي بروست في عام ١٩٠٧ الذي يعاود فيه نشاطاً أدبيّاً يصرفه بصورة أساسيّة إلى المقالات، يقضي الصيف، بعدما استمع إلى نصائح «إميل مال»، في زيارة كاتدرائيات وأديار وكنائس ومدن قديمة: «ذهبت إلى «كانْ» و«بايو» و«بالروا» و«ديف» وسأذهب إلى «جوميبج» إن لم يورثني ذلك تعباً يزيد عن الحدّ، و«بونتو دمير» و«ليزيو» و«سان جورج دو بوشيرفيل» و«فاليز» و«سان واندريل»[٣]؛ وهي مناسبة لينشر في «**الفيغارو**» في ١٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٠٧ «انطباعات مسافر بالسيّارة». ويوضح بروست حينما يعود إلى هذه الصفحات في «**معارضات وأخلاط**»، يوضح بشأن الصفحة المعلّقة بقبّة أجراس «كان»، «أنّها مذكورة فحسب في «**جانب منازل سوان**»، وبصورة جزئية على أيّة حال، بين قوسين، على أنّها مثال عمّا كتبته في طفولتي. وفي المجلّد الرابع (الذي لم يصدر بعد)

(١) «**دراسات ومقالات**»، ص ٩٢٦.
(٢) المرجع نفسه، ص ٩٢٩. يشغل السيّد «دو نوربوا» لدى السيّدة «دو فيلباريسيس» دور المستشار «باسكييه» لدى السيّدة «دو بوانيي».
(٣) **مراسلات**، الجزء السابع، ص ٢٢٥ - ٢٥٦، رسالة إلى «اميل مال» مؤرخة في آب (أغسطس) ١٩٠٧.

لِ«**بحثاً عن الزمن المفقود**» يؤلّف نشر هذه الصفحة المعدّلة في «الفيغارو» موضوع فصل كامل تقريباً»[١]. ويستذكر بروست ههنا واقعة برج أجراس «مارتنفيل» في «كومبريه»[٢]، كما يستذكر في « **ألبيرتين المختفية**» قراءة مقالة «**الفيغارو**». إن «المجلّد الرابع» يعني في عام ١٩١٩ «**سادوم وعامورة -٢**» و«**الزمن المستعاد**»، وسوف يقسّمان بعد حينما يصبح «**سادوم وعامورة -٣**» «**السجينة**» و«**سادوم وعامورة -٤**» «**الهاربة**» ثم «**ألبيرتين االمختفية**». نلاحظ إذن مصير هذه الصفحة التي قُدّر لها أن يُعاد نشرها في «**بحثاً عن الزمن المفقود**» والتي يضحي صدورها بدوره حدثاً من نسيج الخيال. ولعلّ كتاب «**ضدّ سانت بوف**» كان بدوره في هذه الأثناء حكاية مقالة. أضف أنّ «انطباعات مسافر بالسيّارة» من ثمار الخيال، إذ يبدأ باستذكار العودة إلى منزل ذوي الراوي، فيما ذوو بروست في عداد الأموات آنذاك، وهو كذلك من قبيل السيرة الذاتية لأنّه يتضمّن رسماً شخصيّاً لِ«أغوستينللي» ونذير موته الذي كثيراً ما يستشهد به: «[. . .] ألا فلْيَلْبَثْ مقود التوجيه في يد الميكانيكيّ الشاب الذي ينقلني الرمزَ الدائم لموهبته بدلاً من أن يكون تمثْيلاً مسبقاً لعذابه!»[٣] إن هذا المقال يحيل الحياة في النهاية عملاً فنيّاً، بما أنّ «الميكانيكيّ» يُشَبَّه بتماثيل الكاتدرائيات مثلما تشبّه «ألبيرتين» فيما بعد بصور بوّابة «سانت اندريه دي شان»، وأنّ صوت بوق السيارة الذي يُعلم الوالدين، وقد جعلتهما المنيّة من دنيا الخيال في حلم الكاتب المثير للشّجون، بعودة ولدهما يُشَبَّه بناي الراعي في «**تريستان وإيزولت**». إن هذه الصورة التي تختتم المقالة سوف تُسْتَعَاد في «**السجينة**» وتُحَمَّل بكامل وزن الجماليّة، لا جماليّة «فاغنر» وحدها بل جمالية بروست.

---

(١) **معارضات وأخلاط**، الطبعة المذكورة، ص ٦٤.

(٢) **جانب منازل سوان**، ص ١٧٩ - ١٨٠.

(٣) **معارضات وأخلاط**، الطبعة المذكورة، ص ٦٧ سوف تشبّه «ألبيرتين» الجالسة إلى البيانو لا هي الأخرى بالقدّيسة «سيسيليا» في كتاب «**السجينة**».

إن مؤلّفات الشباب والترجمات والمقالات تقود إلى العام ١٩٠٨ الذي يتغيّر فيه كل شيء، لأن بروست ينثني عائداً إلى الرواية. فمنذ مطلع كانون الثاني (يناير) يعدّ العدة لكتابة فصل بعنوان «روبير والجدي، أمّي تذهب في رحلة»[١]. ويباشر في آن واحد تقريباً سلسلة من المعارضات يدور موضوعها الوحيد حول قضيّة «لوموان» التي تفجرت في ٩ كانون الثاني (يناير). وهذه المعارضات التي نَشَرَتْ معظمَها صحيفةُ «**الفيغارو**» بين ٢٢ شباط (فبراير) و٢٣ آذار (مارس) أُعيد نشرها في كتاب عام ١٩١٩. ويلخّص بروست حينئذ موضوعها في حاشية: «ربما نسينا منذ عشر سنوات أنّ «لوموان» بعدما زعم كذباً أنّه اكتشف سرّ تصنيع الألماس ونال على هذا الأساس أكثر من مليون من السيّد «جوليوس فيرنر» رئيس شركة «دو بيرز»، حُكِمَ عليه، بناءً على شكوى قدّمها هذا الأخير، في ٦ تموز (يوليو) ١٩٠٩ بالسجن ست سنوات. وهذه القضيّة التافهة التي من اختصاص شرطة الجُنَح، والتي استأثرت مع ذلك بمشاعر الرأي العام آنذاك، جرى اختيارها ذات مساء من جانبي بطريق الصدفة البحتة بمثابة موضوع وحيد لمقطوعات أحاول فيها تقليد طريقة عدد من الكُتّاب»[٢].

كان بروست منذ أبحاثه حول «راسكين» يستخدم القراءة ليلج بها عالم الواقع. وأخذت هذه القراءة تنقلب أكثر فأكثر نقداً لأن طابعها السلبيّ كان موضع تنديد في مقدّمة «**سمسم والزنابق**» ولأنّ نظريّات راسكين كان يفنّدها في الآن نفسه مترجمه. لا بدّ إذن من فهم أبحاث عام ١٩٠٨ في النطاق المحيط بنقد القراءة والقراءة الناقدة. ويتحرّر بروست بأبحاثه هذه من المؤلّفين الذين يستحوذون على فكره، ولكن بعدما انتزع منهم

---

(١) راجع **المراسلات**، الجزء الثامن، ص ٢٤ - ٢٧؛ «فيليب كولب»: «سرّ النقوش الإنكليزية التي بحث عنها بروست» في «**ميركور دوفرانس**»، عدد ٣٢٧، آب (أغسطس) ١٩٥٦، ص ٧٥٠ - ٧٥٥، وهذا الفصل في كتاب «**ضدّ سانت بوف**»، طبعة ب. دو فالوا، غاليمار، ١٩٥٤، ص ٢٩٣ وما يليها.

(٢) **معارضات وأخلاط**، الطبعة المذكورة، ص ٧، حاشية لبروست.

أسرارهم. والمعارضة تعيد تشكيل ما أحسّ به لدى قراءة آثار معلّميه بعد تكثيفه. أما النقد فيحلّل بوضوح هؤلاء الكُتّاب على نحو يخلق تكاملاً بين المعارضات والنقد.

ثم إنّ قضيّة «لوموان» رواية خياليّة وتقرب أن تكون رواية بوليسيّة، ولكن التخييل فيها، على نحو ما يعرضه بروست، غير مكتمل في كلّ مرّة كما لو أن الحقيقة الخاضعة لوجهات نظر مختلفة لا تظهر إلا على هيئة ومضات. أمّا المجموع الذي كان بروست يعلّق على ترتيبه أهميّة كبيرة[1] فيقسم إلى ثمانية أقسام، والحدث ترويه ثمانية أصوات مختلفة: أصوات «بلزاك» و«فلوبير» و«سانت بوف» و«رينييه» و«غونكور» و«ميشليه» و«فاغيه» و«رونان»[2] ويروي كل منها لحظة قصيرة، إذ النصوص لا تتعاقب حقاً فيه[3]. من هذا التجانب نستخلص ازدراء بروست للخطّ الأفقيّ في الحبكة، فمضمونها قليل الأهميّة حتى ليلبث غير مُسْتَكْمَل، وكذلك الشكل الذي تستهدفه المعارضة، أكانت مسرحيّة أم رواية أم حلقة ناقدة أم حكاية. وفي عام ١٩٠٨، وعلى الرغم من الركيزة التي يوفّرها الكُتّاب الذين يقلدهم بروست فيما يسخر منهم، يتوقّف ويدع كلاً من النصوص غير مكتمل: أتراه يكتفي بما يخلّفه من انطباع؟ أم هو يُلغي مشكلة الخطاب مستعصيةَ الحلّ؟ وهل ينبغي أن يكون وصف العمل الفنيّ في مثل طول العمل نفسه؟ تلك بالضبط الأسئلة التي سيطرحها في هذا العام نفسه كتاب «**ضدّ سانت بوف**».

إن معارضات ١٩٠٨ تبشّر أيضاً بـ«**بحثاً عن الزمن المفقود**» بطريقة

---

(١) راجع **المراسلات**، الجزء الثامن، ص ٥٨ رسالة بتاريخ ١١ آذار (مارس) ١٩٠٨ إلى ف. شوفاسّو.

(٢) معارضة «سان سيمون» لا تصدر إلّا عام ١٩١٩ فيما تصدر معارضات «راسكين» و«ميترلنك» و«شاتوبريان» بعد مماته.

(٣) لن يروي بروست قضيّة «دريفوس» على غير هذا النحو ولا حرب ١٩١٤ في «**بحثاً عن الزمن المفقود**».

أخرى: سوف يكثر بروست في هذا المؤلّف من المعارضات وكأنّما الرواية يحكيها في وقت من الأوقات كاتب آخر. ذلك هو أمر البحث المدرسي في مجلّد «**في ظلال ربيع الفتيات**»، كما هو أمر صور «الكاتب الجديد» في «**جانب غيرمانت**»، وإعلانات الوفيات، وأخبار الأزياء، ومقالات الصحف كمثل مقالات الصحف السويسرية في أثناء الحرب، حيث نرى بحروف صغيرة: «الحرب العالميّة، المعارك الأخيرة، مليون من الضحايا» - وبأحرف ضخمة تدعو إلى الظنّ بأن ذلك هو الحدث الرئيسيّ: «نجاح تصيبه بيوتات «زايلر» من لوزان في معرض «غرنوبل»»[١]. أمّا المعارضة الأكثر أهميّة فتلك التي يُفْردُها «**الزمن المستعاد**» للأخوين «غونكور» والتي تقيم مواجهة بين فترتين من الزمن وعالَمين وجماليتين وجنسين أدبيّين. وليس هذا التلاقي الأخير هو الأقلّ بما أنّه يقيم التعارض بين اليوميّات الحميمة التي لا يريدها بروست والرواية. فكلّ معارضة تقدّم العالم بعين مَنْ ليس بروست وتُعِدُّ هكذا مراجعة كامل الأدب الكلاسيكيّ التي يمثّلها «**بحثاً عن الزمن المفقود**».

لقد آن أن نشير الآن إلى ظاهرة قريبة من المعارضة وتتعلّق بشخوص «**بحثاً عن الزمن المفقود**». إن بروست يضع منها ما يستعيد خفية، شأن الشكل الصغير المحتجب في كاتدرائية «روان»[٢] يستعِيد على شكل معارضة أو بالأحرى تحيّة تقدير، أبطالاً لكُتّاب جاؤوا قبله. ذلك هو شأن «المرأة المهجورة» لِـ«بلزاك» في «**جانب منازل سوان**»[٣] والتي اختُصرت قصّتها في فقرة واحدة وتظهر هنا بمثابة ممثّل صامت. وآل «غيرمانت» يكرّرون آل «مورتمار» لِـ«سان سيمون» لأن كاتب المذكّرات كان يمتدح

---

(١) « ألبيرتين المختفية» الجزء الرابع في الطبعة الحالية.

(٢) مقدمة «**كتاب آميان المقدس**»، «**معارضات وأخلاط**»، الطبعة المذكورة، ص ١٢٥.

(٣) ص ١٦٨ - راجع كذلك «فيراغوس» القوى ونهاية الكولونيل شايير «مختصرة في كتاب «**في ظلال ربيع الفتيات**».

«روحيّتهم» دون أن يفسّرها: «لما أحسست بالضيق ألا يكفّ «سان سيمون» عن الحديث عن اللغة الخاصّة بآل «مورتمار» دون أن يقول لنا في يوم قوامها ابتغيت التصدّي للأمر ومحاولة ابتداع «روحيّة» لآل «غيرمانت»، فلم أفلح في العثور على نموذجي إلا لدى امرأة «غير ذات محتد» هي السيّدة «ستراوس» أرملة «بيزيه»[(١)]. كذلك يستعيد «نوربوا» الكونت «موسكا»، و«نسيم برنار» « نوسينغن»، ودوقة «غيرمانت» بأثوابها أميرة «كادينيان». فإذا أضفنا إلى ذلك تحوّلات أخرى، مثل «أناتول فرانس» الذي أضحى «بيرغوت»، وكذلك إدخال معارف يودّ بروست تكريمها، كـ«بيرتران فينلون» و«آنا دو نواي» و«سيليست آلباريه»، أو تكثيف مؤلّفات غير مذكورة، مثل «الفنّ الدينيّ في فرنسا في القرن الثالث عشر» لمؤلّفه «إيمل مال» والذي يوضع على لسان «إيلستير» بشأن كنيسة «بالبيك»، تبيّن لنا أنّ هذه الرواية إنما تستعيد لا الحياة فحسب، بل الآداب والفنون الأخرى. وتنبري منظومة الاستشهادات الضخمة، وهي ساخرة طوراً وتارة جدّية في صيغة النص النهائيّة، بل في المسوّدات كذلك، لإتمام هذا التأليف لتجعل من هذا العمل خلاصة الأعمال التي سبقته، لتجعل منه موسوعة.

على أن فاصل المعارضات ينبغي ألا ينسينا المشروع الكبير الذي بوشر به عام ١٩٠٨. هناك ثلاث مجموعات من الوثائق تسمح بمحاولة إعادة تكوين هذه الانطلاقة الجديدة. لم يبقَ لدينا، في ما يخصّ المجموعة الأولى سوى شهادة «بيرنار دوفالوا» الذي يصف لنا عام ١٩٥٤ في الطبعة التي أصدرها لكتاب «**ضدّ سانت بوف**»، ما تيسّر له: «تتألّف هذه المجموعة «من خمس وسبعين صحيفة من القطع الكبير جداً وتتضمّن ستّ واقعات يجري الاحتفاظ بها جميعاً في «**بحثاً**...»، وهي: وصف البندقية والإقامة في «بالبيك» والتقاء الفتيات والنوم في «كومبريه» وشاعريّة

---

(١) **مراسلات** بروست.

الأسماء والجانبان»[١]. لقد أصدر «فالوا» من هذه الصحائف التي اختفت الآن مقطعين هما «روبير والجِدي» و«أزهار الأورطنسية النورمانديّة»[٢]. غير أن بروست كان قد سطّر لائحة بها في دفتر صغير يدعى «دفتر ١٩٠٨» سنتحدّث عنه فيما بعد، أمّا العناوين التي يعطيها فلم تحتفظ بها طبعة «فالوا»، إلّا أن هذه تضيف إيضاحاً هامّاً: هذه الصحائف التي اختفت من ذات القطع وذات الخطّ الواردين في «دراسة من عشرين صفحة تؤلف المقالة حول سانت بوف»[٣]. على أن في متناولنا في المكتبة الوطنيّة رزماً من الصحائف[٤] مجلّدة تحتوي حواشي نقديّة ومشروعات لكتاب «**ضدّ سانت بوف**». هناك مجال للظنّ إذاً بأنّ بروست سطّر على الأثر الصحائف المفقودة والصفحات الأولى في النقد الأدبي.

أما الوثيقة الثانية فقد أُطلق عليها منذ نشرها اسم «الدفتر ١» أو «دفتر ١٩٠٨»[٥] وتتضمّن ملاحظات من عامي ١٩٠٨-١٩٠٩، ومقطعين من عام ١٩١٠، وآخر من عام ١٩١٢. وهي لا تشكّل نصّاً متلاحقاً بل تتألّف من

---

(١) «**ضد سان بوف**»، طبعة ب. دفالو، غاليمار ١٩٥٤، ص ١٤. تتضمّن هذه الطبعة إخراجاً لقسم من مسودات بروست التي وضعت في عام ١٩٠٨ - ١٩٠٩، ولكنها ليست طبعة نقدية. أما طبعة لابلياد التي ندين بها لِ ب. كلاراك فنحتفظ منها بقسم النقد الأدبي بإضافة صفحات أخرى إليها ليست جميعها جزءاً من مشروع «**ضد سانت بوف**».

(٢) «**ضدّ سانت بوف**»، طبعة ب. دوفالوا، ص ٢٩١ - ٢٩٧، وص ٢٧٣ - ٢٧٥ مجمل المقطع الأول تاريخ كانون الثاني (يناير) ١٩٠٨ من وضع ف. كولب.

(٣) المرجع نفسه، ص ١٤.

(٤) «بروست ٤٥» (مكتسبات فرنسية جديدة ١٦٦٢٦) الصحائف من ١ أولاً إلى ٣١ خامساً، من إصدار ب. كلاراك. «**ضدّ سانت بوف**» مكتبة لابلياد، ١٩٧١، ص ٢١١ - ٢٣٢. من أجل ترتيب عقلاني لهذه الصحائف راجع «كلودين كيمار». «على هامش أعمال بروست حول سانت بوف»: لوحة التوافقات بين ملاحظات الدفتر ١ ومقاطع المجلّد ٤٥ في مجموعة بروست: «نشرة معلومات حول بروست» العدد ٦، خريف ١٩٧٧، ص ٢٩ - ٣٧.

(٥) م. بروست دفتر ١٩٠٨، من وضع وتقديم ف. كولب - غاليمار ١٩٧٦.

ثلاثة أنواع من المعلومات: الأولى تتعلّق بالكتاب العتيد، وهو رواية ودراسة حول «سانت بوف» وكتاب آخرين؛ والثانية حواشٍ على قراءات هي على وجه الخصوص لِـ«بلزاك» و«شاتوبريان» و«باربيه دوريفييي»[١]؛ أمّا الثالثة فمسوّدات حقيقيّة وفقرات مكتوبة. إن الأعمال التي قام بها في النصف الأول من عام ١٩٠٨ تختصرها لائحة «الصفحات المكتوبة» الموضوعة في حوالي شهر تموز (يوليو): «روبير والجدي، أمي ذهبت في رحلة. / جانب فيلبون جانب ميزيكليز/. الرذيلة خاتم الوجه وانفتاحه، خيبة الأمل التي يوليها الإمتلاك، تقبيل الوجه. / جدّتي في الحديقة، عشاء السيّد «دو برتيفيل»، أصعدُ، وجه أمّي حينئذ ومنذ ذلك الحين في أحلامي، لا أستطيع الإغفاء، تنازلات، إلخ... / آل «كاستيلان»، أزهار الأورطنسة النورماندية، أسياد القصر الإنكليزي، الألمانيّة؛ حفيدة لوي - فيليب، نزوات، الوجه الأموميّ في الحفيد الماجن. / ما تعلّمته من جانب فيلبون وجانب ميزيكليز»[٢]. هذه «الصفحات المكتوبة» توافق الوصف الذي يقدّمه «فالوا» عن الصحائف الخمس وسبعين التي فُقدت الآن، فيما عدا البندقيّة و«بالبيك»، ولا يشير إليهما بروست هنا. ولكنّ هذه الخلاصة ترسم الخطوط العريضة لرواية تتناول الطفولة والأرستقراطيّة وأمور الجنس والتقسيم إلى جانبين الذي سينظم فيما بعد «**بحثاً عن الزمن المفقود**» بكامله. وثمّة مشروع «قسم ثانٍ» ينصّ على علاقة عشق: «في القسم الثاني من الرواية تفقد الفتاة ثروتها كلّها فأقوم بالإنفاق عليها دون محاولة امتلاكها لعجز على صعيد السعادة»[٣]. ثمّة ملاحظات كثيرة تتعلّق بـ«كابور» وبرغبة عدّة فتيات: «الرغبة في الحبّ تخفق بين أشخاص يعرف

---

(١) موريس بارديش: «**مارسيل بروست روائياً**»، دار نشر الألوان السبعة، القسم الأول ١٩٧١، ص ١٦٨ - ١٧٦، وقد أوضح تماماً على أثر فالوا أن هذا الدفتر يعتبر «سجل الملاحة» الخاص بكتاب «**ضد سانت بوف**».

(٢) دفتر ١٩٠٨، الطبعة المذكورة، ص ٥٦.

(٣) المرجع نفسه، ص ٤٩.

بعضهم بعضاً ويتقارضون الافتتان المتبادل في أن تكون الواحدة صديقة من هي موضع حبّ والعكس بالعكس[1]، وموضوع الحجرات وذكرى البندقيّة تنوّرها صورة فوتوغرافية عن «استراحة القديس مرقص» لِ«راسكين»: نظنّ الماضي ضحلاً لأنّنا نفكّر فيه، ولكن الماضي ليس ذاك، إنه هذا اللااستواء في بلاط مَعْمَدِ القديس مرقص (صورة استراحة القديس مرقص) الذي ما عدنا فكرنا فيه من بعد والذي يجعل الشمس مبهرة فوق القناة»[2] في أعقاب هذه الجملة يظهر موضوع الرسالة الأدبيّة بأزماتها ويرتدي الأهميّة نفسها وكأنّما يرتبط بالذاكرة اللاإراديّة: «ربّما انبغى أن أبارك صحّتي المعلولة التي علّمتني من جراء صابورة التعبِ الركونَ والصمت وإمكان العمل. وتحذيرات الموت. عمّا قليل لن يسعك أن تقول كلّ ذلك من بعد؛ إذ الكسل أو الشكّ أو العجز تهرب جميعها إلى الحيرة والتردّد حول شكل الفنّ. هل ينبغي أن أجعل منه رواية أو بحثاً فلسفيّاً، وهل أنا روائي؟»[3] هذه الملاحظات يجب ألا نفهمها وكأنها ملاحظات في يوميّات حميمة بل على أنها إحدى مراحل التخييل، وسوف نقرأ عن معالجة موضوعها في «**الزمن المستعاد**».

لا بدّ قبل دراسة هذه الوثائق، وقبل مباشرة المجموعة الثالثة المؤلّفة من دفاتر سُطّرت بدساً من ١٩٠٨، من إلقاء نظرة على المراسلات التي تبدو متقدّمة على المسوّدات التي بحوزتنا. فهذا بروست يسطّر كتاباً لِ«لويس ألبوفيرا» في ٥ أو ٦ أيّار (مايو) لا يشمل إلّا جزئياً الصحائف التي أطلق عليها في تموز (يوليو) اسم الصفحات المكتوبة»: لديّ في طور الإعداد: /دراسة طبعة النبلاء/ رواية باريسيّة/ مقالة حول سانت بوف وفلوبير/ مقالة حول النساء/ مقالة حول لواطة الأولاد (ليس من السهل نشرها)/ دراسة حول الزجاج الملوّن/ دراسة حول شواهد القبور/ دراسة

(١) دفتر ١٩٠٨، الطبعة المذكورة، ص ٥٨.
(٢) المرجع نفسه، ص ٦٠.
(٣) المرجع نفسه، ص ٦٠ - ٦١.

حول الرواية»[١]. ولا تعني هذه اللائحة أن بروست يكتب تسعة كتب في الآن نفسه، ولا حتى أنّه أدرجها ضمن مشروع، بل هو يسطّر أو سطّر وفقاً لطريقة عمله المعتادة تسعة مقاطع أو فصول ومقالات حول موضوعات لا تترابط بعد: ولكنّ القُرّاء يستطيعون أن يلقوا رجعيّاً طروحات هامّة للمؤلّف إلى جانب مشروع المقالة حول «سانت بوف» منذ ذلك الحين. ويبدو في الفترة نفسها أن بروست يجهد في العيش والكتابة سواء بسواء، بل في العيش من أجل أن يكتب وفي محاولة تجارب مختلفة، كأن يحاول التعرّف، بعامل لاسلكيّ شابّ[٢]، أو يلاحق فتاة هي مجهولة بادئ الأمر، أو يتردّد على شبّان في «كابور»[٣]. وبعد توقّف مؤقّت يعود بروست إلى الكتابة فلا يتوقّف من بعد، وذلك في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٠٨ وهو تاريخ أساسيّ. ذلك أنّه يسطّر في الثامن من تشرين الثاني (نوفمبر) لـ«جورج دو لوريس» أحد أفضل أصدقائه، مديحاً مؤثراً للعمل: «أمّا أنت فتملك النور، وسيكون لك على مدى أعوام طويلة، فاعمل. ولئن تحمل الحياة معها الخيبات فإننا نتعزّى عن ذلك بأنّ الحياة الحقّة في مكان آخر، لا في هذه الحياة نفسها ولا بعدها، بل خارجها إن كان للفظة تستمدّ أصولها من الفضاء من معنى في عالم تحرّر منه»[٤]. ويضيف في أوّل كانون الأول (ديسمبر): «هل حدّثتك عن فكرة للقدّيس يوحنا: اعملوا ما دام النور معكم. وإذ لا أملكه من بعد فإنيّ أنكبّ على العمل»[٥]. وفي دفتر ١٩٠٨ يؤرّخ «فيليب كولب» في تشرين الثاني (نوفمبر) الملاحظات الموضوعة في سبيل مقالة نقديّة حول «سانت بوف» هذه الملاحظات

---

(١) **مراسلات** الجزء الثامن، ص ١١٢ - ١١٣.

(٢) المرجع نفسه، ص ٩٨ و١١٤ **والسجينة**، الجزء الثالث من هذه الطبعة.

(٣) راجع تمهيد «**سادوم وعامورة**»، الجزء الثالث من هذه الطبعة.

(٤) **مراسلات**، الجزء الثامن، ص ٢٧٦. راجع «بروست ٤٥»، الصحيفة ١٥، «**ضدّ سانت بوف**»، مكتبة لابلياد، ص ٢١٩ حيث نجد الفكرة نفسها.

(٥) **مراسلات**، الجزء الثامن، ص ٣١٦.

المنشورة في الصحائف المنفصلة المجلّدة في المكتبة الوطنية[1] والمكمّلة للدفتر. وأخيراً يكتب بروست إلى «لوريس» في شهر كانون الأول (ديسمبر) قائلاً: هل يمكنني أن أستشيرك في أمر؟ سوف أسطّر شيئاً حول «سانت بوف». لديّ بصيغة أو بأخرى مقالتان كوّنتهما في فكري (مقالتا مجلّة)، إحداهما مقالة كلاسيكيّة الشكل مقالة «تين» على جودة أقلّ. أمّا الأخرى فتبدأ، تصوّراً، بسرد لأحد الأصباح: تجيء أمّي بالقرب من سريري وأقصّ عليها مقالة أبتغي تسطيرها عن «سانت بوف» وأعالجها أمامها. فما الذي تراه الأفضل؟[2]. ويسائل في الفترة نفسها وبالطريقة نفسها الكونتيسة «دو نواي» فيحكي عن «دراسة» و«مقالة»[3]. ويمكن الظنّ، إذ نعرف عادات بروست، أنّه ما كان ليطرح السؤال لو لم يكن يميل إلى الطريقة الروائيّة: فالجميع كتبوا المقالات، وهو نفسه فعل؛ إلّا أن رواية حول «سانت بوف» ربما كانت محاولة مبتكرة وجريئة لأنّها ستتضمن قسماً للسيرة الذاتية هي حضور الأمّ، وقسماً نظرياً. ولذلك يكتب بروست، حينما يجيبه «لوريس» في رسالة ليست في حوزتنا مشيراً عليه دون شك بالمقالة، فذلك يماشي التفكير السليم، يكتب قائلاً: «شكراً على المشورة فهي الصائبة.

ولكن أتراني آخذ بها؟ قد لا آخذ بها ولسبب ستقرّه دونما شك. فالمزعج أنّي شرعت من جديد أنسى «سانت بوف» هذا المسطّر في ذهني والذي لا أستطيع كتابته على الورق إذ أنا عاجز عن النهوض. فإن انبغى أن أستأنفه للمرّة الرابعة من الذاكرة (إذ سبق لي في السنة الماضية) جاوز الأمر الحدّ»[4]. والتلميح إلى السنة الفائتة قد يشير إمّا إلى السنة الدراسيّة السابقة، يعني ربيع ١٩٠٨، وإمّا ربّما إلى قراءة عدد «**الفيغارو**» في السابع

---

(١) «بروست ٤٥» (الوطنيّة ١٦٦٤٦).
(٢) **مراسلات**، الجزء الثامن، ص ٣٢٠.
(٣) المرجع نفسه، ص ٣٢٠ - ٣٢١.
(٤) المرجع نفسه، ص ٣٢٣، رسالة من منتصف كانون الأول (ديسمبر) ١٩٠٨.

من تموز (يوليو) ١٩٠٧ وكان يتضمّن مقالة لِـ«بول بورجيه»: «شارل دو سبولبيرش دو لوفنجول» هي نقطة انطلاق لملاحظات حول «سانت بوف»[١]. ثمّ إن بروست يعترف هكذا أنّه كتب أكثر ممّا سبق أن قال بادئ الأمر بداعي التواضع والتأدّب وميل إلى السريّة.

ها نحن نصل الآن إلى المجموعة الثالثة من الوثائق حول مشروع «**ضد سانت بوف**»، والأمر يتعلّق بالدفاتر[٢] وهي المرحلة الأساسيّة. في اليوم المجهول لدينا، ولكنّه قريب من أواخر ١٩٠٨، الذي أوصى فيه بروست بشراء دفاتر مدرسية[٣]، والأرجح على شكل مجموعات، إذ يقتضيه الأمر عشراً لكتاب «**ضدّ سانت بوف**»، فيما يبقى خمسة وتسعون في المكتبة الوطنيّة ويصرّح «سيليست آلباريه» أنّه أتلف بناء على أمر معلّمه اثنين وثلاثين، في ذلك اليوم تبدّل طابع عمل بروست. فحينما كان يتكل على صحائف، وسواء أكان مضمونها تخييليّاً أم نقديّاً، كان غير واثق تماماً من إمكان المتابعة ومن أن يتّفق له الكثير ممّا يقوله وأن يعرف كيف ينظّم مادّته. إن كميّة الدفاتر لشاهد على برنامج طويل الأمد أو واسع الرقعة لا على شعور بالعجز. إن ضخامة المشروع مقرونة بالرجوع إلى

---

(١) «**ضد سانت بوف**»، مكتبة لابلياد، ص ٢١٨ - ٢١٩. ولكننا لا نملك أيّة ورقة يمكن أن تحمل تاريخ ١٩٠٧؛ وليس بالطبع ما يمنع أن يكون بروست قد شرع في التفكير بمشروعه دون أن يدوّن الأمر في الحال.

(٢) في المكتبة الوطنيّة حالياً خمسة وتسعون دفتراً لمارسيل بروست تحوي ما بقي لنا من النسخ الأولى ومن مخطوطة «**بحثاً عن الزمن المفقود**». وينبغي أن نضيف إليها أوراقاً وقصاصات وأوراقاً مطبوعة على الآلة الكاتبة وتجارب مطبعيّة. إن دراستنا المنشأ تقودنا إلى الاستشهاد بهذه الوثائق التي ننشر في الطبعة الحاليّة القسم الأساسيّ منها. فإن كانت مرقمّة أشرنا إلى مرجعها. طالع في هذا المجلّد كذلك توطئة «فلورانس كالو»، حول موجودات بروست في المكتبة الوطنية (ص ١٤٥ بالترقيم الروماني).

(٣) تشير «سوزي مانت بروست» إلى أن الدفاتر التي كان يكتب فيها بروست هي تلك المستعملة في تجهيز «كوندورسيه» (كلود فرنسيس وفرناند غونتييه: «**مارسيل بروست وذووه**» يليه «**ذكريات س. مانت بروست**»، بلون، ١٩٨١، ص ٩٠٧).

الطفولة، فإن أعظم مؤلّف في عصرنا هو هذا التلميذ الذي يكتب على دفاتر كما كان يريد بالأمس والده ووالدته. وهكذا سطّر بروست عشرة منها حتّى آب (أغسطس) ١٩٠٩. لقد ساد الظنّ طويلاً بأن هذه الدفاتر سبعة[1] وثمّة اتّفاق الآن على احتسابها عشرة. ولما كانت طبعتنا هذه تعتبر أن كتاب «**ضدّ سانت بوف**» إنّما يشكّل صياغة أولى لِـ«**بحثاً عن الزمن المفقود**» فإنّها تنشر منها عناصر كثيرة في القسم الوارد في كلّ مجلّد بعنوان «ترسيمات». ويضمّ المجموع قرابة سبع مئة صفحة مخطوطة والكثير منها يتراكب ويكرّر بعضه بعضاً، ولكن الأمر لا يعني بحالٍ من الأحوال نسخة أفقيّة مستمّرة نهائية، إذ الكلّ باق على شكل وحدات متميزة، فكيف نبني هذه المجموعة إن استبعدنا إعادة التركيب المغرية التي قدّمها «بيرنار دو فالوا» ولم نكتفِ بالصفحات النقديّة وحدها التي استخرجها «بيير كلاراك» جزافاً في طبعته عام ١٩٧١؟ أمّا الطريقة الأولى الأمينة على مشروع بروست فتحترم المزيج بين الرواية والتحليل النقديّ، ولكنّها تقطّع النصوص أو تخلطها دون أن تقدّمها جميعها؛ وأمّا الثانية الدقيقة إلى حدّ في تقرير النصّ فتقتصر على مشروع المقالة.

وفي غياب النصّ المتلاحق يبدو من الحكمة النظر في الصورة الوحيدة الرسميّة نوعاً ما التي أعطاها بروست عن هذا المؤلَّف حينما عرضها على «ألفريد فاليت» مدير مجلّة «**ميركور دو فرانس**» في النصف من آب (أغسطس) عام ١٩٠٩: «إنّي أختتم كتاباً هو، على الرغم من عنوانه المؤقّت: «**ضد سانت بوف**» - ذكرى فترة صباحيّة»، رواية حقيقيّة تُغْرِقُ

---

(١) إن أبحاث «كلودين كيمار» هي التي سمحت، في أعقاب دراسات «هنري بونيّه وموريس بارديش»، بإحراز تقدّم ملحوظ في تصنيف دفاتر «سانت بوف». راجع «كلودين كيمار»: حول ثلاثة نصوص أولية من «افتتاحية» البحث: مقاربات جديدة لمشكلات كتاب «**ضدّ سانت بوف**»، نشرة المعلومات الخاصّة ببروست»، العدد ٣ - ١٩٧٦ والعدد ٩ من النشرة نفسها عام ١٩٧٩ التي تقدّم جرداً لمحتويات الدفاتر العشرة.

في قلّة الحياء في بعض أجزائها وأحد شخوصها الرئيسيّين شاذّ جنسيّاً [. . .] إن اسم «سانت بوف» لا يرد عرضاً، فالكتاب ينتهي بحديث طويل حول «سانت بوف» وعلم الجمال «كما تنتهي «سيلفي» ببحث حول الأغنيات الشعبية إن شئت» وبعدما تنهي الكتاب سوف ترى (وددتُ ذلك) أن الرواية كلها إن هي إلا تطبيق للمبادئ الفنيّة الواردة في هذا القسم الأخير وهو نوع من المقدّمة إن شئت جرى وضعها في آخر الكتاب. [. . .] إنه كتاب أحداث وانعكاسات أحداث بعضها على بعض تفصل بينها سنوات ولا يمكن أن يصدر إلا على شكل شرائح كبيرة. ألخص إذن فأقول: هل توافق على أن تخصّني من الأول أو الخامس عشر من تشرين الأول (أكتوبر) بثلاثين صفحة (أو أكثر وهو أفضل لي) في «**المي كور**» وفي أعداده كافّة حتى كانون الثاني (يناير) وهو ما يساوي تقريباً ٢٥٠ أو ٣٠٠ صفحة بحجم الكتاب. وهكذا يكون الجزء الخاصّ بالرواية قد صدر، ويبقى الحديث الطويل حول «سانت بوف» والنقد، إلخ. ، الذي لن يصدر إلا ضمن الكتاب الذي سيكون بطول «**العشيقة المزدوجة**» (٤٢٥ صفحة) ويصدر عن داركم إن شئت»[1]، إنّ بروست يقترح إذاً أن يضع جنباً إلى جنب القسم الروائي والقسم النقديّ من الكتاب، القصّة الخياليّة التي تتميّز بالشخوص والأحداث ومزيج من الطهر واللااحتشام، والمقالة المكرّسة لِ«سانت بوف» والنقد الأدبي. وهناك من جهة أخرى عنصران رئيسيّان جرى إبرازهما: فالأحداث تُروى بأسلوب رجعيّ، إذ تذكّر واقعة حاضرة بأخرى ماضية، والخاتمة الجماليّة ناتجة بصورة طبيعيّة عن القصّة التي هي تطبيق لها. وأخيراً يُثْبتُ الشذوذ الجنسي أنّه أحد الطروحات الرئيسيّة في العمل الفنّي وسوف يصرّح عنه بروست لجميع ناشريه المحتملين، فهو لا يستطيع أن يتصوّر رفض كتابه لأسباب أخرى غير

---

(١) رسالة مارسيل بروست إلى «ألفريد فاليت» وقد نشرتها «فلورانس كالو» في «**نشرة المكتبة الوطنيّة**» آذار (مارس) ١٩٨٠، ص ١٢ - ١٤.

التهتّك. و«فاليت» على أيّة حال الذي سبق أن رفض المعارضات ومجموعة من المقالات يرفض كذلك بعد بضعة أيّام كتاب «**ضدّ سانت بوف**»[(١)] دون أن يكون قرأه. ومهما يكن من أمر فإن بروست لن يتبدّل من بعد في ما يخصّ الطابع الروائي والبنية الزمنيّة التي تضع جنباً إلى جنب الحاضر والماضي وطبيعة الخاتمة التي يفتقدها «**جان صانتوي**»، ولا حتى في ما يخص وجود «**سادوم**» وبسبب هذه الاكتشافات لن يوقفه شيء ويتغلّب على صنوف الرفض والمرض. فمن الضروريّ إذاً تلخيص مضمون الدفاتر المخصّصة لكتاب «**ضدّ سانت بوف**».

لا يؤلّف بروست إلا قطعة فقطعة، قطعاً تتراكب وتتكرّر ويصوّب بعضها بعضاً ويكمّل بعضها بعضاً. وليس بين الدفاتر العشرة حول «سانت بوف»[(٢)] واحد يؤلّف كّلاً متكاملاً؛ فلا المقالة ولا القصّة قائمتان فيها كاملتين، ولكنّما أجزاء من هذه وتلك جنباً إلى جنب. ولنشِرْ على سبيل المثال إلى أن الدفتر [٥] يتضمّن على التوالي، إن فتحناه على الوجه الصحيح، معارضة «رينييه» ومقطوعة حول النوم وبحثاً حول «سيلفي» ورسماً لِـ«فرانسواز» ورسماً للكونت والكونتيسّة وقطعة حول «غوستاف مورو» وصفحات حول الرحلة إلى «بادوفا» وجداريّات «جيوتّو» رسماً لآل «غيرمانت»، بينما تقرأ على القفا عدّة مقطوعات عن النوم وأربع صفحات عن «فرنسواز». وعلى القارئ الذي تهمّه معرفة كامل أصول النصّ أن يعود إلى التعليق على «موجودات بروست في المكتبة الوطنيّة» بقلم «فلورانس كالو» والذي يلي هذه المقدّمة العامّة وإلى التوطئات التعليقات التي تسبق كلّ جزء من «**بحثاً عن الزمن المفقود**». ومع أن بروست لم يُخرج، مثلما تخرج الأفلام، هذه المقطوعات المختلفة، فلعلّه كان على أهبة أن يفعل لو قبل «فاليت» مشروعه، بل لعلّه باشر كتابة نسخة قديمة لِـ«كومبريه» بما

(١) راجع **مراسلات**، الجزء التاسع، ص ١٦١.
(٢) الرسالة المذكورة، نشرة المكتبة الوطنيّة، ص ١٢ - ١٣.

أنّه يوضح لمدير مجلّة «**ميركور دو فرانس**» قائلاً: «بوسعي على مدى بضعة أيّام أن آمر بنسخ الصفحات المئة الأولى بطريقة واضحة جدّاً أو حتّى على الآلة الكاتبة». ويطلعنا القسم التالي من الرسالة على أن الأقسام «اللاأخلاقية» الكائنة في الدفتر ٥١ يمكن نسخها ولكنّ «النصّ الذي وردت فيه غير نهائيّ تماماً»، وهذا يعني أن بروست لم يكن بعد قد أعاد النظر في الصفحات حول الشذوذ في الفترة التي باشر فيها حقّاً كتابة «**بحثاً عن الزمن المفقود**».

تُسْتَخلصُ من مئات الصفحات تلك شيئاً فشيئاً طروحات تمكّننا، إذا ما قوبلت بدفتر ١٩٠٨ وبالمراسلات والصحائف المتفرّقة، أن ندرك ما عساها كانت حبكة كتاب «**ضدّ سانت بوف**». هناك بطل يتحدّث بصيغة المتكلّم، ولا يستطيع النوم وينتظر الصباح، ووالدته، ويتذكّر حينذاك مكانين مختلفين، الريف والبحر، «كومبريه» مربع طفولته حيث عاش مأساة الإواء إلى سريره ومتعة النزهات في جانبين متقابلين وحيث التقى بـ«سوان»، و«كيركفيل»، وهو الاسم لِـ«بالبيك»، حيث يقيم في الفندق مع جدّته والسيّدة «دو فيلباريسيس» ويرتبط بعرى الصداقة مع «مونتا رجيس» الذي سيضحي «سان لو». أمّا والدة الراوي فتأتيه ساعة الاستيقاظ بصحيفة صدرت فيها مقالة له. ثمّ إنّه من جانب آخر يسمع ضوضاء الشارع ويتأمّل أشعة الشمس على الشرفة. ويتذكّر رحلته إلى البندقيّة بصحبة والدته. أمّا باريس، حيث يقيم الآن، فتضمّ كذلك عالم آل «غيرمانت» الذين تربطهم بِـ«بلزاك» قراءتهم لكتاباته ويتحدّث الراوي عنهم مع والدته. والبطل عاشق للكونتيسّة التي تقيم في صدر الباحة. أمّا «سوان» فيحب «صونيا»؛ ونشهد كذلك عبور فتيات يستثرن الشهوات، بعض منهنّ على وجه الدقّة: كوصيفة البارونة «دو بيكبوس» والآنسة «دو كمبرليه» أو «دو كوديران» وفلّاحة في بنسونفيل»؛ كما نشهد ظهور عشيرة آل «فيردوران» التي تضمّ مذ ذاك عازف بيانو وطبيباً وإحدى بنات الهوى. أمّا المركيز «دو غيرسي»، وهو «شارلوس» العتيد، «فالشاذّ الجنسيّ» الذي تحدّث عنه بروست لِـ«فاليت».

إنّه يسمح باكتشاف «الجنس الملعون»، جنس الشاذّين الذي ينضوي تحت لوائه بائع الزهور «بورنيش» الذي يعشقه المركيز. ولعلّ الكتاب كان اختُتم بالحديث مع الأم حول «سانت بوف» وكتّاب آخرين، من بينهم «بلزاك» و«بودلير» و«نيرفال»؛ ولعلّ الحديث كان جمع كذلك النصوص الجماليّة المبعثرة في الدفاتر العشرة. ولكنْ لما كان ينبغي ألا يظهر «سانت بوف» إلّا في القسم الختاميّ فإننا ندرك أنّ المقالة، إن استعاد بروست مشروعه في ربيع أو صيف ١٩٠٩ ليكتب على نحو متّصل ما سوف يصبح «**بحثاً عن الزمن المفقود**»، سيتّسع لها الوقت للتبعثر والتبخّر. ويكون «سانت بوف» قد استُخْدِمَ بمثابة عنصر إبراز، بمثابة الوسيط المؤقّت الذي احتاجه بروست دوماً، على أن يحاربه ثم يزيله مثلما أزيل «راسكين»، كما أنه وُزِعَ على عدّة شخوص في الرواية: السيّدة «دو فيلباريسيس»، «بلوك»، السيّد «دو نوربوا» الذي يستخدم في خطابه الموجّه إلى «بلوك» حول قضيّة «دريفوس» نفس الطرائق الأسلوبية التي يستخدمها بروست في معارضته لِ«سانت بوف»، والراوي نفسه حينما يبدي اهتماماً بشخص الفنّانين وحياتهم. وهناك أنقاض أخرى وخرائب رائعة ستظهر في المقالات أو المقدّمات التي ينشرها بروست في آخر حياته: «بشأن الأسلوب لدى فلوبير» و«بشأن بودلير» ومقدّمة كتاب «**من دافيد إلى دوغا**» لِ«جاك إميل بلانش» و«**مخزونات عذبة**» لِ«بول موران»[1]. ثم إن «**بحثاً عن الزمن المفقود**» يتضمّن زهاء خمسة عشر تلميحاً مُبَاشراً إلى أسلوب وأقوال «سانت بوف»، إلى وصفه للصالونات التي لا يجعلها، بخلاف بروست، مختلفة الواحد عن الآخر. أمّا الإشارة الأوفر طولاً فترد في حادثة من كتاب « ألبيرتين المختفية» تتّصل مباشرة برواية ١٩٠٨-١٩٠٩ إذ يتعلّق الأمر بقراءة الراوي لمقالته في صحيفة «**الفيغارو**» وبجمهور «أيّام

(١) جمعت هذه المقالات في «**دراسات ومقالات**»، الطبعة المذكورة، ص ٥٧٠ - ٦٣٩.

الاثنين». إن نقطة الضعف في مقالات الصحف أنّها ترتبط بردود فعل القُراء، لا بفكر مؤلّفها فحسب: وليس القُرّاء بفنّانين. «وهكذا كان بوسع «سانت بوف»، يوم الاثنين، أن يتمثّل السيّدة «دو بوانيي» في سريرها ذي الأعمدة العالية تقرأ مقالته في صحيفة **الدستوريّ**» وتضمّن هذه الجملة الجميلة التي طالما راقته، ولعلّها ما كانت صدرت عنه في يوم لو لم يحكم من المناسب أن يحشو مسلسله بها كيما يجيء وقعه أبعد أثراً»[١]. وإن توقظ هذه الصفحات من «اختفاء ألبيرتين» التخييل الأوّلي أي قراءة المقالة، فيجب ألا يفوتنا أن المقالة تلك لم تعد مكرّسة لمؤلّف «**أحاديث أيام الاثنين**». هناك مقاطع أخرى في «**بحثاً عن الزمن المفقود**» والروايات المختلفة مقرونة بالحجرات وتحرّكات الذاكرة، توافق الفترات الأولى من كتاب «**ضدّ سانت بوف**»، كما سنرى ذلك لاحقاً. وأخيراً ثمة القسم الجماليّ الذي كان بروست يبغي - على أية حال - أن يتركه جانباً قبل أن يداهمه الموت، كما تشهد بذلك السطور الأولى في الفقرات الواردة على صحائف صدرت بعنوان لم يضعه المؤلّف: «طريقة سانت بوف»: «لقد بلغت مرحلة، أو إذا شئت أجدني في ظروف يخشى المرء معها، في ما يخصّ الأشياء التي كان يرغب أكثر ما يرغب في قولها، [. . . .] أن يعجز فجأة عن أن يقولها في يوم»[٢]. أمّا المشروع الجماليّ فقد صيغ بعد ذلك ويُظهر بجلاء أن «سانت بوف» قد جرى مُذّ ذاك تجاوزه في المحاكمة العقليّة: «يبدو لي أنّه ربّما وقع عليّ أن أقول في «سانت بوف»، وعمّا قليل بصدده أكثر بكثير ممّا أقول فيه، أشياء ربّما كان لها أهميّتها، وإنّني إن أبرزت مواقع الخطأ لديه، حسب رأيي، بوصفه كاتباً ونافداً، ربّما

---

(١) «ألبيرتين المختفية»، الجزء الرابع من الطبعة الحاليّة، ونجد في كتاب «**ضدّ سانت بوف**»، مكتبة لابلياد، ص ٢٢٧، صياغة أولى لهذه الفقرة قريبة من النصّ النهائيّ.

(٢) «**ضد سانت بوف**»، الطبعة المذكورة، ص ٢١٩.

استطعت أن أقول، بشأن ما ينبغي أن يكون عليه النقد وبشأن الفنّ أشياء غالباً ما فكّرت فيها»[1]. هذا القسم الجماليّ وارد بصورة رئيسيّة في «**الزمن المستعاد**» وقد عولج وعُمّق فإذا هو لا يُعرف. كما نصادفه أيضاً في الإلماحات إلى «بلزاك» و«بودلير» التي تغطّي صفحات «**بحثاً عن الزمن المفقود**». وفي الصفحة الهامّة من المقطع الأخير حيث يبحث الراوي عن كفلاء وراعين لمشروعه وحيث يجمع بين «شاتوبريان» و«نيرفال» و«بودلير» في استخدام التذكّر.

وإنّما اكتشاف التذكّر بوصفه ينبوع الأدب، والمجانبة بين راوٍ حاضر وراوٍ ماض بوصفها مضمون العمل الفني بما أنها ترويه، وبوصفها شكله بما أن الذكرى تهب السرد حريته، هذا الاكتشاف هو الذي يسمح للجزء الخياليّ من كتاب «**ضدّ سانت بوف**» بالانطلاق. لقد بيّنوا بفضل أيّ بحث دؤوب، بعد ستّ عشرة مقالة وستة عشر مقطعاً، أفلح بروست في مقابلة «أمس» بـ«اليوم»: «بالأمس كان لي، شأن كلّ الناس، حلاوة الاستيقاظ في آناء الليل»[2]. يتذكّر راوي اليوم مرحلة وسطى كان يستيقظ فيها ليلاً بدلاً من أن ينام في النهار، كما هي حاله الآن، وحيث كان يتذكّر، بفضل صنوف الأرق هذه فترات أكثر قدماً منها وفي حجرات مختلفة. هذه البنية الثلاثيّة سوف تكون بنية افتتاحيّة «كومبريه» التي نتبيّن مذ ذاك لونها في الدفتر [١] الذي وضعه «فالوا» بمثابة فصل أول في طبعته: «في زمن تلك الصبيحة التي أودّ تثبيت ذكراها، ولست أدري. لماذا كنت آنها مريضاً ’فأظلّ‘ مستيقظاً طوال الليل وآوي إلى فراشي في الصباح وأنام في النهار. ولكنّما كان لا يزال قريباً جدّاً مني آنذاك زمن كنت آمل عودته ويبدو لي اليوم أن شخصاً آخر عاشه، زمن كنت أندسّ فيه في فراشي زهاء العاشرة

---

(١) «**ضد سانت بوف**»، الطبعة المذكورة، ص ٢١٩.

(٢) الدفتر ٣، ورقة ١٨٢، كلودين كيمار: «بشأن ثلاث مسوّدات نصوص من «افتتاحيّة» البحث [. . .]»، المقالة المذكورة، ص ٩ وفي هذا المجلّد ترسيمات كومبريه»، ٦٣٣ - ٦٣٩.

مساء وأنام مع بعض استفاقات قصيرة حتى صباح الغد»[١]. إن الذكريات المتعاقبة تسمح بالإعلان عن موضوعات وأماكن وأزمنة الرواية وإنّها غزيرة وخصبة حتى ليباشر بروست، وهو ينوء بعبئها فيرجئ القسم النقديّ إلى النهاية ثم يُعرض عنه مؤقتاً، سرداً متابعاً، دون شكّ في أول صيف ١٩٠٩[٢]. وليس هذا الجزء المسطّر سوى صياغة أولى لرواية بروست سوف ندعوها «رواية ١٩٠٩» وهي تلي دونما تمهيد كتاب «**ضدّ سانت بوف**»، هذا العنوان الذي لا يزال بروست يطلقه حتى نهاية العام على عمله القائم.

يتضمن كتاب «**ضدّ سانت بوف**» إذن، حسب التسلسل المنطقيّ، بل الزمنيّ كذلك، ثلاث فترات: استيقاظ الراوي ووالدته والمقالة، اكتشاف العالم والشخصيّات الأخرى. ويشكّل هذا الاكتشاف الأخير مرحلة أساسيّة تحيل القصّة رواية انطلاقاً من الدفتر [٥][٣]. أمّا النصوص الجماليّة غير المستعملة في طور الصياغة فقد كان يمكن تجميعها في الخاتمة. وبعد الركون إلى هذه النقاط لا بدّ من الإشارة إلى الشخوص الموجودة مذ ذاك في هذه الصياغة الأولى لعام ١٩٠٩: هناك الأب و«فرانسواز» وآل «غيرمانت» والفتيات و«جوليو» الطرّاز أو «بورنيش» بائع الزهور، وهو «جوبيان» العتيد، و«سوان» و«صونيا»، وهي فيما بعد «أوديت»، وآل «فيردوران» وعشيرتهم، والجدّة والسيّدة «دو فيلباريسيس» وابن ابن أخيها «جاك دو مونتارجيس» وعشيقة هذا الأخير، وهي وصيفة البارونة «دو بيكبوس»، والآنسة «دو بانهويه» أو «دو كوديران» أو «دو

---

(١) ص ٦٤٤.

(٢) في الدفتر ٨ الذي يحوي، كما أشارت إلى ذلك كلودين كيمار، الثلث الأول من «كومبريه»؛ «افتتاحيّة»، «كومبريه ١»، «بداية كومبريه ٢». وتشير «كومبريه ١» إلى «كومبريه» التي تستعيدها بادئ الأمر الذاكرة الإرادية، و«كومبريه ٢» الذاكرة اللاإرادية، ويلي هذا الدفتر دفتر ثانٍ للإخراج ورقمه ١٢.

(٣) ص ٦٤٠ - ٦٤٣.

كمبيرليه» التي ستضحي «ستيرماريا»، والآنسة «دو فورشفيل»، ابنة «سوان»، وكاهن «كومبريه» والسيّد «دو غيرسي» أو «غورسي»، وهو «شارلوس» العتيد، والعمّة التي في «كومبريه». هذا إذن قسم من كوميديا بروست الإنسانية يتّخذ مكانه منذ كتاب «**ضدّ سانت بوف**». وتتجمّع كوكبات منهم: الراوي وأسرته و«فرانسواز»، «سوان» و«أوديت» وآل «فيردوران»، «غيرسي» والكونتيسّة «دو غيرمانت» وبقيّة آل «غيرمانت»، فتيات مختلفات. أمّا الراوي الذي يعشق فتاة في «الشانزيليزيه» والكونتيسّة «دو غيرمانت» ونساء مجهولات فينتقل من عالم إلى آخر. وأما المواقع الرئيسية للأحداث فباريس و«كومبريه» و«كيركفيل»، وهي فيما بعد «بالبيك»، ومدينة عسكرية صغيرة، سوف تضحي «دونسيير»، و«بادوفا» حيث يمضي الراوي لمشاهدة جداريّات «جيوتّو» والبندقية. والقليل من هذه الشخصيّات سوف يختفي: «رينالدو هان» الذي كان ينشد ترانيم «إيستير» في حضرة أسرة الراوي، وشاذ جنسيّ ريفيّ باسم «هوبير دو غيرشي». ولنلاحظ في مقابل ذلك، من بين الأشخاص الرئيسيّين الذين لم يتّخذوا لهم مكاناً بعد: «لوغراندان» وآل «كامبرمير» و«بلوك» والمركيز «دو نوربوا» و«ألبيرتين» و«موريل» وشخوص الفنّانين، إذ ليس ثمّة «فانتوي» أو «إيلستير»، و«بيرغوت» يكاد لا يرد ذكره بعد، و«لا بيرما» لا تظهر.

هل من تفسير ممكن لغياب الشخصيّات الفنيّة في كتاب «**ضدّ سانت بوف**»؟ وهل يضعنا هذا الغياب على طريق مشكلة رئيسيّة؟ يبدو أن ذلك ممكن من جرّاء ما نجد في دفاتر «سانت بوف» من فقرات موسّعة مكرّسة للكتّاب الحقيقيّين في صلتهم بالناقد. ففي «حديث مع أميّ» الذي كان يُفترض أن ينتهي به الكتاب وكان ينبغي أن يكون خاتمة له حتى ابتداع «حفلة الرؤوس الراقصة» التي تكشف شأن الشيخوخة ومرور الزمان في ربيع ١٩١٠، وابتداع «العبادة الدائمة» في عام ١٩١٠-١٩١١، وهي خاتمة جماليّة جديدة، يظهر بادئ الأمر «بلزاك» الذي يتجاهله «سانت

بوف»[1] ثمّ «جيرار دو نيرفال»[2] و«بودلير»[3]. فمن اليسير أن ندرك أن هؤلاء الكُتّاب العظام، وهم بحقّ موضع إعجاب بروست، قد حالوا دون نمو كائنات خياليّة من ابتداع المؤلّف. وهكذا يكونون قد استُخدموا بدورهم بمثابة وسطاء ومرحلة انتقالية في الابتكار الأدبي. وبعد ما يكون بروست، عبر حركة موازية، قد أوجد شخوص فنّانيه، ثم تخلّى عن المقالة النقديّة التي كان ينبغي أن تختتم الرواية، لصالح «فترة صباحيّة في منزل الأميرة «دو غيرمانت»»، سوف يتحرّر من عبء مزدوج، عبء الواقع والتجريد، ولا سيّما أن الملاحظات الجمالية في صحائف ١٩٠٨ ودفاتر «سانت بوف» يمكن إعادة وضعها إمّا في الخاتمة الجديدة، وهي أوفر خياليّة، وإمّا على لسان الشخوص المختلفين، وإمّا في التعليق المستمرّ على سير العمل من جانب الراوي الذي يتذكّر فيفسّر والذي يروي الكتابُ شأن رسالته. إن الجانب السجاليّ في كتاب «**ضدّ سانت بوف**»، هذا التضادّ البدئيّ يمكن الاحتفاظ به، وذلك بإيراد آراء معارضة لآراء بروست على لسان بعض الشخصيّات، فتلك إحدى وظائف «بلوك» و«نوربوا» و«بريشو» والسيّدة «دو فيلياريسيس». كلّ الشخصيّات تقريباً، بمن فيهم «فرانسواز»، يمكن في النهاية، كلّما تقدّم تحرير «**بحثاً عن الزمن المفقود**»، تحديدهم بالنسبة إلى الفنّ: وهذه الحركة التي بوشر بها في كتاب «**ضدّ سانت بوف**» وذلك بتقديم آل «غيرمانت» على أنهم قُرّاء «بلزاك» وبتقديم والدة الراوي وهي تتحدّث إلى ابنها عن «سانت بوف» سوف تتنامى دونما نهاية لها سوى موت بروست. فلن يتّسع له الوقت ليدرج في روايته مجمل الملاحظات الجماليّة التي جمعها والتي سوف

---

(١) «**ضدّ سانت بوف**»، الطبعة المذكورة، ص ٢٦٣ - ٢٩٨.
(٢) المرجع نفسه، ص ٢٣٣ - ٢٤٢.
(٣) المرجع نفسه، ص ٢٤٣ - ٢٥٦، ويضيف «بيير كلاراك» إليه نصّاً من الدفتر ٢٩: «يُضاف إلى فلوبير»، ص ٢٩٩ - ٣٠٢.

نقدّم القسم الأساسيّ منها في هذه الطبعة، هذه الملاحظات نفسها التي كان يخصّ بها بروست في عام ١٩٠٩ «القسم الرابع»، «القسم الأخير».

كلّ شيء يشير، منذ «**المسرات والأيّام**»، إلى أن بروست يميل إلى جهة التجريد والنظريّة والتفكير الجماليّ والفلسفيّ والأخلاقي، ومن جهة أخرى إلى الاعتراف والسيرة الذاتية. ولا يزال كتاب «**ضدّ سانت بوف**» يحتفظ من السيرة هذه بالثنائيّة بين الأمّ والولد واقعاً وذكرى وتوهّماً، وجهداً بعد سنتين لتدارك موت السيّدة بروست. إن التجريد الذي يؤدِّي إلى تقليد «لابروبير» و«لاروشفوكو» في «**المسرات والأيّام**» وإلى الحِكَم الكثيرة حول الحبّ في «**جان صانتوي**» التي جُمعتْ في قسم يشغل زهاء مئة صفحة(١)، هذا التجريد يلقى وسيلة تعبيره الأخيرة في مشروع المقالة حول «سانت بوف».

فالأسلوب المجرّد فيه أكثر متانة من أسلوب التحليل النفسي والشعري؛ وكثير من النصوص المذاهبيّة في «**بحث عن الزمن المفقود**»، وعلى وجه الخصوص في «**الزمن المستعاد**»(٢) موجودة فيه بعدما تصدّرت، بالنسبة إلى بعض منها، مقدّمات ترجمات «راسكين» وعدّة مقالات غيرها. وهذا بروست يكتب في آخر حياته، وهو يعود إلى مسيرة عمله، يكتب إلى صديقة قديمة لوالدته أنه كان دوماً يوافق الأخيرة حول هذه النقطة «إني ما كنت أستطيع أن أفعل في الحياة سوى شيء واحد، ولكنّما كنّا نضعه نحن الاثنين في مرتبة عالية حتى ليبدو الأمر غلواً في القول، ألا وهو الأستاذ الممتاز، وإن تقدير الأساتذة بالتالي ثمين جدّاً في نظري»(٣). لقد احتفظ

---

(١) «**جان صانتوي**»، الطبعة المذكورة، ص ٧٤٥ - ٨٥٣.

(٢) «**نشرة المعلومات الخاصّة ببروست**» العدد ١٣ - ١٩٨٢، ص ٤٦ - ٤٧، تعطينا لوحة التقابلات بين أوراق «سانت بوف» والمسوّدات الأولى ودفاتر «**الزمن المستعاد**».

(٣) مارسيل بروست، **رسائل للسيّدة س.ج.ب جانان**، ١٩٤٦، ص ٢٠٥، رسالة مؤرخة ١٨ كانون الثاني (يناير) ١٩٢١.

بروست المربي، كما يجري ذلك في الغالب، بأفضل الأمور للراوي وبشرّها للأستاذ «بريشو». لكنّه لم يستطع ذلك إلّا ببثّ النقد الأدبيّ، وهو تحليل مفصّل لكُتّاب محدّدين، وعلم الجمال، وهو تفكير عام يتناول الفنّ، في الرواية كلّها؛ ولا سبيل إلى فصل المسيرتين النقديّة والجماليّة إذ نجدهما متمازجتين حتى «**الزمن المستعاد**».

لا بدّ، قبل فراق كتاب «**ضدّ سانت بوف**» وإبراز كيفيّة تطوّره بدءاً من صيف ١٩٠٩ ليعطينا الرواية التي ستضحي **بحثاً عن الزمن المفقود**»، لا بدّ من الإشارة إلى أن النقد الأدبي إنّما يجري تشرّبه بطريقة أخرى. إن بروست في تحليله لِـ«بلزاك» و«بودلير» و«نيرفال» و«فلوبير»، والأمر ينسحب على المعارضات أيضاً، يستخلص من ذلك نتائج عمليّة إيجابية وسلبية. وإن دراسة نصوص «**ضدّ سانت بوف**» التي يخصّ بها هؤلاء الكُتّاب، وهي نتيجة قراءة ثانية، بما أن بروست كان يقرأ لهم منذ شبابه، لتظهر أنّ ليس من سمة يلاحظها لديهم إلّا ويستخدمها. فالنقد الأدبيّ لدى بروست لا يصدر عن صحفيّ بل عن روائيّ لأنّه يحدّد برنامجاً وأنه يطبقّه.

الملامة الأولى التي يوجّهها بروست لِـ«بلزاك» هي الابتذال، الذي يضع على المستوى نفسه الحياة والأدب، الطموح المجتمعي والطموح الفنيّ، ولكنّ من نتائجه مع ذلك صلابة بعض الطباع: «فلئن قِيل كثيراً: إنّ الشخصيّات كانت في نظره كائنات حقيقيّة وإنّه كان يناقش بجديّة إن كان هذا أو ذاك من طالبي الزواج خيراً للآنسة «دو غرانديو» ولِـ«أوجييني غرانديه»، فإنّه يسعنا القول: «إن حياته كانت رواية يبنيها تماماً بالطريقة نفسها»[1]. وإن كان أولئك الأبطال حقيقيّين فليسوا أكثر من حقيقيّين. وللسبب نفسه لا يملك «بلزاك»، على نقيض «فلوبير»، أسلوباً: فعناصره ليست موحّدة، «وهذا الأسلوب لا يوحي ولا يعكس الأشياء بل

---

(١) «**ضدّ سانت بوف**»، الطبعة المذكورة، ص ٢٦٦.

يفسّرها»[1] دونما جمال فيه أو اتساق. وإنّنا ندرك من وصف ما ليست عليه جملة «بلزاك» ما تبغي جملة بروست أن تكون» وقد صُنعتْ من مادّة خاصّة يجب أن يغوص فيها كلّ ما كان موضوع الحديث والمعرفة، إلخ. . دون أن يمكن تعرّفه من بعد [. . .]»[2]. أمّا إذا تعلّق الأمر بلغة الشخوص فإنّه يدع لكل من حقيقة واختلاف هذه اللغة أن يتحدّث تلقائيّاً، ولسوف يحفظ بروست هذا الدرس.

وإنّنا نستشفّ، من خلال الأهميّة التي يضفيها بروست على المشهد الأخير من كتاب «**الأوهام الضائعة**» حيث يعثر تحت صفحة الكلمات والحركات على خلفيّات «رائعة في عمقها» و«سيكولوجية خاصّة[3] إلى حدّ» أنها لم يستخدمها أحد قطّ، أن الدرس سوف يفيد في اللقاءات الكبرى في «**بحث عن الزمن المفقود**» حيث «فوتران» يصبح «شارلوس» و«لوسيان دو روبنمبريه» الراوي تارة وطوراً «جوبيان» وطوراً آخر «موريل». وإن ذلك المشهد الذي يتذكّر فيه «فوتران» «راستينياك» هو الذي يدعوه بروست «حزن أولمبيو على صعيد الشذوذ الجنسي»[4]. وليس مثل هذا الأثر ممكناً إلا بفضل رجعة الشخصيّات، هذا الأسلوب الذي يستخدمه «**بحث عن الزمن المفقود**» بدوره من مقطع إلى آخر حتّى المراجعة العامّة، حتى اللقاء الأخير في الصباح في منزل الأميرة «دو غيرمانت». هناك دور واحد، كما هو أمر «فاغنر»، مذكور في صفحة يستعيدها كتاب «**السجينة**»: «[. . .] إن الإضافات، هذه الجمالات التكميليّة والعلاقات الجديدة التي تدركها العبقرية فجأة بين أجزاء عملها المنفصلة التي ينضمّ بعضها إلى بعض فتحيا ولا تستطيع من بعد فراقاً،

---

(١) «**ضدّ سانت بوف**»، الطبعة المذكورة، ص ٢٦٩.
(٢) المرجع نفسه، ص ٢٧١.
(٣) المرجع نفسه، ص ٢٧٣.
(٤) المرجع نفسه، ص ٢٧٤. يتحدّث «شارلوس» عن «حزن أولمبيو في لواط الأطفال» في «**سادوم وعامورة**»، الجزء الثالث من هذه الطبعة.

أليست من أجمل صنوف حدسه؟»[١] ثمّ إن بروست، خلافاً لِ«سانت بوف» لا ينتقد ميل «بلزاك» إلى اللوحات والرسم وأنّه يتصوّر «فنّاً داخل شكل فنّ آخر»[٢]: إن «**بحثاً عن الزمن المفقود**» ينافس بدوره الرسم ويقدّم لنا لوحاته الكلامية الخاصّة وحتى رسّامه الخاصّ باسم «إيلستير» ويذهب بروست إلى حدّ يتمنّى معه أن ينبري أحد المهتمّين بالأدب لمعالجة «الموضوع نفسه عشرين مرّة بإنارات مختلفة» وبه «شعور بأنّه يفعل شيئاً عميقاً مرهقاً قوياً طاحناً مبتكراً أخّاذاً كمثل الخمسين كاتدرائية والأربعين زهرة نيلوفر من أعمال «مونيه»[٣]. وهذا ما سيفعله بنفسه، إذ يبدّل في النور الذي يضيء الحبّ والقسوة والموت والكنائس والأزهار. وعلينا أن نلاحظ، في معرض حديثنا، أنّ «ستينبوك» في « »، وهو هاوي فنّ لا يبتكر، إنّما يزوّدنا بصورة مسبّقة عن «سوان» و«شارلوس».

الأمر إذاً أمر نقدٍ باطن يصبح فيه بروست بين آن وآخر «بلزاك»: «[. . .] لا يمكن أن يكون ثمّة تفسير لروائع الماضي إلا إذا نظرنا إليها من وجهة نظر من كتبها، لا من الخارج وعن مسافة معتبرة وبإجلال أكاديميّ»[٤]؛ نقد يصرف اهتمامه بالتالي إلى التقنيّة: «لا بدّ أن نبرز بجلاء، في ما يخصّ «بلزاك» (البنت ذات العينين الذهبيتين، سارازين، الدوقة دو لانجيه، إلخ.) صنوف الإعداد المتّئد، والموضوع الذي يُكَبَّلُ شيئاً فشيئاً ثم تضييق الخناق الصاعق في الختام. أضف إلى ذلك تداخل الأزمنة (الدوقة دو لانجيه، سارازين) كمثل أرض تختلط فيها حمم من عصور مختلفة»[٥]. فكيف لا نتعرّف هنا الرجعات المستمرّة والنهايات المأساويّة في قسم «من حبّ لسوان» و«**سادوم وعامورة**» و«**السجينة**»

---

(١) «**ضدّ سانت بوف**»، الطبعة المذكورة، ص ٢٧٤.

(٢) المرجع نفسه، ص ٢٧٦.

(٣) المرجع نفسه، ص ٢٧٦.

(٤) المرجع نفسه، ص ٢٧٨.

(٥) المرجع نفسه، ص ٢٨٩.

والتطوّر المفاجئ الأخير الذي يشكّله آخر لقاء بـ«شارلوس» ثم بالشخوص الآخرين؟ إنّ معالجة الزمن لدى «بلزاك» تقود إلى معالجة التاريخ: «[. . .] حينما يُسْتَنفَدُ عنصر الإثارة في الرواية يبدأ من جديد حياة ثانية بوصفه وثيقة مؤرخ»[1]. كذلك يُكثر بروست من التفاصيل الأخلاقية وطريقة وضع القبّعة ومنظر الفساتين واستخدام المخترعات الجديدة كالهاتف أو الطائرة لِمَا يعي أن هذه التفاصيل تصنع التاريخ بقدر ما يفعل رؤساء الدول والجنرالات والمعارك. أمّا الجوانب السلبيّة فهي على العكس تحذيرات يوجّهها بروست لنفسه، فإمّا أن يكون غلوّ في تشابه الشخوص، أو أنّ الدوقيين يثيرون إعجاباً ساذجاً، وإمّا أن الأفكار والصور «لا تذوب» في الأسلوب. على أن «بلزاك» الذي يتصدّى له بروست ليس بمثل السلبيّة التي يقولون: ذلك لأنّه لا بدّ في نهاية المطاف من أن ننظر إليه على أنه «كتلة لا يمكن اقتطاع شيء منها» و«عالم لا يمكن تبديله»[2].

أمّا بشأن «بودلير»، وبعد توجيه النقد لموقف «سانت بوف» الذي يخلط الحياة بالنتاج الأدبي ولموقف مؤلف **«أزاهير الشرّ»** الذي يستجيب للعبة، يُبْرزُ بروست بادئ الأمر مزيج القسوة والحساسية الذي يسمح للشاعر بأن يقدّم عذاباته ببرود مع أنّه قاسى منها: «لقد قدّم هذه الرؤى، وسبق بالأساس أن أوْجَعَتْهُ دونما شكّ، لوحة بالغة القوة ولكنّها خلو من أي تعبير عن الإحساس إلى حدّ تستطيع معه عقول محض ساخرة تهيم باللون وقلوب قاسية حقاً أن تتلذّذ بها»[3]. إن الإحساس تابع إذن للحقيقة لأنّ الفنّ «يسمو على الإشفاق الشخصي»[4]. إن هذا الدرس مطبّق على مشاهد القسوة جميعها في «**بحث عن الزمن المفقود**» بدءاً بمشاهد

---

(١) «**ضدّ سانت بوف**»، الطبعة المذكورة، ص ٢٩٠.
(٢) المرجع نفسه، ص ٢٩٦.
(٣) المرجع نفسه، ص ٢٠١.
(٤) المرجع نفسه، ص ٢٥٢.

الكونياك أو الآنسة «فانتوي» في «كومبريه» وانتهاءً بموت الجدّة في «**جانب غيرمانت**» حيث يوصف تطوّر المرض والنزاع، وتَحَلَّلُ الشخص المحبوب بتأثّر تحتويه اللامبالاة الطبيّة، وحيث عنصر الأسى تقطّعه مشاهد الأطبّاء ودوق «غيرمانت» الهزليّة. إن «بودلير» يتجاوز الانفعال الناجم عن المضمون بالجدّة الشكليّة ويلقاها، شأن «فانتوي»، داخل عالمه الباطن الخاصّ الذي لا يشبه آخر سواه. وقراءة «بودلير» إنّما تعني أن نستذكر «شكلاً فشكلاً» هذه الرقعة من عبقريّته التي لا تشكّل كلّ قصيدة إلا قطعة منها تنضمّ، ما إن نقرأها، إلى القطع الأخرى التي نعرفها»[١]؛ فالقراءة والكتابة شيء واحد بما أن بروست يؤلّف قطعة فقطعة ثم يعمل على انضمام الواحدة إلى الأخرى، وأنّ قراءه مدعوّون إلى التغلّب على التقطّع ليلتقوا وحدة العمل الفنيّ.

حينما يسطّر بروست لائحة بأبيات من «**أزاهير الشرّ**» يمكن أن تكون لِ«هوغو» و«غوتييه» و«سولّي برودوم» و«راسين» و«مالارميه» و«سانت بوف» و«نرفال».[٢] فلأن «بودلير» يلخّص الشعر الفرنسيّ مثلما سيفعل «**بحثاً عن الزمن المفقود**» بالنسبة إلى «مدام دو سيفينييه» و«راسين» و«شاتوبريان» و«بلزاك» و«ستاندال» و«فلوبير» و«بودلير» و«مالارميه» و«سان سيمون» و«**ألف ليلة وليلة**». وحينما يذكر «بروست» «البيت الأمّ» الذي يلد، «لشدّة شيوعه وجدّته»، «ألفاً من الأبيات الأخرى»[٣] فإنّما يعني ذلك بالنسبة إليه أيضاً أن العمل الفنيّ يتضمّن جملاً ولحظات لن تنفكّ، من جرّاء الاستشهاد الدائم بها واستعادتها والتعليق عليها، تخصب القراءة والكتابة، من قطعة «المادلين» (المجدلية) إلى أزاهير الزعرور، ومن سوناتا «فانتوي» إلى السباعيّة. ولكنّ بروست يأخذ عن «بودلير» بعض التفاصيل: فتلميح «إلى أعمال فنيّة من العصر الوسيط الكاثوليكيّ ينصبّ

(١) «**ضدّ سانت بوف**»، الطبعة المذكورة، ص ٢٥٥.
(٢) المرجع نفسه، ص ٢٥٨ - ٢٥٩.
(٣) المرجع نفسه، ص ٢٥٨.

على الرسم أكثر منه على الانفعال[1]، وتفضيل اللون الورديّ، وحادثة المرآة التي تجيء بها «بودليرَ» المحتضرَ إحدى الصديقات والتي تكرّرها «فرانسواز» في أثناء نزاع الجدّة، و«بودلير» المناضل «طوال حياته ضد ازدراء الجميع»[2] كما هي حال «فانتوي». والتشابه في نهاية المطاف الكائن بين رسوم لـ«هوغو» و«فينيي» و«ل كونت دوليل» ورسم «بودلير» في آخر أيّامه يضع بروست على طريق قانون هام من «**بحثاً عن الزمن المفقود**» قوامه أن الفنّانين جميعاً واحد منذ نشأة العالم وأعمالهم تتلاقى في وحدة قراءتنا التي تستقبلها وتتعرّف ذاتها فيها[3].

وهناك نصّ ثالث يعلّق على «سيلفي». فـ«نرفال» لا يزال في زمن بروست فناناً مجهولاً ويعدّ رسّام رعويّات من نمط «ماري أنطوانيت». لكنّما خلف جنون الكاتب نقرأ بالعكس «ذاتيّة مفرطة» و«أهميّة أكبر إن جاز القول منصبّة على حلم، على ذكرى، على نوعيّة الإحساس الخاصّة». و«نرفال» إذ يصف مرضه شبيهٌ بفنّان «يسجّل وهو ينام حالات الوعي التي تقود من اليقظة إلى النوم حتى اللحظة التي يجعل النومُ الازدواجيّةَ مستحيلة فيها».

والعنصر الثالث على طريقة بروست أن «نرفال» لم يختر صيغة تعبير «محدّدة» وجنساً ثابتاً؛ إنّه يبدع «شكل فنّه آن يبدع فكره» ويتردّد بين عدّة سبل مختلفة[4]. أمّا في ما يخصّ الأسلوب فلا يمكن أن يُعدَّ تقليديّاً و«فرنسيّاً بالتمام»؛ يقول بروست: «في الوقت الذي يقف فيه طراز كلاسيكيّ جديد في وجه المماحكة الكلاميّة المجرّدة السائدة» لا تمثّل الجملة الفقيرة حلاً جيّداً لأنّه «ليس من الصعب قطع مسافة الطريق عدواً

(١) «**ضدّ سانت بوف**»، الطبعة المذكورة، ص ٢٥٤.
(٢) المرجع نفسه، ص ٢٦١.
(٣) المرجع نفسه، ص ٢٦٢.
(٤) المرجع نفسه، ص ٢٣٤ - ٢٣٥.

إن نحن بدأنا قبل الانطلاق بإلقاء سائر الكنوز التي كلّفنا إحضارها، في النهر»[١]. ولكن «نرفال» يُعرب عن العكس إذ يجهد في «إلقاء الضوء على فوارق مشوّشة وقوانين عميقة وانطباعات للنفس البشرية تكاد لا تدرك»[٢]. تلك هي المهمة التي يلقيها «**الزمن المستعاد**» على كاهل الكاتب الذي تتنازعه القوانين والانطباعات والذي ينبغي له اكتشاف ليل النفس. وإنّما الأكثر أهميّة في «سيلفي» هو، دون ريب، زمن الحلم الذي يمزج الحاضر بالماضي والذي يذكره بروست كمثال في «**الزمن المستعاد**» إلى جانب «بودلير» و«شاتوبريان». إن ظاهرة التناضد نفسها أو الخلط في الزمان إنّما تطبع تلاقي الأفراد لدى «نرفال» وبروست على حدّ سواء، كما تطبع تلاقي المشاهد الطبيعيّة. لكنّما القربى الحقيقيّة بين المؤلّفين قوامها البحث عن «قوانين الفكر الخفيّة التي كثيراً ما تمنّيت الإعراب عنها وأجدها مسطّرة في (سيلفي)»[٣]، وهي محتبسة داخل الإحساس. وليس يكفي أن نقول ما الذي يسبّبها كما ينبغي كذلك أن لا «نلاشي الصورة واللوحة[٤] فيما نحلّل الانطباع». هذا الخيار إنّما يتجاوزه جوّ الحلم الذي يلفّ «سيلفي»، وأسماء الأمكنة لدى «نرفال» تسمح هي نفسها بالاحتلام كما تفعل «أسماء البلدان» لدى بروست. ومجمل القول إن تركة «نرفال» قوامها ابتكار لغة تصون على نحو خارق المكان وموضوع الرغبة والذكرى وحتّى الواقع؛ وكلا الكاتبين شقيقان في هذا الكفاح: «أفكان «جيرار» يعود لمشاهدة منطقة «فالوا» ليؤلف «سيلفي»؟ أجل، بالطبع. فالهوى يظنّ موضوعه حقيقياً وعاشق بلد في أحلامه يودّ رؤيته، وإلّا لما كان في الأمر صدق. أمّا «جيرار» فساذج ويسافر، وأمّا مارسيل بريفو» فيقول في نفسه: «النلبث حيث نحن فذلك حلم. بيد أنّه، في نهاية المطاف، ليس يبقى في كتاب

---

(١) «**ضدّ سانت بوف**»، الطبعة المذكورة، ص ٢٣٧.
(٢) المرجع نفسه.
(٣) المرجع نفسه، ص ٢٣٩.
(٤) المرجع نفسه.

إلّا ما يعزّ على التعبير وما كنّا نظنّ أننا لن نقوى على إدخاله فيه. إنه شيء مبهم ولجوج كالذكرى»[١]. ويوضح «**الزمن المستعاد**» في خاتمته معنى ما يعزّ على التعبير وإن هو إلّا الانطباع نفسه في جذره الشخصيّ.

إنّ النصوص التي علّقنا عليها منذ قليل تحمل كلّها إشارات إلى أسلوب «فلوبير»، فثمّة دفتر يعالج موضوع «**ضدّ سانت بوف**» ويتضمّن ملاحظات عنوانها: «يُضاف إلى فلوبير»[٢]. وأسلوب هذا الأخير الذي وضعه بروست في مواجهة «بلزاك» يبشّر بأسلوب «**بحثاً عن الزمن المفقود**» على صعيد مبادئه أكثر منه على صعيد منجزاته. ذلك لأنّنا نتّصل اتّصالاً حسيّاً بالعمل الفنيّ عن طريق القواعد، عن طريق النحو، ومعلوم أن طابع الابتكار قائم في النحو لدى «فلوبير»: «إنّه عبقريّة قواعديّة [...] تتّخذ شكل ماضٍ بسيط وضميراً واسم فاعل». إن النحو الجديد يفضي إلى «ثورة في الرؤية وفي تمثّل العالم». وجملة «فلوبير» تُخضع الشخوص لرؤية جامدة للأشياء، وهم يُدركون «لا بوصفهم أشياء ملحقة بالقصّة بل في حقيقة ظهورهم [...]. وحتّى حينما يكون الموضوع الممثل بشريّاً، فإنّما يجرى وصفه، إذ هو معروف بوصفه موضوعاً، على أنّه «يظهر» لا على أنّه من نتاج الإرادة»[٣]. وتتحوّل الحكاية إذ ذاك إلى لوحة وذلك ما يعبّر عنه الماضي الناقص، فإذا النتيجة «أسلوب متساوٍ من الرخام السمّاقيّ دون أيّة فجوة ودون أيّة إضافة»[٤]. إن أمثولة «فلوبير»، على نحو ما

---

(١) «**ضدّ سانت بوف**»، الطبعة المذكورة، ص ٢٤١ - ٢٤٢ - قارن بـ«**الزمن المستعاد**»، الجزء الرابع من هذه الطبعة.

(٢) «**ضدّ سانت بوف**»، ص ٢٩٩ - ٣٠٢ - الدفتر ٢٩، الصحائف ٤٣ - ٤٥ - راجع «بشأن أسلوب «فلوبير» «**المجلّة الفرنسية الجديدة**»، كانون الثاني (يناير) ١٩٢٠ التي تتوسّع كثيراً في هذه الطروحات. أمّا نصّ **ضد سانت بوف**» فمن ربيع ١٩٠٩ مع إضافة في عام ١٩١٠.

(٣) «**ضدّ سانت بوف**»، ص ٢٩٩.

(٤) المرجع نفسه، ص ٣٠٠.

يحفظها بروست، أن الجملة تغيّر رؤية العالم، فالتخييل، وحتى طرق السرد الهامّة إنّما ترتبط ارتباطاً كليّاً بنوعيّة اللغة.

منذ ربيع ١٩٠٩ يطوّر بروست دفاتر «سانت بوف» التي تتخذ المظهر واللهجة والحجوم التي لرواية حقيقيّة. وخاتمة هذه الرواية، وهي حديث نقديّ، مسطّرة مذ ذاك ولكن على هيئة مقطوعات. ويبدأ بروست وقد استقوى بهذا اليقين، بإعادة فاتحة الكتاب. ويمكن الظنّ بأن بروست يستكمل في تلك الفترة الدفاتر العشرة المعروفة بـ«سانت بوف» بأخرى غيرها[١]، فيتوسّع في أمر الإقامة في «كومبريه» والعطلة على شاطئ البحر والحياة في باريس من حول «سوان» ويضاعف الملاحظات الجماليّة. وينبغي تصوّر طريقة بروست التي لن تتغيّر من بعد على أنّها طريقة لاعب شطرنج[٢] يتابع عدّة عمليات هجوميّة في الآن نفسه. فهو ينتقل من طرح إلى آخر، من قطاع إلى آخر، من مدينة إلى أخرى ومن جماعة إلى أخرى. ولم يكن هذا التوسّع تتابعاً خطيّاً في يوم بالمعنى الذي يقصّ فيه الكاتب حكاية من أوّلها إلى آخرها، فبروست يستعيد على العكس، خلايا بدئيّة ووحدات مختصرة ليتوسّع بها ويضخّمها إلى حدّ ملفت أحياناً أو على العكس ليحذفها. وهكذا نشهد زوال «سوان» عاشق الفتيات على شاطئ البحر، بينما تزداد فكرة الجانبين اتّساعاً، وكذلك فكرة أزاهير الزعرور، أي البنية الفنيّة في العمل الفنيّ والتجربة التأمّليّة. ثمّة دفتران آخران يخطّان إلماحاً حبّ «سوان» لِ«أوديت» وحبّ الراوي لِ«جيلبيرت». وحوالي هذه الفترة تظهر شخصيّة الرسّام، ولا يزال مغفل الاسم، ولكنّه هاجس

---

(١) كلودين كيمار، «فرضيّات حول تصنيف دفاتر سوان الأولى»، **نشرة المعلومات الخاصّة ببروست**، العدد ١٣ - ١٩٨٢ - راجع على وجه الخصوص في هذا المجلّد الملاحظات حول «كومبريه» وتلك الخاصّة بـ«حول السيّدة سوان»، ص ١٠٥٨ - ١٠٧٨ و١٣٠٨، ١٣١٥، وفي القسم الثاني من هذه الطبعة التمهيد الذي يسبق «أسماء البلدان: البلد».

(٢) أو «داما»، إذ كان يحبّ هذه اللعبة.

بروست منذ «هاريسون» في كتاب «**جان صانتوي**»؛ كما يبقى شخص الموسيقيّ مغفلاً بدوره. وتيسّر هذه المرحلة ظهور «بيرغوت» ممّا يسمح بطرح موضوع القراءة فتلتقي هكذا بقراءة «جورج صاند». وهذه القراءة الأخيرة هامّة جدّاً في الصياغة الأولى لِ«كومبريه»، وسوف ينتقل قسم منها فيما بعد إلى «**الزمن المستعاد**». ذلك لأنّ بروست يثقل صياغاته الأولى بتأمّلات جماليّة، ثم يدرك بعدها، ربّما عام ١٩١٠، أنّ من الأفضل إرجاء نصفها إلى النهاية، فالسؤال أولاً، والجواب بعده بكثير. والأمر واحد في ما يخصّ إشراقات الذاكرة التي يُؤجِّل تفسيرها إلى الخاتمة. إن بروست يتعلّم أكثر فأكثر كيف يرجئ صنوف الإثارة ويحافظ على عنصر التشويق ولا يقول كلّ شيء في الحال. أمّا «فانتوي» فمصيره أكثر غرابة لأنّ هذه الشخصيّة مستخلصة من اندماج متأخر بين بطلين مختلفين(١). في القسم الذي عنوانه «كومبريه» عالَم طبيعة اسمه «فنتون» سوف تذيع آثاره العبقريّة في وقت متأخّر وقد أصدرتها صديقة الآنسة «فنغتون» نفسها التي تمثّل وإيّاها مشهداً ساديّاً. وفي «من حبّ لسوان» يصبح واضع «السوناتا»، وكان أوّل الأمر «سان صانس»، الشخصيّة الخياليّة «بيرجيه». وإنّما يخطر لبروست عام ١٩١٣ فقط، بعد طباعة الجزء الأوّل من «**الزمن المفقود**»، وهو عنوان المجلّد الأوّل آنذاك، أن يجمع الرجلين في واحد وأن يقصي عالم الطبيعة، لا مظهره الحياتيْ، لصالح رجل الموسيقى. فهل من طريقة أفضل لتفنيد نظريات «سانت بوف» من إقامة التعارض في الرجل ذاته بين أستاذ البيانو البائس التعس والمبدع العبقريّ؟ ثمّ إن بروست يعزّز من جهة أخرى تصوّره للعالم الذي يُعارض بين الظاهر والواقع، بين الوهم والحقيقة. أضفْ أنّ رجال العلم ينهضون بدور يقارب أن يكون معدوماً في أعماله الأدبيّة، إذ لا يظهر الأطبّاء فيها مظهراً في صالحهم، من

---

(١) راجع ك. يوشيكاوا: «**فانتوي أو ميلاد السباعيّة**»، «دراسات حول بروست» ٣، غاليمار ١٩٧٩، ص ٢٨٩ - ٣٤٧.

«كوتار» إلى «دو بولبون» ومن الأستاذ س. إلى «ديولافوا»، ولعلّ عالم طبيعة عظيمَ الخطر ولكنّه وحيد، لعلّه بدا على شيء من اللامنطق. بيد أن هذا المثال يجب أن لا يخدعنا: فبروست يوحّد أحياناً ويفرّق أخرى. إن حادثة «**فرانسوا لو شامبي**» مقسّمة بين «**جانب منازل سوان**» و«**الزمن المستعاد**» بعدما جرى تأليفها دفعة واحدة[١]؛ إلّا أن هذه الرواية كانت قد حجبت مجموعة روايات لِ«جورج صاند» بأن كثّفتها وأصبحت رمزاً لها، وذلك لأن موضوع هذا المؤلّف يردّ إلى العلاقات القائمة في «كومبريه» بين الولد وأمّه. وحينما يعود «**فرانسوا لو شامبي**» إلى الظهور في «الزمن المستعاد» فليس ذلك على الإطلاق، وهو ما تجدر الإشارة إليه، من جرّاء أثر ناجم عن السيرة الذاتية، إذ إنّ تجربة الذاكرة اللاإرادية التي يبعثها كان سببها في الواقع «**استراحة القدّيس مرقص**» لِ«راسكين».

ومن بين الشخصيات التي يبتكرها بروست في تلك الفترة شخصيّة «ماريّا» تلك الفتاة التي تثير اهتمام الراوي وتخيّب أمله، وسوف تضحي، وقد حملت اسماً آخر هو «ألبيرتين»[٢]، أحد أهمّ شخوص الرواية. ولعلّ هذه البطلة الموجودة على صفحات دفاتر ١٩٠٩ و١٩١٠، لعلّها لم تنتظر لتبرز إلى الوجود حبّ بروست لسائقه ثم أمين سره «أغوستينللي».

هناك حبّ باريسيّ وحبّ على شاطئ البحر: هذا التعارض الشديد في البنية كان بروست يحسّ أنّه بحاجة إليه بعيداً عن أيّ لقاء معيش، فأن نحبّ المرأة إنّما يعني أيضاً في نظره وفي روايته أن نحبّ الأفق والمنظر الطبيعي والوسط الاجتماعي ممّا يحيط بها. فَ«جيلبيرت» لا تنفصل عن «كومبريه» و«الشانزيليزيه»، و«ماريّا» عن البحر وهولاندا، بينما تَفِدُ السيّدة «دو غيرمانت» من أقاصي التاريخ ومن قمم المجتمع.

---

(١) في الدفتر ١٠ من خريف ١٩٠٩. راجع ف. ز. رولوف: «**فرانسوا لوشامبي**» والنصّ الذي تمّ العثور عليه في « **دراسات حول بروست**» ٣، الطبعة المذكورة.

(٢) م. بارديش: «**مارسيل بروست روائياً**»، دار نشر الألوان السبعة، الجزء الثاني، ١٩٧١، ص ٣١ - ٣٢، وكان دون شكّ أوّل من بيّن ذلك.

إن ما يُدعى أحياناً برواية ١٩٠٩، مع أنّه لا وجود لأيّة صياغة متتابعة ومتكاملة لها، إنّما يتألّف في نهاية العام من مقاطع متعدّدة جدّاً، الكثير منها يتكرّر، ومن بداية صياغة متتابعة[١]، يؤكّد ذلك تمحيص الدفاتر اللغويّ من جهة وتلميحات المراسلات من جهة ثانية. وينبغي قراءة الرسائل بحذر، فيما عدا تلك الموجّهة إلى الناشرين، لأن بروست يمزج فيها، تبعاً لمراسليه، التواضع المفرط بالتفاؤل المبالغ فيه أحياناً والسخرية. فحينما يكتفي بأن يقول لِ«لوسيان دوديه» في تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٠٩ إنّه «باشر أمراً ما» وسوف «يعيش حبيساً إلى أن ينتهي» ويحدّثه عن «مهروس (أنّ) الحزين وعن جمل رمداء على الرغم من كلّ ما أحاول إدخاله فيها»[٢]، فإنّما التواضع الذي يسود ممزوجاً بالدعابة. ولكن حين يدع لِ«أنطوان بيبسكو» أن يتوقّع «استكمال عمل ضخم»[٣] قبل الصيف القادم فإنّه يتوهّم. إن ضخامة الكتاب التي يؤكّدها عدد الدفاتر المسطّرة تشهد لها رسالة إلى صديقه رجل الأعمال «ليونيل هاوزر» ينبئه فيها عن «كتاب بثلاثة أجزاء (!) باشره ووعد به ولم يجهز»[٤].

وبروست يستبق الأمور حول ما ستكون عليه خطّة العمل في عام ١٩١٣، ولكنّ الصحيح أنّه يأمل حينذاك نشر روايته في «**الفيغارو**» وأنّه وضع في الدفترين ٨ و١٢ اللمسات الأخيرة على البداية. ثمّ هو يستنسخها في ثلاثة دفاتر: ٩ و١٠ و٦٣ فيطبعها على الآلة الكاتبة. ويسعه إذاً أن يوضح لِ«لوريس» في آخر الشهر أنّه قرأ بدايةً قوامها مئتا صفحة لِ«رينالدو

(١) طبعها بروست على الآلة الكاتبة على ثلاث نسخ، مثلما أثبت ذلك السيّد «وادا»، في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٠٩ - أ. وادا: تطوّر «كومبريه» ابتداءً من خريف ١٩٠٩، أطروحة حلقة ثالثة باريس - السوربون، ١٩٨٦.

(٢) **مراسلات**، الجزء التاسع، ص ٢٠٠، رسالة مؤرّخة في ٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٠٩.

(٣) المرجع نفسه، ص ٢٠٣، رسالة مؤرّخة في ٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٠٩.

(٤) المرجع نفسه، ص ٢٠٨، رسالة مؤرّخة في ٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٠٩.

هان»[1] وأن يعيره الدفاتر الأولى العائدة لِ«كومبريه». وهنا جملة تبيّن أن بروست أصبح منذ الآن واثقاً من ذاته ومن مكتشفاته وأصالته بما يمكّنه من مواجهة رفض أصحاب دور النشر إن لم يكن دون اغتمام ثقاتالنفس على الأقلّ: مكتبة سُر مَن قرأ

«ما أطلبه أن لا تروي عن الموضوع ولا عن العنوان ولا عن أي شيءٍ يمكن أن يكون ذا فائدة (والأمر لا يثير اهتمام أحد بأيّ حال). ثمّ إنّي لا أريد أن أكون مُعْجَلاً ولا مُبْرَماً ولا مكشوفاً ولا منسوخاً ولا موضوع تعليق أو نقد أو ذمّ، وسوف يحين الوقت بعدما ينتهي فكري من عمله لأن نطلق العنان لغباء الآخرين»[2]. كما يشير بروست من جهة أخرى إلى أخطاء كثيرة وقع فيها النسّاخون ولم يصّححها: فاهتمامه بتغطية كامل اللوحة والانطلاق قدماً دون توقّف في مقابل هفوات ماديّة يدع لغيره أن يعيد النظر فيها هو سمة ثابتة لدى الكاتب الذي يستعجله المرض والوحي، وهو إلى ذلك العذاب المعد لناشري كتبه. وبقدر ما يبدي من اهتمام بصياغة وتفكيك وإعادة صياغة جملة، بهذا القدر لا يدرك، حينما يدفعها للنسخ أو الآلة الكاتبة أو الطباعة، أن لا يكون غيره قادراً على الارتقاء إلى مستوى عمله، فدار النشر يجب أن تتبع على الأثر وكذلك القيّمون على العمل. بعد ذلك يملي بروست مخطوطته على أمين سرّ يتولّى طباعتها بنفسه على الآلة، فإن لم يكن ضارباً على الآلة نسخها أو قرأها على ضاربة آلة كاتبة. وهنالك رسالة إلى شاب يفكّر في استخدامه توضح هذه الطريقة الحبلى بالمخاطر: «ها أنا أختم رواية أو كتاب مقالات هو عمل ضخم جدّاً، على الأقلّ بطوله اللامعقول. وكنت أنوي أن أُمْلِيَ اختزالاً ما لم يُنْسَخْ بعد، فأقرأه بصوت عالٍ ويسجّله الشخص الذي يعمل كاتباً عندي

---

(١) المرجع نفسه، ص ٢١٨، رسالة مؤرّخة في ٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٠٩.

(٢) المرجع نفسه، ص ٢٢٥، رسالة الفاتح من كانون الأول (ديسمبر) ١٩٠٩، بعد مضيّ عشر سنوات يوصي بروست «غاستون غاليمار» أن لا يدع لأحد أن يقرأ مخطوطة «**سادوم وعامورة - ١**».

اختزالاً، ويعود فينسخ في غيابي على الآلة الكاتبة ما يكون اختزل. ربّما ما عرفتَ الاختزال ولا الكتابة على الآلة، وتضحي مهمّتنا في هذه الحالة مبسّطة جدّاً، فبدلاً من أن أملي عليك اختزالاً أملي عليك كتابة، وهو أطول بكثير (. . .). وأبعث بنسخك إلى إحدى دور الضرب على الآلات الكاتبة»[١]. ومن بين كُتّاب السرّ الذين استخدمهم بروست نلاحظ «كونستنتان أولمان» و«ألبير نحمياس» و«ألفريد أغوستينللي» و«هنري روشا» و«جورج غاوري»[٢] وآخرين ربّما ما زالوا مجهولين. كما أن ثمّة خدماً من أمثال «نيكولا كوتان» و«فور غرين» و«سيلست ألباريه». ربّما عملوا في التدوين. أمّا ضاربو أو ضاربات الآلة الكاتبة فلم يكونوا هواة، بل محترفون وهم كُثُر: فقد ذكر منهم ستّة بالنسبة إلى «**الزمن المفقود**»، وهو النصف الأوّل من الرواية في ١٩٠٩-١٩١٢[٣]. لقد أوصى بروست بطباعة بعض أقسام من نصّه حتى الثلث الثاني من «حبّ لسوان» على الآلة الكاتبة. وربّما عوملت صفحات طبعت على الآلة، ربّما عوملت بدورها بمثابة مخطوطات، أي أنّها صُحّحت وبُدّلت وأُلصقت على صفحات منسوخة باليد. ولكن إذا أردنا اختصار الطريقة التي يعمل بها بروست في التاريخ الذي وصلنا إليه، ومع أنّه ليس من قاعدة مطلقة في نظره، علينا أن

---

(١) مراسلات الجزء العاشر، ص ٣٠٨، رسالة من آخر حزيران (يونيو) أو بداية تموز (يوليو) ١٩١١ كان لا بدّ من إلحاح «غاستون غاليمار» كيما تتمّ طباعة «**جانب غيرمانت**» على الآلة الكاتبة لدى الناشر نفسه، وكان بروست على استعداد لإرسال مخطوطته مباشرة إلى صاحب المطبعة كما سبق أن فعل بالنسبة إلى «**ظلال ربيع الفتيات**».

(٢) «أرسل غاستون غاليمار» في كانون الثاني (يناير) ١٩٢٢ ليقرأ لبروست مسوّدات «**سادوم وعامورة - ٢**».

(٣) راجع «روبير بريدج»: ملاحظات حول مخطوطة «**الزمن المفقود**» ونسخها المطبوعة على الآلة، في **نشرة المعلومات حول بروست**، العدد ١٥، ١٩٨٤ و«التحليل الماديّ لمخطوطة **الزمن المفقود**»، في المرجع نفسه، العدد ١٦، ١٩٨٥.

نلاحظ أن دفاتر مستمرّة ظهرت للمرة الأولى عام ١٩٠٩، في أعقاب الدفاتر المؤلّفة من مقطوعات متفرّقة، وهي أوّل دفاتر «سانت بوف»، والدفاتر المستمرّة تجمّع المتفرقات وتنظّمها وفق حبكة هي حكاية شاب سوف يعرض ذات يوم نظريّته الجماليّة. وهذه الدفاتر المستمرّة تستعيدها غيرها، مستمرّة بدورها ولكنّها تعقبها، وتشكّل مخطوطةً تفيد في الحصول على نسخة أو عدة نسخ آلة كاتبة. وبينما يسطّر بروست هذه الدفاتر المستمرّة يتقدّم فكره في دفاتر متفرّقات أخرى معدّة للأقسام التالية من القصّة: ومن الحقّ أن نقول إن دفاتر ترسيمات ودفاتر لمسات أخيرة تُسَطَّر في آن واحد، ولكنّ الأمر لا يتناول بالطبع الأقسام نفسها في الرواية لأن المسار استشرافيّ على الدوام يتجّه وجهة المستقبل. تبقى الإضافات: إن مكانها معدّ في دفاتر الترسيمات، لأن بروستيستخدم قفا الصحائف المضروبة على الآلة. لقد أثبت السيّد «وادا» أن نسخة «كومبريه» المطبوعة على الآلة الكاتبة أُخْضِعَتْ لثلاث مجموعات من الإضافات في أعوام ١٩١٠ و١٩١١-١٩١٢ و١٩١٣. ثمّة أيضاً، ابتداءً من «جانب غيرمانت» بين عامي ١٩١٧ و١٩٢٢، أربعة دفاتر إضافات قصيرة دونما نصّ متلاحق وقد حدّد بروست مواضعها دون أن يتسع الوقت دوماً له لوضعها في أماكنها. هكذا تبدو هذه الكتلة المعدّة للإخراج. إن وجود مجلّدات من الأوراق الطيّارة المخطوطة أو المطبوعة على الآلة في المكتبة الوطنيّة، إلى جانب الكثير من «الأشكال الورقيّة» التي تعني في لغة بروست أوراقاً بأشكال وأطوال مختلفة وغالباً ما أُلصق بعضها ببعض فتجاوز بعضها المترين، إنما يؤكّد أن الصياغات التي أُخِذَ بها حيناً قد جرى تفكيكها. وفي الدفاتر الكثير من الصفحات التي انتزعت ثم أُلصقت في مكان آخر وحتى على المسوّدات الطباعيّة. وسوف يجد القُرّاء في الملاحظات حول النصّ جميع المعلومات اللازمة.

*

إن نظام التأليف هذا المتطوّر دوماً لا يخلو من التبعات على ابتداع

الشخصيات. إن الأماكن وحتى الأحداث لا تحمل طابع اللاإنجاز نفسه الذي يطبع الأبطال. ومهما كان عددهم كبيراً، وهم أكثر من خمس مئة، أو ربّما بسبب هذا العدد، وبسبب طريقة إبداعهم وخضوعهم لانطباعات الراوي سيظلّ بعضهم يحتفظ على الدوام بسمة النقصان التي تطبع الترسيمة وبجمالها العابر. والعلاقة الأولى التي تنمّ عن ذلك في النصّ النهائيّ، ولا سيّما في أجزائه المنشورة بعد وفاته، هي الاسم الناقص، فهناك أربعة وثلاثون شخصاً يدعون س في «**البحث عن الزمن المفقود**»، واثنان ع، وأربعة عشر آ، واثنان ن وواحد ز. هناك أيضاً أسماء أولى ناقصة كاسم الشخصيّة الخفيّة أ.ج. مورو[١]. وفي الدفاتر لا تحمل بعض الفتيات اسماً، كالآنسة س في الدفتر ١٢ لعام ١٩٠٩ حيث نشهد الراوي يعود إلى شاطئ البحر ليلقاها. والأهم منها هي الآنسة «دو ستيرماريا»، وهي في الأصل الآنسة «دو كمبرليه»، ثم «دو كوديران»، ثم «كمبرليه» من جديد أو «بنهويت» في ستّة دفاتر مختلفة[٢]. وهي تقابل الشبح المشتهى لحوريّة غابات على طريقة «شاتوبريان»، وتخيّلات فتاة من «بريتانيا» مقرونة بالضباب والأراضي البائرة في قصر لعلّه «غيرمانت بريتانيّ»[٣]. لعلّ اسمها الأوّل «فيفيان» الذي يذكر بالساحر «ميرلان» وغابة «بروسيلياند». إن الآنسة «دو ستيرماريا» مرتبطة ببريتانيا، لأن بروست يقرن دوماً امرأة بمكان، ويختفي الاثنان اختفاءً يكاد يكون تامّاً من الصياغة النهائيّة وتصبح بريتاني جزيرة غابة بولونيا التي يلفّها الضباب[٤].

على صورة هذه الأرستقراطية الشهوانية نجد وصيفة البارونة «بوتبوس» المدعوّة «بيكبوس» سابقاً. ثمّة ترسيمتان رئيسيّتان، الأولى من

---

(١) «**جانب غيرمانت ١**»، المجلّد الثاني من هذه الطبعة، ص ٣٣٦.

(٢) راجع «**في ظلال ربيع الفتيات**»، أسماء البلدان: البلد، الجزء الثاني من هذه الطبعة والخطيطة ٣٥، ص ٩٠٦ - ٩١٠.

(٣) المرجع نفسه، ص ٩٠٧.

(٤) «**جانب غيرمانت ٢**»، الجزء الثاني من الطبعة الحالية، ص ٦٧٨.

عام ١٩٠٨-١٩٠٩ والأخرى من عام ١٩١١[١]. وتتلخّص الحبكة في الأولى كالتّالي: يفكّر الراوي في الذهاب إلى البندقية لالتقاء هذه المرأة. ويتنزّه وحيداً في الغابة ويرى أن المطاعم التي كانت تبدو بريتانيّة آن كان يعشق الآنسة «دو سترماريا» مظهر الأشياء للبندقيّة. وفي السنة التالية يُصاب وجه البطلة بحروق في حريق يشبّ على باخرة، «منظر فظيع». إنّها حسبما أسرّت به، أخت زوجة «تيودول»، ويدعى آخر الأمر في «كومبريه» «تيودور»، وهي في سنّ الراوي وكان يمكن أن يتضاجعا: «ارتميت عليها وقد نسيت وجهها، وكانت مداعبات عنيفة أحسّ أنّها تعلّمتها على يد رعاة وخالجني معها شعور بأني لم أعد أنا وأني فلاح شاب تمرّغه في التبن فلاحة أكثر جرأة وسبق أن خاضت التجربة». إنّها لا تحبّ غير السيّارة، وعمتها والدة عازف البيانو لدى آل «فيردوران»، وقد أجرى السيّد «فيردوران» معها هذا الحوار الجدير بـ«كريستوف»: «أسمي السيّد «فيردوران» - «وأنا أدعى السيّدة «مودويّار» (. . .) وأُسقط في يده ولم ينبس طوال الأمسية ببنت شفة». يلي ذلك مشهد في المطعم يهجر الراوي بعده الوصيفة وعمّتها ولا يلتقي ثانية البتّة «المحروقة البائسة» التي تكتب إليه في كلّ عام[٢]. تظهر لنا هذه الصفحات بروست، وقد فتنته بالتأكيد رجعة الشخوص على طريقة «بلزاك»، بما أن الوصيفة تجيء من «كومبريه» وتعرف أبطالاً آخرين في الرواية، ولكنّما يسكنه هاجس «عابرة السبيل» «البودليريّة» وهذه القصيدة التي استشهد بآخر بيت فيها في الدراسة حول «بودلير» الواردة في كتاب ««**ضدّ سانت بوف**»: «أنت يا من لعلّني كنت أحببت، أنت يا من كانت تعرف ذلك»[٣]. ذلك لأنّ عابرة السبيل، إن

(١) نشرتا على التوالي في «**المجلة الفرنسيّة الجديدة**» في أول شباط (فبراير) ١٩٥٣، وفي كتاب موريس بارديش: «**مارسيل بروست روائياً**»، الطبعة المذكورة، الجزء الثاني، ص ٣٩٣ - ٣٩٥، مقتطفات من الدفتر ٣٦ والدفتر ٥٠.

(٢) دفتر ٣٦، ورقة ١ على الوجه و٩ على القفا.

(٣) الطبعة المذكورة، ص ٢٥٨.

لوحقت، إنّما تخيّب الآمال، شأن الآنسة «دو غوايون»، نموذج «الفتاة ذات الورود الحمر» التي يطاردها بروست عام ١٩٠٩[١]. أمّا في الترسيمة الثانية الواردة دونما شكّ في فهرس «**الزمن المستعاد**» المعلن عنه في «جانب منازل سوان» بعنوان «رذائل وفضائل بادوفا وكومبريه»، فإن الوصيفة أصيبت بحروق من جرّاء حريق. وهي تذكّر «بـ» «النجاسة» من أعمال «جيوتّو». إن الراوي على موعد معها في «كابيلّا» لوحات «جيوتّو» في بادوفَا ويلتصق بفستانها فيما ينظر إلى الجداريّات. وينعطف الحديث وجهة «بانسونفيل»، ويحسّ البطل إذ ذاك برغبة جامحة، ويتّجهان إلى غرفة في فندق بعد مسيرة تقطر حلاوة، «حلاوات في مثل توحّد تلك التي كنت أتذوّقها، فيما أغادر لوحات «جيوتّو» في قاعة الكتب وأنظر إلى قبّة أجراس «بانسونفيل»، في المكتب الفوّاح بعطر السوسن (. . . .)». لقد مرّ بجانب السعادة، ولكنّه يكتشف أن الواقع كان مطابقاً لأحلامه. ويصلان إلى الفندق ويقيمان علاقة بينهما.

ويقرر بروست في الدفتر ٥٦ والورقة ٦٨ على القفا، تقسيم هذه الشخصيّة: فتصبح «ألبيرتين» على صعيد الغيرة، و «جيلبيرت» على صعيد الغراميّات مع أولاد آخرين في برج «كومبريه»، و«كوتار» و«أوديت» على صعيد «عبارات الحبّ الغبيّ»، و«ألبيرتين» على صعيد «امتنان الجسد». لقد فُكِّكَتْ هذه الشخصيّة الكاملة فأضحت معدومة ورُدَّتْ إلى حالة شبحيّة.

إن أكثر الشخصيّات غير المكتملة جاذبيّة «ألبيرتين». وسنستقي معلومات عن ذلك في ثلاثة نصوص لم تنشر: ولئن بدا أنّ «ألبيرتين» قد امتصّت شخصيّات أخرى فليس يقلّل ذلك من أنّها شخص غير مكتمل. هناك في الدفتر ٥٦[٢] بَعثُ «ألبيرتين» الكاذب. إن الراوي موجود في

(١) راجع في «**سادوم وعامورة**»، المجلّد ٣ من هذه الطبعة، التمهيد والترسيمات.
(٢) الورقات ١٠٢ - ١٠٥ على الوجه؛ راجع « ألبيرتين المختفية»، المجلّد الرابع من هذه الطبعة، الترسيمة ٦ (٣)، ص ٦٥٣.

البندقيّة وقد عَلِقَ فتاة في السابعة عشرة أو دونها كأنّها لوحة لِـ«تيسيان». وتبلغه هناك رسالة من السيّدة «بونتان» تصبح برقيّة في « ألبيرتين المختفية»: «صديقي العزيز، سأنقل لك خبراً يصعب تصديقه مع أنّه صحيح تماماً. تعلم أنّهم لم يعثروا البتّة على جثمان صغيرتي «ألبيرتين». وكانت حيّة ترزق! لقد هربت لأنّها كانت تحبّ أحدهم، وقد عادت البارحة، وتستطيعان تخيّل ما استبدّ بنا من فرح. إنّها مخطوبة لأميركي فاحش الثراء. ولكنّي أعتقد أنك لو ارتضيت أن تغفر لها الغمّ الذي سببّته لك وأن تستعيد مشروع الزواج القديم الذي تخلّيت عنه فسوف تتخلّى عمّا عَزَمَتْ عليه. ولكن لا بدّ من التعجيل. اكتب إليّ في الحال. أملي أن تصلك هذه الرسالة، فيُقال إنّك في إيطاليا ولست أعرف بالضبط عنوانك». نقرأ بعد ذلك في الورقة ١٠٥ : «جرى توقيف السيّدة «بونتان» زوجة مساعد أمين الدولة السابق للبريد، وكانت منذ بعض الوقت تبدي علامات اختلال عقليّ وأُوْدِعَتْ المصحة، إذ كانت تطلق رصاصات من مسدّسها على شخص كانت تصرّ على اعتباره ابنة أخ سبق أن فقدتها منذ عدّة سنوات وتخيّلت في جنونها أنّها التقتها. وكانت «ألبيرتين» المسكينة قد ماتت وشبعت موتاً».

أمّا الترسيمة الثانية فحديث بين الراوي و«جيلبيرت» بشأن «**الفتاة ذات العينتن الذهبيّتين**» لِـ«بلزاك»[1]. «لا تنظر، ما قمتُ بقراءته غير لائق إلى حدّ بعيد ويدعونه «**الفتاة ذات العينين الذهبيّتين**». – ذلك رائع! – آه! فأنت تعرفه إذن؛ ولكنّي لا أعتقد أن الأمر صحيح، باعتقادي أنّ هاتيك النسوة لا يغرن إلا من النساء. – أحياناً، ولكنّ الرجل في نظر بعضهنّ هو العدوّ. فهو الذي يجيء بالمداعبة القبيحة، أي الشيء الوحيد الذي لا يستطعن تقديمه. والموقف المماثل صحيح بأيّة حال. فإنّ لي أصدقاء قد

---

(١) الدفتر ٥٥، الورقات ٩١ - ٩٣ على الوجه. راجع المجلّد الرابع من هذه الطبعة والترسيمة ١ ص ٧٤٨.

يضحون شرسين إن كان لعشيقتهم عشيق آخر ويظلّون لامبالين إن كانت لها صلات بامرأة. أمّا أنا فبالعكس. لقد أحسست بتعاسة عظيمة عندما علمت أن خطيبتي تحبّ رجلاً آخر، ولكن ذلك لم يسبّب لي البتّة العذاب الذي تسبّبه لو أنّها أحبّت النساء - هل وقع لك ذلك؟ - أجل، من أجل امرأة كنت أحبّها. «وتستمرّ المقارنة في باقي الورقة، برواية «بلزاك»: من احتجاز وملاحقة: «لم أقتلها ولكنّما كنت أستطيع». ويعرض الراوي حينذاك على «جيلبيرت» صورة لِ«ألبيرتين».

وفي الترسيمة الثالثة وعنوانها «آخر حديث مع أندريه»[1]، تقيم الإضافةُ البرهانَ على نحو مفارق على غياب الإنجاز: لأنّها لا تندمج، ولأن إضافات أخرى ممكنة دوماً، ولأنّ بروست يملك نفسيّة وجماليّة وتقنيّة في الإرجاء تسمح له بذلك: «جوهريّ. يجب ألا أنسى في آخر حديث مع «أندريه» أنّي أقول (ولكن دون أن أصدّق من ذلك كلمة واحدة وكما لو يجرى الحديث اعتباطاً): «ولكن هل كانت السيّدة «بونتان» تقيم علاقات من هذا القبيل مع ابنة أخيها؟» ولم تُبْدِ «أندريه» اندهاشاً من مثل هذا الافتراض وأجابت كأنّما الأمر طبيعيّ تماماً: «في «أنكارفيل»، بما أنّهما كانتا تنامان في سرير واحد فالأمر محتمل جدّاً. أمّا في باريس فلست أعتقد بالحقيقة. لا، من كانت على هذه الشاكلة تماماً في «بالبيك» هي زوجة الرئيس الأول. وحول ما كانت السيّدة «بونتان» تفعله احتمالاً في «أنكرفيل» مع ابنة أخيها، زوّدتني «أندريه» بإيضاحات 'مُخَفِفَة' حسبما ترى لأن ذلك يبرهن على أنّ الأمر يقتصر على شيء زهيد، ولكنّما على نحو مفضوح أورثني انطباعاً بالجدّة كبيراً كما لو أنّي بلغت شاطئ جزيرة لأكلة لحوم البشر، ذلك لأنّ الأمر واحد إن كان قليلاً أو كثيراً (. . . .) وإنّما ذلك اللّامُتَوَقّع هو الذي يسبّب لنا دهشة روائع الغد التي لم نتخيّلها

(١) الدفتر ٦٠، الورقات ٢٠ - ٢٢. راجع « **ألبيرتين المختفية**»، المجلد الرابع من هذه الطبعة، التيسيمة ٢٠٦، ص ٦٥٢.

حتى حينما لم نؤسّس على ذكرى روائع الأمس. لقد كنت في نطاق الفظاعة شديد الفضول إزاء جزيرة أكلة لحوم البشر المختلفة جدّاً عمّا أتذكر حينما كانت السيّدة «بونتان» تقول أشياء مختلفة جدّاً وأقصى ما تفعل أن تتحدّث عن «ألبيرتين» وكأنّما عن صغيرة وقحة. ما كنت إذاً أعرف شيئاً عن الحياة، ولا بدّ أن السيّدة «بونتان»، حينما لم أكن هناك، كانت شيئاً مختلفاً في حضرة «أندريه» حتى تُقْدِمَ هذه على افتراضات مماثلة بهذا القدر من الهدوء. لقد كانوا دوماً لائقين في حضرتي وثرثارين في حدود السلوك الاجتماعي ولم يسبق أن حصلت، على شاطئ 'فقط' الجزيرة المجهولة، إلّا على الابتسامات والصيحات الكبيرة التي يطلقها أكلة لحوم البشر». وفي الورقة ٣٣ إضافة أخرى بالنسبة إلى الأمسية منزل الأميرة «دو غيرمانت» في «**سادوم وعامورة**»: «سان لو» يلمّح إلى أنّه ربّما كان استطاع أن يتزوّج «ألبيرتين».

لقد حلّت «ألبيرتين» غير المستكملة هذه محلّ فتاة أخرى تمّ الكشف عن آثارها: إنّها «ماريّا». إنّنا نلقاها على شاطئ البحر بين الفتيات، أو في مشهد السرير والقبلة الفاشلة[١] التي تأتينا من «جان صانتوي». وهي مقرونة بهولندا: فالراوي يحلم بالذهاب عند «ماريّا» في بيتها الهولنديّ الصغير، وهي خاطرة أوحت بها لوحة لأميرة «دو غيرمانت» بريشة «رامبرانت» تخصّ آل «روتشيلد» أصدقاء بروست[٢]. وهذه «ألبيرتين» تتوجّه عدّة مرّات إلى هولندا. و«ماريّا» تبتلعها «ألبيرتين» مثلما يبتلع «فانتوي» العالِمَ «فينتون» والموسيقيّ «بيرجيه». وتحت صفحة آخر وجه يكشفه لنا آخر رسم تُقْرَأ الكثير من القسمات الممحيّة. نضيف إليها الفتاة ذات الوردة الحمراء الموجودة في عدّة دفاتر لحساب «**جانب غيرمانت**» و«**سادوم وعامورة**»[٣]. ويطاردها الراوي على نحو كان يمكن معه أن تنشأ

---

(١) الدفتر ٢٥.

(٢) الدفتر ٥٧.

(٣) راجع التمهيد وخطيطات «**سادوم وعامورة**»، المجلّد ٣ من هذه الطبعة.

حبكة لو أن لقاء «جيلبيرت» التي ظنّوها فتاة مجهولة وشذوذ «ألبيرتين» لم يُلقيا بهذا الشبح في فيافي دفاتر المسودّة. ولعلّه يَبْلُغُ بنا أن نقول إن بروست جعل لنفسه شيئاً فشيئاً وعلى مرّ السنين والصفحات والإلهام وحياته الشخصيّة ورغباته، احتياطيّاً من الشخوص غرف منه من أجل نصّه النهائيّ، النصّ الذي أضفى عليه النشرُ أو الموتُ هذه الصفة. إن مصادفات الابتكار الروائيّ تلتقي بقوانين علم النفس: «وفي ما يخصّ «ألبيرتين» لم يعد حتى لديّ شكّ من بعد، كنت متيقّناً من احتمال أن لا تكون هي من لعلّني كنت أحببت، وأنّه كان يمكن أن تكون أخرى غيرها. ولعلّه كان يكفي لذلك أن لا تكون السيّدة «دو ستيرماريا» اعتذرت عن موعدها في المساء الذي كنت سأتناول فيه طعام العشاء معها في جزيرة الغابة. وكان لا يزال يتّسع الوقت آنذاك ولكان انصرف نشاط المخيّلة إلى السيّدة «دو ستيرماريّا»، ذلك النشاط الذي يجعلنا نستخلص من إحدى النساء فكرة عن الفرديّ يبدو لنا معه أنّها فريدة في حدّ ذاتها وأنّها بالنسبة إلينا نصيب مقدّر وضروريّ»(١).

*

في عام ١٩١٠، وهي السنة التي عمل فيها بروست كثيراً وأسرَّ بالقليل عن عمله الفنيّ في رسائله، نلاحظ تقدّماً في الدفاتر المتعلّقة بـ«سوان» و«الفتيات» وآل «غيرمانت». ولكنّما يجدر بنا في عام ١٩١١ أن نقوم مرّة ثانية بتبيان الوضع حول نشأة العمل: فإن كان ثمّة رواية من عام ١٩٠٩، فهناك أيضاً رواية من عام ١٩١١ شبيهة بكنيسة تتعاظم أبعادها مع الزمن. إن مخطوطة «كومبريه» و«من حبّ لسوان» و«أسماء البلدان» كاملة وفي حوزة بروست أيضاً صياغة لـ«**جانب غيرمانت**» في الدفاتر ٣٩ إلى ٤٣ و٤٩؛ و«بيرغوت» و«إيلستير» احتلّا مكانهما. هناك في عام ١٩١١ مسوّدات كثيرة للمجلّد الأخير الذي سيدعى «**الزمن المستعاد**». فالسيّد

(١) «**ألبيرتين المختفية**»، المجلّد ٤ من هذه الطبعة.

«دو شارلوس» وآل «فيردوران» وموت الجدّة - الذي يؤجّل لما بعد - في الدفتر ٤٧؛ وفي الدفتر ٤٨ تقلّبات القلب و«الرذائل والفضائل وكومبريه»؛ وفي الدفتر ٥٠ السيّدة «دو كامبرمير» وزواج «سان لو» وخاتمة «**الزمن المفقود**»، يعني العناوين التي نجدها في «موجز المجلّد الثالث» من طبعة «**جانب منازل سوان**» عام ١٩١٣. هناك إذن صياغة للرواية جاهزة عام ١٩١١ ويمكن أن تحتلّ مجلّدين كبيرين لا واحداً كما هي الحال عام ١٩٠٩. أمّا الأوّل فقد طبع كلّه تقريباً على الآلة الكاتبة؛ وأمّا الثاني فلا يزال مسوّدات. والمجلّد الأوّل هو الذي سيعرضه المؤلّف على الناشر «فاسكيل» عام ١٩١٢. وقد جاء على غلاف هذا النصّ المطبوع على الآلة: «تقلّبات القلب، الزمن المفقود، الجزء الأوّل»، وللمرّة الأولى تظهر فيها الجملة الأولى الحاليّة من «**بحثاً عن الزمن المفقود**»: «كثيراً ما أويت إلى سريري في ساعة مبكّرة».

لقد وقعت ثورة حقيقية في بناء العمل الفنيّ تتعلّق بخاتمته. بادئ ذي بدء ماتت الجدّة والمشهد صِيغَ في دفاتر عدّة. ولكنّ الخاتمة في كتاب «**ضدّ سانت بوف**» كانت حديثاً مع الأمّ: لقد قالوا إنه لم يعد بالإمكان، وقد ماتت الجدّة، اختتام الكتاب بالطريقة نفسها؛ وإنّما يعني ذلك الخلط بين السيرة والعمل الفنيّ. فالأمّ في «**السجينة**» هي التي تحمل للراوي مقالته وليس ثمّة ما يحول دون حديث أدبيّ لاحق. لكنّ بروست اكتشف في «الواقع طريقة جديدة يختتم بها كتابه». فلو عدنا إلى الخاتمة الواردة في الدفتر ٥١[1] لبدا أن الأمر يتعلّق بـ«حفلة الرؤوس الراقصة»، يعني باكتشاف أن الشخوص المخضّبي الوجوه قد شاخوا، واكتشاف الزمن السلبيّ الهدّام. وتعيد صياغة جديدة لعام ١٩١٠-١٩١١ تقديم «حفلة

---

(١) راجع م. بروست: «الفترة الصباحية في منزل الأمير «دو غيرمانت»»، دفاتر «**الزمن المستعاد**»، طبعة نقدية من وضع «هـ. نوفيه» بالتعاون مع «ب. برون»»، غاليمار، ١٩٨٢. هذه الدفاتر تعود لعام ١٩٠٩، إلا أن باحثين آخرين يردّون إلى ١٩١٠ الصياغة الأولى لـ«حفلة الرؤوس الراقصة».

الرؤوس الراقصة» في الدفتر ٥٧ : «لئن كنت أعرف كل المدعوّين تقريباً فما كنت أتعرّفهم إلا كأنّما في حلم أو في حفلة راقصة «للرؤوس» فأخلص إلى محض تشابه مع ذاتيّتهم»(١) أمّا الصياغة الثالثة فستكون صياغة مخطوطة «**الزمن المستعاد**» التي وضعت في أثناء الحرب.

ويورد الدفتر ٥٧ قبل «حفلة الرؤوس الراقصة» جزءاً أوّل عنوانه «العبادة المستمرّة»، وهي تتمّة للدفتر ٥٨. هذا الجزء الأوّل من «الفصل الأخير»، وهو «**الزمن المستعاد**» بالمعنى الحقيقي، يتضمّن من الآن فصاعداً الطرح الجماليّ الذي كان سابقاً، في زمن «**ضدّ سانت بوف**» من نصيب محادثة وقعت وأصبح الآن، على نحو أكثر قربا من الجوّ الروائيّ، نتيجة تجربة. إن اللحظة الأزليّة، الزمن الإيجابي، الزمن الخالص يتعارض والزمن السلبيّ مثلما الشباب والشيخوخة و«بارسيفال» و«أمفورتاس»، إذ كانوا يمثلون «بارسيفال» في صالون الأميرة «دو غيرمانت». ذلك أنّ الراوي، كما هو الأمر في «**الزمن المستعاد**» إذ يعود إلى باريس بعد غياب طويل وقد تملّكه الشكّ حول رسالته، تتّفق له في فندق آل «غيرمانت» سلسلة من الانكشافات ناجمة عن الذاكرة اللاإرادية: «لا، الماضي، الماضي الحقيقيّ، لا، ما كانت الحياة هيّنة القدر. كان لا بدّ أن تكون جميلة جدّاً كيما يتسنّى لإحساسات متواضعة إلى هذا الحدّ، بشرط أن تكون أَذاقَتْنَا إيّاها، ولمحض فترة من الماضي أن تبعث فيّ نشوة فرح واثق إلى هذا الحدّ، فرح لا يُقاوم إلى هذا الحدّ. (. . . .) أهي محض فترة من الماضي؟ ربّما أكثر، شيء كان مشتركاً بين الحاضر 'و' الماضي معاً(٢)». ويسمح «**فرانسوا دو شامبي**» المنقول بمقدار النصف من «كومبريه»، يسمح كذلك باستعادة الطفولة. وفي الصالة يُمَثَّلُ فصل من

(١) المرجع نفسه، ص ١٨٩، الدفتر ٥٧ الورقة ٤١.
(٢) المرجع نفسه، ص ١٤٩، الدفتر ٥٧، قارن بـ«**الزمن المستعاد**»، المجلّد الرابع من الطبعة الحالية.

«**بارسيفال**» ويسمع الراوي «فتنة الجمعة العظيمة». أمّا «فاغنر» فسيؤجّل فيما بعد إلى «**السجينة**» وتحلّ محلّه مقطوعة موسيقيّة مجهولة المؤلّف. و«فانتوي» الذي سَتُعْزَفُ رباعيّة له سيحلّ في هذا المقطع نفسه من الرواية. ويحدّد الراوي نظريّته الجمالية، المقبلة لأنّه يكتشفها إذ ذاك اكتشافاً تامّاً وهي تختلط بنظريّته الأخلاقيّة. وسوف تحذف من «**الزمن المستعاد**» مقاطع حول «سانت بوف» و«راسكين» و«بيرغوت» ولكنّ مجمل الصياغة قريب مذ ذاك منه في حين تبدو «حفلة الرؤوس الراقصة» لعام ١٩١١ مختلفة جدّاً عن الصيغة النهائيّة وأشدّ قصراً منها. إنّ هذه التطوّرات في آب (أغسطس) ١٩١١ تتوافق مع اللمسات الأخيرة لـ«**جانب منازل سوان**» وتؤيد ما أكّده بروست على الدوام أن البداية والنهاية في عمله الفنيّ كُتبتا في الآن نفسه. ومراحل التكوين تظهر أن تصحيح الواحدة يعني تصحيح الأخرى عبر ظاهرة الأواني المستطرقة: فالذكريات اللاإراديّة والمشاهد الموسيقيّة، وبصورة أعمّ، الأجوبة عن الأسئلة الأوّلية تنتقل على هذا النحو من «كومبريه» إلى «**الزمن المستعاد**» وبعد ذلك في هذا الأخير، حينما تتّخذ ملاحق «**سادوم وعامورة**» شكلها، إلى «**السجينة**»، كما تُبرز أخيراً الدفاتر الخاصّة بـ«الفترة الصباحيّة في منزل الأمير دو غيرمانت» أن الجزء الأكثر تجريداً، ونعني «العبادة المستمرّة» يملك في الفترة نفسها، بين ١٩١٠ وآب (أغسطس) ١٩١١ أسلوباً متيناً ويكاد يكون نهائياً: وسوف يضيف بروست إليها ملاحظات كثيرة على الصفحات اليساريّة وفي الدفتر ٧٤ الذي يسمّيه «بابوج» - وقد دخل المكتبة الوطنية عام ١٩٨٥ - ولكنه سيجري تصحيحات قليلة. أمّا «حفلة الرؤوس الراقصة» على العكس، وهي في صياغتها الثانية، بعد الأولى الواردة في الدفتر ٥١، فسيجري تحسينها إلى حدّ بعيد في المخطوطة النهائيّة لـ«**الزمن المستعاد**».

والأمر واحد في ما يخصّ الأسلوب، فليس يتضمّن أيّ من دفاتر ١٩٠٩-١٩١١ جملة أخيرة حقيقيّة. في عام ١٩١٠ نجد في الدفتر ٥١ ما يلي: «لسنا نملك زمناً آخر غير الزمن الذي عشناه على هذا النحو وفي

اليوم الذي ينهار فيه ننهار معه»، وبعيد ذلك وعلى إثر ملاحظة اجتماعيّة: «صحيح». وأخيراً الجزء المخصّص في الدفتر لـ«المركيز دو غيرسي (تتمّة)»، لـ«غيرسي» «شارلوس» العتيد المنحطّ: «كان ينبعث من عينيه الحزينتين بريق مزعج، ويبدو حتى أنّهما تقولان: أنا على ما أنا عليه ممّا لا تعرفونه»[١]. وفي الدفتر ٥٧ لعام ١٩١١: «من أسف أنّي في اللحظة التي ارتعشتْ فيها في داخلي ذات لي أكثر عمقاً وكان عليّ وحدي أن أضعها في مأمن داخل كتاب يعيش من بعدي، أخذت أحسّ أنّه يمكن بين لحظة وأخرى»[٢] والجملة استبْدل بها في المخطوطة النهائية الجملة الأخيرة الحاليّة. أمّا في ما يخصّ الدفتر ١١ الذي يتعلّق جزء منه بنهاية الكتاب، فالنصّ يُوْقَفُ مرّة أخرى لدى خروج الراوي: «تركتُها وخرجتُ»[٣]. وفي الدفتر ٢٠ وهو الأخير في المخطوطة النهائيّة صُرِفَ جهد أسلوبيّ كبير في الجملة الأخيرة. فإن نظرنا فيها فإن نهايتها وحدها هي التي يمكن اعتبارها منجزة؛ فهل الموقف رمزيّ؟ إن بدايتها مشطوبة. أمّا الكلمات الأخيرة، الخاتمة، هذه الكلمات الأخيرة ذات الأهميّة البالغة لأنّها تكرّر الأولى، «منذ زمن طويل» وتختصر الكتاب، فقد وُضِعَتْ أوّلاً: «داخل الزمان». ونلاحظ تراجع هذه الكلمات التدريجيّ أمام التوسّع في بداية ووسط الجملة: فقد ورد في الصياغة الأولى: «لن يفوتني على الأقلّ، بادئ الأمر وقبل كلّ شيء، أن أصف فيه الناس و/ حتى إن انبغى أن يضفي ذلك الحيّز جدّاً المخصّص لها في المكان، حيّزاً في الزمان». وفي الصياغة الثانية: «حتى لو انبغى أن يشبهوا لذلك كائنات عجيبة/ حيِّز تمدّه إلى ما لا نهاية كائنات قبيحة كأنما تشغل مكاناً يتطاول دونما حدود الزمان». وفي الصياغة الثالثة: «حيّز كبير جدّاً في مقابل

---

(١) المرجع نفسه، ص ٣٧، ٤٦، ٦٦.
(٢) «الفترة الصباحية في منزل الأمير دو غيرمانت» (...)، الطبعة المذكورة، ص ٢٣٤.
(٣) المرجع نفسه، ص ٢٤٠.

الحيّز المحدود جدّاً المخصّص لهم في المكان، حيّز يتطاول على العكس دونما حدود/ في الزمان». وفي الصياغة الرابعة: «بما أنّهم يتّصلون في آن معاً، شأن عمالقة تغمرهم السنون، بعهود عاشوها متباعدة وأقبل يتّخذ مكانه فيما بينها الكثير من الأيّام، - الزمان».

تنضاف إلى ذلك مسألة أخرى، مسألة كلمة «النهاية»، ففي أعقاب أيّة صياغة اتّخذت مكانها؟ بالتأكيد قبل الرابعة، ولكن بعد الثالثة. ذلك لأنّ بروست توقّف حينما أفلح في إدخال صورة العمالقة التي ربّما محت «الكائنات العجيبة» - ولأنّه بلغ الاكتمال الإيقاعي أيضاً، وكذلك التأثير الشبيه بالفاصل الموسيقي الصامت، تأثير الخطّ الوحي - لا الخطّين كما هي الحال في طبعة «كلاراك - فيريّه» - الفاصل الذي يسبق عبارة «في الزمان»[١].

تتألّف رواية ١٩١١ إذاً من قسم يغطّي «**جانب منازل سوان**» المقبل و«**في ظلال ربيع الفتيات**»، ولكن بدون «ألبيرتين»، ومن مقطع مجتمعيّ مكرّس لآل «غيرمانت»، وشذوذيّ يتمحور حول «شارلوس» ويجتازه الراوي في بحثه عن السيّدة «دو غيرمانت» أوّلاً، ثمّ عن فتاة ذات وردة حمراء؛ ومن رحلة إلى إيطاليا؛ وأخيراً من خاتمة يشير إليها بادئ الأمر زواج «سان لو» وانحطاط «شارلوس» العتيد، ثمّ اكتشاف الجماليّة والزمان في الفترة الصباحيّة في منزل الأميرة «دو غيرمانت». ولا تبدو المخطوطة جاهزة إلّا إلى حدّ الرحلة إلى «كيركفيل - بالبيك»، أمّا الباقي فمسوّدات مشغولة. وينبغي الآن أن ننظر في المصير الذي يودّ بروست أن يوفّره لهذه المجموعة والذي تكشف عنه مراسلات ١٩١٢.

في النصف الأول من عام ١٩١٢ ثمّة اهتمامان أساسيّان: إنهاء طباعة المخطوطة المنجزة على الآلة الكاتبة، ثم ما لم يسبق أن نظر فيه بروست

---

(١) راجع جان إيف تاديه: «بروست واللا إنجاز»، **المخطوطة غير المستكملة**، منشورات المركز الوطني للبحث العلمي، ١٩٨٦.

منذ تخلّيه عن «**ضدّ سانت بوف**»، عنينا اختيار عنوان. فقد أخذ الكاتب يتبيّن أن مجلّداً واحداً يحتمل أن يكون غير كافٍ، الأمر الذي يطرح مسألة حجوم الجزء الأول والعنوان العام وعنوان كلّ مجلّد بمفرده. ويكتب بهذا الخصوص في آذار (مارس) ١٩١٢ إلى «جان لوي فودوايبه»: «سوف يحوي كتابي ما يقارب ٨٠٠ أو ٩٠٠ صفحة. ولعلّك كنت قرّرت إن انبغى أن يكون ثمّة مجلّدان وعنوانان وألف أمر آخر!»[١] أمّا لـ«جورج دو لوريس» فيقول: «أينبغي أن أنشر مجلّداً من ٨٠٠ أو ٩٠٠ صحفة؟ لكنّما كتابان بـ ٤٠٠ صفحة للواحد، لكلّ منهما عنوان مختلف ويجمعهما عنوان عام واحد، إن ذلك أقلّ قبولاً لديّ ولكنه يروق الناشرين أكثر»[٢]. ويروي بروست لمراسله ذاته عن خمسة أجزاء، أربعة منها في المجلّد الأوّل، ولكنه لا يشير إلى تقسيمات الثاني. وفي نيسان (أبريل) أو أيّار (مايو) يتوقّف عند مجلّدين بـ٧٠٠ صفحة للواحد ويفضلهما، ولن يبدّل من بعد، عنواناً عاماً وعناوين خاصّة، كما هي الحال في «التاريخ المعاصر» لـ«أناتول فرانس»[٣]. أمّا بالنسبة إلى العنوان العام فإنّه يؤلف لائحة يطبعها إلى حدّ بعيد اتّجاه أواخر القرن وهي أقرب إلى «**المسرات والأيّام**» منها إلى «**بحثاً عن الزمن المفقود**» ولكنما يسمها هوس الماضي: «نوازل الماضي/ أمام بعض نوازل الماضي/ أمام بعض نوازل الأيام الخوالي/ انعكاسات في اللون القديم/ ما نرى في الألوان القديمة/ وهج الماضي/ الأيّام المتأخّرة/ الأشعة القديمة/ زائر الماضي/ زيارة الماضي المتأخر/ الماضي المؤجل/ الماضي المتباطئ/ آمال الماضي/ مسافر الماضي/ انعكاساتالزمان/ مرايا الحلم»[٤]. إن هذا الخيار غير المتجانس للآمال يبرز لنا بأيّة عناية وأيّ بطء وأيّة صعوبة انتقل بروست من عناوين رديئة إلى

---

(١) **مراسلات**، الجزء الحادي عشر، ص ٦٨.
(٢) المرجع نفسه، ص ٧٦.
(٣) المرجع نفسه، ص ١١٨ - ١١٩.
(٤) المرجع نفسه، ص ١٥١، رسالة من النصف الأول العام ١٩١٢ إلى «رينالدوهان».

أخرى جميلة؛ ولهذه العناوين أيضاً قصّتها وتخطيطاتها وهي تصلنا مثقلة باحتمالات لم تتخذ شكلاً.

وفي تشرين الأول (أكتوبر) ينقل بروست إلى السيّدة «ستراوس» أنّه فكّر في«**الزمن المفقود**» عنواناً للمجلّد الأوّل وفي«**الزمن المستعاد**» عنواناً للثالث[1] حينذاك يُبْتَكرُ التعارض الذي يلازم العنوان الأخير دون أن يكون لقي المجلّد الثاني الذي لا يرغب به بروست نصّ عنوانه: ذلك لأنه حين قدّم للناشر «فاسكيل» المجلّد الأوّل مطبوعاً على الآلة الكاتبة حدّثه عن القسم الثاني الذي يمكن أن يصدر في مجلّدين أو مجلّد واحد ولا يزال «في بطون الدفاتر»[2]: «بما أنّني أعتقد أنّك لن تأذن لي بأن أدوّن «١» على المجلّد، فإنّي أطلق على هذا المجلّد الأول عنوان «**الزمن المفقود**». وإن أمكنني حشر البقية بأكملها في مجلّد واحد فسأسميّها «**الزمن المستعاد**». وسأسجّل فوق هذه العناوين الخاصّة العنوان العام الذي يلمّح في عالم الأخلاق إلى مرض يصيب الجسم: «تقلّبات القلب»[3]. نشاهد هنا بروز العنوان الذي سيحافظ عليه بروست على مدى عام ويضعه في النهاية في «**سادوم وعامورة**» بمثابة عنوان فرعيّ لأحد الفصول. ويتألّف المجلّد الأوّل من ثلاثة أقسام «كومبريه» و«من حبّ لسوان» و«أسماء البلدان»؛ ويتضمّن هذا الأخير الرحلة إلى «بريكبيك»، و«كيركيفل» سابقاً و«بالبيك» لاحقاً، ولكن بدون قصّة الحبّ على شاطئ البحر.

في كتاب إلى «غاستون غاليمار» بُعَيْد الخامس من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٢[4]، يفكّر بروست بادئ الأمر بمجلّدين ويطرح عليه اسئلة

---

(١) مراسلات، الجزء الحادي عشر، ص ٢٤١.

(٢) المرجع نفسه، ص ٢٥٥ - رسالة مؤرّخة في ٢٨ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩١٢.

(٣) المرجع نفسه، ص ٢٥٧ - ورد التنويه نفسه على «قمصان» النصّ المطبوع على الآلة الكاتبة. راجع م. بارديش: «**مارسيل بروست روائيّاً**»، الطبعة المذكورة، الجزء الأول، ص ٢٣٨ - ٢٤٠.

(٤) م. بروست، غ. غاليمار: **مراسلات**، وضع وتقديم وتعليق «باسكال فوشيه» غاليمار ١٩٨٩ (مجموعة بلانش)، ص ١٠ - ١٤.

تقنّية يجيب عليها الناشر في ٨ تشرين الثاني (نوفمبر) بالعبارات التالية: «أولاً - يمكننا إخراج مجلّدات من ٥٥٠ صفحة تقريباً - و٣٥ سطراً - و٥٠ حرفاً في السطر الواحد. لقد صدرت عدّة روايات في مجموعتنا بـ٣٣ سطرا في الصفحة. ثانياً - يمكن طرح المجلّد للبيع في اعتقادي في آذار (مارس)، وربّما في ١٥ شباط (فبراير) - في ما يخصّ الجزء الأول والبقيّة في أيّار (مايو). ثالثاً - ربّما بدا لي من غير اللائق حقاً أن لا أقّر لك بحق إهداء كتابك إلى من ترغب. عذرك مرّة أخرى. ولعلّه يزعجني حقاً أن تصنّفني في عداد الناشرين. إنّي ألحّ على ذلك، ويسعدني أن ألقاك مجدّداً وأعتذر إليك جهاراً، وأن أجيء في الوقت نفسه شخصيّاً لاستلام نسخة الآلة الكاتبة»[1]. ويقترح بروست في جوابه عن الرسالة ثلاثة مجلّدات: «على سبيل المثال «تقلّبات القلب» بمثابة عنوان عام. المجلّد الأول: «**الزمن المفقود**» بمثابة عنوان فرعي. المجلّد الثاني: «**العبادة المستمرّة**» (أو ربّما «**في ظلال ربيع الفتيات**») بمثابة عنوان فرعي. المجلّد الثالث: «**الزمن المستعاد**»[2] بمثابة عنوان فرعي». وفيما كان بروست يعتقد بإمكان صدوره عن دار «غاليمار» رضخ هذا الأخير فيما يبدو لقرار لجنة القراءة في «**المجلّة الفرنسيّة الجديدة**» بدافع من «جيد» يتبعه «دروان» و«شلومبرجيه» و«رويترز» و«كوبو»[3]. وسوف يؤكّد «غاستون غاليمار» فيما بعد لبروست أنْ لم يكن له يد في هذا القرار لأنه لم يكن آنذاك صاحب الأمر والنهي في دار النشر.

وقد جرى نشر هذا المجلّد الذي رفضه «فاسكيل» و«غاليمار» و«أولندورف»، جرى نشره كما نعلم على يد «بيرنار فراسيّه» وعلى نفقة المؤلّف. وبعيد النصف من أيّار (مايو) ١٩١٣ صدر للمرّة الأولى بدلاً من

---

(١) المرجع نفسه، ص ٤١.
(٢) المرجع نفسه، ص ١٧.
(٣) راجع آ. أنكليس: «أندريه جيد» والفريق الأوّل في «**المجلّة الفرنسية الجديدة**»، غاليمار، الجزء الثاني ١٩٨٦، ص ٣٩٠ - ٣٩٣.

«**تقلّبات القلب**» الوارد على أوّل مجموعة من التجارب المطبعيّة، وفي طور التصحيح إذن، العنوان العام الذي نعرفه مقروناً بعنوان الجزءين ١، ٢ ضمن تقسيم مؤقّت إلى ٣ مجلدات: «سوف يدعى الكتاب: «**جانب منازل سوان**» بالنسبة إلى المجلّد الأول. و«**جانب غيرمانت**»، على الأرجح، بالنسبة إلى الثاني. أمّا العنوان العام للمجلّدين فسيكون «**بحثاً عن الزمن المفقود**»[١] وفي شباط (فبراير) اقترح بروست على «غراسّيه» تقسيم إجماليّ الألف وخمس مئة صفحة، وقد حسبت على وجه التقريب بما أن نصفها لا يزال على دفاتر المسوّدة، إلى ثلاثة مجلّدات يستخلص الأخيران من تقسيم الجزء الثاني. والواقع أن المجلّد الثاني سوف يتضمّن أيضاً نهاية الجزء الأول، بعدما حكموا أنّه مفرط الطول، ويجرى تأليفه عام ١٩١٤ على أساس النسخ التجريبيّة الطباعيّة بالعنوان التالي: «**جانب غيرمانت**»، بيد أنّه لا يُنْشَر. ولكن لماذا غيّر بروست العنوان العام؟ إنّه يجيب عن هذا السؤال في هذا الكتاب نفسه الموجَّه إلى «غراسّيه»: «مردّ هذا التغيير أنّي في هذه الأثناء شاهدت إعلاناً عن كتاب للسيّد «بينيه فالمر» عنوانه «**اضطراب القلب**». ولا بدّ أن يكون ذلك تلميحاً إلى ذات الحالة المرضيّة التي تطبع القلوب المتقطّعة النبض، وسوف أخص بعنوان «**تقلبات القلب**»[٢] محض فصل من المجلّد الثاني. أما الأسباب التي دعت بروست إلى اختيار «**بحثاً عن الزمن المفقود**» فلسنا نعرفها. فهل فكّر في «**البحث عن المطلق**» لِ«بلزاك»؟ وحرف الجرّ (A) (في) كان يمكن استبعاده، إلا أن استخدامه، وهو نادر ولكنّه موفّق، يولي الكتاب حركة ارتحال كبير.

---

(١) **مراسلات**، الجزء ١٢، ص ١٧٦.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٧٧، بعيد النصف من أيار (مايو) ١٩١٣. هنالك سبب آخر ربّما كان وارداً وقد بيّنه لِ«كوبو»: «إن التلاعب بالألفاظ الوارد في تسمية هذا المرض مقروناً بتسمية «الزمن المفقود» كان يمكن أن يخلّف «انطباعاً بالتحذلق»، المرجع نفسه، ص ٢٤٥ في رسالة من آب (أغسطس) ١٩١٣.

لقد حلّ «**جانب منازل سوان**»، وهو عنوان المجلّد الأول المعدّ للصدور، حلّ إذاً محلّ «**الزمن المفقود**» على الرغم من نصائح بعض الأصدقاء الذين يجدونه «غير معقول لفرط ما هو عادي»[(١)]. ويردّ بروست بالاستشهاد بـ«**الأحمر والأسود**» و«**معرفة الشرق**» و«**بشارة مريم**»، وليست في ما يخصّها «عناوين شاعريّة»[(٢)]. فالعنوان ينبغي أن يعكس بساطة الموضوع والتأليف، لا شاعريّة كاذبة: «أما قلت لكم إن «جانب منازل سوان» جاء بسبب الجانبين الكائنين في «كومبريه»؟ تعلمون أنْهم يقولون ذلك في الريف: «هل أنت ذاهب إلى الجانب الذي يسكن فيه السيّد روستان؟»[(٣)] وفي نهاية المطاف يصدر مجلّد من ٥٣٧ صفحة في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٣. لقد اضطرّ بروست إذاً أن ينقل إلى بداية المجلّد الثاني ما كان ينبغي أن يكون خاتمة «جانب منازل سوان»، أي «عشر أوراق مسوّدة وتزيد»[(٤)]. وأن يختم بحادثة غابة بولونيا المهجورة، وكانت قبلها في موقع أبعد. ويصدر بيان عن «غراسّيه» يقدم هذا المجلّد على أنّه الأوّل من «ثلاثيّة»[(٥)]. ويأتينا فهرس دار النشر بمعلومات إضافيّة حول تصميم هذه الثلاثيّة: «سوف يصدر في عام ١٩١٤: «**بحثاً عن الزمن المفقود**» - «**جانب غيرمانت**:/ في منزل السّيدة «سوان» - أسماء البلدان: - رسم أولي للبارون «دو شارلوس» و«روبير دو سان لو» -

---

(١) رسالة من «لوي دو روبير»، تموز (يوليو) ١٩١٣، المرجع نفسه، ص ٢٢. راجع كذلك، ص ٢٢٢.

(٢) **مراسلات**، الجزء ١٢، ص ٢١٨.

(٣) المرجع نفسه، ص ٢٣٣، رسالة تموز (يليو) ١٩١٣ إلى « لوي دو روبير». في هذه الرسالة نفسها نجد الاقتراح الذي يتضمّن العناوين الثلاثة الأخرى للمجلّدات الثلاثة: «**عصر الأسماء**»، «**عصر الكلمات**»، «**عصر الأشياء**».

(٤) المرجع نفسه، ص ٢٣٣، كتاب مؤرّخ في تموز (يوليو) ١٩١٣ إلى «ب. غراسيّه».

(٥) المرجع نفسه، ص ٢٨١. بيان صدر في «**البيبلوغرافيا الفرنسيّة**» في ١٤ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٣.

أسماء الأشخاص: دوقة «دو غرمانت» - صالون السّيدة «دو فيلباريسس»/ «**البحث عن الزمن المفقود**» - «**الزمن المستعاد**»: / «**في ظلال ربيع الفتيات**» - الأميرة «دو غيرمانت» - السّيد «دو شارلوس» وآل «فيردوران» - وفاة جدّتي - تقلّبات القلب - الرذائل والفضائل في بادوفا وكومبريه - السّيدة «دو كامبرير» - زواج «روبير دو سان لو» - العابدة المستمرّة».

نلاحظ في هذا التصميم الذي سيلغيه المستقبل أن «**جانب منازل سوان**» الأوليّ، الذي كان يتضمّن الإقامة الأولى على شاطئ البحر وجاء بمثابة افتتاحيّة لمجمل الرواية إذ يعرّف بسائر شخوصها، قد اقتطع منه «في منزل السّيدة سوان» و«أسماء البلدان: البلد» إلى جانب «رسوم أولى بِ«شارلوس» و«سان لو». إن ما سوف يصبح في عام ١٩١٩ «**في ظلال ربيع الفتيات**» يختلط إذاً بـ«**جانب غيرمانت**»[(١)]. ولسوف تضفي الإضافات والتقسيمات، على نحو مفارق، متانة أكبر على البنية، وستفقد بعض الفصول في الجزء الثالث، مثل «بادوفا وكومبريه» و«السّيدة دو كامبرير» من أهميّتها. إن هذا البناء بأجزائه الثلاثة، والذي سنتبيّن أنّه يحافظ على منطق خاصّ هو منطق عناوينه، سوف يقلب رأساً على عقب من جرّاء إدخال واقعتين رئيسيّتين هما قصّة «ألبيرتين» وحرب ١٩١٤-١٩١٨. أمّا فصل «**في ظلّ ربيع الفتيات**» المعدّ للمجلّد الثالث فسوف يضحي، بعد ضمّه إلى الفصول المستخلصة من «**جانب منازل سوان**» لعام ١٩١٢، سوف يضحي بمفرده جزءاً ثانياً؛ والحبّ الذي يروي عنه عام ١٩١٣ لم يكن موجّهاً إلى «ألبيرتين» التي لم تُبْتَكر بعد؛ بل إلى «ماريّا». إن

---

(١) في الوقت الذي يصدر فيه «**جانب منازل سوان**»، وعلى الرغم من هذا الفهرس، يكتب بروست لِـ«روبير دو فلير» بأن الجزء ٢ سوف يدعى «**جانب غيرمانت**» أو ربّما «**في ظلال ربيع الفتيات**» أو ربّما «**تقلبات القلب**». أمّا الثالث فـ«**الزمن المستعاد**» أو ربّما «**العبادة المستمرّة**» (مراسلات، الجزء ١٢، ص ٢٩٨)، وفي صفحة ٣٠٩: «سيدعى المجلّد الأخير «**الزمن المستعاد**»، والثاني «**في ظلال ربيع الفتيات**» (لم يتقرّر بعد). أحد الأقسام يدعى «العبادة المستمرّة» (رسائل كتبت ما بين ٨ و١٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٣).

الأحداث التي تحيط ببروست في الفترة الفاصلة بين حزيران (يونيو) ١٩١٣ وصيف ١٩١٤، ثم توقّف أيّ عمل طباعيٍّ في دار «غراسّيه» بسبب الحرب، سوف تبدّل كلّ الخطط الموضوعة وتضاعف على نحو غير متوقّع تماماً أحجام المؤلّف الذي سيقفز من ١٥٠٠ إلى ٣٠٠٠ صفحة في فترة ثماني سنوات. لقد شرع بروست يتوقع ذلك وهو في بحر من الغمّ في كانون الأول (ديسمبر) عام ١٩١٣: «جرى وضع ١٩١٤ بناء على طلب الناشر فقط ولتكون بمثابة بداية لسلسلة. ولكن حتى بافتراض أنْ مكّنتني صحّتي من وضع اللمسات الأخيرة على كلّ هذه المجموعة، فلن تجهز قبل ثلاثة أو أربعة أعوام. كلّ شيء مكتوب، ولكن ينبغي إعادة النظر في كلّ شيء»[(١)]. وهكذا يبدو مرّة أخرى أن كلّ شيء ينهار حينما يخال بروست أنّه بلغ الهدف.

*

في عام ١٩١٤ يُطلق على المجلّد الثاني من «**بحثاً عن الزمن المفقود**» عنوان «**جانب غيرمانت**». إن الفهرس الذي سبق أن ذكرناه والمسوّدات الطباعيّة المنجزة في دار «غراسّيه» تمكننا من معرفة محتواه معرفة دقيقة، وهو مختلف تماماً عن المجلّدات المعروفة حاليّاً بهذا الاسم. إن البداية لا تزال تجري «في منزل السّيدة سوان»[(٢)] كما يشير بروست إلى ذلك آنذاك وفي باريس. أما الفصلان بعنوان «أسماء البلدان: البلد» و«الرسوم الأولية للبارون دو شارلوس وروبير دو سان لو» فسيصبحان الجزء الثاني من «**في ظلال ربيع الفتيات**» كان بروست يروي فيه عن إقامة أولى في «بالبيك» نجد فيها جميع الشخوص المعروفين في حينه باستثناء الفتيات، مع أن بروست غيّر في تلك الفترة في دفاتره هيكليّة الإقامة في «بالبيك» تغييراً كاملاً وذلك بإدخال الفتيات فيها، وقد جُعِلْنَ

(١) **مراسلات**، الجزء ١٢، ص ٣٦٧ رسالة مؤرخة في ٨ كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٣ إلى «أندريه بونييه».

(٢) هو العنوان الأوّل لِ «حول السيّدة سوان».

أول الأمر في إقامة ثانية، ثمّ «ألبيرتين» التي ابْتُكرتْ منذ فترة[1]. فقد سطر منذ عام ١٩١٣ «فصلاً ثانياً/ في ظلال ربيع الفتيات» في الدفتر ٣٤ ليكون تتمّة لفصل أول من «**جانب غيرمانت** -١» يزور فيه الراوي السيّدة «دو فيلباريسيس» ويلتقي الدوقة «دو غيرمانت». ثمّ هناك إقامة ثالثة في «بالبيك» معدّة للجزء الثالث وهو «الزمن المستعاد»، ولا يزال منها أثر غالباً ما ينسون أخذه في الحسبان في نهاية «اختفاء ألبيرتين»، ويلتقي الراوي فيه «روبير» و«جيلبيرت» و«سان لو» و«بلوك» و«إيميه». وفي عام ١٩١٤ يتوسّع بروست توسعاً كبيراً في الإقامتين الأوليين في «بالبيك» على حساب الإقامة الثالثة وسوف يستمر في هذا المنحى في المسوّدات الطباعيّة المعدّة لإصدار «**في ظلال ربيع الفتيات**» و«**سادوم وعامورة**».

نعود إلى هذا الجزء الثاني، أي إلى «**جانب غيرمانت**» الذي أخرجت مسوّداته الطباعية عام ١٩١٤، ولكنّما تجاوزته مذ ذاك المسوّادت المخطوطة: إن القسم المخصّص حقّاً لآل «غيرمانت» والذي عنوانه في فهرس «جانب منازل سوان» «أسماء الشخوص»، وذلك لتوفير نوع من التضادّ، من الأثر التناظريّ مع «أسماء البلدان»، يتألّف من فصلين: «دوقة غيرمانت» و«صالون السيّدة دو فيلباريسيس». في عام ١٩١٠-١٩١١ «بيّض» بروست الدفاتر الخمسة ٣٩-٤٣ التي تزوّدنا بصياغة أولى متتابعة لِـ«جانب غيرمانت»[2]، وفي عام ١٩١٢-١٩١٣ يسطّر مخطوطته في الدفاتر ٣٤، ٤٤، ٤٥[3]، وفي عام ١٩١٢-١٩١٣ يدفعها إلى الآلة الكاتبة، وفي عام ١٩١٤ نصل إلى المسوّدات الطباعيّة التي يقابلها ما يقرب من ثلاث مئة صفحة من طبعة «لابلياد». هذه الرواية التي تتضمّن «**جانب غيرمانت** -١» و«**جانب غيرمانت** -٢» تحكي على التوالي إقامة الراوي في شقّة جديدة مجاورة لآل «غيرمانت» وأحلام اليقظة التي تراوده حول الأسماء

---

(١) راجع تمهيد «أسماء البلدان: البلد» في الجزء الثاني من هذه الطبعة.

(٢) راجع تمهيد «**جانب غيرمانت** - ١» الجزء الثاني في هذه الطبعة.

(٣) المخطوطة مرقمّة حتى الصفحة ٢٤٤.

والفترة الصباحيّة في منزل السيّدة «دو فيلباريسيس» والجهود التي يبذلها البطل للتعرّف إلى الدوقة والأمسية في المسرح والإقامة في مدينة حاميةٍ عسكريّة؛ وأمّا بالنسبة إلى «**جانب غيرمانت -٢**» فالأمسية في منزل السيّدة «دو فيلباريسيس» والعشاء في منزل دوقة «غيرمانت» وخواطر حول صالون آل «غيرمانت» وزيارة الراوي لدوق ودوقة «غيرمانت» وحادثة حذاء الدوقة الأحمر والأمسية في منزل الأميرة «دو غيرمانت» استباقاً لما ستكون عليه بداية الفصل الأوّل من «**سادوم وعامورة - ٢**». لكنّ هذه المجموعة الشديدة التماسك لن يمكن إدراجها كاملة، لضيق المكان، في الجزء الثاني المدفوع إلى التجربة الطباعيّة عام ١٩١٤ والذي يتوقّف في نهاية الفترة الصباحيّة في منزل السيّدة «دو فيلباريسيس» حينما يستقلّ السيّد «دو شارلوس» عربة. وفي مقابل ذلك يغيب عنه مرض الجدّة كما تغيب «ألبيرتين». والمهمّ أنّ «جانب غيرمانت» هذا، إن كان تامّاً أو مقسّماً، إنّما يروي في الآن نفسه انتقال البطل من فترة المراهقة إلى الشباب وارتقاءه الاجتماعيّ إذ هو يلج الدوائر الأوفر سمّواً والأكثر انغلاقاً من علية القوم والثمن الذي يدفعه مقابل هذا المكاسب. ذلك أن تخلّياً مزدوجاً عن الحبّ والرسالة الفنيّة هو الذي يؤلّف عقوبة هذه الترقية الاجتماعية. فالراوي لا يمكن قبوله في مملكة الدوقة إلّا إذا تخلّى، شأن «ألبريش» في «**ذَهَبِ الراين**»، عن حبها؛ ثمّ إنّه، بغية مخالطة الطبقة الراقية، يحجم عن الكتابة. ولكن العقوبة أشدّ قسوة بعد، فالاقتراب من آل «غيرمانت» يعني تغييب الشعر الذي يتضمّنه اسمهم، فأمر أسماء الشخصيات كأمر أسماء البلدان، والأسماء تكذّب الأحلام. إن «**جانب غيرمانت**» يكرّر «**الأوهام المفقودة**» مثلما يكرّر «**سادوم وعامورة**» «**أمجاد الغواني وصنوف تعسهنّ**». حتى عناوين الكتب، مثلما تبيّن ذلك المسوّدات غير المحتفظ بها حول «والتر سكوت» في الدفتر ٣٩، تخيّب الآمال حينما الذكرى تعقب الحلم: «سيكون ذلك أفضل على الأرجح بالنسبة إلى إحدى الفتيات»، أو «جيلبيرت» فيما بعد، أو إلى كتاب

(استوحي من العنوان: «**أخبار كانونغات**» و«**مياه سان رونان**» و«**وودستوك**» و«**ويفرلي**» و«**بيفيريل دو بيك**»)[1]». إن دراسة المسوّدات تُظهر أنّ الإضافات تعزّز الشعور بالخيبة التي تنجم عن لقاء دوقة «غيرمانت»، هذا اللقاء الذي صادف بروست الكثير من العنت في إيجاد مكان له فيؤجّله دون انقطاع. ولكنّ هذا التأخير يصدر عنه تأثير مزدوج تقنيّ ونفسيّ. فهذا المقطع من القصّة الذي جرى تأليفه على هيئة وحدات كبيرة بسيطة تطوّرت بادئ الأمر على نحو منفصل في الدفاتر ناتج إذن عن عمل تجمعيّ هامّ أكده بروست نفسه: «اقتضاني المنطق العاديّ بعدما قابلت شاعريّة اسم المكان «بالبيك» بتفاهة البلد «بالبيك»، أن أسلك المسلك نفسه بالنسبة إلى اسم الشخص الخاصّ بـ«غيرمانت». هذا ما ندعوه كتباً ضعيفة «التأليف» أو هي غير «مؤلّفة» على الإطلاق»[2]. لقد شاء بروست أن يضفي على مادّة الكتاب لوناً أكثر قرباً من «بلزاك» عن طريق طموحه الاجتماعي وعدد الشخوص ومشاهد ضخمة لمآدب وصالونات، ومن «ديستوييفسكي» عن طريق تصويب الأوهام والمعتقدات[3]. إن هذا اللون يتعارض مع المسحة الشاعريّة التي تذكّر بـ«نيرفال» و«بودلير» و«راسكين» في الجزء الأول مثلما الطفولة مع سنّ البلوغ.

*

(١) دفتر ٣٩، الورقة ١٠ على القفا.

(٢) **المراسلات العامّة لمارسيل بروست**، دار نشر بلون، الجزء الثالث، ١٩٣٢، ص ٣٠٥ – ٣٠٦، رسالة مؤرخة في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٢٠ موجّهة إلى إ. مارتان – شوفييه.

(٣) م. بروست – غ. غاليمار: **مراسلات**، الطبعة المذكورة، ص ٢٩٧: «[.....] «**جانب غيرمانت**» المؤلّف بطريقة أقرب ما تكون إلى «دوستوييفسكي» – واعتذر عن الكلمة – ثمّ «لو كان» جانب غيرمانت أفضل وجديراً بمثل هذا الشعار لطبّقت عليه بيت «بودلير» التالي: «ولكن، حيث تتدفّق الحياة وتضطرب دون توقّف» (رسالة مؤرّخة في تشرين الثاني/ (نوفمبر) ١٩٢٠ «غاستون غاليمار»).

تعلن طبعة «**جانب منازل سوان**» في عام ١٩١٣ أخيراً عن مجلّد ثالث وأخير هو «**الزمن المستعاد**»، ومادّته متضمّنة في عدة دفاتر كُتِبَتْ عام ١٩١٠-١٩١١ ومنها ما كان على أساس عناصر أكثر قدماً. وقد جُمِعَتْ هذه المادّة في الطبعة الحاليّة. لقد سبق أن تكلّمنا عن الدفترين ٥٨، ٥٧ اللذين يرويان عن الفترة الصباحيّة الأخيرة واكتشاف «الزمن المستعاد». وتتضمّن الدفاتر ٤٧ و٤٨ و٥٠ مقاطع سوف تصدر في «**جانب غيرمانت – ٢**» وفي «**سادوم وعامورة**» و« ألبيرتين المختفية»[1]. وتشكّل الخلاصة في نظر بروست جرداً للوحدات المكتوبة، مع أنّها غير مدرجة على الدوام ضمن سرد متّصل، هذه الوحدات التي تشكّل احتياطيّاً بين يديه، ولكنّ هذا الجرد غير منجز وغير تام ولا يزوّد بتفصيل المشاهد. أمّا الفصل الأول المحدّد، وعنوانه «**في ظلال ربيع الفتيات**»، فيردّنا إلى الإقامة الثانية في «بالبيك». وربّما قابلت «أميرة غيرمانت» حفل الاستقبال في منزل الأميرة، هذا الحفل الذي رأى النور في كتاب «**ضدّ سانت بوف**» وجرى التوسّع فيه في عام ١٩١٠-١٩١١ في الدفترة ٤٣ وسيتّخذ موقعه النهائيّ في الفصل الأول من «**سادوم وعامورة -٢**». أمّا العنوان الذي قوامه «السيّد دو شارلوس وآل فيردوران» فمستوحى من وصف لصالون آل «فيردوران» الكائن في ساحة «مالزيرب» ومن حفلات استقبال يقيمها أصدقاء «أوديت» القدامى في«فيل دافريه» التي يصلونها بالقطار. ويتمّ استقبال «غورسي» وهو «شارلوس» العتيد وصديق «عازف البيانو الشاب» في ذلك الصالون. بيد أنّ «السيّد دو شارلوس وآل فيردوران» لا يفسّر على الإطلاق المكان الضخم الذي يشغله الشذوذ في المسوّدات على صعيد عدد الصفحات والمدلول ومن خلال شخصيّة «شارلوس»، مع أن بروست

(١) راجع ك. يوشيكاوا: «**دراسات حول تكوين «السجينة» انطلاقاً من مسوّدات لم تنشر بعد**»، أطروحة دكتوراه - حلقة - ثالثة - جامعة باريس - السوربون، ١٩٧٦ - الجزء الأوّل ص ٢٠ - ٣٤ (نسخة مطبوعة على الآلة الكاتبة).

شدّد في حينه، منذ رسالته إلى «فاليت» عام ١٩٠٩، على أهمية الشخصيّة والموضوع: «أن أحد الشخوص الرئيسيّين شاذّ جنسيّاً»[١]. ويقدّم وصفاً طويلاً لـ«فاسكيل»، وهو ناشر آخر تَوَقَّعَهُ، في تشرين الأول (أكتوبر) ١٩١٢، عن شخصه ومغامراته وهو يشير إلى عنصر الجدّة فيه[٢]، كما يسطّر لِ«غاليمار» رسالة بعد بضعة أيّام: «هذه الشخصيّة مبدّدة إلى حدّ ما وسط أقسام مختلفة تماماً كي لا يتّفق لهذا المجلّد شكل دراسة أحاديّة الموضوع خاصّة [...] ولكنّنا على أيّة حال نرى هذا السيّد العجوز يقنص بوّاباً وينفق على عازف بيانو»[٣]. إنّ ما لا يوحي به ملخّص ١٩١٣ بل تشير إليه المراسلات وتؤكّده الدفاتر التي سيخرج منها «**سادوم وعامورة**» إنّما هو وجود الثلاثيّ «شارلوس - جوبيان - موريل».

ثمّة عنصر آخر يرفد الحبكة ولا يظهر في هذه الخلاصة، بل في الدفاتر ٣٦، ٤٣، ٤٩، قوامه مطاردة غراميّة أخرى، فالراوي يجدّ في البحث عن فتاة ذات ورود حمراء وعن وصيفة البارونة «بوتبوس». هناك في صميم المؤلّف منذ ١٩٠٨، وبغية رفد الحبكة المركزيّة فيه، بحث عن امرأة وربّما عن حبّ. لكنّنا إذا قارنّا المسوّدات التي ننشرها بالصياغة النهائيّة حيث تُزيح «ألبيرتين» الفتاةَ والوصيفة نتبيّن أن ابتكار شخص «ألبيرتين» قد سدّ فراغاً عظيماً، فقد حلّ محلّ أهواء لا طائل تحتها وغراميّات عابرة جلالُ هوى «راسيني» عنيف مأساوي. وسينضاف إلى ذلك طرح جديد لم يرد في المشروعات الأوليّة ولكنّه وارد في «**المسرات والأيّام**»، عنينا الشذوذ الجنسيّ الأنثوي: وهكذا تُوَازِنُ «عامورة» «سادوم» موازنة حقيقيّة.

---

(١) **مراسلات**، الجزء التاسع، ص ١٥٥.

(٢) المرجع نفسه، الجزء الحادي عشر، ص ٢٥٦.

(٣) م. بروست - غ. غاليمار: **مراسلات**، الطبعة المذكورة، ص ١٨، رسالة سُطِّرَتْ بُعَيْد الثامن من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٢.

لا بدّ إذن، إن عدنا إلى فهرس أواخر ١٩١٣، من قصر بيان موجودات الدفاتر المكرّسة منذ ١٩٠٨-١٩٠٩ لفكرة «سادوم»[1] على اسم السيّد «دو شارلوس» وحده. وفي الترسيمات الأولى يكتشف الراوي طبيعة «دو غورسي - شارلوس» الحقيقيّة في دار الأوبرا وفي أثناء عزف موسيقى «فاغنر». ويقود هذا الاكتشاف إلى المقالة حول الشذوذ الجنسيّ التي سبق أن وردت في «ضدّ سانت بوف» وسوف تشكّل «**سادوم وعامورة -١**» وهي بعنوان: «سلالة العمّات والخالات»[2]، وربّما تلى ذلك الالتقاءُ بالبوّاب والعلاقة مع عازف البيانو، وتنشأ هذه الأخيرة، في الصياغة الأولى، في محطّة «سان لازار». غير أن فصل «السيّد دو شارلوس وآل فيردوران» في عام ١٩١٣ أقلّ «إخلالاً بالحشمة» ممّا ستكون عليه التوسّعات الكبيرة التي سيرفد بها بروست هذه الشخصيّة ويضخّمها في أثناء حرب ١٩١٤. أمّا الفصل التالي وعنوانه «وفاة جدّتي» فيشكّل الآن افتتاحيّة «جانب غيرمانت -٢»، إنّ هذا النصّ المخطّط له منذ «ضدّ سانت بوف» ودفتر ١٩٠٨ إنّما يعني نهاية الطفولة والعزلة في مواجهة الحياة والموت واختفاء «كومبريه»، ولكنّ البطل لا يدرك في الحال عِظَمَ فقده وسيشكّل الكشف عن ذلك مادّة الفصل التالي: «تقلّبات القلب» وهو هامّ إلى حدّ أراد بروست إطلاق هذا العنوان على الكتاب بمجمله. ذلك لأنّ البطل يستأنف مسعاه الغراميّ في البحث عن الآنسة «دو كمبرليه» وهي السيّدة «دو ستيرماريّا» العتيدة، وعن فتاة سوف تتكشّف عن كونها «جيلبيرت» وعن الوصيفة التي يلاحقها في إيطاليا.

تصف «تقلّبات القلب» في صياغة ١٩١٢ الأحلام التي تراود خيال الراوي والتي تبعث من بين الأموات جدّته في غضون هذه الرحلة إلى إيطاليا. في الدفتر ٤٨ يحلم الشابّ بجدّته لدى توقّفه، في طريقه إلى

---

(١) راجع تمهيد «**سادوم وعامورة**»، الجزء الثالث في هذه الطبعة.

(٢) «**سادوم وعامورة**»، الجزء الثالث من هذه الطبعة، ترسيمة ١.

البندقية، في غرف فندق في «ميلانو»؛ أمّا في الدفتر ٥٠ ففي قطار العودة من البندقيّة. وفي المسوّدات توافي الراوي ستّة أحلام فحسب وينبغي تقريبها من أحلام ١٩٠٨.

وبما أن البطل يعود فيلقى في «بادوفا» وصيفة البارونة «بوتبوس» فإنّ تعارضاً شديداً ينشأ بين البطلتين، بين كسب الواحدة وبعث الأخرى. وإنّما تعني «تقلّبات القلب» ذاكرة الجسد والنسيان الذي تليه عودة الماضي القاسية، إنّها الماضي[1] وقد أضحى محسوساً في القلب، ولكنّ هذه العودة، بعكس «كومبريه» التي انبثقت من كوب شاي، مؤلمة: فالبطل، شأن «أوليس» في الجحيم في ملحمة «الأوديسّه»، يبصر والدته أو جدّته، ولكن دون أن يستطيع عناقها. وهو في هذه المرحلة من الكتاب يعود فيلقاها في اللحظة التي فقدها فيها إلى غير رجعة.

يطّلع الراوي في القطار، لدى عودته من البندقية، في الدفتر ٥٠ عينة، على رسالتين: الأولى بطاقة دعوة إلى زواج «مونتارجيس»، وهو «سان لو» فيما بعد، من الآنسة «دو فورشفيل»، فيما تحمل إليه الثانية خبر زواج الشاب «كامبرير» من ابنة «جوبيان». من هنا جاء عنوانا الخلاصة: «زواج روبير دو سان لو» و«السيّدة دو كامبرير». والأمر يتعلّق بسبع صفحات فحسب[2] يشرع فيها بروست بتصفية حساب أبطاله وكأنّما في رواية لِ«بلزاك». ثمّ يأتي دور الدفترين ٥٨، ٥٧ اللذين يشكّلان خاتمة رواية ١٩١١. وفي الصياغة النهائيّة تقع «تقلّبات القلب» في فترة الإقامة الثانية في «بالبيك» ورحلة البندقيّة في « **ألبيرتين المختفية**» حيث يحلّ

---

(١) في آذار (مارس) ١٩١٣ يسأل بروست «فودوابيه» إن كان يرغب في «**تقلّبات الماضي**» بمثابة عنوان (**مراسلات**، الجزء ١٢، ص ١١٤).

(٢) الدفتر ٥٠، الورقات ٣٤-٤٠ التي ستؤلّف الفصل الرابع والأخير من « **ألبرتين المختفية**» والذي يمكن أن نتساءل بشأنه إن لم يكن مذ ذاك ينتمي إلى «**الزمن المستعاد**» على الأقلّ بالنسبة إلى الموضوعات التي يعالجها. هناك مؤشّرات ماديّة أخرى تذهب مذهب هذا الافتراض. راجع الجزء الرابع من هذه الطبعة.

نسيان «ألبيرتين» المتوفّاة محلّ ذكرى الجدّة. ذلك لأن هذين الوجهين النسائيّين يتوافقان ويتداعيان ويتنافران ويتوازنان في تكوّنهما وبنيتهما على حدّ سواء: وهكذا تتضمّن «تقلّبات القلب» في «**سادوم وعامورة - ٢**» قسمين مخصّصين لكلّ من البطلتين. ثمّ إن «ألبيرتين» قضت في النهاية، كما رأينا، على الوصيفة التي كانت تؤلّف الموضوع الرئيسيّ للفصل الذي عنوانه: «رذائل وفضائل بادوفا وكومبريه».

*

لدينا في عام ١٩١٤ رواية طُبِعَ ثلثاها، وثلث جرى تحريره منذ بضع سنوات. وفجأة ينقلب الكتاب رأساً على عقب من جرّاء ابتداع هذه الشخصيّة التي غالباً ما اضطررنا إلى الحديث عنها استباقاً، عنينا «ألبيرتين». وربّما ظهر اسمها في الواقع منذ شهر أيّار (مايو) ١٩١٣[١]، وقد أُحِلَّ محلّ «ماريّا» في الإقامة الثانية في «بالبيك». ولسوف تكون سبباً في تضخيم «**في ظلال ربيع الفتيات**» و«**جانب غيرمانت**» بالتلميحات والتصويبات والإضافات، وهي طفيفة بأيّة حال إن قورنت بالحجوم التي ستتخذها مرحلة «**سادوم وعامورة**» في أقسامها الأربعة التي تشكّل «**السجينةُ**» و« **ألبيرتين المختفية**» قسميها الأخيرين. فعلى مدى ثمانية أعوام هي الأخيرة في حياة بروست يتضاعف الكتاب حجماً ويقفز من ألف وخمس مئة صفحة إلى ثلاثة آلاف صفحة. لقد تبيّنا أن ابتداع «ألبيرتين» ليس السبب الوحيد لذلك، فالسبب الثاني هو حرب ١٩١٤ التي أوقفت أيّ إصدار جديد في دار «غراسّيه» ووفّرت للروائي من جهة أخرى مادّة جديدة. هذا، ولا يضحي «**الزمن المستعاد**» رواية حول الحرب وإنّما تدخل الحرب رحاب هذه الرواية.

ونرانا مضطرّين ههنا إلى توسّل سيرة مارسيل بروست. ولئن كان

---

(١) الدفتر ١٣، الورقة ٢٨ على الوجه - راجع «**في ظلال ربيع الفتيات**»، الجزء الثاني من الطبعة الحالية، تمهيد «أسماء البلدان: البلد» والخطيطة ١٧.

يكفي للباقي جدول زمني متسلسل، لئن كانت حياة المؤلّف كلّها حاضرة في أعماله وقد حوّلتها اللغة وأعادت خلقها فلأنّه ما من حادثة بلبلت صياغة الرواية: لقد كانت الحياة والعمل الفنيّ يتطوّران بالتوازي. لكنّهما يضحيان فجأة متعامدين منذ ذلك اليوم من أيّار (مايو) ١٩١٣ الذي أخذ فيه بروست الى منزله «ألفريد أغوستينللي» وجعله سكرتيراً له: فهذه الحياة تقف في طريق العمل الفنيّ. ولن ندري عن هذه العلاقة المتقّدة وهرب الشابّ في الأول من كانون الأول (ديسمبر) ١٩١٣ وموته في ٣٠ أيّار (مايو) ١٩١٤ ومراحل النسيان اللاحق أكثر من خبر تافه جافّ وما روى عنه بروست نفسه في رسائله. وها هو يختصر المغامرة لِ: «إميل ستراوس» بالصيغة التالية: «بعد ما فقد عمله في العام الماضي جاء يسألني استخدامه سائقاً. وما كان بوسعي الإساءة إلى «ألباريه» بتوظيفه. وقد اقترحت عليه دونما ثقة منّي القيام بطباعة كتابي على الآلة الكاتبة. وإذ ذاك اكتشفته وأصبح هو وزوجته جزءاً لا يتجزّأ من حياتي. وبي اليوم غمّ، واأسفي، لظنيّ أنّه لو لم يلقني ولم يكسب هذا المال الوفير عن طريقي لما توافرت له وسائل تعلم الطيران»[1]. والواقع أن ثمّة رسائل من عام ١٩١٣ موجّهة إلى «ألبير نحمياس»، وكان بروست يفكّر بتكليفه ملاحقة إعادة «أغوستينللي»، تظهر الروائيّ نهب الغيرة ولكنّه يؤكّد طهر عواطفه: «تجنّب الحديث عن سكرتيري (الميكانيكي السابق)، فالناس أغبياء حتى ليمكنهم أن يبصروا في ذلك (مثلما رأوا في صداقتنا) شيئاً من اللوطيّة. ولعلّ الأمر عندي سواء في ما يخصني، ولكنّما يحزّ في نفسي أن أسيء إلى هذا الفتى»[2]. وأخيراً يكتب بروست في تشرين الأول (أكتوبر) ١٩١٤ إلى «رينالدو هان»: «حقّاً كنت أحب «ألفريد». وليس يكفي أن أقول إنّي كنت

---

(١) **مراسلات عامّة**، بلون، الجزء السادس ١٩٣٦، ص ٢٤٢، رسالة مؤرخة في حزيران (يونيو) ١٩١٤.

(٢) **مراسلات**، منشورات كولب، الجزء ١٢، ص ٢٤٠، رسالة مؤرّخة في آب (أغسطس) ١٩١٣.

أحبّه، فقد كنت أعبده. ولست أعلم لماذا أكتب عن ذلك بصيغة الماضي، لأنّني ما زلت على حبه»[١].

صحيح أن «أغوستينللي» ليس النموذج الوحيد لِ«ألبيرتين» كما تؤكّد ذلك حاشية في الدفتر ٥٧: «أساسيّ جدّاً جدّاً: حينما أقول إن «ألبيرتين»، إلخ، قد جالستني، فأخريات فعلن ولا أذكرهن؛ ذلك أن الكتاب مقبرة كبيرة ما عدنا نستطيع فيها قراءة الأسماء الممحيّة على معظم القبور. ولكن الاسم هو ما أذكر أحياناً، والمرأة، دون أن يكون بمقدوري أن أتذكّر إن ظلّ شيء منها داخل هذه الصفحات. هذه الفتاة ذات النظرة الفاتنة والكلمات العِذاب تراها هنا؟ وفي أيّ قسم؟ ما عدت أدري»[٢]. أما بالنسبة إلى شخصيّة «ماريّا» التي أُبْدِعَتْ قبل ١٩١٣ فربّما فكّر بروست بأصدقاء آخرين مثل «بيرتران دو فينلون»[٣]. إنّ البنية الأدبية على وجه الخصوص سابقة للحياة التي تروح تملؤها. فمنذ دفتر ١٩٠٨ هناك جزء ثانٍ هيّئ له في الرواية يتولّى فيه البطل الإنفاق على فتاة مفلسة «دون التمتّع بها» «لعجزه أن يكون محبوباً»[٤]: كان لا بدَّ من «حبّ للراوي» يناظر ويتممّ «من حبّ لسوان»، ولم تزوّدنا «جيلبرت» والدوقة «دو غيرمانت» إلّا بخطوط أوّليّة عنه. وليس يجدي أن نتساءل إن كانت «ألبيرتين» تشبه «أغوستينللي» وإن كانت رجلاً متنكراً لأن المأساة التي عاشها بروست قد اسْتُبْطِنَتْ فيما بعد وجرى تحليلها وإعادة بنائها. وإن المسافة التي ينأى بها التأمّل عن الواقع والسيرة إنّما هي الحيّز الذي يتحرّك فيه الخيال. فالأثر

---

(١) المرجع نفسه، الجزء ١٣، ص ٣١١. ويتضمّن المجلّد نفسه في الصفحة ٢١٧ الرسالة الوحيدة الموجهة من بروست إلى «أغوستينللي» التي وصلتنا وقد أُدرجت عناصر كثيرة منها في « **ألبيرتين المختفية**».

(٢) فترة صباحيّة في منزل أميرة غيرمانت، الطبعة المذكورة، ص ٣٢٦.

(٣) راجع التمهيد في «**السجينة**»، الجزء الثالث من هذه الطبعة.

(٤) **دفتر ١٩٠٨**، الطبعة المذكورة، ص ٥٠؛ سوف تتوضّح شيئاً فشيئاً البنية التي تربط بين امرأة محبوبة ومكان وفنّان والإلهام المقبول أو المرفوض.

الذي خلّفه رجل حقيقيّ في فؤاد بروست يمكن أن يُنْسَبَ فيما بعد إلى امرأة من صنع الخيال. قلنا امرأة؟ بل امرأة «**بحثاً عن الزمن المفقود**»، بما أن اسم «ألبيرتين» يرد فيه ٢٣٦٠ مرّة، ولا سيّما «**في ظلال ربيع الفتيات**» و«**سادوم وعامورة**» و«**السجينة**» و« **ألبيرتين المختفية**»[(١)]. ليس من بطلة تقرب هذا العدد، وليس من بطل؛ وحده الراوي يتدخّل مرّات أكثر لأن الرواية بكاملها إنّما يشهدها هو أو يستعرضها بما هو شخص وراوٍ في آن معاً. لقد حدّد بروست وظيفة «ألبيرتين» في رسالة إهداء إلى السيّدة «شايكيفيتش»[(٢)] بتاريخ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٥: «أفضّل تعريفك بالشخوص التي لا تعرفينها بعد، ولا سيّما ذاك الذي ينهض بأعظم دور ويأتي بالحدث المفاجئ، عنيت ألبيرتين»، قبل أن يلخّص دورها في «ظلال ربيع الفتيات» و«السجينة» و«اختفاء ألبيرتين» التي لا بدّ سبق أن سُطِرَّتْ مسوّداتها في تلك الفترة.

هناك سلسلة جديدة تتداخل إذاً مع تلك التي كانت جاهزة عام ١٩١١، وينجم عنها ما يدعوه بروست بـ«الحدث»، يعني قصّة «ألبيرتين» كاملة وقد جهزت خطوطها العريضة في عام ١٩١٥. لقد أصبحت هذه الصياغة ممكنة من جرّاء عنصر مأساوي آخر هو حرب ١٩١٤ التي تتسبّب في إغلاق دار نشر «غراسّيه» بصورة مؤقّتة فلا يبقى فيها سوى مستخدمين اثنين[(٣)]. ويرى بروست في ذلك، وقد أخذ منه الغمّ مأخذاً، سبباً إضافياً لتعديل مسوّدات الجزء الثاني، وهو «**جانب غيرمانت**» الذي لن يصدر البتّة إذاً بهذه الصيغة. ولمّا كانت منشورات «**المجلّة الفرنسيّة الجديدة**»

---

(١) على التوالي ٢٧٠ - ٤٤٤ - ٧٥١ - ٧٣١ مرّة و٧١ مرّة في جانب غيرمانت و٩٣ في **الزمن المستعاد**، راجع أ. برونيه: مفردات بروست، سلاتكين - شامبيون ١٩٨٣، الجزء الثالث، ص ١٥٢٨. أمّا الأمّ والجدّة مجتمعتان فلا تظهران إلا ١٤٠٤ مرّات.

(٢) **مراسلات**، الجزء الرابع عشر، ص ٢٨١.

(٣) ج. بويّا: «**مكتبة بيرنار غراسيّه والآداب الفرنسيّة**»، شامبيون، ١٩٧٤، ص ١٩٢.

راغبة من جهة أخرى، في نشره منذ عام ١٩١٤ فسوف يقبل الروائي في عام ١٩١٦ بعروض «غاستون غاليمار» وقد أغراه الأمر أيّما إغراء. وسيكون أحد الأسباب المعلنة إغلاق دار نشر «غراسّيه» كما يشير إلى ذلك «رينيه بلوم» الذي يتدخّل في ٧ تموز (يوليو) ١٩١٦ لدى ناشر «**جانب منازل سوان**» قائلاً: «إن دارك مغلقة وتستطيع «**المجلّة الفرنسيّة الجديدة**» بما أنّها غير مغلقة أن تصدره بما يكفي من السرعة. فهو يسألك إذاً أن تأذن له - دون أن يغضبك الأمر أو يغمّك - باستعادة وعده بنشر المجلّدات الأخرى في دارك، وأن يستعيد بالتالي المجلّد الأول (الذي سبق أن احتفظ لنفسه بملكيّته»[1]. والأمر مجرّد حجّة لأن بروست يحبّذ ألا يصدر إلّا بعد الحرب فيما يتمنّى بالحقيقة أن يبدأ قبل ذلك بأعمال الطباعة. وهكذا كان، ويقبل «غراسّيه» نقض العقد في ٢٩ آب (أغسطس) ١٩١٦.

تبدأ كتابة حلقة «ألبيرتين» منذ عام ١٩١٣ وتُسْتَهَلُّ بالتعريف بها على شاطئ البحر في «بالبيك» ثمّ في باريس، وسوف تتّخذ زيارات الفتاة مكانها في «جانب غيرمانت - ٢». وتتناول الإقامةُ الثانية في «بالبيك» في القسم الذي عنوان «**سادوم وعامورة -٢**»، تتناول الفكرة بادئ الأمر في دفتري مسوّدة.

وهناك قصّة أولية لِ«**السجينة**» و«**الهاربة**» في أربعة دفاتر أخرى[2] ويجري التوسّع فيها حتى عام ١٩١٥. في عام ١٩١٦ يقرّر بروست تأليف مجلّد يسمّيه «**سادوم وعامورة**» كما تظهر ذلك رسالة إلى «غاستون

---

(١) المرجع نفسه، ص ٢٨٣.

(٢) دفاتر جرى ترقيمها بيد بروست: ٥ (٥٣ في المكتبة الوطنية) - ٦ (٧٣) - ٧ (٥٥) - ٨ (٥٦) (للهاربة) وتنضاف إلى طبقة الدفترين ٥٤ و«دوكس» (٧١). ثمّة إذن صياغتان متتاليتان لحلقة «ألبيرتين» في عامي ١٩١٤ و١٩١٥. وقد غيّر بروست العنوان فجعله « ألبيرتين المختفية» بعد صدور «**الهاربة**» في دار «طاغور» عام ١٩٢٢.

غاليمار»[1]. إن توزيع المادّة المجمّعة في الدفاتر يصبح موضوع مخطوطة تتابعيّة عام ١٩١٦ في الدفاتر ١ إلى ٧ بالنسبة إلى «**سادوم وعامورة**» وحتى ١٩١٧ تقريباً في الدفاتر ٨ إلى ١٢ بالنسبة إلى «**السجينة**»، وفي الدفاتر ١٣ إلى ١٥ بالنسبة إلى «**الهاربة**»[2]: لقد استخدمت الطريقة نفسها كما في المقاطع السابقة وقوامها تحرير مقطوعات وتجميعها ثم تفكيكها لإخراجها بطريقة ثانية. من ذلك أنّ الفترة الصباحيّة التي تشكّل بداية «**السجينة**» تطلع علينا بعدّة صياغات مختلفة. إنّ تقسيم أحد النصوص يفسح في المجال لتعزيز بنية العمل الفنيّ من خلال تكرار الموضوعات والمضيّ قدماً عبر الإنباءات والاستعادات. إن معالجة شخصيّة كشخصيّة «موريل» في «**سادوم وعامورة**» بعد ١٩١٥ إنّما يعزّز تناظرها و«ألبيرتين». ولذلك لا يتوقّف بروست بعد وضع اللمسات الأخيرة على المخطوطة وتتزايد الإضافات في الدفاتر ٥٩ إلى ٦٢ و٧٤ وعلى نُسَخ الآلة الكاتبة والمسوّدات الطباعيّة، تلك التي اتّسع له الوقت لإعادة النظر فيها قبل الممات. ويتّضح ضمن هذه الشروط أن مخطوطة «**الزمن المستعاد**» التي تتضمّنها الدفاتر ١٥ إلى ٢٠ وحرّرت من ١٩١٦ حتى ١٩١٨ أو ١٩١٩ هي من أقلّها إنجازاً بما أنّ بروست قد توقّف في مراجعاته عند «**الهاربة**». أمّا الفصل الذي يدور حول الحرب فقد كان منذ ذاك مُحرّراً في عام ١٩١٦[3]، ولكنّ ثمّة إضافات

---

(١) م. بروست - غ. غاليمار: **مراسلات**، الطبعة المذكورة، ص ١٥. في هذه الرسالة الهامّة من محفوظات «بولان» نجد الصياغة الوحيدة المعروفة لدينا والسابقة لعام ١٩١٨ التي تحمل هذا العنوان الذي يقول بروست إنّه مستوحى من بيت شعر لِ«فينيي» يضعه بمثابة عبارة تمهيديّة لِ«**سادوم وعامورة - ١**».

(٢) حينما يدور الأمر حول نشأة الكتاب نجهد في الحفاظ على العنوان الأوّل الذي أراده بروست. أمّا حينما يدور الأمر حول النصّ المنشور كما يمكن أن نقرأه اليوم فقد أخذنا العنوان الثاني « **ألبيرتين المختفية**» الذي يظهر في الدفتر ٧١، الورقة ٣٧ على الوجه.

(٣) كتاب ذُكِرَ لِ«غاستون غاليمار» مؤرّخ في أيّار (مايو) ١٩١٦ (م. بروست - غ. غاليمار، **مراسلات**، الطبعة المذكورة، ص ٣٧). و١٩١٦ هو التاريخ الثاني الذي

يمكن ردّها إلى عام ١٩١٨ بفضل مقالات الصحف التي تتخذّها مراجع لها. والكثير موجود في الدفتر ٧٤ الذي يسمّيه المؤلّف «بابوج».

ويمكننا القول، بغية تلخيص إدراج «ألبيرتين» في صلب العمل، إن بروست، حتى «**سادوم وعامورة**»، يُدخل هذه الشخصيّة ما بين مقاطع وفصول سبق أن حُرّرَتْ وأُنْشِئَتْ، وقصص كان يمكن أن تُقْرأ وكانت أحياناً قد ضربت على الآلة الكاتبة أو طُبعت بدونها. أمّا في «**جانب غيرمانت - ٢**» فإن بعضَ الصفحات المكرّسة للزيارات ونزهةً في الغابة وقبلة تضيف لمسات على الصورة التي أدخلت إلى «بالبيك»، فيما القبلة الممنوحة تعارض القبلة المرفوضة في الفندق الكبير. وفي «**سادوم وعامورة - ٢**» تحلّ زيارة لباريس بعد الأمسية في منزل الأمير «دو غيرمانت»، وقد سبق تحريرها، ولكنّما ينقلب كلّ شيء في الفصل الثاني من هذا الكتاب إذ تبدأ علاقة غيرة بين الراوي والفتاة تنقطع روايتها من جرّاء الأمسية في محلة «راسبلبير» في منزل آل «فيردوران» وتستخدم هذه الأمسية عناصر من عام ١٩١١ في الدفتر ٤٧ حيث يستقبل آل «فيردوران» على مقربة من باريس، والدفتر ٤٦ من عام ١٩١٤ والدفتر ٧٢ الذي يليه والذي يضع عليه بروست الرقم ٤. أمّا الدفتر ٥٣ الذي وضع له الرقم ٥ فيتضمّن «**تقلّبات القلب - ٢**» التي تناظر «**تقلّبات القلب - ١**» المخصّصة للجدّة: وتلك هي الفترة الواردة في الفصل الرابع العتيد من «**سادوم وعامورة - ٢**» التي يطّلع فيها الراوي على أن «ألبيرتين» تعرف الآنسة «فانتوي» وصديقتها والتي يغطّيها العنوان الفرعي في فهرس مواد «**سادوم وعامورة**»: «أسى في طلوع الشمس». وينقلب كل شيء ابتداء من «**السجينة**»: فالمقطوعات التي سبق تحريرها هي التي تحتلّ المكان في قصّة «ألبيرتين» وذلك إلى ختام « **ألبيرتين المختفية**». وهكذا تستعيد

تزوّدنا به قصّة «**الزمن المستعاد**»، إذ الأوّل هو ١٩١٤، وفي كلا التاريخيين يقوم الراوي برحلة إلى باريس.

الفترات الصباحيّة في «**السجينة**»، وهي موضوع الاستيقاظ المُعَاوِد الذي هو في أساس كلّ «**بحثاً عن الزمن المفقود**» محاولات قديمة من كتاب «**ضدّ سانت بوف**» ثم نصوصاً من الدفتر ٥٠ بعام ١٩١٠-١. ونجد في المقابل، وفي الجزء الأساسيّ منه، عرضاً متّصلاً في دفاتر الترسيمات التي وضع لها بروست الأرقام ٤، ٥، ٦ الموافقة لِ ٧٢، و٥٣، ٧٣. أمّا عزف سباعيّة «فانتوي» في أثناء أمسية «آل فيردورن» فَيُسْتَخْلَصُ من الدفتر ٥٧ المخصّص لِ«**الزمن المستعاد**» حيث نجد في صفحات من عام ١٩١٤ أنّ الحديث يجري فيها عن رباعيّة[١]. وتبدو البقيّة الباقية كلّها جديدة. وكلّ ما يتعلّق، في «اختفاء ألبيرتين»، بهرب «ألبيرتين» وموتها ونسيانها يشكّل الحبكة الرئيسيّة، ويعود تاريخه إلى ١٩١٤ على أقلّ تقدير. ولكنّ قراءة مقالة «**الفيغارو**» تعود إلى «انطباعات رحلة بالسيّارة» في عام ١٩٠٧ وإلى كتاب «**ضدّ سانت بوف**». أمّا الرحلة إلى البندقيّة فكانت واردة، كما رأينا، في رواية ١٩١١ وكانت بطلتها وصيفة البارونة «بوتبوس». بيد أنّ موضوع البندقيّة يرتبط مباشرة بترجمات «راسكين» و«**كتاب آميان المقدّس**»: «[...] ذهبت إلى البندقيّة كي يكون تيسَّرَ لي قبل الممات أن أقرب وألمس وأشهد أفكار «راسكين» حول العمارة المنزليّة في العصر الوسيط[٢] وقد تجسّدت في قصور متهالكة ولكنّها لا تزال واقفة بلونها الورديّ». كانت الزيجات تشكّل فصلين في رواية ١٩١١ فيما يرد ذكر الإقامة في «تانسونفيل» في منزل السيّدة «دو سان لو» في متن الصفحات الأولى من كتاب «**جانب منازل سوان**».

*

(١) الفترة الصباحيّة في منزل الأميرة «دو غيرمانت»، ص ٢٩٢ - ٢٩٨. ومن بين المؤلّفين الذين يمكن أن يكون بروست عرفهم لم يكتب أحد سباعيّة فيما عدا بيتهوفن وسان صانس.

(٢) «جون راسكين»، **معارضات وأخلاط**، الطبعة المذكورة، ص ١٣٩: نصّ منشور عام ١٩٠٤ في «**كتاب آميان المقدّس**».

الآن لا بدّ أن ننتقل الآن إلى فهرس ١٩١٨ الذي يقدّم مخطّطاً جديداً للكتاب في هذا التاريخ، وهو إذ ذاك يقارب الإنجاز فيما يملك بروست مخطوطة مبيضة بالكامل. سوف يتضمّن «**بحثاً عن الزمن المفقود**» خمسة مجلّدات صدر اثنان منها: «**جانب منازل سوان**» و«**في ظلال ربيع الفتيات**». أمّا المجلّد الثالث فـ«**جانب غيرمانت**» الذي يُقال إنّه، كحال الأجزاء التالية، «قيد الطباعة»: «أسماء الشخوص: الدوقة «دو غيرمانت»، «سان لو» في «دونسيير». صالون السيّدة «دو فيلباريسيس». وفاة جدّتي. «ألبيرتين» تظهر من جديد. عشاء في منزل الدوقة «آل غيرمانت». السيّد «دو شارلوس» لا يزال يحيّرني. «حذاء الدوقة الأحمر»[1]. وجاء المجلّد يحمل عنوان «**سادوم وعامورة -١**» وهو يتجاوز كثيراً «**سادوم وعامورة**» الآتي الذي لن يتضمّن من بعد سوى الفصل الأوّل: «اكتشاف مفاجئ لحقيقة السيّد دو شارلوس». أمسية في منزل الأميرة «دو غيرمانت». الإقامة الثانية في «بالبيك». تقلّبات القلب - ١. أحس أخيراً أنّي فقدت جدّتي. السيّد «دو شارلوس» في منزل آل «فيردوران» وفي القطار الصغير. تقلّبات القلب -٢. لماذا أغادر «بالبيك». فجأة وأنا عازم على الزواج من «ألبيرتين». سوف تتوسّع هذه الخلاصة كثيراً جدّاً في طبعة ١٩٢١ و١٩٢٢ ولكنّ فضلها هنا أنّها تُبرز على نحو أفضل التعارض بين «تقلّبات القلب -١» ومبعثها الجدّة، و«تقلّبات القلب -٢» ومبعثها «ألبيرتين». ثمّ إن فهرس ١٩٢٢ يلحّ على الطابع الاجتماعي، على الكوميديا الإنسانية في هذا الجزء من الرواية، إذ

---

(١) إن فهرس النسخة الطبوعة لِـ«جانب غيرمانت» (١٩٢١) مختلف بعض الشيء. فثمّة «فصل أوّل» يعالج «وفاة جدّتي»: «مرض جدّتي. مرض بيرغوت. الدوق والطبيب. انحطاط قوى جدّتي. وفاتها». والفصل الثاني يغيّر «ألبيرتين تظهر ثانية» إلى «زيارة ألبيرتين»، و«عشاء في منزل الدوقة دو غيرمانت» إلى «احتمال زواج ثريّ لبعض أصدقاء «سان لو» و«روحيّة آل غيرمانت في حضرة أميرة بارما». أمّا الخاتمة فواحدة تقريباً.

يزوّدنا بأسماء كثيرة لشخصيّات ثانوية ويعكس الأهميّة التي يكتسبها «موريل» متأخّراً: «ترسيمة أولى لطباع «موريل» الغريبة». تُخْتَتَم خطّة ١٩١٨ بالمجلّد الخامس «**سادوم وعامورة -٢**. - الزمن المستعاد»: «حياة مشتركة مع «ألبيرتين» - «آل فيردوران» يختصمون مع السيّد «دو شارلوس». اختفاء ألبيرتين. الغمّ والنسيان. الآنسة «دو فورشفيل». استثناء من القاعدة. الإقامة في البندقيّة. جانب جديد لِـ«روبير دو سان لو». السيّد «دو شارلوس» في أثناء الحرب: آراؤه ومتعه. فترة صباحيّة في منزل الأميرة «دو غيرمانت». «العبادة المستمرّة. الزمن المستعاد»[1]. وفي عام ١٩٢٠ تشير طبعة «**جانب غيرمانت -١**» إلى أن المجلّد الرابع سيتضمّن «**جانب غيرمانت -٢**» و«**سادوم وعامورة -٢**»، وليس ثمّة تغيير في المجلّد الخامس. إن ما يؤكّده هذا الفهرس بادئ الأمر أن بنية ١٩١٣ تحافظ على كامل معناها: فـ«**سادوم وعامورة**» تتحدّر من «**جانب غيرمانت**» عن طريق شخصيّة «دو شارلوس». ولئن جاء «في ظلال ربيع الفتيات» بدوره من المجلّد الثاني لعام ١٩١٤ الذي لم يصدر في يوم فلأن الكتاب بيشّر بـ«عامورة» عن طريق «ألبيرتين» و«أندريه». و«**سادوم وعامورة -١**» يمزج في فهرس ١٩١٨ بين لواطيي باريس وسحاقيّات «بالبيك». يمكننا بعد ذلك أن نلاحظ أنْ لا وجود لعناوين أو مجلّدات خاصّة بـ«**السجينة**» و«**الهاربة**» أو «**ألبيرتين المختفية**»، لأنّها إنّما تشكّل مجرّد فصل فصول من «**سادوم وعامورة -٢**» أشير إليها بالعناوين السبعة الأولى وصولاً إلى «وجه جديد لروبير دو سان لو»: وهذا ما تؤكّده المراسلات مع «**المجلّة الفرنسيّة الجديدة**» حيث يتحدّث بروست، بعدما يتبيّن الحجوم التي بلغتها المخطوطة والإضافات عن «**سادوم وعامورة**» -٣: «**السجينة**»

---

(١) لا تتضمّن «**السجينة**» و« **ألبيرتين المختفية**» و«**الزمن المستعاد**» أيّ فهرس لأنّها دون ريب صدرت بعد وفاة المؤلّف، فقد بكر بروست في موته كيما يتسنّى له توفير فهرس لها.

و«**سادوم وعامورة - ٤**»: «**الهاربة**»[١] ثمّ عن «**سادوم وعامورة -٣**» القسم الأول والثاني ليُحْكِمَ ربط الثنائيّة. وأخيراً ليس ثمّة من فصل ظاهر بين هذه الأقسام الثلاثة. و« **ألبيرتين المختفية**» سوف يرتبط إذاً ارتباطاً مشروعاً بآخر جملة في «**السجينة**». ويجري تحديد بداية «**الزمن المستعاد**»، لا على أساس المخطوطة، بل على أساس نسخة « **ألبيرتين المختفية**» المطبوعة على الآلة الكاتبة والكائنة في المكتبة الوطنيّة: فحيثما تتوقّف يبدأ الجزء الأخير من الكتاب، وهو ما أفلح في إدراكه «روبير بروست» في الطبعة التي أصدرها لهذين النصّين في عامي ١٩٢٥ و١٩٢٧. أمّا «ب. كلارك» و«آ. فيرّيه» فسيضعان هذا الفاصل خطأً، عام ١٩٥٤، قبل سبع صفحات[٢]. وهذه الاستمراريّة إنّما تحافظ على أغلى أمنية على قلب بروست أن لا يكون سطّر سوى كتاب واحد. هل يمكن أن نذهب إلى حدّ القول «إن «**الزمن المستعاد**» يبدأ بالحقيقة مع «**السجينة**» لأن الوجه الحقيقيّ للشخوص إنّما ينكشف مع بداية «**السجينة**»؟[٣] إن «ألبيرتين» في جميع الأحوال إلهة الزمان الكبرى وهي واردة في إضافات الدفتر ٥٧ التي تمّهد الطريق لـ«**الزمن المستعاد**»؛ وحينما يستخلص الراوي العبر من ماضيه فإن المرأة التي أحبّها ثمّ نسيها إنّما ترمز إلى جوانب متعدّدة من قصّته، فهي أداة معرفة عامّة وما يعادل الجليس بالنسبة إلى الرسّام: «ربّما

---

(١) م. بروست - غ. غاليمار: مراسلات، الطبعة المذكورة، ص ٥٤٥، ٢٥ حزيران (يونيو) ١٩٢٢: هذه العناوين تؤكدها نسخة المخطوطة المطبوعة على الآلة الكاتبة.

(٢) حول الأسئلة التي يثيرها العنوان وتحقيق النصّ وتقسيمات «**الهاربة - ألبيرتين المختفية**» راجع في المجلّد الرابع من الطبعة الحاليّة التمهيد لهذا الكتاب. ونستطيع أن نشير منذ الآن إلى أن عنوان « **ألبيرتين المختفية**» موجود على رأس إحدى النسخ الأولية لرحيل ألبيرتين، في الدفتر ٧١، الورقة ٣٧ على الوجه (١٩١٤) ولم يكن يتضمّن حينذاك سوى واقعة واحدة.

(٣) م. بارديش: «**مارسيل بروست روائياً**»، الطبعة المذكورة، المجلّد الثاني، ص ٢٥٨.

كان الناس الذين نعرفهم والمشاعر التي نحسّ بها بفضلهم، بالنسبة إلى عَالِمِ النفس، ما يمثّله الجلساء بالنسبة إلى الرسّام. فهم جلساؤنا، وهم جلساء العذاب والغيرة والسعادة»[١]. «ألبيرتين» إذن، كالبندقية أو حياة المجتمعات المخمليّة، عنصر من الدعوة الرسالة[٢]، والتجربة الأخيرة، والمرحلة النهائيّة على طريق العمل الفنيّ، إنّها الزمان لا الانتفاء الزمنيّ.

في خلاصة المجلّد الأخير هذه في عام ١٩١٨ لا ترد الحرب إلّا تحت العنوان التالي: «السيّد دو شارلوس في أثناء الحرب: آراؤه ومتعه». إن هذه الإضافة الضخمة مردّها، شأن الحبّ الموجّه إلى «ألبيرتين»، الأحداث الخارجيّة. لقد أبدى بروست دومّاً اهتماماً بالحرب والجنرالات والنظريات الاستراتيجيّة: إنّا نشهد ذلك في «**جان صانتوي**» الذي تستعيده أحاديث الحامية في «دونسيير»؛ وفي التلميحات إلى الحرب الروسيّة اليابانيّة، وإلى الحروب البلقانية في «**جانب غيرمانت**» و«**سادوم وعامورة**»؛ وفي القرارات والأحاديث الشخصيّة التي حفظ بعض الأصدقاء ذكراها[٣]. ولا بدّ أن جزءاً كبيراً من واقعة حرب ١٩١٤ جرى تحريره منذ ١٩١٦، لا لأن ١٩١٤ و١٩١٦ هما التاريخان اللذان ذكرهما بروست فحسب، وعلى نحو غير معتاد على الإطلاق في ما يخصّه، بالنسبة إلى عودة الراوي مرّتين إلى باريس في أثناء الحرب، بل لأن بروست يتحدّث عنها لِـ«غاستون غاليمار» في رسالة من ربيع ١٩١٦. وهو يبيّن لناشره العتيد أن أحاديث «دونسيير» الاستراتيجيّة، وحتى أحاديث «فرانسواز»، «دفعته إلى القيام في آخر كتابه بوَصْلَة، إلى أن يدفع فيه لا

(١) إضافة في الدفتر ٥٧: «فترة صباحيّة في منزل الأميرة «دو غيرمانت»»، الطبعة المذكورة، ص ٣٧١.
(٢) المرجع نفسه، ص ٣٩١.
(٣) روبير دو بيبي: **مارسيل بروست، رسائل وأحاديث**، منشورات البوّابات، ١٩٣٠؛ بول موران: **يوميّات ملحق في سفارة، ١٩١٦، ١٩١٧** - الطاولة المستديرة ١٩٤٩.

الحرب نفسها بل بعضاً من أحداثها، وإن السيّد «دو شارلوس» لواجد ضالّته في باريس هذه المرقّشة بالعسكريّين كمثل مدينة لِ«كارباتشيو». وهل من حاجة لأقول إنّ ذلك كلّه لا يحمل شيئاً من العداء للعسكريّة، بل على العكس. ولكن الصحف شديدة الغباء (وقد قسوت عليها إلى حدّ بعيد في كتابي). فلتصرخ ما بدا لها الصراخ»[١]. فوق القصّة تتراكم كالعادة إضافات وردت على وجه الخصوص في الدفتر ٥٧ وفي الدفتر ٧٤ الذي يسمّيه بروست «بابوج»، ولكنّها مقصورة على التحليل والأحاديث أكثر منها على ابتكار الأحداث.

وقد أوضح بروست مَشَاعِرَه إزاء الحرب في رسالة إلى الأميرة «سوتزو»: «إنها في نظري مادّة موضوعة بيني وبين الأشياء أكثر منها موضوعاً (بالمعنى الفلسفيّ للكلمة). ومثلما كانوا يحبّون في اللّه، أبصر أنا في الحرب [. . . .]. فأمّا المدافع وطائرات «الغوتا» القاذفة فأعترف بأنّي ما فكّرت فيها يوماً مقدار ثانية، وإني أخاف من أشياء كثيرة أقلّ خطراً - من الفئران على سبيل المثال -. ولمّا كنت أخاف القصف وما زلت أجهل الطريق إلى قبو بيتي (وهو ما لا يغتفره لي المستأجرون الآخرون) فقد يبدو من التكلّف عندي أن أتظاهر بالخشية منها»[٢]. وسوف يستعيد بروست في «**الزمن المستعاد**» فترات قصف يصفها في رسائله[٣]، إلى جانب نزهات أيضاً: «أَعْلَمُ أَنّي، قبل يومين أو ثلاثة من انتصار «المَارْنْ»، وحين كان يسود الاعتقاد بأن حصار باريس داهم،

---

(١) م. بروست - غ. غاليمار: مراسلات، الطبعة المذكورة، ص ٣٧.

(٢) ب. موران: **زائر المساء**، لابالاتين، ١٩٤٩، ص ٨٢. قارن بـ«**الزمن المستعاد**»، المجلّد الرابع: «يخطئ من يظن أن سلم المخاوف يوافق سلم المخاطر التي توحي بها. فقد يخاف المرء أن لا ينام ولا يخشى على الإطلاق مبارزة جديّة، ويخشى فأراً ولا يخشى أسداً».

(٣) **رسائل مختارة**، دار بلون ١٩٦٥، ص ٢٣١، أوائل آب (أغسطس) ١٩١٧؛ ومراسلات عامّة، الجزء الرابع، دار بلون ١٩٣٦، . ص ١٩٧، آذار (مارس) ١٩١٨.

نهضت ذات مساء وخرجت في ضياء قمر صاف متألّق عاتب رائق ساخر فلم أستطع، وأنا أشاهد باريس المترامية التي ما كنت أعلم أني أحبّها بهذا المقدار، وهي تنتظر بجمالها اللامجدي هجمةً لا يبدو أي شيء قادراً أن يمنعها، أن أحول دون الإجهاش بالبكاء»[١]. ذلك أنّ بروست يستخدم رسائله ليجرّب على مراسليه وعلى ذاته بعض جمل سبق أن سُطّرت في روايته أو هو يزمع أن يسطّرها. وقد لاحظ في دفتر ١٩٠٨ السمة نفسها في ما يخصّ «موسّيه»: «تحسّ في حياته في رسائله، وكأنما في جماد تكاد لا تتعرّفها فيه، بعضَ خطوط من مؤلّفاته، وهي علّة حياته الوحيدة، وصنوف عشقه التي لا وجود لها إلا بمقدار ما تشكّل مادّة مؤلّفاته التي تنزع إليها ولن تبقى إلا فيها»[٢].

إن الحرب تزوّد الروائيّ بالإطار الزخرفي الشاعري المتحوّل لباريس المهدّدة. وهي تغيّر الناس كذلك والأوضاع المجتمعيّة وتحيل الشعوب شخصيات في رواية. ولئن كان الروائيّ «سيّد نفسيّة الناس فإن هذه الحشود الضخمة من الناس المتجمعين يجابه بعضهم بعضاً سوف تكتسب حينئذٍ في عينيه جمالاً أوفر قوّة من الصراع الناجم فقط عن نزاع بين طبعين»[٣]. لا بدّ للمرء أن يكون فهم الأفراد كي يفهم الشعوب. وفي مقابل ذلك لن نجد في «**الزمن المستعاد**» لا روايات معارك ولا قصّة الحرب كاملة. إن سير الأحداث خاضع، كما هي الحال في باقي الراوية، لوجهة نظر الشخوص: فهذه «فرانسواز» تتحدّث عن تثبيت الجبهات. أمّا دعاة الحرب، من أمثال «بريشو» و«نوربوا»، فيقفون في وجه دعاة السلام،

---

(١) **مراسلات**، الجزء الرابع عشر، رسالة سُطّرت بعيد ٨ آذار (مارس) ١٩١٥ إلى «لوي دالبوفيرا».

(٢) دفتر ١٩٠٨، الطبعة المذكورة، ص ٤٥. راجع كذلك ص ٥٩: «الرسائل من شاتوبريان إلى شارلوت استخدمت في كتاب «ناتشيز» وكلمات للسيّدة «ميشليه» قالها السيّد «ميشليه» في محاضرته.

(٣) **الزمن المستعاد**، المجلّد الرابع في الطبعة الحاليّة.

من أمثال «شارلوس». و«سان لو» الذي يكرّر النظريّات الاستراتيجيّة التي سبق أن بحثها في « دونسيير»، هو بطل الحرب الذي ينتفي فيها الحقد. إنّ ما يشير إليه ملخّص ١٩١٨ هو أن الشخصيّة المركزيّة في هذا الحديث هي بالتأكيد البارون «دو شارلوس»، و«آراؤه» التي يبسطها في حوارات ذاتيّة مجنونة، و«متعه» التي لم تعد مقصورة على البحث عن شركاء ذكور بل تصل إلى نوع من الجلال في الأمور الشاذّة: فهناك المشهد الساديّ المازوشيّ الكبير الذي يجري في ماخور «جوبيان» في أثناء عمليّات القصف. وتنتهي الواقعة بإلقاء القبض على «موريل» الفارّ من الخدمة الذي يبلغ عن «شارلوس» و«أرجنكور». وبالانتخابات التي كسبتها الكتلة الوطنيّة وفقرة مبتورة حول المهاجرين الروس. ثمّ إن قراءة الصحف اليوميّة توحي لبروست بأفكار استراتيجيّة يضعها على لسان شخصيّاته، ولا سيّما الراوي و«سان لو». وهناك إضافات مخطوطة تشير إلى أنّه يعلّق بصورة خاصّة على مقالات «هنري بيدو» في «**صحيفة النقاش**» حتى ١٩١٨ بالطريقة نفهسا التي يوجّه فيها لِ«إيلستير» ملاحظات صادرة عن «إميل مال». لقد ضمّن بروست كتابه، بصورة مكشوفة حينما يستشهد، وبصورة مقنّعة حينما لا يذكر المؤلّف الحقيقي للأفكار المنسوخة، جميع مجالات المعرفة التي جال فيها، من وصفات الطبخ إلى زراعة البساتين. ومثلما أدخله علم الجمال وتاريخ الفنّ نطاق الفنّ، كذلك أدخلته الكتابات حول الحرب نطاق الحرب: فعليه أن يمزّق نسيج قراءاته العقلي ليلقى العالم «بغية أن يُسْتَثَار فحسب»[1]. والحرب، لا بما هي علم، بل بما هي فنّ، تنضمّ متأخّرة إلى الرسم والموسيقى والعمارة: فبروست يهتمّ بأخطاء الجنرالات في الحرب والتي يكشفها مثلاً صديقه «جان دوبييرفو»[2] أقلّ منه بالبحث

---

(١) دفتر ١٩٠٨، ص ٦٣؛ راجع كذلك ص ٩٩: «لا أقبل الآخرين إلّا بمثابة «مؤشرات وأدوات إثارة» (١٩٠٩)، وهي الفكرة التي يشاطره إيّاها «إيمرسون» المستشهد به كثيراً في هذا الدفتر وهو مصدر فكره إلى جانب «كارليل».

(٢) **الزمن المستعاد**، المجلّد الرابع من هذه الطبعة.

عن فكر خلّاق خلف مصادفات الحرب: «سوف يقوم «سان لو» أمامي، حسبما يقول نصّ غير منشور من الدفتر ٧٤ «بابوج»، بامتداح «بيتان» الذي ابتدع الحرب من هذه الحرب»؛ و«هندنبورغ» على الجبهة الشرقيّة يقلّد نابليون. ولكنّ الأدهى هو ان الجنرال يبتدع مثلما يؤلّف بروست: «الجنرال كالكاتب الذي يبغي تأليف مسرحيّة، تأليف كتاب يجعله هذا الكتاب نفسه، بالموارد اللامتوقّعة التي يكشف عنها هنا، والمأزق الذي يورده هناك، يحيد أبْعَد الحيد عن التصميم الموضوع سلفاً»[١]. فكلّ شيء يحكي دوماً عن الأدب وكلّ شيء يصنع عملاً وأثراً.

وتسمح الحرب لبروست، بطريقة أخرى، بأن يوضح العلاقات بين الأدب والتاريخ والسياسة والمجتمع. لقد ضاعفت الحرب أعداد المؤلّفات الوطنيّة النزعة والنظريّات حول الفنّ الملتزم. وحينما يتسلّم بروست في عام ١٩١٩ جائزة «غونكور» لكتابه «**في ظلال ربيع الفتيات**» سوف يوجّه قسم كبير من الصحافة اللوم للجنة التحكيميّة لأنها لم تمنحها لِ«الصلبان الخشبيّة» من أعمال «دورجليس». ويوضح مؤلّف «**بحثاً عن الزمن المفقود**»، وهو متحفّظ تجاه «رومان رولان» بقدر تحفّظه تجاه «موريس باريس»، فكرته عن ذلك في «**الزمن المستعاد**»: «كان م. باريس قد قال منذ بداية الحرب إن الفنّان (وهو «تيسيان» بالمناسبة) يجب أن يخدم قبل كلّ شيء مجد وطنه. ولكنّه لا يستطيع أن يخدمه إلّا إذا كان فنّاناً، يعني بشرط ألا يفكّر بشيء آخر (حتى بالوطن) سوى الحقيقة الماثلة أمامه حين يدرس هذه القوانين وينشئ هذه التجارب ويقوم بهذه الاكتشافات التي في مثل خطر اكتشافات العلم»[٢]، ذلك يعني أيضاً أنّ

---

(١) الجزء الرابع: قارن بـ«حفلة صباحيّة في منزل الأميرة «دو غيرمانت»»، الطبعة المذكورة، ص ٢٩٩ - ٣٠٠، ٣٠٧ - ٣٠٨ حيث يردّنا بروست على وجه الخصوص إلى صحيفة «**أصداء باريس**» في حزيران (يونيو) ١٩١٦. والأمر يتناول إضافات إلى الدفتر ٥٧ من نصّ المخطوطة.

(٢) حواشي الدفتر «بابوج» الذي يحمل الرقم ٧٤.

الحرب إن استطاعت أن تقلب المجتمع رأساً على عقب وهي ترجّه، وفق صورة عزيزة على قلب بروست، مثل مشكال، فهي لا تستطيع بتدخّل غريب على التطوّر الفنيّ أن تغيّر الأدب. وحينما يقترح «بارّيس»، بالاتفاق مع «دانونزيو»، في صحيفة «**أصداء باريس**»، أن يتمّ إنتاج أدب لا يصف فرنسا إلّا في أحسن حال، يرى بروست أن مثل هذا «الجنون» لا ينتج إلّا «**هيرمان ودوروتيه**» وأنّنا إذا شئنا «التخلّي عن أخطاء ما قبل الحرب» انبغى لنا إلغاء أحدث ما يملكه الفنّ، كالباليهات الروسيّة على سبيل المثال[١]. فلا المشكال ولا تلك الآلة الأخرى التي يعود إليها بروست، أي المنظار الفلكي، تمكّن من رؤية كلّ شيء باللون الورديّ.

*

ينصرف بروست بين ١٩١٩ و١٩٢٢، بعد نشر «**في ظلال ربيع الفتيات**»، إلى وضع اللمسات الأخيرة للأجزاء التالية، ويشكّل «**جانب غيرمانت -١**» وهو مجلّد أنجزت طباعته في ١٧ آب (أغسطس) ١٩٢٠، مرحلة مهمة لأن بروست يتخلّى عن إصدار بقيّة الرواية دفعة واحدة. وها هو يكتب أيضاً إلى «جاك ريفيير» في ٢٥ نيسان (أبريل) ١٩١٩: «سوف تصدر المجلّدات الأخرى من كتاب «**بحثاً عن الزمن المفقود**» (**جانب غيرمانت**، وسادوم وعامورة، **والزمن المستعاد**) بعد بضعة أشهر فقط، ولكن دفعة واحدة»[٢]. ولكنه يعلن في آخر آذار (مارس) ١٩٢٠ لمدير «**المجلّة الفرنسيّة الجديدة**» أنه «أعاد خلط مادّة هذا المجلّد كاملة» إذ ينبغي له إرضاءً للناشر أن يسلّم بصدور النصف الأول فحسب من «**جانب غيرمانت**»، أي «**جانب غيرمانت -١**»: «فقد كان ثمّة «مبَاشرات» ربّما عُثر على تفسير لها في المجلّدات التي تصدر في الوقت نفسه فتفقد بذلك أيّ معنى لها (. . .)»[٣]. ويجدها الروائيّ مناسبة ليبرّر نفسه حيال «غاستون

(١) ج. دوبيير فو: «**كَذَب بلوتارك**»، غراسيّه ١٩٢٣.
(٢) م. بروست - ج. ريفيير: **مراسلات** - غاليمار ١٩٧٦، ص ٤٨.
(٣) المرجع نفسه، ص ٩٧.

غاليمار»: «أيّها الصديق والناشر العزيز، يبدو أنّك تلومني على طريقتي في إجراء التصويبات. إني أقرّ بأن ذلك يعقد كل شيء (...)، وبما أنّك تكرّمت فوجدت في كتبي شيئاً غنيّاً إلى حدّ ما ويروقك فاعلم أن ذلك عائد بالضبط إلى هذا الغذاء الزائد الذي أعود فأحقنها به حيّاً، الأمر الذي تترجمه ماديّاً هذه الإضافات[1]».

ويصدر «**جانب غيرمانت -٢**» إذاً بصورة منفصلة، ولكن بروست يضيف إليه «**سادوم وعامورة -١**»[2]، وقد أنجزت الطباعة بتاريخ ٣٠ نيسان (أبريل) ١٩٢١. والتجربة المطبعيّة الثالثة المصحّحة هي آخر مجموعة متبقيّة لدينا. وثمّة رسالة مؤرخة في كانون الثاني (يناير) ١٩٢١ وموجّهة إلى «غاستون غاليمار» توضح التصميم الجديد لخاتمة الكتاب الذي لن يتبدّل من بعد: «سوف يحتلّ «**جانب غيرمانت -٢**» المجلّد الأول وما يقرب من النصف الثاني. أمّا النصف الثاني من المجلّد الثاني فيخصَّص لـ«**سادوم وعامورة -١**». وبعد هذا المجلّد الذي تؤذن خاتمته بما يلي، نكون قد تخلّصنا نهائياً من الجوانب الاجتماعية وصنوف الإبطاء: إلخ. (التي سيجري إدراك فائدتها على أي حال بعد فوات الأوان) ثم **سادوم -٢**» و«**سادوم -٣**» و«**سادوم -٤**» و«**الزمن المستعاد**»، في أربعة مجلّدات طويلة ستتواصل بفواصل زمنية متباعدة إلى حدّ ما (إن مدّ اللّه في عمري) (...)[3]». بيد أن بروست لم ينته في تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٢١ من إتمام «**سادوم وعامورة -٤**»[4] الذي يَعُدُّهُ الأوفر ثراء

---

(١) م. بروست - غ. غاليمار: **مراسلات**، الطبعة المذكورة، ص ١٦٥، رسالة أيار (مايو) ١٩١٩.

(٢) ساور القلق «غاستون غاليمار» من جراء هذه العناوين المتشابهة! «ولكن ألست تخشى تشويش القارئ بهذه العناوين ولا سيما من الآن فصاعداً حيث العناوين تعود لأجزاء مختلفة؟» (رسالة ٢٤ كانون الثاني (يناير) ١٩٢١، المرجع نفسه، ص ٣٢٣).

(٣) المرجع نفسه، ص ٣٠٦.

(٤) المرجع نفسه، ص ٤١٥ - ٤١٧ رسالة ١٩ أو ٢٠ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٢١.

من حيث الوقائع النفسيّة والروائية»[١] ويتوقع «تعديلات واسعة» سوف تزيد إلى حد بعيد «من قيمتها الأدبية»[٢]، وهو يعمل فيها طوال الوقت، لذلك ثمّة مجلّدان بدلاً من واحد. وفي الفاتح من كانون الأول (ديسمبر) يسلّم نسخة الآلة الكاتبة مصححّة وتُنْجَزُ طباعةُ الكتاب بثلاثة مجلّدات في نيسان (أبريل) ١٩٢٢، وهو الأخير في حياة بروست. وينكبّ بروست من جديد، منذ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٢١ حسب تصريحاته، على «**سادوم وعامورة -٣**»، يعني «**السجينة**» الذي لا يزال يَعُدّه «مجلّداً قصيراً يضج بالحركة الدراميّة»[٣]. وفي أوائل تموز (يوليو) ١٩٢٢ يحكم، في ما يخصّ القسمين الأخيرين، أي مجمل «**سادوم وعامورة -٣ و٤**» الذي أصبح الآن «**سادوم -٣**» بقسمين، أنّه لا يزال هناك عمل واجب الأداء «لأنه لا يريد تسليم عمل غير متقن». فهو ينوي «إدخال تبديلات مهمّة» على تجارب «**السجينة**» الطباعيّة الأولى. وحين توافيه المنيّة يكون قد بلغ الصفحة ١٣٦ من نسخة الآلة الكاتبة الثالثة من هذا الكتاب، وتسمح هذه المراحل الملموسة بإدراك العمل الكبير المنجز بعد المخطوطة على نسخ الآلة الكاتبة ومختلف التجارب الطباعيّة، لا لأن بروست يصحّح لدى قراءة هذه الوثائق على هوى الإلهام، بل لأنه يعدّ على دفاتر أو ورق طيّار الإضافات التي يزمع إدخالها. والمثال الأكثر شهرة على ذلك هو موت «بيرغوت» وهي مقطوعة أُلّفت بعد زيارة في أيّار (مايو) ١٩٢١ إلى المعرض الهولنديّ في متحف «الفن الحديث» Jeu de paume وأُدرِجَتْ في نسخ الآلة الكاتبة الثالثة من كتاب «**السجينة**»[٤] بعد تسجيلها في الدفتر ٦٢. وإنما يعني ذلك أهميّة هذه الإضافات والأسف الذي يمكن أن نحسّ به لعلمنا أنّها انقطعت إلى غير رجعة. وفي مقابل ذلك ينبغي ألا نقع في

(١) المرجع نفسه، ص ٣٩٣، رسالة ١٩ أو ٢٠ أيلول (سبتمبر) ١٩٢١.
(٢) المرجع نفسه، ص ٤٠٦، رسالة ٢٧ أيلول (سبتمبر) ١٩٢١.
(٣) المرجع نفسه، ص ٤٢٤، رسالة ٢٩ أو ٣٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٢١.
(٤) «**السجينة**»، طبعة ميي، فلاماريون، ١٩٨٤، ص ٤.

خطأ يحملنا على الاعتقاد بأن بروست تعمد تأليف كتاب يستحيل إنهاؤه، احتماليّ الاتّجاه متعدّد التآليف مثل «كتاب» «مالارميه». فقد سلّم بأن تصدر أجزاء من مؤَلّفه وهو على قيد الحياة، بخلاف «روجيه مارتان دوغار» في ما يخصّ «مومور» (Maumort)، وإنّما يعني ذلك أن إمكانات تَبديل المواضع والتصويبات والإضافات أخذت تضحي محدودة بقدر ما يمضون قدماً في عملية النشر وأن «**السجينة**» و «**أليبرتين المختفية**» و«**الزمن المستعاد**» لبثت وحدها عام ١٩٢٢ قابلة للتعديل. فوفاة بروست المبكّرة هي التي تسبّب الحركية داخل المسوّدات، لا جميعها مع ذلك. لذلك لن نقول «إننا نبصر في إعادات التنظيم المستمرّة هذه واحداً من الأسباب الأكثر عمقاً التي لم ينقطع الكاتب من جرائها عن الكتابة إلّا ساعة وفاته، ونقيم البرهان بالتالي على أن «بحثاً...» لبث غير منجز وغير قابل للإنجاز»[١]. فما كان بروست في حالة كهذه ليصدر يوماً أي شيء ولأصبح «**بحثاً عن الزمن المفقود**» «**جان صانتوي**» آخر. لكنه في بداية تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٢٢ يذكر، في إحدى آخر رسائله، لـ«غاستون غاليمار»: «**السجينة** (جاهزة ولكنما يتعيّن طلب إعادة قراءتها)[٢]» كما لو كان يعلم أنه لن يستطيع من بعد أن يعيد بنفسه قراءة أيّ شيءٍ ولكنّ كتابه لن يكون لذلك أقلّ جاهزية هو الذي يحمل منذ ربيع ١٩٢٢ كلمة «النهاية» في آخر سطر من مخطوطة «**الزمن المستعاد**».

---

(١) ك. بوشيكاوا: «فانتوي أو ميلاد السباعيّة»، **الدراسات حول بروست ٣**، غاليمار ١٩٧٩، ص ٣١٢.

(٢) م. برسوت - غ. غاليمار: **مراسلات**، الطبعة المذكورة، ص ٦٣٦. نقرأ في السطر الأخير: «يتبع في رسالة أخرى حينما أستطيع» والرسالة تعلن عن إرسال نسخة على الآلة الكاتبة لـ«**السجينة**» تتمّ بموجبها تجارب طباعية ويقوم المؤلف بتصحيحها. ويجيب «غاستون غاليمار» في ٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٢٢ بما يلي: «لقد تسلّمت مخطوطتك وأرسلتها في الحال للصفّ. سوف أبعث إليك بالتجارب حالما تأتيني» (المرجع نفسه. ص ٦٣٧).

في أثناء هذه الفترة التي تعقب إنجاز المخطوطة يشغل بروست جزءاً كبيراً من وقته بالإضافات. وهكذا في ما يخصّ «**سادوم وعامورة**» الذي يمكن الاعتقاد بأن مخطوطته أنجزت وعنوانه وُجد عام ١٩١٦[١]. جرى تعديل بداية «**سادوم وعامورة -١**» وأُضيفت خاتمته. كما أعيد ترتيب القسم الأول من الأمسية في منزل الأميرة «دو غيرمانت» بصورة تامة ولا سيما بمناسبة نشره بعنوان «غيرة» في «**الآثار الحرّة**» في تشرين (نوفمبر) ١٩٢١. وفي الإقامة الثانية في «بالبيك» يضيف بروست إلى المخطوطة مغامرات «نسيم برنار». والأفكار حول النوم في الفصل الثالث تحلّ في نسخة الآلة الكاتبة محلّ حلم يتعلّق بالجدّة؛ والمقارنة بين «بريشو» و«سوان» لا يبقى منها سوى الأثر. وفي الفصل الرابع يجيء وصف طلوع الشمس من الإقامة الأولى في «بالبيك» وذلك مثال على هذه الإزاحات التي يقدم عليها بروست باستمرار. وإن التطور الذي يبدو أن الإضافات تبرزه في ما يخصّ الشخوص إنّما يقود إلى توكيد الكوميديا البلزاكية. من ذلك الإتيان بشخصيات جديدة، كما هو أمر السيّدة «دو سيتري» زوجة سفير تركيا و«ثلاث سيّدات فاتنات» في الأمسية في منزل الأميرة، وكلّهن أخذن من دفتري الإضافات ٦٢ و٦٠ اللذين أُلّفَا ما بين ١٩١٩ و١٩٢١. كما يجري التوسّع في لغة الشخصيات وخصوصيّاتها وعاداتها المستحكمة على نسخة الآلة الكاتبة. أمّا موضوع الشذوذ فيحفل بتغييرات متعدّدة من خلال الاستشهادات بـ«راسين» التي تفيد في وصف «فوغوبير» و«نسيم برنار» و«شارلوس». والعلاقة بين الأمير «دو غيرمانت» و«موريل» واردة في ورقة ملصقة. أمّا الفيلسوف النروجيّ الذي يُصادفُ في منزل آل «فيردوران» فاختراع متأخّر[٢]. ويصبح «موريل» شخصية من الطراز الأول

(١) راجع تمهيد «**سادوم وعامورة**» الجزء الثالث من «الطبعة الحالية»، وأ. ونتون: **إضافات بروست**، مطبعة جامعة كامبردج، ١٩٧٧.

(٢) راجع: بروست ج - ريفيير: **مراسلات**، الطبعة المذكورة، ص ٢١٣: الأمر يدور بالحقيقة حول السويدي «ألغول روهه»: «آمل أن هذه السويديّ لن يتعرّف ذاته في

يوضح بروست وظيفته في مقالته «بخصوص بودلير» التي نشرتها «**المجلة الفرنسية الجديدة**» في حزيران (يونيو) ١٩٢١: «صلة الوصل هذه بين «سادوم» و«عامورة» التي عهدتُ بها، في الأقسام الأخيرة من كتابي، لوحش هو «شارل موريل» (وإنّما الوحوش على أيّة حال من يُعهد إليها عادة بهذا الدور)، يبدو أن «بودلير» قد أقحم نفسه فيها بصورة مميّزة تماماً. وكم لعلّه كان مثيراً أن نعلم لماذا اختار «بودلير» هذا الدور وكيف مارسه؛ وإنّ ما كان مفهوماً لدى «شارل موريل» يبقى شديد الغموض لدى مؤلّف «**أزاهير الشر**»»[١]. كلّ شيء يجري آنذاك كما لو أن «موريل» وهو فنان بدوره، قد بلغ به في النهاية أن يشبه «بودلير» على نحو ما كان بروست يتخيّله، يعني شاذاً ولكنما يفتنه الشذوذ الجنسيّ النسائي[٢] مثل مؤلّف «**المسرات والأيّام**»، تماماً كما عادت السيّدة «دو يلباريسيس» فجسدت «سانت بوف» والسيّدة «دو بوانيي». لقد أمكن بعد دراسة مجمل هذه الإضافات المتأخّرة استخلاص الأفكار الرئيسيّة والمفاعيل الدرامية والهزلية والعقليّة والحسيّة وإبراز أنها لا تتعلّق فقط بسمات الطباع وبالمجتمع، بل بالصور الشعريّة أيضاً[٣]. وهكذا تظهر متأخرة قصائد حقيقيّة منثورة، والكلمة يستعملها بروست في رسائله ليسمي المقتطفات التي يدفعها إلى «**المجلّة الفرنسيّة الجديدة**»، مثل «نوم ألبيرتين» في «**السجينة**» أو الصفحة التي تلي موت الفتاة في « **ألبيرتين المختفية**». «كم يبطئ النهار إذ يلفظ أنفاسه في عشيّات الصيف المتطاولة هذه!» حتى النهاية يتزاوج العقل والدعابة والشعر؛ حتى النهاية تعزّز الإضافات، بما لها من مفاعِيل استباق وإعادة وعودة إلى الوراء، البنيةَ الإجمالية. إن فائدة

الفيلسوف النروجي في «**سادوم - ٢**» ولكنّي أرتجف هلعاً لذلك»، (رسالة ٢٩ أو ٣٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٢١).

(١) **أبحاث ومقالات**، الطبعة المذكورة، ص ٦٣٣.

(٢) أقوال نقلها «جيد»: **يوميّات**، ١٤ أيّار (مايو) ١٩٢١، غاليمار ١٩٣٩، ص ٦٩٢.

(٣) ونتون: **إضافات بروست**، الطبعة المذكورة، ص ٦٧ - ١٢٣.

وأهمية دفاتر الإضافات أنّها إلى ذلك تتضمّن حواشي لم يشأ بروست، بل هو لم يستطع إدراجها، كمثل هذه الصفحة حول الإشفاق القريبة من دودستويفسكي، وقد أوحتها للراوي قسوة «موريل» إزاء «شارلوس» والتي تُخْتَتَم بهذه الكلمات: «ليس أمثال «موريل» من يتفق أحياناً أن يكونوا مجردين من الشفقة، بل أناس شرفاء صالحون يعاقبون الشرّ ولا يأبهون للآلام التي يسبّبونها لمن يحكمون مجردين من الشفقة، بل أناس شرفاء صالحون يعاقبون الشرّ ولا يأبهون للآلام التي يسبّبونها لمن يحكمون أنّه خلو من النزاهة أو الشرف. بيد أنّ الشفقة لا تعود تهتم لما أمكن أن يفعله رجل من شر حالما يتألم أدبيّاً. وهي تمقت القاضي الذي يعلم أنه يفاقم أزمات قلبيّة دون أن تضطرب نفسه لذلك فيما يركع تغالبه دموعه أمام شحوب «قلق يبدو على من يخلّ بواجب وظيفته».

*

إن السنوات الأخيرة في حياة بروست تُظهر أنه مهتمّ في الوقت نفسه بنشر أعماله والدعاوى التي تنشر من حولها وتقارير النقّاد. تشهد على ذلك مراسلات هذه الفترة: إذ يعقد بروست صداقات مع كتاب شبان امتدحوا كتبه الأولى ويحمل على غيرهم وينحي باللائمة على «جاك ريفيير» حينما يتبيّن أن «**المجلّة الفرنسية الجديدة** لا تفرد له المكان أو المقالات الكافية». ويبدو اقتراب الموت فجأة وكأنه يبعث في صدره خشية أن يلبث مجهولاً أو الرغبة المشروعة تماماً في أن يشهد فنه في موقع الفنّ المشهود له. هكذا يتوضح الكثير من رسائله المكتوبة والكثير من الزمن الذي صرفه في إقناع «بول سوديه» أو «جاك بولانجيه»، و«بينيه فالمر» أو «بييرفو». تلخّص هذه المخاوف رسالة وجّهها في ٣ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٢٢ إلى «غاستون غاليمار»: «كتب إليّ أصدقاء أنّهم لم يستطيعوا العثور على «**غيرمانت -١**» في أيّ مكان، ولا على الجزء الثاني من «**سادوم**»، وهو الأشد غرابة (. . .) ألعلّ هذين الكتابين نفدا إذن والأخير منهما قريب العهد جداً؟ إني أسألك الإسراع إذ النقص هذا لا

يخدمني مطلقاً. هناك آخرون سواي ينعمون بالدنيا وإني لأغتبط بذلك. فلم أعد أملك لا الحركة ولا الكلام ولا الفكر ولا مجرد الراحة الناجمة عن غياب العذاب. لذلك تراني، وقد أقصيت من نفسي إن جاز القول، ألتجئ إلى المجلّدات أتلمسها إن لم أستطع قراءتها وإني أتحوط لها حيطة الزلقطة الحفارة التي سطّر عنها «فابر» الصفحات الرائعة التي يذكرها «متشينكوف» ولا بدّ أنّك تعرفها، ولست أهتمُّ بعد، وقد تجمّعتُ على نفسي مثلها وحُرِمْتُ كلّ شيء، إلّا بتزويدها عبر دنيا الفكر كلّه بالانتشار الذي حُجبَ عنّي[1]».

وليس يشغل بال بروست أقلّ من ذلك نشرُ مقتطفات في المجلّات، والعادة اتّخذها منذ المتقطفات التي زوّد بها «**الفيغارو**»، فإن عدنا إلى «**المسرات والأيّام**» فمنذ «**لو بانكيه**» (الوليمة) و«**المجلّة البيضاء**». وإنما تلك وسيلة للتعريف، وفي ما يخصّه لقراءة جزء من أعماله، ولا تزال غير منشورة، في الكتب. ويمكن أن ندهش للعناية التي يناقش بها بروست «جاك ريفيير» حول المقتطفات التي يتعين تقديمها في «**المجلّة الفرنسيّة الجديدة**» والصفحات التي يقبل أو يرفض نشرها: فهناك ثمانية أعداد من هذه المجلّة قدّمت مقتطفات من «**بحثاً عن الزمن المفقود**» في حياة مؤلفه. وينبغي أن نضيف إلى ذلك المقتطفات التي أدْرجتْ في «**المجلّة الأسبوعية**» و«**الأعمال الفنيّة الحرة**» و«**مقاصد**» و«**الأوراق الحرّة**» و«**صحائف فنية**» ومقالتين في «**المجلّة الفرنسية الجديدة**» ومقالة في «**مجلّة باريس**». والنصوص التي ينشرها بروست لا تؤخذ بعامة على نحو تتابعيّ في المخطوطات غير المنشورة وإنما تؤلف عمليّة إخراج لصفحات مختارة. هاك مثلاً كيف يبيّن بروست لـ«ريفيير» ما الذي يجدر نشره من «**سادوم وعامورة -٢**» تحت العنوان التالي: «في الحافلة إلى «لا

---

(١) م. بروست - غ. غاليمار: **مراسلات**، الطبعة المذكورة، ص ٦٢٢ - ٦٢٣. ويستشهد بروست في رسالة له شهر أيلول (سبتمبر) بأقوال شقيقه «روبير» الذي لم يستطع العثور على «**سادوم وعامورة**» في أية محطّة.. (المرجع نفسه، ص ٦١٠).

راسبليير»»[1]: احذف زيارة «كامبرمير»؛ استخرج منها العالم النروجيّ (. . . .) استخرج منها كذلك هاوي «لو سيدانير»؛ ومن اليسير جدّاً وضعهم في الحافلة الصغيرة. استخرج منها أخيراً الإفراز اللعابي للعجوز «كامبرمير»، أمّا هذه فلا تضعها في الحافلة الصغيرة، بل اقْتصر فقط على اللحظة التي يروي الخُلّص فيها في الحافلة أنَّ الزوجين الشابّين سيتناولان طعام العشاء في المساء نفسه في «لا راسبليير» (. . .) بهذه الطريقة يكون لديك كل متماسك غير مبدد أنا راغب فيه من حيث الحجم ولن يتجاوز الصفحات الـ ٤٦ التي أذنت لي بها». وعلى عكس ذلك ينفجر بروست أحياناً وقد ضيّق عليه مدير «**المجلّة الفرنسية الجديدة**» والمرض الشديد: «العزيز جاك»، اعذرني ولكنّك توغر صدور الناس حينما يرون أن حياة الآخرين، أن روح الآخرين، غير موجودة بالنسبة إليك، بل عشرة سطور فحسب ولو كانت سيّئة إلى حدّ أنّها ربّما قضت على كلّ شيء[2]». إن الدرس الرئيسيّ الذي يمكن استخلاصه من هذه التقطيعات والتركيبات هو الأهمية القصوى التي يوليها بروست لتأليف هذه النصوص تبعاً لطولها وللجمهور وما يعرفه من قبل عن كتابه. وبما أنّ هذه التركيبات ألّفت على شكل مقاطع، هي أحياناً قصيرة جدّاً، كما هي الحال في دفاتر الإضافات، فإنّها تُبرز «مرونة»[3] وطواعية المادة المتوافرة. وسوف تبيّن الترسيمات والبدائل في هذه الطبعة فكراً في توسّع دائم ووعي متزايد وتعقيد متعاظم تجاه فسيفساء مترامية لا يتّضح فيها مكان القِطع بادئ الأمر ولعبة شطرنج لا نهائية التراكيب داخل إطار كبير، أو كرتونة أو رقعة شطرنج، مع أنّها حُددت سلفاً.

إنّ الاهتمام المهووس الذي يصرفه بروست في تركيب المقتطفات

---

(١) م. بروست – ج ريفيير: **مراسلات**، الطبعة المذكورة، ص ٢٠٥ – «**المجلة الفرنسية الجديدة**» كانون الأول (ديسمبر) ١٩٢١.
(٢) المرجع نفسه، ص ٢٥٩، رسالة بتاريخ ٢٥ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٢٢.
(٣) ج. بيرساني «تقطيع لبروست غير منشور» م. بروست – ج. ريفيير: **مراسلات**، الطبعة المذكورة، ص ٣٢٣.

التي ينشرها في المجلّات يتعارض والتهاون الذي يبديه في تصحيح تجاربه الطباعيّة. ذلك لأنه يعتبر هذه التجارب محض مخطوط[1] يمكنها الخضوع لإضافات واسعة وأوراق ملصقة. وفي مقابل ذلك يعتقد الروائيّ أنْ ليس يقع عليه تصويب الأخطاء المادية في زلات طباعية وعلامات وقف؛ وسواء تعلّق الأمر بـ«غراسّيه» في جانب منازل «سوان» أو «غاليمار» في باقي «**بحثاً عن الزمن المفقود**» فإنّه لا يتبدّل ويسخر في رسالة إلى «ريفيير» قائلاً: «تقول لي: لست أكتمك أن دائرة التصحيح في «**المجلة الفرنسية الجديدة**»، إلخ. . . » لكنّك، يا لتعسك، كنتَ أخفيت عنيّ وجود مثل هذه الدائرة! ويتكشف لي وجودها يوم لا أستطيع استخدامها. وما أروعها هيئة ظلّت على وثنيتها فلا تعرف اسم يسوع المسيح الذي تصمم على كتابته تسوع إلخ. . »[2] ويشير بصدد «**سادوم وعامورة -٢**» إلى أن «غابوري» المسؤول عن التصيحيح قد خلف وراءه كلّ الهفوات[3] وانتهى به الأمر، وقد سلم به، إلى الاعتقاد بأن «الأخطاء جسيمة إلى حدّ أن القارئ نفسه سيتولى التصحيح»[4] والواقع أن مذهبه الذي ستتأثر به كلّ الطبعات اللاحقة إنما أوضحه بنفسه لـ«غاستون غاليمار» في أيّار (مايو) ١٩١٩: «إنّك تتلاعب بالألفاظ حين تقول إنك ناشر لا طابع. ذلك أن من بين وظائف الناشر الرئيسية القيام بطباعة كتبه (. . .) دعنا نفرض لحظة أن الأخطاء جميعها منّي فهناك مصحّحون لشأن ما»[5]. لقد شاء بروست على الدوام،

---

(١) رسالة إلى «ريفيير» في نيسان (أبريل) ١٩١٩ بشأن «جانب غيرمانت» المرجع نفسه، ص ٥١.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٥٢ رسالة في ٦ كانون الثاني (يناير) ١٩٢١.

(٣) المرجع نفسه، ص ٢٢٨، رسالة في حزيران (يونيو) ١٩٢٢. راجع كذلك م. بروست - غ. غاليمار: **مراسلات**، الطبعة المذكورة، ص ٥٣٩ والرقم ٦.

(٤) م. بروس - غ. غاليمار: **مراسلات**، الطبعة المذكورة، ص ٤٧٣؛ تعقيب على رسالة من ١ شباط (فبراير) ١٩٢٢.

(٥) المرجع نفسه، ص ١٦٤ - ١٦٥ - راجع صفحة ١٧٤ حيث يشير بروست إلى أن قسم الأخطاء في«**في ظلال ربيع الفتيات**» يضيف أخطاء لن يصححها.

وهمّه الإجمال لا التفصيل، والروح لا الحرف، أن يلقي عن عاتقه الجوانب الماديّة للحياة، بما فيها الحياة الأدبية، وقد زاد المرض الطين بلّة، «إن التأليف في ما يخصنّي هين، أمّا الترقيع والتجبير فذلك يجاوز حدود شجاعتي. أعلَمُ تماماً أني منذ بعض الوقت أتخلّى عن أفضل الأمور لأنه ينبغي الرجوع إلى، إلخ. . .»[1]. لقد انصرف بروست إلى الجوهريّ، وترك الثانويّ للناشرين، أي التوزيعات الموسيقية التي يتعيّن عزفها، وهذا ما سيفعله «روبير بروست» و«جاك ريفيير» من ١٩٢٣ إلى ١٩٢٧ و«بيير كلاراك» و«أندريه فيرّيه» عام ١٩٥٤، وفي السنة نفسها «بيرنار فالّوا» في ما يخصّ كتاب «**ضدّ سانت بوف**» الذي أعاده «بيير كلاراك» و«إيف صاندر» جزئياً عام ١٩٧١. إن هذه الأخطاء في التفاصيل وصنوف التردّد في تحديد مواضع بعض النصوص وهؤلاء الشخوص الذين يموتون ثم «يعودون» إلى الظهور إنّما يشكلون علامة اللاإنجاز في «**السجينة**» و« **ألبيرتين المختفية**» و«**الزمن المستعاد**». ولئن كان «**بحثاً عن الزمن المفقود**» غير منجز في ما يخصّ التفاصيل، فليس على الإطلاق عملاً غير مكتمل.

يلاحظ الراوي في «**السجينة**» وهو يعزف لذاته «فانتوي» ثم «فاغنر»، طابع «اللااكتمال الدائم» في سائر الأعمال الكبرى في القرن التاسع عشر». إن أعظم كُتّاب هذا القرن «قد أخفقوا في كتبهم» ولكنّما يظلّ لهم فضل رئيسيّ يجعل عملهم الفنيّ جميلاً وجديداً وهو أنّهم وحّدوه بفضل نظرة راجعة. وقد شكّل هذا التوحيد المتأخّر «**الكوميديا الإنسانية**» و«**أسطورة القرون**» و«**كتاب الإنسانية المقدّس**» و«**خاتم النيبلونغ**»؛ وينبغي الا نخلط بينه وبين «الكثير من عمليّات التنسيق لدى كُتّاب ضحلين يتظاهرون، بحشد كبير من العناوين والعناوين الفرعية، بأنّهم لاحقوا مقصداً واحداً متعالياً[2]، لأنه جاء بصورة طبيعية عن طريق تطور هو تطور الحياة نفسها. حينذاك يستطيع الكاتب «أن يدمج بالباقي» «مقطوعة أُلِفَتْ

(١) المرجع نفسه، ص ٤١٦، رسالة تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٢١.
(٢) يقصد بروست ههنا «**جان كريستوف**» لـ«رومان رولان».

على انفراد» لأنّها «ليست التوسّع المصطنع في طرح معيّن». في هذه الصفحات الأساسيّة يحدّد بروست قانونه الشعريّ بقدر ما يفعل في «**الزمن المستعاد**». فهو يحتفظ بهذا الجمال الفريد الذي لدورة تنامت على مرّ السنين تنامياً طبيعيّاً تحت تأثير ثلاثيّ للتجربة المعيشة والثقافة والتأمّل: إنّه كتاب واحد أُطلق عليه عنوان «المسرات والأيّام» أو «**جان صانتوي**» أو «**ضدّ سانت بوف**» أو «**تقلّبات القلب**» أو «**بحثاً عن الزمن المفقود**». فمنذ «**ضدّ سانت بوف**» أُرِيْدَ للعمل أن يكون مُغْلَقاً على نفسه، من قراءة مقالة إلى الحديث الختاميّ حول النقد والأدب. ولكنّه ليس اعتباطيّاً ولا منتظماً لأنّه لا يني يتنامى ويضمّ إليه «تأمّل الطبيعة» و«الحركة» و«أشخاصاً ليسوا مجرّد أسماء شخوص»(١). وإذ خطر لبروست منذ البداية أن يوفّق بين الفصل الافتتاحيّ والفصل الختاميّ نراه يتجنّب طابع اللاإنجاز الذي ينعيه على كبريات الأعمال في القرن التاسع عشر. ولكنّه إذ يستسلم لهذا الشكل من الوحي الذي يمثّله في نظره الانحدار الذي لا ينتهي في ليل الجوّانيّة وفي خصوصيّة رؤية معيّنة وفي اختلاف لغة ما فإنه ينجو من الجفاء وروح الانتظام الكائن لدى «زولا» أو «رومان رولان». إن هذه البنية الدائرية يمكنها آنذاك، دونما تغيير في طبيعتها، تبديل الحديث الختاميّ في «**ضدّ سانت بوف**» بالفترة الصباحيّة في منزل الأمير «دو غيرمانت». ويمكنها حتى أن تنسجم مع حكاية رسالة، مع شخصيّة رئيسيّة معدّة لتصبح كاتباً. وليس من اكتشاف إجمالي يضرّ بها، لا التقاء «أغوستينللي» ولا الحرب العالميّة الأولى. إن وحدة الفكر الإبداعي تشبه الوحدة التي سبق أن لاحظها بروست لدى «راسكين» في عام ١٩٠٥ «إنه ينتقل من فكرة إلى أخرى دون أي نظام ظاهر. ولكن النزوة التي تتحكّم به تتبع في الواقع هذه التناغمات العميقة التي تفرض عليه غصباً عنه منطقاً أسمى»(٢) إن خاتمة

(١) «**السجينة**» المجلّد الثالث من هذه الطبعة.

(٢) «**سمسم والزنابق**»، ميركور دوفرانس، ١٩٠٦، ص ٦٢ - ٦٣.

«**سمسم والزنابق**» تبشّر بخاتمة «**الزمن المستعاد**»: «إلى حدّ أنّه يلفي نفسه في النهاية وقد خضع لنوع من الخطّة الخفيّة تُكْتَشَفُ في النهاية فتفرض رجعيّاً نوعاً من التنظيم على المجموع وتجعله يبدو، وقد تناضد تناضداً رائعاً حتى يبلغ هذا الألق الختاميّ[1]». إن حكاية المشروعات المتعاقبة والصياغات المتناضدة والترسيمات المُسْتَكْمَلَةِ المُتَجَاوَزَة لا هدف لها سوى الكشف عن هذا النظام وهذه التنضّدات حتى: «التألّق النهائيّ» الذي تمنّاه مترجم مغمور عام ١٩٠٥ وحقّقه عام ١٩١١ على صفحات دفتر طلّابيّ روائيّ لا ناشر له.

ولكنّ بروست كان قد احتاط لنفسه إذ نثر في جنبات القصّة علامات وتحذيرات واعترافات متحفظة تحدّد طريقته في الكتابة تحديداً في مثل نجاعة مقدّمة: فقد قدّم لِـ«راسكين» لا لِـ«**بحثاً عن الزمن المفقود**». ولعلّ مقدمّة لروايته كانت هدمت دونما شكّ فرادتها الرئيسيّة وهي الكشف شيئاً فشيئاً عن فلسفته ونظريته الجمالية وتحويل اكتشاف المعنى والماضي والفنّ إلى مغامرات، إن كان لا بدّ من الإلحاح، على الأمر، إذ إنّ جمل بروست هذه تبيّن ذات المقدار من المبادئ التي تحكم الإصدار الحاليّ. وأول الأمر هذا الميل إلى ما لم ينشر بعد وقد أوحى به هذا النصّ من «**جان صانتوي**»: «لعلّنا نُفْتَتَنُ اليوم لو وجدنا في مخطوطة أو مسلسل في صحيفة بعض الصفحات الجديدة لـ«جورج إيليوت» أو «إيمرسون»[2] فليس في نظر

---

(١) المرجع نفسه، ص ٦٢ يلاحظ بروست أيضاً أن آخر جملة في هذا الكتاب تكرّر طروحات الأولى إذ تذكّر «في التساوق الختاميّ نغمية البداية». إن آخر جملة في **الزمن المستعاد** تنتهي بلفظة «الزمن» الواردة في الظرفية «منذ زمن طويل»، وهي الكلمة الأولى في «**جانب منازل سوان**» راجع ف. كولب: «بروست وراسكين»، **دفاتر الرابطة الدولية للدراسات الفرنسيّة**، الآداب، ١٩٦٠، ص ٢٦٧ - ٢٧٣.

(٢) «**جان صانتوي**»، الطبعة المذكورة، ص ٣٦٨؛ راجع كذلك **المراسلات العامّة**، بلون، الجزء الخامس ١٩٣٥، ص ٦٤: «ما قولك لو احتفظ أحدهم لنفسه، بمثابة مجموعات كتبت بخطّ اليد، برسائل «فولتير» ورسائل «إيمرسون»؟ إن المجموعة الخاصة ينبغي أن تستحيل متحفاً، فإن لم تكن فإنّها تخيّب أمل الناس» (١٠ تموز (يوليو) ١٩١٩).

الهاوي ما كان غير ذي بال ممّا تساقط من ريشة بروست ولا سيّما إن تناول الأمر صفحات من رواية. فما الذي تحمله لنا المستجدّات؟ إن موت «بيرغوت» يعلّمنا إيّاه بصورة مجازيّة. ففي لوحة «فيرمير» التي يتأمّلها الكاتب المحتضر، ما يشغله على وجه الخصوص هو المادّة الثمينة التي لرقعة الحائط الصغيرة الصفراء[1]. ولفظة «المادّة» هذه يستخدمها بروست حينما يقتضي الأمر في كتاب «**في ظلال ربيع الفتيات**» وصفَ أمسيات «ريفبيل». وسرّ المادة كامن في تناضد «عدة طبقات لونيّة» وليس كثيراً أن نلحّ على الفكرة التي مفادها أن الطابع الثمين مردّه في «**بحثاً عن الزمن المفقود**» تناضد حالاته المتعاقبة. فمن صياغة إلى أخرى، ومن تصحيح إلى آخر، تكتسب الصفحة عمقاً وشفافية وبريقاً لا نجدها في الدفقة الأولى. فالفنان الكبير يخضع نفسه إذن لالتزامات يجهلها الكُتّاب الضحلون، الكُتّاب الرائجون الذين يمكن أن تستبدل بواحدهم الآخر؛ إنّه يخال نفسه «ملزماً بأن يعيد عشرين مرّة مقطوعة قليلاً ما يهمّ الإعجابُ الذي تستثيره جَسَدَه الذي يأكله الدود، كمثل رقعة الجدار الصفراء التي رسمها بهذا المقدار من العلم والرهافة فنان مجهول إلى الأبد كاد حتى لا يعرف باسم فيرمير»[2].

إن «فانتوي»، كحال «بيرغوت»، شخصيّة رمزيّة لبروست. وفي «**السجينة**» حيث يُغَطِي على «بيرغوت» يصغي الراوي إلى السباعيّة، وهي رائعة تتجاوز السوناتا قدراً. وما كان هذا العمل ليُعْرَفَ بدون الجهد الذي

---

(١) «**السجينة**»، الجزء الثالث من الطبعة الحاليّة.

(٢) «**السجينة**»، الجزء الثالث من هذه الطبعة. إن هذا النصّ من عام ١٩٢١ هو الأخير في الدفتر ٦٢. لقد نقله بروست دون تغيير يذكر في النسخة الثالثة للسجينة على الآلة الكاتبة. وفي تموز (يوليو) ١٩٢١ نراه لا يزال يمازح إزاء الوعكة التي ألمّت به في شهر أيّار (مايو) قبالة لوحة لـ«فيرمير» وذلك ليرفض دعوة وجّهت إليه إذ يحتمل «أن يصبح صباح الغد على صفحات الجرائد موضوع الخبر التافه عن احتفالكم الرائع». البارحة في أثناء خطاب السيّد «بيرسي» سقط شخص يدعى بروست مصاباً بالسكتة». **مراسلات عامة**، بلون، الجزء الخامس، ١٩٣٥، ص ٧٤.

بذلته الناشرة، وهي صديقة الآنسة «فانتوي». ذلك لأنّ «فانتوي» لم يخلّف حين وافته المنيّة سوى «تدوينات يصعب فكّ رموزها»، وقد قضت المرأة الشابّة «سنوات في حلّ الألغاز التي خلّفها «فانتوي» بأن ثَبَّتَتْ القراءة الأكيدة لهذه الكتابات الهيروغليفيّة المجهولة» واستخلصت «من أوراق أعسر قراءة من أوراق بردي تغطيّها كتابة مسماريّة الصيغة الأزلية في حقيقتها والخصبة أبداً، صيغة هذا الفرح المجهول والأمل الروحاني لملاك الصبح القرمزيّ»[1] وهكذا نرى «أن ما سمحت، بفضل كدّها وعنائها، بأن يُعرف عن «فانتوي» إنّما كان بالحقيقة كامل أعمال «فانتوي»[2] وكمثل دعوة خفيّة يُدْرِجُ بروست الذي كلّما دنا من نهاية أعماله دنا بسرعة أكبر من نهاية حياته، يدرج في متن صفحاته صورة رمزيّة لا عن طريقة كتابته فحسب، ولا عن مخطوطاته التي حكم عليها أن تبقى آثاراً بعد مماته، بل عن العمل الملقى على كاهل ناشرها. فهو مدعوّ إلى فكّ رموز النصوص التي لم تنشر وأن يقدّم هذه الطبقات المتعاقبة التي تسمح بعد إبرازها بإدراك طريقة تأليف الكتاب وعمق مادّته. وإن ما يداخلها شيئاً فشيئاً، في كلّ كلمة وكلّ جملة إنّما حياة الفنان نفسها التي «يَزْرُقُها» فيها شيئاً فشيئاً[3].

إن الترسيمة، وهي كلمة يهواها بروست ويستخدمها في «**الزمن المستعاد**» بشأن مؤلّفات الراوي الأولى، إنّما تعني هنا صياغات الدفاتر التي تُعِدّ للنصّ النهائيّ أو تتميّز عنه. ذلك لأنّها ترينا، شأن ترسيمة «**مرفأ كاركتوي**» من أعمال «إيلستير»، بعض التفصيلات بصورة أفضل وتفسّر أحياناً ما عاد فأضحى ضمنْياً وتشكّل الخطاب الذي يسبق صمتاً أوفر اتّساعاً: «لقد ألّفتُ ترسيمة صغيرة يبصر المرء فيها الخطّ المحيط بالشاطئ

(١) «**السجينة**» الجزء الثالث من هذه الطبعة.
(٢) المرجع نفسه.
(٣) «**سادوم وعامورة - ٢**»، الجزء الثالث من هذه الطبعة الترسيمة ٥ «حفلة استقبال في منزل الأميرة «دو غيرمانت».

بشكل أفضل. ليست اللوحة على سوء كبير، ولكنّه أمر آخر[١]. إن مشغل «إيلستير» كمشغل بروست تغطيه هذه الترسيمات وهي آثار لحياته وتفكيره ومشغل الذكرى شبيه به ويتفق أن تجيء الترسيمة الأولى «وحدها حقيقيّة وقد صُنِعَتْ وحدها على شكل الحياة»[٢] أو أن يشبه الزمن «هؤلاء الرسّامين الذين يحتفظون بالعمل الفنّي فترة طويلة ويستكملونه سنة بعد سنة»[٣]. إن العمل الفنيّ، وهو وليد الزمن، لا يبرز شكلاً إلا إذا نضّدنا مراحله المختلفة، ولا يكتسب عمقاً إلا إذا انحدرنا من «الخطّة الإجماليّة» إلى مغارة الكاتدرائيّة. وإنّه لامتياز عظيم أن يشهد المرء ميلاد عمل فني. ينبغي أن لا نعدّ الترسيمات جامدة إذاً لا حراك بها بل أن نقرأها على طريقة «سوان» إذ يصغي لِفكَرِ سوناتا «فانتوي»: «كان «سوان» يسمع جميع الفِكرَ المبدّدة التي ستدخل في تركيب الجملة، مثلما المقدَّمات في النتيجة اللازمة، كان يشهد تكوينها»[٤]. حينئذ يعود القارئ، وهو يلقي على مجمل الآثار المنشورة وعلى كتلة صفحات بروست غير المنشورة، وهي الأوفر حجماً، نظرة «استعاديّة» شبيهة بالنظرة التي ألقاها الروائيّ نفسه على «**المسرات والأيّام**» ومقدّمات «آثار راسكين» و«**جان صانتوي**» و«**ضدّ سانت بوف**» ومقالاته ومسوّداته ورسائله كي يؤلّف منها «**بحثاً عن الزمن المفقود**»، فيبني العمل الفنيّ - داخل الزمن.

(جان إيف تادييه)

Jean - Yves Tadie

مكتبة
t.me/soramnqraa

* * *

(١) «**في ظلّ ربيع الفتيات**»، الجزء الثاني من هذا الطبعة، ص ٢١٥.

(٢) «**جانب غيرمانت - ١**»، الجزء الثاني من هذه الطبعة، ص ٣٦٠. وحده السيّد «دو نوربوا» يزدري الترسيمات، المرجع نفسه.

(٣) «**الزمن المستعاد**»، الجزء الرابع من هذه الطبعة.

(٤) «**جانب منازل سوان**»، ص ٣٤٥.

مقدّمة

أندريه موروا

ليس من مجموعة روائية في الفترة الممتدة من ١٩٠٠ إلى ١٩٥٠ أكثر التصاقاً بالذاكرة من تلك التي عنوانها «**بحثاً عن الزمن المفقود**»؛ لا لأن آثار «بروست» عملاقة كمثل آثار «بلزاك»، فقد كتب غيرهما خمس عشرة رواية أو عشرين دون أن يخلفوا فينا شعوراً بما يشكل كشفاً أو خلاصة، إذ اكتفوا باستثمار عروق معروفة، حين كان «بروست» يكتشف مناجم جديدة. لقد اتخذت «الكوميديا البشرية» العالم الخارجي مجالاً لها، فوضعت يدها على عالم المال وصالات التحرير والقضاة والكتّاب بالعدل والأطباء والتجار والفلاحين، إذ عزم «بلزاك» أن يصوّر مجتمعاً بأسره وقد فعل بالحقيقة. أما أحد أكثر الجوانب أصالة لدى «بروست» فهو على العكس لامبالاته باختيار المواد، فأقل اهتمامه بفعل الملاحظة، وأكثره بطريقة يلاحظ بها كل فعل. وهو يقوم بذلك، كمثل بعض فلاسفة عصره، «بثورة كوبرنيكية بالمقلوب»، فيعود الفكر الإنساني ليلقى ذاته في مركز العالم، ويصبح غرض الرواية وصف الكون الذي يعكسه الفكر ويشوهه.

وتحديد «بروست» بأحداث كتابه وأشخاصه ينافي المنطق مثلما ينافيه تحديد «رينوار»، وهو الرجل الذي رسم نساء وصبية وأزهاراً. فليس ما يصنع «رينوار» نماذجه، بل نور قزحي يضع فيه كلاً من نماذجه. لقد أبرز «بروست» نفسه بشأن «بيرغوت Bergotte» أن مادة الكتاب لا دخل لها في

تأليف النبوغ، فالنبوغ هو الذي يغيّر كل مادة. لقد كان الوسط العائلي الذي شب فيه «بيرغوت» خلواً في ظاهره مما يبعث السحر ويثير الاهتمام، غير أن «بيرغوت» استخلص منه رائعة لأنه عرف كيف «يقلع» بجهازه الصغير، كيف يكشف تحت الأشياء خفاياها، مثله مثل هؤلاء الطيارين الذين يحلقون فوق الصحراء فيستشفون فيها أسواراً غير مرئية على الأرض لمدن مدفونة تحت الرمال. ولا بدّ لنا إذن قبل الحديث عن «بحثاً عن الزمن المفقود» أن نبرز كيف استطاع «بروست» أن «يقلع» أفضل من أي إنسان آخر من عالم بدا أنه متعلق به أشد التعلق.

(١)

فمم كانت تتألف الدنيا المعروفة لديه؟ من مدينة صغيرة في مقاطعة الِ«بوس» تدعى «إيلييه Illiers» أمضى فيها على مدى طفولته كلها عطلة الصيف وسط عائلته؛ ومن جدوده وأبيه وأمه وأخيه وأعمامه وعماته وأخواله وخالاته وجيرانه في الريف. ثم من وسط باريسي: من رفاقه في مدرسة «كوندورسيه» وأصدقاء والده وبعض النسوة كمثل «لور هيمن» والسيدة «أميل ستراوس» والكونتيسة «دي شوفينيه» وصالونات السيدة «آرمان دي كايافيه» والسيدة «دي بولانكور» والكونتيسة «غريفول» ثم بالتدرج من صفوة القوم بطريق «روبير دو مونتسكيو»، ومن وسط يهودي بطريق أخواله من عائلة «فيي» وأسرة أمه، ومن فتيات بطريق «كابور» وملعب كرة المضرب في شارع «بينو». والشعب ويكاد لا يمثله سوى بعض الخدم وبعض عمال المصاعد والمروجين للفنادق، وبعض من ذكريات الجيش وبعض تجار مدينة «إيلييه». والكُتاب والفنانون يستشفون عبر «أناتول فرانس» و«رينالدو هان» و«مادلين لومير» و«هيلو»، وذلك مقطع هين جداً في المجتمع الفرنسي. ولكن لا بأس، فسوف يعمد «بروست» إلى استثمار منجمه تعميقاً لا توسيعاً.

علامات كثيرة تعده للكتابة، فهو عصبي في مزاجه ومريض

الإحساس. لقد احتضنته والدة كانت محبة بقدر ما كانت رائعة فأضحى يتألم لأقل درجات الخلف ويسجل بألم أدق موجات العداء أو السخرية. فهنالك مشاهد انغرست في فكره واستحوذت عليه شأن نفوس هائمة تسعى إلى الخلاص، وما كانت لتؤثر في أي سواه أقسى إهاباً أثيراً دائماً. (مثال ذلك: ذات مساء رفضت فيه والدته أن تأتي لتقبله في سريره ثم تراجعت، وفيما بعد مشوار في باريس للبحث عن حبيب. وإذلالات اجتماعية نجد آثارها أولاً في كتاب «جان صانتوي Jean Santeuil» ثم في كتاب «بحثاً... La recherche..». «إن الكاتب يعوض نفسه قدر ما يستطيع عن بعض مظالم القدر». إن هذا الأخير يحس بحاجة ملحة إلى التعويض والشرح والعزاء.

لقد أضحى في ريعان الشباب، ومن جراء ربو مزمن، لا مقعداً، بل مريضاً ينبغي له أن يعتزل العالم بعض فترات في العام. وتلائم هذه العزلة استحالة الحياة فناً. «إن أكثر الجنات حقيقة هي تلك التي فقدناها». إن «بروست» يردد هذه الفكرة بألف شكل. «السنوات السعيدة هي السنوات المفقودة، والمرء ينتظر ألماً كيما يعمل». فهو يحاول، بعدما طرد من جنات عدن طفولته وفقد السعادة، أن يعيد خلقها.

ويُصاب بمرض أخلاقي أشد خطورة من أمراضه الجسدية، فقد اكتشف منذ اليفاعة أن الحب الوحيد الذي يجذبه إليه شاذ. ولكنه ليس رجلاً يستطيع مثل «جيد Gide» أن يتحدى جماعته. وإن الجملة القائلة «إني أكرهك أيتها الأسر» غريبة أشد الغرابة عن طبيعته. ونتخيل صراعات داخلية طويلة وأليمة يخرج منها مغلوباً، وجهوداً ليكبح رغباته، ونكسات وفي النهاية إيقاناً بالفشل. ولا يمكن أن نرتكب في ما يخص «بروست» ضلالاً أكبر من أن نظنه رجلاً لا أخلاقياً. إنه فاجر، أجل، ولكنه يتألم لذلك، الأمر الذي ينجم عنه أيضاً حاجة إلى الاعتراف والتحليل تفيد الروائي.

ويبدو هذا الشاب أخيراً، والكتابة بالنسبة إليه حاجة قاهرة، رائع

التجهيز كيما يقوم بذلك. فليس يتمتع بذكاء امرئ عصبي حاد يأتيه بمواد ثمينة فحسب، بل يملك إلى جانبه ثقافة ضخمة تعلمه كيف يستخدمها. لقد غذته أمه بكبار الكلاسيكيين الفرنسيين والإنكليز وكانت تحبهم حتى الهوى. إن قلّة من الناس في عصرنا يعرفون أفضل منه «سان سيمون» و«مدام دي سيفينيه» و«فلوبير» و«بودلير»، وتشهد أعمال المعارضة التي قدمها لهم عن ألفة تامة معهم. فقد درس دروب فكرهم وطرائقهم وأسلوبهم؛ ولو لم يكن أعظم روائي في عصرنا لأصبح أعظم ناقد. وجاءه الإنكليز بإمكانات تهجين تعزز الفكر مثلما تفعل بالعرق. وقد أشار إلى ما لِـ«توماس هاردي» و«جورج إيليوت» و«ديكنز» وخصوصاً «راسكين» بذمته. ولم يتفق لكاتب في عصرنا ما اتفق له من علم وصنعة.

ولكن الجميل أنه فيما كان يملك أفضل إعداد ليصبح كاتباً تقليدياً ذا لهجة حازمة ومتحذلقة رفض هذه السهولة. وهنا نلتقي تعاليم والدة كبيرة الذوق. «كانت أكيدة أنها تملك فكرة صحيحة عن الكمال حول طريقة إعداد بعض الأطعمة وعزف مقطوعات السوناتا لبيتهوفن والاستقبال اللطيف... والكمال واحد تقريباً في الأمور الثلاثة: نوع من البساطة في الوسائل ومن الاعتدال والروعة». وستكون أفكار «بروست» حول الأسلوب من هذا القبيل. سوف ينقاد اليراع الملهم بين الحين والحين لإغراء نسج مقطوعة ما (آنسات الهاتف - شجيرات الزعرور - حمام أميرة «غيرمانت»). ولكن أفضل ما في «بروست»، «بروست» الحقيقي، سوف يقرن الطبيعي بالأسلوب، ولم يحسن أحد مثله تثبيت موسيقى اللغة المحكية والألوان الخاصة بكل وضع.

لقد بحث طويلاً دونما جدوى عن الموضوع الذي يسمح له بالتعبير عن الكثير مما يضيّق عليه الخناق. ومثلما أحس فيما مضى وهو طفل يتنزه على ضفاف نهر «إيفون» إحساساً مبهماً أنه كان يجدر به إنقاذ بعض حقائق سجينة تحت قرميد هذا السقف أو تحت أغصان صفصافة مستعطفة، هكذا كان يقلب، بعدما أصبح رجلاً ابن خمس وعشرين، ابن ثلاثين، كنوز

ذاكرته الغنية دون أن يلقى فيها ما يريد. لقد عمل في عام ١٨٩٦ على طباعة كتاب له بعنوان «المسرات ات والأيام»، هو مجموعة من الأقاصيص والقصائد، كتاب من الطريقة الانحطاطية ولون أواخر القرن يذكرك بـ«**المجلة البيضاء**» وبـ«جان دي تينان Jean de Tinan» و«أوسكار وايلد». ولم يخطر لأي قارئ أن المؤلف سيصبح ذات يوم أعظم مبتكر لدينا في الأدب. ثم سود بين ١٨٩٨ و١٩٠٤ في السر دفاتر عديدة من رواية تتناول سيرته بعنوان «**جان صانتوي** *Jean Santeuil*» وقد كتبها المؤلف دفعة واحدة ولم يصححها في يوم.

ولم ينشرها بل فكر بالتأكيد في أمر إتلافها، إذ تم تمزيق العديد من صفحاتها. واليوم نكتشف فيها معظم الصفات التي نحبها في «بحثاً عن الزمن المفقود». فالعديد من المشاهد التي كانت تستحوذ عليه والتي سيضفي عليها فيما بعد شكلها الكامل تستشف فيه، كما يكشف الذكاء في التحليل وشاعرية الوصف وتصوير مواطن السخرية بأسلوب «ديكنز» عن كاتب كبير. على أنه كان محقاً في أن لا ينشر حينذاك هذا الملخص، إذ كان يمكن أن يحول دون استعادة الموضوع نفسه باقتدار لا حد له. ذلك أنه كتبه فيما كان والداه على قيد الحياة وربما أصبحا من أوائل قرائه فما استطاع أن يعالج فيه بصراحة ما كان يبدو جوهرياً في عينيه. و«جان صانتوي» كتاب يستثير هوانا نحن المعجبين بـ«بروست»، ولكنه قليل البعد عن الأصل كيما يصبح عملاً فنيا تماماً.

وفي «**جان صانتوي**» يبدو المراقب مذ ذاك معلماً، على أن المراقبة ما كانت لتكفي «بروست». فالجمال، فيما يظن، يشبه أميرة الحكايات التي سجنها ساحر رهيب في أحد الأبراج. وعبثاً نحاول في إنقاذها خلع آلاف الأبواب، وغالبية الناس تتخلى عن البحث في إسراعها إلى التمتع بالحياة. ولكن أمثال «بروست» يتخلون عن كل شيء في سبيل الوصول إلى السجينة، وفي يوم يكون يوم كشف وإشراق ويقين سينال مكافآته الرائعة الخفية. «لقد قرعوا جميع الأبواب التي لا تفضي إلى شيء»،

يقول، «والباب الوحيد الذي يمكن الدخول منه والذي ربما بحثنا عنه دون جدوى على مدى مئة عام نصطدم به دون علم منا فينفتح. . .».

(٢)

فإلى أين يفضي هذا الباب «الوحيد»؟ وحينما انفتح فجأة، أي كتاب تبدى له في مثل طول «**ألف ليلة وليلة**» و«**ذكريات سان سيمون**»؟ وما الذي كان عليه أن يقوله حتى يبدو له مهماً إلى حد يضحي معه بكل ما تبقى؟ وما عسى أن تكون موضوعات سيمفونية «بروست» العظيمة؟

الأول الذي يبدأ كتابه ويختتمه به موضوع الزمان. «لو ظل لي على الأقل ما يكفي من الزمن لتحقيق كتابي لما فاتني أن أطبعه بطابع هذا الزمن الذي تسودني فكرته اليوم بهذا القدر من القوة ولوصفت فيه الناس، ولو أدى ذلك إلى أن يشبهوا كائنات خيالية، وكأنهم يشغلون في الزمان مكاناً أوفر اتساعاً بكثير من المكان اليسير جداً الذي خصوا به في المكان. . .» لقد استحوذ على «بروست» الجريان الدائم لكل ما يحيط بنا وتفتته. «هناك سيكولوجية في الزمان مثلما هنالك هندسة في المكان». إن كامل حياة الكائنات البشرية نضال ضد الزمان، فهي تبغي التعلق بحب، بصداقة، بقناعات، ولكن نسيان الأعماق يرتفع شيئاً فشيئاً حول أجمل ذكرياتهم وأغلاها.

تفترض الفلسفة الكلاسيكية «أن قوام شخصيتنا اعتقاد لا يتبدل أشبه ما يكون بالتمثال الروحي» يصمد كالصخر في وجه هجمات العالم الخارجي. ولكن «بروست» يعلم أن «الأنا» تتفكك إذا ما انغمست في الزمان. ففي يوم قريب جداً لن يظل شيء من الإنسان الذي أحب، والذي تألم، والذي قام بثورة. وسوف نرى «سوان» و«أوديت» و«جيلبيرت» و«بلوك» و«راحيل» و«سان لو» يمرون على التوالي في الرواية تحت الأضواء الكاشفة التي تطلقها المشاعر والأعمار فيتخذون منها ألوانها شأن رهط من الراقصات بيض الفساتين ولكنها تبدو صفراء تارة وطوراً خضراء

أو زرقاء. إن «أنانا» المحبة لا تستطيع تخيل ما تصبح عليه «أنانا» بعد بضع سنوات قد أنقذت من سموم هذا الحب. و«الدور والشوارع والطرق، كمثل السنين، وأسفي، تمعن في الهروب». وعبثاً نعود إلى الأماكن التي أحببناها، فلن نبصرها من بعد لأنها كانت واقعة في الزمان لا في المكان وأن الرجل الذي يعود إليها ليس الطفل أو اليافع الذي كان يضفي عليها من حميته زينة.

على أن «أنواتنا» القديمة لا تفقد بكليتها إذ تستطيع أن تعود فتعيش في أحلامنا وحتى في حالة اليقظة. وليس من قبيل الصدفة، بل عن قصد أكيد، أن يعرض «بروست» منذ الحركة الأولى في سمفونيته موضوع الاستيقاظ. ففي كل صباح نعود إلى هويتنا بعد بضع لحظات من اختلاط الأمور، وإنما يعني ذلك أننا ما فقدناها قط. إن «مارسيل» يستطيع في أواخر حياته أن يسمع في مكان ما في ذاته «رنين الجرس الصغير المتوثب الحديدي الذي لا ينتهي الصاخب الريان» والذي كان يؤذن في طفولته بوصول «سوان». فلا بدّ أن هذا الجرس لم ينقطع إذن عن الرنين في داخله. والزمان لا يموت كلياً والحالة هذه، حسبما يتبدى لنا، ولكنه يظل بداخلنا. من هنا نجمت الفكرة التي أوحت بمؤلف «بروست» أن نذهب في «البحث» عن الزمن الذي يبدو مفقوداً ولكنه ههنا على أهبة ميلاد جديد.

ولا يمكن أن يتم هذا البحث في العالم الذي يدعوه الناس «واقعياً» وهو غير واقعي أو يتعذر تعرفه لأننا لا نراه قط إلا وقد شوهته أهواؤنا. فليس من عالم واحد، بل ملايين العوالم «بقدر ما هنالك حدقات وعقول بشرية تستفيق كل صباح». فليس المهم إذن أن نعيش بين هذه الأوهام ومن أجلها بل أن نبحث في ذكرياتنا عن الجنات المفقودة، وهي الجنات الوحيدة. إن في داخل كل منا شيئاً ثابتاً هو الماضي، ويمكننا حينما نعود فنمسك به من جديد في بعض اللحظات الفريدة أن نمتلك «حدساً عن ذواتنا على أننا كائنات مطلقة». ففي مقابل الفكرة الأولى القائلة بالزمان الذي يهدم تقوم فكرة متممة تقول بالذاكرة التي تحفظ. بيد أن الأمر ليس

أمر الذاكرة، أي ذاكرة؛ وإن إسهام «بروست» الأساسي أنه يعلّم الناس طريقة معينة في استذكار الماضي.

فهل هنالك العديد من الطرق لاستذكار الماضي؟ هنالك طريقتان على الأقل، إذ يستطيع المرء أن يحاول إعادة بناء الماضي بطريق العقل، بطريق المحاكمات والوثائق والشهادات. ولن تزودنا هذه الذاكرة الإرادية قط بالإحساس ببروز الماضي على صفحة الحاضر، وهو الوحيد الذي يجعل إدراك استمرار «أنانا» ممكناً. ولا بدّ للعثور على الزمن المفقود من تدخل الذاكرة اللاإرادية. وكيف يتم تحريك هذه الذاكرة؟ بالتطابق بين إحساس حاضر وبين ذكرى. فماضينا يعيش باستمرار في طعم الأشياء ورائحتها: «علينا ألا ننسى، يقول بروست، بأن هنالك فكرة تتردد في حياتي... أكثر خطراً من فكرة حب «ألبيرتين»، إنها فكرة الأذكار وهي مادة الموهبة الفنية... فكوب شاي وأشجار في متنزه وقباب أجراس، إلخ...» ونجد ههنا مثال الكعكة الصغيرة الذائع.

فما إن يتبين الراوي طعم هذه الكعكة الشبيهة بصدفة بحرية حتى تطلع بلدة «كومبريه Combray» بأسرها من كوب زيزفون وقد عادت تثقلها الانفعالات التي كانت تكسبها هذا المقدار من السحر. وإنما الثنائي الذي قوامه الإحساس الحاضر والذكرى العائدة بالنسبة إلى الزمان كالمنظار المجسم بالنسبة إلى المكان، فهو يخلق وهم البروز الزمني. وفي هذه اللحظة يستعاد الزمان ويُقهر في الوقت نفسه لأن قطعة كاملة من الماضي استطاعت أن تصبح قطعة من الحاضر. وإن مثل هذه اللحظات لتشعر الفنان بأنه احتل الأبدية. فليس من شيء يمكن تذوقه والاحتفاظ به حقاً إلّا من وجهة الأبدية وهي وجهة الفن كذلك والموضوع الأساسي والعميق والجديد في «**بحثاً عن الزمن المفقود**». وقد تراءى هذا الموضوع لكتاب آخرين (من أمثال «شاتوبريان» و«جيرار دو نيرفال») ولكنهم لم يذهبوا إلى أعماق حدسهم ولم يفتحوا هذا الباب السحري على مصراعيه. لقد رأى «بروست» وحده إمكانية استرجاع دنيا بأسرها ظنناها غرقت إلى الأبد في

بحر النسيان وذلك من الكوب عن طريق تذكّر أولي تبدو هذه الدنيا وكأنها معلّقة به.

إن روايته باختصار القول مغامرة كائن رائع الذكاء مريض الإحساس ينطلق منذ الطفولة في البحث عن السعادة المطلقة فلا يلقاها في الأسرة ولا في الحب ولا في العالم ويرى نفسه منساقاً إلى البحث عن مطلق خارج الزمان، شأن المتصوفين من الرهبان، فيلقاه في الفن، مما يؤدي إلى اختلاط الرواية بحياة الروائي وإلى انتهاء الكتاب لحظة يستطيع الراوي بعدما استعاد الزمان أن يبدأ كتابه فتنقلب بذلك الحيّة الطويلة على نفسها لتغلق الحلقة العملاقة.

(٣)

فماذا يرى الراوي بعدما تم استذكار الماضي بألاعيب الذاكرة اللاإرادية السحرية؟ في الوسط داراً ريفية، دار «كومبريه» التي تقطن فيها جدته ووالداه وعمته «ليوني» (وهي شخصية توحي بهزلية حميمة وقوية) والخادمة «فرانسواز» (رائعة الصورة) وبعض الشخصيات الثانوية. وعلى مقربة من المنزل تقوم حديقة ريفية يجيء إليها في أمسيات الصيف أحد الجيران، وهو السيد «سوان» بدون السيدة «سوان» ليرى والدي الراوي. وحول «كومبريه» تمتد منطقة أليفة وزاخرة بالأسرار تنقسم بالنسبة إلى الصبي إلى جانبين: الجانب الواقع جهة منازل «سوان» وهو جانب «تانسونفيل» التي تملكها عائلة «سوان»، وجانب «غيرمانت» الذي يقوم عليه قصر «غيرمانت». وعائلة «غيرمانت»، وهي أسرة نبيلة عريقة نلمحها أحياناً لدى خروجها من القداس، تؤلف في نظر «مارسيل» كائنات بعيدة المنال وفوق البشر. لقد قِيل له إنها تنحدر من «جنفييف دو برابان Geneviève de Brabant» وإنها ترتبط بعالم مسحور. وهكذا تبدأ الحياة بعصر الأسماء: فعائلة «غيرمانت» والسيدة «سوان» وابنتها «جيلبيرت سوان»، وكلهم نكاد لا نعرفهم، إنما يؤلفون أسماء فحسب.

وسوف تخلي هذه الأسماء المكان، الواحد تلو الآخر، لكائنات من لحم ودم. فتحتفظ عائلة «غيرمانت» بسحرها بعدما يلج الراوي في حياتها ولكنها تفقد مكانتها البطولية. وتصبح دوقة «دو غيرمانت» بالنسبة إلى «مارسيل» صديقة، وكانت قديسة بعيدة، فيعلم بما في داخلها من أنانية وجفاء إلى جانب ذكاء حاد ولكنه سطحي. وينتقل غيرها من عائلة «غيرمانت» كالبارون «دو شارلوس» و«روبير دو سان لو» الجذاب على التوالي من الظلال المحسنة إلى أضواء المسرح الأمامية الفاضحة. ويكتشف الراوي شيئاً فشيئاً أن أسماء الرجال والنساء هذه التي عمرت بالأمس عالم فوانيس سحرية إنما كانت تخفي واقعاً قاسياً حيناً وحيناً تافهاً. فليس العالم الروائي في العالم الحقيقي بل في الفارق ما بين العالم الحقيقي ودنيا الخيال.

وهنالك في الحب أيضاً عصر كلمات يلاحق فيه الإنسان الذي خدعته أوصاف هذه العاطفة لدى الكلاسيكيين أو الرومانتيكيين اتحاداً عاطفياً مستحيلاً. بيد أنه «لا شيء يبعد عن الحب بمقدار الفكرة التي نكوّنها عنه». لقد حاول «بروست» أن يصف وصفاً أقرب إلى الحقيقة من الروائيين التقليديين ظاهرات اللقاء والاصطفاء وآثار الغياب واللامبالاة النهائية. وحواء التي أُخِذَتْ من جسد آدم نفسه رمزٌ صائبٌ، والنسوة المحبوبات يولدن في الحلم من وضع لفخذنا غير صحيح، والكائن المحبوب الذي كوناه من نفسنا في زمن اللقاء لا علاقة له البتة بالكائن الحقيقي الذي نتحد به طوال حياتنا. يتزوج «سوان» «أوديت» والتي خرجت من أحلامه فيلفي نفسه أمام «أوديت» لا يحبها «وليست من نوعية تروقه». ويبلغ الأمر بالراوي «مارسيل» أن يحب «ألبيرتين» التي حكم بادئ الأمر أنها عامية وتكاد تكون بشعة ولكنه يتعلق بها لأنها «كائن قوامه الهروب» فاحتفظت من ذلك بهالة من الأسرار.

إن الحب يبقى بعد الامتلاك ما دام الشك باقياً وإن اكتشاف بطلان ما كنا وضعناه في أعلى المراتب لا يكفي لشفائنا إن كانت الغيرة تعمر هذه

القفار. إلا أنّ «اضطرابات الذاكرة ترتبط بها» لحسن الحظ «تذبذبات القلب». ويبدّد النسيان أخيراً بعد غياب طويل أوهام الحب. فأما الحب الشاذ الذي تمّ وصفه مطولاً في كتاب «**سادوم وعامورة**»، فإنه يسير وفق منحنى الحب العادي نفسه. ولا أهمية لما هو عليه موضوع الحب في الواقع، حوذياً كان أم صانع صدارٍ أم خليلة أم دوقة، بما أن جوهر الحب ذاته، فيما يرى بروست، أن موضوع الحب لا وجود له، اللهم إلا في خيال المحب.

وهكذا فإن «هذين الجانبين» من طفولته، الجانب الذي في جهة منازل «سوان» وجانب «غيرمانت»، اللذين تبدّيا «لمارسيل» على أنهما عالمان مجهولان ومغريان وخفيان، قد تمّ له اكتشافهما فما وجد فيهما ما يستحق اهتماماً شديداً ودائماً، والتحذلق، كمثل الحب، مخيبة للآمال. لقد رغب «سوان» إلى حد الهوى في أن يكون من جماعة عائلة «فيردوران Verdurin» رغبة «مارسيل» في أن يكون روّاد صالون «غيرمانت»، فإذا الجماعة والصالون، بعد معرفة واحتلال، لا شيء، والعوالم الوحيدة التي تحتفظ بالجاذب هي العوالم التي لم يلجها المرء بعد. كل شيء أكثر بساطة وسخفاً مما ظنّت عينا الطفولة. قد بدا الجانبان، من «كومبريه»، كأنما تفصل بينهما هاوية، فإذا هما يلتقيان وقد ألفا فوق الكتاب قنطرة ضخمة، وتتزوج «جيلبيرت» ابنة «سوان» رجلاً من بيت «غيرمانت» اسمه «سان لو»؛ وما كان تعارض الجانبين نفسه إذن سوى كذب. وتتكشف الحقيقة ولكنها تتبدد في اللحظة نفسها.

لقد استخدمت قاصداً كلمة القنطرة، فكتاب «غيرمانت»، الذي لم يدرك النقاد في الحال مخططه حينما أخذ في الظهور، مبني على غرار بساطة الكاتدرائيات وجلالها. وكان يعي ذلك: «وحينما تحدثونني عن الكاتدرائيات فإنه لا يسعني إلا أن يهزّني حدس يُمكنّكم من استشفاف ما لم أقله لأحد قط وما أكتبه للمرة الأولى من أنني كنت أبغي أن أطلق على كل جزء من كتابي عنوان «المدخل» و«زجاج الحنية الملون»، إلخ. وذلك

كيما أجيب سلفاً على النقد الغبي الذي يوجه إليّ بأني أفتقر إلى إحكام البناء في كتبي التي سأريكم بأن الفضل الوحيد قائم في متانة أقل الأجزاء فيها . . . ».

ففي المؤلّف بعد تمامه الكثير من التناظرات المقصودة والجزئيات التي تتنادى بين قسم وآخر والأحجار التي وضعت تنتظر منذ بدء الأعمال أن تحمل الأقواس الآتية حتى ليعجب القارئ أن تصور فكر «بروست» هذا البناء العملاق وكأنه كتلة واحدة. فتلك الشخصية التي تقتصر على الظهور في الجانب الذي من جهة منازل «سوان»، كمثل هذه الفكرة التي تبرز خطوطاً في مقدمة موسيقية ثم تتسع فيما بعد حتى تسود الخلفية الموسيقية بأبواقها الوحشية، ستصبح تلك الشخصية أحد الأبطال (مثال ذلك السيدة ذات الثياب الوردية التي شوهدت في منزل العم والتي ستصبح «أوديت دو كريسي» ثم السيدة «سوان» وأخيراً السيدة «دي فورشفيل»، والرسام «بيش» وهو من جماعة «فيردوران» الصغيرة والذي سيصبح «إيلستير» الكبير، والفتاة التي يأخذها الراوي في بيت مشبوه ويلقاها فيما بعد تحمل اسم «راحيل» عشيقة يعبدها «سان لو»).

ومثلما القنطرة العملاقة تتخطى السنين وتجمع في النهاية بين الجانب الذي من جهة «سوان» وجانب «غيرمانت»، كذلك يقابل موضوع الكعكة الصغيرة من فوق آلاف الصفحات، مجموعات أخرى من الإحساس - الذكرى (كالبلاط غير المتساوي الذي ينقل الراوي إلى مدينة البندقية - والمنشفة الخشنة المنشاة التي تدخل «بالبيك» فجأة في مكتبة الأمير «دي غيرمانت»). أما مفتاح القنطرة في المؤلّف بأسره فالآنسة «دو سان لو» دون شك، وهي ابنة «روبير» و«جيلبيرت». إنها لا تعدو كونها وجهاً صغيراً منحوتاً يكاد لا يرى من الأسفل، ولكن الزمان «الذي لا لون له ولا تقع عليه يد» قد تجسَّد فيها حرفياً. لقد انعقدت القنطرة وتمّت الكاتدرائية. وفي هذه اللحظة يتم خلاص الفنان والإنسان، ويطفو على صفحة هذا العدد الكبير من العوالم النسبية عالم مطلق.

بذلك تصبح رواية «بروست» توكيداً وإعتاقاً. هنالك موضوعان يتصارعان فيها، كما هو الأمر في سباعية «فانتوي Vinteuil»، موضوع الزمان الذي يهدم وموضوع الذكرى التي تخلص: «وأخيراً ظلّت الفكرة الفرحة منتصرة، فلم تعد نداء يكاد يكون قلقاً ينطلق من خلف سماء مقفرة، بل كانت فرحاً يفوق التعبير كان يبدو وكأنه آتٍ من الجنة، فرحاً يختلف عن فرح السوناتا الاختلاف الذي يمكن أن يقوم بين ملاك وديع ورزين من رسم «بلليني» يعزف على العود ورئيس ملائكة من رسم «مانتينيا Mantegna» يرتدي ثوباً قرمزياً وينفخ في البوق. وكنت أعلم أنني لن أنسى في يوم هذا اللون الجديد في الفرح، هذه الدعوة إلى فرح فوق الأرضي...».

يلح «كلود موررياك» في كتيبه الممتاز حول «بروست»، يلح بحق على مفهوم الفرح هذا الذي يمتاز به «بروست»: «ذلك أننا نشهد لدى مارسيل بروست» فترات متقلبة من السعادة أكثر مما نرى من تقلبات القلب. فمن أين تجيء نفحات الفرح هذه؟» من أن الفنان الكبير يميط «اللثام جزئياً أمامنا، لثام البشاعة والتفاهة الذي يجعلنا غير فضوليين أمام العالم». ومثلما يصنع «فان كوغ» رائعة من كرسي من القش، ومثله «دوغا» أو «مانيه» من امرأة قبيحة، يأخذ «بروست» فرن طبخ عتيقاً ورائحة عفنة وغرفة ريفية ودغلاً من الزعرور ويقول: «أحسنوا النظر، فخلف هذه الأشكال البسيطة جداً تقوم جميع أسرار الدنيا».

(٤)

على أن لحظات الانخطاف التي تسمح الصدفة فيها بانبعاث الماضي من إحساس حاضر وتزودنا بشعور استمرارنا المفرح قليلة في الحياة. فكيف نعيد إلى الضياء في كل صفحة من صفحات الكتاب الجمال السجين؟ ههنا يتدخل الأسلوب: «يمكن أن نعمل على أن تتوالى إلى ما لا نهاية في وصف ما الأشياء التي كانت قائمة في المكان الموصوف. لن

تبدأ الحقيقة إلا في اللحظة التي يأخذ فيها الكاتب شيئين مختلفين ويقيم العلاقة بينهما، وهي في دنيا الفن شبيهة بالعلاقة الوحيدة لقانون السببية في دنيا العلم، ويسجنهما ضمن الحلقات الضرورية في أسلوب جميل، أو حينما يقرب، شأن الحياة، صفة مشتركة بين إحساسين فيستخلص جوهرهما إذ يجمع الواحد إلى الآخر، كيما ينجيهما من عوارض الزمان، في وجه شبه، ويقيدهما برباط من تزاوج كلمات يمتنع على الوصف. . . .».

وعلى التشبيه أن يعين المؤلّف والقارئ على استذكار شيء مجهول أو شعور يصعب وصفه وذلك باللجوء إلى تماثلهما وأشياء معروفة. وليس «بروست» بالطبع أول من لجأ إلى الصورة، فهي وسيلة تعبير طبيعية لدى أكثر الناس بدائية. ولكن «بروست» أدرك أفضل من أي من كُتّاب عصره أهمية الصورة الأساسية إلى أبعد حد، وكيف أنها تمنح القارئ لذة إدراك عنيفة حينما يتبيّن بداية قانون في تشابه معيّن، وكيف يجدر بنا كذلك أن نعيد إليها شبابها.

وبما أن غرض التشبيه تفسير المجهول عن طريق المعلوم فلا بدَّ أن يرتبط المشبه الذي نتبيّنه استشفافاً عبر الواقع بأحاسيس مألوفة. لقد كان «هوميروس» على حق حينما أنشد: «مثلما الأسد الثائر. . .» لأنه كان يحدث رجالاً حاربوا أسوداً. لقد أبرز «بروست» أن التشبيه الحديث يجب أن يلقي خلف الأشياء إما إحساسات أولية للذوق والشم واللمس وهي صحيحة على مدى الأيام، وإما صوراً لنباتات وحيوانات، وهي العنصر الأول في كل فن (كاستحالة «شارلوس» دبوراً كبيراً و«جوبيان» زهرة أوركيدا وعائلة «غيرمانت» طيوراً)، أو صوراً من الحياة الحاضرة مستقاة من مواد العصر. ومن هنا جاءت الصور العلمية والفيزيولوجية والسياسية التي ينثرها في نصوصه.

وإليك باقة كاملة من الصور الجديدة نقطفها في بعض صفحات «بروست» ونأخذها كيفما اتفق: فهذه والدة الراوي تقول لِـ«فرانسواز» إن

«السيد «دو نوربوا» اعتبرها «قائداً من الدرجة الأولى»، مثلما ينقل وزير الحربية بعد الاستعراض إلى اللواء تهاني سلطان مرّ من هناك...»، وهذا «مارسيل»، وهو إذ ذاك مغرم بـ«جيلبيرت سوان» ويعتبر أن كل ما يخص عائلة «سوان» مقدس، هذا هو يحمر هولاً حينما يتحدث والده عن شقة عائلة «سوان» وكأنما عن شقة عادية: «أحسست بالغريزة أنه كان على فكري أن يقدم التضحيات اللازمة في سبيل عائلة «سوان» وفي سبيل سعادتي، وعلى الرغم مما سمعته فقد أبعدت عني بقرار داخلي إلى غير رجعة، كما يدفع المتدين عنه «**حياة يسوع**» للكاتب «رونان Renan»، تلك الفكرة الهدّامة بأن شقتهم شقة عادية كان يمكن أن نقطنها...»، وهذه أم الراوي تشبه حملة السيدة «سوان» التي توسع علاقاتها الاجتماعية بحرب استعمارية: «أما وقد تمّ الآن إخضاع عائلة «ترومبير Trombert» فلن تلبث القبائل المجاورة أن تستسلم...»، وحينما كانت تلتقي السيدة «سوان» في الشارع، كانت تقول لنا لدى عودتها: «شاهدت السيدة «سوان» على أهبة الحرب، وربما كانت ذاهبة لتشن هجوماً مثمراً على جماعة الـ«ماسيشوتوس» أو جماعة «سيلان» أو جماعة الـ«ترومبير»... وهذه أخيراً السيدة «سوان» تدعو سيدة مملة ولكنها طيبة وتقوم بالعديد من الزيارات لأنها كانت «على علم بالعدد الهائل من البيوت البورجوازية التي تستطيع هذه العاملة النشيطة أن تزوره في مدى بعد ظهر واحد حينما كانت تتسلح بريش قبعتها وحافظة بطاقاتها...».

وهنالك طريقة أخرى عزيزة على قلب «بروست» قوامها استذكار الواقع بوساطة الأعمال الفنية. فالصحيح أن الفنون الجميلة في زمان «المتاحف الخيالية» هذا تزود المثقفين بمصطلحات مرجعية يذكرها الجميع. ويلجأ «بروست» إلى «بوتيتشللي» للمساعدة على فهم جمال «أوديت»، وإلى «محمد الثاني» للرسام «بلليني» لتصوير غرابة «بلوك». ويشبه حديث «فرانسواز» بمتابعة للموسيقار «باخ»، ونظرات السيد «دو شارلوس» إلى «جوبيان» بجمل «بيتهوفن» الموسيقية المتقطعة. إن كبار

الرسامين والموسيقيين يمكنوننا من الولوج في عالم واقع إلى ما وراء الكلمات ولا يسعنا بدونهم أن نبلغ إليه. إن «بروست» يدخل الميتافيزيقا من باب علم الجمال، وليس الدرب هذا سيّئاً.

وهكذا يشغل المجاز في هذا العمل الفني المكان المخصص للأواني المقدسة في الاحتفالات الدينية. أما الحقائق التي يتعلّق بها «بروست» فروحية كلها، ولكن الإنسان بوصفه نفساً وجسداً في الآن نفسه بحاجة إلى رموز مادية ليقيم رابطة بينه وبين ما يمتنع على التعبير. لقد كان «بروست» من أوائل الذين أدركوا، لا بالغريزة شأن «فيكتور هوغو»، بل بالعقل والطرائقية، أن كل فكرة صحيحة تذهب جذورها في الحياة اليومية وأن دور المجاز أن يعيد للفكر قواه بإرغامه على الاتصال مجدداً بأمه الأرض.

(٥)

لقد أبرز «آلان Alain» أنه يجدر بالرواية في الأساس أن تكون انتقالاً من الشعر إلى النثر ومن الظاهر إلى واقع عملي وكأنما صناعي. إن «بروست» يمثل الروائي الخالص. فما من أحد أعاننا أفضل منه على أن ندرك في ذواتنا هذا الانتقال من الطفولة إلى النضج ثم الشيخوخة، هذا الانتقال الذي هو الحياة. ولذلك أصبح كتابه منذ لحظة ظهوره أحد الكتب المقدسة لدى البشرية. وليس أجمل وأصح من الحماسة الشاملة التي أثارتها هذه القصة البسيطة الخاصة المحلية. ومثلما يلقي الفيلسوف العظيم الفكر كله في فكرة واحدة كذلك يحسن الروائي العظيم بعث جميع الحيوات من حياة واحدة ومن أكثر الأشياء وضاعة.

أندريه موروا André Maurois

من الأكاديمية الفرنسية

* * *

نبذة من تاريخ حياة بروست

١٨٧١ في العاشر من تَمّوز (يوليو) وُلِد «مارسيل بروست» بكر «أدريان بروست Adrien Proust»، وهو أستاذ في كليّة الطب، و«جان فيي Jeanne Weil» التي تَصْغُر زوجها بخمسة عشر عاماً، وذلك في باريس، حيّ أوتوي Auteuil في الرقم ٩٦ من شارع «لافونتين» في منزل جدّه لوالدته «لويس فيي Louis Weil». أمّا والدا بروست فيقطنان في الرقم ٨ من شارع «روا» في باريس.

١٨٧٣ في الرابع والعشرين من أيار (مايو) مولد «روبير بروست Robert Proust» شقيق مارسيل. وفي الأول من آب (أغسطس) يغادر الأستاذ بروست وعائلته شارع «روا» للسكنى في الرقم ٩ من شارع «مالزيرب Malesherbes»، بدءاً من عام ١٨٧٨ يمضي مارسيل عطلة الفصح في كل عام مع أهله في مدينة «إيلييه Illiers» مقاطعة «أور - إيه - لوار»، مسقط رأس والده ويسكن الجميع في بيت السيدة «جول آميو Jules Amiot» شقيقة الأستاذ الكبرى. وفي حوالي عام ١٨٨١ تصيبه نوبة الربو الأولى.

١٨٨٢ في الثاني من تشرين الأول (أكتوبر) يدخل مارسيل في الصف الخامس في تجهيز «فونتان» الذي يستعيد بعد أربعة أشهر اسم «كوندورسيه Lycée Condorcet» وترغمه صحته على الكثير من أيام الغياب. وفي حوالى ١٨٨٧ يلتقي مارسيل مصادفة في

منطقة «الشانزيليزيه Champs - Elysées» بنات «فيلكس فور F. Faure» و«ماري بينارداكي Marie de Bénardaky».

١٨٨٧ نراه تلميذاً لـ«مكسيم غوشيه M. Gaucher» في صف البكالوريا (القسم الأول).

١٨٨٨ يتتلمذ على يد «ألفونس دارلو Alphonse Darlu» في صف الفلسفة (بكالوريا قسم ثانٍ)، ويفوز بالجائزة الأولى في (الإنشاء الفرنسي - المقالة الفلسفية).

١٨٨٩ في حزيران (يونيو) يحمل مارسيل لقب البكالوريا في الآداب. لقد ارتبط في تجهيز كوندورسيه بعلاقة صداقة مع «جاك بيزيه Jacques Bizet» و«روبير دوفلير» و«دانييل هاليفي Daniel Halévy» وأسهم في مجلات مدرسية: «المجلة الخضراء، ومجلة الليلك، Revue Lilas» وبدأ منذ ذاك بالتردد على صالونات «مادلين لومير Madeleine Lemaire» والسيّدة «آرمان دو كايّافيه Mme de Caillavet»، التي قدمته لـ«أناتول فرانس Anatole France» والسيدة «ستراوس Mme Strauss»، وهي من عائلة هاليفي وأرملة «جورج بيزيه» التي يلتقي في منزلها بـ«شارل هاس Charles Hass» الذي يستلهم شخصيته ليبدع منها شارل سوان Charles Swann. في الخامس عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) ينخرط بروست في الكتيبة ٧٦ مشاة في مدينة «أورليان Orléans» بصفة شرطية ويرتبط بعلاقة صداقة مع «روبير دوبيي».

١٨٩٠ في الخامس عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) يسرّح برتبة جندي من الصنف الثاني، ويُسجَّل في كلية الحقوق وفي المعهد الحرّ للعلوم السياسية.

١٨٩١ في أيلول (سبتمبر) يمضي العطلة في مدينة كابور.

١٨٩٢ في آذار (مارس) نشهد مجلة «**المأدبة** *Le banquet*» التي يسهم

فيها بروست، والتي تتوقف عن الصدور في آذار (مارس) ١٨٩٣.

١٨٩٣ يُسهم في تحرير «**المجلة البيضاء** *La revue blanche*»، بداية علاقاته مع «روبير دو مونتسكيو Robert de Montesquiou».

١٨٩٤ يقوم بتحضير الإجازة في الآداب، ثم يقضي عطلة الصيف في «تروفيل».

١٨٩٥ يحوز شهادة الإجازة في الآداب في شهر آذار (مارس)، في حزيران (يونيو) يجتاز بنجاح مسابقة لمنصب ملحق بالمكتبة «المازارينيّة Mazarine». في تموز (يوليو) يفرز إلى وزارة التعليم، وفي كانون الأول (ديسمبر) يطلب وضعه خارج الوظيفة، فلن يكون بروست موظفاً في يوم. في أيلول (سبتمبر) يذهب في رحلة إلى «بريتانيا Bretagne» مع «رينالدو هان Rynaldo Hann» ومن أيلول ١٨٩٥ إلى أوائل ١٩٠٠ يعمل بروست في تحرير روايته الأولى التي لا ينجزها ولا تصدر إلَّا في عام ١٩٥٢ بعنوان «**جان صانتوي** *Jean Senteuil*».

١٨٩٦ صدور أول أعمال بروست عن دار الناشر «كالمان ليفي Calmann-Lévy» بعنوان «**المسرات والأيّام**»، المقدمة بقلم أناتول فرانس، الرسوم المائية بريشة مادلين لومير، التعليقات الموسيقية بقلم رينالدو هان، وكانت مقاطع عدّة من الكتاب قد نشرت في «**المجلة البيضاء**» وفي «**المجلة الأسبوعية** *Le revue hebdomadaire*» وفي مجلة «**الغالي** *Le gaulois*».

١٨٩٧ مبارزة مع «جان لوران».

١٨٩٨ يتخذ بروست بحماسة جانب إعادة النظر في دعوى «دريفوس Dreyfus».

١٩٠٠ في العشرين من كانون الثاني (يناير) توافي المنيّة «جون راسكين

John Ruskin» ويحيي بروست ذكراه في مجلة «**أنباء الفنون والطرافة**»، ٢٧ كانون الثاني (يناير). وينشر بعد ذلك بقليل في صحيفة «**لوفيغارو** *Le Figaro*» مقالاً بعنوان «حجّات راسكينية إلى فرنسا». في ١٢ شباط (فبراير) وفي نيسان (أبريل) ينشر في مجلة «**ميركور**» دراسة عنوانها «راسكين في كنيسة سيّدة آميان» وسوف تعاد هذه الدراسة مرة أخرى في مقدمة «**الكتاب المقدس - نسخة آميان** *La Bible d'Amiens*» ثم يباشر ترجمة مؤلفات راسكين، تساعده في ذلك والدته و«ماري نوردلينغر Marie Nordlinger» وهي ابنة عم إنجليزية لـ«رينالدو». في أيار (مايو) يسافر إلى إيطاليا بصحبة والدته، وفي البندقية يلتقيان بماري نوردلينغر. في تشرين الأول (أكتوبر) تنتقل عائلة بروست للسكنى في الرقم ٤٥ في شارع «دو كورسيل Courcelles».

١٩٠٣ في السادس والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) يصاب بوالده.

١٩٠٤ صدور ترجمة «**الكتاب المقدس**» - **نسخة** «**آميان**» في مجلة «ميركير *Mercure de France*».

١٩٠٥ في السادس والعشرين من أيلول (سبتمبر) يفجع بوالدته. في كانون الأول (ديسمبر) يبلغ الاضطراب العصبي لدى بروست حداً يقتضي دخوله مستشفى في مدينة «بولونيي سور سين» حيث يمكث فيه ستة أسابيع.

١٩٠٦ بعد إقامة في «فيرساي» فندق الخزّانات، يستقر بروست في شارع «هوسمان» رقم ١٠٢. يشتد عليه الأرق فيفرش جدران غرفته في عام ١٩١٠ بالفلّين ليكون في معزل عن أية ضجة. صدور ترجمة مؤلف آخر لـ«راسكين» في مجلة ميركير بعنوان «**سمسم والزنابق** *Sésame et les lys*» تسبقها مقدمة طويلة كانت صدرت في ١٥ حزيران (يونيو) ١٩٠٥ في مجلة «**البعث اللاتيني** *La Renaissance Latine*» وسوف نعود فنلقاها في كتاب

«**معارضات وأخلاط**» بعنوان «أيام قرائية» بعدما عدّل فيها تعديلاً طفيفاً.

١٩٠٧ يقضي بروست العطلة الصيفية في كابور وسوف يعود في كل عام إلى ربوعها حتى ١٩١٤ ليقوم بنزهات في السيارة التي يقودها «أغوستينللي» وبزيارات لكنائس نورماندية.

١٩٠٨ صدور معارضات في صحيفة «**لو فيغارو**» يوحي بموضوعها إلى بروست علميات نصب قام بها المغامر «لوموان» واكتشفت منذ فترة غير بعيدة.

١٩٠٩ يباشر بروست دراسة موجهة ضد طريقة «سانت بوف Saunte - Beuve» في النقد. وكان يفكر منذ زمن طويل عرض مبادئ جماليته الشخصية عن هذه الطريقة. وتظل هذه الدراسة غير متكملة إذ تلاحقه منذ عدة سنوات فكرة العودة إلى الرواية وكتابة العمل الكبير الذي لم يكن «**جان صانتوي**» سوى ترسيمة له تلاحقه منذ سنوات عديدة.

١٩١٢ يصبح «آغ ستينللي» أمين سرّه.

١٩١٣ إنجاز «**بحثاً عن الزمن المفقود** *A la recherche du temps perdu*» في ثلاثة أجزاء: «**جانب منازل سوان** *Du côté de chez Swann*» و«جانب **منازل غيرمانت** *Le Côté de Guermante*» و«**الزمن المستعاد** *Le temps retrouvé*» وعبثاً يسعى للعثور على ناشر. وأخيراً يوافق «بيرنار غراسيه Bernard Grasset» على نشر «**البحث...**»... «ولكن لحساب المؤلف، ولن يصدر منه، على الرغم مما يرغب فيه بروست، سوى القسم الأول، ويرى أن ينشر «**غيرمانت**» عام ١٩١٤ و«**الزمن المستعاد**» عام ١٩١٥. وفي تشرين الثاني (نوفمبر)، وهو تاريخ الطباعة، يصدر كتاب «**جانب منازل سوان**».

١٩١٤ مصرع «آغوستينللي» الذي كان قد انفصل عن بروست وأصبح

تلميذاً طياراً في طائرة ذات محرك واحد تجاه شاطئ «آنتيب». في الأول من حزيران تنشر «**المجلة الفرنسية الجديدة**» مقتطفات من الجزء الثاني من كتاب «**بحثاً عن...**» الذي سيصدر عما قريب عن دار الناشر «بيرنار غراسيه Bernard Grasset» وسوف تحل هذه المقتطفات في القسم الذي عنوانه «**في ظلال ربيع الفتيات** *A l'ombre des jeunes filles en fleurs*» وفي الأول من تموز (يوليو) تنشر «**المجلة الفرنسية الجديدة** *La Nouvelle Revue Fransaise*» مقتطفات جديدة من كتاب «**بحثاً عن...**» تؤلف خطوطاً أولية لمطولات ستظهر في القسم الذي عنوانه «**جانب غيرمانت ١**». وفي آب (أغسطس) يوقف بيرنار غراسيه نشر «**بحثاً عن...**» بعد سوقه إلى الخدمة ويباشر بروست منذ ١٩١٥ تعديل الجزء الثاني والثالث من روايته ويغنيها بإضافات كبيرة. وفي سنة ١٩١٦ يقطع علاقته بـ«غراسيه» وتصدر أعماله بعد الآن في منشورات «**المجلة الفرنسية الجديدة**».

١٩١٨ في ٣٠ تشرين الثاني (نوفمبر)، وهو تاريخ إنجاز الطباعة، يصدر «**في ظلال ربيع الفتيات**» في منشورات «**المجلة الفرنسية الجديدة**».

١٩١٩ في ٢٥ آذار (مارس)، وهو تاريخ إنجاز الطباعة، يصدر كتاب «**معارضات وأخلاط** *Pastiches et mélanges*» منشورات **المجلة الفرنسية الجديدة**. في حزيران (يونيو) يضطر بروست إلى إخلاء شقته في شارع هوسمان (بعد أن بيعَتْ البناية لصالح أحد البنوك) فيعثر على مأوى مؤقت في شارع «لوران - بيشا» رقم ٨ في منزل يملكه «ريجان». وفي تشرين أول (أكتوبر) يقيم في شارع «هاملان» رقم ٤٤ حيث يمكث حتى وفاته. في ١٠ كانون الأول (ديسمبر) ينال كتابه «**في ظلال...**» جائزة «غونكور» بستة أصوات مقابل أربعة إلى جانب «**الصلبان**

الخشبية» للكاتب «رولان دورجليس Roland Dorgelès» وقد كان «ليون دوديه» الصانع الرئيسي لهذا الانتخاب.

١٩٢٠ في ٧ آب، وهو تاريخ إنجاز الطباعة، يصدر «**جانب غيرمانت ١**» منشورات **المجلة الفرنسية الجديدة**. في تشرين الثاني «**مجلة باريس** *La revue de Paris*» مقالة «إلى صديق - ملاحظات حول الأسلوب» وهي المقدمة التي كتبها بروست لمجموعة «بول موران» التي عنوانها «مخزونات رقيقة».

١٩٢١ في كانون الثاني (يناير) مقالة في «**المجلة الفرنسية الجديدة**» بعنوان «حول أسلوب فلوبير»، وفي ٣٠ نيسان (أبريل)، وهو تاريخ إنجاز الطباعة، يصدر «**جانب غيرمانت ٢**» و«**سادوم وعامورة** *Sodome et Gomorrhe*» منشورات **المجلة الفرنسية الجديدة**. في أيار يصاب بروست بوعكة خطيرة أثناء زيارة معرض للرسامين الهولنديين في متحف «Jeu de Paume»، وفي حزيران مقالة في «**المجلة الفرنسية الجديدة**» بعنوان «حول بودلير».

١٩٢٢ في ٣ نيسان (أبريل)، وهو تاريخ إنجاز الطباعة، يصدر «**سادوم وعامورة ٢**» منشورات المجلة الفرنسية الجديدة. في ١٨ تشرين الثاني (نوفمبر) وفاة مارسيل بروست.

١٩٢٣ صدور كتاب «**السجينة** *La prisonnière*» منشورات **المجلة الفرنسية الجديدة**.

١٩٢٥ صدور كتاب «**الهاربة**» بعنوان « **أليبرتين المختفية** *Albertine disparue*» في منشورات المجلة الفرنسية الجديدة.

١٩٢٧ صدور كتاب «**الزمن المستعاد**»، منشورات **المجلة الفرنسية الجديدة**.

١٩٥٠ ابتداءً من ١٩٥٠ صدور نشرة «**جمعية أصدقاء بروست وكومبريه**».

١٩٥٢ صدور كتاب «**جان صانتوي**» منشورات **المجلة الفرنسية الجديدة**.

١٩٥٤ صدور كتاب «**ضدّ سانت - بوف** *Contre Sainte - Beuve*» فكتاب «**أخلاط جديدة**»، منشورات **المجلة الفرنسية الجديدة**.
صدور الطبعة المحققة للكتاب «**بحثاً عن الزمن المفقود**» ثلاثة مجلدات، مكتبة «البلياد».

١٩٧٠ المجلد الأول لطبعة مذيّلة بحواشٍ لمجمل «**مراسلات**» بروست، قدم لها «فيليب كولب Philippe Kolb»، منشوارت «بلون».

١٩٧١ طبعة محققة لأعمال بروست المختلفة في مكتبة «البلياد»: «**جان صانتوي**» مسبوق بـ«**المسرات والأيّام** *Les plaisirs et les jours*» (في مجلد) و«**ضد سانت - بوف**» مسبوق بـ«**معارضات وأخلاط**» ومن بعده «**محاولات ومقالات**» (في مجلد واحد).

القِسم الأوّل

كومبريه

COMBRAY

(١)

كثيراً ما أويت إلى سريري في ساعة مبكرة وكانت عيناي أحياناً، حالما أطفئ شمعتي، تغتمضان بسرعة لا تدع لي متّسعاً من الوقت أقول فيه: «إنّني أنام». وبعد نصف ساعة توقظني فكرة أن الوقت حان للبحث عن النوم، فأبتغي وضع المجلّد الذي أظنّ أنّه لا يزال بين يديّ وإطفاء شمعتي، إذ إنّي ما كففت في نومي عن التفكير في ما قرأت منذ قليل، ولكن هذه الأفكار أخذت مجرى خاصّاً بعض الشيء فبدا لي أنني بنفسي ما يتحدث عنه الكتاب: فكنيسة ورباعيّ والتنافس بين «فرانسوا الأول» وشارل الخامس. ويظلّ هذا الاعتقاد لبضع ثوانٍ بعد استيقاظي ولا يصدم عقلي ولكنّه يثقل عيني وكأنه قشور عليهما فيحول دون أن ينتبها إلى أن الشمعدان لم يعد مضاءً. ثم يصبح مستحيل الإدراك شيئاً فشيئاً مثله مثل أفكار حياة سابقة بعد التقمّص، فينفصل عني موضوع الكتاب وأصبح حرّاً في أن ألتصق أو لا ألتصق به، وكنت أستعيد الرؤية في الحال وأعجب كثيراً أن ألاقي من حولي ظلاماً رفيقاً ومريحاً لناظريّ، وربّما كان لفكري أكثر من ذلك، إذ يبدو له بمثابة أمر لا سبب له يمتنع على الإدراك، بمثابة أمر غامض بالحقيقة. وأسأل نفسي عن الساعة وأيّة يمكن أن تكون، وأسمع صفير القطارات وهو بعيد إلى حدّ ما يشير إلى المسافات كمثل

غناء عصفور في غابة فيصف لي اتساع الحقول المقفرة التي يسرع فيها المسافر إلى المحطّة القادمة. وسينحفر الدرب الصغير الذي يسلكه في ذاكرته من جرّاء الاضطراب الذي تستجرّه أماكن جديدة وأفعال غير مألوفة، والحديث القريب فالوداع تحت المصباح الغريب، وهما يتأثران خطاه في سكون الليل، وحلاوة العودة القريبة.

وكنت أضغط وجنتيَّ برفق على وجنتي الوسادة الجميلتين وكأنّهما بامتلائهما وطراوتهما وَجْنتا طفولتنا. وأشعل عود ثقاب لأنظر إلى ساعتي. عمّا قليل ينتصف الليل. إنّها اللحظة التي يبتهج فيها المريض الذي اضطرّ أن يذهب في سفر وانبغى له أن ينام في فندق مجهول، بعدما توقظه نوبة، وهو يبصر تحت الباب خيطاً من النور. إنّه الصباح، يا للسعادة! لحظات ويستيقظ الخدم فيستطيع دق الجرس ويأتي من يأتي يمدّ له يد العون. ويزوّده أمله فيمن يخفّف ألمه بالشجاعة على الاحتمال. لقد ظنّ بحقّ أنّه يسمع وقع خطى؛ وتقترب الخطى ثم تبتعد. ويختفي خيط النور الذي كان تحت بابه. لقد انتصف الليل وتمّ إطفاء الغاز. إن الخادم الأخير ارتحل ولا بدّ من المكوث طوال الليل في احتمال الألم دونما دواء.

وأعود إلى النوم ولا يتفق لي بعد ذلك أحياناً سوى إفاقات قصيرة تمتدّ لحظة، أي الزمن اللازم لسماع فرقعة الخشب، ولأفتح عيني وأنظر في أشكال الظلام المختلفة ولأتذوّق بفضل إشراقة وعي مؤقتة السبات الذي يغرق فيه الأثاث والغرفة والكل الذي أنا جزء صغير منه والذي كنت أعود بسرعة لأتّحد بلاإحساسه. أو كنت ألتقي في نومي دونما جهد حقبة من حياتي الأولية انقضت إلى غير رجعة وأعود فألقى بعضاً من مخاوفي الطفولية كمخافتي أن يشدّني جدّي لأمي من شعري الأجعد والتي زالت يوم أعملوا فيه المقصّ - وكان ذلك بالنسبة إليّ إيذاناً بعصر جديد. وكنت قد نسيت هذا الحدث أثناء نومي وأعود لألقى ذكراه حالما أفلح في الاستيقاظ لأفلت من يدي جدّي لأميّ ولكني كنت أحكم لفّ رأسي بداعي الحيطة بوسادتي قبل العودة ثانية إلى دنيا الأحلام.

ومثلما وُلِدت حوّاء من أحد أضلاع آدم، كانت تولد امرأة أحياناً في أثناء نومي من وضع لفخذي غير صحيح. وكنت أتخيّل، وقد تَشَكّلتْ من اللذة التي كنت على وشك أن أتذوّقها، أنها هي التي تقدّمها إليّ. أما جسمي الذي كان يحسّ في جسمها حرارتي أنا فكان يبغي الانضمام إليه فأستفيق. ويبدو لي باقي البشر بعيدين جدّاً بالنسبة إلى هذه المرأة التي غادرتها منذ بضع لحظات، وخدّي لا يزال تلهبه قبلتها وجسمي يهدّه ثقل قامتها. فإن تمّت لها ملامح امرأة عرفتها في الحياة، كما يتّفق الأمر أحياناً، كنت أصرف نفسي تماماً لهذا الهدف: أن أعثر عليها، شأني شأن الذين يسافرون ليبصروا بأمّ عينهم مدينة مشتهاة ويتخيلون أنّهم يستطيعون تذوّق سحر الحلم في الواقع. ثم تتلاشى ذكراها شيئاً فشيئاً وأنسى ابنة أحلامي.

إن أمرأً ينام يمسك في دائرةٍ من حوله بتسلسل الساعات وتراتب السنين والعوالم. وهو يسترشدها بالغريزة، إذ يستيقظ فيقرأ فيها في مدى ثانية واحدة النقطة التي يشغلها على الأرض والوقت الذي انقضى حتى استيقاظه. ولكنّما يمكن أن تختلط صفوفها وتنفرط. فإن تملّكه النوم وهو يقرأ، بعد أرق، في أوّل الصباح، وفي وضع يغاير كثيراً الوضع الذي يتخذه عادة في نومه فإن ذراعه المرفوعة تكفي لإيقاف الشمس وحملها على التراجع، ولن يعرف الساعة في أول دقيقة من استيقاظه وسوف يحكم أنّه نام منذ قليل. فأمّا إذا أغفى في وضع أكثر بعداً واختلافاً، كأن يفعل مثلاً وهو يجلس على مقعد بعد العشاء فإن الانقلاب تام في العوالم التي فقدت مسارها وسوف يحمله المقعد المسحور في سفر بالغ السرعة عبر الزمان والمكان ويظنّ لحظة يفتح جفنيه أنّه نام قبل بضعة شهور في منطقة أخرى. على أنّه كان يكفي أن يجيء نومي في سريري عينه عميقاً وأن يريح فكري تماماً، حينئذ كان هذا الأخير يتخلّى عن مخطّط المكان الذي نمتُ فيه. وحينما أستيقظ في منتصف الليل لا أعرف في اللحظة الأولى من أنا لأنّني أجهل المكان الذي أنا فيه. وما كنت أملك سوى الإحساس

بالوجود في بساطته الأولى وكما يمكن أن يهتزّ في أعماق الحيوان. وكنت أكثر عوزاً من ساكني الكهوف ولكن الذكرى إذ ذاك - لا تذكّر المكان الذي كنت فيه بل تذكر بعض الأماكن التي سكنتها والتي كان يمكن لي أن أكون فيها - كانت تأتي إليّ بمثابة عون من فوق كي تنقذني من العدم الذي لا طاقة لي على الخروج منه بمفردي. وكنتُ أنتقل في مدى ثانية من فوق قرون من الحضارة وتعود الصورة المُسْتَشَفّة على نحو مبهم لمصابيح من البترول ثم لقمصان مرفوعة الياقة، تعود لتشكّل شيئاً فشيئاً ملامح أناي الأصيلة.

وربّما كان جمود الأشياء من حولنا مفروضاً عليها من جرّاء يقيننا بأنها هي نفسها ولا شيء سواها، ومن جراء جمود فكرنا في مقابلها. ومهما يكن من أمر، فحينما كنت أستفيق ويضطرب فكري ليحاول معرفة المكان الذي كنت فيه فلا يفلح، فإن كل شيء كان يدور من حولي في الظلام: الأشياء والبلدان والسنون. ويحاول جسمي، وقد تخدّر حتى لا يستطيع حراكاً، من خلال شكل التعب الذي أصابه، أن يحدّد وضع أعضائه فيستخلص من ذلك اتّجاه الحائط وموضع الأثاث ويعود فيبني المنزل الذي يقيم فيه ويسمّيه. وتأتيه ذاكرته، ذاكرة ضلوعه وركبتيه ومنكبيه على التوالي بالعديد من الغرف التي نام فيها، فيما «تزوبع» في الظلمة من حوله الجدران اللامرئيّة فتبدّل مكانها وفقاً لشكل الغرفة المتخيّلة. وقبل أن يتعرّف فكري المتردّد على عتبة الأزمنة والأشكال المسكن بالمقاربة بين ظروف الذكرى، كان جسمي يتذكّر، في ما يخصّه، نوع السرير وموقع الأبواب ومأخذ النور من النوافذ ووجود ممر بالنسبة إلى كل منها ويتذكر معها التفكير الذي ينتابني حينما أنام فيها وأعود فألقاه لدى استيقاظي. كان جنبي المشلول يحاول تخمين اتجاهه فيتخيل مثلاً أنّه ممدّد قبالة الجدار في سرير كبير بستائر وكنت في الحال أخاطب نفسي قائلاً: «عجباً، أنام مع أن أمّي لم تجئ لتتمنّى لي ليلة سعيدة» فقد كنت في الريف في منزل جدّي الذي توفيّ منذ سنوات عديدة. وكان جسمي والجنب الذي

أنام عليه، وهما الحارسان الأمينان على ماضٍ ما كان لفكري أن ينساه في يوم، يعيدان إلى ذهني لهب «النواصة» المصنوعة من زجاج بوهيميا على شكل جرّة تتدلّى من السقف بسلاسل صغيرة، والموقد المغطّى برخام «سيينّا»، وذلك في غرفة نومي في «كومبريه» في منزل جدّي ولأيام بعيدة الآن أتخيّلها في هذه اللحظة حاضرة دون أن أتصوّرها بالضبط وسوف أعود فأراها عما قليل على نحو أفضل حينما أستفيق تماماً.

ثم تنبعث ذكرى وضع جديد فيهرب الجدار باتّجاه آخر: إنني في غرفتي في منزل السيّدة «دو سان لو» بالريف. يا إلهي! إنها الساعة العاشرة وتزيد، ولا بدّ أن العشاء قد انتهى! ربّما أطلتُ في القيلولة التي أسمح بها لنفسي في العشيّات التي أعود فيها من نزهتي مع السيّدة «دو سان لو» قبل أن أرتدي ثوبي الرسميّ. فقد انقضت سنوات كثيرة منذ إقامتي في «كوميريه» حيث كنت أبصر انعكاس حمرة الأضواء الغاربة على زجاج نافذتي مهما تأخّرت بنا أوقات العودة. أمّا في «تانسونفيل» فنعيش نمطاً آخر من الحياة في بيت السيّدة «دو سان لو» وأجد نمطاً آخر من الغبطة في أنّي لا أخرج إلا لدى حلول الليل وفي السير في ضوء القمر على هذه الدروب التي كنت ألعب فيها بالأمس تحت ضياء الشمس؛ والغرفة التي ربما أغفيت فيها عوضاً عن أن أرتدي ثيابي للعشاء أبصرها من البعيد، حينما نعود، تخترقها أضواء المصباح منارةً وحيدة في العتمة.

كانت هذه الاستذكارات المحوّمة الغامضة تدوم بضع ثوانٍ فحسب. وغالباً ما لا يميّز ارتيابي في المكان الذي أنا فيه بين مختلف الفرضيّات التي تؤلّفه أكثر ممّا نفرّق، إذ نرى حصاناً يجري، بين الأوضاع المتتالية التي يوضحها لنا «الكينو توسكوب» إلا أنّه تسنّى لي أن أرى مجدّداً الغرف التي شغلتها في حياتي، فهذه تارة وتلك أخرى، ثم يبلغ بي الأمر أن أتذكّرها جميعها في تأملاتي الطويلة التي تلي استيقاظي: فغرف الشتاء التي يخبّئ فيها المرء رأسه، حينما ينام، في عش يجدله من أكثر الأشياء تبايناً، كزاوية الوسادة والطرف العلوي للأغطية وقطعة من شال وحافّة

السرير وعدد من مجلّة «**النقاشات الورديّة**»، يجمعها في النهاية بإحكام على طريقة الطيور وذلك بالضغط عليها إلى ما لا نهاية، وحيث قوام اللذة في طقس شديد البرودة أن نحسّ أننا معزولون عن الخارج (كسنونوة البحر التي اتخذت عشها في أعماق نفق تحت الأرض ضمن حرارة الأرض)، وحيث توقد النار طوال الليل في الموقد فننام داخل عباءة كبيرة من الهواء الساخن الداخن الذي تخترقه ومضات الجمرات المشعَّلة، عباءة أقرب أن تكون كهفاً غير محسوس ومغارة دافئة محفورة في قلب الغرفة نفسها، وهي منطقة مشتعلة ومتحركة على أطرافها الحرارية، تتخلّلها نفحات تنعش وجهنا وتأتي من الزوايا، من أجزاء قريبة من النافذة أو بعيدة عن الموقد وأصبحت باردة؛ وغرف الصيف التي نحب أن نتّحد فيها بالليل الدافئ والتي يلقي فيها ضياء القمر المتكئ على مصراعي النافذة المفتوحين سلّمه المسحور حتى قاعدة السرير، حيث ننام في ما يقارب الهواء الطلق كمثل عصفورة يؤرجحها النسيم على خيط نور؛ - فأحياناً الغرفة التي من طراز لويس السادس عشر، وهي بهيجة حتى إني ما كنت كثير التعاسة فيها حتى في أول مساء، حيث الأعمدة الصغيرة التي يرتكز عليها السقف بعض الشيء تتباعد بكثير من الخفّة لتكشف عن موقع السرير وتحتفظ له به؛ - وأحياناً على العكس الغرفة الصغيرة التي يرتفع سقفها ارتفاعاً كبيراً وتنفتح على شكل هرم في ارتفاع طابقين ويكسوها الأكاجو جزئياً، حيث اختنقت أدبيّاً منذ الثانية الأولى من جراء رائحة نجيل الهند المجهولة وقد أيقنت بعداء الستائر البنفسجيّة ولا مبالاة ساعة الحائط الوقحة التي كانت تثرثر بصوت عالٍ كما لو لم أكن هناك؛ وحيث تسدّ مرآة غريبة قاسية لا ترحم رباعية الزوايا إحدى زوايا الغرفة بخطّ مائل وتتخذ لنفسها في تمام مجالي البصري المعتاد مكاناً غير متوقّع، وحيث يجهد تفكيري ساعات في التفكّك والتطاول كيما يطابق شكل الغرفة ويفلح في ملء حفرتها الهائلة حتى أعلاها فيتحمّل الكثير من الليالي القاسية، فيما كنت ممدّداً في سريري وعيناي تنظران إلى فوق والأذن قلقة والأنف ثائر والقلب خافق

إلى أن غيّرت العادة لون الستائر وأسكتت الساعة وعلّمت المرآة المائلة القاسية الشفقة وأخفت رائحة نجيل الهند إن لم تكن طردتها وخفّضت إلى حدّ بعيد ارتفاع السقف الظاهر. العادة! إنها مدبّر ماهر ولكنّه بطيء جداً يبدأ بتسليم عقلنا للألم على مدى أسابيع في دار سكن مؤقّتة، ولكن فكرنا سعيد على الرغم من ذلك في العثور عليها لأنه بدون العادة، وإن اقتصر على وسائله الخاصّة، فسيعجز عن جعل أي منزل قابل للسكن.

لقد استيقظت الآن بالتأكيد وتحوّل جسمي للمرّة الأخيرة وأوقف ملاك اليقين كلّ شيء من حولي وجعلني أنام تحت أغطيتي وفي غرفتي، وأعاد في الظلام خزانتي ومكتبي وموقدي والنافذة المطلّة على الشارع والبابين إلى أماكنها على التقريب. ولكنّي عبثاً كنت أعلم أنني لست في المنازل التي وافاني جهل الاستفاقة في لحظة بصورتها الواضحة أو حملني على الأقلّ على الاعتقاد بإمكانية حضورها، فقد تحركت ذاكرتي. وكنت لا أحاول في الغالب أن أعود إلى النوم في الحال، فأمضي القسم الأكبر من الليل في استذكار حياتنا السالفة في «كومبريه» لدى شقيقة جدّي، وفي «بالبيك» وباريس و«دونسيير» والبندقية وفي أمكنة أخرى، وفي تذكّر الأمكنة والأشخاص الذين عرفتهم فيها وما رأيته منهم وما روي لي عنهم.

وفي «كومبريه» كانت غرفة نومي تعود لتؤلّف النقطة الثابتة والمؤلمة من مشاغلي في كلّ يوم منذ أواخر بعد الظهر وقبل اللحظة التي ينبغي لي فيها الذهاب إلى سريري بفترة طويلة والبقاء بعيداً عن أمي وشقيقة جدّي دون أن أنام. صحيح أنّهم استنبطوا من أجل الترويح عنّي في الأمسيات التي أبدو فيها تعيساً جداً أن يزوّدوني بفانوس سحري كان يوضع فوق مصباحي بانتظار ساعة العشاء، فكان يُحلّ محلّ كثافة الجدران، شأن المهندسين وأرباب صناعة الزجاج الأوائل في العصر «القوطيّ»، تموّجاتٍ في الألوان لا تحصرها الحواس وأشكالاً خارقة متعدّدة الألوان تروي عن أساطير وكأنّما على زجاج ملّون رجراج مؤقّت. على أن حزني كان يزداد بذلك لأن تبدّل الإنارة وحده كان يقضي على تعوّدي على غرفتي وكانت

بفضله قد أصبحت فيما عدا عذاب النوم محتملة. أما الآن فما عدت أعرفها وأصبحت قلقاً فيها وكأنما في غرفة فندق أو دارة جبليّة وصلت للمرّة الأولى إليها قادماً بالسكّة الحديديّة.

كان «غولو» يخرج من الغابة الصغيرة المثلّثة التي تغطّي بمخملها الأخضر القاتم سفح الهضبة، على وقع خطى حصانه المنقطّعة، وقد غمرت صدره خطّة فظيعة وهو يتقدّم قفزاً باتجاه قصر المسكينة «جنفييف دو برابان». كان هذا القصر مقصوصاً وفق خطّ منحنٍ إنْ هو إلّا أحد الأشكال البيضوية الزجاجية المهيّأة في القاعدة والذي كان يوضع بين مزالق الفانوس. لقد كان جانباً من القصر فحسب وأمامه أرض بور تحلم فيها «جنفييف» التي كانت تتمنطق بزنّار أزرق. أمّا القصر والأرض فبلون أصفر؛ غير أني لم أنتظر رؤيتها حتى أعرف لونها، ذلك أن اسم «دو برابان» المُذهب الرنّان أبرزه لي بوضوح قبل زجاج القاعدة، وكان «غولو» يتوقّف لحظة ليصغي حزيناً إلى الكلام المعسول الذي تقرأه شقيقة جدّي بصوت عالٍ فيبدو أنّه يدركه تمام الإدراك ويوائم بإذعان لا يخلو من بعض المهابة بين وقفته والتعليمات الواردة في النصّ، ثم يبتعد بالخطو المتقطّع نفسه، ولا يستطيع شيء إيقاف عدوه البطيء. فإن تمّ تحريك الفانوس كنت أميّز حصان «غولو» يوالي تقدّمه على ستائر النافذة ليتقوّس من جرّاء ثنياتها وينحدر في شقوقها. حتى جسم «غولو» نفسه، وهو من ماهية خارقة شأنه شأن مطيته، كان يتدبّر أمره إزاء كلّ عقبة ماديّة وكلّ غرض مزعج يصادفه فيتخذ منه هيكلاً يستبطنه، وإن كان ذلك قبضة الباب التي يلتصق بها في الحال ويطفو عليها على نحو لا يقاوم ثوبه الأحمر أو وجهه الشاحب، وهو دوماً على قدر لا يتبدل من النبل والسوداويّة ولكنّه لا يبدي أي اضطراب من جرّاء هذا التبدّل في عموده الفقريّ.

صحيح أني كنت أجد متعة في هذه العروض الباهرة التي تبدو وكأنّها تصدر عن ماضي «الميروفنجيين» وتنقّل من حولي انعكاسات قديمة من التاريخ. ولكنّي لا أستطيع أن أروي عن الضيق الذي كان يسبّبه لي تدخّل

الأسرار والجمال في غرفة ملأتها بأناي إلى حدّ لم أعد معه أعير هذه الغرفة أو أناي اهتمامي. فلما بطل أثر العادة المخدّر أخذت في التفكير والإحساس، وهما أمران مؤسفان إلى حدّ بعيد. فقبضة باب غرفتي هذه التي كانت تغاير في نظري جميع قبضات الأبواب الأخرى في العالم بأنّها تبدو وكأنها تفتح من تلقاء ذاتها ودونما حاجة بي إلى تدويرها لشدة ما أضحى استعمالها لا واعياً بالنسبة إليّ، أصبحت تفيد الآن في توفير جسم سديميّ لـ«غولو»، وما إن يقرع جرس العشاء حتى أراني أسارع في الجري إلى صالة الطعام حيث المصباح الضخم المدلّى الذي كان جاهلاً بـ«غولو» و«اللحية الزرقاء» وعالماً بوالديّ وبلحم العجل بالقدر يرسل نور أمسياته المعتاد، كما أسارع إلى الارتماء بين ذراعي أمي التي تزيد من غلاتها عندي مصائب «جنفييف دو برابان» فيما تحملني جرائم «غولو» إلى فحص ضميري بدقة متزايدة. وكنت أضطرّ للأسف بعد العشاء إلى فراق أُمّي التي تظل في حديث مع الآخرين في الحديقة إن كان الطقس جميلاً، وفي الصالة الصغيرة إلى حيث يمضي الجميع إن كان الطقس رديئاً. الجميع فيما عدا جدتي التي ترى أنه «لمما يرثى له أن يظلّ المرء سجيناً في الريف» والتي كانت لا تنفكّ تناقش والدي في أيام المطر الشديد لأنه يبعث بي أقرأ في غرفتي عوضاً عن أن أظلّ خارجاً، وكانت تقول بصوت حزين: «ما هكذا تجعله قوي البنية والشكيمة، وبخاصة هذا الصغير الذي هو في أعظم الحاجة إلى اكتساب القوّة والإرادة». وكان والدي يرتفع بمنكبيه ويدقّق في مقياس الضغط الجوي، إذ كان يحب علم الأرصاد، فيما تنظر إليه والدتي، وتتجنب الضجة لئلّا تزعجه، باحترام وحنان. إلا أنها لا تبالغ في التحديق كي لا تحاول النفاذ إلى أسرار مواطن التفوّق لديه. أمّا جدّتي فكنت تراها في جميع الأحوال، حتى حينما يشتدّ المطر وبعدها تعيد «فرانسواز» على عجل مقاعد الخيزران الثّمينة مخافة أن تبتلّ، في الحديقة المقفرة التي يجلدها وابل المطر، ترفع خصل شعرها الأشعث الأشيب كيما يتشّرب جبينها المزايا الصحية الكامنة في الريح والمطر.

حتى كانت تقول: «وأخيراً نستنشق الهواء!» وتطوف في الممرات المبلّلة - وقد خططتْ فكان غلوّ في تناظرها، حسبما ترى، على يد البستاني الجديد الذي يفتقر إلى حسّ الطبيعة والذي سأله والدي منذ الصباح إن كان الطقس سيصطلح - تطوف بخطواتها القصيرة المتحمّسة المتقطّعة التي تضبطها على الحركات المختلفة التي تبعثها في نفسها نشوة العاصفة واقتدار أُمور الصحّة والغباء في تربيتي والتناظر في الحدائق أكثر ممّا تضبطها على الرغبة - المجهولة لديها - في تجنيب تنّورتها البنيّة بقع الوحل التي تغمرها إلى ارتفاع يشكّل دوماً بالنسبة إلى خادمتها مصدر يأس ومشاكل.

وحينما كان هذا الطواف في الحديقة يتمّ بعد العشاء كان هنالك أمر قادر على إرجاعها: كان ذلك - في إحدى اللحظات التي تردّها فيها دورتها بانتظام، كمثل بعض الحشرات، قبالة أنوار الصالة الصغيرة حيث كانت المشروبات تقدّم على طاولة اللعب - إن صاحت بها شقيقة جدّتي: «باتيلد! تعالي وامنعي زوجك أن يشرب الكونياك!» وذلك لتمازحها، (فقد جاءت أُسرةَ والدي بروح مختلفة إلى حدّ أنّ الجميع كانوا يمازحونها ويضايقونها) ولمّا كانت المشروبات محرمة على جدّي فإن شقيقة جدّي كانت تسقيه بضع قطرات منها. وتدخل جدتي وترجو زوجها بحرارة أن لا يذوق الكونياك فيغضب ويشرب مع ذلك جرعته وتعود جدّتي أدراجها حزينة يائسة ولكنها تبتسم مع ذلك فقد كانت متواضعة الفؤاد وطيّبة إلى حدّ يتجمع معه حنوّها على الآخرين والاهتمام القليل الذي تعيره لشخصها وعذابها ابتسامةً في نظرتها، ابتسامة ليس فيها، على عكس ما يشاهد في وجوه الكثير من الناس، ليس فيها من السخرية إلّا ما ينصبّ على ذاتها، وبالنسبة إلينا كأنّما قبلة من عينيها اللتين لا تقويان على رؤية من تحبّهم إلا وتداعبانهم بنظرة مستهامة. وكان هذا العذاب الذي تنزله بها شقيقة جدّي ومشهد توسلات جدتي اللامجدية وضعفها، وقد قُهِرت سلفاً وعبثاً حاولت انتزاع قدح الشراب من جدّي، كان كل ذلك من الأمور التي نتعوّد رؤيتها فيما بعد حتى إنّنا ننظر إليها بهزء وننحاز إلى جانب المضطهِد بحزم

وغبطة كيما نقنع ذواتنا بأن الأمر ليس من الاضطهاد في شيء، فكانت تسبّب لي إذا ذاك من الاشمئزاز حتى لتوافيني الرغبة في ضرب شقيقة جدّي. ولكن حالما أسمع: «باتيلد»، هيّا امنعي زوجك أن يشرب الكونياك!» كنت أفعل، وقد وضعني التخاذل في مصاف الرجال مذذاك، ما نفعله جميعاً بعدما نصبح كباراً إزاء العذاب والظلم: أن أتحاشى رؤيتها، فأصعد لأبكي في أعلى البيت إلى جانب قاعة الدرس تحت السقف في غرفة صغيرة تفوح منها رائحة السوسن وتَعَطّرها شجرة مشمش بريّة نبتت في الخارج بين حجارة السور وأرسلت فرعاً من الزهر عبر النافذة المفتوحة. كانت هذه الغرفة معدّة لحاجات أكثر خصوصيّة وتفاهة، ومنها يمتدّ النظر أثناء النهار حتى برج «روسانفيل - له - بان»، ولكنّها ظلّت لفترة طويلة بمثابة ملجأ لي في جميع مشاغلي التي تقتضي عزلة مطلقة: كالقراءة والأحلام والبكاء وأمور اللذة، وذلك دونما شك لأنها الوحيدة التي كنت أستطيع إغلاقها بالمفتاح. وما كنت أعلم للأسف أن فقدان الإرادة لديّ وهشاشة صحتي والقلق الذي يرتسم من جرائهما على مستقبلي كانت تشغل بال جدتي على نحو يحزنها أكثر من مواضيع الشذوذ البسيط في حمية زوجها، وذلك أثناء مسيرتها التي لا تنقطع بعد الظهيرة وفي المساء والتي كنت ترى فيها في جيئة ورواح وجهها الجميل يرتفع بخطّ مائل نحو السماء بوجنتيه السمراوين وأخاديدهما وقد أصبحتا بعد سنّ اليأس بلون البنفسج كالأثلام في الخريف يغطيهما إن ذهبتْ خارجاً حجاب خفيف نصف مرفوع، وعليهما تجفّ باستمرار دمعة عفويّة يأتي بها البرد أو فكرة حزينة.

وكان عزائي الوحيد حينما أصعد للنوم أنّ أمي ستجيء لتقبيلي بعد ما آوي إلى فراشي. ولكن هذا الوداع لا يدوم إلا وقتاً قصيراً جدّاً سرعان ما تنحدر بعده حتى إنّ اللحظة التي كنت أسمعها تصعد فيها ثم يجتاز الممر ذا البابين حفيف فستانها الخفيف المصنوع من الموسلين الأزرق والذي تتدلى منه ثلاثة أشرطة من القشّ المجدول، كانت هذه اللحظة فترة أليمة

بالنسبة إليّ، فقد كانت تبشّر باللحظة التي ستليها والتي تفارقني فيها وتنزل. حتى إنّ هذا الوداع الذي كنت مولعاً به إلى حدّ كبير بلَغ بي الأمر أن أتمنى مجيئه متأخّراً ما أمكن التأخير وأن يتطاول وقت الراحة الذي لم تكن أمي بعد قد جاءت في أثنائه. وكنت أبغي أحياناً حينما تفتح بابي لتنصرف بعد أن قبّلتني أن أستدعيها ثانية وأقول لها: «قبّليني مرة أخرى»، ولكنّي أعلم أنها تتّخذ في الحال هيئة غاضبة لأنّ التنازل الذي كانت تقدمه لغمّي واضطرابي لحظة تصعد لتقبّلني، لحظة تحمل إليّ قبلة الهدأة هذه كان يضايق والدي الذي يرى أن هذه الطقوس غير معقولة، فكانت ترغب لو تحاول إفقادي هذه الحاجة وهذه العادة عوضاً عن أن تفسح لي مجال اتخاذ عادة مطالبتها بقبلة إضافية بعدما أصبحت على عتبة الباب. وكانت رؤيتها غاضبة إنما تهدم كلّ الهدوء الذي جاءتني به قبل لحظات حينما مالت نحو سريري بوجهها المحب تمده إليّ كمثل قربان في سبيل اتحاد سلام تستمد منه شفتاي حضورها الحقيقي والقدرة على النوم. على أن هذه الأمسيات التي لا تمكث فيها أمي سوى وقت وجيز جدّاً في غرفتي كانت عذبة إذا ما قيست بتلك التي تضم مدعوين إلى العشاء فلا تصعد من جراء ذلك لوداعي. وتنحصر الدعوة عادة بالسيد «سوان»، فقد كان، فيما عدا بعض عابري السبيل، الشخص الوحيد الذي يمرّ بنا في «كومبريه» على وجه التقريب للعشاء أحياناً، عشاء الجار عند الجار، (وقد أصبح الأمر أكثر ندرة منذ تمّت له تلك الزيجة النكراء لأن والديّ لا يودان استقبال زوجته) وأحياناً بعد العشاء وعلى نحو مفاجئ. ففي الأمسيات التي كنا نجلس فيها أمام البيت تحت شجرة الكستناء الضخمة وحول الطاولة الحديديّة كنا نسمع، لا الجرس الغزير الصارخ الذي ينهمر على كل شخص من أهل البيت يطلقه لدى الدخول «دون أن يقرعه» بل ويذهله لدى انطلاق ضجيجه الحديدي البارد الذي لا ينتهي، وإنما نسمع الرنّة المزدوجة الخجولة البيضويّة المذهبة التي يرسلها جرس الغرباء الصغير فيتساءل الجميع في الحال «زيارة؟ ومن يكون الزائر؟» ولكنهم يعلمون

تماماً أنه لا يمكن إلا أن يكون السيّد «سوان». وتتحدث شقيقة جدّي بصوت عالٍ، كي تكون القدوة، وبلهجة تجهد في جعلها طبيعية وتقول إنّه ينبغي ألا نتهامس هكذا، وأنّه ليس من أمر أكثر إزعاجاً بالنسبة إلى الشخص الذي يجيء والذي يحمله ذلك على الظّن بأن أشياء تُقال ينبغي له ألا يسمعها. وكانوا يرسلون جدتي للاستطلاع فتسعد دوماً حينما تجد عذراً للقيام بجولة إضافية في الحديقة وتستغلّ الظرف كي تنزع في الخفاء وهي في طريقها بعض أسناد شجيرات الورد كيما تردّ للورود شيئاً من الطبيعة مثلما تمرّر والدة يدها في شعر ابنها لتنكشه بعدما بالغ الحلاق في تقصيره.

ونظلّ جميعنا مشدودين إلى الأخبار التي تزمع جدّتي أن توافينا بها عن العدوّ كما لو أمكن التردّد بين عدد كبير ممكن من المهاجمين، وبعد قليل يقول جدّي: «لقد عرفت صوت «سوان». وكان لا يمكن تبيّنه إلّا عن طريق الصوت إذا كنّا لا نفلح في تبيّن وجهه بأنفه المعقوف وعينيه الخضراوين يعلوهما جبين عالٍ يحيط به شعر أشقر إلى أحمر تقريباً مصفّف على طريقة «بريّسان» وذلك لاحتفاظنا بأقلّ ما يمكن من النور في الحديقة تفادياً لاجتذاب البرغش. وكنت أمضي دون أن أوحي بشيء لأقول بإحضار الشراب، فقد كانت جدتي تعلّق الكثير من الأهميّة ألا يبدو وكأنّه موجود بصورة استثنائية وللزيارات وحدها وتجد ذلك أكثر لطفاً. ومع أن السيّد «سوان» كان يصغر جدّي بكثير إلّا أنّه يرتبط به بصداقة كبيرة، فقد كان جدّي من أفضل أصدقاء والده، وهو رجل طيّب جدّاً ولكنه غريب الأطوار يبدو أقل أمر فيما يظهر كافياً ليعطّل لديه اندفاعات القلب ويغيّر مجرى تفكيره أحياناً. ولقد سمعت جدّي يقصّ على مائدة الطعام مرّات عديدة في العام الواحد حكايات لا تتغيّر حول الموقف الذي وقفه السيّد «سوان» الأب لدى موت زوجته التي سهر عليها النهار والليل. وكان جدي الذي لم يره منذ زمن طويل قد سارع إلى جانبه في العقار الذي تملكه عائلة «سوان» على مقربة من «كومبريه» وأفلح في حمله على

مغادرة غرفة المتوفّاة لفترة والعين دامعة وذلك كي لا يحضر نقلها إلى التابوت، وسارا بضع خطوات في الحديقة التي تنعم ببعض الشمس. وفجأة أخذ السيّد «سوان» بذراع جدّي وصاح قائلاً: «آه، يا صديقي، أيّة سعادة أن نتنزّه سويّة في مثل هذا الطقس الجميل! ألست ترى ذلك جميلاً، كلّ هذه الأشجار وشجيرات الزعرور وبركتي التي لم تهنئني بشأنها في يوم؟ إنّك تبدو وكأنّك شديد البلادة. هل تشعر بهذه الريح الطفيفة؟ إن الحياة، مهما قِيل فيها، تملك الكثير من الخير يا عزيزي «آميديه»!» وعاد إليه فجأة ذكر زوجته المتوفّاة، ولما رأى أنه من التعقيد الشديد أن يبحث كيف استطاع في مثل هذا الوقت أن ينساق إلى هذه البادرة المفرحة اكتفى بحركة كانت مألوفة لديه كلّما خطرت في باله مسألة شائكة بأن يمرّ يده على جبينه ويمسح عينيه وزجاج نظارته. ولكنه لم يستطع مع ذلك أن يسرّي عن نفسه لموت زوجته، على أنّه ظلّ يقول لجدّي طوال العامين اللذين عاشهما من بعدها: «غريب، إني أفكّر كثيراً بزوجتي المسكينة، ولكني لا أستطيع التفكير بها طويلاً دفعة واحدة» وأصبحت إحدى الجمل المفضلة لدى جدّي الجملة التالية: «كثيراً ولكن قليلاً في كل مرّة، على طريقة «سوان» المسكين» وكان يقولها بشأن أكثر الأمور اختلافاً. ولعلّه كاد يبدو لي أنّ «سوان» الأب كان وحشاً لو لم يصح جدي الذي كانت أعتبره حاكماً أفضل منّي والذي أفادتني جملته فيما بعد، وهي اجتهاد في النصّ بالنسبة إلي، في العفو عن أخطاء كنت ميّالاً إلى شجبها: «كيف ذلك؟ كان قلبه كالذهب!».

ولم تشكّ جدتي لأمّي ولا جدّاي على مدى سنوات جاء فيها السيّد «سوان» الأب مراراً لزيارتهم في «كومبريه» وبخاصّة قبل زواجه أنّه لم يعد يعيش على الإطلاق في المجتمع الذي كانت تتردّد عليه أسرته وأنّهم يستضيفون في هذا النوع من التخفّي الذي يضفيه عليه اسم «سوان» لدينا - وبتمام براءة أصحاب فندق يؤوون عندهم لصّاً ذائع الصيت دون علم منهم - أحد أكثر أعضاء نادي «الجوكي» أناقة وصديق كونت «باريس» وأمير

«بلاد الغال» المفضّل ومن يعزّهم المجتمع الراقي في ضاحية«سان جيرمان».

أمّا الجهل الذي كنّا فيه بصدد الحياة الاجتماعية الباهرة التي يعيشها «سوان» فمردّه جزئياً بالطبع التحفّظ والتكتّم الذي يميّز طباعه، وكذلك أنّ البورجوازيّين إذ ذاك كوّنوا عن المجتمع فكرة هندية بعض الشيء واعتبروا أنه مؤلّف من طبقات مغلقة يجد كل واحد نفسه منذ مولده في المرتبة التي شغلها ذووه والتي ما كان لشيء أن يخرجه منها ليدخله في طبقة أعلى فيما عدا ما يصادف من مهنة باهرة أو زواج فاق الآمال. لقد كان «سوان» الأب صرّافاً فألفى «سوان» الابن نفسه ينتمي طوال حياته إلى طبقة معيّنة تتأرجح فيها الثروات بين هذا الدخل أو ذاك كما هو الأمر في فئة مكلّفي الضرائب. كانت صلات والده الاجتماعية معروفة ومعروفة إذن صلاته والأشخاص الذين يسمح وضعه بإقامة الصلات معهم. فإن عرف غيرهم فعلاقات شابّ يتغاضى عنها أصدقاء أسرته القدماء، وهو أمر ذويّ، عن طيب خاطر يزيد فيه أنّه والى، مذ أصبح يتيماً، المجيء لزيارتنا بأمانة كبيرة. على أنه كان من المؤكد تقريباً أن هؤلاء الناس المجهولين لدينا الذين يزورهم كانوا في عداد من قد لا يجرؤ على تحيّتهم إن التقى بهم وهو بصحبتنا. ولو شئنا حتماً تقدير مثل اجتماعي خاص بـ«سوان» لكان هذا المثل في ما يخصّه أدنى بقليل إذا ما قِيس بأبناء الصرافين الذين يساوون أهله، لأنه لبساطة تصرّفه الشديدة وولعه المستديم بالأشياء القديمة والرسم كان يقطن الآن في دار قديمة يكدّس فيها مجموعات وتحلم جدّتي بزيارتها، ولكنّها واقعة في منطقة «رصيف أورليان»، وترى شقيقة جدّي أن سكنى هذا الحيّ شائنة. وكانت شقيقة جدّي تقول له: «هل أنت خبير على الأقل؟ إني أسألك عن الأمر لمصلحتك، فلا بدّ أن التجار يبيعونك نفايات». ذلك أنها لم تكن تفترض لديه أيّة كفاءة ولا تقدّر حتى على الصعيد الفكري رجلاً يتجنّب في الحديث الموضوعاتِ الرصينةَ ويبدي الكثير من الدقّة التافهة لا حينما يعطينا وصفات عن الطبخ فيدخل

في أدق التفاصيل فحسب، بل حتى حينما تتحدّث شقيقتا جدّي عن موضوعات فنيّة. فحينما تستثيرانه ليدلي برأيه ويعبّر عن إعجابه بلوحة يصمت صمتاً يبلغ حدّ الإساءة، ويعوّض ما فات على العكس إن استطاع تقديم معلومات مادية حول المتحف الذي يضمّها والتاريخ الذي رسمت فيه. على أنّه كان يكتفي بمحاولة تسليتنا فيروي في كل مرّة قصّة جديدة جاءه بها منذ قليل قوم ينتقيهم من بين الذين نعرفهم كالصيدليّ في «كومبريه» وطاهيتنا وحوذينا. كانت هذه الروايات تضحك شقيقة جدّي دون أن تتميّز إن كان ذلك بسبب الدور المضحك الذي يتّخذه «سوان» فيها على الدوام أم بسبب النباهة التي يبديها في روايتها: «يمكن القول إنّك رجل حقيقي يا سيّد «سوان»!» ولما كانت الشخص الوحيد الذي يمتاز ببعض البساطة في عائلتنا، فقد كانت تهتّم، حينما يدور الحديث حول «سوان»، بتنبيه الغرباء إلى أنه كان يستطيع، لو شاء، السكنى في شارع «هوسّمان» أو شارع «الأوبرا» وأنه ابن السيد «سوان» الذي ربما بلغت تركته أربعة ملايين أو خمسة، ولكنّه هوىً في نفسه، هوى تحكم أنّه مسلٍّ بالتأكيد بالنسبة إلى الآخرين إلى حدّ أنها ما كان يفوتها أن تقول له في باريس حينما يجيء في أول كانون الثاني يحمل لها كيس الكستناء المُسَكَّرة، إن كان هناك زوّار: «أنت تسكن دوماً، يا سيد «سوان» على مقربة من «مخزن الخمور» كي تتأكد أنّ القطار لن يفوتك حينما تتّجه وجهة «ليون»؟» وتنظر إلى الزوّار الآخرين من طرف عينها ومن فوق نظارتها.

ولكن لو جاء من يقول لشقيقة جدّي أنّ «سوان» هذا الذي يتمتّع بوصفه سليل عائلة «سوان» بكل ما يخوّله الدخول إلى مجتمع البورجوازية المرموقة ولدى أكثر كُتّاب باريس بالعدل ومحاميها شهرة (وهو امتياز يبدو أنه يتركه جانباً فريسة النسيان) يعيش وكأنما في الخفاء حياة مغايرة تماماً، وأنه بعدما يخرج من منزلنا في باريس وبعد ما يقوله إنّه يعود لينام، يعود أدراجه حالما ينعطف في الشارع ويذهب إلى صالة لم تتأملها في يوم عين صرّاف أو شريك صرَّاف لبدا الأمر خارقاً في نظر عمتي مثلما قد تبدو من

هذا القبيل في نظر سيدة أكثر ثقافة فكرة أن ترتبط شخصياً بصداقة مع «آريستيه» وتفهم منه أنّه ذاهب بعد التحدّث إليها ليغوص في صميم ممالك «تيتيس» في إمبراطورية بعيدة عن عيون الفانين يظهره فيها «فيرجيليوس»[(١)] وقد استقبلوه في الأحضان؛ أو فكرة دعوة «علي بابا» لطعام الغداء معها فيدخل حينما يدرك أنّه أصبح وحيداً إلى المغارة المتألّقة بكنوز لم تخطر ببال، وذلك كيما نكتفي صورة أوفر حظّاً في مراودة خاطرها لأنها رأتها مرسومة على صحون الحلوى لدينا في «كومبريه». وفي يوم جاء فيه لزيارتنا في باريس بعد العشاء وهو يعتذر أنّه في لباس رسمي وقالت «فرانسواز» بعد ذهابه إنّها علمت من الحوذي أنّه تناول عشاءه «في منزل أميرة» أجابت عمّتي وهي ترتفع بمنكبيها ودون أن ترفع نظرها عن شبيكة الصوف بسخرية هادئة: «أجل، في منزل أميرة من عالم الرخيصات!». ولذلك كانت شقيقة جدّي تتصرف معه تصرفاً غير لائق. ولما كانت تظنّ أنّه لا بدّ راضٍ عن دعواتنا كانت ترى من الطبيعي ألا يجيء لزيارتنا في الصيف دون أن يحمل في يده سلّة من الدرّاق أو توت العلّيق من حديقته وأن يجيئني من كل من أسفاره إلى إيطاليا بصورة شمسية لروائع الآثار.

وكاد لا يربكنا أن نرسل في طلبه، حين تدعو الحاجة إلى طريقة لإعداد المرق الحرّيق أو سلطة الأناناس في مآدب كبرى لا يدعى إليها إذ لا نجد لديه ما يكفي من المهابة كي يُقدَّم لأغراب يجيئون للمرّة الأولى. فإن تناول الحديث أمراء «البيت الفرنسي» قالت شقيقة جدّي لِ«سوان»، وربّما حمل في جيبه رسالة من «تويكنهام»: «أولئك قوم لن نعرفهم في يوم لا أنت ولا أنا، ونحن في غنى عنهم، أليس كذلك»؟ وكانت تطلب منه دفع البيانو وتقليب الصحائف في الأمسيات التي تغنّي فيها شقيقة جدّتي وتتصرّف في استخدام هذا الكائن المرغوب جداً في أمكنة أخرى بخشونة طفل ساذج يلهو بتحفة يأخذها في مجموعة ولا يحتاط لأمره أكثر مما

(١) شاعر الرومان الأكبر وصاحب **الإنياذة** (*L'Enéide*) التي تروي قصة «اينيه».

يفعل بغرض بخس الثمن. وليس من شكّ في أنّ «سوان» هذا الذي عرفه في الفترة نفسها العديد من أرباب النوادي كان شديد الاختلاف عن ذاك الذي تبتدعه شقيقة جدّي حينما تحقن وتنشّط بكل ما تعرفه عن أسرة «سوان» الشخص المبهمَ غير الثابت الملامح الذي يبرز، تتبعه جدّتي، على خلفيّة من العتمة ونعرفه من صوته وذلك بعدما تدوّي في المساء في حديقة «كومبريه» الصغيرة رنّتان تنبعثان من الجرس المتردّد. بيد أنّنا لا نؤلّف كلاً مادياً قائماً بحدّ ذاته لا يتبدّل في نظر الجميع ولا يقع على كلّ منا إلا الإحاطة به كما بدفتر شروط أو بوصيّة، حتى على مستوى أكثر أمور الحياة تفاهة؛ ذلك أن شخصيّتنا الاجتماعية من ابتداع فكر الآخرين: حتى الفعل البسيط جداً الذي ندعوه «رؤية شخص نعرفه» فعل فكري في جزء منه. فإنّنا نملأ المظهر المادي للكائن الذي نراه بجميع المفاهيم التي نحملها عنه، وتحتلّ هذه المفاهيم بالتأكيد القسم الأكبر في المظهر الكليّ الذي نتصوّره، ويبلغ بها الأمر أن تنفخ الوجنتين تماماً وأن تتابع خطّ الأنف بالالتصاق الدقيق به وتنجح إلى حدّ بعيد في تلوين رنّة الصوت كما لو لم يكن هذا الأخير سوى غلاف شفّاف حتى إننا في كل مرّة نرى هذا الوجه ونسمع هذا الصوت فإنما نعود فنلقى هذه المفاهيم ونسمعها. لقد أغفل أهلي عن جهل دونما شكّ أن يُدخلوا في شخص «سوان» الذي كوّنوه لأنفسهم طائفة من خصوصيّات حياته المجتمعية كانت سبباً لأن يرى آخرون، وهم في حضرته، مظاهر الأناقة تسود وجهه وتتوقّف على حدّ أنفه المعقوف كأنما على حدّها الطبيعي. على أنهم استطاعوا أن يكدّسوا في هذا الوجه الذي فقد مهابته، في هذا الوجه الخالي الفسيح، وفي أعماق هاتين العينين اللتين أفرغتا من قيمتها البقايا المبهمة العذبة - ونصفها تذكّر والنصف نسيان - لساعات الفراغ التي قضيناها سويّة بعد وجبات عشائنا الأسبوعية وحول طاولة اللعب أو في الحديقة أثناء حياة الجوار في الريف. وكان غلاف صديقنا الجسديّ قد تم حشوه بها تماماً، إلى جانب بعض الذكريات المتعلّقة بذويّ، حتى أصبح «سوان» هذا كائناً كاملاً وحيّاً

وأنني أشعر أني أغادر شخصاً لأذهب إلى آخر متميّز عنه حينما انتقل بالذاكرة من «سوان» الذي عرفته بدقة فيما بعد إلى أول «سوان» - «سوان» الأوّل هذا الذي أعود فألقى فيه جميع أخطاء شبابي البهيجة والذي لا يشبه الآخر بقدر ما يشبه الأشخاص الذين عرفتهم في الفترة نفسها، كما لو كان أمر حياتنا أمر متحف تحمل فيه جميع الرسوم العائدة لزمن واحد هيئة العائلة الواحدة واللون الواحد - «سوان» الأول هذا المملوء راحة، المعطّر برائحة شجرة الكستناء الضخمة وسلال توت العلّيق وبعرق من الطرخون.

على أنه اتّفق أن ذهبت جدّتي ذات يوم ترجو خدمة من سيدة عرفتها في حي «القلب المقدّس»، (ولم تشأ أن تظلّ على علاقة بها على الرغم من المشاعر المتبادلة بسبب مفهومنا للطبقات) واسمها المركيزة «دو فيلباريسيس» من أسرة «دو بويّون» المشهورة، فقالت هذه الأخيرة: «أظنّ أنك تعرفين إلى حدّ كبير السيد «سوان» الذي هو صديق حميم لأبناء شقيقتي من أسرة «دولوم»». وعادت جدتي من زيارتها وقد تحمّست للبيت المطلّ على حدائق والذي أشارت عليها السيّدة «دي فيلباريسيس» أن تستأجر فيه، وكذلك لصانع صدارٍ وابنته وهما يملكان دكاناً في الباحة وقد دخلت تطلب إليهما رفأ تنورتها التي خزقتها على الدرج. ووجدت جدّتي أنّ هؤلاء الناس بلغوا الكمال فكانت تعلن أن الصغيرة لؤلؤة وأنّ صانع الصداري أكثر الناس أناقة ومن خير من رأت. ذلك أنّ الأناقة في نظرها أمر مستقلّ تمام الاستقلال عن المرتبة الاجتماعية. وكانت تعجب أيّما عجب من جواب جاء على لسانه وتقول لأمّي: «ما كانت «سيفينيه» لتقول أفضل من ذلك!» وتقول بالمقابل عن ابن أخٍ للسيّدة «دي فيلباريسيس» التقته في بيتها: «آه! كم هو عامّي يا ابنتي!».

على أنّ هذا الحديث الخاصّ بـ«سوان» لم يؤدِ إلى الرفع من شأنه في تفكير شقيقة جدي، بل إلى الخفض من شأن السيّدة «دي فيلباريسيس». ذلك أن التقدير الذي كنّا نكنّه للسيّدة «دي فيلباريسيس»، على ذمّة جدّتي،

يلقي عليها واجب ألا تقدم على ما من شأنه أن يجعلها غير أهل له، وقد أخلّت بهذا الواجب حينما علمت بوجود «سوان» وسمحت لبعض أقربائها بالتردّد عليه. «ما الخبر؟ أو تعرف «سوان»؟ وهي من تدّعين أنّها قريبة الماريشال «دو ماك ماهون»!» وقد أكّد رأيَ أهلي فيما بعد بعلاقات «سوان» زواجَه من امرأة من أكثر طبقات المجتمع سوءاً وتكاد تكون من الرخيصات، امرأة لم يحاول البتّة أن يعرّف بها بل ظلّ يجيء وحيداً إلى بيتنا، وإن تناقصت زياراته شيئاً فشيئاً، ولكنّهم ظنّوا أنهم يستطيعون من خلالها الحكم على الوسط المجهول لديهم الذي كان يرتاده عادة - ويفترضون أنّه أخذها منه.

ولكنّ جدّي قرأ ذات مرة في جريدة أنّ السيّد «سوان» كان أحد أكثر الرواد تردّداً على غداء الأحد في منزل الدوق «س» الذي سبق أن كان والده وعمّه من أكثر رجال الدولة في عهد الملك «لويس فيليب» شهرة. وقد كان جدّي راغباً في جميع الوقائع الصغيرة التي يمكن أن تعينه في الدخول بالفكر إلى دنيا الحياة الخاصّة لرجال من أمثال «موليه Molé» والدوق «باسكييه Pasquier» والدوق «دو بروي de Broglie». فاغتبط كثيراً إذ علم أن «سوان» كان يتردّد على أناس عرفوهم. أمّا شقيقة جدّتي فقد فسّرت هذا الخبر على العكس في غير مصلحة «سوان»: رجل يختار أصحابه من خارج الطبقة التي وُلِد فيها، من خارج «طبقته» الاجتماعية إنّما يمنى بنكسة مؤسفة على صعيد طبقته. لقد كان يبدو لها أنّه يتمّ التخلّي دفعة واحدة عن ثمرة جميع العلاقات الحميدة مع أناس يتميّزون بالرصانة بعد ما أقامتها على نحو مشرّف وخزنتها الأسر المتبصرة لأبنائها (وقد امتنعت شقيقة جدّتي عن رؤية ابن كاتب بالعدل من أصدقائنا لأنّه تزوّج من صاحبة سموّ وانحدر من جراء ذلك في نظرها من مرتبة ابن كاتب بالعدل المحترمة إلى مرتبة أحد أولئك المغامرين من الخدام أو عمال الاسطبلات الذين يُروى أن الملكات أبدَيْن لهم بعض المودّة). وقد أنحت باللائمة على عزم جدّي أن يسائل «سوان» في المساء المقبل الذي سيجيء ليتناول

فيه طعام العشاء حول هؤلاء الأصدقاء الذين نكتشفهم له. وأعلنت شقيقتا جدّتي من جهة أخرى، وهما عانسان من طينة جدّتي النبيلة وليستا في ذكائها، أنهما لا تدركان اللّذة التي يمكن أن يلقاها صهرهما في التحدّث عن مثل هذه الحماقات. لقد كانتا من فئة سامية التطلّعات وكانتا لذلك عاجزتين عن الاهتمام بالقِيل والقال، وإن ثبتت أهميّته التاريخية، وعلى نحو عام بكلّ ما لا يرتبط ارتباطاً مباشراً بأشياء جمالية أو تتّصل بالفضيلة. وقد بلغ تجرّد فكرهما إزاء كل ما يبدو أنّه يرتبط من قريب أو بعيد بالحياة الدنيويّة درجة أصبحت معها حاسّة السمع لديهما - بعدما تُدْرِكُ لافائدتها المؤقتة حالما يأخذ الحديث لهجة مستهترة أو حتى مبتذلة دون أن تتمكّن هاتان العانسان العجوزان من عطفه إلى موضوعات غالية عليهما - تدعو إلى الراحة أعضاء الاستقبال لديها وتجرّ عليها بداية ضمور حقيقي. فإن كان جدّي إذ ذاك في حاجة إلى لفت انتباه الشقيقتين انبغى له اللجوء إلى هذه الإنذارات الماديّة التي يستخدمها أطبّاء العقول إزاء بعض المصابين بهوس الشرود، كالضربات التي تُوالى على قدح زجاجيّ بنصل سكّين وتوافق مناداة مفاجئة بالصوت والعين، والوسائل العنيفة التي ينقلها في الغالب هؤلاء الأطباء النفسانيون إلى علاقاتهم اليومية بأناس أصحّاء، إمّا بسبب العادة الناجمة عن المهنة وإما لظنّهم بأن الكلّ على شيء من الجنون.

وقد زاد اهتمامهما أكثر من ذلك حينما قالت عمّتي عشيّة اليوم الذي سيأتي فيه «سوان» لتناول طعام العشاء، وبعدما بعث إليهما شخصياً بصندوق من خمور «آستي» قالت، وهي تمسك بعدد لجريدة «**الفيغارو**» وردت فيه إلى جانب اسم لوحة ضمّها معرض لأعمال الفنّان «كورو Corot» هذه الكلمات: «من مجموعة السيّد «شارل سوان»: من مجموعة السيّد «شارل سوان»: «هل رأيتم أنّ «سوان» قد حاز اهتمام «**الفيغارو**»؟ وتقول جدّتي: «لقد قلت لك دوماً إنّه يتمتّع بالكثير من الذوق». وأجابت شقيقة جدّي: «أنت بالطبع، ما دام الأمر أن تكوني من رأي مغاير لرأينا»

وكانت تعلم أنّ جدّتي لم تشاركها الرأي في يوم، ولما لم تكن أكيدة تماماً أنّنا نعطيها الحقّ على الدوام فقد شاءت أن تنتزع منّا إدانة كليّة لآراء جدّتي وتحاول أن توجّه ضدّها تضامننا مع آرائها بالقوّة ولكنّنا ظللنا صامتين. ولما أبدت شقيقتا جدّتي رغبتهما في إطلاع «سوان» على كلمة **«الفيغارو»** هذه نهتهما شقيقة جدّي عن الأمر؛ ففي كلّ مرّة تجد لغيرها مكسباً، مهما كان ضئيلاً، لا يتوافر لها كانت تقنع ذاتها بأنّه ليس مكسباً بل هو شرّ، فترثي لحال الغير كي لا تضطرّ أن تحسدهم». في اعتقادي أنّه لن يسرّ بذلك، وإني أعلم تمام العلم أن رؤية اسمي مطبوعاً هكذا على صفحات جريدة تسوؤني أشدّ السوء ولن يسعدني البتّة أن يحدّثوني عن الأمر». ولكنها لم تتشبّث على أيّ حال بإقناع شقيقتي جدّتي فقد كانتا لفرط كرههما للابتذال تبالغان في فنّ إخفاء التلميح الشخصّي تحت ستار الكنايات الذكيّة حتى لا يشعر به في الغالب الشخص نفسه الذي وجّه إليه هذا التلميح. أما أمي فكانت لا تفكّر إلّا في محاولة حمل والدي على التحدّث مع «سوان» لا عن زوجته، بل عن ابنته التي يعبدها والتي خلص بسببها إلى القبول في ما يقولون بهذا الزواج. «بوسعك أن تقول له كلمة فحسب، أن تسأله عن حالها، فلا بدّ أن يكون ذلك قاسياً جدّاً بالنسبة إليه». ولكنّ والدي يتملّكه الغضب: «لا لا! إن أفكارك غير معقولة، ومثل ذلك مضحك».

على أنّي كنت الوحيد من بيتنا الذي شكّل مجيء «سوان» بالنسبة إليه همّاً أليماً. فوالدتي لا تصعد إلى غرفتي في الأمسيات التي يحضر فيها غرباء أو حتى «سوان» وحده. كنت أتناول العشاء قبل الجميع ثم آتي وأجلس إلى الطاولة حتى الثامنة وهي الساعة التي ينبغي لي حسب الاتفاق أن أصعد فيها. وكان عليّ أن أنقل هذه القبلة الثمينة الواهية، التي تعودت أمي أن تودعني إيّاها لحظة أنام، من غرفة الطعام إلى غرفتي وأن أحفظها طوال الوقت الذي أخلع فيه ثيابي دون أن تتحطّم عذوبتها ودون أن تتبدّد قوّتها الطيّارة وتتبخّر، كان عليّ في تلك الأمسيات بالضبط التي أحتاج أن

تُعطى لي بقدر أكبر من الحيطة أن آخذها، بل أن أختلسها على نحو مفاجئ وعلنيّ لا يدع لي الوقتَ وحريّة الفكر الضروريّين لأعير ما أفعل هذا الانتباه المميّز لدى المهووسين الذين يحاولون ألّا يفكّروا بأمر آخر فيما هم يغلقون باباً ليستطيعوا حينما يعاودهم الشكّ المرضيّ أن يضعوا قبالته الذكرى المجيدة للحظة التي أغلقوه فيها.

وكنا جميعنا في الحديقة حينما دوّت رنّتا الجرس المتردّد. الكلّ يعلم أنّه «سوان» ولكنّ الجميع نظروا فيما بينهم نظرة المتسائل وتمّ إرسال جدّتي للاستطلاع. وأوصْى جدّي شقيقتي زوجته بقوله: «فكّرا في أن تشكراه بعبارة واضحة لقاء الخمرة، فأنتما تعلمان أنّها لذيذة وأن الصندوق ضخم». وقالت شقيقة جدّي: «لا تأخذوا بالهمس. فكم يريحك أن تدخل إلى بيت يتحدّث الجميع فيه بصوت منخفض!» وقال والدي: «ها قد جاء السيّد «سوان» وسوف نسأله إن كان يعتقد بتحسن الطقس في الغد» وظنت والدتي أن كلمة منها سوف تمحو كل الغمّ الذي سببناه لـ«سوان» في عائلتنا منذ زواجه وتسنّى لها أن تنتحي به جانباً، ولكنّي تبعتها إذ ما كنت أقوى على حمل نفسي على الابتعاد عنها خطوة واحدة وأنا أفكّر أنّه ينبغي لي عَمّا قليل أن أتركها في غرفة الطعام وأن أعود فأصعد إلى غرفتي دون أن يتيسّر لي العزاء في أن تأتي لتقبيلي كالعشيّات الأخرى. وقالت له: «هيّا يا سيّد «سوان»، حدّثني قليلاً عن ابنتك، فإني متأكدة أنها تتذوّق منذ الآن الأعمال الفنيّة مثل والدها». ولكن جدّي قال وهو يقترب: «هيّا فاجلسا معنا جميعاً على الشرفة». واضطرّت والدتي أن تقطع حديثها ولكنّها استخلصت من هذا الاضطرار فكرة رقيقة إضافية، كما يضطرّ جور القافية الشعراء إلى العثور على أجود ما عندهم، فقالت لِ«سوان» وهي تخفض صوتها: «نعود إلى الحديث عنها عندما نكون سويّة. فليس من هو أهل لأن يفهمك سوى من كانت أمّاً، وإني متأكّدة أنّ أمّها تشاطرني الرأي». وجلسنا جميعاً حول الطاولة الحديديّة. كنت أودّ ألّا أفكّر في ساعات الضيق التي سأمضيها في هذا المساء وحيداً في غرفتي دون أن أستطيع

النوم، وأحاول إقناع ذاتي بأنها غير ذات بال بما أنني سأنساها في صباح الغد، والتعلّق بأفكار مستقبليّة كان يجدر بها أن تقودني وكأنّما فوق جسر إلى ما وراء الهاوية الآتية التي ترعبني. ولكنّ فكري المتوتّر من جرّاء ما يشغلني أصبح محدّباً كمثل النظرة التي كنت أصوّبها إلى أميّ فلم يدع لأيّ انطباع غريب أن يخالجه. كانت الأفكار تدخل إليه بالتأكيد ولكن بشرط أن تدع خارجاً كل عنصر جماليّ أو حتى عنصر الغرابة الذي قد يؤثّر فيّ أو يلهيني. ومثلما يشهد مريض بفضل مخدّر العمليّة التي تجرى له بوضوح تامّ ولكن دون أن يحسّ بشيء، كنت أستطيع أن أتلو لنفسي أبياتاً من الشعر أحبّها أو أن ألحظ الجهود التي يبذلها جدّي كيما يحدّث «سوان» عن دوق «أوديفريه باسكييه» دون أن أشعر من جرّاء الأولى بأي انفعال ومن جرّاء الثانية بأي جذل. ولم تجدِ هذه الجهود فتيلاً. وما إن طرح جدّي على «سوان» سؤالاً يتعلّق بهذا الخطيب حتى صاحت إحدى شقيقات جدّتي، وقد دوّى هذا السؤال في أذنيها وكأنه صمت عميق في غير محلّه ويقضي التهذيب بتحطيمه، صاحت بالأخرى: «تصوّري يا «سيلين Céline» أنني تعرّفت إلى معلّمة سويديّة شابّة زوّدتني بتفصيلات من أكثرها إثارة حول التعاونيّات في البلدان الاسكندينافية. ولا بدّ أن تأتي للعشاء هنا ذات مساء». وأجابت شقيقتها «فلورا»: «ذلك ما أعتقد. ولكنّي بدوري لم أضيّع وقتي، فقد التقيت في بيت السيّد «فانتوي» بعالم عجوز يَعرف «موبان» تمام المعرفة، وقد شرح له «موبان» بأوفر تفصيل كيف يفعل لتأليف أحد الأدوار؛ إنّ ذلك من أوفر الأمور إثارة. إنه أحد جيران السيّد «فانتوي» وما كنت أدري عن ذلك شيئاً؛ وهو لطيف جدّاً». وصاحت خالتي «سيلين» بصوت جعله الخجل قويّاً والتبصر مصطنعاً فيما هي ترمي «سوان» بما كانت تسميه نظرة ذات دلالة: «ليس السيد «فانتوي» وحيداً في حيازة الجيران اللطفاء». وتنظر خالتي «فلورا» في الوقت نفسه، وقد أدركت أنّ هذه الجملة تعني شكر «سيلين» على خمرة «آستي»، تنظر كذلك إلى «سوان» بهيئة تمتزج فيها التهاني بالسخرية، إمّا لتلحّ فحسب

على نكتة شقيقتها، وإمّا لتحسد «سوان» لأنّه أوحى بها، وإمّا لأنها لم تتمالك أن تسخر منه لأنّها تظنّه قد أصبح في حرج. وتابعت «فلورا» تقول: «أعتقد أننا سنفلح في استضافة هذا السيّد على الغداء، وحينما توجّهه ناحية «موبان» أو السيّدة «ماتيرنا» فإنّه يتحدّث ساعات دونما توقّف». وزفر جدّي بهذه الكلمات: «لا بدّ أن يكون ذلك لذيذاً»، وقد أغفلت الطبيعة أن تدخل في عقله إمكانية الاهتمام الشديد بالتعاونيات السويدية أو بتأليف أدوار «موبان» إغفالاً مؤسفاً وتامّاً كمثل إغفالها أن تزوّد عقل شقيقتَي جدّتي بذرّة الملح التي لا بدّ أن نضيفها بأنفسنا إلى رواية عن حياة «موليه» أو «لكونت دو باريس» كيما نجد فيها بعض الطعم. وقال «سوان» لجدّي: «انظر، إنّ ما سأقوله لك يتّصل أكثر ممّا يبدو بما طلبته منّي، لأنّ الأشياء لم تتغيّر في بعض النقاط إلى حدّ بعيد. كنت أعيد في هذا الصباح قراءة أمر لدى «سان سيمون» كان يمكن أن يروّح عنك، والنصّ في المجلّد الذي يدور حول سفارته في إسبانيا. وليس المجلّد من أفضلها بل هو جريدة فحسب ولكنه جريدة كُتِبَتْ كأروع ما تكون الكتابة وذلك أوّل اختلاف مع الجرائد القاتلة التي نظنّ أننا ملزمون بقراءتها صباح مساء». وقاطعته خالتي «فلورا» لتُظهر أنّها قرأت جملة «سوان» حول «كورو» في جريدة «**الفيغارو**»: «إنّي لا أوافقك الرأي، فهنالك أيام تبدو لي فيها قراءة الجرائد ممتعة جدّاً. . .» وأضافت خالتي «سيلين» قولها: «حينما تتحدّث عن أشياء أو عن قوم يثيرون اهتمامنا». وأجاب «سوان» بدهشة: «لست أقول عكس ذلك؛ ولكنّ ما آخذه على الجرائد أنها تصرف انتباهنا في كلّ يوم إلى أمور تافهة في حين نقرأ ثلاث مرّات أو أربعاً على مدى حياتنا الكتب التي تتضمّن أشياء جوهريّة. وبما أنّنا نمزّق في كلّ صباح ربطة الجريدة فلا بدّ إذن من تغيير الأمور وجعل «**خواطر** باسكال» ربّما. . . لست أدري أنا. . . في الجريدة!» (وشدّد على «**الخواطر**» بلهجة ساخرة كي لا يبدو متحذلقاً). وأضاف يقول، وهو يبدي للأمور الدنيويّة هذا الازدراء الذي يصطنعه بعض رجال المجتمع: «وإنّما نقرأ في السفر

المذهب الذي لا نفتحه سوى مرّة واحدة في العشر سنوات أن ملكة اليونان ذهبت إلى «كان» أو أن الأمير «دوليون» أقامت حفلة راقصة تنكريّة، وهكذا نعود فنقيم النسبة العادلة». ولكنّه أضاف بلهجة ساخرة، وقد أسف أنّه استرسل في الحديث بدون روّية عن أمور جديّة: «تلك محادثة عظيمة بدأناها، فلست أدري لماذا نتناول هذه «الأمور الهامّة» والتفت ناحية جدّي قائلاً: «إن «سان سيمون» يروي إذن أنّ «موليفرييه» تجرّأ فمدّ يده ليصافح أبناءه، وهو «موليفرييه» نفسه الذي قال عنه، كما تعلم: «ما رأيت قطّ في هذه الزجاجة الغليظة سوى المزاج الحادّ والبذاءة والحماقات». وقالت «فلورا» بحرارة، وكانت حريصة أن تشكر «سوان» هي الأخرى لأن هديّة خمرة «آستي» وجّهت للاثنتين: «إني أعرف زجاجات تحتوي غير ذلك تماماً، سواء أكانت غليظة أم لا». وضجّت «سيلين» بالضحك. وعاد «سوان» يقول وقد أخذ منه الارتباك: «لست أعلم، يقول «سان سيمون»، إن كان ذلك عن جهل أو خبث، فقد أراد أن يمدّ يده لأولادي، وقد لاحظت ذلك في أوانه فَحُلْتُ دونه». وكان جدّي آخذاً في الانتشاء أمام عبارة «عن جهل أو خبث»، ولكن الآنسة «سيلين» التي حال اسم «سان سيمون» لديها - وهو أديب - دون تخدير تامّ لحاسّة السمع ثارت ثائرتها: «كيف تنظر بإعجاب إلى ذلك؟ هذا جميل حقّاً! فما عسى أن يعني الأمر، أوليس يساوي كل إنسان الإنسان الآخر؟ وماذا يهمّ أن يكون دوقاً أو حوذيّاً ما دام يتمتّع بالذكاء والقلب الكبير؟ لقد كان لِـ«سان سيمون» هذا طريقة غريبة في تربية أولاده إن لم يكن يقول لهم بأن يمدّوا يدهم لجميع الناس الشرفاء. وتتجرّأ على الاستشهاد بذلك؟» أمّا جدّي فكان يقول لأمّي بصوت خفيض، وقد تملّكه الأسى وأحسّ بأنّه يستحيل، إزاء هذه العرقلة، محاولة حمل «سوان» على رواية الحكايات التي كان من شأنها أن تسليّه: «ذكّريني ببيت الشعر الذي علّمتني إيّاه والذي يروّح عني كثيراً في مثل هذه اللحظات. أجل: «ربّي، كم من فضائل جعلتنا لها كارهين!» آخ، ما أجمل ذلك!».

ولم أحوّل ناظريّ عن أمّي، فقد كنت أعلم أنّه لن يسمح لي حينما نجلس إلى المائدة بالمكوث طوال فترة العشاء وأن أمّي لن تدع لي أن أقبّلها تكراراً في حضرة الناس كما لو كان ذلك في غرفتي كي لا تزعج والدي. ولذلك كنت أعد نفسي أن أفعل سلفاً في غرفة الطعام، وحينما يباشرون بالعشاء وأشعر باقتراب الساعة، أن أفعل من هذه القبلة التي ستكون قصيرة جدّاً وخاطفة كل ما يمكن أن أفعله منها وحدي كأن أختار بالعين الموضع الذي سأقبّله في الخدّ وأن أعدّ فكري كيما أستطيع بفضل هذه البداية الذهنيّة للقبلة تكريس كامل الدقيقة التي تهبني إيّاها أمّي لأحسّ بخدّها على شفتّي، كمثل رسّام لا يستطيع الحصول إلّا على جلسات قصيرة لنموذجه فيعدّ لوحة ألوانه ويقوم سلفاً بالذاكرة واستناداً لملاحظاته المكتوبة بكلّ ما يستطيع أن يكون بشأنه في غنى عن حضور النموذج، إن قضت الحاجة. بيد أنه اتفق أن قال جدّي قبل أن يدق جرس العشاء، بقسوة لا واعية: «يبدو الصغير متعباً ويجدر به أن يصعد للنوم. والعشاء متأخّر هذا المساء على أيّة حال». وقال والدي، وما كان أميناً بمثل دقّة جدّتي وأمّي على عهد المواثيق: «أجل، هيا بادر إلى النوم». وودت تقبيل أمّي، ولكن جرس العشاء قرع الآذان في هذه اللحظة. «لا، لا! هيّا اترك والدتك، لقد استودعتها هكذا بما فيه الكفاية، وهذه التظاهرات مضحكة. هيا اصعد!» وكان عليّ أن أنطلق دون زاد أخير؛ كان عليّ أن أصعد كلّ درجة بعكس هوى قلبي، فأصعد ضدّ هواه وهو يودّ العودة بالقرب من أمّي لأنّها لم تصرّح له وهي تقبّلني بأن يتبعني. كان هذا الدرج المقيت، الذي أذهب فيه دوماً بحزن عظيم، ينشر رائحة طلاء امتصّت ورسّخت هذا النوع الخاصّ من الغمّ الذي أشعر به كل مساء وربما جعلته أكثر قسوة على إحساسي لأن عقلي ما كان يستطيع أن يأخذ قسطه منه بهذا الشكل الذي يقتصر على حاسّة الشمّ. فحينما ننام ولا يتمّ لنا إدراك ألم في أسناننا إلّا على صورة فتاة نجهد مئتي مرّة متوالية في إنقاذها من الماء أو على صورة بيت شعر لِـ«موليير» نردّده في نفسنا دونما توقّف، فإن استيقاظنا

يروّح كثيراً عنا وكذلك أن يتمكّن عقلنا من تخليص فكرة ألم الأسنان من كل تنكّر بطولي أو إيقاعي. وكان ما أعانيه عكس هذا الارتياح حينما يداخلني غمّ الصعود إلى غرفتي على نحو أسرع، على نحو آنيّ تقريباً، على نحو ماكر ومفاجئ في الآن نفسه عن طريق استنشاق رائحة الطلاء الخاصة بهذا الدرج - وهو أخطر سماً من التشرّب المعنويّ. وكان عليّ حالما وصلت إلى غرفتي، سدّ سائر المنافذ وإسدال الستائر وحفر ضريحي بيدي، بنزع أغطية سريري، وارتداء كفن قميص النوم. على أني قبل أن أدفن نفسي في السرير الحديدي الذي أضيف في غرفتي لأني كنت أعاني كثيراً من الحرّ في الصيف خلف ستائر الحرير التي تلف السرير الكبير ثارت ثائرتي فأردت أن آخذ بحيلة المحكوم عليه. وكتبت إلى والدتي أتوسّل إليها أن تصعد لأمر خطير لا أستطيع البوح به في رسالتي. وكان هلعي أن ترفض «فرانسواز» طاهية خالتي التي كانت مكلّفة بالاهتمام بي في «كومبريه» حمل كلمتي. فقد كنت أظنّ أن إبلاغ رسالة لوالدتي بحضور الزوار ربما بدا في نظرها بمثل استحالة أن يقوم بوّاب مسرح بتسليم رسالة لأحد الممثّلين وهو على خشبة المسرح. وكانت تتّبع نظاماً صارماً بصدد ما يمكن أن يتمّ أولاً، يتمّ نظاماً صارماً ووافياً ودقيقاً لا تساهل فيه حول صنوف من التفريق لا تُدرك أو غير ذات بال (الأمر الذي يضفي عليه مظهر هذه القوانين القديمة التي تتضمّن توصيات وحشية بتقتيل الأطفال الرضّع وتنهى في رقة مبالغ فيها عن غلي الجدي بحليب أمّه أو عن أكل عصب الفخذ في حيوان ما). كان هذا النظام يبدو، إذا ما حكمنا عليه من خلال العناد المفاجئ الذي تبدّى في رفض إيصال بعض الرسائل التي نحمّلها إيّاها، كان يبدو وكأنّه ينصّ على تعقيدات اجتماعية وضروب من التفنّن في العلاقات الإنسانيّة ما كان لشيء في محيط «فرانسواز» أو في حياتها خادمة في القرية أن يوحي لها به، وكان لزاماً أن يتبادر إلى الذهن أنّ في نفسها ماضياً فرنسيّاً مغرقاً في القدم نبيلاً غير مدرك على حقيقته كما تشهد فنادق قديمة في المدن الصناعية بأن حياة بلاطيّة كانت قائمة بالأمس فيها ويعمل

فيها عمّال مصنع للمنتجات الكيماويّة وسط نقوش لطيفة تمثّل أعجوبة القديس «ثيوفيلوس» أو «أبناء إيمون الأربعة». وفي هذه الحالة الخاصّة، فإن مادّة النظام التي كان من غير المرجّح أن تذهب «فرانسواز» من جرّائها، فيما عدا حالات الحريق، فتزعج أمّي في حضرة السيّد «سوان» وفي سبيل شخص بمثل صغر قدري، كانت تلك المادة تعبيراً فحسب عن الاحترام الذي تبديه لا للأقارب وحدهم - ومثلهم الأموات والكهنة والملوك - بل للغريب الذي تستضيفه كذلك - والاحترام ربّما أثّر في نفسي مسطّراً في كتاب ولكنّه كان يغضبني على الدوام خارجاً من فمها بسبب اللهجة الرزينة الحنون التي تلجأ إليها في حديثها عنه، ويزيد من غضبي هذا المساء أنّ الطابع القدسيّ الذي تضفيه على العشاء سيكون من شأنه أن ترفض تعكير الحفلة. على أنّي لم أتردّد في الكذب كيما أضع بعض الحظّ إلى جانبي وقلت لها بأني لست من شاء الكتابة إلى والدتي بل والدتي هي التي أوصتني وهي تودّعني أن أبعث إليها بجواب يتعلّق بغرض رجتني أن أبحث عنه، وسوف تغضب بالتأكيد غضباً شديداً إن لم تُسلَّم هذه الكلمة. وأظنّ أنّ «فرانسواز» لم تصدّقني لأنها كانت تكشف في الحال، شأن الناس البدائيّين الذين كانت حواسّهم أكثر اقتداراً من حواسّنا، كل حقيقة كان بودّنا أن نخفيها عنها. فنظرت مدّة خمس دقائق إلى المغلّف وكأنّما سيطلعها النظر إلى الورق ومظهر الخطّ على طبيعة ما يحتويه، أو يرشدها إلى أيّة مادّة من نظامها ينبغي أن تعود. ثم خرجت والتسليم بادٍ عليها وكأنّي بها تعني «أليس من تعس الأبوين أن يرزقا ولداً كهذا»! وعادت بعد لحظة تقول لي إنّهم بعد يتناولون «البوظة» وإنه يستحيل على رئيس الخدم تسليم الرسالة في هذا الوقت أمام الجميع وسوف يتمّ التوصل إلى وسيلة لتسليمها لوالدتي لدى توزيع آنية المضمضة. وللحال انجلى ضيق نفسي، ذلك أني الآن لم أستودع والدتي حتى الغد كما كان أمري منذ هنيهة، لأنّ كلمتي القصيرة، وإن أغضبتها دونما شك (غضباً مضاعفاً إذ ربّما أصبحتُ بهذه الحيلة موضع سخرية «سوان»)، فإنّها تزمع

على الأقلّ أن تدخلني خفيّاً جذلان إلى الغرفة نفسها وأن تميل على أذنها لتحدثها عنّي؛ ولأنّ غرفة الطعام نفسها، هذه المحظورة العدائيّة التي بدت لي فيها «البوظة» نفسها وآنية المضمضة منذ لحظات وكأنّها تحوي في داخلها ملذّات شريرة حزينة قاتلة لأنّ أمّي تتذوّقها بعيداً عنّي، تنفتح أمامي وتزمع أن تفجّر وتقذف حتى فؤادي، كمثل ثمرة تحطّم غلافها بعدما حليت، بانتباه والدتي وهي تقرأ سطوري. فلم أعد مفصولاً عنها؛ لقد سقطت الحواجز وأخذ يجمعنا رباط لذيذ. وما كان ذلك كلّ شيء، فأمّي لا شكّ آتية!.

أمّا بشأن القلق الذي انتابني فقد كنت أظنّ أنّ «سوان» ربّما سخر منه كثيراً لو قرأ رسالتي وحزر الغاية منها. ولكن قلقاً مماثلاً ألّف على العكس، حسبما علمت فيها بعد، عذاب سنوات طويلة في حياته، وما من أحد ربّما استطاع أن يفهمني بالمقدار نفسه. وهذا القلق الناجم عن الإحساس بالكائن المحبوب في مكان مسرّات لنا فيه، ولا يمكن أن نلحق به فيه، قد كشفه له الحب، الحبّ الذي كان هذا القلق مقدّراً عليه والذي يستأثر به يختصّ به. إلّا أنه حينما يداخلنا قبلما يبرز الحبّ في حياتنا فإنّه يتأرجح بانتظاره، مبهماً طليقاً دون عمل محدّد، فاليوم في خدمة عاطفة وفي الغد في خدمة أخرى، وأحياناً في خدمة الحنان البنويّ أو صداقة أحد الرفاق. وأمّا الفرح الذي أفدت منه في أولى خطوات التعلّم فقد عرفه «سوان» كذلك تماماً، هذا الفرح الخدّاع الذي يهبنا إيّاه صديق أو قريب للمرأة التي نحبّها حينما نصل إلى الفندق أو المسرح الذي هي فيه لحفلة راقصة أو احتفال أو عرض أوّل جاء هذا الصديق ليلقاها فيها فيشاهدنا نهيم في الخارج وننتظر بفارغ الصبر فرصة للاتّصال بها. ويتعرّف بنا ويقترب منا على نحو أليف ويسأل عمّا نفعله هناك. وفيما نختلق أنّ لدينا أمراً ملحاً نقوله لقريبته أو صديقته يؤكّد لنا أنّه ما من أمر أوفر بساطة ويدخلنا إلى الردهة ويعد بإرسالها قبل مضي خمس دقائق. وكم نحبّه - مثلما أُحِبُّ «فرانسواز» في هذه اللحظة - ذلك الوسيط ذا النيّة الخالصة

الذي جعل بكلمة واحدة منه الحفلة التي يصعب تصوّرها، الحفلة الجهنميّة التي نظنّ أنّ سُحُباً من الأعداء الفاسقين المحبّبين تدفعها فيها بعيداً عنّا وتحمل تلك التي نحبّها على الضحك منّا، جعل هذه الحفلة أمراً محتملاً وإنسانياً ومؤاتياً تقريباً. ولئن انطلقنا في حكمنا من رأي هذا القريب الذي وقف إلى جانبنا وهو أحد المطّلعين على هذه الخفايا المريرة، فينبغي أن لا يكون المدعوون الآخرون إلى الحفلة على شيء كثير من الخلق الشيطاني. فها إنّنا ندخل عبر ثغرة غير متوقّعة في هذه الساعات البعيدة المنال الوافرة العذاب التي تمضي لتتذوّق فيها ملذّات مجهولة. وها إنّ واحدة من اللحظات التي يشكّل تواليها هذه الساعات، ها إن لحظة حقيقية كالأخريات، ولعلها أكثر أهمية في نظرنا لأنّ عشيقتنا معنيّة أكثر فيها، نتمثّلها ونمتلكها ونتدخّل فيها وقد ابتدعناها تقريباً؛ تلك اللحظة التي سينقلون فيها إليها أنّنا ههنا في الأسفل. وما كان للحظات الحفلة الأخرى أن تكون من ماهيّة مختلفة جدّاً عن تلك وليست تملك ما هو أكثر بهجة وما يحمل لنا في طيّاته عذاباً كبيراً، فقد قال لنا الصديق الطيّب: «ولكنّها ستغتبط بالنزول، وسوف يجلب لها التحدّث معكم سروراً أكبر من التضجر فوق». ولكن «سوان»، واأسفي، قد خبر الأمر، فمقاصد الغير الخيّرة لا سلطة لها على امرأة تغتاظ لإحساسها بأنَّ شخصاً لا تحبّه يلاحقها حتى أثناء الحفلات؛ وغالباً ما ينزل الصديق بمفرده.

ولم تأتِ أمّي وبعثت دون مراعاة لاعتزازي بنفسي (المرتبط بألا تُكذَّب خرافة البحث الذي يُفترض أنها رجتني أن أنقل إليها نتيجته) تقول لي هذه الكلمات بلسان «فرانسواز»: «ليس من جواب»، هذه الجملة التي غالباً ما سمعتها مذ ذاك ينقلها بوّابو «الدارات» أو الخدم في الأندية السرية إلى فتاة مسكينة تدهش قائلة: «كيف ذلك، لم يقل شيئاً؟ ذلك محال! مع أنّك سلّمت رسالتي. حسن، سوف أنتظر بعد». ومثلما تؤكّد على الدوام أنّها ليست بحاجة إلى مصباح الغاز الإضافي الذي يودّ البوّاب إشعاله من أجلها وتظلّ هناك لا تسمع سوى عبارات قليلة حول الطقس يتبادلها

البوّاب مع خادم يبعثه فجأة، بعد ما ينتبه للساعة، ليبرّد في الثلج مشروب أحد الزبائن، كذلك تركتُ «فرانسواز» تعود إلى عملها، بعدما رفضتُ عرضها في أن تعدّ لي مغليّاً أو أن تمكث إلى جانبي، ورقدت وأطبقت عينيّ أجهد ألا أسمع صوت أهلي وهم يتناولون القهوة في الحديقة. ولكنيّ أحسست بعد بضع ثوانٍ بأنّني حينما كتبت هذه الكلمة لوالدتي واقتربت منها، مع التعرّض لإغضابها، إلى حدّ أنّي ظننت أنّني فزت بلحظة لقياها، إنّما حجبت عن نفسي إمكانية النوم من دون أن أراها ثانية، وأخذت خفقات قلبي تزداد من دقيقة إلى أخرى إيلاماً لأنني كنت أضاعف من اضطرابي وأنا أعظ نفسي بالهدوء الذي يعني القبول بتعاستي. وفجأة زال قلقي وغمرتني سعادة مثلما يأخذ دواء قويّ بنشر مفعوله فيزيل عنا الألم: «لقد اتخذت قراراً يقضي بألّا أحاول النوم من بعد قبلما أرى أمّي ثانية وأقبّلها مهما تكلفت في ذلك وإن كنت على يقين بأنّي سأختصم بعد ذلك معها لفترة طويلة بعدما تصعد بدورها لتنام. وأدخلني الهدوء الناجم عن نهاية قلقي في غبطة غريبة بما لا يقلّ عن الانتظار والعطش والخوف من الخطر. ففتحت النافذة بدون ضجّة وجلست على حضيض سريري أكاد لا آتي بحركة كي لا يسمعني أحد في الأسفل. وكانت الأشياء في الخارج تبدو هي الأخرى وقد تسمّرت في صمت يسهر على ألا يعكّر ضياء القمر الذي يضاعف ويباعد كلّ شيء بمدّ ظلّه أمامه وهو أشدّ كثافة منه وأوفر وضوحاً والذي يرقّق ويضخّم في الآن نفسه المنظر وكأنّه سطح مطويّ يُنْشَر. كل ما به حاجة للحركة، كبعض ورق الكستناء، كان يتحرّك، ولكنّ رعشته الدقيقة الكليّة التي تتمّ بأقلّ فروقها وأدقّ دقائقها لا تفيض عمّا سواها ولا تذوب فيه وتظلّ محددة الدائرة. وتبرز على صفحة هذا السكون أكثر صنوف الضجيج بعداً فلا يمتصّ شيئاً منه، والضجيج هذا لا بدّ آتٍ من حدائق تقع في الطرف الآخر من المدينة وتدركه مفصّلاً إلى حدّ من الكمال يبدو معه وكأنّه مدين بميزة البعد هذه لضعفه الشديد كمثل هذه الألحان المهموسة التي تجيد أوركسترا المعهد الموسيقي عزفها حتى لتظنّ

أنّك تستمع إليها، مع أنّك لا تضيّع منها صوتاً واحداً، بعيداً عن مكان الحفلة الموسيقيّة وأن جميع المشتركين القدماء - ومنهم كذلك شقيقتا جدّتي حينما يقدّم لهما «سوان» محلّه - كانوا يصيخون السمع كما لو يسمعون في البعيد زحف جيش يسير ولم ينعطف بعد في شارع «تريفيز».

وكنت أعلم أنّ الحالة التي أضع نفسي فيها من أكثر ما يمكن أن يجرّ عليّ، من قبل والديّ، نتائج وخيمة جدّاً وأكثر بالحقيقة ممّا يمكن أن يفترضه الغريب ومن تلك التي كان يظنّ أن الزلات الشائنة حقّاً تستطيع وحدها أن تستجرّها. ولكن ترتيب الذنوب في التربية التي توفَّر لي ليس الترتيب نفسه القائم في تربية الأطفال الآخرين، وكانوا قد عوّدوني أن أضع في مقدّمتها جميعاً (ربّما لأنّه لم يكن هنالك ذنوب كنت بحاجة إلى أن أحترس منها بعناية أكبر) تلك التي أفهم الآن أن ما يميّزها عامّة أنّنا نقع فيها حينما ننساق خلف نزوة عصبيّة. على أنّهم ما كانوا يتلفّظون بهذه الكلمة آنذاك ولا يعلنون عن هذا المنشأ الذي كان من شأنه أن يحملني على الاعتقاد بأنني معذور إذ أقع فيها أو أنني ربّما عاجز عن مقاومة ذلك. بيد أنّني كنت أتعرّفها جيّداً من الضيق الذي يسبقها وكذلك من صرامة العقاب الذي يليها؛ وكنت أعلم أنّ الذنب الذي ارتكبته منذ قليل من أسرة ذنوب أخرى سبق أن أوقعت بي عقاباً صارماً، مع أنّها أشد جسامة إلى حدّ بعيد. فحينما سأمضي لأقف على درب أمّي لحظة تصعد طلباً للنوم وتتبيّن أنّني ظللت خارج سريري كي أتمنى لها للمرة الثانية ليلة سعيدة في الممرّ، لن يُسمح لي من بعد أن أظلّ في البيت، بل يرسلونني إلى المدرسة بالتأكيد. ولكنّي كنت أفضّل ذلك ولو اضطررت أن ألقي بنفسي من النافذة بعد خمس دقائق. وإنّما أبغي الآن أمّي وأن أتمنّى لها ليلة سعيدة وقد ذهبتُ بعيداً جدّاً في السبيل الذي يقودني إلى تحقيق هذه الرغبة حتى أستطيع أن أعود أدراجي.

وسمعت خطى ذويّ وهم يرافقون «سوان»؛ ولما نبّهني جرس الباب إلى أنّه مضى ذهبت إلى النافذة. وكانت والدتي تسأل والدي هل وجد

جراد البحر طيّباً وإن كان «سوان» قد عاد فأخذ شيئاً من البوظة بالقهوة والفستق، وأضافت أمّي: «لقد وجدتها عاديّة جدّاً وأعتقد أنّه يجدر البحث في المرّة المقبلة عن عطر آخر». وقالت شقيقة جدّي: «لا أستطيع أن أقول إلى أيّ حدّ أرى أن «سوان» يتغيّر، فكم يبدو عجوزاً!» وكانت شقيقة جَدّي قد تعوّدت ألا ترى على الدوام في «سوان» سوى الفتى نفسه إلى حدّ أنها كانت تدهش أن تلقاه فجأة أقلّ شباباً من السنّ التي تضعه فيها باستمرار. كذلك بدأ أهلي يلقون لديه شيخوخة العازبين، شيخوخة غير طبيعيّة مفرطة مخزية مستحقّة، شيخوخة جميع الذين يبدو أنّ اليوم العظيم الذي لا غد له أطول بالنسبة إليهم منه إلى الآخرين لأنّه فارغ في نظرهم ولأنّ اللحظات تتراكم فيه منذ الصباح دون أن تقسّم فيما بعد بين الأولاد. «أظنّ همومه كثيرة مع زوجته الملعونة التي تعيش على علم من جميع سكّان «كومبريه» مع سيّد يدعى «شارلوس». إنّه أضحوكة المدينة». ولاحظت والدتي أنّه يبدو مع ذلك أقلّ كآبة منذ بعض الوقت. «وهو كذلك يقلّل من الإتيان بهذه الحركة التي أخذها تماماً عن والده في مسح عينيه ووضع يده على جبينه. وإني أعتقد أنّه في الأساس لم يعد يحبّ هذه المرأة». وأجاب جدّي: «إنّه بالطبع لم يعد يحبّها، فقد وصلتني منذ زمن طويل رسالة منه بهذا الشأن سارعت إلى عدم الأخذ بمضمونها ولكنّها لا تدع أي مجال للشكّ في مشاعره إزاء امرأته في ما يتعلّق بالحبّ على الأقلّ». وأضاف جدّي وهو يتوجّه بالحديث إلى شقيقتي زوجته: «ها أنتما تريان أنّكما لم تشكراه بشأن خمرة «الآستي». ولكن خالتي «فلورا» أجابت قائلة: «كيف ذلك، أو لم نشكره؟ أظنّ، وأقولها بيننا، أنّني وجدت لذلك صيغة لطيفة». وقالت خالتي «سيلين»: «أجل، لقد صغت ذلك أحسن صياغة فأثرتِ إعجابي. - ولكنّك بدورك تصرّفتِ على ما يرام. - أجل، لقد كنتُ فخورة من جملتي حول الجيران اللطاف». وصاح جدّي قائلاً: «كيف ذلك، أهذا ما تدعوانه شكر الناس! لقد سمعت تماماً ما قلتما. ولكن ليأخذني الشيطان إن ظننت الأمر موجّهاً إلى «سوان». تأكّدا أنّه لم

يفهم شيئاً البتة. - «ولكنّ «سوان» ليس غبياً وإني واثقة من حسن تقديره. على أني ما كنت أستطيع أن أقول له عدد الزجاجات وثمن الخمرة!» وظل أبي وأميّ وحدهما وجلسا لحظة ثم قال والدي: «حسن، إذا شئت صعدنا للنوم. - إذا شئت، يا صديقي، رغم أني لا أشعر بذرّة نعاس، على أنه لا يمكن لهذه البوظة بالقهوة الهيّنة التأثير أن تمسك بي عن النوم إلى هذا الحدّ. ولكنّي أبصر نوراً في غرفة الخدم، وبما أن «فرانسواز» المسكينة قد انتظرتني فسأطلب إليها أن تحلّ صداري بينما تخلع ثيابك». وفتحت أمّي باب الردهة المشبّك الذي يفضي إلى الدرج. وسمعتها بعد قليل تصعد لتغلق نافذتها. فذهبت دونما ضجّة إلى الممرّ خافق الفؤاد حتى ليصعب عليّ أن أتقدم، ولكنّه لا يخفق من قلق بل من ذعر وابتهاج. وأبصرت في موضع الدرج الضوء الذي تلقيه شمعة والدتي، ثم رأيتُها هي فاندفعتُ. وفي الثانية الأولى نظرت إليّ بدهشة لا تفهم ما حدث. ثم علا وجهها الغضب وهي لا تفوه حتى بكلمة واحدة؛ وكانوا بالفعل يمتنعون عن مكالمتي عدة أيام لأقلّ من ذلك بكثير. ولو قالت لي أمي كلمة واحدة لكان ذلك يعني التسليم بإمكانية التحدّث إليّ من جديد. وربّما بدا لي الأمر على أية حال أكثر هولاً وكأنه إشارة إلى أنّ الصمت والخلاف صبيانيّان إزاء خطورة العقاب الذي يعدّ لي. والكلمة ربّما عنت الهدوء الذي نردّ به على خادم بعدما نقرّر طرده، والقبلة التي تطبع على خدّ ابن نرسله للتطوّع في حين نرفضها إن ارتضينا مخاصمته على مدى يومين. ولكنها سمعت والدي يصعد من حجرة الملابس حيث ذهب ليخلع ثيابه؛ فقالت لي بصوت يقطّعه الغضب، بغية تجنّب ما سيصيبني من ثورة والدي: «انجُ بنفسك، انجُ بنفسك فلا يرينّك والدك على الأقلّ وأنت تنظر هكذا كالمجنون!» ولكني كنت أردّد: «تعالي وتمنّي لي ليلة سعيدة» وقد تملّكني الذعر وأنا أبصر وهج شمعة والدي يرتفع على الجدار، ولكنّي أستخدم اقترابه وسيلة تهديد وآمل أن تبادر أمّي إلى القول، لئلّا يلقاني والدي بعد هناك إن هي تابعت الرفض: «عد إلى غرفتك فأنا آتية». لقد

فات الأوان، فهذا والدي أمامنا. ودونما قصد همست بهذه الكلمات التي لم يسمعها أحد: «لقد هلكت!».

ولم تجرِ الأمور على هذا النحو. كان والدي يرفض باستمرار أذوناً وافقت لي عليها أمي وجدّتي في المواثيق الأوفر سخاء التي تنعمان بها عليّ وذلك لأنّه لا يهتّم للمبادئ ولا يقيم وزناً «لحقوق الناس». فكان يحرمني في اللحظة الأخيرة، لسبب طارئ أو لغير ما سبب، نزهة مألوفة راسخة القواعد حتى لا يمكن حرماني منها من غير ما حنث، أو كان يقول لي قبل الساعة المحدّدة بكثير مثلما فعل هذا المساء أيضاً: «هيّا اصعد إلى النوم وبدون تعليق!» ولمّا لم تكن له مبادئ (بمفهوم جدّتي) فلم يكن بحصر المعنى متصلّباً. فنظر إليّ مقدار لحظة بدهشة وغضب، وبعدما شرحت له أمّي ببضع كلمات يشوبها الاضطراب ما حدث قال لها: «هيا اذهبي معه، وبما أنّك قلت بحقّ إنّك لا رغبة لك في النوم فامكثي قليلاً في غرفته؛ أما أنا فلا حاجة لي بشيء». وأجابت أمّي بتهيّب: «ولكن يا صديقي ليس يغيّر في الأمر أن أكون راغبة أو غير راغبة في النوم لا يمكن تعويد هذا الطفل...» وقال والدي وهو يرتفع بمنكبيه: «ليس الأمر أمر تعويد، فأنت ترين أن هذا الصغير في غم؛ ويبدو هذا الطفل بالغ الأسى. هلمّي، فلسنا جلّادين! وحينما تجلبين له السّقم تكونين قد كسبت الكثير! قولي لِـ«فرانسواز» بما أنّ هنالك سريرين في غرفته أن تعدّ لك السرير الكثير واقضي هذه الليلة إلى جانبه. أمّا أنا فلست في مثل عصبيّتك وإني ذاهب لأنام: طابت ليلتك!».

ولم يكن بالمقدور شكر والدي فربّما جلبنا له الإزعاج من جرّاء ما كان يدعوه بمظاهر الرقّة الكاذبة. وظللت لا أجرؤ على القيام بحركة، فقد كان لا يزال أمامنا، طويل القامة في ثوب نومه الأبيض يعلوه الكاشمير الهندي البنفسجي الوردي الذي كان يلفّ به رأسه منذ أن أصيب بآلامه العصبيّة، وله حركة إبراهيم، في صورة من أعمال «بينوتزو غوزّولي Benozzo Gozzoli» أعطاني إيّاها السيّد «سوان»، يشير بها إلى «ساره» أنّه

يقع عليها التخلّي عن إسحاق. لقد مضت سنوات على ذلك، وجدار الدرج الذي رأيت وهج الشمعة يرتفع عليه زال منذ مدّة طويلة، وانهارت في داخلي كذلك أشياء كثيرة ظننت أنّه كان يجب أن تبقى على الدوام وارتفعت أخرى جديدة ولّدت أحزاناً ومسرّات جديدة ما كنت حينذاك لأتوقّعها مثلما أضحت القديمة عسيرة الإدراك لديّ. وقد انقضى كذلك زمن طويل منذ لم يعد والدي قادراً أن يقول لأميّ: «اذهبي مع الصغير». إن احتمال مثل هذه الساعات لن يعود البتّة في ما يخصّني. ولكني أخذت منذ زمن قليل أسمع، إمّا أصخت السمع، الزفرات التي توافرت لي القوّة على احتباسها أمام والدي ثم انفجرت حينما لقيتني وحيداً مع أمّي. ولكنّها في الحقيقة لم تتوقّف في يوم؛ وإنّما أعود فأسمعها من جديد لأنّ الحياة تصمت الآن من حولي أكثر من ذي قبل، شأن أجراس الأديا التي يغطّيها ضجيج المدينة أثناء النهار حتى تظنّها توقّفت ولكنها تعود فتدقّ في سكون المساء.

أمضت أمّي ليلتها تلك في غرفتي، وفي حين أقدمتُ على ارتكاب ذنب توقّعت أن اضطرّ من جرّائه إلى مغادرة المنزل منحني والداي أكثر مما كنت أنال منهما في يوم من مكافأة لقاء فعلة طيّبة. على أن سلوك والدي تجاهي حتى ساعة يتجلّى بهذه المنّة إنما كان يحتفظ بهذا الشيء الاعتباطي وغير المستَحَقّ الذي يميّزه والذي مردّه أنّه كان ينجم بالأحرى عن لياقات مفاجئة أكثر منه عن تصميم مسبق. وربّما استحقّ ما كنت أسمّيه قسوته حينما يرسلني إلى النوم، ربّما استحق هذه التسمية أقلّ من قسوة أمّي أو جدّتي لأن طبيعته، وهي في بعض النقاط أكثر اختلافاً عن طبيعتي ممّا كانت طبيعتهما، لم تستشفّ على الأرجح حتى ذاك إلى أي مدى كنت تعساً في كلّ مساء، الأمر الذي كانت أمّي وجدّتي تعرفانه حقّ المعرفة، ولكنّهما تحبّانني إلى حدّ لا تقبلان معه تجنيبي العذاب بل تبغيان تعليمي كيف أسيطر عليه كيما أقلّل من حساسيّتي العصبيّة وأقوّي إرادتي. أمّا والدي الذي كان حبّه لي من نوع آخر فلست أدري إن كانت تتوافر له

هذه الشجاعة. ولما اتّفق له لمرّة واحدة أن يدرك مقدار غمّي قال لوالدتي: «هيّا اذهبي وفرّجي عنه». وظلّت أمّي في غرفتي في تلك الليلة وأجابت، كأنّها لا تريد أن تفسد هذه الساعات المغايرة جداً لما كان لي الحقّ في توقّعه، أن تفسدها من جرّاء أي تأنيب للضمير، حينما سألتها «فرانسواز» وقد أدركت أنّ أمراً خارقاً قد حدث إذ رأت أمّي تجلس إلى جانبي وقد أمسكت بيدي وتركتني أبكي دون أن تؤنّبني: «ولكن ما الذي دهى السيّد حتى يبكي هكذا يا سيّدتي؟» أجابتها: «هو لا يدري عن ذلك، يا «فرانسواز»، إنّه متوتّر الأعصاب؛ أعدّي لي السرير الكبير بسرعة ثمّ اصعدي ونامي». وهكذا لم يعد يُنظر إلى غمّي للمرّة الأولى على أنّه ذنب يُعاقب عليه بل على أنّه داء خارج عن الإرادة تمّ الاعتراف به رسمياً بمثابة حالة عصبيّة ما كنت مسؤولاً عنها وفرّج عنّي أنّه لم يعد ينبغي لي أن أمزج الوساوس بمرارة دموعي وأضحى بمقدوري أن أبكي دون إثم. ولم أكن كذلك قليل الاعتزاز إزاء «فرانسواز» من جرّاء عودة الأمور الإنسانية هذه التي كانت ترتفع بي، بعد ساعة من رفض والدتي الصعود إلى غرفتي والاستخفاف الذي بعثت تجيبني به بوجوب النوم، إلى مستوى كرامة الشخص الكبير والتي أوصلتني فجأة إلى نوع من البلوغ في الغمّ ومن تحرير الدموع. وكان ينبغي أن أكون سعيداً وما كنته. فقد بدا لي أن والدتي قدّمت لي تنازلاً أوليّاً انبغى أن يكون أليماً بالنسبة إليها وأن ذلك كان أول استسلام لها تجاه المثل الأعلى الذي تصوّرته لي وأنّها تقرّ للمرّة الأولى، هي البالغة الشجاعة، بهزيمتها. وبدا لي أنّني إن حققّت نصراً فإنّما فعلت ضدّها وأنّني أفلحت، كما كان يمكن للمرض أو الأحزان أو السنّ أن تفعل، في ثني إرادتها وخذل عقلها وأنّ هذه الأمسية بداية عهد وسوف تظلّ بمثابة تاريخ حزين. ولو تجرأت الآن لقلت لأمّي: «لا، لست أريد، لا تنامي ههنا». ولكني كنت أعرف الحكمة العملية أو الواقعية كما يدعونها اليوم التي تخفّف لديها طبيعة جدّتي المثالية الملتهبة. وكنت أعلم أنها تفضّل، بعدما وقع الشر الآن، أن تدع لي على الأقلّ أن

أتذوّق لذّته المهدّئة وألا تزعج والدي. أجل، كان وجه والدتي الجميل يتألّق بعد شباباً في ذلك المساء الذي تمسك فيه يديّ برقّة كبيرة وتحاول وضع حدّ لدموعي، على أنّه كان يبدو لي بالضبط أنّه ما كان لذلك الأمر أن يتمّ وأنّ غضبها ربّما كان أقلّ بعثاً على الحزن بالنسبة إليّ من هذا اللين الجديد الذي لم تعرفه طفولتي؛ وكان يبدو لي أنني أقدمت بيد كافرة خفيّة على رسم أوّل تجعيدة على صفحة نفسها وعلى إبراز أوّل شعرة بيضاء. وضاعفت هذه الفكرة من نحيبي ورأيت أمي حينذاك، وما كانت تسمح لنفسها البتّة بأي تأثّر معي، يكتسحها فجأة ما بي من تأثّر وتحاول احتباس رغبة في البكاء. ولما شعرتْ أنّي لاحظت الأمر قالت لي ضاحكة: «ها إن عصفوري الأصفر الصغير يجعل والدته في مثل سخفه إذا ما استمرّت الحالة أقلّ ما تستمّر. وبما أنّك لا تشعر بالنعاس ولا تشعر والدتك به كذلك فلا نمكثن في إثارة أعصابنا ولنفعل شيئاً؛ لنأخذ أحد كتبك». ولم يكن شيء منها في الغرفة. «وهل تتناقص بهجتك إن أخرجت منذ الآن الكتب التي ستقدّمها لك جدّتك في عيدك؟ فكّر جيّداً: ألن يخيب أملك لأنّك لن تحصل على شيء بعد غدٍ؟» ولكنّي كنت شديد الاغتباط وذهبت أمي لتحضر رزمة من الكتب لم أستطع أن أحزر من خلال الورق الذي لُفت به سوى مقاسها القصير العريض ولكنّها حجبت في مظهرها الأول هذا، مع أنه بسيط وغامض، علبة تلوين رأس السنة ودود قزّ السنة الماضية. كانت تحمل العناوين التالية: «**بِرْكَةُ الشيطان**» و«**فرانسوا لو شامبي**» و«**فاديت الصغيرة**» و«**قارعو الأجراس**». وعلمت بعد ذلك أن جدّتي كانت قد انتقت لي أوّل الأمر قصائد «موسّيه» وكتاباً لـ«روسّو» و«**إنديانا**»؛ ذلك أنّها إن كانت تعتبر القرارات التافهة ضارّة ضرر السكاكر والحلوى، فما كانت تظنّ أن لنفثات النبوغ تأثيراً على عقل طفل أكثر خطورة وأقلّ إنعاشاً من الهواء الطلق ونسيم البحر على جسده. ولكنّها عادت بعدما نَعَتَها والدي بالجنون تقريباً حينما عرف الكتب التي كانت تبغي تقديمها لي، عادت بنفسها إلى صاحب مكتبة «جوي - لو - كونت»

كي لا أكون عرضة لفقد هديّتي (وكان اليوم حارّاً وقد عادت تعاني الآلام حتى إنّ الطبيب حذّر والدتي من أن تسمح لها بإرهاق نفسها إلى هذا الحدّ) وقرّ قرارها على روايات «جورج صاند» الريفيّة الأربع. وكانت تقول لوالدتي «لا أستطيع يا ابنتي أن أسمح لنفسي بتزويد هذا الطفل بشيء رديء الأسلوب».

لقد كانت لا تقبل في الواقع البتّة أن تبتاع شيئاً لا يمكن أن تجني منه فائدة فكريّة ولا سيما تلك التي تزوّدنا بها الأشياء الفنيّة إذ تعلّمنا كيف نبحث عن مسرّاتنا بعيداً عن مواطن إشباع رفاهنا وغرورنا. وحتى حينما كانت تضطرّ أن تهدي أحداً هديّة ذات نفع، كما يقولون، حينما تزمع أن تقدّم مقعداً أو لوازم مائدة أو عكّازاً كانت تجيء بها «قديمة» كما لو بدت أكثر استعداداً، وقد أزال قدم عهدها المغرق طابع الفائدة فيها، لأن تروي لنا عن حياة أقوام الأمس منها لتخدم حاجات حياتنا. وكانت تفضّل أن أقتني في غرفتي صوراً عن أكثر الآثار أو المناظر جمالاً. ولكنّها كانت تجد، لحظة الشراء ومع أنّ الشيء الممثّل يتمتّع بقيمة جماليّة، أنّ الميزة العادية والنفعيّة سرعان ما تعود إلى احتلال مكانها في صيغة نقله الآليّة، أي التصوير الشمسيّ. فتحاول أن تحتال فإن لم تُزِلِ التفاهة التجاريّة إزالة تامّة فأن تقلّصها على الأقلّ وتحلّ محلّها في أكثر أجزائها مزيداً من الفنّ وتدخل فيها كأنما عدّة «كثافات» فنيّة: فعوضاً عن الصور الشمسيّة لكاتدرائية «شارتر» ونوافير «سان كلو» وبركان «فيزوفيو» كانت تستعلم «سوان» إن لم يكن أحد كبار الرسّامين قد رسمها، وتفضّل إعطائي صوراً شمسيّة لكاتدرائية «شارتر» من أعمال «كورو Corot» ولنوافير «سان كلو» من أعمال «هوبير روبير Hubert Robert» ولبركان «فيزوفيو» من أعمال «تورنر Turner»، الأمر الذي كان يعني درجة إضافية من الفنّ. ولئن كان المصور قد أُقصي عن تمثيل الروائع الفنيّة أو الطبيعية وحلّ محلّه الرسّام الكبير فقد كان يستعيد حقوقه في استنساخ هذه الرؤية نفسها. وكانت جدّتي تحاول حينما تبلغ مرحلة الطابع العاميّ أن ترجئ هذا الطابع،

فتسأل «سوان» إن لم يكن هذا العمل الفنّي قد تمّ حفره وتفضّل، حينما أمكن، ذلك الحفر القديم الذي لا يزال يحتفظ بأهميّةٍ تجاوزُ حدوده ذاتها، كالرواشم التي تمثّل رائعة فنيّة في حالة لم يعد بمقدورنا رؤيتها اليوم (كمثل حفر للعشاء السرّي من أعمال «ليوناردو» قبل تردّي ألوانها للفنان «مورغن Morghen»). على أنّه يجدر القول بأن نتائج هذه الطريقة في فهم فنّ تقديم الهديّة لم تكن دوماً باهرة جدّاً. فالفكرة التي أخذتها عن البندقية بحسب رسم للفنّان «تيتزيانو» يُفترض أن البحيرة تألف خلفيّة له كانت بالتأكيد أقلّ صحّة بكثير من تلك التي ربّما وفّرتها لي صورة شمسيّة بسيطة. ولم يعد بالمستطاع في البيت تعداد المقاعد التي قدّمتها جدّتي لخطّاب شباب أو لأزواج مسنّين فانهارت لتوّها لدى أول محاولة قاموا بها لاستخدامها بفعل ثقل أحد المهدى إليهم، وذلك حينما تودّ شقيقة جدّي توجيه الاتهام لجدتي. ولعلّ جدّتي كانت رأت من الخسَّة الاهتمام البالغ بمتانة خشب لا نزال نتبيّن فيه زهيرة أو ابتسامة وأحياناً صورة جميلة من الماضي. وكان حتى ما يستجيب في هذا الأثاث لحاجة، بما أنّه أعدّ بطريقة لم نعد نألفها، كان يفتنها شأن أساليب الكلام القديمة التي نبصر فيها مجازاً حجبه في لغتنا الحديثة التآكل الذي تورثه العادة. وهكذا كانت روايات «جورج صاند» الريفية التي تقدّمها لي في عيدي مليئة شأن أثاث قديم بعبارات تقادم عهدها وأضحت تعجّ بالصور ولا نجد بعد ما يشبهها سوى في الريف. وقد ابتاعتها جدّتي وفضّلتها على سواها مثلما كان طاب لها أكثر أن تستأجر بيتاً فيه برج حمام قوطّي أو بعض هذه الأشياء القديمة التي تمارس تأثيراً خيّراً على الفكر فتبعث فيه حنيناً إلى رحلات مستحيلة في الزمان.

وجلست والدتي بالقرب من سريري بعدما أخذت رواية «**فرانسوا لو شامبي**» التي كان يُكسبها عليها غلافها الضارب إلى الحمرة وعنوانها اللامدرك شخصيّة مميّزة في نظري وجاذباً خفياً. لم أكن حتى ذاك قد قرأت روايات حقيقية، وكنت سمعت من يقول إن «جورج صاند» مثال

الروائي، فكنت مهيّأً من جرّاء ذلك لأتخيّل في رواية «**فرانسوا لو شامبي**» شيئاً لذيذاً يصعب تحديده. وكانت أساليب القصّة المعدّة لإثارة الفضول أو العاطفة وبعض طرائق القول التي تثير القلق والسوداوية والتي يرى القارئ المثقّف بعض الشيء أنها واحدة في كثير من الروايات، كانت تبدو لي بكل بساطة - أنا الذي كان يعتبر الكتاب الجديد لا على أنه شيء له الكثير مما يشبهه، بل على أنّه شخص مفرد لا سبب لوجوده إلّا في ذاته - فيضاً مقلقاً من الماهيّة الخاصّة بـ«فرانسوا شامبي». فمن وراء هذه الأحداث اليومية جدّاً وهذه الأشياء العاديّة جدّاً، وهذه اللفظات الشائعة جدّاً كنت أحسّ بما يشبه اللهجة والنبرة الغريبتين. وبدأت الوقائع فبدت لي مبهمة بقدر ما كنت في ذلك الزمان أحلم أثناء القراءة بأمر آخر على مدى صفحات كاملة. وينضاف إلى الثغرات التي كان يخلّفها هذا السهو في سباق القصّة أنّ والدتي كانت تتجاوز جميع مشاهد الحبّ حينما تقرأ بنفسها لي بصوت عالٍ. وكانت جميع التغيّرات الغريبة الحاصلة في موقف كل من زوجة الطحّان والصبيّ والتي لا تلقى تفسيرها إلّا في تطوّرات الحبّ الوليد، كانت تبدو لي مطبوعة بسّر عميق أتوهّم أنّه لا بدّ نابع من هذا الاسم المجهول والعذب جدّاً، اسم «شامبي» الذي يُكسب الصبيّ الذي يحمله، ودون أن أعلم السبب، ألوانه الزاهية الأرجوانيّة الساحرة. ولئن كانت والدتي قارئة غير أمينة، فلقد كانت كذلك، في ما يخصّ الكتب التي تصادف فيها لهجة عاطفة صادقة، قارئة رائعة في المحافظة على الأداء وبساطته وفي جمال الصوت وعذوبته. وحتى في الحياة حينما كان يثير تأثّرها أو إعجابها كائنات حيّة لا أعمال فنيّة، كان من المؤثّر أن ترى بأي احترام تقصي عن صوتها وحركتها وأقوالها رنّةَ الفرح التي يمكن أن تعذّب هذه الأم التي فقدت بالأمس ولدها، والإشارة إلى عيد أو ذكرى يمكن أن تذكّر هذا الشيخ بسنّه المتقدّمة، والحديث عن المنزل الذي ربّما بدا مملاً لهذا العالم الشابّ. كذلك كانت حينما تقرأ نثر «جورج صاند» الذي ينضح دوماً من هذه الطيبة وهذه الأناقة الأدبيّة اللتين تعلّمت والدتي

من جدّتي كيف تضعهما فوق كل شيء في الحياة واللتين لم أعلّمها إلا فيما بعد وجوب ألا تضعهما فوق كل شيء في الكتب أيضاً، كانت تأتي، وهي تسهر على أن تقصي عن صوتها كلّ صغارة، كلّ تكلّف يمكن أن يحول دون مرور هذه الدفقة القوية فيه، بكل الحنان الطبيعي وكل العذوبة الواسعة اللتين تتطلّبانها لهذه الجمل التي تبدو وكأنّها سطّرت لصوتها وتنحصر بكليّتها إن جاز القول بين دفّتي إحساسها، وكانت تلقى كيما تباشرها باللهجة اللازمة النبرة القلبيّة التي وجدت قبلها وأملتها ولكنّ الكلمات لا تشير إليها. فبفضلها كانت تخفّف كلّ فجاجة في أزمنة الأفعال، فتضفي على الماضي الناقص والماضي المحدّد العذوبة القائمة في الطيبة والحزن القائم في الحنان وتقود الجملة التي تنتهي باتّجاه تلك التي ستبدأ، تضاعف طوراً وتخفّف تارة من سير المقاطع كيما تدخلها، مع أن كمياتها متغايرة، في إيقاع متساوٍ، وتنفخ في هذا النثر العادي جدّاً نوعاً من الحياة العاطفية المستمرّة.

وهدأت وخزات ضميري واستسلمت لعذوبة هذه الليلة التي كانت فيها أمّي بالقرب مني. كنت أعلم أن مثل هذه الليلة لن تتجدّد وأن أعظم أمنية لي في الدنيا، وهي الاحتفاظ بوالدتي في غرفتي أثناء هذه الساعات الليلية الحزينة، كانت في تعارض كبير مع ضرورات الحياة وأمنية الجميع حتى يمكن للإنجاز الذي توافر لها هذا المساء أن يكون غير أمر مصطنع وشاذّ. ففي الغد يعود القلق ولا تمكث أمي هنا. ولكني ما كنت أفهم قلقي من بعدما يهدأ، ثم إنّ مساء الغد ما زال بعيداً، فكنت أقول في نفسي إن الوقت يتسع لي للنظر في الأمر، مع أن ذلك الوقت لا يستطيع أن يأتيني بأية سلطة إضافية بما أن الأمر يتعلق بأشياء لا تخضع لإرادتي وأنّ المسافة التي لا تزال تفصلها عنّي كانت وحدها التي تظهرها أيسر تفادياً.

وهكذا ظللت فترة طويلة لا أرى من «كومبريه» حينما أتذكّرها وأنا يقظان في الليل سوى ضرب من الجانب المضيء مقتطع وسط ظلمات غير

مميّزة وشبيه بالجوانب التي تنيرها وتقطّعها أضواء ملوّنة أو رشق كهربائي على صفحة إحدى البنايات وتظلّ أجزاؤها الأخرى غارقة في العتمة: ففي القاعدة العريضة بعض الشيء الصالة الصغيرة وغرفة الطعام وأوّل الممرّ المظلم الذي ربّما وصل منه السيّد «سوان» مسبّب أحزاني اللاواعي، ثمّ الردهة التي تقودني إلى أوّل درجة من السلّم، وما أقسى صعوده، والتي تؤلّف وحدها جذع هذا الهرم الضيّق اللامنتظم، وفي القمّة غرفة نومي مع الممرّ الصغير الذي بهبه من الزجاج ومنه تجيء أمّي، إنّه باختصار القول الإطار الذي أراه دوماً في الساعة نفسها معزولاً عن كلّ ما يمكن أن يحيط به ينفصل وحده عن الظلمة، الإطار الضروري حصراً لمأساة خلع ثيابي (كمثل ذلك الذي نراه محدّداً في مستهلّ الروايات القديمة بشأن العروض في الريف)، كما لو لم تتألف «كومبريه» إلّا من طابقين يصل بينهما درج ضيّق وكما لو لم تشر فيها الساعة إلّا إلى السابعة مساء. على أني كنت أستطيع، والحق يقال، إجابة سائلي بأنّ «كومبريه» تحوي أموراً أخرى وأنّها موجودة في ساعات أخرى. ولكنّني لن تداخلني الرغبة في يوم في تذكّر ما تبقّى من «كومبريه» لأنّ ما يمكن أن أتذكره منها إنّما تزوّدني به حصراً الذاكرة الإراديّة، ذاكرة العقل ولأن المعلومات التي تتوافر لي عن الماضي لا تحتفظ بشيء منه. لقد مات كل ذلك بالحقيقة بالنسبة إليّ.

فهل مات إلى الأبد؟ ربّما كان ذلك.

هنالك الكثير من الصدفة في كل هذه الأمور تنضاف إليها صدفة ثانية، صدفة موتنا التي لا تمكّننا في الغالب أن ننتظر منّة الأولى طويلاً.

وإني أجد معتقد «السلتيين» معقولاً جدّاً وقوامه أنّ نفوس الذين فقدناهم سجينة في كائن أدنى، في حيوان أو نبات أو جماد، وتظلّ مفقودة بالنسبة إلينا حتى اليوم، ولا يحلّ البتّة بالنسبة إلى الكثير منها، الذي نلفي ذواتنا نمرّ قرب الشجرة ونمتلك الشيء الذي يؤلف سجنها. فترتعش إذ ذاك وتنادينا وما إن نتعرّف إليها حتى يزول السحر. فحينما ننقذها تنتصر على الموت وتعود لتعيش ما بيننا.

والأمر واحد في ما يخصّ ماضينا، فعبثاً كنّا نحاول استذكاره لأنّ جهود عقلنا برمتها غير ذات جدوى. ذلك أنّه يختفي خارج مجاله ومداه، في غرض ما ماديّ (في الإحساس الذي يخلفّه فينا هذا الغرض الماديّ) لا نرتاب فيه. ويعود للصدفة أن نلاقي هذا الغرض قبل الممات أو لا نلاقيه.

لقد انقضت سنوات كثيرة منذ أن أصبح كل ما لم يكن في «كومبريه» مسرح نومي ومأساته غير موجود بالنسبة إلي حينما عرضت عليّ والدتي ذات يوم شتاء وقد رأت لدى عودتي إلى المنزل أني أصبت بالبرد أن تسقيني على عكس عادتي قليلاً من الشاي. ورفضت بادئ الأمر، إلّا أني عدت فغيّرت رأيي ولست أدري السبب. وأرسلت تطلب واحدة من هذه الحلوى الصغيرة المنفّخة المسمّاة بقطع «المادلين» الصغيرة والتي تبدو وكأنّها تقولبت في مصراعي صدفة محزّزة. ورفعت إلى شفتي بعد قليل على نحو آليّ، وقد أرهقني النهار الكئيب وارتقاب الغد الحزين، ملعقة من الشاي الذي تركت قطعة من الحلوى الصغيرة تلين فيه. ولكني ارتعشت في اللحظة نفسها التي لامست فيها الجرعة الممزوجة بفتات الحلوى حلقي وأنا متنبّه لما كان يجري فيَّ من أمر خارق. لقد اجتاحتني لذة حلوة مفردة مجرّدة عن فكرة سببها. وجعلت تقلّبات الحياة في الحال غير ذات بال وكوارثها عديمة الأذى وقصرها وهمياً وملأني مثلما يفعل الحبّ بجوهر ثمين: والأحرى أن هذا الجوهر لم يكن فيّ بل كان أنا نفسي. فلم أعد أشعر بأنّي شيء هيّن وعارض وفانٍ. فمن أين استطاعت هذه الفرحة العارمة أن تأتيني؟ لقد أحسست أنّها مرتبطة بطعم الشاي والحلوى ولكنّها تجاوزته إلى ما لا حدود وينبغي ألا تكون من طبيعة واحدة. فمن أين جاءت؟ وأي شيء تعني؟ وأين أمسك بها؟ وأتناول جرعة ثانية لا أجد فيها أكثر مما وجدت في الأولى، فثالثة تجيئني بأقلّ من الثانية. لقد آن أن أتوقّف، فقوّة الشراب تتناقص فيما يبدو. وواضح أنّ الحقيقة التي أبحث عنها ليست فيه بل فيّ. لقد أيقظها فيّ ولكنّه لا

يعرفها ولا يمكن إلّا أن يكرّر إلى ما لا حدود وبقوّة تتناقص أكثر فأكثر هذا الدليل نفسه الذي لا أدري كيف أفسّره والذي أودّ لو أستطيع على الأقلّ أن أطلبه ثانية فألقاه على حاله ورهن إشارتي لإيضاح حاسم أطلبه عمّا قليل. وأضع الفنجان وأتّجه إلى فكري، فعليه أن يجد الحقيقة. ولكن كيف؟ تلك حيرة خطيرة كلّما أحسّ الفكر أنّه يجاوز ذاته، وحينما يكون في الآن نفسه المنطقة المبهمة التي ينبغي أن يبحث فيها وحيث لا يجديه كل ما به من متاع فتيلاً. لا أن يبحث فقط بل أن يبدع؛ فهو قبالة أمر لم يتحقّق بعد ويستطيع وحده تحقيقه ثم إدخاله في دائرة نوره.

وأعود فأسائل نفسي عما يمكن أن تكون هذه الحالة المجهولة التي لا توفّر أيّ برهان منطقي بل البداهة فحسب عن بهجتها وحقيقتها التي تتلاشى أمامها كلّ الأخريات. أريد أن أحاول إظهارها من جديد، وأعود أدراجي بالفكر إلى اللحظة التي تناولت فيها ملعقة الشاي الأولى، فألقى الحالة نفسها دونما وضوح جديد. وأطالب فكري بجهد إضافي كيما يعيد مرّة أخرى الإحساس الهارب. وأبعد كلّ عقبة وكل فكرة غريبة وأنجو بأذنيّ وانتباهي عن ضجيج الغرفة المجاورة كي لا يحطم شيء الاندفاعة أيضاً سيحاول بها استعادتها ثانية. ولكنّي أحسّ أنّ فكري يتعب ولا يفلح فأضطره على العكس أن ينعم بالتلهّي الذي كنت أضنّ به عليه وأن يفكّر في أمر آخر وأن يستعيد قواه قبل محاولة نهائية. ثم أخلي الساحة من حوله مرة ثانية وأضع إزاءه طعم هذه الجرعة الأولى التي لا تزال قريبة وأحس بشيء يرتعش في داخلي وينتقل ويود لو يرتفع، أحسّ بشيء كأنما فكّ عقاله في العمق البعيد؛ إنني لا أدري ما هو ولكنّه يصعد ببطء وأشعر بمقاومة المسافات المقطوعة وأسمع ضجيجها.

أجل، إن ما يخفق في داخلي على هذا النحو ينبغي أن يكون الصورة والذكرى البصريّة التي ترتبط بهذا الطعم وتحاول اللحاق به حتى تصل إليّ. ولكنّها تتململ في البعيد البعيد وعلى نحو شديد الإبهام، وأكاد لا أتبيّن الوهج المحايد الذي تختلط فيه عاصفة الألوان المثارة اللامدركة.

ولكني لا أستطيع أن أميّز الشكل وأن أطلب إليه، بوصفه الترجمان الوحيد الممكن، أن يفسر لي شهادة رفيقه المعاصر له الذي لا ينفصل عنه، شهادة الطعم وأن يعلّمني حول أي ظرف خاصّ يدور الأمر وحول أية فترة.

فهل تبلغ صفحة الوعي الواضح لديّ هذه الذكرى، هذه اللحظة القديمة التي جاءت جاذبيّة لحظة مماثلة تستثيرها من البعيد البعيد وتحركها وتدفعها من داخل أعماقي؟ لست أدري. فلم أعد أحسّ الآن بشيء، لقد تَوقَّفَتْ وربما انحدرت ومن يعلم إن كانت ستصعد في يوم من عتمتها؟ ينبغي لي أن أُعيد الكرّة عشر مرّات وأن أكبّ عليها؛ وفي كلّ مرّة تشير عليّ الجبانة التي تصرفنا عن كلّ مهمّة صعبة وعن كلّ عمل هامّ أن أدع الأمر وأن أحتسي الشاي وأنا أفكّر في محض متاعب يومي ورغبات غدي التي نجترها دون مشقّة.

وفجأة برزت لي الذكرى. لقد كان ذلك الطعم طعم قطعة الحلوى الصغيرة التي تقدّمها لي صباح الأحد في «كومبريه» (لأنني ما كنت أخرج في ذلك اليوم قبل أن يحين القدّاس) خالتي «ليوني» بعدما تغمسها في كوب الشاي أو الزيزفون حينما كنت أذهب لتحيّتها في الصباح في غرفتها. ولم تذكرني رؤية قطعة الحلوى الصغيرة بشيء قبلما تمّ لي تذوّقها لأن صورتها ربّما تخلّت عن أيّام «كومبريه»، بعد أن اتّفق لي مشاهدة الكثير منها مذ ذاك على رفوف بائعي الحلوى دون أن آكلها، فارتبطت بأخرى أحدث زماناً؛ وربّما لأنّه لم يبق شيء من هذه الذكريات التي هُجرت زمناً طويلاً خارج الذاكرة فانفرطت بكليتها. وزالت الأشكال أو فقدت، بعدما دبّ فيها النعاس، قوّة الانتشار التي تسمح لها بملاقاة الوعي (ومن ضمنها كذلك شكل الحلوى الصغيرة الصدفيّ الذي يقطر شهوة من خلف ثنياته المتشحة بالتزمّت والورع). على أنّه في حين لا يظلّ شيء من الماضي البعيد بعد موت الكائنات ودمار الأشياء فإن الرائحة والطعم وحدهما، وهما أشد هشاشة ولكنهما أطول عمراً وأكثر شفافية وأشد استمراراً وأوفر أمانة، إنهما يظلان فترة طويلة كمثل الأرواح

يتذكران وينتظران ويأملان فوق خراب كلّ ما عداهما ويحملان دون خور على قطرتهما غير المحسوسة بناء الذكرى المترامي.

وما إن تعرّفت طعم قطعة الحلوى الصغيرة المغموسة في كوب الزيزفون التي كانت تقدمها لي خالتي (مع أنّني ما علمت بعد لماذا تجعلني الذكرى سعيداً إلى هذا الحدّ وأنّني اضطررت أن أرجئ اكتشاف الأمر إلى ما بعد حتى سارع البيت الأغبر العتيق الذي على الشارع، وفيه كانت غرفتي، إلى الالتصاق شأن عناصر الزينة المسرحيّة بالجناح الصغير المطل على الحديقة الذي شيّد لوالديّ من خلفه (وهو الجانب المبتور الذي رأيته حتى ذاك وحده)، ومع البيت المدينة، منذ الصباح وحتى المساء وفي جميع حالات الطقس، والساحة التي يرسلونني إليها قبل الغداء، والشوارع التي أذهب للقيام بالمشتريات فيها والدروب التي نسلكها إن كان الطقس جميلاً. وكمثل تلك اللعبة التي يتسلى اليابانيون بها بأن يغمسوا في طاس من البورسلين مملوء ماءً قطعاً صغيرة من الورق غامضة الأشكال حتى ذاك لا تلبث بعدما تغمس فيه أن تتطاول وتتثنى وتتلوّن وتتميّز فتصبح أزهاراً وبيوتاً وشخصيات متماسكة مميزة، كذلك خرجت جميع أزهار حديقتنا وأزهار حديقة السيّد «سوان» ونيلوفر ساقية «فيفون» الأبيض وسكان القرية الطيبون ومنازلهم الصغيرة والكنيسة و«كومبريه» بأكملها مع ضواحيها، وكل ما يكتسب شكلاً وصلابة خرج من كوب الشاي مدينةً وحدائق.

(٢)

ما كانت «كومبريه» من البعيد، على مدى دائرة قطرها عشرة فراسخ، إن شوهدت من السكّة الحديديّة حينما نجيء إليها الأسبوع الأخير قبل الفصح، ما كانت سوى كنيسة تختصر المدينة وتمثلها وتتحدث عنها ومن أجلها للأرجاء البعيدة وتشدّ، إذا ما اقتربتَ منها، من حول خمارها القاتم الطويل في قلب الحقول وفي وجه الريح، كما تضمّ الراعية خرافها من

حولها، مناكب منازلها الصوفية الرماديّة المتراكمة التي تحدّدها هنا وهناك بقيّة سور من العصر الوسيط بخطّ يستدير تماماً استدارة مدينة صغيرة في لوحة أحد الرسامين الأوائل. كانت «كومبريه» حزينة لمن يسكنها كمثل شوارعها التي جاءت بيوتها المبنيّة بحجارة سوداء من المنطقة، ومن أمامها درجات خارجيّة فيما يعلوها سقف هرمي يلقي الظلال أمامها، عاتمة بعض الشيء، الأمر الذي يضطر لرفع الستائر في الحجرات حالما يميل النهار إلى الغروب، شوارع بأسماء قديسين يثقلها الوقار (والكثير منها يرتبط بتاريخ أسياد «كومبريه» الأولين): فشارع القديس «هيلاريون» وشارع القدّيس «يعقوب» الذي يقع فيه منزل عمّتي وشارع القدّيس «هيلديغارد» الذي يطل عليه سياج الحديقة. وشارع الروح القدس الذي يفتح عليه الباب الجانبيّ الصغير لحديقته؛ وتقوم شوارع «كومبريه» هذه في جزء من ذاكرتي قصيّ جدّاً تكسوه ألوان مغايرة جدّاً لتلك التي تكسو العالم في نظري الآن حتى لتبدو جميعها بالحقيقة، وكذلك الكنيسة التي تشرف عليها في الساحة، أقربَ إلى الوهم من عروض الفانوس السحري، وإنه يبدو لي في بعض الأحيان أن إمكانيّة اجتياز شارع القديس «هيلاريون» واستئجار غرفة في شارع «لوازو» - في فندق «العصفور السمين» الذي تتصاعد من منافذه العليا رائحة طبخ لا تزال ترتفع في داخلي بين الحين والحين في مثل تقطّعها ودفئها - ربّما كانا اتّصالاً بالعالم الآخر أقرب إلى الأمور الخارقة من التعرف بـ«غولو» والتحدّث مع «جنفييف دو برابان».

كانت ابنة عم جدّي التي كنّا نسكن في بيتها والدة العمّة «ليوني» التي لم تشأ منذ وفاة زوجها، العمّ «أوكتاف»، مغادرة «كومبريه» بادئ الأمر، ثم بيتها في «كومبريه» فغرفتها فسريرها وما عادت «تنزل» وهي ترقد على الدوام في حالة غير واضحة من الغمّ والوهن الجسدي والمرض والفكرة الثابتة والتعبّد. وكانت شقتها الخاصّة تطلّ على شارع القديس يعقوب الذي ينتهي في المرج الكبير (في مقابل المرج الصغير المخضوضر في وسط المدينة بين شوارع ثلاثة) والذي يبدو في استوائه ورماديّته ودرجاته

الثلاث الفخاريّة أمام كلّ باب تقريباً وكأنّه ممر صنعه نحّات صورٍ قوطيّة على صفحة الصخرة التي نحت عليها مذوداً أو جلجلة[1]. وكانت عمتي لا تسكن بعد بالفعل سوى غرفتين متلاصقتين فتمكث بعد الظهر في إحداهما أثناء تهوية الأخرى. والغرفتان من غرف الريف التي تفتننا - مثلما تستضيء أو تعطّر في بعض البلدان أجزاء كاملة من الهواء أو البحر بفعل بلايين من وحيدات الخلايا التي لا نراها - بآلاف الروائح التي تبعثها فيها الفضائل والحكمة والعادات وحياة خفيّة بأكملها وغير مرئيّة وفيّاضة وأخلاقيّة تمسك بها الأجواء معلقة فيها. إنها لا تزال بالتأكيد روائح طبيعيّة وتمثّل عصرها كمثل روائح الريف المجاور ولكنها «بيتوتيّة» بشرية حبيسة، إنها هلام لذيذ ناشط صافٍ لجميع فاكهة السنة التي هجرت البستان إلى الخزائن، وهي فصلية ولكنها من المتاع وممّا يلازم البيت، تصلح من لاذع الهلام الأبيض بحلاوة الخبز الساخن وهي عاطلة الأعمال دقيقة المواعيد كمثل ساعة في قرية، تائهة ومنظّمة، خلية البال ومتبصرة، لها رائحة الثياب والصباح والتّقى، تسعد بسلام لا يجيء إلّا بغيض من القلق وبضحالة تكون خزّاناً شعرياً كبيراً لمن يجتازها، ولم يعش فيها. وكان الهواء فيها مشبعاً بعطر من السكون مغذٍّ لذيذ المذاق حتى لا أسير عبره إلّا وبي ضرب من النهم ولا سيّما في هذه الصبيحات الأولى الباردة من أسبوع الفصح وكنت أتذوّقها إذ ذاك أفضل لأنني وصلت منذ لحظات فحسب إلى «كومبريه»، ذلك أنهم كانوا يشيرون عليّ قبلما أدخل لأتمنى صباحاً سعيداً لعمّتي أن أنتظر برهة في الحجرة الأولى حيث جاءت الشمس، ولا تزال شمساً شتويّة، تطلب الدفء أمام النار التي أوقدت بين حجري الآجر والتي تطلي الغرفة بأكملها برائحة السناج فتجعل منها ما يشبه الواجهات الكبيرة في أفران القُرى أو واجهات مواقد قصور يتمنّى المرء تحتها أن ينهمر المطر في الخارج ويتساقط الثلج وحتى

(١) يشير الأول إلى مكان ميلاد المسيح والثانية إلى مكان صلبه.

أن تحل كارثة طوفان لتضيف إلى رفاهية العزلة شاعريّة الإشْتاء. فكنت أخطو خطوات من المرجع إلى مقاعد المخمل المطبّع المغطّاة دوماً بمسند للرأس حيك بالسنّارة، والنار تشوي، كما تفعل بالعجينة الروائح الشهيّة التي تكثّف هواء الغرفة والتي خمّرتها برودة الصباح الممتزجة رطوبةً وشمساً، ثم هي تقسّمها رقاقات بلون الذهب وتثنيها وتنفخها وتصنع منها قطعة حلوى ريفيّة محسوسة غير مرئيّة، قطعة ضخمة ما إن أتذوّق فيها أشذاء خزانة الحائط والصوانة والورق المعرق حتى أعود تشدّني دوماً شهوة خفيّة لألتصق بالرائحة المتوسّطة الدبقة التَّفِهَة العسيرة الهضم التي بطعم الفاكهة الطازجة والمنبعثة من غطاء السرير الموشّى بالأزهار.

وكنت أسمع عمتي في الغرفة المجاورة تتحدّث وحدها بصوت خافت. وكانت لا تتحدّث قطّ إلّا وتخفض الصوت لأنّها تظنّ في رأسها شيئاً مكسوراً وسائباً ربّما أزاحته إن تحدّثت بصوت عالٍ، ولكنّها لا تمكث البتّة فترة طويلة دون أن تقول شيئاً، وإن كانت وحيدة، لأنها تظن ذلك نافعاً لحلقها وأنّه يقلّل الاختناقات ومظاهر الضيق التي تعاني منها وذلك بحيلولته دون توقّف الدم فيه. ثم إنّها كانت تعير أقلّ إحساس لديها اهتماماً بالغاً نظراً للّاحركة المطلقة التي تعيش فيها، فتكسبه حركيّة تجعل من العسير أن تحتفظ به لنفسها فتنقله لذاتها في مناجاة داخلية مستمرّة تؤلّف شكل نشاطها الوحيد لتعذر وجود نجيّ تبلغه إيّاه. ولما تعوّدت التفكير بصوت عالٍ فقد أصبحت للأسف لا تنتبه دوماً ألا يكون أحد في الغرفة المجاورة وكثيراً ما سمعتها تقول لنفسها: «ينبغي أن أتذكر تماماً أنّني لم أنم» (لأن عدم النوم على الإطلاق يؤلّف ادّعاءها الكبير الذي تحيطه لغتنا بالتقدير وتحافظ على آثاره: فما كانت «فرانسواز» تأتي في الصباح «لإيقاظها» بل كانت «تدخل» إلى غرفتها؛ وكنا نقول حينما تودّ عمتي أن تنام قليلاً في بحر النهار إنّها تبغي «التفكير» أو «الراحة»، وإن اتّفق لها أن تنسى نفسها أثناء الحديث إلى حدّ القول: «الأمر الذي

أيقظني» أو «وافاني في الحلم أنّ» كانت تحمرّ خجلاً وتستدرك نفسَها بأقصى السرعة).

وبعد لحظة كنت أدخل وأقبّلها، وتعدّ «فرانسواز» الشاي لها؛ وإذا أحسّت عمّتي أنّها مضطربة كانت تطلب مغلي الأعشاب بدلاً منه وكنت أكلّف أنا بأن ألقي في صحن من كيس الأدوية كميّة الزيزفون التي ينبغي وضعها فيما بعد في الماء الغالي. وكان الجفاف قد لوى السوق في عريش غريب تتفتّح داخل مشبّكاته الأزهار الشاحبة كما لو قام رسّام بترتيبها ووضعها على أحسن نحو تزييني. كانت الأوراق تبدو، بعدما فقدت مظهرها أو غيّرته، من أكثر الأشياء تبايناً، فجناح ذبابة شفّاف وقفا لصيقةٍ أبيض وتويجة وردة، ولكنّها كُدّسَتْ أو كسّرت أو جدلت كما في بناء الأعشاش. وكان ألف من التفاصيل الصغيرة التي لا طائل تحتها - وهو من إسراف الصيدليّ البديع - والتي ربّما استبعدت في تحضير مصطنع تمنحني، شأن كتاب تعجب أن تصادف فيه اسم شخص تعرفه، لذّة إدراك أنها سوق زيزفون حقيقي كتلك التي أراها في «شارع المحطّة» وقد تبدّلت بالطبع لأنها ليست نخساً بل هي ذاتها وقد شاخت. ولأنّ كلّ طابع جديد فيها لم يكن سوى استحالة لطابع قديم، فقد كنت أرى في الكرات الصغيرة الرماديّة البراعم الخضراء التي لم تبلغ غايتها؛ على أن البريق الورديّ القمري الرفيق الذي يبرز الأزهار في غابة السوق الواهنة حيث كانت معلّقة وكأنّها وردات ذهبيّة صغيرة - وهي علامة الاختلاف، كمثل الوميض الذي لا يزال يبرز على صفحة حائط ضخم موضع جداريّة زالت معالمها، بين أقسام الشجرة التي حملت الألوان وتلك التي لم تحملها - كان يبدي لي أن هذه التويجات كانت بالحقيقة تلك التي عطّرت أمسيات الربيع قبل أن تزيّن كيس الصيدلية. وإنّما لهب الشمعة الورديّ هذا لا يزال لونها ولكنّه باهت خامد في هذه الحياة المنقوصة التي هي الآن حياته والتي تبدو وكأنّها غروب الأزهار. وعما قليل تستطيع عمّتي أن تغمس في المغلي التي تتذوق طعم الأوراق المتساقطة

أو الأزهار الذابلة فيه كعكة صغيرة كانت تقدّم لي قطعة منها بعدما تَطرى إلى حدّ.

كانت تقوم على أحد جانبي سريرها خزانة كبيرة صفراء من خشب الليمون وطاولة هي ضرب من الصيدلية والمذبح الرئيسي في آن واحد تلقى عليها تحت تمثال صغير للعذراء وزجاجة من ماء «فيشي» كتب قدّاس ووصفات أدوية يعني كلّ ما ينبغي لتتابع من سريرها مختلف الصلوات ولتحافظ على حِمْيَتها كي لا تفوتها ساعة الدواء ولا صلاة الغروب. ومن الجانب الآخر تحاذي سريرها النافذة فالشارع يمتدّ أمام ناظريها تقرأ فيه من الصباح إلى المساء، بغية إقصاء الضجر عن نفسها وعلى طريقة أمراء فارس، أنباء «كومبريه» اليومية والبعيدة العهد مع ذلك فتعلّق عليها فيما بعد مع «فرانسواز».

وما كانت تنقضي خمس دقائق من مكوثي مع عمّتي حتى تخرجني مخافة أن أرهقها، فتقرّب من شفتي جبينها الحزين الشاحب الفاقد الطعم الذي لم ترتّب بعد فوقه شعرها المستعار في هذه الساعة الباكرة والذي تبرز فيه الفقرات وكأنّها رؤوس الأشواك في إكليل شوك أو حبّات في مسبحة الورديّة وتقول لي: «هيا يا ولدي المسكين، اذهب واستعدّ للقدّاس، وإذا التقيتَ «فرانسواز» تحت فقل لها ألا تلهو معك وقتاً طويلاً ولتصعدْ بعد قليل لترى إن لم أكن بحاجة لشيء».

وكانت «فرانسواز»، وهي منذ سنوات في خدمتها ولا يخامرها شك آنذاك أنها ستصبح ذات يوم في خدمتنا تماماً، تهمل عمّتي بعض الشيء أثناء الشهور التي كنّا فيها هنالك. وكان زمن في أيام طفولتي، قبل أن نذهب إلى «كومبريه» وحين كانت عمّتي «ليوني» لا تزال تقضي الشتاء في باريس في منزل والدتي، كان زمن لا أعرف فيه «فرانسواز» إلّا قليلاً جداً حتى إنّ والدتي كان تضع في يدي في الأول من كانون الثاني، قبلما أدخل إلى حجرة عمّتي العجوز، قطعة نقود من ذات الخمسة فرنكات وتقول لي: «إيّاك أن تخطئ بين شخص وآخر، وانتظر لتعطيها أن تسمعني أقول:

«صباح الخير يا فرانسواز» وسألمس ذراعك في الوقت نفسه لمساً خفيفاً». وما إن كنّا نصل إلى غرفة الانتظار المظلمة حتى نتبيّن في الظلام، تحت أنابيب عمامة بديعة متماسكة هشة كأنما صنعت من غزل السكّر، التموّجاتِ الدائريةَ لبسمة إقرار بالجميل مسبقة. كانت تلك «فرانسواز» وهي تقف لا تبدي حراكاً ضمن إطار باب الممشى الصغير وكأنّها تمثال قدّيسة في مشكاته. وحينما يتمّ لنا تعوّد ظلمات المصلّى هذه كنّا نميّز على وجهها حبّ الإنسانية المتجرّد والاحترام المملوء حناناً إزاء علية القوم يضاعفه في أفضل مناطق فؤادها الأمل في هدايا رأس السنة. وكانت والدتي تقرص ذراعي بعنف وتقول بصوت قوي: «صباح الخير، يا فرانسواز». وتنفتح أصابعي لدى هذه الإشارة وأترك القطعة التي تلاقي في استقبالها يداً وجلة ولكنّها ممدودة. إلّا أنّني ما كنت أعرف أحداً أكثر ممّا أعرف «فرانسواز» منذ أن أخذنا في الذهاب إلى «كومبريه»، فقد كنا المفضلين لديها وكانت تحسّ إزاءنا، في السنوات الأولى على الأقل وإلى جانب قدر مماثل من التقدير الذي تحيط به عمّتي، بميل أوفر شدّة لأننا نجمع إلى مهابة الانتماء إلى العائلة (وكان لها تجاه الروابط الخفيّة التي تربط بها الدورة الدموية أعضاء الأسرة الواحدة الاحترام نفسه الذي يبديه في ذلك كُتاب المأساة اليونانيّون) المتعة الناجمة عن أننا لم نكن أسيادها المعتادين. فبأي فرحة كانت تستقبلنا - وترثي لحالنا أنّنا لم نحظ بطقس أجمل يوم وصولنا عشيّة الفصح إذ غالباً ما تهبّ آنذاك ريح ثلجيّة - حينما تسألها أمي عن أخبار ابنتها وأولاد أخيها وإن كان حفيدها لطيفاً وماذا ينوون أن يفعلوا به وإن كان يشبه جدّته.

وحينما لا تظلّ جماعة هنالك، تحدّث أمّي «فرانسواز»، وهي تعلم أنّها لا تزال تبكي والديها المتوفّين منذ سنوات، تحدّثها عنهما برفق وتسألها عن ألف من التفاصيل حول ما كانت عليه حياتهما.

وكانت قد خمّنت أن «فرانسواز» لا تحبّ صهرها وأنّه يفسد فرحتها في أن تكون مع ابنتها، إذ لم تكن تحدّثها بملء الحريّة حينما يكون

حاضراً. وكانت أمّي لذلك تقول لِ«فرانسواز»، حينما تذهب هذه الأخيرة لزيارتهم على بضعة فراسخ من «كومبريه»، تقول لها وهي تبتسم: «أحقّاً يا «فرانسواز» سوف تغتمين كثيراً ولكنك ستسلّمين بما لا مفرّ منه؟» وتقول «فرانسواز» ضاحكة: «سيّدتي تعلم كلّ شيء؛ سيدتي شرّ من الأشعة السينيّة (وتقول السينيّة بصعوبة متكلفة وابتسامة تسخر بها من نفسها هي الجاهلة أنها تستخدم هذه اللفظة العلميّة) التي أحضروها لزوجة السيّد «أوكتاف» والتي تكشف ما في القلوب»، ثم تختفي خجلى أن يُهتمّ بها وربّما كي لا يراها أحد تبكي، فقد كانت أمّي أوّل شخص يوفّر لها هذا الانفعال الرقيق في أن تحسّ أنّ حياتها وأفراحها، هي الفلاحة، كان يمكن أن تشكّل أهميّة وأن تكون سبب فرح أو حزن بالنسبة إلى آخرَ غيرِها.. وكانت عمّتي تسلّم بأن تفتقدها بعض الشيء في أثناء إقامتنا لعلمها مدى تقدير أمّي لخدمة هذه الخادمة الذكيّة النشيطة والتي كانت منذ الساعة الخامسة صباحاً، في مطبخها وتحت قبّعتها التي تبدو أنابيبها المتألّقة الثابتة وكأنّها من البسكويت، في مثل جمالها حين تذهب لحضور القداس الكبير؛ التي كانت تؤدِّي كل شيء على ما يرام فتعمل بهمّة الحصان، سواء أكانت بصحّة جيدة أم لا، ولكن دون ضجيج ودون أن يبدو أنّها تقوم بعمل ما، والوحيدة من بين خادمات عمّتي التي كانت تأتي بالماء الساخن والقهوة غاليين حينما تطلبهما أمّي. لقد كانت في عداد هؤلاء الخدم الذين لا يروقون الغريب إطلاقاً للوهلة الأولى لأنّهم ربّما لا يجهدون في كسبه ولا يبدون إزاءه تودّداً لعلمهم بأنّهم في غير حاجة له وأنّه ربّما تمّ تفضيل الكفّ عن استقباله على طردهم، والذين يتعلّق بهم أسيادهم على العكس أكثر التعلّق إذ خبروا قدراتهم الحقيقيّة، وهم لا يهتمّون لهذه المتعة السطحيّة وثرثرة الخدّام هذه التي تخلّف في الزائر انطباعاً طيّباً ولكنّها تخفي في الغالب ضحالة لا يمكن ترويضها.

وحينما كانت تعود مرّة ثانية إلى غرفة عمّتي، بعدما سهرت على أن يتوافر لوالديّ جميع ما يلزمهما، لتقدّم لها الدواء ولتسألها عمّا تريد تنَاوله

في الغداء كان من النادر جدّاً ألا تُضطرّ إلى الإدلاء مذّاك برأيها أو تقديم شروح حول هذا الحدث الهام أو ذاك:

- تصوّري يا «فرانسواز» أنّ السيدة «غوبي» مرّت متأخّرة لأكثر من ربع ساعة كي تذهب وتأتي بأختها؛ يكفي أن تتأخّر على الدرب أقلّ ما تأخّر ولن يدهشني أن تصل بعد رفع القربان.

وتجيب «فرانسواز»:

- هه! لست أظن في الأمر ما يدهش.

- «فرانسواز»، لو جئتِ قبل خمس دقائق لرأيت السيّدة «إمبير» تمرّ وهي تحمل هليوناً أكبر من هليون «الستّ» «كالو» بمرّتين، فحاولي أن تعلمي من خادمتها من أين جاءت به؛ كان باستطاعتك أن تحظي بمثله لنزلائنا، أنت التي تقدّمين لنا الهليون في كل مناسبة هذه السنة».

وتقول «فرانسواز»:

- لن يدهشني البتّة أن تَرِدَ من عند الخوري.

وتجيب عمّتي وهي ترتفع بمنكبيها:

- من عند الخوري، إنّي أصدّقك تماماً! ولكنّك تعلمين أنّه لا يزرع إلّا هليوناً صغيراً ورديئاً، وأقول لك إنّ ذلك الهليون كان في ثخانة الذراع، لا في ثخانة ذراعك بالتأكيد بل في ثخانة ذراعي المسكينة التي هزلت هذه السنة أيضاً إلى حدّ كبير... «فرانسواز»، ألم تسمعي هذا الجرس الذي مزّق رأسي؟».

- لا، يا سيّدة «أوكتاف».

- آه يا ابنتي المسكينة، لا بدّ أنّك تتمتّعين برأس متين ويمكنك أن تسدي الشكر للّه العلي. لقد كانت «ماغلون» من جاءت في طلب الدكتور «بيبرو» وخرج في الحال معها وانعطفا في شارع «لوازو». لا بدّ أن يكون هنالك ولد مريض.

وتتنهّد «فرانسواز» التي لا تستطيع أن تصغي إلى رواية مصيبة حلّت

بمجهول دون أن تأخذ في النواح، ولو كان ذلك في جزء بعيد من العالم: «آه، يا ربّي».

- ولكن لمن دقّ جرس الأموات يا «فرانسواز»؟ يا إلهي، ربّما كان ذلك للسيّدة «روسّو». ها إنّي قد نسيت أنّها ماتت الليلة الماضية. آه! لقد آن أن يستدعيني اللّه الرحيم إليه، فلست أعلم من بعد ما فعلت برأسي منذ وفاة «أوكتاف» المسكين ولكنّي أضيّع وقتك يا ابنتي».

- «كلّا، يا سيّدة «أوكتاف»، ليس وقتي ثميناً إلى هذا الحدّ، فالذي صنعه لم يبعنا إيّاه. إنّي ذاهبة لأرى فقط إن لم تنطفئ ناري».

وهكذا كانت «فرانسواز» وعمّتي تقدّران سويّة في بحر هذه الجلسة الصباحيّة أوّل أحداث اليوم. ولكن هذه الأحداث كانت ترتدي طابعاً خفيّاً وخطيراً إلى حدّ تحسّ معه عمّتي أنها لن تستطيع انتظار اللحظة التي تصعد فيها «فرانسواز»، فكانت تدوّي في البيت إذ ذاك أربع دقّات جرس رهيبة. وتقول «فرانسواز»:

- ولكن لم تحن بعد ساعة الدواء يا سيّدة «أوكتاف». فهل وافاك شعور بضعف ما؟

وتقول عمّتي:

- «كلّا! يا «فرانسواز»، يعني بلى، فأنت تعلمين أنّ الأوقات التي لا أشعر الآن فيها بضعفٍ نادرة جدّاً؛ سوف أموت ذات يوم كالسيّدة «روسّو» دون أن يتّسع لي الوقت لأنتبه لنفسي؛ ولكنّي لا أدقّ لهذا السبب. ألا تصدّقين أنّي رأيت منذ قليل، مثلما أراك، السيّدة «غوبي» تصطحب بُنَيّةً لا أعرفها؟ هيا اذهبي وابتاعي ملحاً بفلسين من دكّان «كامو»، فيندر ألا يستطيع «تيودور» أن يقول لك من كانت».

وتقول «فرانسواز»، وتفضّل أن تكتفي بتفسير فوريّ، فقد ذهبت مرّتين منذ الصباح إلى دكان «كامو»:

- ولكنّها ابنة السيّد «بوبان»!

- ابنة السيّد «بوبان»! إنّي أصدّقك تماماً يا«فرانسواز» المسكينة! ولا أعرفها مع ذلك!

- ولكنّي لا أقصد الكبيرة، يا سيّدة «أوكتاف»، بل أقصد الصغيرة التي هي في مدرسة داخليّة في «جويي». إنّه يبدو لي مجدّداً أنّني رأيتها في هذا الصباح.

وتقول عمّتي:

- آه! ربّما كان ذلك؛ وينبغي أنّها جاءت للأعياد. كذلك هو الأمر ولا حاجة للبحث، إنّها جاءت للأعياد. ولكننا نستطيع والحالة هذه أن نرى السيّدة «سازيرا» تجيء بعد قليل وتقرع باب أختها من أجل الغداء. إن الأمر لكذلك. وقد رأيت الصغير الذي يعمل لدى «غالوبان» يمرّ ومعه «تورته»! وسوف ترين أنّ «التورته» ذهبت إلى منزل السيّدة «غوبي».

- «بما أنّ لدى السيّدة «غوبي» زوّاراً، فلن تنتظري طويلاً يا سيّدة «أوكتاف» لتري كلّ جماعتها يعودون للغداء، فالوقت لم يعد مبكّراً، تقول «فرانسواز» التي لم يسؤها، في استعجالها النزول لتهتمّ بأمر الغداء، أن تترك لعمّتي فكرة هذه التسلية المرتقبة.

وتجيب عمّتي بصوت ملؤه الرضى وهي تلقي على ساعة الحائط نظرة قلقة ولكنّها مختلسة كي لا تبدي، هي التي تخلّت عن كلّ شيء، أنها تجد مع ذلك في معرفة من يتناول طعام الغداء في منزل السيّدة «غوبي» مسرّة شديدة إلى هذا الحدّ، مسرّة سوف تتأخّر بعد للأسف أكثر من ساعة: «لن يكون ذلك قبل الظهر». وأضافت تقول لنفسها بصوت خافت: «ويصادف ذلك موعد غدائي!» فقد كان غداؤها تسلية كافية لها حتى لا تتمنّى تسلية أخرى في الوقت نفسه. «لن يفوتك على الأقلّ أن تقدّمي لي البيض بالكريمة في صحن عريض؟» فتلك كانت الصحون الوحيدة التي تزينها الكتابات وكانت عمّتي تتلهّى في كلّ وجبة طعام في قراءة التعليق المدوّن على الصحن الذي يقدّم لها ذلك اليوم، فتضع نظّارتيها وتقرأ: علي بابا

والأربعون لصّاً - علاء الدين أو المصباح المسحور، وتقول وهي تبتسم: حسن جدّاً، حسن جدّاً.

وتقول «فرانسواز» وهي ترى أنّ عمّتي لن تكلّفها الذهاب من بعد: «ربّما كان حسناً لو ذهبتِ إلى دكّان «كامو»...

- لا، لا! لا داعي لذلك الآن، إنّها بالتأكيد الآنسة «بوبان». آسف يا «فرانسواز» المسكينة أنّني جعلتك تصعدين لغير ما حاجة.

ولكن عمّتي تعلم تمام العلم أنّها لم تبعث في طلب «فرانسواز» لغير ما حاجة؛ ذلك أن الشخص الذي لا تعرفه، في «كومبريه»، كائن يندر أن يصدَّق كمثل آلهة الميثولوجيا، وليس في الواقع من يذكر بأن التحريات التي تتمّ على أحسن وجه، كلّما وقع في شارع «الروح القدس» أو الساحة أحد هذه الظهورات المذهلة، لم تتوصّل في النهاية إلى تقليص الشخص الخرافي إلى حجم «الإنسان الذي يعرفه الجميع» إمّا شخصياً وإمّا بالتجريد في سجلّه المدني وبوصفه على درجة كذا من القرابة مع جماعة من «كومبريه»، فإذا هو ابن السيّدة «سوتون» الذي يعود من الخدمة الإلزامية، وإذا هي ابنة شقيق الأب «بيردرو» التي غادرت الدير، وإذا هو شقيق الخوري، جابي الضرائب في «شاتودان» الذي أحيل على التقاعد أو جاء يقضي أيّام العيد. لقد ارتعد الأهلون إذ ظنّوا في «كومبريه» أناساً لا يعرفونهم لأنّهم لم يتعرّفوا بهم أو يعرفوا هويّتهم في الحال، مع أنّ السيّدة «سوتون» والخوري أعلنا قبل فترة طويلة أنّهما ينتظران «مسافرين». وإن اتّفق لي، حينما أصعد في المساء، بعد عودتي، لأروي عن نزهتنا لعمّتي، أن أقول لها غير متبصّر إنّنا التقينا قرب الجسر القديم رجلاً لا يعرفه جدّي كانت تصيح قائلة: «رجل لا يعرفه جدّك! لقد صَدَقْتَ القول!» ولكنّها كانت تبغي وقد تأثّرت من جرّاء هذا الخبر أن تجلو حقيقة الأمر فترسل في طلب جدّي: «من ذا التقيت قرب الجسر القديم يا عمّي؟ أهو رجل ما كنت تعرفه؟» ويجيب جدّي «بلى، إنّه «بروسبير» شقيق البستاني الذي يعمل لدى السيّدة «بويبوف». وتقول عمّتي وقد هدأ روعها وكسا وجهها بعض

الحمرة: «حسن!» ثم تضيف وهي ترتفع بمنكبيها وتبتسم ساخرة: «لقد قال لي إنكما التقيتما رجلاً لا تعرفه!» فيوصونني أن أكون أكثر حذراً في المرة القادمة وألا أبعث الاضطراب في صدر عمّتي بكلام طائش. فالجميع في «كومبريه»، الحيوانات والناس، معروفون تماماً حتى إذا أبصرت عمّتي بالتصادف كلباً يمرّ «ولا تعرفه» لم تكفّ عن التفكير به وتكريس مواهبها الاستقرائية وساعات فراغها لهذا الأمر الذي يمتنع على الإدراك.

- «إنّه بالتأكيد كلب السيّدة «سازيرا»، تقول «فرانسواز» دون اقتناع وبهدف التهدئة وكيلا «تكسّر عمّتي رأسها».

وتجيب عمّتي التي لم يكن عقلها يتقبّل الأمور بهذه السهولة: «كأنّني لا أعرف كلب السيّدة «سازيرا»!».

- إنّه إذن الكلب الجديد الذي جاء به السيّد «غالوبان» من مدينة «ليزيو».

- آه! إلّا إن كان كذلك.

وتضيف «فرانسواز» الذي اكتسبت هذه المعلومات من «تيودور»: «يبدو أنّه حيوان أنيس جدّاً وذكيّ كأنّه إنسان دائم المرح واللطف وشيء ظريف على الدوام. ويندر أن يكون حيوان في هذه السنّ بمثل هذا التأدّب. ينبغي لي أن أفارقك يا سيّدة «أوكتاف» إذ لا يتسع وقتي للهو، لقد قاربت الساعة العاشرة، ولم أشعل حتى الآن فرني وعليّ أيضاً أن أنظّف هليوني.

- كيف ذلك يا «فرانسواز»، أهليون أيضاً! إنّه لمرض حقيقي يصيبك هذا العام وسوف ترهقين من جرّاء ذلك ضيوفنا الباريسيّين!

- كلّا يا سيّدة «أوكتاف»، إنّهم يحبّونه. سوف يعودون من الكنيسة ثائري الشهيّة وسترين أنّهم لن يأكلوه بقفا الملعقة.

- أجل ينبغي أن يكونوا في الكنيسة الآن، وحسناً تفعلين ألا تضيعي وقتك. هيا اذهبي وراقبي طعام الغداء.

وفيما كانت عمّتي تحدّث «فرانسواز» على هذا النحو، كنت أذهب

برفقة والديّ إلى القداس. وكم كنت أحبّ كنيستنا وبأي وضوح أراها الآن! كان مدخلها العتيق الأسود المثقّب كالمطفحة ملتوياً محفّر الزوايا إلى حدّ عميق (كجرن الماء المقدّس الذي يوصلنا إليه) كما لو استطاع حفّ معاطف الفلّاحات الخفيف في دخولهن إلى الكنيسة ولمس أصابعهنّ الخجولة وهن يأخذن الماء المقدّس أن يكتسب في تكراره قروناًويمتلك قوّة هدامة فيلوي الحجر ويحفّره أخاديد كالتي تخطّها عجلة العربات في صوى الطريق التي تصطدم بها كلّ يوم. وشواهد القبور التي تؤلّف بقايا رؤساء «كومبريه» الروحيّين الذين ووروا التراب تحتها ضرباً من البلاط الروحي لموقع الكورس لم تعد مادّة جامدة قاسية لأن الزمن جعلها ناعمة وسيّل ما يشبه العسل خارج حدود تربيعتها التي جاوزتها ههنا بسيل أشقر يسوق معه حرفاً قوطيّاً مزهراً ويغرق البنفسج الأبيض في الرخام وامتصتها هناك فقلّصت النقش اللاتيني الناقص وأضافت نزوة جديدة في ترتيب هذه الحروف المختصرة فقرّبت حرفين في كلمة تباعدت حروفها الأخرى على نحو مفرط. وما كانت نجمياتها الزجاجية الملونة تتلألأ قدرَ ما يتلألأ في الأيّام التي يندر فيها ظهور الشمس حتى ليتأكّد لنا أن الطقس سيكون جميلاً في الكنيسة وإن كان قاتماً في الخارج؛ ففي إحداها يقوم شخص واحد شبيه بالملك في لعبة الورق يملأ الزجاج بطوله ويعيش فوق، تحت مظلّة محكمة الصنعة، معلّقاً بين أرض وسماء (وكنتَ ترى في نوره الأزرق المائل في أيّام الأسبوع أحياناً وفي ساعات الظهيرة التي لا تقام فيها صلوات - في إحدى هذه اللحظات القليلة التي تبدو فيها الكنيسة كثيرة الهواء فارغة صافية الإنسانية فاخرة والشمس فوق أثاثها الفخم فإذا هي تكاد تتّسع للسكنى كمثل ردهة من حجر منحوت وزجاج ملوّن في فندق من طراز العصر الوسيط - كنت ترى السيّدة «سازيرا» تجثو لحظة على ركبتيها وتضع على المركع المجاور علبة من المعجّنات المحمّصة حزمت بإتقان وقد أخذتها منذ قليل من دكان الحلواني المقابل وتزمع حملها معها لطعام الغداء)؛ وفي زجاج آخر جبل من الثلج بلون الورد تجري على حضيضه

معركة ويبدو وكأنّه تجمّد على سطح الزجاج الذي انتفخ من جرّاء حبّاته الناعمة ذات اللون العكر وكأنّه زجاج علقت به رقع من الثلج، ولكنّها رقع يشرق عليها فجر (هو لا شكّ ذاته الذي كان يلهب صدر المذبح بألوان طازجة حتى لتبدو وكأنّها ألقيت ههنا مؤقّتاً بفعل ضياء من الخارج قريب الزوال أكثر مما تبدو بفعل ألوان علقت بالحجر إلى الأبد)؛ وكلها قديم إلى حدّ ترى معه بياض شيخوختها يلتمع فيه غبار القرون ويبرز لحمة نسيجها الزجاجي الناعم لماعة بالية أشدّ البلى. وكان هنالك زجاج بمثابة رقعة عالية قسّمت إلى مئة من الزجاجيّات الملوّنة الصغيرة المربّعة التي يسودها اللون الأزرق كمثل ورق لعب ضخم شبيه بتلك التي كانت تستخدم في إلهاء الملك «شارل» السادس. ولكنّ النافذة الزجاجية كانت تتّخذ في اللحظة التالية، إمّا لالتماع شعاع وإمّا لأنّ عيني نقّلت باهتزازها عبر هذه النافذة التي تنطفئ طوراً وتستضيء تارة حريقاً ثميناً متنقلاً، الألق المتموج لذنب طاووس، ثم تهتزّ وتتموّج سيلاً من لهب خيالي ينحدر من أعلى القنطرة الصخرية العائمة على الجدران الرطبة، كما لو كنت أتبع والديّ، وبيديهما كتاب الصلاة، في صحن مغارة تلوّنها نوازل ملتوية بألوان قوس قزح. وبعد لحظة تتّخذ معيّنات الزجاج الملوّن الصغيرة الشفافية العميقة والصلابة المطلقة لأحجار من الياقوت الأزرق رصفت على صدر ضخم، ولكنّك تحسّ وراءها بسمة شمس عابرة أحبّ إليك من كل هذه الثروات، وهي واضحة في الدفقة الزرقاء الرفيقة التي تغمر بها الأحجار الكريمة وضوحها على بلاط الساحة أو القشّ في السوق؛ وكانت تعزّيني حتى في أيام الآحاد الأولى التي وصلنا فيها قبل حلول الفصح لأنّ الأرض لا تزال عارية سوداء، إذ تبعث الزهر في هذا البساط الرائع المذهب من الأزهار الزجاجية الزرقاء وكأنّه ربيع تاريخي يعود إلى زمن خلفاء القديس لويس.

وهنالك سجّادتان عاموديّتا اللحمة تمثّلان تتويج «إستير» (ويشاء التقليد أن يعطي «احشورش» ملامح أحد ملوك فرنسا و«إستير» ملامح

سيّدة من آل الـ«غيرمانت» هو أسير حبّها) أضافت إليهما ألوانهما بانحلالها تعبيراً ورونقاً وضياءً: فقليل من اللون الورديّ يطفو على شفتي «إستير» أبعد من خطّ حدودهما، أمّا صفرة فستانها فتنتشر بطراوة وسخاء تكتسب بهما ضرباً من التماسك وتبرز بشدّة على الخلفيّة الباهتة. أمّا خضرة الأشجار التي ظلّت زاهية في الأجزاء التحتيّة من اللوحة التي من حرير وصوف ولكنها بهتت في الأجزاء العليا فقد كانت تبرز الأغصان العليا المصفرّة المذهبة والتي كادت تذهب بها الإشراقة المفاجئة الغاربة لشمس غير مرئية، كانت تبرزها أكثر شحوباً فوق الجذوع القاتمة: فكّل ذلك وأكثر منه الأشياء الثمينة التي جاءت الكنيسة من شخصيّات كانت في نظري أشبه ما تكون بشخصيّات أسطورية (فالصليب الذهبي صنعه فيما يقولون القديس «إيلوا» وقدّمه «داغوبير»، وضريح أبناء «لويس الجرماني» المصنوع من الرخام الأحمر والنحاس المطليّ بالمينا)، وكنت من جرّائه أتقدّم في الكنيسة، حينما نذهب إلى مقاعدنا، وكأنّما في وادٍ ترتاده الجنيّات ويذهل الفلاح أن يشاهد أثر مرورها الخارق ملموساً في صخرة وشجرة وبرك ماء، كل ذلك جعل منها في نظري شيئاً يختلف عن باقي المدينة اختلافاً كاملاً؛ لقد جعل منها بناء يشغل إن جاز القول مكاناً بأربعة أبعاد - البعد الرابع فيها بعد الزمان - ينشر شراعه عبر القرون فيبدو وكأنّه يقهر ويجتاز بين عارضة وأخرى، بين هيكل وآخر، لا بضعة أمتار فحسب بل حقباً متتالية يخرج منها مظفّراً، بناء يحجب القرن الحادي عشر الخشن القاسي في سماكة جدرانه فهو لا يَبْرُزُ منها بأقواسه الثقيلة المسدودة المعميّة بحجارة غير مهذّبة إلّا من خلال الشق العميق الذي يفتحه الدرج المؤدي إلى قبّة الجرس قرب المدخل، لكنّما تخفيه، حتى هناك، القناطر القوطيّة الرشيقة التي تتراصّ بغنج أمامه كما تقف الشقيقات الكبريات والبسمة على ثغورهنّ أمام الشقيق الأصغر الفظ المتجهّم الرث الثياب ليخفينه عن أعين الغرباء، ويرفع في السماء فوق الساحة برجه الذي نعم برؤية القديس لويس ويبدو أنّه لا يزال يراه، ثم يغور مع سردابه في ليل

«الميروفانجيّين» الذي يقودنا عبره على غير هدى تحت القبّة المظلمة البارزة الأضلاع كمثل غشاء وطواط عملاق من الحجر، يقودنا عبره «تيودور» وشقيقته فيضيئان لنا بشمعة قبر حفيدة «سيجبير» الذي حُفِرَ عليه فيما يُقال مصراع عميق، - كأني به آثار مستحاث «من جرّاء مصباح من الكريستال أفلت في ليلة مقتل الأميرة الفرنجية تلقائياً من السلاسل الذهبيّة التي كان يتدلّى منها في موقع الحنية الحالي وانغرس في الحجر الذي لان من تحته دون أن ينكسر الكريستال أو تنطفئ الشعلة».

أمّا حنية كنيسة «كومبريه» فهل يمكن التحدّث عنها؟ لقد كانت رديئة تفتقر إلى الجمال وحتى إلى الاندفاعة الدينيّة إلى حد كبير. لقد كان تقاطع الطرق الذي تطلّ عليه أخفض منها ولذلك اعتلى سورها السمج من الخارج فوق قاعدة من الحجارة غير المهذّبة المليئة بالحصى الناتئة وليس فيها طابع كنسيّ خاص، وبدت الكوى فيها وقد فتحت على ارتفاع بالغ فإذا الكلّ أقرب إلى السجن منه إلى الكنيسة. وما كان بالتأكيد ليخطر في بالي، حينما كنت أتذكّر فيما بعد سائر الحنيات البهيّة التي تسنّت لي رؤيتها، أن أقارب بينها وبين حنية «كومبريه»، ولكنّي أبصرت ذات يوم في عطفة شارع ريفيّ صغير قبالة تقاطع ثلاثة شوارع صغيرة سوراً سمجاً ومرفوعاً وقد فتحت كوى في أعلاه وبدا بالمظهر اللامتناظر نفسه الذي لحنية «كومبريه» ولم أتساءل إذ ذاك، شأني في «شارتر» أو «رانس» بأي زخم يعبّر فيها عن العاطفة الدينيّة، بل صرخت دونما رويّة قائلاً: «الكنيسة»!

الكنيسة! التي تتوسّط في شارع القديس «هيلاريون» حيث يقع قرب بابها الشمالي صيدلية السيّد «رابان» ومنزل السيدة «لوازو» الذي تلاصقه دون أي فاصل بينهما. إنها مجرّد مواطنة في «كومبريه» كان يمكن أن تحمل رقمها الخاص بها في الشارع لو اتفق لشوارع «كومبريه» أرقام وكان ينبغي أن يتوقّف أمامها ساعي البريد في الصباح حينما يوزع بريده قبل أن يدخل إلى منزل السيّدة «لوازو» وبعدما يخرج من منزل السيّد «رابان». بيد أنّه كان بينها وبين كلّ ما عداها خطّ فاصل لم يفلح فكري يوماً في

اجتيازه. فعبثاً تنمو أزهار الفوشيا على نافذة السيّدة «لوازو» وقد أخذت بسيئ العادات فتركت أغصانها تجري أينما اتّفق وكيفما اتّفق في حين لا تجد زهراتها ساعة تبلغ حدّاً من الكبر أفضل من أن تسارع إلى إنعاش وجناتها البنفسجيّة المحتقنة على واجهة الكنيسة القائمة، لكن تلك الأزهار لا تكتسب لذلك طابعاً أكثر قدسيّة في نظري؛ فإن لم تتبيّن عيناي حدّاً يفصل بين الأزهار والحجارة السوداء التي تتكئ عليها فقد كان عقلي يضع هوّة بينها.

لقد كنت تتعرّف قبّة جرس القديس «هيلاريون» من البعيد وهي تخطّ صورتها التي لا تنسى في الأفق الذي لا تظهر بعد فيه «كومبريه»؛ وحينما كان يتبيّنها والدي من القطار الذي يحملنا من باريس في أسبوع الفصح وهي تتنقّل بين جميع أخاديد السماء وتنقّل في كل صوب ديكها الحديدي الصغير: كان يقول لنا: «هيّا احملوا أغطيتكم، فقد وصلنا». وكان هنالك في أبعد النزهات التي نقوم بها من «كومبريه» مكان يضيق فيه الطريق ثم ينفتح فجأة على هضبة مترامية تسدّ عليها الأفق غابات مفرّضة الحواشي لا يبرز من فوقها سوى رأس قبّة جرس القديس «هيلاريون» ولكنه من رقّة ولون ورديّ يبدو معهما وكأنّه محض خدش على صفحة السماء حفره ظفر شاء أن يزوّد هذا المشهد، هذه اللوحة الطبيعيّة البحتة، بعلامة الفنّ الصغيرة هذه، بهذه الإشارة الإنسانية الوحيدة. وحينما نقترب فنستطيع رؤية باقي البرج المربّع المتهدّم الذي لا يزال قائماً إلى جانبه على ارتفاع أقلّ كنّا ندهش على وجه الخصوص من لون الحجارة القاتم المائل إلى الحمرة؛ لكأنما يشبه في صباح خريفيّ يغمره الضباب خراباً أرجوانياً يقارب لون الكرمة العذراء يرتفع فوق الكروم البنفسجية العاتمة.

وغالباً ما استوقفتني جدّتي في الساحة، حينما نعود، كيما أنظر إليها. فقد كانت تطلق بل ترمي من نوافذ برجها التي رتبت زوجين فزوجين يعلو بعضها بعضها الآخر في تناسق المسافات الدقيق والمبتكر هذا الذي لا يضفي الجمال والوقار على الوجوه البشرية فحسب، أسراباً من الغربان

على فترات منتظمة كانت تدور على نفسها وهي تنعق للحظات كأنما الحجارة القديمة التي تدع لها أن تلهو دون أن تبدي أنّها تراها، أصبحت فجأة موحشة ينبعث منها مبدأ اضطراب لا ينتهي فضربتها وأبعدتها. ثم هي تعود، بعدما جرّحت في كل اتجاه ريح المساء ومخملها البنفسجي وهدأت على نحو مفاجئ، ليبتلعها البرج الذي انقلب من شؤم إلى يمن فيما حطّ بعضها ههنا وهناك لا يبدي حراكاً ولكنّه ربّما التهم حشرة على رأس قبة جرس صغير كأنه نورس وقف في جمود صيّاد الأسماك على قمّة موجة. وكانت جدّتي تجد في قبة جرس القديس «هيلاريون»، دون أن تدرك السبب تماماً، خلوّها من العاميّة والادعاء والحقارة الذي يحبّب إليها الطبيعة، حينما لا تنتقص منها يد الإنسان، كما يفعل بستاني شقيقة جدّي، وأعمال العبقريّة، فتظنها تزخر بالتأثيرات الخيرة. كان كل جزء تراه من الكنيسة يميّزها عن أي مبنى آخر بضرب من الفكر يداخله ولكنّما يبدو أنّها تعي ذاتها وتؤكّد لنفسها وجوداً فردياً ومسؤولاً في قبّة جرسها، فهي التي تتحدث باسمها. وأظنّ أنّ جدّتي كانت على وجه الخصوص تجد في قبّة جرس «كومبريه» على نحو مبهم ما هو أثمن شيء في الدنيا أي المظهر الطبيعي والمظهر الأنيق. وكانت جاهلة في الهندسة المعمارية فتقول: «اهزأوا مني إن شئتم يا أبنائي، لعلّها ليست جميلة وفق القواعد ولكنّ هيئتها العتيقة الغريبة تروقني، وإني لمتأكدة أنّها لو كانت تعزف على البيانو لما جاء عزفها جافاً». وإذ تنظر إليها وتتابع بعينها التراصّ الرفيق والانحناءة الحارّة في سفوحها الحجريّة التي كانت تتقارب في ارتفاعها على هيئة يدين مضمومنين تصلّيان، كانت تتحد باندفاعة سهم قبّتها حتى تبدو نظرتها وكأنّها تندفع معه. وكانت في الوقت نفسه تبتسم ابتسامة الصديق للحجارة العتيقة البالية التي لا تُنير الشمس الغاربة سوى قمتّها والتي تبدو فجأة منذ لحظة دخولها هذه المنطقة المشمسة وكأنّها ترتفع، وقد لطفت من جرّاء النور، إلى مدى أعلى بعيدة كأغنية تستعاد بصوت رفيع وبطبقة تسمو على سابقتها.

وإنّما قبّة جرس القديس «هيلاريون» التي كانت تُكسب جميع المشاغل وسائر الساعات وجميع المطلّات على المدينة هيئتها وما يتوجّها ويكرّسها. وما كنت أستطيع أن أرى من غرفتي سوى قاعدتها التي كسيت بحجارة سود؛ ولكنّي حينما كنت أراها نهار الأحد في صبيحة حارّة تلتمع كشمس سوداء كنت أقول في نفسي: «يا إلهي! إنها التاسعة! ينبغي أن أستعد للذهاب إلى القداس الكبير إن رغبت أن يتسع لي الوقت لتقبيل العمّة «ليوني» قبل ذلك، وأن أعلم تماماً لون الشمس في الساحة والحرّ والغبار في السوق والظلّ الذي تبعثه ستارة المخزن الذي ربما دخلت إليه أمي قبل القداس في عبق القماش الخام لتبتاع إحدى المحارم التي يعرضها صاحب المخزن وهو يقوّس قامته فيما يستعدّ لإغلاق محلّه بعدما ذهب إلى مؤخّرة دكّانه فارتدى سترة الآحاد وغسل يديه بالصابون وقد تعود حتى في أكثر الظروف أسىً أن يفرك الواحدة بالأخرى كل خمس دقائق بمظهر الجدّ والتلذّذ والنجاح.

وحينما كنا ندخل بعد القداس لنقول لِـ«تيودور» أن يأتينا بفطيرة أكبر من المعتاد لأن أولاد عمنا أفادوا من الطقس الجميل ليجيئوا من «تيبيرزي» فيتغدوا معنا، كانت قبة الجرس أمامنا وقد أذهبتها الشمس وحمرتها كمثل فطيرة مقدّسة أكبر من تلك وكستها قشورٌ وتقطّرات ضوء، كانت قبة الجرس تذهب برأسها الحادّ في زرقة السماء. وفي المساء عندما كنت أعود من النزهة وأفكر في اللحظة التي ينبغي لي فيها أن أتمنّى ليلة سعيدة لأمي ولا أراها بعد ذلك، كانت على العكس رقيقة في النهار الغارب حتى لتبدو وكأنها وضعت وانغرزت كوسادة من المخمل الأسمر في السماء الشاحبة التي لوت من جرّاء ضغطها وتجوّفت قليلاً لتوسع لها مكاناً فيما ارتدت تضرب حدودها، إذ تبدو أصوات العصافير التي تحوم حولها وكأنها تزيد من سكونها وتبالغ في انطلاقة سهمها وتكسبها شيئاً مما يستعصي على الوصف.

كل شيء كان يبدو، حتى في أثناء النزهات التي نقوم بها خلف

الكنيسة ومن حيث لا نراها، وكأنّما نُسِّقَ بالنسبة إلى قبّة الجرس التي تبرز ههنا أو هناك بين المنازل، وربما بدت أكثر استثارة للعواطف حينما تظهر هكذا بمعزل عن الكنيسة. هنالك بالتأكيد قباب أخرى كثيرة أجمل منها إذا ما شوهدت على هذا النحو، وفي خاطري صور قباب تبرز فوق السطوح لها طابع فني غير ذلك الذي تؤلّفه شوارع «

كومبريه» الحزينة. فلن أنسى قطّ في مدينة غريبة في مقاطعة «النورماندي» مجاورة لِـ«بالبيك» قصرين رائعين من القرن الثامن عشر عزيزين عليّ مكرّمين لدي لاعتبارات كثيرة وبينهما ينطلق سهم كنيسة قوطّية يحجبانها حينما تنظر إليها من الحديقة الجميلة التي تتحدّر من الأدراج باتجاه النهر، فيبدو وكأنه يختتم واجهتيهما ويعتليهما ولكن بطريقة مختلفة متصنعة على شكل حلقات، ورديّة مصقولة إلى حدّ ترى معه أنّه لا يؤلّف جزءاً منهما أكثر مما يفعل السهم الأحمر المفرّض لصدفة مغزلّية الأبراج لماعة المينا وقعت على الشاطئ بين حصاتين جميلتين مصقولتين. وإني أعرف حتى في باريس وفي أحد أكثر الأحياء قباحة نافذة تبصر منها، خلف سطح أول وثانٍ وحتى ثالث تشكّلها أكوام من سقوف بيوت لشوارع عدّة، جرساً بنفسجي اللون يميل إلى الحمرة تارة وطوراً، وفي أجمل صورة له تجود بها الأجواء، يميل إلى سواد الرماد المنقّى، وليس الجرس سوى قبة القديس أغسطينوس التي تضفي على منظر باريس هذا طابع بعض مناظر لمدينة روما بريشة «بيرانيزي». إلا أن ذاكرتي لم تستطع أن تضمّن أية من هذه الصورة الصغيرة، ومهما أنفقت من ذوق في رسمها، ما كنت فقدتُ منذ زمن طويل، عنيت الشعور الذي يحملنا لا على النظر إلى الشيء على أنه مشهد بل على الاعتقاد بأنّه كائن لا يساويه آخر، ولذلك لم يكن من بينها صورة تسيطر على جزء عميق كامل من حياتي كما تفعل ذكرى مناظر قبة جرس «كومبريه» في الشوارع الواقعة خلف الكنيسة. فسواء أتمت رؤيتها في الساعة الخامسة، حينما نذهب لجلب البريد من المركز، على بعد بضعة منازل منا إلى اليسار وهي تضيف فجأة قمّة منفردة

فوق خطّ سقوف المنازل، أم تمت على العكس، إن ابتغينا أن ندخل للسؤال عن السيدة «سازيرا»، متابعة هذا الخط الذي عاد ينخفض بعد النزول على سفحه الآخر ونحن نعلم أنّه ينبغي الانعطاف في الشارع الثاني الذي يلي قبّة الجرس، أم تمت، إن ذهبنا أبعد من ذلك إلى المحطّة، رؤيتها بزاوية مائلة وهي تعرض صوراً جانبية لزوايا ومساحات جديدة كمثل جسم صلب أخذ على حين غرّة في لحظة مجهولة من دورته، أم بدا من ضفاف نهر «الفيفون» أن الحنية، وقد جمّع المنظور عضلاتها وشدّها، تطفر من الجهد الذي تبذله قبّة الجرس لتطلق سهم قمّتها في قلب السماء، كان لا بدّ من العودة إليها على الدوام، وهي التي على الدوام تبسط على كل شيء جناحها فتجمع البيوت تحت ذروة غير منتظرة مرفوعة أمامي كأنها إصبع اللّه وقد احتجب جسمه خلف جمهور البشر دون أن أخلط لذلك بينه وبينهم. واليوم أيضاً إن أراني أحد المارّة في مدينة كبيرة أو في واحد من أحياء باريس لا أعرفه تمام المعرفة، إن أراني في البعيد برج مشفى «ليعيدني إلى سواء السبيل» أو قبة جرس دير ترفع قمّة عمّتها الكنسية في زاوية شارع ينبغي لي أن أسير فيه، إن أرانيهما بمثابة علامة أهدي بها واستطاعت ذاكرتي أن تجد لهما وجه شبه مع الصورة الغزيزة التي ارتحلت فإنما يستطيع هذا الرجل إن التفت وراءه ليتأكّد من أنني غير تائه أن يبصرني لدهشته وقد نسيت النزهة التي بدأتها أو المشوار الضروري فظللت هناك أمام قبة الجرس ساعات بلا حراك وأنا أجهد في التذكر وأحسّ في أعماق ذاتي بأراضٍ أستردّها من النسيان وهي تجفّ ويرتفع بناؤها من جديد. وإني إذ ذاك لا شك أبحث، في قلق أشدّ من ذاك الذي ساورني منذ هنيهة حينما كنت أسأله أن يرشدني، عن دربي فأنعطف في شارع... ولكن... داخل فؤادي...

وكنّا غالباً ما نلتقي، إذ نعود من القدّاس، بالسيد «لوغراندان» الذي ما كان يستطيع من جرّاء مهنته كمهندس في باريس أن يذهب إلى منزله في «كومبريه»، فيما عدا العطلة الكبرى، إلّا من مساء السبت حتى صباح

الاثنين. وكان من قوم يمتلكون، إلى جانب مهنة علمية نجحوا فيها نجاحاً رائعاً، ثقافة شديدة الاختلاف عنها، ثقافة أدبيّة وفنيّة لا تخدم اختصاصهم المعني بل يفيدون منها في حديثهم. إنهم أطول باعاً في الأدب من كثير من الأدباء (وما كنا نعلم آنذاك أن السيّد «لوغراندان» يتمتع ببعض الشهرة ككاتب، وعجبنا أيّما عجب أن رأينا أنّ أحد الموسيقيّين ألّف لحناً لأبيات من وضعه)، ويتمتعون «بسهولة» يفوقون بها أياً من الرسامين، فيتخيلون أنّ الحياة التي يعيشونها ليست تلك التي ربّما كانت توافقهم ويؤدّون مشاغلهم الإيجابيّة إمّا بشيء من اللامبالاة الممزوجة بالهوى، وإمّا باجتهاد متواصل مليء بالترفّع والازدراء والمرارة والوجدان. كان طويل القامة حسن الخلقة، ذا محيّا يوحي بالتفكير ورقّة الملامح يكسوه شاربان أشقران طويلان، ونظرة له زرقاء متعبة، وكان رقيق التهذيب ومحدّثاً لم يتسن لنا في يوم أن نسمع مثله. كان في نظر أسرتي التي تضرب به المثل على الدوام مثال رجل النخبة الذي ينظر إلى الحياة أنبل ما تكون النظرة وأرقها. على أن جدّتي كانت تأخذ عليه فقط أنّه يتجاوز في حديثه حدّ الإجادة وأنّه أقرب إلى العبارة المكتوبة وأنّ لغته تخلو من طابع الفطرة الذي تتميّز به ربطات عنقه الشائبة على الدوام وسترته المستقيمة وكأنها سترة تلميذ مدرسة. وكانت تتملكها الدهشة كذلك إزاء المقاطع الملتهبة التي غالباً ما يلقيها ضدّ الأرستقراطية والحياة الدنيويّة والتحذلق «وهو بالتأكيد الخطيئة التي يعنيها القديس بولس حينما يتحدّث عن الخطيئة التي لا غفران لها».

ذلك أن الطموح البشري شعور كانت جدّتي عاجزة عن الإحساس به وحتى عن إدراكه إلى حدّ يبدو لها معه أنّ إبداء مثل هذه الحماسة للتنديد به عديم الجدوى. كما أنها لم تكن تضع موضع الذوق الرفيع أن يتهجّم السيّد «لوغراندان» الذي تزوّجت شقيقته على مقربة من «بالبيك» أحد النبلاء النورمانديين بمثل هذا العنف على النبلاء ويبلغ به الأمر أن ينحي باللائمة على الثورة لأنّها لم تقطع رؤوسهم جميعاً.

وكان يقول وهو يتقدّم إلى ملاقاتنا: «السلام، أيها الأصدقاء! إنكم سعداء لأنكم تمكثون وقتاً طويلاً ههنا، فغداً ينبغي لي أن أعود إلى باريس، إلى كوخي الصغير». ويضيف بهذه الابتسامة التي تخالطها السخرية والخيبة، هذه الابتسامة الساهية بعض الشيء التي ينفرد بها: «في بيتي بالتأكيد جميع الأشياء التي لا طائل تحتها ولا أفتقد فيه سوى الضروري، سوى رقعة واسعة من السماء كما هو الأمر ههنا». ثم يضيف وهو يلتفت إليّ: «جاهداً إحفظ دوماً رقعة من السماء فوق حياتك أيّها الصبي الصغير، فإن لديك روحاً حلوة نادرة الصفات، طبيعة فنّان، فلا تدعها تفتقر إلى ما يلزمها».

وحينما كانت عمّتي تستعلمنا لدى عودتنا إن كانت السيّدة «غوبي» وصلت متأخّرة إلى القدّاس كنّا نعجز عن إعلامها. إلا أننا نضيف بالمقابل إلى قلقها بقولنا إن رسّاماً يعمل في الكنيسة على نقل الزجاج الملوّن الذي وضعه «جيلبير لو موفيه». وتعود «فرانسواز» التي أُرسلت في الحال إلى السّمان بخفّي حنين بسبب غياب «تيودور» الذي كانت مهنته المزدوجة كمرتِّل يشرف على قسم من صيانة الكنيسة وكأجير سمّان له صلات بجميع الطبقات تزوّده بمعارف شاملة.

وتتنهّد عمّتي قائلة: «آه! أردت لو حلّت ساعة مجيء «أولالي»، فليس بالحقيقة من يستطيع سواها أن يقول لي ذلك».

كانت «أولالي» بنتاً عرجاء نشيطة صمّاء «اعتزلت» بعد وفاة السيّدة «دي لا بروتونّري»، وكانت في خدمتها منذ الطفولة، واتخذت غرفة قرب الكنيسة تنزل منها دوماً إمّا إلى الصلوات وإمّا في خارج أوقات الصلاة لترفع صلاة قصيرة أو لتمدّ يد العون لِ«تيودور»، وفي ما تبقّى من الوقت كانت تذهب لزيارة بعض المرضى من أمثال عمّتي «ليوني» فتروي لها ما جرى في القداس أو في صلاة الغروب. وما كانت تقف موقف المزدري من إضافة إيراد عارض إلى الراتب الضئيل الذي تؤديه لها أسرة مواليها القدماء وذلك بأن تذهب بين الحين والحين لتلقي نظرة على غسيل

الخوري أو أيّة شخصيّة أخرى بارزة من مصافّ الإكليروس في «كومبريه». كانت ترتدي فوق رداء من القماش الأسود قبّعة بيضاء صغيرة كادت تكون قبعة راهبة بينما يضفي مرض جلديّ على وجنتيها وأنفها المعقوف ألوان البيلسان الورديّة الزاهية. وكانت زياراتها تشكّل التسلية الكبرى بالنسبة إلى عمّتي «ليوني» التي لم تعد تستقبل أحداً سواها، فيما عدا السيّد الخوري. وقد استبعدت عمتي شيئاً فشيئاً جميع الزوّار الآخرين لأنهم كانوا على ضلال لانتمائهم جميعاً في نظرها لهذه الفئة أو تلك من الناس الذين تكرههم. فالبعض، وهم أشدّهم سوءاً وقد تخلّصت منهم قبل سواهم، كانوا من قوم يشيرون عليها ألا «تصغي لنفسها» ويعلّمون، ولو تمّ ذلك سلباً ودون إبراز الأمر إلّا ببعض لحظات من صمت يبطّنه الاستنكار أو بعض ابتسامات يبطّنها الشكّ، العقيدة الهدّامة القائلة بأن نزهة قصيرة في الشمس إلى جانب «بفتيك» أحمر (في حين تثقل معدتَها على مدى أربع عشرة ساعة بلعتان من مياه «فيشي»!) خير لها من سريرها وعقاقيرها. أمّا الفئة الأخرى فيؤلّفها أشخاص يبدو أنّهم يظنّونها أشدّ مرضاً ممّا تظنّ، وأنّها في مثل خطورة المرض الذي تدّعي. فالذين سمحت لهم أن يصعدوا بعد ما تردّدت في ذلك ونزلت عند إلحاح «فرانسواز» شبه الرسمي والذين أبدوا في أثناء زيارتهم إلى أي حدّ كانوا غير أهل للحظوة التي ينالونها فيقولون بوجل: «ألست تعتقدين أنّك لو تحركت قليلاً في طقس جميل» أو يجيبون على العكس حينما تقول لهم: «صحّتي تتدهور، تتدهور كثيراً، إنّها النهاية يا أصدقائي المساكين»، فيردفون قائلين «آه! يومَ تتدهور الصحّة! غير أنّه يمكن أن تدوم بك الحال هكذا فترة طويلة»، هؤلاء كانوا واثقين، سواء هذا الفريق أو ذاك، بأنّه لن يتمّ استقبالهم بعد ذلك البتّة. ولئن اغتبطت «فرانسواز» من المظهر المذعور الذي تبدو فيه عمّتي حينما تبصر من سريرها أحد هؤلاء الأشخاص في شارع «الروح القدس» وقد بدا عليه أنّه مقبل لزيارتها أو حينما تسمع رنّة الجرس، فقد كانت تضحك أكثر فأكثر، وكأنّما من خدعة، من جرّاء حيل عمّتي المنصورة على الدوام من

الإفلاح بطردهم ولمنظر الخيبة على وجوههم وهم يعودون دون أن يروها، وهي في الأعماق تنظر بإعجاب إلى مولاتها التي تحكم أنّها تفوق جميع هؤلاء الناس بما أنّها ترفض استقبالهم. لقد كانت عمّتي تطالب، باختصار القول، أن يوافق الناس على نظام حياتها وأن يرثوا لحالها من جرّاء عذابها وأن يطمئنوها على مستقبلها في آن معاً.

وكانت «أولالي» بارعة في ذلك، إذ تستطيع عمّتي أن تقول لها عشرين مرّة في مدى دقيقة واحدة: «إنها النهاية يا «أولالي» المسكينة»، فتجيب «أولالي» عشرين مرّة بقولها: «إني أعرف مرضك مثلما تعرفينه يا سيّدة «أوكتاف» ولسوف تبلغين المئة، كما قالت لي البارحة السيّدة «سازران». (وكان أحد أكثر معتقدات «أولالي» رسوخاً والذي لم يكن العدد الكبير من صنوف التكذيب الذي جادت به التجربة كافياً للمساس به قوامه أن السيّدة «سازيرا» تدعى السيّدة «سازران».).

وتجيب عمّتي التي تفضّل ألا تُحَدَّدَ لأيّامها نهاية دقيقة: «إني لا أطالب ببلوغ حدّ المئة عام».

وبما أن «أولالي» كانت تعلم أفضل من أي سواها كيف تسلّي عمّتي من دون إرهاقها فقد كانت زياراتها التي تجرى أيّام الآحاد بانتظام، إن لم يحل دونها أمر غير منتظر، مصدر غبطة لعمّتي تمسك بها فكرتها في تلك الأيّام في حالة من البهجة بادئ الأمر سرعان ما تنقلب إلى حالة مؤلمة إيلام جوع بالغ لأقلّ ما تتأخّر «أولالي». فهذه اللذة في انتظار «أولالي» كانت تستحيل عذاباً إذا ما تطاولت كثيراً، وعمتي لا تنفكّ تنظر إلى الساعة وتتثاءب وتحسّ بالكثير من الوهن. وإن اتّفق لرنّة جرس «أولالي» أن تجيء في آخر النهار حين لا يظلّ لها أمل بها فقد كانت توشك أن يغمى عليها. لقد كانت في الواقع لا تفكّر أيام الآحاد إلّا بهذه الزيارة، وما إن ينتهي الغداء حتى تستعجلنا «فرانسواز» في إخلاء غرفة الطعام كي تستطيع الصعود «لإشغال» عمّتي. على أن ساعة الظهر الأبيّة (وبخاصّة منذ اللحظة التي يحلّ فيها الطقس الجميل في «كومبريه») قد نزلت منذ فترة

طويلة من برج القديس «هيلاريون» الذي زيّنته بالزهرات الاثنتي عشرة التي تؤلّف تاجه الرنان ودوّت حول مائدتنا وبالقرب من الخبز المقدّس الذي بادر إلينا هو الآخر إليفاً وهو يغادر الكنيسة، ونحن لا نزال جالسين أمام صحون **الألف ليلة وليلة** وقد أثقل علينا الحرّ وبخاصّة الطعام. فإلى جانب خلفيّة لا تتبدّل من البيض والأضلاع والبطاطا والمربّيات والبسكويت لم تعد «فرانسواز» تعلن عنها، كانت تضيف - توفيقاً مع الأعمال في الحقول والبساتين وما يجود به البحر وتوفِّره الصدفة في الأسواق أو كان من كرم الجيران أو تفتّقت عنه عبقريتها حتى إن صنوف طعامنا كانت تعكس بعض الشيء تعاقب الفصول وحوادث الحياة كمثل هذه الورقات الأربع التي كانوا ينقشونها في القرن الثالث عشر على أبواب الكاتدرائيّات -: فسمكة لأن البائعة أكّدت لها أنّها طازجة، وحبشة لأنّه تسنّى لها أن ترى واحدة مكتنزة في سوق «روسّانفيل لوبان»، وأرضي شوكي بالمرق الأبيض لأنها لم تعدّ لنا بعد منه بهذه الطريقة، وفخذ خروف مشوي لأنّ الهواء الطلق يفرغ المعدة ولأن الوقت يتّسع لهضمه حتى السابعة، وسبانخ للتغيير، ومشمش لأنّه لا يزال نادراً، ومشمش لأنّ موسمه ينتهي بعد خمسة عشرة يوماً، وتوت علّيق جلبه «سوان» خصّيصاً، وكرز وهو أوّل ما جادت به الحديقة بعد انقطاع عامين، وجبنة بالقشطة أحببتها كثيراً فيما مضى، وحلوى باللوز لأنها أوصت عليها بالأمس وكعكة كبيرة لأنّه حان دورنا في تقديمها. وعندما ينتهي كل ذلك، تأتينا كريما بالشوكولاته صنعت خصّيصاً من أجلنا ولكنّها مهداة بالتخصيص لوالدي الذي يهواها فتقدّم لنا على أنها من وحي «فرانسواز» وعنايتها الخاصّة هوائية خفيفة وبمثابة عمل فني أملته الظروف وأنفقت فيه كلّ فنها. فإن اتّفق لأحد أن يرفض تذوّقها بقوله: «انتهيت ولم يعد بي جوع» فقد انحدر في الحال إلى مصافّ هؤلاء الأجلاف الذين ينتبهون حتى في الهديّة التي يقدّمها لهم أحد الفنّانين للوزن والمادّة في حين لا ينفع فيها سوى القصد والتوقيع. وربّما برهنت حتى قطرة واحدة تتركها في القصعة عن قلّة

الأدب نفسها التي تتجلّى في الوقوف قبل نهاية المقطوعة أمام سمع الملحن وبصره.

وفي الختام تقول لي أمّي؛ «هيا، لا تمكث ههنا إلى ما لا نهاية، اصعد إلى غرفتك إن ثقل عليك الحرّ في الخارج. ولكن اذهب أوّلاً واستنشق الهواء الطلق لفترة كي لا تقرأ وأنت تغادر مائدة الطعام». وكنت أذهب وأجلس بالقرب من مضخّة الماء وجرنها، وغالباً ما زُيّنَ شأن الأحواض القوطيّة بسمندل يحفر على الحجر الخشن ظِلّ جسمه المتحرّك المغزَليّ الرمزيّ، على مقعد بدون ظهر في ظلّ شجرة ليلك وفي هذه الزاوية الصغيرة من الحديقة التي تؤدّي بوساطة باب خلفي إلى شارع «الروح القدس» والتي يرتفع على أرضها المهملة مقدار درجتين ويبرز فيها عن المنزل المطبخ الخلفيّ وكأنّه مستقلّ. وكان يمكن رؤية بلاطه الأحمر اللمّاع وكأنّه من الرخام السمّاقي، وكان يبدو كمعبد صغير لِ«فينوس» أكثر منه كهفاً لِ«فرانسواز» وتراه يغصّ بتقدمات الحلّاب وبائع الفواكه وبائعة الخضار وكلّهم جاؤوا أحياناً من قُراهم البعيدة ليقدّموا له بواكير إنتاج حقولهم. وكان يتوّج قمته على الدوام هديل حمامة.

وكنت لا أتأخّر فيما مضى في الحرج المكرّس الذي يحيط به لأنّني كنت أدخل، قبلما أصعد لمباشرة القراءة، إلى حجرة الاستراحة الصغيرة التي يشغلها في الطابق الأرضيّ خالي «أدولف» أحد أشقّاء جدّي لأمّي، وهو عسكري قديم أحيل على التقاعد برتبة رائد، والتي كانت تنبعث منها دون انقطاع، حتى حينما تسمح النوافذ المفتوحة بدخول الدفء أو حتى أشعة الشمس التي نادراً ما تصل إلى هناك، تلك الرائحة الغامضة الباردة الحراجيّة والمتقادمة العهد في آن واحد والتي تثير أحلام الأنوف طويلاً حينما تدخل في بعض أكشاك الصيد المهجورة. ولكنّي لم أعد أدخل إلى حجرة خالي «أدولف» منذ سنوات عديدة لأنّ هذا الأخير انقطع عن المجيء إلى «كومبريه» بسبب شجار وقع بينه وبين عائلتي، وكنت المذنب، وذلك في الظروف التالية:

كانوا يرسلونني في باريس مرّة أو اثنتين في الشهر لأزوره حالما ينتهي من تناول غدائه وهو يرتدي بدلة العمل ويتولّى تقديم الطعام خادمه الذي يرتدي سترة شغل من الخام المخطّط باللونين البنفسجيّ والأبيض. وكان يشتكي متأفّفاً من أنّني لم آتِ منذ زمن طويل وأنّهم يهملونه. ثم يقدّم لي حلوى باللوز أو «يوسفيّة»، ونجتاز صالة لم نتوقّف فيها في يوم ولم توقد النار يوماً فيها، وقد زيّنت جدرانها بزخارف مذهبة وطلي السقف بلون أزرق يجهد في محاكاة السماء، ونجّد الأثاث بالساتين كما هو الأمر في بيت جدّي، ولكنّه من اللون الأصفر. ثم كنّا نمرّ في ما يدعوه غرفة عمله والتي علّقت على جدرانها رسوم تمثّل على خلفيّة سوداء إلهة متكنزة مورّدة تقود عربة وقد اعتلت كرة أرضية أو علت جبينها نجمة، من رسوم كانوا يحبّونها في عهد الإمبراطورية الثانية لأنّهم يرون لها مظهراً يقرّبها من «بومبيي»، ثم أبغضوها وعادوا يحبّونها لسبب واحد لا يتبدّل، على الرغم من جميع الأسباب الأخرى التي يتذرعون بها، وقوامه أنّ مظهرها يذكّر بالإمبراطورية الثانية. وكنت أمكث مع خالي حتى يجيء خادمه ويسأله، على لسان حوذيّه، أية ساعة ينبغي له أن يسرج خيله. ويستغرق خالي إذ ذاك في تأمّل يخشى خادمه أن يعكّر صفوه بحركة واحدة وقد أخذ منه العجب وظل ينتظر بفضول نتيجته التي لا تتبدّل. ثم يتلفّظ عمّي أخيراً على نحو محتوم وبعد تردّد أخير بهذه الكلمات: «في الثانية والربع» التي يردّدها الخادم مستعجباً ولكن دونما نقاش: «في الثانية والربع؟ حسن... سأبلّغ ذلك...».

وكنت في تلك الحقبة مغرماً بالمسرح غراماً عذريّاً لأنّ والديّ لم يسمحا لي يوماً بارتياده وكنت أتخيّل المسرّات التي يتذوّقونها فيه تخيّلاً بعيداً عن الدقّة لدرجة أنّي ما كنت أستبعد الظنّ بأنّ كلّ مشاهد يشاهد كأنما في منظار مجسّم المناظر التي وضعت من أجله وحده، مع أنها شبيهة بآلاف المناظر الأخرى التي يشاهدها كلّ في ما يخصّه من سائر المشاهدين الآخرين.

وفي كل صباح كنت أجري حتى عمود «موريس» لأطّلع على الحفلات التي يعلن عنها. ولم يكن لديّ ما يضاهي في التجرّد والغبطة الأحلام التي تقدّمها لخيالي كلّ رواية معلن عنها، وكانت تلك الأحلام تتكيّف مع الصور التي لا تنفصل عن الكلمات التي تؤلّف عنوانها ولا عن لون الملصقات التي ما تزال رطبة ومنفّخة من جرّاء الصمغ والتي يبرز فوقها العنوان. وما من شيء يبدو لي، فيما عدا أحد هذه المؤلّفات الغريبة من مثل «**وصيّة قيصر جيرودو**» و«**أوديب ملكاً**» اللذين يَرِدان لا على ملصقة الأوبرا الهزلية الخضراء بل على ملصقة مسرح الكوميديا الفرنسية الحمراء العاتمة، أكثر اختلافاً عن الريشة البرّاقة البيضاء لرواية «**ماسات التاج**» من الساتين الناعم المليء بالأسرار لرواية «**الدومينو الأسود**»؛ ولمّا قال لي والداي إنّه كان عليّ أن أختار لدى ذهابي للمرّة الأولى إلى المسرح بين هاتين الروايتين فقد توصّلت، وأنا أحاول تعميق عنوان هذه وعنوان تلك على التوالي، بما أن كلّ ما أملك منهما ينحصر في العنوان وذلك لأجهد في أن أدرك في كل منهما اللذة التي يخبئها لي وأماثل بينهما وبين ما يخبّئ الآخر، توصّلت إلى أن أتمثّل بكثير من القوّة روايةً رائعة مهيبة من جهة ومن جهة أخرى رواية ناعمة مخمليّة إلى حدّ أنّي كنت عاجزاً أن أقرّر أيّاً من الاثنتين أوثر عجزي في الاختيار لو أعطيت أن أختار بين حلوى «الرز الإمبراطوري وكريما الشوكولاته».

وأصبحت جميع أحاديثي مع رفاقي تنصبّ على هؤلاء الممثّلين الذين يؤلّف فنّهم، مع أنّه لا يزال مجهولاً لديّ، الشكل الأول الذي استشفّ من رواية «الفنّ» من بين جميع تلك التي يظهر بها. فقد كانت تبدو لي أدقّ الاختلافات في الطريقة التي يقوم بها هذا أو ذاك بإلقاء مقطع مسرحيّ من أهمية لا تقدر. وكنت أصنّفهم حسبما روي لي عنهم بمقدار موهبتهم وفي لوائح أردّدها لنفسي طوال النهار فكان أن تصلّبت داخل دماغي وأخذت تضايقه من جرّاء جمودها.

وحينما دخلت فيما بعد المدرسة الإعدادية كان أوّل سؤال لي كلّما

تحدّثت أثناء الدروس مع صديق جديد، حالما يدير الأستاذ رأسه، أن أستعلمه إن سبق له الذهاب إلى المسرح وإن كان يرى أن أعظم ممثّل هو بالحقيقة «غوت» وأنّ الثاني «دولونيه»، إلخ. وإن كان «فيفر» إنّما يحلّ ثانياً بعد «تيرون»، أو «دولونيه» بعد «كوكلان»، حسبما يرى، فإن الحركة المفاجئة التي يكتسبها «كوكلان» وقد فقد جمود الصخر لينتقل في ذهني إلى المركز الثاني والخفّة العجائبيّة والحركة الخصبة التي يبدو «دولونيه» متمتّعاً بهما ليتراجع إلى المركز الرابع إنّما تردّ لدماغي الذي استعاد مرونته وخصبه الإحساسَ بالتفتّح والحياة.

ولئن شغلني الممثّلون إلى هذا الحدّ وتسبّبت لي رؤية «موبان» وهو يغادر بعد الظهر المسرح الفرنسيّ بالذهول والعذابات التي تنجم عن الحبّ فكم كان يخلّف في نفسي اسم نجمة يلتمع على باب أحد المسارح، كم كانت تخلّف في نفسي رؤية وجه امرأة في مرآة عربة تعبر الشارع بأحصنتها التي زيّنت الورود رؤوسها، امرأة ظننت أنّها ربما كانت ممثّلة، كم تخلّف في نفسي من اضطراب مديدوجهد عقيم ومؤلم أحاول به تخيّل حياتها! لقد كنت أصنف أكثرهنّ شهرة بحسب تدرّج موهبتهنّ: «ساره بيرنار» و«لا بيرما» و«بارتيه» و«مادلين بروهان» و«جان ساماري»، ولكنهنّ يحظين جميعاً باهتمامي. وكان عمّي يعرف كثيراً منهنّ إلى جانب بنات هوى ما كنت أميّز بوضوح بينهن وبين الممثلات، وكان يستقبلهنّ في منزله. ولئن كنّا لا نذهب لزيارته إلّا في بعض الأيّام فلأن نسوة يأتين في الأيام الأخرى ولا تستطيع عائلته أن تلتقيهنّ، حسبما ترى هي على الأقلّ، أمّا عمّي فقد أدّت على العكس السهولة البالغة لديه في مجاملة أرامل حلوات ما تزوّجن ربّما في يوم، و«كونتيسّات» يحملن اسماً رنّاناً، هو لا شكّ اسم مستعار، بأن يقدّمهن لجدّتي أو حتى يتحفهنّ ببعض مجوهرات الأسرة إلى إفساد العلاقات بينه وبين جدّي أكثر من مرّة. وغالباً ما كنت أسمع والدي يقول لوالدتي لدى مرور اسم في الحديث، يقول وهو يبتسم: «إحدى صديقات عمّك». وكنت أعتقد أنّه ربّما أمكن لخالي أن

يعفي من الفترة التدريبيّة، وعبثاً يقضيها لسنوات رجال من ذوي الشأن على باب امرأة لا تستجيب لرسائلهم وتوصي بوّاب الفندق بطردهم، صبيّاً صغيراً مثلي وذلك بأن يقدّمه في منزله للممثّلة التي يتعذّر على الكثيرين الاقتراب منها وهي صديقة حميمة له.

ولذلك فقد أفدت ذات يوم غير ذلك الذي كان مخصّصاً للزيارات التي نقوم بها - بحجّة أن أحد الدروس قد تغيّر موعده فأصبح الآن في موقع حال مرّات عديدة وسوف يحول دون تمكيني من زيارة خالي - أفدت من أنّ والديّ تغدّيا في وقت مبكّر فخرجت وأسرعت حتى منزله عوضاً عن أن أذهب لرؤية عمود الملصقات حيث يُسمح لي بالذهاب وحدي. ولاحظتُ أمام بابه عربة شدّ إليها حصانان على غمامتيهما قرنفلة حمراء يحمل مثلها الحوذيّ في عروته. وسمعت من الدرج ضحكة امرأة وصوتها، ثمّ ما إن قرعت حتى ساد صمت فضجّة أبواب تغلق. وجاء الخادم ففتح، وبدا عليه الارتباك حينما رآني وقال إنّ خالي مشغول جدّاً ولن يستطيع بالتأكيد أن يستقبلني؛ وفيما كان يهمّ مع ذلك بإخطاره بلغني الصوت نفسه الذي سبق أن سمعته يقول: «بلى دعه يدخل، لدقيقة لا أكثر فسوف أجد في ذلك تسلية كبيرة. إنّه يشبه إلى حدّ بعيد والدته ابنة أخيك التي تقوم صورتها بالقرب من صورته التي على مكتبك، أليس كذلك؟ إني أرغب في رؤية هذا الصغير مقدار لحظة فقط».

وسمعت خالي يغمغم ويغضب؛ وفي النهاية أشار عليّ الخادم بالدخول.

كان على الطاولة طبق «اللوزيّة» المعتاد نفسه بينما يرتدي خالي بدلة العمل نفسها، بدلة كل يوم؛ لكنّما تجلس قبالته في ثوب من الحرير الورديّ وقلادة كبيرة من اللؤلؤ حول العنق امرأة شابّة تنتهي من أكل «يوسفيّة». وأخجلتني الحيرة التي كنت فيها إن انبغى أن أقول لها سيّدة أو آنسة، ولما لم أجرؤ أن ألتفت طويلاً إليها مخافة أن أضطرّ إلى محادثتها فقد تقدّمت وعانقت عمّي. وكانت تنظر إليّ باسمة، فقال لها عمّي:

«حفيد أخي» دون أن يقول لها اسمي أو يقول لي اسمها لأنّه ربّما كان يحاول منذ المصاعب التي نشأت بينه وبين جدّي أن يتجنّب قدر المستطاع كلّ صلة وصل بين أسرته وهذا النوع من معارفه.

وقالت: «ما أكثر ما يشبه والدته».

وقال خالي بلهجة نزقة فظة: «ولكنّك لم تشاهدي ابنة أخي إلا في الصورة».

- «أستميحك عذراً يا صديقي العزيز، لقد قابلتها على الدرج في السنة الفائتة حينما تفاقم مرضك. صحيح أني لم أشاهدها إلّا مقدار ومضة وأنّ درجكَ عاتم جدّاً، ولكنّ الوقت كان كافياً كيما أنظر إليها بإعجاب. إنّ لهذا الشابّ الصغير عينيها، وهذا أيضاً، تقول وهي ترسم بإصبعها خطّاً على أسفل جبينها. ثمّ سألت عمّي قائلة: «هل السيّدة ابنة أخيك تحمل الاسم الذي تحمله أنت؟»».

وغمغم خالي الذي ما كان يهتّم بالتعريف بالناس عن بعد، وذلك بذكر اسم والدتي، أكثر ممّا يفعل عن قرب: «إنّه يشبه والده بالأخصّ، فهو محض والده، وأمّي المسكينة كذلك».

وقالت السيّدة ذات الثوب الورديّ وهي تحني الرأس قليلاً: «لست أعرف والده ولم أعرف أمّك المسكينة في يوم يا صديقي. وإنّك لتذكر أنّنا تعارفنا بعد حزنك الكبير بفترة وجيزة».

وأحسست بخيبة صغيرة لأنّ هذه السيّدة الشابّة لا تختلف عن باقي النساء الجميلات اللواتي كنت أراهنّ أحياناً في أسرتي، وبخاصة عن ابنة أحد أبناء عمومتنا الذي كنت أذهب لزيارته كلّ عام في الأوّل من كانون الثاني. لقد كانت صديقة خالي أفضل لباساً فحسب، ولكنّها في مثل نظرتها الحادّة الطيبّة وفي مثل مظهرها الصادق المحب. وما كنت ألفي فيها شيئاً من الهيئة المسرحية التي أعجبت بها في صور الممثّلات ولا من السيماء الشيطانيّة التي تتّفق والحياة التي كان ينبغي أن تعيشها. وكان من

العسير عليّ الاعتقاد بأنها من بنات الهوى وما كنت بخاصّة لأعتقد بأنّها من الصنف الرفيع لو لم أشاهد العربة بحصانين والثوب الوردي وعقد اللؤلؤ ولو لم أعلم أن خالي ما كان يعرف إلّا أرفع المستويات. ولكنّي كنت أتساءل كيف يمكن للمليونير الذي كان يقدّم لها عربتها وفندقها ومجوهراتها أن يصيب لذّة في ابتلاع ثروته من أجل امرأة تبدو بسيطة إلى هذا الحدّ ولائقة. ولكنّي حين أفكّر مع ذلك في ما ينبغي أن تكون عليه حياتها فإن لاأخلاقيّتها تبعث فيّ اضطراباً أكبر مما لو حتى كانت مشخصة أمامي في مظهر خاصّ - وذلك لكونها على هذا النحو غير مرئية شأن السرّ في بعض الروايات وفي بعض الفضائح التي أخرجت من بيت الأهل البورجوازيين ووضعت لحساب الجميع وغمرت بالجمال ورفعت حتى درجة الهوى والشهرة، تلك التي تحملني حركات وجهها ونبرات صوتها الشبيهة بالكثير ممن سبقت لي معرفتهنّ إلى أن أنظر إليها مرغماً على أنّها فتاة من أسرة مرموقة لم تعد تنتمي إلى أيّة أسرة.

وانتقلنا إلى المكتب وقدّم لها خالي سجائر والارتباك بادٍ عليه من جرّاء وجودي، فقالت: «لا، أيّها العزيز، فأنت تعلم أنّني تعوّدت تلك التي يبعث بها إليّ «الدوق الكبير» وقد أخبرته أنّ الغيرة تملّكتك من جراء ذلك». ثم أخذت في علبة سَجَائِرَ تغطّيها كتابات أجنبيّة مذهبة. وأضافت فجأة تقول: «بلى، لا بدّ أنّني التقيت بوالد هذا الشاب في منزلك. أليس ابن أختك؟ كيف استطعت أن أنسى ذلك؟ لقد كان طيّباً جدّاً وعذباً جدّاً في ما يخصّني»، وتقولها بهيئة متواضعة بادية التأثّر. إلّا أنّني أحسست وأنا أفكر في ما أمكن أن يكون الاستقبال الفظّ الذي تقول إنّها وجدته عذباً لدى والدي وأنا أعرف مدى تحفّظه وفتوره، أحسست بالضيق، وكأنّما من جرّاء فظاظة ارتكبها، من اللاتساوي بين الامتنان البالغ الذي تبديه له وما يردّ به من تلطّف هزيل. وبدا لي فيما بعد أنّ من أحد الجوانب المؤثّرة في دور هؤلاء النسوة العاطلات عن العمل والمجدّات أنهنّ يكرّسن نفوسهنّ وموهبتهنّ وحلماً قريب المتناول من الجمال العاطفيّ

- لأنهنّ لا يحقّقن هذا الحلم شأن الفنّانين ولا يُدخلنه في إطار الحياة العاديّة - وذهباً لا يكلّفهنّ إلّا القليل وذلك ليرصّعن بجواهر ثمينة وفاخرة حياة الرجال الخشنة وغير المصقولة. ومثلما كانت هذه الأخيرة تنشر جسدها البالغ العذوبة وثوبها الحريري الورديّ ولآلئها والأناقة التي تنبعث من صداقة «دوق كبير» في قاعة التدخين التي يستقبلها فيها عمّي ببدلة العمل، فقد اقتطعت كذلك بعضاً من حديث تافه لوالدي وعالجته بلطف وأضفت عليه طابعاً واسماً أنيقين ورصّعته بواحدة من تلك النظرات الشديدة الصفاء التي يلوّنها التواضع والامتنان فجعلته ينقلب إلى جوهرة فنيّة، إلى شيء «لذيذ تماماً».

وقال لي خالي: «هيّا، لقد آن لك أن تذهب».

ونهضت وكانت بي رغبة لا تقاوم في تقبيل يد السيّدة ذات الحلّة الورديّة، ولكنّما يبدو لي في ذلك من الجرأة ما يشبه عمليّة الخطف. وكان قلبي يخفق وأنا أقول في نفسي: «هل ينبغي لي أن أفعل ذلك أو لا أفعله» ثم توقّفت عن مساءلة نفسي عمّا ينبغي لي أن أفعله لأستطيع أن أفعل شيئاً، وبحركة عمياء مجنونة عارية من جميع الأسباب التي لقيتها منذ لحظة في صالحها طبعت شفتيّ على اليد التي كانت تمدّها لي.

- «كم هو لطيف! إنّه رقيق المعشر منذ الآن وعارف بقدر النساء، وهو بذلك قريب من عمّه»، ثم أضافت «سوف يصبح «جنتلمن» إلى أبعد حدّ» وهي تقرّب أسنانها لتضفي على الجملة نبرة إنكليزيّة بعض الشيء. «أليس يستطيع المجيء مرّة ليتناول كوب شاي(١)، كما يقول جيراننا الإنكليز؟ ما عليه إذ ذاك إلا أن يبعث لي في الصباح برسالة مستعجلة»(٢).

وما كنت أعرف ما تعنيه لفظة «الرسالة المستعجلة»، ولا أدرك نصف المفردات التي تنطق بها السيّدة، ولكنّ خوفي أن يكون هنالك سؤال دفين

---

(١) «cup of tea» وردت بالإنكليزية في النص، مما يفسّر الملاحظة التي تلي.
(٢) un bleu : وهو اللون الذي كان مستعملاً في الرسائل المستعجلة.

يبدو من سوء التهذيب ألا أجيب عليه كان يحول دون الكفّ عن الإصغاء إليهما بانتباه ممّا يورث لي تعباً كبيراً.

ولكنّ خالي قال وهو يرتفع بمنكبيه: «لا! ذلك مستحيل، فهو مراقب عن كثب ويعمل كثيراً». ثم أضاف وهو يخفض صوته كي لا أسمع الكذبة ولا أقول نقيضها: «إنّه يحوز جميع الجوائز في صفّه. ومن يدري؟ ربّما أصبح «فيكتور هوغو» آخر ونوعاً من «فولابيل».

وأجابت السيّدة ذات الحلّة الورديّة: «إنّي أعبد الفنّانين، فهم وحدهم يفهمون النساء... هم وجماعة النخبة من أمثالك فحسب. أعذر جهلي أيّها الصديق، فمن يكون «فولابيل»؟ هل تعني به المجلّدات المذهبة التي في المكتبة الصغيرة المزجّجة الكائنة في البهو الصغير؟ تعلم أنّك وعدت بأن تعيرني إيّاها، وسوف أُعنى بها عناية كبيرة».

كان خالي يكرهُ أن يعير كتبه فلم يجب شيئاً وخرج بصحبَتي حتى قاعة الانتظار. وانكببت أطبع قبلات محمومة على وجنتي خالي العجوز اللتين تعشش فيهما رائحة التبغ، وقد جننت بحبّ السيّدة ذات الحلّة الورديّة. وفيما كان يُسمعني، والارتباك بادٍ عليه ودون أن يجرؤ على مصارحتي، أنّه يفضل ألا أتحدّث عن هذه الزيارة لوالديّ، كنت أقول له والدمع يجول في عينيّ أن ذكر عطفه بالغ في نفسي حتى إنني سأجد ذات يوم الوسيلة التي أعرب فيها عن جميله. وكان في الحقيقة بالغاً حتى إنّني بعد ساعتين وعقب بعض الجمل المحمّلة بالأسرار والتي لم يبد لي أنها تزوّد والدي بفكرة واضحة عن الأهمية الجديدة التي كسبتها وجدتُ من الأوضح أن أروي لهما عن الزيارة التي قمت بها بأدقّ التفاصيل، وما ظننت أني أسبّب بذلك إزعاجاً لخالي. وكيف أظن «ذلك وأن لا أرغب فيه؟» وما كان بوسعي أن أفترض أنّ أهلي سيرون سوءاً في زيارة لا أرى فيها شيئاً من هذا القبيل. أليس يتّفق لنا في كلّ يوم أن يطالبنا صديق بأن لا يفوتنا إيجاد العذر له لدى امرأة لم يستطع أن يكاتبها فنهمل القيام بالأمر ونحكم أنّ هذا الشخص لا يمكن أن يعلّق أهميّة على صمت لا أهميّة له لدينا؟ وكنت

أتخيّل، شأن جميع الناس، أن دماغ الآخرين وعاء جامد وطيّع لا يملك سلطان ردّ فعل نوعيّ على ما يُزَجُّ فيه، ولا أشك أنّني إذ ألقي دماغ أهلي بخبر الشخص الذي عرّفني به خالي فإنّما أنقل إليهم في الوقت نفسه، حسبما أتمنّاه، الحكم الرفيق الذي أحكم به على هذا التعريف. غير أنّ أهلي احتكموا لسوء الحظّ إلى مبادئ تختلف اختلافاً تامّاً عن تلك التي كنت أوحي إليهم بتبنّيها حينما رغبوا في تقييم فعلة عمّي. فقد طالبه والدي وجدّي مطالبة عنيفة بتبرير تصرّفه، وبلغني خبر الأمر على نحو غير مباشر: ذلك أنّي بعد بضعة أيّام صادفت عمّي في الخارج وهو يمرّ بعربته المكشوفة فأحسست بالألم والامتنان وتبكيت الضمير، وكنت راغباً أن أعرب له عنها. ولكنّي وجدت أن التلويح بالقبّعة ربّما بدا صغيراً وأوحى لعمّي أنّني لا أظنّ نفسي ملزماً بأكثر من مجاملة بسيطة إزاءه. وقرّرت أن أمتنع عن هذه الحركة التي لا تفي بالغرض وأدرت رأسي. وظنّ عمّي أنّي أرضخ في ذلك لأوامر أهلي فلم يغتفر لهم الأمر وتوفيّ بعد سنوات كثيرة دون أن يراه أحد منّا البتة.

ولم أعد لذلك أدخل إلى حجرة استراحة عمّي «أدولف» وهي الآن مغلقة، وبعدما تأخّرت على مقربة من المطبخ الداخلي حينما تقول لي «فرانسواز» وهي تخرج إلى الفناء: «سوف أدع لخادمة المطبخ أن تقدّم القهوة وتحمل الماء الساخن إلى فوق، فينبغي أن أسرع لزيارة السيّدة أوكتاف»، قرّرت أن أعود وصعدت رأساً إلى غرفتي لأقرأ. كانت خادمة المطبخ شخصيّة اعتباريّة ومؤسّسَةً دائمة ضمنت لها صلاحيّاتٌ لا تتبدّل ضرباً من الاستمرار والهويّة عبر توالي الأشكال العابرة التي تتجسّد فيها، لأنّنا لم نتّخذ الخادمة نفسها لسنتين متواليتين. ففي السنة التي تناولنا الكثير من الهليون فيها كانت خادمة المطبخ المكلّفة عادة بتنظيفه مخلوقة مسكينة مهزوزة الصحّة في حالة متقدّمة من الحمل حينما وصلنا في الفصح، ولقد دهشنا أن تسمح لها «فرانسواز» بالقيام بالكثير من المشاوير والشغل، وقد أخذت تحمل أمامها بصعوبة السلّة الغامضة التي تمتلئ أكثر فأكثر كلّ يوم

والتي يُسْتَشَفُّ شكلها الرائع تحت «مريلاتها» الفضفاضة. وكانت هذه تذكّر بالعباءات التي تلفّ بعض شخصيّات «جيوتّو» الرمزيّة التي زوّدني السيّد «سوان» بصور عنها. وقد حملنا بنفسه على ملاحظة ذلك، فحينما كان يسائلنا عن أخبار خادمة المطبخ كان يقول: «كيف حال المحبّة لِ«جيوتّو»؟ «لقد كانت الفتاة المسكينة على أية حال، وقد بلغ سمنها من جرّاء حملها وجهَها ووجنتيها اللتين تتهدّلان بخطوط تستقيم وتتعامد، كانت تشبه إلى حدّ تلك العذراوات الممتلئات المسترجلات، المسنّات على الأرجح اللواتي شخّصت الفضائل بهن في «الحلبة» (Arena). وقد انتبهت الآن أنّ هذه «الفضائل» و«الرذائل» الموجودة في مدينة «بادوفا» إنّما تشبهها أيضاً بطريقة أخرى. فمثلنا تتعاظم صورة هذه الخادمة من جرّاء الرمز المضاف الذي تحمله أمام بطنها دون أن يبدو أنّها تدرك معناه ودون أن يدلّ شيء في وجهها على جماله وروحه، تحمله وكأنّه محض حمل ثقيل، كذلك تجسّد الخادمة القويّة التي رسمت في «الحلبة» تحت اسم «المحبّة» والتي كانت نسختها معلّقة على حائط صالة دروسي في «كومبريه»، تجسّد هذه الفضيلة دون أن يبدو عليها أنّها تشكّ في الأمر ودون أن يكون وجهها الحازم العادي قد استطاع ذات يوم التعبير عن أيّة فكرة محبّة. ونراها بفضل ابتكار جميل للرسام تدوس بقدميها كنوز الأرض ولكن كما لو أنّها تدوس بقدميها بالضبط عنباً بغية استخراج العصير منه أو كما لو أنّها بالأحرى تعتلي أكياساً لتزيد من قامتها، وتمدّ إلى اللّه قلبها الملتهب أو هي بالأحرى «تمرّره» له مثلما تمرّر طبّاخة فتّاحةَ زجاجات من كوّة القبو لشخص يطلبها منها من نافذة الطابق الأرضيّ. أمّا الحسد فلعلّه كان يعبّر أكثر من غيره عن شيء من الحسد. ولكنّ الرمز يشغل في هذا الرسم الجداريّ أيضاً مكاناً كبيراً جدّاً وقد صوّر فيه على أنّه حقيقي إلى حدّ بعيد وبدت الحيّة التي تصفر بين شفتي «الحسد» ضخمة جدّاً وهي تملأ فمه المفتوح تماماً إلى حدّ تتمدّد معه عضلات وجهه كي تستطيع احتواءها، كمثل عضلات طفل ينفخ بالوناً عن طريق نَفَسِهِ، ويتركّز انتباه «الحسد» -

وانتباهنا في الآن نفسه - بكلّيته على ما تفعل الشفتان حتى لا يظل له من الوقت ما يصرفه إلى نوايا حاسدة.

وعلى الرغم من كل الإعجاب الذي يبديه السيّد «سوان» لأشخاص «جوتّو» هذه فقد ظللت زمناً طويلاً لا تعتريني أيّة لذّة في النظر داخل حجرة الدرس التي علّقت فيها النسخ التي جاءني بها إلى هذه «المحبّة» الخالية من المحبّة، وهذا «الحسد» الذي يبدو وكأنّه لوحة توضح فحسب في كتاب طبّي ضغط المزمار أو اللهاة من جرّاء ورم في اللسان أو من جرّاء إدخال آلة الطبيب المعالج؛ و«عدالةُ» وجْهها الأشهب الخسيس في انتظام خطوطه هو ذلك نفسه الذي تمتاز به في «كومبريه» بعض الجميلات من البورجوازيات التقيّات الجافّات اللواتي كنت أشاهدهنّ في القداس وكان العديد منهنّ قد جُنّدَ سلفاً في ميليشيات «الظلم» الاحتياطيّة. غير أنّني أدركت فيما بعد أنّ غرابة هذه الرسوم الجداريّة المذهلة وجمالها الخاصّ مردّهما المكان الكبير الذي يحتلّه الرمز فيها وأنّ كونه قد صُور، لا بمثابة رمز لأنّ الفكر المرمّز غير وارد فيه، بل بمثابة واقع يُعانى معاناة فعليّة ويُتَدَاوَلُ تداولاً ماديّاً إنّما يزوّد مدلول هذا العمل الفنيّ بشيء أكثر حرفيّة وأوفر دقّة ويزوّد عبرتها بشيء أكثر حسيّة وأشدّ وقعاً. أو لم يكن الانتباه لدى خادمة المطبخ المسكينة يرتدّ دون انقطاع إلى بطنها من جرّاء الثقل الذي يشدّه إليه؛ كذلك غالباً ما يتّجه فكر المحتضرين إلى الجهة الحقيقية المؤلمة الغامضة الأحشائيّة، إلى هذه الجهة المقابلة للموت التي تمثّل بالضبط الجهة التي يبسطها أمامهم والتي يجعلهم يتحسّسونها بقسوة، التي تشبه حملاً يسحقهم وصعوبة في التنفس وحاجة إلى الماء أكثر مما تشبه ما ندعوه بفكرة الموت.

كان لا بدّ أن يكون لهذه «الفضائل» وهذه «الرذائل» الكثير من الحقيقة في داخلها بما أنها كانت تبدو لي تنبض بالحياة كمثل الخادمة الحامل وأن هذه الأخيرة نفسها لم تكن تبدو لي أقلّ ترميزاً بكثير. وربّما كان للامشاركة روح كائن ما (لا مشاركة ظاهرة على الأقلّ) بالفضيلة التي

تعمل بوساطته، إلى جانب قيمتها الجمالية، حقيقة على الأقلّ فراسيّة، كما يقولون، إن لم تكن سيكولوجية. وعندما تسنّى لي فيما بعد أن ألتقي خلال حياتي، في بعض الأديار على سبيل المثال، رموزاً تجسّد المحبّة الفاعلة وتعمرها القداسة الحقيقيّة، فقد كان لها في الغالب هيئة رشيقة موضوعية لا مكترثة جافّة كهيئة جرّاح مُعجل، هذا الوجه الذي لا تقرأ فيه أي إشفاق أو رأفة أمام العذاب البشريّ، وأي خوف من الجور عليه، وهو الوجه الذي لا لطف فيه، الوجه المنفّر الرائع الذي للطيبة الحقّة.

وفيما كانت خادمة المطبخ - وهي تبرز عن غير قصد تفوّق «فرانسواز» عليها مثلما يجعل «الضلال» انتصار «الحقيقة» أكثر تألّقاً من جرّاء التناقض بينهما - تقدّم قهوة لم تكن، فيما ترى أمي، سوى ماء ساخن فحسب، ثم تحمل إلى غرفنا ماء ساخناً يكاد لا يكون فاتراً، كنت قد استلقيت على سريري وفي يدي كتاب داخل غرفتي التي تحمي، وقد تملكتها الرعدة، من شمس بعد الظهيرة رطوبتها الشفّافة الواهنة خلف مصاريعها المغلقة تقريباً والتي أفلح شعاع نور مع ذلك في إدخال جناحيه الأصفرين وظلّ لا يبدي حراكاً بين الخشب والزجاج يقبع في زاوية وكأنّه فراشة حطّت هناك. كان النور يكاد لا يكون كافياً للقراءة، أمّا الإحساس بروعة الضياء فلا تزوّدني به سوى الضربات التي يضربها «كامو» (وقد أخطرته «فرانسواز» أنّ عمّتي غير نائمة وأن الضجيج ممكن لذلك) في شارع «لاكور» على صناديق يعلوها الغبار ولكنّها تبدو، وهي ترنّ في الأجواء الداوية التي تميّز الطقس الحارّ، وكأنّها تطلق في البعيد كواكب قرمزيّة اللون، وكذلك الذباب الذي يؤدي أمامي في حفلته الموسيقيّة الصغيرة ما يشبه موسيقى حجرة الصيف: فهي لا تذكّر به حسبما يفعل لحن من الموسيقى البشرية تسمعه مصادفة في الصيف فيذكّرك به فيما بعد، بل ترتبط بالصيف بعلاقة أشدّ لزوماً: فهي إذ تولد من الصيف ولا تعود إلا معه وتحتوي بعضاً من ماهيّته لا توقظ صورته في ذاكرتنا فحسب، بل تؤكّد عودته، حضوره الفعليّ الذي يحيط به وتلمسه مباشرة.

كانت رطوبة غرفتي العاتمة بالنسبة إلى نور الشمس القوْيّ في الشارع كالظلّ بالنسبة إلى الشعاع، يعني في مثل ضيائه وكانت تقدم لخيالي مشهداً كلياً للصيف ما كانت حواسي تستطيع أن تنعم به، لو كنت في نزهة، إلا نتفاً، وكانت بذلك توافق سكينتي التي تتحمّل (بفضل المغامرات التي تروي عنها كتبي وفي تبادر لاستثارتها)، كمثل سكون يد جمدت وسط ماء جارٍ، صدمة سيل من النشاط وحركته.

ولكنّ جدّتي تبادر إليّ تلتمس الخروج في نزهة وإنّ أصبح الطقس رديئاً بعدما اشتدّ حرّه أو ثارت عاصفة أو حتى شيء منها، وكنت لرفضي التخلّي عن قراءتي أذهب لمواصلتها في الحديقة تحت شجرة الكستناء في كوخ صغير من نسيج الحلفا والقماش أقبع في ركنه القاصي وأحسبني تواريت عن أعين من ربّما جاؤوا لزيارة أهلي.

أولم يكن فكري هو الآخر مغارة ثانية أحسّ أنّي أتوارى في آخرها وإن كان ذلك لأشاهد ما يجري في الخارج؟ فحينما كنت أبصر أمراً خارجياً فإنّ شعوري بأنّي أراه كان يقوم بيني وبينه فيغلّفه بقشرة روحية رقيقة تحول دون أن ألمس مادّته لمساً مباشراً، فقد كانت تتبخّر نوعاً ما قبل أن أتّصل بها مثلما لا يلامس الجسم الملتهب رطوبة غرض مبلّل تقرّبه منه لأنّه يعمل دوماً على أن تسبقه منطقة تبخّر. وعلى هذه الشاشة التي تلوّنها حالات مختلفة يبسطها الوعي فيّ بينما أقرأ وتتراوح ما بين الرغبات الخفيّة في صدري أكثر ما يكون الخفاء والمشاهدة الخارجية للأفق الذي يمتّد أمام ناظريّ خلف سور الحديقة، فإن أول ما يجول في صدري من سرّ دفين، القبضة التي تتحرك دون انقطاع وتحكم كل ما عداها، إنّما كان إيماني بثروة الكتاب الذي أقرأه على الصعيدين الفلسفي والجمالي ورغبتي في امتلاكها أيّاً كان هذا الكتاب. ذلك أنّني حتى لو ابتعته في «كومبريه» بعدما أشاهده أمام دكّان السمّان «بورانج»، وهي شديدة البعد عن المنزل حتى تستطيع «فرانسواز» تأمين حاجاتها منها كما هو الأمر في دكّان «كامو»، ولكنّها أوفر بضاعة في صنفي الورقية والكتب، بعدما أشاهده معلّقاً بخيوط

بين مختلف أنواع النشرات والكتب التي تغطّي مصراعي بابها، وهو أوفر أسراراً وأغزر فِكَراً من باب كاتدرائيّة، فلأنّني عرفته لما ذُكِرَ لي عنه من أنّه مؤلّف ذو بال على لسان الأستاذ أو الرفيق الذي كان يبدو لي في تلك الفترة وكأنه يمتلك سرّ الحقيقة والجمال يستبينان في جزء ولا أدركهما في جزء آخر وتؤلّف معرفتي بهما بالنسبة إلى فكري هدفاً غامضاً ولكنّه دائم.

وتجيء بعد هذا الاعتقاد الأساسيّ، الذي يقوم في أثناء قراءتي بتنقّلات لا تنقطع من الداخل إلى الخارج باتجاه كشف الحقيقة، الانفعالات التي تخلّفها فيّ الأحداث التي أشارك فيها لأن أوقات ما بعد الظهر هذه كانت تفيض بالأحداق الدراميّة أكثر ممّا يتّم ذلك على مدى حياة كاملة. وإنّما الأحداث تلك التي تقع في الكتاب الذي أقرأه. صحيح أن الشخصيات التي تتناولها غير حقيقيّة، كما تقول «فرانسواز»؛ غير أنّ جميع المشاعر التي نعانيها من جرّاء اغتباط شخصيّة حقيقيّة أو تعاستها لا تجري في داخلنا إلّا بوساطة صورة عن هذا الاغتباط أو هذه التعاسة. وقوام البراعة لدى أوّل روائيّ كان إدراكه بأن الصورة تشكّل العنصر الأساسي الوحيد في جهاز انفعالاتنا وأن الاختصار الذي قوامه حذف الشخصيّات الحقيقيّة حذفاً تامّاً إنّما يشكّل تحسيناً حاسماً. فالكائن الحقيقيّ مهما بلغ عمق تعاطفنا معه إنّما ندركه أغلب ما ندرك عن طريق حواسّنا، يعني أنّه يظلّ غير شفّاف في نظرنا ويبدي ثقلاً لا تستطيع حساسيّتنا رفعه. فإن حلّت به مصيبة فلا يمكن أن نتأثّر إلا في جزء صغير من الفكرة الكلّية التي نحملها عنه، بل هو لا يستطيع أن يتأثّر بدوره إلّا في جزء من الفكرة العامّة التي يحملها عن نفسه. وكانت لقيّة الروائي أن ساورته فكرة أن يُحِلَّ محلّ هذه الأجزاء التي لا تنفذ إليها الروح كميّة مساوية من أجزاء غير ماديّة أي من تلك التي تستطيع الروح تمثّلها. وما همّ مذ ذاك أن تبدو أعمال هذا النوع الجديد من الكائنات وتبدو انفعالاتها وكأنّها حقيقيّة بما أنّنا جعلناها قطعة منّا وبما أنّها تجري فينا وأنّها تتحكّم بسرعة أنفاسنا وحدّة بصرنا فيما نقلّب صفحات الكتاب باضطراب

المحموم؟ وما إن يضعنا الروائي في هذه الحالة التي يتضاعف فيها كلّ انفعال إلى عشرة أمثاله، كما هي الحال في جميع الحالات الداخلية البحتة، والتي سيهزّنا فيها كتابه كما يفعل الحلم، ولكنّه حلم أوفر وضوحاً من تلك التي توافينا ونحن نيام ويدوم أثره فترة أطول، حتى تعصف بنا طوال ساعة جميع صنوف السعادة وضروب المصائب الممكنة التي ربّما صرفنا السنين لنعرف بعضاً منها في حياتنا والتي لن يتكشّف لنا أكثرها شدّة في يوم لأنّ التؤدة التي يتمّ فيها تحول دون أن نحسّ به، (فهكذا يتغيّر قلبنا في الحياة، وذلك شرّ عذاب، ولكننا لا نعرفه إلّا عبر القراءة وفي الخيال: أمّا في الواقع فإنّه يتغيّر، على غرار ما يتمّ لبعض الظاهرات في الطبيعة، ببطء يجنّبنا الإحساس نفسه بالتغيّر، حتى لو تسنّى لنا أن نلاحظ على التوالي كلّاً من حالاته المختلفة).

ويجيء بعد ذلك المنظر الطبيعي الذي أسقط جزئياً أمام عيني، وهو أقلّ مداخلة لجسدي من حياة الشخصيّات هذه، المنظر الذي تجري الأحداث فيه والذي يخلّف في فكري أثراً أعمق بكثير من المنظر الآخر ذلك الذي ينبسط أمام ناظري حينما أرفعهما عن الكتاب. وهكذا انتابني طوال صيفين في حرّ حديقة «كومبريه» ومن جرّاء الكتاب الذي كنت أقرأه آنذاك الحنين إلى بلاد كثيرة الجبال والأنهار، بلاد أرى فيها الكثير من مناشر الخشب وتتعفّن فيها قطع من الخشب في أعماق الماء الصافي تحت باقات من الجرجير، وتتسلّق الجدران الواطية بالقرب منها عناقيد من الأزهار البنفسجيّة والضاربة إلى الحمرة. ولأنّ حلم امرأة تحبّني كان يراود خاطري على الدوام فقد تشرّب الحلم في ذينك الصيفين رطوبة المياه الجارية؛ وكانت ترتفع في الحال، أيّة كانت المرأة التي تسكن خاطري، عناقيد من الأزهار البنفسجيّة والضاربة إلى الحمرة على كلّ من جانبيها وكأنها ألوان متمّمة.

وما كان ذلك لأنّ الصورة التي نحلم بها تظلّ على الدوام بطبعها انعكاس الألوان الغريبة التي تحيط بها مصادفة في أحلامنا وتزداد بها

جمالاً وتفيد منها؛ ذلك أن تلك المناظر الطبيعيّة في الكتب التي أقرأها لم تكن بالنسبة إليّ محض مناظر أوقع في خيالي من تلك التي تبسطها «كومبريه» لناظريّ ولكنّها مماثلة لها. فقد كانت تبدو لي من جرّاء الاصطفاء الذي قام به المؤلّف والإيمان الذي يبادر به فكري إلى استقبال كلامه بمثابة وحي - وهو انطباع لا يخلّفه فيّ البلد الذي كنت أقيم فيه ولا سيّما حديقتنا، وهي نتاج لا روعة فيه جادت به نزوات سليمة للبستاني الذي تحتقره جدّتي - كانت تبدو لي وكأنها جزء حقيقي من الطبيعة نفسها خليق بالدراسة المعمّقة.

ولو سمح لي أهلي حينما أقرأ كتاباً بالتوجّه لزيارة المنطقة التي يتناولها بالوصف لظننت أنني أقوم بخطوة لا تقدّر بثمن في بلوغ الحقيقة. فإنّك إن أحسست بأنّك محاط على الدوام بنفسك فما ذلك على صورة سجن جامد، بل يبدو لك بالأحرى أنّك تنطلق معها في اندفاع دائم لتتجاوزها وتبلغ إلى الخارج بنوع من التخاذل وأنت تسمع على الدوام من حولك هذه الرنّة التي لا تتبدّل والتي ليست صدى يأتي من الخارج بل دويّ اهتزاز داخليّ. وإنّك لتحاول أن تلقى في الأشياء، وقد أصبحت ثمينة من جراء ذلك، الظلال التي أسقطتها نفسنا عليها. ويخيب أملك إذ تلاحظ أنها تبدو في الطبيعة خلواً من السحر الذي كانت تدين به في فكرنا لمجاورتها بعض الأفكار. ونحيل أحياناً سائر قوى هذه النفس مهارة وروعة لنؤثّر على أشخاص نحسّ تماماً أنهم واقعون خارج ذواتنا وأنّنا لن نصل إليهم في يوم. فإن كنت لذلك أتخيّل الأمكنة التي أرغب فيها أشدّ الرغبة وهي تحيط على الدوام بالمرأة التي أحبّها وإن وددت لو تقودني هي في زيارتها وتفتح لي باب عالم مجهول فما ذلك من جرّاء تداعٍ فكري محض، كلّا، بل لأنّ أحلام السفر والحبّ لديّ لم تكن سوى لحظات - أفصل اليوم بينها فصلاً مصطنعاً كما لو أقوم بقطوع على ارتفاعات مختلفة في نافورة ماء قزحية الألوان وجامدة في ظاهرها - من انبثاق واحد لا يضعف لجميع قوى حياتي.

وفيما أَسْتَمِرّ من الداخل إلى الخارج في متابعة الحالات التي تتقابل في الآن الواحد داخل شعوري وقبل أن أبلغ الأفق الحقيقي الذي يغلّفها، ألقى متعاً من نوع آخر كأن أكون في جلسة مرتاحة وأن أشمّ رائحة الهواء الزكيّة وألا يزعجني أحدهم بزيارة وأن أرى حينما تدقّ الواحدة في قبّة جرس القديس «هيلاريون» ما اسْتُهْلِكَ من بعد الظهيرة يتساقط جزءاً فجزءاً إلى أن أسمع الدقّة الأخير التي تسمح لي بإتمام عمليّة الجمع التي يبدو بعدها الصمت الطويل الذي يليها وكأنّه يعلن في السماء الزرقاء بدء كامل القسم الذي لا يزال يتيسّر لي لأقرأ حتى ساعة العشاء اللذيذ الذي تعدّه «فرانسواز» والذي سينشّطني بعد التعب الذي يلمّ بي وأنا ألحق بالبطل في أثناء قراءة الكتاب. ويبدو لي في كلّ ساعة أنّ سابقتها دقّت منذ بضع لحظات فقط؛ وتجيء أقربها عهداً فتدرج اسمها إلى جانب الأخرى في السماء ولا أستطيع أن أصدّق أن هذا القوس الأزرق الصغير قد اتّسع لستّين دقيقة وهو واقع بين شارتيها الذهبيّتين. وربّما اتّفق أحياناً أن تدقّ هذه الساعة المبكّرة دقّتين أكثر من الأخيرة. كان هنالك واحدة إذن لم أسمعها، شيء جرى لم يجر بالنسبة إليّ. لقد خدعت أذنيّ المهووستين متعة القراءة: ولها سحر النوم العميق، فنسخت الجرس الذهبيّ على صفحة الصمت اللازورديّة. فيا عصر أيام الآحاد الجميلة تحت شجرة الكستناء في حديقة «كومبريه»، أنت الذي أخليتك بعناية من الحوادث التافهة في حياتي الشخصيّة فأحللت محلّها حياة من المغامرات والرغبات الغريبة في بلد ترويه المياه العذبة، إنك لا تزال تذكّرني بهذه الحياة حينما أفكّر فيك وإنك لتحتويها لأنّك أحطت بها شيئاً فشيئاً وسجنتها - وأنا أتدرّج في قراءتي وحرارة النهار تتلاشى - داخل كريستال ساعاتك الصامتة الداوية العطرة الصافية، كريستال ساعاتك المتلاحق الذي تختلف ألوانه وتنعكس فيه خضرة الأوراق.

وكانت تصرفني أحياناً عن قراءتي منذ منتصف بعد الظهيرة ابنة البستاني التي تعدو كالمجنونة فتقلب في طريقها شجرة برتقال وتجرح

إصبعاً وتكسر سنّاً وتصيح قائلة: «ها هم، ها هم!» كيما نسرع «فرانسواز» وأنا ولا يفوتنا شيء من المشهد. كان ذلك في الأيّام التي يجتاز فيها العسكر «كومبريه» للقيام بمناورات فيسلكون عامّة شارع «القديسة هيلدغارد». وفيما كان خدمنا ينظرون، وقد جلسوا صفّاً واحداً على كراسي خارج السور، إلى المتنزّهين أيّام الآحاد في «كومبريه» وينظر إليهم المتنزّهون، كانت ابنة البستاني قد لمحت بفضل الشقّ الذي يخلّيه بينهما منزلان بعيدان في شارع «المحطة» لمعان الخوذ، ويهرع الخدم إلى إدخال الكراسي لأنّ جنود الدروع كانوا يملؤون شارع «القديسة هيلدغارد» بعرضه لدى مرورهم فيما تكاد الجياد تلامس المنازل في عدوها فتغطّي الأرصفة التي اجتاحتها وكأنّها ضفاف تواجه سيلاً ثائراً بمجرى ضيّق جدّاً.

وتقول «فرانسواز» ما إن تصل إلى السور وقد عاجلتها دموعها: «أيّها الصبية المساكين! أيّها الشباب المسكين الذي سيحصد كالمرج!» «يكفي أن أفكّر بذلك حتى أصاب بصدمة»، تضيف وضع يدها على قلبها في الموضع الذي أحسّت فيه بهذه الصدمة.

ويقول البستاني بغية رفع «معنويّاتها»: «ما أجمل أن يبصر المرء هؤلاء الفتية الذين لا يقيمون وزناً للحياة، أليس كذلك يا سيّدة «فرانسواز»؟.

ولا يذهب كلامه سدى:

«لا يقيمون وزناً للحياة؟ ولأي أمر ينبغي للمرء إذاً أن يقيم وزناً إن لم يكن للحياة، وهي الهدية الوحيدة التي لا يقدمها اللّه مرتين؟ واأسفاه! يا إلهي! صحيح مع ذلك أنّهم لا يقيمون لها وزناً! لقد رأيتهم في حرب السبعين؛ إنّه ليظلّ بهم خوف من الموت في هذه الحروب التعيسة. إنهم مجانين لا أكثر ولا أقلّ؛ ثم إنهم لم يعودوا أهلاً للحبل كي يشنقوا، فما هم بشر، بل أسود»، (وليس في تشبيه البشر بالأسود، وتقول «أ - سو - د»، أي إطراء لهم، في نظر «فرانسواز»).

كان شارع «القديسة هيلدغارد» ينعطف على مسافة قصيرة جدّاً فلا

يمكن رؤية من يجيء من البعيد وإنّما يشاهد المرء خوذاً جديدة تسرع ملتمعة في الشمس من خلال الشق بين المنزلين في شارع «المحطّة». وكان بودّ البستاني أن يعلم إن ظلّ هنالك كثير سيمرّون، وهو في عطش شديد لأنّ الشمس كانت حارقة. وتنطلق ابنته فجأة وكأنّما من موقع محاصر وتقوم بطلعة وتبلغ زاوية الشارع وتعود بعدما تحدّت الموت مئة مرّة وبيدها زجاجة عرقسوس، لتأتينا بخبر مفاده أنّهم ألف يأتون دون توقّف من جهة «تيبيرزي» و«ميزيكليز». أمّا «فرانسواز» والبستاني فقد كانا في نقاش، بعدما تصالحا، حول السلوك الواجب اتباعه في حال وقوع حرب فيقول البستاني:

- ترين، يا «فرانسواز»، الثورة أفضل لأنّها حينما تُعلن لا يذهب فيها سوى من يشاء الذهاب.

- أجل، إنّي أفهم ذلك على الأقلّ، وهو أكثر صراحة.

وكان البستاني يعتقد أن الخطوط الحديدية توقف جميعها لدى إعلان الحرب. فتقول «فرانسواز»:

- «بالطبع، كي لا يهرب الناس».

ويقول البستاني: «آه! إنّهم ماكرون»، فهو لا يقرّ بأن الحرب ليست ضرباً من الخدعة القذرة التي تحاول الدولة أن تنطلي على الشعب وأنّه ما من شخص إلّا ويطلق ساقيه للريح إن توافرت له إمكانية ذلك.

غير أنّ «فرانسواز» كانت تسرع إلى اللحاق بخالتي وأعود إلى كتابي ويعود الخدم فيتّخذون أمكنتهم أمام الباب يشاهدون تساقط الغبار والانفعال اللذين أثارهما الجنود. ويظلُّ سيل المتنزّهين الأسود يملأ شوارع «كومبريه» فترة طويلة بعدما عاد الهدوء. وأمام كلّ منزل، حتى المنازل التي لم تتعوّد ذلك، يزيّن الخدم أو حتى الأسياد، وهم جلوس ينظرون، العتبات بحاشية متعرجة قاتمة كحاشية الاشنيات والأصداف التي تخلّف منها موجة قويّة نسيجها المتموّج المطرّز على الشاطئ بعد أن تبتعد.

وكنت فيما عدا تلك الأيام أستطيع القراءة على العكس بدون إزعاج. ولكنّ التوقّف الذي تمّ ذات مرّة من جرّاء زيارة لِ«سوان» وكذلك التعليق على القراءة التي كنت أقوم بها لكتاب مؤلّف جديد تماماً بالنسبة إليّ يدعى «بيرغوت» أدّيا إلى النتيجة التالية وقوامها أن صورة إحدى النساء اللواتي كنت أحلم بهنّ لم تعد تبرز مذ ذاك على جدار تزيّنه أزهار بنفسج مغزليّة، بل على خلفيّة مغايرة تماماً أمام بوّابة كاتدرائية قوطيّة.

وكنت قد سمعت للمرّة الأولى حديثاً عن «بيرغوت» أورده أحد رفاقي، وكان يكبرني سنّاً وأنا شديد الإعجاب به. فقد أرسل ضحكة مدوّية كصوت البوق وهو يسمعني أعترف له بإعجابي بـ«**ليلة تشرين الأوّل**» وقال لي: «احذر من ولعك العفيف والسخيف بالسيّد «دي موسيّه»، فهو مهرّج من أكثرهم إساءة وحيوان مشؤوم. بيد أنّه من واجبي الإقرار أنّه والمدعوّ «راسين» سواء وقد نظما كلّ في ما يخصه طوال حياتهما بيتاً حسن الإيقاع وفضله أنّه لا يعني شيئاً على الإطلاق، وتلك في نظري مزيّة لا تدانيها مزيّة. وإليك نصّهما: «أولوسون البيضاء وكامير البيضاء» و«ابنة مينوس وباسيفاييه»(١) وقد ذكرهما لي، لغرض الدفاع عن هذين اللصّين، معلّمي العزيز جدّاً، الأب «لوكونت» الذي حَسُنَ لدى الآلهة الخالدين، في مقال له. وإليك، إذ نحن بهذا الصدد، كتاباً لا يتّسع لي الوقت لقراءته الآن وقد أوصى به فيما يبدو هذا الرجل الهائل. وقد قِيل لي إنّه يعتبر مؤلفه السيّد «بيرغوت» شخصاً من أكثرهم نفاذ بصيرة، ومع أنّه يبدي أحياناً ضروباً من الرفق صعبة التفسير فإن كلامه يساوي في نظري نبوءة كاهنات «دلفي». فأقرأ هذا النثر الغنائي وإن صدق جامع القوافي العظيم الذي سطّر «**بهاكافات**» و«**سلوقيّ ماغنوس**»، إن صدق القول فسوف تتذوّق، وحقّ «أبولون» يا معلّمي العزيز، ملذّات جبل «أولمبوس»

---

(١) «La blanche Oloossone et la blanche Camyre et La fille de Monos et de Pasiphaé».

الإلهيّة». وكان قد طلب إليّ بلهجة ساخرة أن أدعوه «معلّمي العزيز» وكذلك كان يدعوني بدوره. ولكنّنا كنا في الواقع نجد لذة في هذه اللعبة فنحن لا نزال يومها قريبين من السن التي سيحسب المرء فيها أنّه يبتدع ما يُسمّيه.

ولكني لم أستطع، لسوء الحظّ، وأنا أتحدّث مع «بلوك» وأطالبه بإيضاحات، أن أهدّئ من الاضطراب الذي بعثه فيّ حينما قال لي بأنّ الأشعار الجميلة (وأنا لا أتوقع منها أقلّ من كشف الحقيقة) تزداد جمالاً بقدر ما تخلو من المدلول تماماً. فلم تُكرَّرْ دعوة «بلوك» إلى البيت، وكان قد أُحسن استقباله بادئ الأمر. كان جدّي يزعم، والحقّ يقال، أنّني في كلّ مرّة أرتبط بواحد من رفاقي أكثر من الآخرين واصطحبه إلى منزلنا يتّضح على الدوام أنّه يهوديّ، الأمر الذي ما كان ليسوءه مبدئياً - فحتى صديقه «سوان» كان من أصل يهودي - لو لم يكتشف أنّني ما كنت أختاره عادة من أفضلهم. ونادراً ما لا يدمدم، حينما اصطحب صديقاً جديداً: «**يا إله آبائنا**» من «**اليهوديّة**» أو «**اكسر قيدك يا إسرائيل**»، ولا يغنّي سوى اللحن بالطبع (تي لالام تالام، تاليم) ولكنّي كنت أخشى أن يعرفه صديقي ويعيد كلماته.

ولم يكن يحزر أصل من كان من بين أصدقائي يهوديّاً فحسب، بل يحزر حتى ما كان أحياناً مصدر سوء في أسرتهم، وذلك من قبل أن يراهم ولدى مجرّد سماع اسمهم، وليس له في الغالب ما ينبئ عن يهوديّته.

- كيف يدعى صديقك الذي يأتي في هذا المساء؟

- «دومون» يا جدّي.

- «دومون»! آه! ذلك يثير شكوكي.

ويغنّي:

«**أيّها الرماة ضاعفوا من حذركم!**

واسهروا دون كلل ودون ضجّة».

ثم يصيح قائلاً، بعدما علينا طرحاً حاذقاً بضعة أسئلة أوفر دقّة:

مكتبة
t.me/soramnqraa

«الحرس، الحرس!» أو يكتفي إن كان أرغم المستنطَقَ نفسه بعد وصوله، بفضل استجواب خفي المقاصد، على الاعتراف بأصله دون أن ينتبه للأمر، يكتفي إذ ذاك بأن ينظر إلينا وهو يدمدم بصوت لا يفهم ليظهر لنا أنّه لم يعد به شكّ:

«ماذا، تراك تقود ههنا خطى

هذا اليهوديّ الخائف!»

أو:

«يا حقول الآباء، يا حبرون، أيّها الوادي العذب».

أو: **«أجل، إني من الشعب المختار»**.

وما كانت نزوات جدّي الصغيرة تلك لتتضمن أيّة عاطفة عداء تجاه رفاقي. ولكنّ «بلوك» لم يرق لأهلي لأسباب أخرى، فقد بدأ فأزعج والدي الذي سأله باهتمام وقد رآه مبلّلاً:

- ما هو الطقس في الخارج يا سيّد «بلوك»؟ وهل هطل المطر؟ إنّي لا أفهم، فقد كان مقياس الضغط الجوي ممتازاً.

فلم يحصل إلّا على هذا الجواب:

- لا أستطيع على الإطلاق أن أقول لك، يا سيّد، إن كان المطر قد هطل، فإني عزمت على العيش خارج العوارض الماديّة إلى حدّ لم تعد تجهد معه حواسّي في أن تنبئني عنها.

فكان أن قال لي والدي بعدما ذهب «بلوك»:

- صديقك معتوه، يا ولدي المسكين. أفليس يستطيع أن ينبئني عن الطقس! ولكن، ليس ثمّة من هو أكثر إثارة للاهتمام! إنّه مخبول.

ثم إن «بلوك» لم يرق لجدّتي، ففيما كانت تقول بعد الغداء إنّها مريضة بعض الشيء لم يملك أن يرسل زفرة ويمسح بعض الدمع. وقالت لي:

- كيف تريده أن يكون صادقاً وهو لا يعرفني! أو هو مجنون بالأحرى.

وقد أثار أخيراً استياء الجميع لأنّه تأخّر عن الوصول إلى الغداء ساعة ونصف الساعة، وقال والوحل يغطّيه وبدلاً من أن يعتذر:

- إنّي لا أدع لنفسي أن تتأثّر من جرّاء الاضطرابات الجويّة أو التقسيمات الزمنيّة الاصطلاحيّة. وربّما رددت عن طيب خاطر الاعتبار لعادة استخدام غليون الأفيون أو الحشيش الماليزيّ، ولكني جاهل باستخدام هذه الأدوات التي تفوقها ضرراً وهي على أيّة حال بورجوازية تافهة، عنيت الساعة والشمسيّة.

كان يمكن مع ذلك أن يعود إلى «كومبريه». بيد أنّه لم يكن الصديق الذي ربّما تمنّاه لي أهلي، فقد جزموا في النهاية بأن الدموع التي أدّى اعتلال صحّة جدّتي إلى ذرفها لم تكن كاذبة؛ غير أنّهم يعلمون بالغزيزة أو التجربة أن اندفاعات عاطفتنا لا سلطان لها إلّا في القليل على ما يلي من أفعالنا وعلى توجيه حايتنا وأن لاحترام الالتزامات الأدبية والوفاء للأصدقاء وإتمام عمل ما واتباع نظام معيّن أساساً أكثر متانة في العادات العمياء منه في هذه الاندفاعات المؤقّتة الملتهبة العقيمة. ولعلّهم يفضلون لي على «بلوك» رفاقاً لا يقدّمون لي أكثر ممّا جرت العادة أن يعطى للأصدقاء حسب قواعد الأخلاقيّة البورجوازيّة، ولا يبعثون إليّ على نحو مفاجئ بسلّة من الفاكهة لأنّهم فكّروا فيّ ذلك اليوم بحنان، ولكنّهم إذ لا يستطيعون أن يرجّحوا لصالحي كفّة واجبات الصداقة ومتطلّباتها على مجرّد نزوة لخيالهم وعاطفتهم فإنّهم لا يتلاعبون بها لغير صالحي. وإنّه ليصعب حتى على أخطائنا أن تحمل هذه الطبائع على التخلّي عمّا يحقّ لنا عليها، وكانت شقيقة جدّي مثالاً لها، فمع أنها كانت منذ سنوات على خلاف مع ابنة شقيق لها لا تتحدث إليها على الإطلاق فإنّها لم تبدّل لذلك في الوصيّة التي أورثتها فيها كامل ثروتها لأنّها كانت أقرب الأقرباء إليها وأنّ الأمر واجب عليها.

ولكني كنت أحبّ «بلوك» ويرغب أهلي في أنّ يوفّروا لي أسباب السرور، وكانت المشكلات التي يتعذّر حلها والتي أطرحها على نفسي

بشأن الجمال المجرّد من أي مدلول الكامن في «ابنة مينوس وباسيفاييه» ترهقني أكثر وتحمل إليّ من العذاب أكثر ممّا قد توفّره لي أحاديث جديدة معه، مع أنّ أمّي تراها هدّامة. ولعلّهم كانوا على استعداد لأن يستقبلوه في «كومبريه» لو لم يؤكّد لي، بعد هذا العشاء وبعدما نقل إليّ - والخبر أثّر بعدها كثيراً على حياتي وجعلها أوفر سعادة ثم أوفر تعاسة - أن جميع النساء لا يفكّرن إلّا بالحبّ وأن ليس بينهنّ من لا يمكن قهر مقاومتها، ولو لم يؤكّد لي أنّه سمع من يقول على نحو ثابت تماماً إنّ شقيقة جدّي قضت شباباً عاصفاً وإنها اتخذت لها عشيقاً وفعلت بصورة مفضوحة. ولم أتمالك من إعادة هذا لأهلي، وتمّ طرده عندما عاد، وحينما واجهته في الشارع فيما بعد بدا شديد الفتور معي.

ولكنّه كان على حقّ في ما قاله بشأن «بيرغوت».

في الأيّام الأولى لم يبرزْ لي ما كنت سأحبّه كثيراً في أسلوبه، كمثل لحن موسيقيّ أنت مولع به ولكنّك لا تميزه بعد. فما كنت أستطيع هجر القصّة التي أقرأها له ولكني أحسب أن اهتمامي ينحصر في الموضوع، مثلما يجري في فترات الحبّ الأولى التي نذهب فيها كلّ يوم للحاق بامرأة في اجتماع ما أو حفلة ما نظنّ أن مباهجهما تجتذبنا. ثم لاحظت العبارات النادرة المهجورة تقريباً التي يحبّ استخدامها في الأحيان التي يرتقي فيها أسلوبه من جراء سيل خفيّ من التناغم، من جرّاء موسيقى داخليّة. لقد كان في تلك الأحيان كذلك يروي عن «وهم الحياة الباطل» وعن «سيل المظاهر الجميلة الذي لا ينفد» وعن «العذاب العقيم واللذيذ الكائن في الإدراك والحبّ» وعن «الصور المؤثرة التي تضفي نبلاً دائماً على واجهة الكاتدرائيات التي تزخر بالوقار والسحر»، ويعبّر عن فلسفة قائمة بحدّ ذاتها وجديدة عليّ بصور فتّانة ربّما تبادر إليك أنها هي التي أيقظت لحن القيثارة هذا الذي يتعالى إذ ذاك وهي التي تضفي على مرافقتها له شيئاً من السموّ. وقد حمل إلي أحد مقاطع «بيرغوت» هذه، وهو الثالث أو الرابع الذي فصلته عن الباقي، غبطة لا تضاهيها تلك التي لقيتها في الأوّل،

غبطة أحسست أني أشعر بها في منطقة من ذاتي أبعد غوراً وأكثر استواءً وأوفر اتساعاً قد بدت العقبات والحواجز وكأنّما نزعت منها. ذلك أنني بعدما تعرّفت إذ ذاك هذا الميل نفسه إلى التعابير النادرة وهذا الفيض الموسيقي نفسه وهذه الفلسفة المثالية نفسها التي سبق أن كانت في المرّات الأخرى سبب متعتي دون أن أنتبه لذلك، لم أعد أتصور أنني أمام قطعة خاصّة من كتاب ما لِ«بيرغوت» تخطّ على صفحة فكري رسماً تخطيطيّاً محضاً، بل أمام «أفضل ما لدى بيرغوت» ممّا هو شائع في جميع كتبه والذي ربّما كسته جميع المقاطع الأخرى التي تختلط به شيئاً من الكثافة والاتّساع أحسّ وكأنّما فكري يكبر به.

وما كنت المعجب الوحيد بـ«بيرغوت»، فقد كان الكاتب المفضّل لدى صديقة لوالدتي واسعة الثقافة، وكان الدكتور «بولبون» يترك مرضاه في انتظار كيما يقرأ آخر كتاب نُشر له، ومن عيادته ومن حديثة بجوار «كومبريه» انطلقت البذرات الأولى في حبّ «بيرغوت» وهو آنذاك من الأنواع الشديدة الندرة التي انتشرت اليوم على سطح البريّة والتي تلاقي في كل مكان زهرتها المثالية الواحدة في أوروبا وأميركا وحتى أصغر القرى. أما ما تحبّه صديقة والدتي والدكتور «بولبون» فيما يبدو في كتب «بيرغوت» فقد كان على وجه الخصوص، كما هو شأني، هذا السيل نفسه من الموسيقى، وهذه التعابير القديمة، وبعض غيرها بسيط جدّاً ومألوف ولكنّ الموضع الذي يضعها فيه بصورة بارزة يبدو وكأنّه يكشف عن ذوق خاص لديه. وهنالك أخيراً في المقاطع المزينة بعض الجفاء ولهجة تكاد تكون خشنة. ثم لا بدّ أنّه كان يشعر بنفسه أن أعظم مواطن السحر لديه تكمن في ذلك. ففي الكتب التي تلت كان يقطع روايته إن وقع على حقيقة كبرى أو على اسم كاتدرائية ويطلق العنان عبر دعاء أو نداء أو صلاة طويلة لهذه النفثات التي ظلّت تبطّن نثره في مؤلّفاته الأولى ولا تكشفها إذ ذاك سوى تموّجات السطح وربّما كانت أشد عذوبة وأكثر انسجاماً حينما كانت محتجبة على هذا النحو ولا يمكن الإشارة إشارة دقيقة إلى حيث تولد

همستها أو تتلاشى. وكانت هذه المقطوعات التي تروقه مقطوعاتنا المفضّلة، وكنت في ما يخصّني أحفظها عن ظهر القلب ويخيب أملي حينما يعود إلى رواية القصّة. وفي كلّ مرّة يتحدّث فيها عن شيء ظلّ جماله محتجباً حتى ذاك، عن غابات صنوبر أو عن البرد أو عن كنيسة نوتردام في باريس أو عن مسرحيتي «**آتالي**» (*Athalie*) أو «**فيدر**» (*Phèdre*)، كان يفجّر هذا الجمال في صورة تتناثر حتى تصل إليّ. ولما كنت أحسّ أن الكثير من أقسام العالم لا يستطيع إدراكي الضعيف أن يميّزها إن لم يقرّبها منيّ فقد وددت لو أقف على رأي له، على مجاز له، في جميع الأشياء ولا سيما تلك التي ربّما أتيحت لي فرصة رؤيتها، ومن بين هذه الأخيرة على نحو خاصّ آثار فرنسية قديمة وبعض المناظر البحريّة، لأن الإلحاح الذي يذكرها به في كتبه يشهد بأنّه يعتبرها موفورة الدلالة والجمال. إلا أنني كنت أجهل لسوء الحظّ رأيه في الأشياء جميعها ولا يخامرني الشكّ أنّه مغاير تماماً لآرائي إذ هو ينحدر من عالم مجهول أجهد في الارتفاع إليه. ولما كنت موقناً بأنّ أفكاري إنما تبدو غباء بحتاً في نظر هذا العقل الكامل فقد مسحتها جميعها حتى إنّني حينما يتّفق لي أن ألقى في كتاب له واحدة منها خطرت لي من قبل يتّسع فؤادي كما لو أعادها إليّ إله بعطفه وأعلن شرعيّتها وجمالها. وكان يتّفق أحياناً أن تقول صفحة منه الأشياء نفسها التي غالباً ما كنت أكتبها لجدّتي ووالدتي ليلاً حتى لا أستطيع النوم حتى لتبدو صفحة «بيرغوت» هذه وكأنّها مجموعة افتتاحيّات صمّمت لتجيء في رأس رسائلي. وحتى حينما باشرت فيما بعد بتأليف كتاب فإني كنت ألقى لدى «بيرغوت» نظير بعض الجمل التي لم تكن ميزتها كافية كيما تحملني على المتابعة إلا أنني ما كنت أستطيع الاستمتاع بها إلا حين أقرأها في مؤلّفاته. أمّا حينما أؤلّفها بنفسي فقد كان يتّسع الوقت أمامي، وأنا مهتمّ في أن تعكس بالضبط ما أتبيّنه في فكري، لأتساءل إن كان ما أكتبه ممتعاً! على أنّه لم يكن يروقني في الواقع سوى هذا الصنف من الجُمل وهذا النوع من الأفكار، فكنت بذلك عندما

أصادف جملاً من هذا القبيل في مؤلّفات غيري، يعني حينما لا يظلّ بي وساوس وقسوة ولا يظلّ بي ضيق، كنت أدع لنفسي أن تنساق خلف الميل الذي يدفعني إليها وتتمتّع به، كما يجد العشّيّ متّسعاً من الوقت ليظهر نهمه إن اتّفق له في مرّة أن لا يعدّ الطبخ. وفي ذات يوم لقيت فيه في كتاب لِ«بيرغوت» مزاحاً، تضاعف لغة الكاتب الرائعة المؤثّرة من سخريّته ويتناول خادمة عجوزاً ولكنّه المزاح نفسه الذي غالباً ما قلته لجدّتي في حديثي عن «فرانسواز»، وفي مرّة أخرى تبيّن لي فيها أنّه لا يرى عيباً أن يبرز في واحدة من مرايا الحقيقة التي هي مؤلّفاته ملاحظة شبيهة بتلك التي أتيحت لي فرصة إبدائها بشأن صديقنا السيّد «لوغراندان» (وهي ملاحظات تتناول «فرانسواز» و«لوغراندان» لعلها من تلك التي كنت أُضحّي بها عن طيب خاطر لِ«بيرغوت» وأنا قانع أنّه سيجدها غير ذات بال)، بدا لي فجأة أن حياتي المتواضعة وتمالك الحقيقة لم تكن منفصلة إلى الحدّ الذي ظننت وأنّها حتى متطابقة في بعض النقاط فبكيت من ثقة وفرح على صفحات الكاتب وكأنّما بين ذراعي والد عدت إليه.

كنت أتخيّل «بيرغوت» من خلال كتبه شيخاً ضعيفاً خائب الآمل فقد أولاداً ولم يجد عزاء البتّة. ولذلك كنت أقرأ نثره وأنشده في داخلي ولكن على نحو ربّما كان أكثر عذوبة وبطئاً ممّا كتبت به والجملة الأوفر بساطة توافيني بنبرة يبطّنها الحنان. وكنت أُحبّ فوق كلّ شيء فلسفته فانصرفت إليها كليّاً، وأصبحت أنتظر بفارغ صبر بلوغ السنّ التي أدخل فيها إلى المدرسة الثانوية وفي الصف المدعوّ بالفلسفة. ولكني ما كنت أبغي أن يتمّ فيه أي شيء فيما عدا العيش في فكر «بيرغوت» ولو قِيل لي إن الميتافيزيقيّين الذين سأتعلّق بهم حينذاك لا يشبهونه في شيء لأحسست بيأس المحبّ الذي يودّ أن يحبّ على مدى الحياة فيما يحدّثونه عن العشيقات اللواتي سيتّخذهن مستقبلاً.

وفي أحد أيّام الآحاد وبينما كنت أقرأ في الحديقة قاطعني «سوان» الذي جاء لزيارة أهلي.

- ماذا تقرأ، هل ليأن ألقي نظرة؟ «بيرغوت»؟ من عساه أشار عليك بمؤلّفاته؟

فقلت له إنه «بلوك».

- آه! أجل، هذا الشابّ الذي رأيته ههنا مرّة والذي يشبه إلى حدّ بعيد صورة «محمّد الثاني» للرسام «بلّيني». مدهش، إنّ له الحاجبين المعقوفين ذاتهما والأنف المخطوف نفسه وعظم الخدّ البارز نفسه. وسوف يصبح الشخص نفسه حينما تطول له لحية صغيرة. إنّ له على أيّ حال ذوقاً رفيعاً لأنّ «بيرغوت» شخص «ظريف». ولما رأى «سوان» إلى أيّ حدّ كنت أبدو معجباً بـ«بيرغوت»، وكان لا يتحدّث البتّة عن الناس الذين يعرفهم، خرج على القاعدة تلطّفاً وقال لي:

- إني كثير المعرفة به وإن سرك أن يكتب كلمة في أول صفحة من كتابك فيمكن أن أطلب منه ذلك.

ولم أجرؤ على القبول ولكنّي طرحت على «سوان» أسئلة حول «بيرغوت»: «هل يمكنك أن تقول لي أيّ ممثّل يفضّل؟».

- لست أدري أيّ ممثل؛ ولكنّي أعلم أنّه لا يوازي أيّ فنان من صنف الرجال بـ«لا بيرما» التي يضعها فوق كلّ شيء. هل استمعت إليها.

- لا يا سيّدي، فأهلي لا يسمحون لي بارتياد المسرح.

- هذامؤسف. يجدر بك أن تطالبهما بذلك. ليست «لا بيرما» في مسرحيتي «فيدر» (*Phèdre*) و«السيد» (*Le Cid*) إلا ممثّلة فحسب إن شئت، ولكن اعلم أنني لا أؤمن كثيراً «بتراتب» الفنون، (ولاحظت، كما سبق لي أن دهشت غالباً للأمر في أحاديثه مع شقيقتي جدّتي، أنّه يهتمّ حينما يتحدّث عن أمور جديّة وحينما يستخدم تعبيراً يبدو وكأنّه يتضمّن رأياً حول موضوع هام أن يفرده في نبرة خاصّة آلية ساخرة وكأنّما يضعه بين مزدوجات فيبدو وكأنّه يرفض أن يأخذه لحسابه ويقول: «التراتب» تعلمين على حد قول من كانوا موضع سخرية الآخرين، أليس كذلك؟» ولكن لماذا يقول «التراتب إن وضعه ذلك موضع استهزاء؟») ثم أضاف بعد

لحظة: «ذلك يزوّدك برؤية نبيلة كمثل أيّة رائعة لست أدري أنا. . .» كمثل - وأخذ في الضحك - «ملكات «شارتر!» وكان كرهه للتعبير تعبيراً جدّياً عن رأيه قد بدا لي حتى ذلك الحين وكأنّه أمر ينبغي أن يكون أنيقاً وباريسيّاً ومعاكساً لجمود عقائدي لدى شقيقتي جدّتي ذي طابع ريفيّ؛ وقد خطر لي كذلك أنَّ الأمر من أشكال الفكر لدى الجماعة التي يعيش بينها «سوان» والتي يبالغون فيها في إعادة الاعتبار للوقائع الصغيرة الدقيقة التي اشتهرت فيما مضى بأنها عاميّة ويستبعدون «الجمل الرنّانة» وذلك بمثابة ردّة فعل على غنائية الأجيال السابقة. ولكني أجد الآن في موقف «سوان» هذا حيال الأشياء ما يصدم الفكر. فقد كان يبدو عليه أنّه لا يجرؤ على تكوين رأي وأنّه لا يعرف الهدوء إلّا حينما يستطيع أن يقدّم معلومات دقيقة إلى حدّ بعيد. إنه لا يدرك إذن أن الأمر يعني الإقرار والتسليم بأن دقّة هذه التفاصيل تكتسب أهميّة. وعدت أُفكر حينذاك بهذا العشاء الذي كنت فيه بالغ الحزن لأن أُمي لن تصعد إلى غرفتي والذي قال فيه إن الحفلات الراقصة عند الأميرة «دو ليون» كانت غير ذات بال. غير أنه كان ينفق حياته على الرغم من ذلك إلى هذا الضرب من الملذّات، فأجد كلّ ذلك في تناقض. فلأيّة حياة أخرى كان يدخر التعبير الجادّ عما يجول في خاطره عن الأشياء وأن يصيغ أحكاماً يمكن ألا يضعها بين مزدوجات وألا ينصرف من بعد بأدب مبالغ فيه إلى مشاغل يعلن في الآن نفسه أنّها مضحكة؟ ولاحظت كذلك في الطريقة التي حدثني بها عن «بيرغوت» شيئاً لم يكن، على العكس، خاصّاً به بل كان خلافاً لذلك مشتركاً بين سائر المعجبين بالكاتب وصديقة والدتي والدكتور «بولبون». لقد كانوا، شأن «سوان»، يقولون عن بيرغوت إنه شخص ساحر وفريد جدّاً، ويملك طريقة خاصّة به يقول بها الأشياء، وهي متكلّفة بعض الشيء ولكنها ممتعة إلى حدّ بعيد. فلا حاجة لرؤية التوقيع إذ يتبين المرء حالاً أنّها منه». بيد أنه ما من أحد بلغ به أن يقول: «إنّه كاتب كبير وصاحب موهبة كبيرة». وما كانوا حتى يقولون إنه صاحب موهبة، ما كانوا يقولون الأمر لأنهم لا يعلمون.

فإننا ننفق زمناً طويلاً لنتعرّف في الوجه الذي ينفرد به كاتب جديد النموذجَ الذي يحمل عنوان «الموهبة الكبيرة» في المتحف الذي يحوي أفكارنا العامة. ولأنّ هذا الوجه جديد بالحقيقة فإننا لا نجده مشابهاً تماماً لما ندعوه موهبة، ونقول بالأحرى: تفرد وظرف ونعومة وقوة؛ ونتبيّن ذات يوم أن كلّ ذلك يؤلّف بالضبط الموهبة.

وسألت السيّد «سوان»: - «هل هنالك مؤلّفات لـ لـ«بيرغوت» تحدّث فيها عن «لا بيرما»؟

- أظنّه فعل في كرّاسه الصغير عن «راسين» ولكن لا بدَّ أن الكرّاس نفد. وربّما أُعيدت طباعته؛ سوف أستعلم. وإني أستطيع على أية حال أن أطلب من «بيرغوت» كلّ ما تبغيه فليس ينقضي أسبوع، لا يتعشى فيه في منزلي. إنّه صديق ابنتي الحميم، وهما يذهبان سويّة في زيارة المدن القديمة والكاتدرائيات والقصور.

ولما لم تكن لديّ أية فكرة حول التراتب الاجتماعي فقد أدّت الاستحالة التي يجدها والدي في أن نتردّد على السيّدة «سوان» والآنسة «سوان» إلى أن تكسبهما مهابة في نظري إذ تصوّر لي أن مسافات كبيرة تفصل بينهما وبيننا. فكنت آسف ألا تصبغ أمّي شعرها ولا تطلي بالحمرة شفتيها، حسب قول سمعت أنّ جارتنا السيّدة «سازيرا» تقوله وهو أن السيّدة «سوان» كانت تفعل ذلك لا لتروق زوجها بل السيّد «دو شارلوس»، وكنت أحسب أنّنا لا بدّ موضع ازدراء في نظرها، الأمر الذي يشقّ عليّ بسبب الآنسة «سوان» على وجه الخصوص التي قِيل لي إنّها ابنة صغيرة كثيرة الجمال وغالباً ما كنت أحلم بها وأزوّدها في كل مرّة بالوجه ذاته وقد مزجت فيه الاعتباط والسحر. ولكنّي حينما علمت في ذلك اليوم أن الآنسة «سوان» كائن من طبقة نادرة جداً يسبح وكأنما في جوّه الطبيعي وسط هذا الحشد من الامتيازات وأنّها حينما كانت تسأل والديها إن كان هنالك من دُعي للعشاء كانوا يجيبونها بهذه المقاطع التي تفيض بالنور، باسم هذا المدعوّ الذهبي الذي لم يكن بالنسبة إليها سوى صديق قديم

لأسرتها، يعني «بيرغوت»، وأن حديث المائدة الخاصّ لديها أي ما يقابل ما كان يشكّله بالنسبة إليّ حديث شقيقة جدّي، كانت تؤلّفه كلمات لِ«بيرغوت» حول جميع هذه الموضوعات التي لم يستطع أن يتناولها في كتبه والتي كنت أود سماع نبوءاته بصددها، وأنّها أخيراً حينما كانت تذهب في زيارة المدن، فإنه كان يسير إلى جانبها، مجهولاً وبهياً كالآلهة الذين يهبطون بين البشر، حينئذ أحسست، إلى جانب قيمة مخلوق مثل الآنسة «سوان» إلى أي مدى سوف أبدو له فظّاً جاهلاً وشعرت شعوراً عميقاً بحلاوة أن أكون صديقه وباستحالة ذلك حتى امتلأتُ رغبة ويأساً في الآن نفسه. وأكثر ما أراها الآن، حينما أفكّر بها، أمام بوّابة كاتدرائية تشرح لي مدلول التماثيل وتقدمني لـ«بيرغوت» على أني صديقها بابتسامة تتضمّن الثناء عليّ. وكان سحر جميع الأفكار التي تبعثها فيَّ الكاتدرائيات، سحر تلال «إيل دو فرانس» وسهولة النورماندي يعود على الدوام فينعكس على الصورة التي أكونها لنفسي عن الآنسة «سوان»: وإنما يعني ذلك استعدادي التام لأن أحبّها. وإن اعتقادنا بأن شخصاً يشارك في حياة خفية يمكن أن يدخلنا حبّه فيها إنّما يمثّل في جميع ما يتطّلبه الحبّ لينبثق أكثر ما يتمسك به ويحمله على استرخاص كلّ ما سواه. حتى النساء اللواتي يزعمن تقييم الرجل بالنظر إلى تكوينه الجسماني فحسب إنما يرين في هذا التكوين التعبير عن حياة خاصة. وهن لذلك يعشقن العسكريين ورجال الإطفاء فالبزّة تجعلهن أقلّ تشدّداً في ما يخصّ الوجه، ويحسبن أنّهن يقبّلن خلف الدرع قلباً مختلفاً تعمره المغامرات والوداعة؛ وليس يحتاج مليك شاب أو أمير ولي عهد لغزو أجمل القلوب في البلاد الأجنبية التي يزورها إلى وجه منتظم الخطوط ربّما استحال على عامل الكواليس أن يكون في غنى عنه.

وفيما كنت أقرأ في الحديقة، وهو أمر ربّما لم تفهم شقيقة جدّي أني أستطيع القيام به خارج أيام الآحاد، تلك الأيام التي يُمنع فيها الاهتمام بأي أمر جدّي والتي لا تخيط فيها (وربما قالت لي في يوم من أيام

الأسبوع «أما زلت تتلهى في القراءة مع أن اليوم يوم أحد» وتضفي على لفظة التلهّي معنى «الولدنة» وضياع الوقت)، وكانت خالتي «ليوني» تتحدّث إلى «فرانسواز» بانتظار حلول ساعة «أولالي». كانت تنقل إليها أنّها شاهدت السيّدة «غوبي» تمرّ منذ قليل «دون شمسيّة وبفستان الحرير الذي أوصت عليه في «شاتودان». فإن كان عليها أن تذهب إلى بعيد قبل صلاة الغروب فربّما بللته».

- «ربّما، ربّما (الأمر الذي يعني ربّما لا)، تقول «فرانسواز» كي لا تستبعد نهائياً إمكانية خيار أكثر يُمْناً».

وتقول خالتي وهي تضرب على جبينها:

- «ذلك يذكّرني، ويحك، أني لم أعلم إن كانت وصلت إلى الكنيسة بعد تقديم القربان. وينبغي أن أفطن إلى سؤال «أولالي» عن ذلك... هيّا انظري يا «فرانسواز» إلى هذه الغيمة السوداء خلف قبّة الجرس وهذه الشمس الواهنة على حجارة السقوف. بالتأكيد لن ينقضي النهار بدون مطر. لم يكن ممكناً أن يظل الطقس على ما هو عليه فقد كان حاراً جداً. وخير البر عاجله»، تضيف خالتي التي كانت الرغبة في التعجيل بإنزال مياه «فيشي» إلى معدتها قد رجحت كفّتها لديها إلى حد بعيد على تخوّفها أن ترى السيّدة «غوبي» وقد أتلفت فستانها، «فما لم تهبّ العاصفة لن تنزل مياه «فيشي» إلى معدتي».

- «ربّما، ربّما».

- «ذلك أنّه حينما يهطل المطر في هذا المكان لا يتوافر الملجأ». ثم تصيح خالتي فجأة وقد امتقع لونها: «الساعة الثالثة؟ كيف ذلك؟ لقد بدأت إذن صلاة الغروب ونسيتُ دوائي! هاإني أفهم الآن لماذا ظلّت مياه «فيشي» ثقيلة على معدتي».

ثمّ تنقضّ خالتي على كتاب قدّاس مجلّد بالمخمل البنفسجي وقد طليت حواشيه بالذهب. وتبعثر في استعجالها بعض الصور التي تحيط بها حاشية من دانتيلا الورق المصفر والتي يشير مكانها إلى صفحات الأعياد.

وفيما تبلع دواءها تأخذ بقراءة سريعة للنصوص المقدّسة التي تغمض عليها بعض الشيء من جراء حيرتها إن كان دواء الهضم لا يزال قادراً، وقد أخذته بعد تناولها مياه «فيشي» بفترة طويلة إلى هذا الحدّ، أن يلحق بها ويساعد على هضمها. «ثلاث ساعات، إن سرعة مرور الزمن أمر لا يصدق!».

ثم كان قرع طفيف على الزجاج كما لو صدمته حاجة، تبعه سقوط خفيف واسع وكأنّه حبّات رمل ألقي بها من نافذة في الأعلى، ثم امتدّ السقوط وانتظم واتّخذ إيقاعاً وأصبح مائعاً رنّاناً موسيقياً لا يحصى عدّاً وشاملاً: إنه المطر.

- «هيه! ماذا كنت أقول يا «فرانسواز»؟ ما أغزر الهطل! ولكن أظنّ أني سمعت جرس باب الحديقة، فاذهبي وانظري من يمكن أن يكون في الخارج في مثل هذا «الطقس».

وتعود «فرانسواز»:

- «إنّها السيّدة «آميديه» (جدّتي) التي قالت إنّها ذاهبة في جولة، مع أن المطر يهطل بغزارة».

وتقول خالتي وهي ترفع عينيها إلى السماء:

- «لا يدهشني ذلك، فقد قلت دوماً إنّ عقلها لم يصمَّم مثل سائر الناس. وإني أفضّل أن تكون هي لا أنا في هذه اللحظة خارجاً».

- «إن السيّدة «آميديه» على الدوام نقيض الآخرين تماماً»، تجيب «فرانسواز» بهدوء وتدع للحظة التي ستنفرد فيها بالخدم الآخرين أن تقول إنّها تظن جدّتي «مفتولة» بعض الشيء وتزفر خالتي قائلة:

- «ها قد انقضى وقت البركة (بالقربان المقدس)، ولن تجيء «أولالي» من بعد. لقد خشيت حتماً من الطقس».

- «ولكن الساعة لم تبلغ الخامسة، يا سيدة «أوكتاف»، إنّها الرابعة والنصف فقط».

- «فقط الرابعة والنصف؟ وقد اضطررت إلى رفع الستائر الصغيرة

ليوافني قبس هزيل من النور. في الرابعة والنصف! وقبل ثمانية أيّام من خميس الصعود[1]! آه، يا «فرانسواز» المسكينة! لا بدّ أنّ اللّه غاضب منّا أشدّ الغضب. وعالم اليوم قد جاوز الحدود! لقد غالوا في نسيان اللّه فبادر يثأر لنفسه، على حدّ قول زوجي المسكين «أوكتاف».

وكست وجنتي خالتي حمرة شديدة: إنّها «أولالي». ولكنها ما إن أُدخلت حتى عادت «فرانسواز» لسوء الحظ لتقول بابتسامة تهدف بها إلى وضع نفسها في مثل جوّ الفرح الذي لا تشك بأن كلماتها سوف تحمله لخالتي وتحدّد المقاطع لتبرز بأنّها تنقل نقل الخادم الأمين الكلمات نفسها التي تفضل الزائر فاستخدمها، على الرغم من إيرادها بالصيغة غير المباشرة:

- سوف يكون السيّد الكاهن شديد السعادة وفي أقصى درجاتها إن لم تكن السيّدة «أوكتاف» نائمة واستطاعت أن تستقبله. إنّ السيّد الكاهن لا يود إزعاجها. إنّه في الأسفل وقلت له أن يدخل إلى الصالة.

ولم تكن زيارات الكاهن بالحقيقة لتغمر خالتي بفرح كبير كالذي تفترضه «فرانسواز» وما كان مظهر الغبطة الذي تحسب من واجبها أن تزين به وجهها في كل مرّة تعلن فيها عن قدومه ليتناسب تماماً وشعور المريضة. فالكاهن (وهو رجل ممتاز آسف أني لم أتحدّث معه أكثر مما فعلت، لأنه إن لم يفقه شيئاً في أمور الفنّ فقد كان يعرف الكثير في علمالتأثيل) الذي تعوّد أن يزور كبار الزائرين بالمعلومات حول الكنيسة (وكان ينوي تأليف كتاب حول رعيّة «كومبريه»)، كان يرهقها بشروح لا تنتهي، وهي واحدة على الدوام. غير أن زيارته كانت تنقلب صراحة إلى مصدر إزعاج لخالتي حينما تقع على هذا النحو في الوقت نفسه الذي تقع فيه زيارة «أولالي» بالضبط. فقد كانت تفضّل أن تفيد إلى أبعد حدّ من «أولالي» وألا تستقبل الجميع معاً ولكنّها لا تجرؤ ألا تستقبل الكاهن بل تكتفي بأن تشير على

---

(١) يقع هذا العيد بعد الفصح بأربعين يوماً أي في أواسط الربيع إلى أواخره.

«أولالي» بألا تغادر في الوقت الذي يغادر فيه وأنّها سوف تحتفظ بها قليلاً بعدما يذهب.

- ما هذا الذي قيل لي يا سيّدي الكاهن من أن هنالك فناناً نصب حامله الخشبي في كنيستك لينسخ أحد الرسوم الزجاجيّة، بوسعي القول إنّي أصبحت بمثل سني دون أن يطرق مسامعي في يوم حديث عن أمر من هذا القبيل! عم يبحث الناس في يومنا! عن أكثر ما في الكنيسة قباحة!

- لن أصل إلى حدّ القول بأن ذلك أقبح الموجود، فإنّه إن كان في كنيسة القدّيس «هيلاريون» أقسام خليقة بأن تُزار، فهنالك أخرى قديمة جداً في كنيستي الفقيرة وهي الوحيدة التي لم تجدّد في كلّ الأبرشيّة[١]. إن البوّابة وسخة وقديمة، ذلك صحيح، ولكنّ لها طابعاً يمتاز بالجلال. وإني أغضّ النظر بالنسبة إلى سجّادة «إستير» التي لا أشتريها شخصياً بفلسين ولكنّ الخبراء يضعونها مباشرة بعد سجّادة مدينة «سانس». وأنا أقر على أية حال أنّها تقدّم إلى جانب بعض التفاصيل الواقعيّة بعض الشيء تفاصيل أخرى تبرهن عن روح ملاحظة حقيقية. ولكن لا يحدثني أحد عن نجميات الزجاج الملون! فهل يمتّ إلى العقل السليم بصلة أن تترك نوافذ لا تُنفذ النور وتخدع العين من جراء هذه الانعكاسات التي لا أستطيع تحديد ألوانها في كنيسة ليس فيها بلاطتان على سوية واحدة ولكنّهم يرفضون تبديلها بحجة أنّها قبور رؤساء «كومبريه» الدينيّين وأسياد «غيرمانت» «كونتات» برابان الأوائل؟ وهم الأسلاف المباشرون لدوق «غيرمانت» في يومنا وللدوقة كذلك إذ هي آنسة من أسرة «غيرمانت» تزوّجت ابن خالها». (أمّا جدّتي التي كانت تخلط في النهاية بين جميع الأسماء لكثرة ما لا تعبأ بالأشخاص فكانت تزعم في كلّ مرّة يأتون على ذكر اسم دوقة «غيرمانت» أنّها قريبة للسيدة «دو فيلباريسيس». فكان الجميع ينفجرون بالضحك، وتحاول الدفاع عن نفسها فتتذرّع بدعوة وصلتها: «كان يبدو لي أنّني أتذكر

---

(١) المنطقة التي تخضع لسلطة المطران لدى المسيحيين.

فيها ما يمت إلى «غيرمانت» بصلة». وكنت للمرة الوحيدة إلى جانب الآخرين ضدّها إذ لا أستطيع القبول بوجود صلة بين صديقتها في القسم الداخلي وسليلة «جنبيف دو برابان»). «هاكم «روسانفيل»؛ لم تعد اليوم سوى رعيّة تضم مزارعين، مع أن هذه البلدة تدين في القديم لتجارة قبعات اللباد والساعات الجداريّة بازدهار عظيم». (لست أكيداً من أصول «روسّانفيل»، وأنا أميل إلى الاعتقاد بأن الاسم الأولي كان «بوفيل» (*Radulfi villa*) كمثل «شاتورو» (*Castrum Radulfi*)، ولكنّي سأروي لكم عن ذلك في مرّة ثانية). حسن! إن الكنيسة تملك فيها زجاجاً ملوّناً رائعاً، كله حديث على وجه التقريب، و«**دخول لوي - فيليب**» إلى «كومبريه» هذه اللوحة المهيبة التي يُفضّل أن تكون في «كومبريه» نفسها والتي تساوي فيما يقولون نجميات«شارتر» الملوّنة الذائعة الصيت. وقد التقيت البارحة شقيق الدكتور «بيرسبييه» وهو هاوٍ ويعتبرها أفضل شغلاً. ولكن، كما كنت أقول لهذا الفنان الذي يبدو بالغ التهذيب، وهو فيما يظهر بارع جداً في استخدام الفرشاة، ما عساه يجد في هذا الزجاج الملوّن من أمر خارق وهو قاتم أكثر من غيره بقليل؟».

وقالت خالتي بتراخٍ وقد بدأت تظنّ أنّها قاربت أن تتعب: «أنا متأكدة من أنّك لو طالبت سيادة المطران بذلك لما منع عليك زجاجاً ملوناً جديداً» ويجيب الكاهن: «منّي النفس بذلك يا سيدة «أوكتاف» فسيادة المطران هو الذي عمل على اشتهار هذا الزجاج الملوّن المشؤوم إذ برهن بأنّه يمثّل «جيلبير لوموفيه»، سيّد «غيرمانت» (الذي ينحدر مباشرة من «جنفييف دو برابان»، وهي آنسة من أسرة غيرمانت)، وهو يستغفر لذنوبه بوساطة القديس «هيلاريون».

- ولكنّي لا أتبين مكان القديس «هيلاريون؟».

- بلى، ألم تلاحظي قطّ في زاوية الزجاج الملوّن هذه السيّدة التي ترتدي فستاناً أصفر؟ إنه القديس «هيلاريون» الذي يدعى كذلك، مثلما تعلمين، في بعض المقاطعات: القديس «إيلييه» والقديس «هيلييه» وحتى

القديس «إيلي» في منطقة الـ«جورا». وليست التغييرات المختلفة في تسمية «القديس» هيلاريون من أغرب ما حدث في أسماء القدّيسين. فشفيعتك يا «أولالي» الطيبة، شفيعتك القدّيسة «أولاليا» هل تعلمين ماذا أضحت في مقاطعة «بورغونيا»؟ بكل بساطة، القديس «إيلوا»: «لقد أضحت قدّيساً. فهل يخطر لك، يا «أولالي»، أن يجعلوا منك رجلاً بعد موتك؟».

- «السيّد الكاهن حاضر النكتة دوماً».

- «إن» «شارل الألثغ»، وهو شقيق «جيلبير» وهو أمير تقيّ مارس السلطة العليا لموت والده «بيبان المجنون» المبكر، وقد قضى متأثّراً بمرضه العقلي، مارسها بكلّ ادّعاء الشباب الذي ينقصه الانضباط. «شارل الألثغ» هذا كان يأمر بتقتيل سكّان مدينة بكاملها إن لم ترقه هيئة أحد الناس فيها. وشاء «جيلبير» أن يثأر من «شارل» فأمر بإحراق كنيسة «كومبريه»، الكنيسة الأولية آنذاك، تلك التي وعد «تيودوبير»، وهو يغادر منزله الريفيّ القريب من هذا المكان في «تيبرزي» بصحبة بلاطه في طريقه لمحاربة قبائل «البورغونديّين»، وعد بتشييدها فوق ضريح القديس «هيلاريون» إن تيسّر له النصر بشفاعة هذا القديس. ولم يظلّ منها سوى المغارة التي لا بدّ أن «تيودور» أنزلك فيها، بما أن «جيلبير» قام بحرق الباقي. ثمّ هزم «شارل» المنكود الحظ بمساعدة «غليوم الفاتح» (كان الكاهن يقول «غلّوم») وهو ما يفسّر أنّ العديد من الإنكليز يأتون للزيارة. بيد أنه لا يبدو أنه عرف كيف يكسب ودّ سكّان «كومبريه»، فقد هجم عليه هؤلاء وهو يغادر الكنيسة وقطعوا رأسه. و«تيودور» يعير على أيّة حال كتاباً صغيراً يزوِّد بالشروح.

«ولكنّ أغرب ما في كنيستنا دون شك هو المنظر الذي تراه من قبة الجرسية وهو منظر عظيم. ولكني لن أشير عليك بالتأكيد، وأنت لا تملكين القوّة اللازمة، بأن تتسلّقي درجاتنا السبع والتسعين وهي بالضبط نصف قبة «ميلانو» الشهيرة، فهنالك ما هو كفيل بإرهاق شخص معافى ولا سيما أنّك تصعد مطويّاً على نفسك إن شئت ألا تكسر رأسك وتلملم

بحوائجك جميع نسج العنكبوت في الدرج. وعليك في جميع الأحوال أن تلفّ نفسك بثياب دافئة (يضيف قوله دون أن ينتبه للحنق الذي يثيره في صدر خالتي أن تستطيع الصعود إلى قبة الجرسية) فمجرى الهواء شديد البرودة عندما يصل إلى فوق. وقد أكّد بعض الناس أنهم أحسّوا فيه ببرودة قاتلة. ومهما يكن من أمر فإن هنالك على الدوام شركات تجيء في يوم الأحد من أماكن بعيدة جداً للتمتع بجمال المنظر ثم تعود مفتونة بما رأت. وإن ظلّ الطقس على ما هو عليه فسوف تجدون بالتأكيد عدداً كبيراً من الناس نهار الأحد القادم بما أنها الأيام التي تسبق عيد الصعود. ولا بدّ من الإقرار على أية حال بأنك تتمتع هناك بمنظر ساحر تتخلله إطلالات خاطفة على السهل تتسم بطابع خاص. ويمكنك أن ترى بوضوح حتى «فيرنوي» إذا كان الطقس صحواً. وإنك لتجمع على وجه الخصوص في منظر واحد أموراً لا يمكن رؤيتها عادة إلّا الواحد دون الآخر كمجرى نهر الفيفون» وقنوات «سانت اسيز لي كومبريه»، ويفصلها عن النهر ستار من الأشجار الضخمة، أو الأقنية المختلفة في بلدة «جووي له فيكونت» وفي كل مرة أذهب فيها إلى «جووي له فيكونت» أرى قطعة من القناة ثم أرى قطعة أخرى بعدما أنعطف في شارع ولكنّي لا أرى السابقة آنذاك. وعبثاً أحاول جمعها بالفكر إذ لا يخلّف ذاك فيّ أثراً كبيراً. أما من قبة جرسية القديس «هيلاريون» فالأمر مختلف: إنها شبكة تأخذ بالمنطقة كافة. على أنك لا تميّز الماء بل يخيّل إليك أنّك ترى شقوقاً واسعة تقطّع المدينة أحياء حتى لتبدو وكأنها قطعة حلوى تتماسك أجزاؤها ولكنّها سبق أن قطّعت. وربما انبغى للحصول على نتيجة أفضل أن تكون في قبة القديس «هيلاريون» وبلدة «جووي له فيكونت» في الآن نفسه».

وقد أرهق الكاهن خالتي لدرجة أنها اضطرت أن تصرف «أولالي» حالما خرج.

وتقول بصوت ضعيف وهي تخرج قطعة نقود من كيس صغير في

متناول يدها: «خذي يا «أولالي» المسكينة، ذلك كي لا تنسيني في صلواتك».

- «ولكن يا سيّدة «أوكتاف» لست أدري إن كان ينبغي لي أن أقبل، فإنك تعلمين أنّي لا أجيء من أجل ذلك» تقول «أولالي» بالتردّد نفسه والحيرة نفسها في كل مرّة كما لو كانت المرّة الأولى وباستياء ظاهر يبعث البهجة في قلب خالتي ولا يسؤوها، فإن بدا ذات يوم على «أولالي» وهي تأخذ قطعة النقود أنّها أقل تكدّراً من المعتاد قالت خالتي:

- «لست أدري ما حل بـ«أولالي»، فإني أعطيتها ما أعطيها عادة ولم يظهر عليها أنّها مسرورة».

- ولكني أحسب أن ليس هنالك ما يدعوها للتذمّر «تقول «فرانسواز» متنهّدة، وكانت تميل إلى اعتبار كلّ ما تهبه خالتي لها ولأولادها من قبيل زهيد النقود، ومن قليل الكنوز التي تبذر بجنون في سبيل امرأة عاقّة القطع الصغيرة التي توضع أيّام الآحاد في يد «أولالي» ولكن على نحو خفيّ ما استطاعت «فرانسواز» معه أن تراها في يوم؛ وما ذلك لأن «فرانسواز» كانت ترغب أن تكون النقود التي تعطيها خالتي لِـ«أولالي» لها فقد كانت تتمتع إلى حدّ كافٍ بما تملك خالتي لعلمها بأن ثروات سيّدتها إنّما ترفع في أعين الجميع من قدر خادمتها وتزينها وأنّها، هي «فرانسواز»، مرموقة ومكرمة في «كومبريه» و«جووي له فيكونت» وأمكنة أخرى من جرّاء مزارع خالتي العديدة وزيارات الكاهن الكثيرة والطويلة والعدد الكبير من زجاجات مياه فيشي المستهلكة. فإن كانت بخيلة فمن أجل خالتي، ولو قدر لها أن تدير ثروتها، وهو ما كانت تحلم به، لحمتها من محاولات الغير بشراسة الأم. على أنّها ما كانت لتجد كبير سوء في أن تنساق خالتي، وتعلم أن داء الكرم متأصّل فيها، إلى بعض العطاء إن تم ذلك على الأقل لصالح الأغنياء، فربّما ظنّت أن هؤلاء لا يحتاجون إلى هدايا خالتي ولا يمكن الشكّ إذن بأنّهم يحبونها بسببها. فإذا ما قدمت لجماعة عظيمة الثراء كالسيّدة «سازيرا» والسيّد «سوان» والسيّد «لوغراندان»

والسيدة «غوبي»، لجماعة «من مرتبة خالتي نفسها» «منسجمة فيما بينها»، فإنها تبدو لها وكأنّما تؤلّف جزءاً من عادات هذه الحياة الغريبة البراقة التي يعيشها الأغنياء الذين يذهبون إلى الصيد ويقيمون الحفلات الراقصة ويتبادلون الزيارات، هذه الحياة التي تنظر إليها وبسمة الإعجاب على شفتيها. ولكن الأمر يختلف تمام الاختلاف إن كان المستفيدون من كرم خالتي في عداد الذين تدعوهم «فرانسواز» أناساً مثلي، أناساً ليسوا أرفع منّي» وهم من أكثر من تزدريهم إلا إن دعوها «السيّدة فرانسواز» وعدوا أنفسهم «أقلّ منها». ولما رأت أن خالتي على الرغم من نصائحها لا تفعل إلا ما يحلو لها وتلقي بنقودها، (أو هكذا تظن «فرانسواز») في سبيل مخلوقات غير أهل لها بدأت تجد الهبات التي تقدمها خالتي زهيدة جدّاً إذا ما قيست بالمبالغ الخيالية التي تغدقها على «أولالي». فليس في جوار «كومبريه» من مزرعة باهظة الثمن لا تفترض «فرانسواز» أن «أولالي» قادرة أن تشتريها بيسر بما تجنيه من زياراتها. والحقيقة أن «أولالي» كانت تخمّن بالمقدار نفسه ثروات «فرانسواز» الطائلة المخبّأة. أمّا «فرانسواز» فقد تعوّدت بعدما تذهب «أولالي» أن تتوقّع أموراً بشأنها في غير صالحها. لقد كانت تكرهها ولكنها تخشى منها وتظنّ من واجبها أن تبدي لها مودة حينما تحضر، ولكنّها تستدرك بعد ذهابها دون أن تسمّيها بالحقيقة بل تطلق نبوءات غامضة أو حكماً ذات طابع عام من مثل حكم سفر الجامعة[1] إلا أن مجال تطبيقها لا يمكن أن يخفى على خالتي. فبعدما تنظر من زاوية الستار إن كانت «أولالي» قد أغلقت الباب كانت تقول: «المتملّقون يعرفون كيف يستميلون الناس ويجمعون المال، ولكن صبراً، فاللّه يعاقبهم في يوم لا يتوقعونه»، تقول بنظرة جانبيّة وتضمّن قولها تلميح «جواس» (Joas) وهو يفكّر حصراً بـ«أتالي» (Athalie) إذ يقول لها:

«سعادة الأشرار كالسيل تنقضي».

---

(١) أحد أسفار الكتاب المقدّس (العهد القديم).

ولكن حينما كان الكاهن يأتي وترهق زيارته التي لا تنتهي قوى خالتي كانت «فرانسواز» تغادر الغرفة على إثر «أولالي» وتقول:

- «أدعك تستريحين يا سيّدة «أوكتاف» فإنّك تبدين متعبة جداً».

ولا تجيب خالتي بل تصدر زفرة تبدو وكأنها الأخيرة وقد أطبقت عينيها كالميتة. ولكن، ما إن تنزل «فرانسواز» حتى تدوي في المنزل أربع ضربات عنيفة أقصى العنف فيما تصرخ خالتي وقد انتصبت جالسة في سريرها:

- «هل انصرفت «أولالي»؟ أو تصدقين أني نسيت أن أسألها إن كانت السيدة «غوبي» قد وصلت إلى القداس بعد تقدمة القربان، هيّا اسرعي خلفها!».

ولكن «فرانسواز» تعود في هذه الأثناء ولم تستطع اللحاق بـ«أولالي»، فتقول خالتي وهي تهز رأسها:

- أمر مغيظ! الشيء المهم الوحيد الذي كنت أنوي سؤالها عنه! هكذا كانت تنقضي الحياة بالنسبة إلى خالتي «ليوني»، متماثلة على الدوام وفي الانتظام العذب لما كانت تدعوه بازدراء مصطنع وحنان عميق «رتابة عيشها المحبّبة». ومع أن الجميع صانها، لا في البيت فحسب حيث قبل كلّ واحد شيئاً فشيئاً باحترامها بعدنا شعر بلا جدوى الإشارة عليها بنظام صحي أفضل، بل حتى في القرية حيث يبعث المصَنْدِقُ، وهو على ثلاثة شوارع منّا، في سؤال «فرانسواز» قبل تسمير صناديقه إن كانت خالتي لا تأخذ قسطً من الراحة فقد عكّر مع ذلك صفو هذه الرتابة مرّة في ذلك العام. فكمثل ثمرة مخبّأة تبلغ حد النضج دون أن ينتبه لذلك أحد وتنفصل من تلقاء ذاتها، وقعت ذات ليلة ساعة خلاص خادمة المطبخ. ولكن آلامها كانت لا تحتمل، وقد اضطرت «فرانسواز» أن تذهب قبل طلوع النهار لتصطحب قابلة من «تيبرزي» إذ لم يكن في «كومبريه» قابلة. ولم تستطع خالتي أن ترقد من جراء صراخ خادمة المطبخ ولشد ما افتقدت «فرانسواز» التي لم تعد إلا متأخّرة جداً على الرغم من قصر المسافة.

ولذلك قالت لي والدتي في الضحى: «اصعد وانظر إن لم تكن خالتك بحاجة إلى شيء». فدخلت إلى الحجرة الأولى ورأيت من خلال الباب المفتوح خالتي ترقد على جنبها وقد أغفت، وسمعتها تشخر قليلاً. وكنت أهمّ في الذهاب على مهل ولكن الضجّة التي أحدثتها داخلت نومها ولا شكّ و«غيرت سرعته» كما يقال في الحديث عن السيّارات لأن موسيقى الشخير انقطعت ثانية ثم عادت على نغمة أخفض استيقظت بعدها وأدارت وجهها نصف دورة فاستطعت مشاهدته إذ ذاك وكان يعبّر عن ضرب من الذعر. لقد تمّ لها بالبداهة حلم مخيف. وما كانت تستطيع أن تراني بالشكل الذي ترقد فيه وظللت هنالك لا أعرف إن كان ينبغي لي أن أتقدم أو أنسحب. ولكنّها أخذت تبدو وقد عاودها الشعور بالواقع وعرفت كذب الرؤى التي بعثت الهلع في نفسها وألقت ابتسامة فرح وشكران للّه الذي يسمح بأن تكون الحياة أقلّ قسوة من الأحلام ضياء ضعيفاً على وجهها، وهمست وقد تعودت أن تحدث نفسها بصوت خفيض حينما تظن نفسها وحدها، «تبارك اللّه! ليس لدينا ما يزعجنا سوى خادمة المطبخ التي تلد. أفلم أكن أحلم أن «أوكتاف» المسكين قد قام من بين الأموات وأنه كان يبغي حملي على القيام بنزهة في كلّ يوم!» «وامتدت» يدها إلى سبحتها ولكنّ النوم العائد لم يدع لها القوّة في بلوغها، فقد عادت تنام وقد هدأت بالاً وخرجتُ من الغرفة بدون ضجّة ودون أن تعلم هي أو يعلم أي غيرها ما سمعتُ.

على أني حينما أقول بأن رتابة عيش خالتي لم يلحق بها تغيّر البتة فيما عدا بعض الأحداث القليلة جدّاً من مثل عملية الولادة تلك فإني لا أتحدّث عن التغيرات التي تتكرّر على الدوام بذاتها على فترات منتظمة فلا تدخل في الرتابة سوى نوع من الرتابة الثانوية. فهكذا كان يتم تقديم الغداء للجميع ساعة قبل موعده في كل يوم سبت لأن «فرانسواز» تذهب بعد الظهر إلى سوق «روسّانفيل لوبان». وكانت خالتي قد تعودت هذا الخروج الأسبوعيّ على عاداتها حتى إنّها تتمسّك بهذه العادة تمسّكها بالأخريات،

وقد تمّ «تآلفها» معها، على حدّ قول «فرانسواز»، لدرجة أنها لو انبغى لها في يوم سبت انتظار الساعة المعتادة للغداء لأزعجها الأمر بمقدار ما يتم لها لو اضطرت في يوم آخر إلى تقديم موعد غدائها إلى مثل ساعة السبت. وتقديم الغداء هذا كان يضفي على يوم السبت بالنسبة إلينا جميعاً هيئة خاصة تتميّز بالتهاون والمودّة. ففي حين يظلّ أمامك بالعادة ساعة تقضيها قبل استراحة الطعام كنت تعلم أنّك ستشهد بعد ثوانٍ معدودة وصول هندباء مبكرة «وعجة» يمنون بها علينا و«بفتيك» لا نستحقّه. وكانت عودة السبت غير المنتظم هذا من بين الأحداث الصغيرة الداخليّة والمحلية والوطنيّة تقريباً التي تخلق في أجواء الحياة الهادئة والمجتمعات المغلقة نوعاً من الرباط القوميّ وتضحي الموضوع المفضّل في الأحاديث والمزحات والحكايات التي تبلغ فيها ما شئت، ولعلّها كانت نواة معدّة تماماً لحلقة أسطوريّة لو توافر لأحدنا دماغ ملحميّ. فمنذ الصباح وقبل ارتداء ملابسنا، وبدون سبب، وفي سبيل الشعور بقوّة التضامن كنّا نقول بعضنا لبعض بفيض من الغبطة والمودّة والوطنيّة: «لا وقت لدينا نضيعه، فلا ننسين أنّ اليوم سبت!» فيما تقول خالتي في حديثها مع «فرانسواز» وقد راودها أن النهار سوف يكون أطول من المعتاد: «هلّا أعددت لهم قطعة كبيرة من لحم العجل بما أنّ اليوم سبت؟» وإن أخرج ساهٍ ساعته في العاشرة والنصف وهو يقول: «ما زال هناك ساعة ونصف قبل الغداء»، وجد كل منا غبطة في أن يقول له: «ولكن بماذا عساك تفكّر، لقد فاتك أن اليوم سبت!» ونضحك ربع ساعة أيضاً بعد ذلك ونمنّي النفس بالصعود لنقصّ على خالتي خبر هذا الإغفال لإدخال السرور الى قلبها. حتى صفحة السماء تبدو على غير حالها؛ والشمس، بعد الغداء، تزيد في جولتها ساعة في السماء وقد أدركت أن اليوم سبت، وإن حَسِب أحد أنّنا تأخرنا عن النزهة فقال: «ما الخبر؟ أهي الساعة الثانية فقط؟» وهو يتابع مرور دقتي الساعة في قبّة جرسية «القديس هيلاريون» (وقد تعوّدتا أن لا تصادفا أحداً إذ ذاك بسبب طعام الظهر أو القيلولة، على امتداد النهر

المتوثّب الأبيض الذي هجره حتى الصياد فتمرّان وحيدتين في السماء المهجورة حيث لم يبق سوى بضع غيمات خاملات)، أجابه الجميع معاً: «ولكن ما يخدعك أنّنا تغدينا قبل ساعة من موعدنا، فأنت تعلم أنّ اليوم سبت!» وكانت دهشة أحد البرابرة (ونطلق التسمية على جميع الناس الذي لا يعلمون ما ينفرد به يوم السبت) الذي جاء في الحادية عشرة ليكلّم والدي فوجدنا على مائدة الطعام من أكثر ما أفرح «فرانسواز» في حياتها. على أنّها إن وجدت تفكهة في جهل الزائر المنذهل بأننا نتغدّى في وقت مبكر يوم السبت، فقد كان يضحكها أكثر من ذلك ألا تراود والدي (وتشعر في صميم الفؤاد بميل يؤيدّ هذه النعرة الضيقة) فكرة أن يستطيع هذا البربريّ أن يجهل الأمر وأنّه أجاب، دون أيّ إيضاح آخر، حيال دهشته في أن يرانا في غرفة الطعام ساعتها: «ولكنّه السبت يا صاح!» وما إن تبلغ هذه المرحلة من حكايتها حتى تمسح دموعاً سيّلها الضحك، ثم هي تطيل في الحوار كيما تزيد من السرور الذي تشعر به فتختلق ما أجاب به الزائر الذي لم يكن «السبت» ليفسّر له شيئاً. وما كنا لنشتكي من هذه الإضافات بل هي لا تكفينا فكنّا نقول: «ولكن يبدو لي أنه قال غير ذلك أيضاً، فقد كان الخبر أطول في أوّل مرة رويت عنه». وجدّتي نفسها كانت تترك شغلها جانباً وترفع رأسها وتنظر من فوق نظّارتها.

وكان يوم السبت يتميّز كذلك بأننا كنّا في ذلك النهار نخرج طوال شهر أيّار بعد العشاء لنذهب إلى «الشهر المريميّ».

ولما كنّا نلتقي فيه أحياناً بالسيد «فانتوي»، وهو متشدّد جدّاً في ما يخص «الصنف الذي يرثى له من الشباب المهمل في لباسه حسب أفكار العصر الحاضر» فقد كانت والدتي تحترس ألا يداخل لباسي أي عيب، ثم ننطلق بعدها إلى الكنيسة. وقد بدأت أحبّ أزهار الزعرور في الشهر المريميّ فيما أذكر. فلمّا لم تكن في الكنيسة المملوءة قداسة والتي أعطينا الحقّ في دخولها موضوعة على الهيكل نفسه فحسب لا تنفصل عن الأسرار التي كانت تشارك في الاحتفال بها، فقد كانت ترسل بين

الشمعدانات والأواني المقدّسة أغصانها التي شُدَّ بعضها إلى بعضها الآخر أفقياً في ترتيب يوحي بالأعياد والتي كانت تزينها كذلك حواشي أوراقها المفرّضة التي انتثرت فوقها بكثرة طاقات صغيرة من الأزهار ذات بياض ناصع وكأنما فوق حاشية فستان عروس. ولكني كنت أشعر أن هذا الترتيب الفخم، وإن لم أجرؤ أن أنظر إليه إلا خلسة، كان يضج بالحياة وأن الطبيعة نفسها قد جعلت هذه الزينة خليقة بما كان يشكّل عيداً شعبياً واحتفالاً صوفياً في الآن نفسه وذلك بحفرها هذه التعرّجات في الأوراق وبإضافة هذه الأزرار البيضاء كأقصى درجات الزينة. وفي الأعلى كانت تتفتح تويجاتها ههنا وهناك بجمالها اللامبالي وتحتفظ ساهيةً بطاقة الأسدية الدقيقة كخيوط العذراء والتي تمتد عليها جميعها كالغشاء الرقيق، تحتفظ بها بمثابة زينة أخيرة في شفافية الغمام حتى إنّي كنت أتخيّلها، وأنا أتابع خطوطها وأحاول أن أقلّد في أعماقي حركة إزهارها، كما لو أنها الحركة الطائشة السريعة لرأس فتاة بيضاء الرداء ساهية تزخر بالحياة والدلع في نظرتها وحدقتيها المتقلصتين. وكان السيد «فانتوي» قد جاء بصحبة ابنته فاتخذ مكانه فيما بيننا. وكان من أسرة كريمة وقد علّم البيانو لشقيقات جدّتي، وحينما لجأ بعد موت زوجته وما آل إليه من ميراث إلى جوار «كومبريه» كنّا نستقبله كثيراً في بيتنا. ولكنه كان من حشمة مفرطة فكف عن المجيء كي لا يصادف «سوان» الذي اقترف ما كان يدعوه «زواجاً في غير محله قياساً على الأعراف السائدة». ولما علمت والدتي أنه يؤلف في الغناء فقد قالت له بلطف إنّه ينبغي له يوم تذهب لزيارته أن يُسمِعَها شيئاً منه. ولعلّ السيد «فانتوي» أصاب من جراء ذلك سروراً عظيماً ولكنّما يبلغ به التهذيب والطيبة حداً من الوساوس يخشى معه، إذ يضع نفسه على الدوام محل الآخرين، أن يزعجهم وأن يبدو لهم أنانياً إن هو تبع هواه أو حتى سمح بأن تُسْتَشَفَّ نواياه. وفي اليوم الذي ذهب فيه أهلي لزيارته في منزله رافقتهم إلى هناك ولكنّهم سمحوا لي بالبقاء في الخارج، ولما كان منزل السيّد «فانتوي» (ويدعى «مونجوفان») على حضيض هضبة صغيرة

تغمرها الأدغال اختبأت فيها فرأيتني تماماً في مقابل صالة الطابق الثاني على بعد خمسين سنتيمتراً من النافذة. وحينما جاء من يعلن عن قدوم أهلي رأيت السيّد «فانتوي» يسارع إلى وضع قطعة موسيقيّة على البيانو في مكان بارز منه. ولكنّه عاد فسحبها ووضعها في زاوية حالما دخل أهلي. لقد خشي ولا شك أن يحملهم على افتراض أنّه لم يكن سعيداً لرؤيتهم إلا ليعزف أمامهم مؤلفاته. وقد عمد في كل مرّة أعادت فيها والدتي الكرة في أثناء الزيارة إلى أن يردد مرّات عديدة: «ولكني لا أدري من الذي وضعها على البيانو، فليس هناك مكانها»، وأن يغير مجرى الحديث إلى مواضيع الأخرى لأن هذه المواضيع كانت بالضبط أقل أهمّية في نظره. وكان هواه الوحيد يتجه إلى ابنته وإنها لتبدو، وهي أقرب إلى هيئة الفتيان، متينة البنية حتى لا تملك إلّا أن تبتسم لدى رؤية صنوف الحيطة التي يتخذها والدها بشأنها إذ يحتفظ دوماً بشالات إضافية يلقيها على كتفيها. وكانت جدّتي تدعو إلى ملاحظة التعبير العذب الرقيق الذي يقارب الوجل والذي غالباً ما يبرز في نظرات هذه البنية البالغة الخشونة التي امتلأ وجهها بالنمش. وحينما يتفق لها أن تقول كلمة فقد كانت تصغي إليها بعقل الذين وجهتها إليهم فيصيبها القلق من صنوف سوء التفاهم المحتملة وكنتَ ترى حينها ملامح أكثر رقّة لفتاة حزينة تشرق وتتحدّد خطوطها شفوفاً خلف الهيئة المسترجلة لذاك «العفريت الطيّب».

وحينما ركعتُ أمام المذبح، لحظة مغادرة الكنيسة، أحسست فجأة وأنا أنهض، برائحة لوز مرة وعذبة تنبعث من أزهار الزعرور، ولاحظت حينذاك على الأزهار مواضع صغيرة أوفر شقرةً إنما تخيّلت أنّ هذه الرائحة تختفي حتماً تحتها كما يختفي تحت الأجزاء المشويّة طعم حلوى مصنوعة بمهروس اللوز أو طعم وجنتي الآنسة «فانتوي» تحت بقع النمش. وعلى الرغم من صمت أزهار الزعرور وسكينتها فقد كانت هذه الرائحة المتقطّعة تبدو وكأنها همس حياتها الغنية التي يهتز المذبح بها كمثل سياج حقل تنتقل فوقه قرون استشعار حيّة تراودك فكرتها إذ ترى بعض الأسدية

الصهباء تقريباً وقد بدا وكأنّها احتفظت بالزخم الربيعي والقدرة المهيجة لحشرات استحالت اليوم أزهاراً.

وكنّا نتحدث لفترة مع السيّد «فانتوي» أمام البوّابة لدى خروجنا من الكنيسة. وكان يتدخل بين الصبية الذين يتخاصمون في الساحة فيدافع عن الصغار ويسدي المواعظ للكبار. وإن اتّفق لابنته أن تقول لنا بصوتها الخشن كم كانت مسرورة بلقائنا بدا في الحال أنّ في داخلها شقيقة لها أوفر إحساسً تحمرّ خجلاً لهذا الكلام الصادر عن صبي طائش أمكن أن يحملنا على الاعتقاد بأنها تلتمس أن تدعى إلى بيتنا. ثم يرمي والدها بمعطف على منكبيها ويصعد كلاهما في غرفة صغيرة تقودها بنفسها ويعودان إلى «مونجوفان». أمّا نحن فإن حظينا بليلة قمراء وكان الهواء دافئاً، وبما أن الغد كان يوم أحد وأننا لن ننهض فيه إلا لحضور القداس الاحتفالي، فقد كان والدي يدعونا، عوضاً عن أن نعود مباشرة، إلى محنة القيام بنزهة طويلة تعتبرها والدتي من قبيل مآثر نبوغ استراتيجي من جرّاء قابلية ضعيفة في التوجه والتعرف إلى طريقها. وكنّا نذهب أحياناً حتى جسر الوادي الذي تبدأ قناطره الحجرية في المحطة وتصور لي النفي والشقاء خارج حدود العالم المتمدن لأنهم كانوا يوصوننا في كل سنة لدى مجيئنا من باريس أن نحسن الانتباه حينما نبلغ «كومبريه» كي لا يفوتنا الموقف وأن نستعدّ سلفاً لأن القطار يعاود السير بعد دقيقتين ويجتاز جسر الوادي إلى ما وراء بلاد النصارى التي تؤلف «كومبريه» حدودها القصوى. وكنّا نعود من شارع المحطّة حيث تقوم أجمل دارات الناحية منظراً. وكان ضياء القمر ينثر في كل حديقة، مثلما يفعل «هوبير روبير»، درجاته المكسّرة وهي من الرخام الأبيض ونوافير مائه وسياجه المفتوح. لقد هدم ضياؤه مكتب البرق فما ظلّ منه سوى عمود نصف محطّم ولكنه يحتفظ بجمال الأطلال الخالدة. وكنت أجرّ ساقي وأكاد أسقط من النعاس وتبدو ليس رائحة الزيزفون العطرة وكأنها مكافأة لا يمكن الحصول عليها إلا في مقابل أشد أنواع التعب ولكنها ليست جديرة بتلك المشقة. ومن الأسيجة

الشديدة التباعد كانت الكلاب التي أيقظتها خطانا في عزلة الليل تتناوب في النباح كما لا يزال يتفق لي أحياناً سماع مثله في المساء، ولا بدّ أنّ شارع المحطة جاء يرتمي بين ثنياته (حينما أقيمت في مكانه حديقة «كومبريه» العامّة) فإنّني حيثما وجدت أتبينه، حالما يأخذ هذا النباح في الدوي والتردّد، أتبينه بأشجار زيزفونه ورصيفه الذي ينيره ضياء القمر.

وفجأة يوقفنا والدي ويسأل أمّي: «أين نحن؟» أمّا هي وقد أنهكها المسير وهزها الاعتزاز به فقد كانت تقر بحنان أنّها لا تعلم على الإطلاق، فيرتفع بمنكبيه ويضحك. وكان يرينا حينئذ باب حديقتنا الخلفيّ الصغير وقد انتصب أمامنا وأسرع ينتظرنا بصحبة زاوية جادّة «الروح القدس» في آخر هذه الدروب المجهولة وكأنما أخرجه من جيب سترته مع مفتاحه. وتقول له أمي بإعجاب: «إنّك رجل خارق!» ومنذ تلك اللحظة لم يكن يبقى عليّ أيّة خطوة أخطوها فالأرض كانت تسير بدلاً مني في هذه الحديقة التي كف فيها الانتباه المقصود منذ زمن بعيد جداً عن مواكبة أفعالي: إنها العادة جاءت تأخذني بين ذراعيها وتحملني إلى سريري كطفل صغير.

ولئن كان يوم السبت الذي يبدأ قبل ساعة والذي كانت خالتي فيه محرومة من «فرانسواز»، لئن كان أبطأ في انقضائه بالنسبة إليها، فإنها كانت تنتظر عودته بفارغ الصبر من أوّل الأسبوع باعتباره يحوي كل الجدّة والتسلية التي لا يزال جسدها الواهن المهووس قادراً على احتمالها. وليس يعني ذلك أنّها لم تكن تتوق أحياناً إلى بعض تبدّل أكبر أهميّة وأنّه لا تمر بها هذه الساعات الشاذّة التي يصبو فيها المرء إلى غير ما هو واقع والتي يطلب فيها الذين يحول فقدان القوة أو الخيال لديهم دون أن يستخرجوا من ذواتهم مبدأ تجديد إلى الدقيقة التي تمر بهم، وساعي البريد الذي يقرع الجرس أن يجيئهم بجديد وإن كان شديد السوء، بانفعال، بألم؛ ساعات تبغي فيها الحساسية التي أسكتتها السعادة كقيثارة لا عمل لها أن ترن بفعل يد وإن قاسية، وإن أدى ذلك إلى تحطيمها؛ ساعات تودّ

فيها الإرادة التي انتزعت بصعوبة بالغة حقها في أن تستسلم دونما عقبات لرغباتها وآلامها أن تترك الأعنة لأحداث قاهرة وإن اتّسمت بالقساوة. وبما أن قوى خالتي التي يذهب بها أقلّ مقدار من التعب لم تكن تعود إليها إلا قطرة فقطرة إبّان راحتها فإن الخزان يستنفد وقتاً طويلاً ليمتلئ وتنقضي بذلك شهور قبل أن تبلغ هذا الفائض الطفيف الذي يحوّله غيرها إلى مجرى النشاط والذي كانت عاجزة أن تعلم كيف تستخدمه أو كيف تقرّر ذلك. ولست أشك أنّها استمدّت من تراكم هذه الأيام الرتيبة التي كانت شديدة التعلق بها - مثلما تتولد من اللذة التي تبعثها في نفسها عودة مهروس البطاطا اليومي الذي لا تمله رغبة إحلال البطاطا بالمرقة البيضاء محلها بعد مضي بعض الوقت - توقعاً لكارثة بيتية لا تتعدّى حدود اللحظة ولكنها تضطرها إلى أن تحقق نهائياً واحداً من هذه التغيرات التي كانت تقرّ بأنها مفيدة لها ولكنها ما كانت تستطيع أن تقررها من تلقاء ذاتها. فلقد كانت تحبنا حباً حقيقياً وربما سرها أن تَبْكِيَنَا؛ والخبر الذي مفاده أن المنزل فريسة النيران في حريق هلكنا فيه جميعاً ولن يبقي عما قليل على حجر واحد من الجدران، على أن يوافيها في وقت تحس فيه أنها بخير وأن العرق لا يبللها، ويتسع لها الوقت للنجاة دون أن يقتضيها الأمر الاستعجال بشرط أن تنهض في الحال، هذا الخبر قد داعب ولا شك أمانيها لأنّه يقرن المكاسب الثانوية التي قوامها أن تذوق والحسرة تعتصر فؤادها كلّ الحنان الذي تحيطنا به وأن تُثير دهشة القرية إذ تحمل حزننا وقد أضناها التجلد وظلّت واقفة تصارع الموت، بالمكسب الذي يساوي أكثر منها بكثير في أن تضطر في اللحظة المناسبة ودونما وقت تضيعه أو إمكانية تردد يرهق الأعصاب إلى الذهاب لقضاء الصيف في مزرعة «ميروغران» الجميلة التي فيها شلال ماء. ولما لم يقع أي حادث من هذا القبيل، وكانت تفكر دونما شك في نجاحه حينما تظل وحدها وتغرق في تسليات لا تحصى من التدرب على طول الأناة (ولكنه ربما حمل لها اليأس في أول بدايته، في مستهل هذه الأمور الصغيرة غير المتوقعة، وهذه

الكلمة التي تنقل إليك خبراً مشؤوماً لا تستطيع من بعد أن تنسى نبرتها، وكل ما يحمل طابع الموت الحقيقي وهو شديد الاختلاف عن إمكانية حدوثه في المنطق والتجريد). فقد كانت تنصرف إلى إدخال واقعات خيالية فيه تتابعها بشغف كيما تجعل حياتها بين الحين والحين أكثر إمتاعاً. فكان يحلو لها أن تفترض فجأة أن «فرانسواز» تسرقها وأنها تلجأ إلى الحيلة كيما تتحقق من ذلك وتقبض عليها متلبسة بالجريمة. ولما تعودت أن تؤدي لعبتها ولعبة خصمها في الآن نفسه فقد كانت تقول لذاتها أعذار «فرانسواز» المربكة وتجيب عليها بحماسة وثورة بالغتين حتى إذا ما دخل أحدنا في تلك اللحظات وجدها في ضياع متقدة العينين وقد كشف شعرها المستعار المنزاح جبينها الأصلع. وربما سمعت «فرانسواز» أحياناً عبارات التهكم الجارح الموجّه إليها توافيها في الغرفة المجاورة وما كان ابتداعها ليروّح عن خالتي إلى حد كافٍ لو ظلت في حالة لامادية بحتة ولو لم تسبغ عليها حقيقة أكثر إذ تهمس بها بصوت خفيض. وأحياناً لا تكتفي خالتي بهذا «العرض في السرير» فقد كانت تبغي أن تمثل مسرحياتها وكانت إذ ذاك تسر إلى «أولالي» ذات يوم أحد، وقد أغلقت الأبواب جميعها في جو من الأسرار، بشكوكها حول أمانة «فرانسواز» وبنيتها في التخلص منها، وتسر غير مرة إلى «فرانسواز» بشكوكها حول خيانة «أولالي» التي ستوصد الأبواب عما قليل في وجهها. ثم تراها بعد بضعة أيام وقد نفرت من نجيّة الأمس ومالت إلى الخائن، وتتبدل الأدوار على أية حال في العرض التالي. ولكن الشكوك التي توحي بها «أولالي» أحياناً إن هي إلا نار هشيم سرعان ما تتلاشى لافتقاد ما يغذيها لأن «أولالي» لا تقطن في البيت. ولم يكن الأمر واحداً في ما يخص الشكوك المتعلقة بـ«فرانسواز» التي تحسّ خالتي باستمرار أنها تأوي تحت السقف نفسه ولكنها لا تجرؤ، مخافة أن يصيبها البرد إن هي غادرت سريرها، أن تنزل إلى المطبخ لتتبين صحة هذه الشكوك. ولم يعد لفكرها شيئاً فشيئاً ما يشغله سوى محاولة أن تخمن ما يمكن أن تفعله «فرانسواز» أو تحاول إخفاءه عنها. وكانت

تلاحظ أكثر حركات وجهها خفاء وتناقضاً في أقوالها ورغبة يبدو أنها تخفيها، ثم تبدي لها أنها كشفتها بكلمة واحدة يصفر لها وجه «فرانسواز» وتبدو خالتي وكأنها تلقى سلوة في غرسها بقسوة في قلب المسكينة. ويجيء اكتشاف لِـ«أولالي» في الأحد الذي يليه - كمثل هذه الاكتشافات التي تفتح فجأة حقلاً لم يشك أحد بوجوده في وجه علم ناشئ كان يتخبط في الدروب المطروقة - ليبرهن لخالتي أنها كانت في ما تفترضه دون الحقيقة بكثير. «ولكن لا بدَّ أن تعلم «فرانسواز» الآن أنك أعطيتها عربة». وتصرخ خالتي قائلة: «إنني أعطيتها عربة!» - «آه! لست أدري أنا، لقد ظننت، فإني رأيتها تمر الآن في عربة أشد اعتزازاً من «آتابان» لتذهب إلى السوق في «روسانفيل»، وحسبت أن السيدة «أوكتاف» أعطتها إياها». وأخذت «فرانسواز» وخالتي شيئاً فشيئاً لا تكفان، كالطريدة والصياد، عن محاولة متبادلة في أن تتقي كل منهما حيل الأخرى. وأخذت أمي تخشى أن تتولد في صدر «فرانسواز» بغضاء حقيقية موجهة ضد خالتي التي كانت تخصها بأقسى ما تستطيع من إهانة. وأنشأت «فرانسواز» تولي على أية حال انتباهاً متزايداً وعظيماً لأقل كلمات خالتي وحركاتها. وحينما كان لديها ما تطلبه منها فقد كانت تتردد طويلاً بشأن الطريقة التي ينبغي لها أن تتصرف بها، وحينما تتفوه بطلبها تلاحظ خالتي خلسة وتحاول أن تحزر في ظاهر وجهها ما فكرت به وما سوف تقرره. وهكذا - وفي حين يحسب فنان، وهو يقرأ مذكرات القرن السابع عشر ويرغب في التقرب من الملك المعظم، أنه يسير في هذا السبيل إذ يصنع لنفسه نسباً يتحدر به من أسرة تاريخية أو يراسل أحد ملوك أوروبا الحاليين فيدير ظهره بالضبط، إذ يفعل، لما أخطأ في البحث عنه تحت أشكال مماثلة وبالتالي ميتة - هكذا كانت ترى سيدة ريفية عجوز، دون أن تفكر في يوم بلويس الرابع عشر بل تنساق بصدق فحسب خلف عادات شاذة لا تملك أن تقاومها وخبث أورثته البطالة، أكثر مشاغلها اليومية تفاهة مما يتعلق منها باستيقاظها وغدائها ورقادها تتخذ من جراء غرابتها المستبدة بعضاً من أهمية ما كان

يدعوه «سان سيمون» بـ«آلية» الحياة في قصر «فيرساي»، كما كانت تستطيع الظن بأن فترات صمتها وبعض ما يتقلب على محياها من مرح أو تعالٍ إنما هي في ما يخص «فرانسواز» موضع تعليق يساوي في حدته وتخوفه ما كان عليه صمت الملك ومرحه وتعاليه حينما يسلمه أحد رجال البلاط أو حتى أكبر أسياد القوم التماساً في منعطف أحد ممرات «فيرساي».

وفي يوم من أيام الآحاد تمت في آنٍ واحد زيارة الكاهن و«أولالي» لخالتي التي استقلت بعدها في سريرها فصعدنا جميعاً لنتمنى لها ليلة سعيدة وأخذت أمي تقدم لها تعازيها بشأن تعاسة حظها التي تأتيها بزوارها في الآن نفسه على الدوام، وقالت لها بلطف: «أعل »يا ليوني» أن الأمور قد تمت منذ قليل على غير ما يرام فقد جاءك زوارك جميعهم دفعة واحدة».

وقاطعت شقيقة جدي هذا الخطاب بقولها: «خيرات وفيرة. . . » لأنها كانت تظن منذ أن مرضت ابنتها أن من واجبها رفع معنوياتها بأن تقدم لها الجانب المضيء من كل أمر. ولكن والدي أمسك بزمام الحديث وقال:

«أودّ أن أغتنم اجتماع العائلة بأسرها لكي أقصّ عليك أمراً دون أن أكون بحاجة إلى إعادته أمام كل واحد منهم. إني أخشى أن نكون في خصومة مع «لوغرندان»، فقد كاد لا يحييني هذا الصباح».

ولم أمكث لسماع رواية والدي فقد كنت بصحبته بعد القداس حينما التقينا السيّد «لوغراندان»، ونزلت إلى المطبخ أسأل عن أصناف العشاء التي كانت تسليني في كل يوم كمثل الأخبار التي تقرأها في جريدة وتثيرني على غرار برنامج احتفال. وبما أن السيد «لوغراندان» مر على مقربة منا وهو يغادر الكنيسة إلى جانب إحدى سيدات القصور في الجوار، وما كنا نعرفها إلا بالوجه، فقد سلّم والدي سلاماً اقترن فيه الود بالتحفظ ودون أن نتوقف. أما السيد «لوغراندان» فقد أجاب لماماً والدهشة بادية عليه وكأنه لم يعرفنا وبهذا البعد في النظرة الذي يميّز الناس الذين لا يودون أن يبدوا

لطفاء والذين يظهرون وهم ينظرون إليك من أعماق عيونهم التي تباعدت فجأة وكأنهم يبصرونك في آخر طريق مترامية وعلى مسافة بعيدة جداً يكتفون معها أن يشيروا برأسهم إشارة صغيرة جداً كيما يساووا بينها وبين حجم الدمية الذي تبدو فيه.

ولكنّ السيّدة التي كان يصحبها «لوغراندان» فاضلة ومحترمة ولا يمكن الذهاب إذن إلى أنّه كان سعيد الحظّ وضايقته المفاجأة، فيتساءل والدي كيف استطاع أن يغيظ «لوغراندان»: «لعلّ أسفي أن أعلم أنّه مغتاظ، يقول والدي، يزداد بمقدار ما يبدو عليه، وسط هذا الحشد من القوم بثياب الأحد، بسترته القصيرة المستقيمة وربطة عنقه الرخوة شيء من قلّة الهندمة، ومن البساطة الحقّة وملامح بريئة تجعله محبّباً تماماً». ولكنّ مجلس العائلة ارتأى بالإجماع أن والدي قد اختلط عليه الأمر أو أن السيّد «لوغراندان» كان في تلك اللحظة غارقاً في بعض الأفكار. وقد تبدّدت مخاوف والدي على كلّ حال منذ مساء اليوم الثاني. ذلك أنّنا أبصرنا قرب «الجسر القديم»، ونحن عائدون من مشوار طويل، «لوغراندان» الذي كان يمكث عدّة أيام في «كومبريه» بسبب الأعياد. وأقبل علينا يمدّ يده وسألني قائلاً: «هل تعرف، أيها السيّد الكثير القراءات، بيت الشعر هذا لِبول «ديجاردان»:

«ها إن الأحراج أصبحت سوداء والسماء ما تزال زرقاء».

أليس تدويناً دقيقاً لمثل هذه الساعة؟ لعلّك لم تقرأ قطّ «بول ديجاردان». اقرأه يا بني. لقد انقلب اليوم، فيما يقولون، إلى واعظ، ولكنّه ظلّ لفترة طويلة رسّاماً صافي الألوان...

«ها إن الأحراج أصبحت سوداء والسماء ما تزال زرقاء».

فلتظلّ السماء زرقاء على الدوام في عينيك يا صديقي الصغير، وحتى في الساعة التي تحلّ بي منذ الآن والتي أصبحت الأحراج فيها سوداء

ويحلّ الليل فيها سريعاً وستتعزّى مثلما أفعل إذ أنظر من جهة السماء». وأخرج سيكارة من جيبه وظلّ طويلاً وعيناه عالقتان بالأفق، ثم قال فجأة: «وداعاً أيّها الرفاق» وابتعد عنّا.

وفي الساعة التي كنت أنزل فيها للاستعلام عن أصناف الطعام كان العشاء في طور الإعداد و«فرانسواز» التي تأمر قوى الطبيعة وقد أضحت عوناً لها، شأن ما يتمّ في قصص الجنيّات حيث يعمل العمالقة بمثابة طبّاخين، تكسّر الفحم الحجري وتضع في البخار شيئاً من البطاطا بغية تعريقه وتبلغ بروائع المآكل حدّ الاستواء فوق النار وقد سبق أن أعدّت في أوانٍ خزفيّة تتراوح بين الكبير من أحواض وقدور وطناجر ومسامك وبين أواني الفخّار الخاصّة بالطرائد وقوالب الحلوى وأوعية الكريما الصغيرة مروراً بمجموعة كاملة من القدور من جميع الأحجام. وكنت أتوقّف لأرى على الطاولة حبّات البازلاء وقد صفّت وعدّت كمثل كلل خضراء في لعبة، وكانت خادمة المطبخ قد فصّصتها قبل قليل. ولكن النشوة تداخلني أمام الهليون وقد غمس بالزرقة الناصعة واللون الورديّ وتدرّجت ألوان سنبلته، التي تعاقبت عليها حاشية رقيقة من البنفسجي واللازوردي، تدرّجاً بطيئاً حتى أسفلها - ولا يزال يحمل أوساخ التربة التي زرع فيها - بألوان قزحيّة لا تمتّ إلى أرضنا بصلة. وكان يبدو لي أنّ هذه الألوان المتدرّجة السماوية إنّما تنمّ عن المخلوقات الفتّانة الذي راقها أن تستحيل خضاراً والتي تكشف، عبر ألوان الفجر الوليد هذه، عبر بدايات قوس قزح هذه، عبر تلاشي هذه العشيّات الزرقاء ومن خلال خدعة لبّها المغذّي الصلب، عن هذا الجوهر الثمين الذي أتعرّفه حينما كانت تعمل طوال الليلة التي تلي عشاء أكلت فيه منه، من خلال خدعاتها الشعريّة الفظّة كمثل رؤيا خارقة لشكسبير، على أن تنقلب مبولتي إلى قارورة عطر.

وكانت «محبّة جيوتّو» (مثلما يدعوها «سوان») التي كلّفتها «فرانسواز» بـ«نَتْفِه» تضعه في سلّة بالقرب منها وتبدو في غمّ كما لو أحسّت بجميع مصائب الأرض. وكانت الأكاليل الخفيفة التي بزرقة السماء والتي تحيط

بالهليون من فوق قمصانه التي بلون الورد قد رسمت بدقّة: نجمة فنجمة، كما هي في اللوحة الجدارية، الأزهار المعقودة حول جبين «فضيلة بادوفا» أو المغروسة في سلّتها. وكانت «فرانسواز» في تلك الأثناء تقلّب على الأسياخ فروّجاً من تلك التي تجيد وحدها شيّها والتي حملت إليّ مسافة بعيدة في «كومبريه» رائحة فضائلها والتي كانت تغلّب، في أثناء ما تقدّمها على مائدتنا، العذوبة في تصوّري الخاصّ لطباعها إذ لم يكن عطر هذا اللحم الذي تجيد في إضفاء الطراوة عليه سوى العطر الخاصّ بواحدة من فضائلها. أمّا اليوم الذي نزلت فيه إلى المطبخ فيما كان والدي يستشير مجلس العائلة حول اللقاء مع «لوغراندان» فقد كان في عداد تلك الأيام التي لم تكن «محبّة جيوتو» لتقوى فيها على مغادرة فراشها لضعفها الشديد من جرّاء ولادتها الغريبة العهد؛ أمّا «فرانسواز» فقد تأخّرت بعدما افتقدت العون. وحينما نزلتُ كانت آخذة في مؤخّر المطبخ المطلّ على خمّ الدجاج في ذبح فروّج كان يُبرز، من جرّاء مقاومته اليائسة والطبيعيّة جدّاً والتي تصاحبها «فرانسواز» التي خرجت عن طورها فيما تحاول أن تشقّ رقبته من تحت أذنه بصيحات تقول فيها: «أيها الحيوان اللعين! أيها الحيوان اللعين!»، كان أقلّ إبرازاً لعذوبة خادمتنا القديسة وطراوتها ممّا لعلّه فاعل في عشاء الغد من خلال إهابه الموشّى بالذهب كبدلة القدّاس ومرقته الثمينة التي تتقطّر من كأس مقدّسة. وعندما مات جمعت «فرانسواز» الدم الذي كان يسيل دون أن يغرق ضغينتها وهزّها الغضب مرّة أخرى ونظرت إلى جثة عدوّها وقالت للمرّة الأخيرة: «أيها الحيوان اللعين!» وصعدتُ وأنا أرتجف ووددت لو تُطرد «فرانسواز» في الحال. ولكن من ذا يعدّ لي كرات ساخنة مثلها وقهوة في مثل عطر قهوتها وحتى... هذه الفراريج؟... وقد سبق للجميع بالحقيقة أن قاموا مثلي بهذه العملية الحسابيّة الخسيسة. ذلك أن خالتي «ليوني» كانت تعلم - الأمر الذي كنت ما أزال أجهله - أن «فرانسواز»، التي ربّما ضحّت بحياتها دون شكوى في سبيل ابنتها وأبناء أخيها، بالغة القسوة على غيرهم

من الناس، ولكن خالتي احتفظت بها على الرغم من ذلك لأنها إن عرفت قسوتها فإنّما تقدّر كذلك عملها. وتبيّن لي شيئاً فشيئاً أنّ نعومة «فرانسواز» ووقارها وفضائلها إنّما تخفي مآسي تجري في زوايا المطبخ مثلما يكشف التاريخ أن عهود الملوك والملكات ممّن يمثّلون مضمومي اليدين على نجميات الكنائس الملّونة قد اتّسمت بأحداث دامية. وأدركت أن الآدميّين من خارج دائرة أقاربها إنّما يزيدون من مقدار إثارتهم لإشفاقها من جرّاء مصائبهم كلّما عاشوا على مسافة أبعد منها. وكانت سيول الدمع الذي تذرفه وهي تقرأ الجريدة على مصائب المجهولين تنضب سريعاً إن استطاعت أن تتمثّل تمثّلاً ينطوي على بعض الدقة الشخص الذي خصّته بدموعها. ففي ليلة من الليالي التي تلت ولادة خادمة المطبخ عانت هذه الأخيرة من مغص فظيع، وسمعت أمّي شكواها فنهضت وأيقظت «فرانسواز» التي أعلنت غير متأثّرة أنّ كل هذا الصراخ مهزلة وأنّها إنما تبغي «التصرّف تصرف السيّدة». وكان الطبيب الذي خشي من هذه النوبات قد وضع شريطة في كتاب طبّي لدينا في الصفحة التي تحتوي وصفاً لها وقال لنا أن نعود إليها لنعثر على ما هو موصى به من إسعافات أوّلية. وبعثت أمّي «فرانسواز» لتأتي بالكتاب وقد أوصتها أن لا تسمح بسقوط الشريطة. وانقضت ساعة ولمّا تعد «فرانسواز»، وظنّت والدتي وقد أثار الأمر سخطها أنها عادت إلى النوم وأوصتني أن أذهب بنفسي إلى المكتبة. فوجدت «فرانسواز» هماك وقد ابتغت أن تنظر إلى ما تشير إليه الشريطة فأخذت تقرأ الوصف السريريّ للنوبة وهي تنتحب بصوت عالٍ بما أنّ الأمر يتعلّق الآن بنموذج مريضة لا تعرفها. وكانت تصيح لدى كلّ من أعراض الألم التي يذكرها مؤلّف المقالة قائلة لا: «آه! أيتها العذراء القدّيسة، أفيمكن أن يبتغي اللّه تعذيب مخلوقة تعيسة على هذا النحو؟ آه! يا لها من مسكينة!».

ولكن ما إن ناديتها وعادت بالقرب من سرير «محبّة جيوتّو» حتى توقّفت دموعها في الحال، ولم تستطع أن تتعرّف لا هذا الشعور اللذيذ

بالشفقة والتأثّر الذي كانت تعرفه تمام المعرفة والذي غالباً ما جاءتها به قراءة الجرائد، ولا أية لذّة من الفصيلة نفسها في جو الإزعاج والغيظ من أنها نهضت في منتصف الليل كرمى لخادمة المطبخ، ولم يصدر عنها سوى غمغمات وحتى تقريعات فظيعة لدى رؤية العذاب نفسه الذي أبكاها وصفه قائلة ساعة حسبت أننا ذهبنا ولم يعد باستطاعتنا سماعها: «كان عليها أن تفعل ما يؤدّي إلى ذلك! لقد أصابت من ذلك لذّة! فلا تتصنّع الآن! وهل كان ينبغي أن يتخلّى اللّه عن مثل هذا الصبي ليذهب مع هذه! آه! ذلك بالضبط مثلما كانوا يقولون في لغة أمّي الدراجة، أمّي المسكينة:

«من يعشق مؤخّرة الكلب
يبصر فيها وردة».

ولئن كانت تذهب في الليل حتى في مرضها، بدلاً من أن تنام، حينما كان حفيدها مصاباً بالزكام لتتأكّد إن لم يكن بحاجة لشيء وتسير أربعة فراسخ على قدميها قبل طلوع النهار كيما تعود إلى عملها فإن حبّها هذا لذويها ورغبتها في أن تضمن عظمة أسرتها مستقبلاً كانا يجدان تعبيرهما في سياستها حيال الخدم الآخرين، في هذه الحكمة الثابتة التي قوامها ألا تدع البتّة واحداً منهم يستوطن بيت خالتي، وكانت تشعر بشيء من اعتزاز حين لا تسمح لأحد أن يقربها فتفضّل حينما تكون هي نفسها مريضة أن تنهض لتقدّم لها مياه فيشي على أن تسمح لخادمة المطبخ بالدخول إلى غرفة معلّمتها. ومثلما تستعين غشائية الأجنحة هذه التي درسها العالم «فابر» (Fabre)، ونعني الدبّور الحفّار، بالتشريح كيما يتيسّر لصغارها اللحم الطازج للأكل بعد مماتها وتثقب بعدما تصطاد السوس والعناكب المركز العصبّي الذي يتحكّم بحركة الأرجل بعلم ومهارة فائقين ولا تقرب وظائف الحياة الأخرى حتى توفّر الحشرة المشلولة التي تضع بيوضها بالقرب منها لليرقات حينما تخرج طريدة طيّعة عديمة الأذى عاجزة عن الهرب أو المقاومة ولكنّها غير بائتة، كذلك تجد «فرانسواز» لخدمة رغبتها

الدائمة في جعل المنزل لا يطاق في نظر أيّ من الخدم حيلاً بارعة جدّاً لا ترحم حتى إنّنا علمنا بعد ذلك بسنوات أننا إن كنّا أكلنا في ذلك الصيف هليوناً على مدى كلّ الأيام تقريباً فلأن رائحته كانت تسبّب لخادمة المطبخ المسكينة المكلّفة بنزع أوراقه الزائدة نوبات ربو حادّة لدرجة أنها اضطرّت أن ترحل في النهاية.

وانبغى لنا، واأسفي، أن نغيّر رأينا نهائياً في ما يتعلّق بـ«لوغراندان». ففي أيّام الآحاد التي تلت اللقاء على «الجسر القديم»، ذلك اللقاء الذي اضطرّ والدي بعده أن يقرّ بخطأه، رأينا والقدّاس في آخر مراحله وفيما كان يدخل الكنيسة، مع الشمس والضجيج في الخارج، نفحة قليلة القدسيّة لدرجة أنّ السيّدة «غوبي» والسيّدة «بيرسبييه» (وجميع الذين ظلّوا منذ قليل غارقين في صلاتهم لدى وصولي متأخراً قليلاً والذين ربّما استطعت الظنّ بأنّهم لم يروني لو لم تدفع أقدامهم في الآن نفسه المقعد الصغير الذي كان يحول دون أن أصل إلى كرسيّي دفعاً خفيفاً) أخذوا يحدّثوننا بصوت عالٍ عن أمور مغرقة في الدنيويّة كما لو أننا أصبحنا في الساحة، رأينا، على عتبة البوابة الملتهبة المشرقة على صخب السوق المزركشة، «لوغراندان» فيما كان زوج تلك السيّدة التي التقيناه معها مؤخراً يقدّمه إلى زوجة ملّاك عقاري كبير آخر يقطن في الجوار. وكان وجه «لوغراندان» يعبّر عن انفعال وحماسة بالغين، وقد سلّم بانحناءة عميقة أتبعها بانقلاب ثانوي إلى الخلف أعاد ظهره فجأة إلى أبعد من موقعه في المنطلق ولا بدّ أنّ زوج شقيقته السيّدة «دو كامبرمير» قد علّمه إيّاه. وقد ساعد هذا الانتصاب السريع على ارتداد مؤخّرة السيّد «لوغراندان» على هيئة موجة جامحة قويّة وما كنت أحسبها تفيض لحماً إلى هذا الحدّ. ولست أدري لماذا أيقظ هذا التموّج الماديّ الصرف، هذا الدفق الجسدي البحت الذي خلا من أيّ تعبير روحاني والذي كان يزوبع فيه استعجال في الولاء زاخر بالدناءة، لست أدري لماذا أيقظ فجأة في خاطري إمكانية وجود «لوغراندان» من نمط يغاير تماماً ذلك الذي كنّا

نعرفه. ورجته السيّدة أن يقول شيئاً لحوذيّها وفيما كان ذاهباً حتى العربة ظلّت تلازم وجهه بصمة الفرحة الخجولة المخلصة التي وسمه بها تعرّفه إليها. وكان يبتسم وكأنّما اختطفه حلم، ثم عاد إلى السيّدة يحثّ الخطى، ولما كان يسير بأسرع ممّا تعوّد فقد كان منكباه يتأرجحان ذات اليمين وذات الشمال تأرجحاً مضحكاً ويبدو لشدّة ما انساق للأمر فلا يحفل بما عداه أنّه ألعوبة جامدة وآلية بين يدي السعادة. وكنّا في تلك الأثناء نخرج من البوّابة وسنمرّ بالقرب منه وهو أوفر تهذيباً من أن يشيح عنّا بعينيه، ولكنّه ركّز نظره الذي امتلأ فجأة بتأمّل عميق في نقطة من الأفق بلغت من البعد حدّاً لم يستطع معه أن يبصرنا ولم يقع عليه أن يسلّم علينا. وظلّ محيّا «لوغراندان» يوحي بالبراءة من فوق سترة طيّعة مستقيمة تبدو وكأنّها ضلّت طريقها مرغمة وسط بذخ مقيت، فيما تخفق فوقه ربطة عنق مبقّعة يحرّكها هواء الساحة وكأنّها بيرق عزلته المتغطرسة وكريم استقلاله. وانتبهت والدتي لحظة وصلنا إلى البيت أننا نسينا الكعكة وطلبت إلى والدي أن يعود أدراجه معي ليوصي بأن يؤتى بها في الحال. والتقينا «لوغراندان» قرب الكنيسة وكان آتياً في الاتجاه المعاكس وهو يصحب السيّدة نفسها إلى عربتها، فمرّ بمحاذاتنا تماماً ولم يتوقّف عن التحدّث إلى جارته وأرسل من زاوية عينه الزرقاء إشارة صغيرة ظلّت داخل الأهداب إلى حدّ ما فلم تثر عضلاتِ وجهه وأمكن ألا تنتبه لها محدّثته على الإطلاق. ولكنّه جعل كل حيويّة الظرافة التي جاوزت المرح وبلغت حدّ الخبث تتألّق في هذه الزاوية الزرقاء التي خُصصنا بها محاولاً بذلك أن يعوّض بكثافة الشعور المجال الضيّق الذي جعله مكاناً للتعبير عنه. وبالغ في الرقّة واللطف فبلغ بهما غمزات التواطؤ والتلميح والأمور المضمرة وخفايا الاتفاقات الجرمية، ثم زاد من تأكيد عواطف الصداقة فبلغ بها حدّ توكيد المودّة وحدّ الإقرار بالحبّ وتألّقت إذ ذاك من أجلنا وحدنا، بلواعج هوى دفين وخفيّ مثلما تفعل سيّدة القصر، حدقة يخفق فيها الحبّ في وجه بجمود الجليد.

وكان بالضبط قد طلب إلى والديّ بالأمس أن يبعثاني لتناول العشاء بصحبته في ذلك المساء وقال لي: «تعال وآنس صديقك القديم، وكمثل الباقة التي يبعث بها مسافر من بلاد لن نعود إليها من بعد دعني أتنشّق من أقصى شبابك أزهار فصول الربيع التي اجتزتها أنا الآخر لسنوات كثيرة خلت. تعال مع زهرة الربيع ولحية الراهب والأزرار الذهبيّة، تعال مع الحيّون الذي تتألّف منه الباقة المفضّلة في مجموعة أزهار «بلزاك» إلى جانب زهرة يوم القيامة وزهرة الربيع وكرة الحدائق الثلجيّة التي خلّفتها الأمطار العاصفة في الفصح، تعال مع ثوب الزنبق الحريري الجدير بسليمان والبنفسج بألوانه المتعدّدة الزاهية، ولكن تعال خصوصاً مع النسيم الذي لا يزال يحمل برودة آخر أيّام الصقيع والذي سيعمل على تفتّح أوّل ورود القدس من أجل الفراشتين اللتين تنتظران على الباب منذ هذا الصباح».

وكانوا يتساءلون في البيت أن انبغى لهم أن يبعثوني مع ذلك لتناول العشاء مع السيّد «لوغراندان». ولكنّ جدّتي رفضت أن تصدّق أنّه أساء الأدب: «إنّك تقرّ بنفسك أنّه يجيء إلى هنا بلباسه البسيط الذي لا يمتّ بصلة إلى لباس من ينصرف إلى أمور الدنيا». ثم أعلنت أنّه إن كان كذلك في أسوأ الاحتمالات فمن الأفضل أن نبدو وكأنّنا لم نلاحظه. كما أن والدي نفسه الذي كان في الحقيقة من أكثرهم اغتياظاً حيال الموقف الذي وقفه السيّد «لوغراندان» ظلّ يضمر بعض الشكوك حول المعنى الذي يبطنه هذا الموقف! فقد كان كمثل أي موقف أو عمل تتكشّف فيه طباع المرء الدفينة المخفّاة، فهو لا يرتبط بأقواله السابقة ولسنا نستطيع العمل على تأكيده عن طريق شهادة المجرم الذي لن يعترف، ولا بدّ أن نقتصر على شهادة حواسّنا التي نتساءل بصددها إزاء هذه الذكرى الوحيدة غير المتماسكة إن لم تكن ضحيّة وهم، حتى إن مثل هذه المواقف، وهي الوحيدة التي ترتدي بعض الأهميّة، تخلّف فينا في الغالب بعض الشكوك.

وتناولت طعام العشاء مع «لوغراندان» على شرفته وكانت الليلة

قمراء، فقال لي: «هنالك صنف محبّب من الصمت، أليس كذلك؟ إن روائيّاً سوف تقرأه فيما بعد يدّعي أن الظلام والصمت وحدهما يلائمان القلوب الجريحة كما هو أمر قلبي. هنالك ساعة تأتي في الحياة، يا بنيّ، أنت بعد بعيد جدّاً عنها، لا تطيق فيها العيون المتعبة سوى ضياء واحد هو الذي تعدّه وتقطّره مع الظلام ليلة جميلة كهذه الليلة، ولا تطيق الآذان فيها أن تستمع من بعد إلى موسيقى غير تلك التي يعزفها ضياء القمر على ناي الصمت». وكنت أصغي إلى أقوال السيّد «لوغراندان» التي تبدو لي على الدوام ممتعة جدّاً، ولكنّي قلت له وقد أقلقتني ذكرى امرأة كنت لمحتها في الفترة الأخيرة للمرّة الأولى وظننت، وقد علمت الآن أن «لوغراندان» على علاقة بالكثير من الشخصيّات الأرستقراطية في الجوار، أنّه ربّما يعرفها، قلت له وقد استجمعت قواي: «هل تعرف يا سيّدي سيّدة... بل سيّدات قصر «غيرمانت»؟» واغتبطت كذلك وأنا ألفظ هذا الاسم أنّني اكتسبت ضرباً من السلطان عليه لمجرّد أنّي أسلّه من حلمي وأنّي أضفي عليه وجوداً موضوعيّاً ومسموعاً.

ولكنّي رأيت لدى سماع اسم «غيرمانت»، في قلب عيني صديقنا الزرقاوين ثلمة صغيرة سوداء كما لو اخترقهما رأس نصل خفيّ فيما يدفع باقي الحدقة أمواجاً من الزرقة وذلك بمثابة ردّة فعل. واسودّت دائرة الجفون وانخفضت وسارع ثغره الذي لوته المرارة إلى التمالك فافترّ عن ابتسامة فيما ظلّت النظرة معذّبة كنظرة شهيد جميل غطّت جسده السهام، وقال: «لا، لست أعرفهنّ»، إلا أنّه بدلاً من أن يضفي على معلومات بسيطة إلى هذا الحدّ وجواب يخلو مما يدهش إلى هذا الحدّ اللهجة الطبيعيّة والمألوفة التي تناسبها قالها وهو يلحّ على اللفظات وينحني ويحيي برأسه بهذا الإلحاح الذي تلجأ إليه في تأكيد أمر صعب التصديق كيما يصدّقك الناس - كأنّما لا يمكن إلّا أن يكون مصادفة غريبة أنّه لا يعرف أسرة «غيرمانت» - إلى جانب التفخيم الذي يلجأ إليه من لا يستطيع كتمان حالة صعبت عليه فيفضّل المجاهرة بها ليوهم الآخرين بأنّ إقراره لا يسبّب

له أيّ ضيق وأنّه سهل وممتع وتلقائي وأنّ الحالة نفسها - ونعني انعدام الصلات بأسرة «غيرمانت» - ربما لم تكن مفروضة عليه بل شاءها هو وأنّها ناجمة عن تقليد عائليّ أو مبدأ أخلاقي أو عهد روحاني يحظر عليه مخالطة أسرة «غيرمانت» بالتحديد. وأضاف يوضح بأقواله لهجته ذاتها: «لا، لا، لست أعرفهنّ، ولم أبغِ ذلك قطّ وقد أصررت دوماً على الحفاظ على كامل استقلالي. إنني ثائر في أساسي كما تعلم، وقد تضافر عليّ العديد من الناس وقيل لي إنني على غير حقّ في رفضي الذهاب إلى «غيرمانت» وإنني أظهر بذلك مظهر الجلف والدبّ المسنّ. ولكنّ ذلك صيت لا يفزعني إذ هو حقيقة راهنة، فما عدت أهوى بالواقع سوى بضع كنائس وكتابين أو ثلاثة ومن اللوحات عدداً يماثلها أو لا يكاد وضياء القمر حينما يحمل إليّ نسيم شبابك رائحة الحدائق التي لم تعد عيناي تبصرانها بوضوح». على أنّي ما كنت أدرك تماماً لماذا يبدو التمسّك بالاستقلال ضروريّاً في سبيل رفض الذهاب إلى منزل قوم لا تعرفهم وما الذي يمكن أن يكسبك في ذلك هيئة المتوحّش أو الدبّ. فأما ما أدركه فأنّ «لوغراندان» لم يكن إلى جانب الحقيقة تماماً حينما يقول إنّه لا يهوى سوى الكنائس وضياء القمر والشباب، فقد كان يحبّ جماعة القصور حبّاً جمّاً ويتملكه في حضرتهم خوف من أن لا يروقهم يبلغ به حداً لا يجرؤ معه أن يبدي لهم أنّه اتّخذ أصدقاء من البورجوازيّين أو أبناء الكُتّاب بالعدُل أو الصّرافين، فإن اتّفق أن تكتشف الحقيقة فيفضّل أن يقع الأمر في غيابه وبعيداً عنه «غيابياً»، فقد كان متحذلقاً. ولم يكن دون شك ليقول شيئاً من تلك اللغة التي كنت أحبّها وأهلي إلى حدّ بعيد، فإمّا سألت: «هل تعرف عائلة «غيرمانت»؟»، أجابني «لوغراندان» المحدّث: «كلّا، وإني ما وددت أن أعرفهم في يوم» ولكنّه لا يجيب، من أسف، إلّا في المقام الثاني لأن هنالك «لوغراندان» آخر يخبّئه بعناية في أعماقه ولا يبرزه لأنّ «لوغراندان» هذا كان يعرف عن «لوغراندان» الذي نعرفه وعن تحذلقه قصصاً تسيء إلى سمعته، لأن «لوغراندان» آخر سبق أن أجاب بالنظرة الجريح والتواء خط الفم والرزانة

المبالغ فيها في نبرة الإجابة وبآلاف السهام التي وجد «لوغراندان» الذي نعرفه نفسه مصاباً بها وموهناً من جرّائها وكأنّه القديس «سيباستيانوس» شهيداًللتحذلق: «آه! كم تعذّبني! لا، لست أعرف عائلة «غيرمانت»، فلا توقظ الألم الكبير في حياتي!» ولئن لم تتّفق لِـ«لوغراندان» هذا، الولد الصعب المراس والمغني المجلّي، لغة الآخر الحلوة فقد كانت كلمته أسرع بما لا يقاس تؤلفها ما ندعوه «بالأفعال المنعكسة»، فإذا شاء «لوغراندان» المحدّث أن يرغمه على السكوت فقد كان الآخر يسبقه إلى التحدّث وعبثاً يغتمّ صديقنا من الانطباع السيّئ الذي تخلّفه تصريحات «شقيق روحه» ولا يستطيع إلّا أن يحاول تلافيه.

وليس يعني ذلك بالتأكيد أنّ «لوغراندان» لم يكن صادقاً حينما يهاجم المتحذلقين بعنف، فما كان يستطيع أن يعلم عن طريق نفسه على الأقلّ أنّه كذلك بما أنّنا لا نعرف البتّة سوى أهواء الغير وأن ما نتوصّل إلى معرفته من أهوائنا فإنما استطعنا معرفته عن طريقهم. إلا أنّها لا تؤثّر فينا إلا من موقع ثانٍ بفضل الخيال الذي يُحلّ محلّ الدوافع الأولى دوافع بديلة أوفر احتشاماً. فما كانت حذلقة «لوغراندان» لتشير عليه في يوم أن يبادر كثيراً إلى زيارة إحدى الدوقات، ولكنّها تكلّف خيال «لوغراندان» أن يظهر هذه الدوقة في عينيه وقد ازدانت بصنوف الحسن جميعها. ويتقرّب «لوغراندان» من الدوقة ويحسب أنّه يخضع لجاذب العقل والفضيلة الذي يجهله المتحذلقون السافلون. والآخرون وحدهم يعلمون أنّ «لوغراندان» واحد منهم، ذلك أنّهم يرون، من جرّاء عجزهم عن إدراك عمل خياله الوسيط، نشاط «لوغراندان» الاجتماعي وسببه الأوّل الواحد في مقابل الآخر.

ولم يظلّ لنا الآن في المنزل أيّ وهم حول السيّد «لوغراندان»، وتباعدت فرص لقائنا تباعداً كبيراً. وكانت والدتي تضحك كثيراً في كلّ مرّة نأخذ فيها «لوغراندان» بالذنب المشهود الذي لا يقرّ به والذي يواظب على تسميته بالخطيئة التي لا غفران لها، عنينا الحذلقة. أما والدي فيجد مشقّة في النظر إلى تعالي السيّد «لوغراندان» بهذا التجرّد وهذا المرح؛

وعندما فكّروا في أحد الأعوام بإرسالي لقضاء العطلة الصيفيّة في «بالبيك» بصحبة جدّتي قال: «لا بدّ لي من إعلام «لوغراندان» بأنّك ستذهب إلى «بالبيك» لأرى إن كان سيعرض عليه أن يعرفك بشقيقته، فلا بدّ أنّه لا يذكر ما قاله لنا من أنّها تقيم على بعد كيلومترين من هناك». أمّا جدّتي التي كانت ترى أنّه لا بدّ في سباحة البحر من الإقامة على الشاطئ من الصباح إلى المساء لتنشّق رائحة الملح وأنّه ينبغي أن لا نعرف أحداً لأنّ الزيارات والنزهات إنّما تقلّص حصّة هواء البحر فقد كانت ترغب على العكس في ألا نتحدّث إلى «لوغراندان» عن مشاريعنا إذ ترى مذ ذاك شقيقته السيّدة «دو كامبرمير» وقد جاءت إلى الفندق لحظة نحن على وشك المغادرة إلى الصيد واضطرّتنا أن نظلّ سجناء لاستقبالها. ولكنّ والدتي تضحك من مخاوفها إذ تظنّ في أعماقها أنّ الخطر لا يتهدّدنا إلى هذا الحدّ وأن «لوغراندان» لن يسارع إلى إقامة الصلات بيننا وبين شقيقته. بيد أنّ «لوغراندان» جاء بنفسه، دون أن تلح بنا الحاجة لنحدّثه عن «بالبيك» ودون أن يخامره الشك بأنّنا رغبنا في يوم أن نذهب إلى هذه الجهة، جاء ليقع في الشرك في أمسية التقيناه فيها على ضفاف نهر «فيفون». وقال الوالدي: «أليس في السحب هذا المساء، يا رفيقي، ألوان بنفسجيّة وزرقاء شديدة الجمال ولا سيّما لون أزرق هو أقرب إلى عالم النبات منه إلى الفضاء، لون أزرق نباتي يدهشك في السماء. وهذه الغيمة الصغيرة الورديّة أليس لها كذلك لون الزهر، لون القرنفل أو الأورطانسيا. ولم يتسنّ لي إلّا في بحر «المانش» بين منطقة «النورماندي» ومنطقة «بريتانيا» أن أجمع ملاحظات أوفر غنى عن هذا النوع من الممالك النباتية في الجوّ. فهنالك على مقربة من «بالبيك» بالقرب من هذه الأمكنة الموحشة جدّاً، خليج صغير من عذوبة ساحرة ترى فيه مغيب الشمس في منطقة «أوج»، مغيب الشمس الأحمر الذهبي، وما أبعدني عن ازدرائه، بدون طابع يميزه وزهيد الدلالة. بيد أنّه يتفتّح مساء في هذا الجوّ الرطب اللطيف في مدى بضع لحظات باقات سماوية زرقاء وورديّة لا تضاهى

غالباً ما تستمرّ ساعات قبل أن تذبل. وغيرها تتناثر تويجاتها في الحال وتحلو أكثر إذ ذاك رؤية السماء بأسرها وقد انتثرت على صفحتها تويجات لا تحصى صفراء أو وردية. وفي هذا الخليج الصغير المسمى بعين الهر تبدو الشطآن الذهبية أكثر عذوبة لأنها شدت كمثل نسوة شقراوات إلى هذه الصخور المخيفة في الشواطئ المجاورة، إلى هذا الشاطئ الحزين الذي اشتهر بالكثير من حوادث الغرق وحيث يهلك العديد من القوارب في مخاطر البحر في كلّ شتاء. بالبيك! أقدم هيكل جيولوجي على أرضنا، إنها البحر بالحقيقة، إنها آخر الأرض والمنطقة الملعونة التي أجاد «أناتول فرانس» في وصفها - وهو ساحر يجدر بصديقنا الصغير أن يقرأه - إذ هي غارقة في أمواج ضبابها الدائم، على أنّها بلاد «السيمريّين» الحقيقيّة في «الأوذيسّة». وأيّة لذّة أن تنطلق من «بالبيك» على وجه الخصوص لتقوم بسياحة على بعد خطوتين منها، هي التي تشاد فيها فنادق تنضاف إلى الأرض القديمة الساحرة فلا تبدّل منها، في هذه المناطق البدائيّة الشديدة الجمال».

وقال والدي: «وهل تعرف أحداً في «بالبيك»؟ فسوف يذهب هذا الصغير لقضاء شهرين فيها بصحبة جدّته وربما بصحبة زوجتي كذلك».

ولم يستطع «لوغراندان»، وقد أخذه هذا السؤال على حين غرّة في لحظة كانت فيها عيناه مسمّرتين على والدي، أن يحوّلهما عنه ولكنه بدا، وهو يركزهما بشدّة تتنامى بين ثانية وأُخرى على عيني محدّثه - وعلى وجهه ابتسامة حزينة - وقد اتخذ مظهر الصديق الصريح الذي لا يخشى أن ينظر إليه وجهاً لوجه، بدا أنّه اخترق وجهه وكأنما أضحى شفافاً وأنّه يبصر في تلك اللحظة في البعيد من خلفه سحابة زاهية الألوان تختلق له عذر غياب ذهني يسمح بأن يثبت أنّه كان يفكر بأمر آخر. ولم يصغِ إلى السؤال لحظة طرح عليه إن كان يعرف أحداً في «بالبيك». ومثل هذه النظرات يحمل محدثك عادة على أن يقول: «بماذا عساك تفكّر؟» ولكنّ والدي عاد يقول وبه دهشة وغيظ وقسوة:

- «هل لك أصدقاء في هذه الناحية حتى «بالبيك» إلى الحدّ الذي تبدو؟»

وبلغت نظرة «لوغراندان» الباسمة، عبر آخر جهد يائس، وقمّة الحنان والإبهام والصراحة والشرود، ولكنّه قال وقد حسب دونما شكّ أنّه لا بدّ له من الإجابة:

- «لي أصدقاء حيثما توجد فرق من الأشجار الجريحة التي لم تقهر والتي تقاربت كيما تستعطف سويّة بعناد مؤثر سماءً لا ترحم ولا تشفق عليها».

وقاطعه والدي بعناد الأشجار وقسوة السماء:

- «ما كنت أقصد ذلك. كنت أسأل إن كنت تعرف جماعة هناك في حال وقوع أمرٍ ما لامرأة عمّي وحاجتها ألا تحسّ أنّها في بلدٍ ناءٍ».

وأجاب «لوغراندان»، وما كان ليستسلم بهذه السرعة:

- «إنّني ههنا كما في كل مكان أعرف الجميع ولا أعرف أحداً، وأكثر معرفتي بالأشياء وأقلّها بالناس. ولكن الأشياء نفسها تبدو فيها بمثابة شخصيّات، شخصيّات نادرة من جوهر رقيق ربما خيّبت الحياة آمالها. فتارة قصر صغير تلتقيه على الجرف وعلى حافّة الطريق الذي وقف ليواجه فيه غمه في المساء الورديّ الذي يطلع فيه القمر الذهبيّ، القمر الذي ترفع القوارب العائدة، وهي تثلّم الماء المزركش، لهبه على صواريها وتحمل أعلامه. وطوراً مجرد بيت منعزل أقرب إلى القباحة خجول المظهر ولكنّه زاخر بالأساطير ويخفي عن الأنظار كافّة سر سعادة وخيبة لا يزول». وأضاف يقول برقّة «مكيافيليّة»: «إن هذه المنطقة التي لا حقيقة لها، هذه المنطقة الوهميّة الصرفة عسيرة الرموز على الأطفال وما كنت بالتأكيد لأختارها وأوصي بها لصديقي الصغير الميّال إلى الحزن ولفؤاده المفطور عليه. ويمكن لمناخ النجوى والغرام والحسرة التي لا طائل تحتها أن يلائم عجوزاً خائب الآمال مثلي، ولكنّه ضارّ على الدوام بالنسبة إلى مزاج لم يكتمل بعد تكويناً». ثم عاد يقول بإلحاح: «صدّقني، إنّ مياه هذا

الخليج، وهو «بريتاني» إلى حدّ بعيد، يمكن أن تتمتّع بمفعول مهدّئ، والأمر موضع نقاش على أيّة حال، بالنسبة إلى قلب لم يعد سليماً، شأن قلبي، قلب لم يعد للتلف ما يعوضه فيه، ولكنّها لا توصف لمثل سنّك أيها الصبيّ الصغير. طابت ليلتكم أيها الجيران»، هذا ما أضاف يقوله، وهو يبتعد عنا، بهذا الجفاء المتهرّب الذي تعوّده ثم استدار صوبنا وإصبعه مرفوعة كالطبيب يختصر استشارته وصاح قائلاً: «يمنع تداول «بالبيك» قبل سنّ الخمسين، وذلك رهن بحالة القلب على أيّة حال».

وأعاد والدي الكرة في لقاءاتنا التالية وأرهقه بالأسئلة وعبثاً فعل: فلو زدنا في إلحاحنا لبلغ الأمر بالسيّد «لوغراندان»، شأن ذلك النصاب الجهبذ الذي كان ينفق في صناعة الطروس الكاذبة من الجهد والعلم ما كان يكفي أيسر جزء منه ليضمن له وضعاً أوفر ربحاً ولكنّه مشرّف، أن يفضّل بناء أخلاقية خاصة بالمناظر وجغرافية سماء منطقة «النورماندي» السفلى على أن يقرّ لنا بأن شقيقته كانت تسكن على بعد كيلومترين من «بالبيك» وأن يضطر إلى تزويدنا بكتاب توصية ما كان أضحى في نظره مصدر ذعر لو تأكدّ له تماماً - كما كان ينبغي أن يكون أمره وهو على ما هو عليه من عهد بطباع جدّتي - أنّنا لن نفيد منه.

كنا نعود دوماً من نزهاتنا في ساعة مبكرة ليتسنى لنا القيام بزيارة لخالتي «ليوني» قبل العشاء. وحينما كنا نصل في بداية الفصل، والنهار ينقضي إذ ذاك في ساعة مبكرة، إلى شارع «الروح القدس»، كان لا يزال هنالك وهج للشمس الغاربة على زجاج المنزل وشريط أرجواني في أقصى الأحراج ينعكس في المستنقع البعيد؛ وغالباً ما كانت تترافق الحمرة وبرداً قارساً يقترن في بالي بحمرة النار التي يُشوى الفروج عليها وهو الذي سيجعل لذة النهم والدفء والراحة تعقب اللذة الشاعريّة التي تخلّفها النزهة فيّ. ولكننا حينما كنا نعود على العكس في الصيف لم تكن الشمس بعد قد غربت، ويأخذ نورها في أثناء الزيارة التي نقوم بها لخالتي «ليوني» في التحدّر وملامسة النافذة فيوقف بين الستائر الكبيرة وحواشيها ويُقسّمُ

ويُشعّب ويصفى ثم ينزّل قطعاً صغيرة من الذهب في خشب الخزانة، وهو من خشب الليمون، وينير الغرفة جانبياً بالنعومة التي يتّخذها في ظلّ الشجر. إلا أن الخزانة كانت في بعض الأيام النادرة قد فقدت لدى عودتنا ترصيعها المؤقّت منذ فترة طويلة ولم يظلّ بعدما نصل إلى شارع «الروح القدس» أي انعكاس للشمس الغاربة على زجاج النوافذ والمستنقع على حضيض الصليب قد فقد حمرته وأصبح مراراً بلون اللبن فيما يخترقه بأكمله شعاع قمري طويل يتّسع أكثر فأكثر وتشقّقه جميع أخاديد الماء. حينئذٍ كنّا نتبيّن لدى وصولنا على مقربة من المنزل شكلاً يقف على عتبة الباب فتقول والدتي:

- «يا اللّه! إنها «فرانسواز» تترقّب عودتنا، وخالتك قلقة. لقد تأخرنا كثيراً في العودة».

وكنا نصعد مسرعين إلى غرفة الخالة «ليوني»، دون أن ندع لأنفسنا أن نضع أغراضنا جانباً، وذلك لنطمئنها ونريها أننا لم نصب بمكروه، بعكس ما أخذت تتخيله، ولكننا ذهبنا «إلى جهة غيرمانت»، وتعلم خالتي تمام العلم أنّنا حينما نقوم بهذه النزهة لا يسعنا البتّة التأكّد من الساعة التي نعود فيها.

وتقول خالتي: «حينما كنت أقول لك يا «فرانسواز»، إنهم ربما ذهبوا من جهة «غيرمانت»! يا إلهي لا بدّ أنّهم في جوع شديد! ولا بدّ أنّ فخذ الخروف قد جفّ من طول الانتظار. فهل تلك ساعة يعود فيها الناس! وكيف تراكم ذهبتم من جهة «غيرمانت»؟

وتجيب أمّي: «ولكني كنت أظنّك على علم بالأمر يا «ليوني»، فقد حسبت أن «فرانسواز» أبصرتنا نخرج من باب البستان الصغير».

ذلك أنّه كان من حول «كومبريه» «جهتان» للذهاب في نزهات، والجهتان متقابلتان فلا نخرج إليهما من عندنا من الباب نفسه حينما نبغي الذهاب في هذا الاتجاه أو ذاك: فهنالك جانب «ميزيكليز - لا - فينوز» والذي كان يدعى كذلك الجانب الذي من جهة «سوان» لأنّ الطريق تمرّ

أمام ملكيّة السيد «سوان» لتصل إليه، وجانب «غيرمانت». أمّا عن «ميزيكليز - لا - فينوز» فما عرفت قطّ والحقّ يُقال سوى «الجهة» وأناس غرباء يأتون في يوم الأحد للنزهة في «كومبريه»، أناس ما كانت خالتي هذه المرة تعرفهم ولا كنّا، فنحسبهم لذلك «أناساً ربّما جاؤوا من «ميزيكليز». وأما عن «غيرمانت» فقد كنت أزمع أن أعرف عنها أكثر ذات يوم، ولكن في وقت متأخّر فقط، ولئن كانت «ميزيكليز» تعني في نظري، على مدى فترة المراهقة، أمراً يمتنع عليك بلوغه كالأفق وتحجبه عن ناظريك، مهما ذهبت بعيداً، تموّجات أرض لم تعد تشبه أراضي «كومبريه»، فإن «غيرمانت» لم تبدُ لي إلا على أنّها حدّ «جانبها» الخاص بها، وهو حدّ أكثر مثالية منه واقعيّة وضرب من التعبير الجغرافي المجرد، شأن خطّ الاستواء، شأن القطب، شأن الشرق. وربّما بدت لي عبارة «سلوك طريق «غيرمانت» إلى «ميزيكليز» أو العكس خالية من المعنى خلو قولك سلوك طريق الشرق للذهاب إلى الغرب. ولما كان والدي يروي دوماً عن جهة «ميزيكليز» على أنّها أجمل منظر للسهل عرفه وعن جهة «غيرمانت» على أنّها نموذج المنظر النهريّ، فقد كنت أضفي عليهما، وأنا أتصورهما على هذا النحو بمثابة كيانين، هذا التلاحم وهذه الوحدة اللذين لا تنعم بهما سوى المخلوقات المولودة في عقلنا، فتبدو أقلّ قطعة في كلّ منهما ثمينة وتعبّر عن امتيازهما الخاصّ فيما لا تساوي الدروب المادية المحضة التي يقومان فيما بينهما بمثابة المشهد المثالي للسهل والمنظر المثالي للنهر، لا تساوي هذه الدروب، في مقابلهما، وقبل أن تصل إلى الأرض المقدّسة العائدة لهذا أو ذاك، عناء النظر إليها أكثر مما تساوي الجادات الصغيرة التي تجاور المسرح في نظر المشاهد الذي يعشق الفنّ المسرحي. على أني كنت أقيم بينهما على وجه الخصوص ما يساوي أكثر من المسافات الكيلومتريّة بينهما، وأعني المسافة القائمة بين الجزأين اللذين يجري فيهما تفكيري بهذين الجانبين، وهي في الفكر من بين المسافات التي لا تُبعد فحسب بل تفصل وتضع في مستوى آخر، وأصبح

هذا الحدّ الفاصل أكثر إطلاقاً لأنّ عادتنا في ألا نتجهأالبتّة إلى الجانبين في اليوم نفسه وفي أثناء النزهة نفسها، بل وجهة «ميزيكليز» حيناً وحيناً آخر وجهة «غيرمانت»، كانت تحتجزهما إن جاز القول الواحد بعيداً عن الآخر وهذا جاهل لذاك في أوانٍ مغلقة لا اتصال بينها من أمسيات مختلفة.

فحينما كنّا ننوي الذهاب إلى جانب «ميزيكليز» كنا نخرج (ولا نفعل ذلك في ساعة مبكّرة، وإن كان الجوّ غائماً، لأن المشوار لم يكن طويلاً جداً ولا يقودنا إلى مكان بعيد)، كنا نخرج من بوابة منزل خالتي إلى شارع «الروح القدس» وكأنّما نذهب أينما تيسّر الحال. كان يحيّينا بائع الأسلحة وندفع برسائلنا إلى البريد ونقول لِ«تيودور»، ونحن في طريقنا، على لسان «فرانسواز» إنّه لم يعد لديها زيت أو قهوة، ونخرج من المدينة على الدرب الذي يمتدّ على طول السياج الأبيض المحيط بحديقة السيّد «سوان»، وكنا نلتقي قبلما نصل إليها رائحة الليلك التي تخفّ إلى لقاء الغرباء. وكانت أزهار الليلك نفسها ترفع من بين أوراقها الخضراء النديّة ومن فوق سياج الحديقة خصل ريشها البنفسجية أو البيضاء التي تصقلها حتى في الظلّ أشعة الشمس التي سبق أن غمرتها، وبعضها يجاوز بقامته، وقد حجبه البيت الصغير الآجري المدعوّ ببيت الرماة، قمّته القوطيّة، بمئذنته الورديّة. وربما بدت جنيّات الربيع تافهة إذا ما قورنت بهذه الحوريّات الفتيّة التي تضفي على هذه الحديقة الفرنسيّة ألوان منمنمات «فارس» الزاهية الصافية. وكنا نمرّ ولا نتوقّف على الرغم من رغبتي في ضمّ قاماتها الطيّعة وأن أشدّ إلى صدري خصل رؤوسها العطرة المزركشة لأن أهلي أصبحوا لا يذهبون إلى «تانسونسفيل» منذ زواج «سوان»، فكنّا ـ كي لا يبدو أنّنا ننظر إلى الحديقة وعوضاً عن أن نسير في الدرب الذي يمتدّ على طول سياجها ويفضي مباشرة إلى الحقول ـ نسلك درباً آخر يقود إليها بدوره ولكن على نحو ملتوٍ يُفضي بنا بعيداً جدّاً. وقال جدّي ذات يوم لوالدي:

- «هل تذكر أن «سوان» قال البارحة إن زوجته وابنته تغادران إلى مدينة «رانس» وإنّه سيستغلّ الفرصة للتوجّه إلى باريس ليقضي فيها أربعاً

وعشرين ساعة؟ فبوسعنا أن نسير بمحاذاة الحديقة بما أن السيدتين غائبتان وسوف يختصر ذلك من دربنا».

وتوقّفنا لحظة أمام السياج؛ كان موسم الليلك يقترب من آخره، وبعض منه لا يزال يرسل دفقات من فقاعات زهره الرقيق على هيئة ثريّات بنفسجية، إلا أن في الكثير من أغصانه، وكانت تتدفق فيها لأسبوع خلا رغوة عطرة، زبداً أجوف جافّاً لا عطر له يذبل وقد تقلّص واكتنفه السواد. وكان جدّي يدل والدي على ما ظلّ في منظر الأراضي على حاله وعلى ما تغيّر منذ النزهة التي قام بها مع «سوان» يوم وفاة زوجته وانتهز هذه الفرصة ليروي عن هذه النزهة مرّة أخرى.

وكان أمامنا ممرّ محفوف بزهر السلبوت يمضي صاعداً باتّجاه القصر والشمس تغمره. أمّا إلى اليمين فتمتدّ الحديقة على العكس على أرض مستوية. وكان أهل «سوان» قد قاموا بحرف حوض ماء يبدو عائماً من جرّاء ظلال الأشجار الكبيرة التي تكتنفه؛ بيد أن الإنسان في أكثر صنوف ابتداعه صنعة إنّما يشتغل على الطبيعة؛ فمن الأمكنة ما يبسط على الدوام من حول سلطانه الخاصّ ويحمل شاراته التي تعود إلى زمن لا تعيه الذاكرة وسط إحدى الحدائق كما لعلّه كان يفعل بمعزل عن أي تدخّل بشري في عزلة ترتدّ من كل صوب لتحيط به وقد انبثقت من ضرورات عرضه وانضافت إلى صنيع الإنسان. فعلى هذا النحو تشكل على حضيض الممرّ المطلّ على البركة الاصطناعيّة الإكليل الطبيعي الرقيق الأزرق، من صفّين جُدلا من الزهر الأزرق، الإكليل الذي يحيط بجبين المياه حيث يتعانق النور والظلال، ومدّت زهرة الأفراح، وقد تركت نصالها تنثني بتراخٍ ملوكي، على زهرة الطُّباق وشقائق الماء المبتلّة القدمين، مِزَقَ زنبق صولجانها المائي البنفسجي والأصفر.مكتبة سُر مَن قرأ

وبدا غياب الآنسة «سوان» - الذي سلبني الحظّ المريع في أن أبصرها تظهر في ممرّ وأن تعرفني الفتاة الصغيرة التي تتّخذ من «بيرغوت» صديقاً لها وتذهب لزيارة الكاتدرائيات برفقته فتحتقرني - والذي جعل

منظر «تانسونفيل» غير ذي بال في نظري لأوّل مرّة يصرّح لي فيها بذلك، بدا على العكس وقد أضاف إلى هذا العقار في نظر جدّي ووالدي صنوفاً من الراحة ومتعة عابرة وجعل هذا النهار يلائم المشوار في هذا الاتجاه ملاءمة فريدة مثلما يفعل غياب السحاب التامّ بأمر نزهة في منطقة جبلية. وكنت أودّ لو تحبط توقّعاتهم وأن تظهر الآنسة «سوان» بفعل أعجوبة برفقة والدها قريباً منّا إلى حدّ لا يتّسع لنا معه الوقت لتجنّبها فنضطر إلى التعرّف بها. ولذلك سارعتُ حينما أبصرتُ فجأة على العشب سلّة منسيّة قرب سنّارة تطفو فلّينتها على صفحة الماء وكأنها علامة وجودها الممكن، سارعت إلى صرف أنظار والدي وجدّي إلى جهة أخرى. والسنّارة ربّما عادت لأحد المدعوّين على أية حال، فقد قال لنا «سوان» إنّه لا يحسن به التغيّب لأنّ لديه آنذاك أقرباء في بيته. وما كان يبلغ الأسماع أيّ وقع خطى في الممرّات. وكان عصفور مُتَوارٍ يقسم إلى قسمين ارتفاع شجرة مبهمة المعالم ويجهد في تقصير النهار فيروح يكتشف العزلة المجاورة بنغمة متطاولة ولكنّما يبلغه منها ردّ شامل وصدى يرتدّ عنيفاً من صمت وسكون حتى ليبدو لك أنّه أوقف إلى الأبد اللحظة التي حاول أن يمرّرها بسرعة. وهذا نور الشمس ينصبّ بدون رحمة من السماء وقد تجمّدت حتى لوددتَ لو تصرفُ عنكَ اهْتِمَامَها، والمياه الراكدة نفسها التي كانت الحشرات تقلق على الدوام إغفاءتها تزيد، وهي تحلم دونما شكّ بتيّار دوّار خيالي، من الاضطراب الذي بعثته فيّ رؤية الفلّينة الطافية وذلك إذ تبدو وكأنها تذهب بها بأقصى السرعة على المساحات الصامتة للسماء المنعكسة فيها. وكانت تبدو وهي عموديّة تقريباً وكأنها على وشك الغوص فأسائل نفسي إن لم يكن من واجبي، دونما اعتبار لرغبتي في التعرّف بالآنسة «سوان» أو خشيتي من ذلك، أن أخطرها بأن السمك يقبل على الطعم، - حينما انبغى لي أن ألحق جرياً بوالدي وجدّي اللذين كانا يناديان عليّ وقد أخذ منهما العجب أني لم أتبعهما في الدرب الصغير الصاعد صوب الحقول الذي سلكاه. ووجدته يضجّ برائحة أزاهير

الزعرور؛ وكان السياج يؤلّف ما يشبه تعاقب المعابد الصغيرة التي تختفي تحت أكوام أزهارها التي ارتفعت على هيئة منصة عالية، والشمس تلقي على الأرض من تحتها مربّعات من النور وكأنّها تخترق كوى زجاجيّة، ويمتدّ عطرها عذباً محدّد الشكل كما لو كانت أمام مذبح العذراء، والأزاهير التي تزيّنت بالقدر نفسه ترفع كل منها وهي ساهية باقة أسديتها الملتمعة، عروقها الدقيقة المشرقة المتموّجة كتلك التي في الكنيسة تقطّع حاجز المنبر أو مشبّكات الزجاج الملّون وتتفتّح ببياض زهر توت الأرض. لكم سيبدو النسرين ساذجاً وريفيّاً حينما يسلك الدرب الريفي نفسه بعد بضعة أسابيع تحت وهج الشمس وفي حرير ثوبه الأحمر الذي تعبث به نسمة!.

ولكن عبثاً أمكث أمام أزاهير الزعرور أستنشق رائحتها الخفيّة الثابتة وأحملها داخل فكري الذي لا يدري ما يفعل بها وأفقدها لألتقيها ثانية وأتّحد بالنظام الذي يلقي بهذه الأزهار هنا وهنالك برشاقة الشباب وعلى مسافات غير متوقّعة كبعض المسافات الموسيقيّة، فقد كانت تقدّم لي باستمرار السحر نفسه بإسراف لا ينضب ولكن دون أن تدع لي أن أبلغ عمقاً أكبر كمثل هذه الألحان التي تعزفها مئة مرة متوالية دون أن تنحدر أكثر في غور سرّها. فكنت أنصرف عنها برهة لأعود إليها فيما بعد بقوى أوفر نشاطاً. وكنت أتابع حتى السفح الذي يمضي في صعود عنيف من خلف السياج باتجاه الحقول زهرة خشخاش تائهة وبعض الأزاهير الزرقاء التي ظلّت في المؤخّرة لخمولها فزيّنته ههنا وهناك بأزهارها كأطراف سجّادة يتبعثر فيها العنصر الريفيّ الذي سيسود في الوسط. كانت لا تزال نادرة ومتباعدة، شأن المنازل المنعزلة التي تنبئ عن قرب القرية، فتنبئ بدورها عن المساحات المترامية التي تتدافع فيها أمواج القمح وينتشر فوقها زبد السحب، وكان منظر زهرة خشخاش واحدة ترفع لهبها الأحمر على رأس حبالها خفّاقاً في وجه الريح من فوق طاقيتها السوداء الدهنيّة، كان منظرها كافياً ليخفق له فؤادي كمثل المسافر الذي يبصر على أرض

منخفضة أوّل قارب جنح ههنا ويقوم عامل مختصّ بإصلاحه فيصيح: «إنّه البحر!» قبل أن يراه.

ثم كنت أعود أمام الزعرور وكأنما أمام تلك الروائع التي يظنّ المرء أنّه سوف يشاهدها أفضل من ذي قبل إن توقّف لحظة عن النظر إليها، ولكن عبثاً أصنع من يديّ حاجزاً كي لا تقع عيني إلّا عليه فقد ظلّ الشعور الذي يوقظه في نفسي غامضاً مبهماً يحاول دون جدوى الإفلات للالتصاق بأزاهيره. وما كان يعينني على إيضاحه ولم يكن بوسعي أن أطلب من أزهار أخرى الاستجابة له. حينئذٍ قال لي جدّي وهو يبعث فيّ ذلك الفرح الذي نحسّ به حينما نرى عملاً فنيّاً لرسّامنا المفضّل يختلف عمّا عهدنا من أعماله، أو حينما يقودوننا أمام لوحة لم نرَ منها حتى ذاك سوى ترسيمة بالقلم أو إن برزت لنا قطعة سمعناها على البيانو وحده وقد ارتدت ألوان الأوركسترا، قال جدّي وهو ينادي عليّ ويشير إلى سياج «تانسونفيل»: «انظر أنت من يحبّ الزعرور إلى هذه الزهرة الوردية اللون، ما أشدّ جمالها!» وكانت زهرة زعرور بالتأكيد ولكنها ورديّة اللون، وأوفر جمالاً من البيض. لقد كانت هي الأخرى ترتدي زينة العيد - زينة تلك الأعياد الحقيقية الوحيدة التي هي الأعياد الدينيّة لأنّه لا تربطها نزوة طارئة بيوم، أيّ يوم، لم يخصص لها بالذات ولا يحمل أيّ طابع للعيد كما هو أمر الأعياد الدنيويّة - ولكنّها زينة أوفر غنى لأنّ الأزهار التي عُلّقت بالغصن وتراصّ بعضها فوق بعضها الآخر حتى لا تدع مكاناً خلواً من الزينة، كمثل الطرر التي تُحيط بعصا من طراز بالٍ، كانت ملوّنة وبالتالي من صنف أحسن حسب جماليّات «كومبريه»، إن حكمنا على ذلك من سلّم الأسعار في «مخزن» الساحة أو في دكّان «كامو» حيث البسكوت الورديّ اللون أغلى ثمناً. وكنت أفضّل في ما يخصني الجبنة بالقشطة الوردية، تلك التي كانوا يسمحون لي بهرس توت الأرض فوقها. وكانت تلك الأزهار قد اختارت بالضبط واحداً من الألوان الخاصّة بالمآكل أو بما يزيد من جمال زينة خاصّة باحتفال كبير، تلك الألوان التي تبدو بأكبر قسط من البداهة

جميلة في نظر الأطفال لأنّها تحمل لهم سبب تفوّقها، وتحتفظ لذلك في نظرهم بما هو أكثر زهواً وأقرب إلى الطبيعة من الألوان الأخرى حتى حينما يدركون أنها لا تعد بطونهم بشيء ولم يقع عليها اختيار الخيّاطة. ولقد شعرت بالتأكيد في الحال، كما اتّفق لي ذلك أمام الأزاهير البيضاء ولكن بدهشة أكبر، أن مقصد الاحتفال لم يعبّر عنه في الأزهار تعبيراً مصطنعاً وبخدعة من صنع بشري بل هي الطبيعة عبّرت عنه تلقائياً بسذاجة بائعة قروية تعمل في إقامة مذبح مؤقّت فتضيف إلى شجيرة هذه الورود الصغيرة لوناً رقيقاً جدّاً ومن طراز ريفيّ. وكان أعلى الأغصان، وكأنه العديد من شجيرات الورد الصغيرة التي خفيت آنيتها في الورق المخرم والتي توضع سهامها الدقيقة لتشرق على المذبح في الأعياد الكبرى، كان يضجّ بالآلاف من الأزرار الصغيرة ذات اللون الشاحب التي تبرز بتفتّحها برتقالاً شديد الاحمرار كأنّما في أعماق كأس من المرمر الورديّ والتي تكشف أكثر من الزهور عن ماهيّة زهرة الزعرور الخاصّة التي لا تقاوم والتي لا تستطيع حيثما تبرعم ثم تزهر إلّا أن يتمّ لها ذلك باللون الورديّ. ومثلما تختلف فتاة بثوب العيد عن جماعة بثياب الراحة سوف يمكثون في البيت، هكذا كانت تتألق الشجيرة الكاثوليكية الطيّبة باسمة في ثيابها الزاهية الورديّة وسط السياج وهي على أتم العدّة للشهر المريمي الذي بدت وكأنها مذ ذاك تؤلّف جزءاً منه.

وكان السياج يكشف في داخل الحديقة عن ممرّ تكتنف جانبيه أزهار الياسمين والبنفسج ورعي الحمام فيما يفتح المنثور بينها أكمامه التي تزهو باللون الورديّ العطر المتقادم لجلد عتيق من قرطبة، في حين يطلق أنبوب سقاية طويلة مطلّي باللون الأخضر بعدما ينشر لفّاته، وفي النقاط التي ثُقِّبَ فيها، يطلق فوق الأزهار التي يبلّل عطورها المروحة العموديّة الموشوريّة التي تؤلّفها قطراته المزركشة. وتوقفت فجأة لا أستطيع حراكاً مثلما يتّفق ذلك حينما لا يتعلّق منظر ما بأنظارنا فحسب بل يتطلّب صنوفاً من الإدراك أكثر عمقاً ويستحوذ على وجودنا بأكمله. هنالك بنيّة شقراء تميل إلى

الحمرة تبدو وكأنها تعود من نزهة وبيدها معزقة بستنة وتنظر إلينا وهي ترفع وجهها الذي كسته البقعُ الورديّة. وكانت عيناها السوداوان تلتمعان، وبما أنني لم أكن أعرف حينذاك ولا تعلّمت منذ ذلك الحين كيف أردّ انطباعاً قوياً إلى عناصره الموضوعية، بما أني لم أكن أملك، حسبما يقولون، من «روح الملاحظة» ما يكفي لاستخلاص فكرة لونهما، فقد ظلّ يأتيني ذكر تألّقهما، في كل مرّة أعود إلى التفكير بها، يأتيني في الحال على أنّه من زرقة زاهية لأنّها كانت شقراء، حتى إنّي ما كنت، لو لم تمتلك عينين بهذا السواد - الأمر الذي كان يدهشك كثيراً في أوّل مرّة تبصرها - لأعشق فيها بوجه الخصوص أكثر ما عشقت عينيها الزرقاوين.

ونظرت إليها بادئ الأمر تلك النظرة التي لا تنطق باسم العيون فحسب بل تطلّ منها جميع الحواسّ قلقة تقعدها الدهشة، تلك النظرة التي تودّ أن تلمس، أن تأخذ، أن تحمل الجسد الذي تنظر إليه وتأخذ معه الروح. ثم أتبعتها، لشدّة ما خشيت أن يبصر جدّي ووالدي بين ثانية وأخرى هذه الفتاة فيبعداني عنها إذ يطلبان إليّ أن أجري قليلاً أمامهما، بنظرة ثانية متوسّلة غير واعية تجهد في حملها على أن تصرف انتباهها إليّ وأن تتعرف بي! وصوّبت حدقتيها إلى الأمام وجانبيّاً لتحيط علماً بجدّي ووالدي، وكانت الفكرة التي جنتها من ذلك أنّنا نُثير الضحك، فقد أعرضت ووقفت جانباً وقد ظهرت بمظهر اللامبالي المزدري لتجنّب وجهها أن يقع في ساحتهما البصريّة. وفيما تابعا سيرهما ولم يبصراها جاوزاني، فتركت هي نظراتها تنساب باتجاهي، وأطالت، دون تعبير خاص ودون أن يبدو أنّها تراني، ولكن بحدة وبابتسامة مخفّاة لم يكن بوسعي تفسيرها حسب الأفكار التي زُوِدْتُ بها في ما يخصّ التربية الصالحة إلا على أنّها برهان على الاحتقار المهين؛ وكانت يدها تهمّ في الوقت نفسه بحركة غير محتشمة لا يحمّلها قاموس التأدب الصغير الذي أنقله في داخلي حينما تُوَجّهُ إلى شخص لا تعرفه سوى معنى واحد هو معنى المقصد الوقح.

وصاحت سيّدة بيضاء الثياب بصوت حادّ مستبدّ، ولم أكن رأيتها،

وعلى مسافة هيّنة منها يسدّد إليّ سيّد يرتدي ثياباً من الكتّان الخشن، وما كنت أعرفه، عينين تنفران من رأسه: «هلمّي يا «جيلبيرت»، ماذا تفعلين!» وتوقّفت الفتاة فجأة عن الابتسامة وأخذت معزقتها وابتعدت دون أن تلتفت إليّ وقد ظهرت بمظهر المطيع المتكتّم الذي لا تنفذ إلى سره.

وهكذا مرّ بجانبي اسم «جيلبيرت» هذا وقد أُعْطِيْتُهُ كطلسم ربّما مكنني من أن ألقى ذات يوم تلك التي جعل منها منذ قليل شخصاً، وكانت للحظة سلفت محض صورة مبهمة. هكذا مرّ، يسري لفظه فوق الياسمين والمنثور، حادّاً ونديّاً مثل قطرات الرشّاشة الخضراء، يُشبع ويلوّن منطقة الهواء النقيّ التي اجتازها - والتي يعزلها عن سواها - بسرّ حياة تلك التي كان يسمّيها للسعداء من الناس الذين يعيشون ويسافرون معها، وينشر تحت أزاهير الزعرور الورديّة وبموازاة كتفي خُلَاصَةَ أُلْفَتِهِم التي تؤلمني أشدّ الألم، ألفتهم معها ومع الحيّز المجهول في حياتها التي لن يتسنّى لي الدخول إليها.

ومقدار لحظة (وفيما كنّا نبتعد ويهمس جدّي قائلاً: «أيّ دور يفرضون أن يؤدّيه «سوان» المسكين هذا: إنّهم يحملونه على الرحيل كي تظلّ وحدها مع «شارلوس»، وإنه هو، لقد عرفته! وهذه الصغيرة التي تُزَجّ في كلّ هذه المخازي!») هدّأ الانطباع الذي خلّفته فيّ اللهجة المستبّدة التي حدّثت والدة «جيلبيرت» ابنتها بها دون أن تجيب، إذا أظهرها لي وكأنها مرغمة على طاعة شخص، وكأنّها لا تسمو على كلّ شيء، هدّأ قليلاً من عذابي وأعاد إليّ بعض الأمل وخفّف من حبّي. ولكن سرعان ما ارتفع هذا الحبّ في صدري بمثابة ردّة فعل يبغي قلبي المُذَلُّ من ورائها أن يرتفع إلى مستوى «جيلبيرت» أو أن ينزل بها إليه. فقد أحببتها وتملكني الأسف أن لم يتّسع لي الوقت ولم يوافني الإلهام لإهانتها وإيلامها وإرغامها على أن تتذكرني. ووجدتها جميلة إلى الحدّ الذي وددت معه لو أستطيع أن أعود أدارجي لأصرخ في وجهها وأنا أرفع منكبيّ: «ما أكثر ما أجدك قبيحة ومضحكة وإلى أي حدّ تثيرين اشمئزازي!» ولكنّي ابتعدت وأنا

أحمل إلى الأبد بمثابة نموذج أول لسعادة لا يبلغ إليها الأولاد أمثالي، وذلك من جرّاء القوانين الطبيعيّة التي لا يمكن تجاوزها، صورة فتاة صغيرة صهباء تغطّي بشرتها البقع الورديّة وتمسك بمعزقة وتضحك وتنساب عليّ نظرات لها طويلة متكتّمة وغير معبّرة. وأخذ السحر الذي بثّه اسمها في هذا المكان تحت أزاهير الزعرور الورديّة اللون حيث سمعته وإيّاها يغشى كلّ ما كان قريباً منها ويغلّفه ويعطّره: فجدّها وجدّتها اللذان أصاب جدّاي سعادة لا توصف في التعرّف بهما، ومهنة الصرافة السامية، وحي «الشانزيليزيه» المؤلم الذي تسكنه في باريس.

قال جدّي فيما هو يدخل: «وددت لو كنتِ معنا قبل قليل يا «ليوني»، فلعلّك ما كنت تتعرّفين «تانسونفيل»؛ ولو تجرّأتُ لقطعت لك غصناً من أزاهير الزعرور الورديّ الذي كنت تعشقينه». كان جدّي يروي لخالتي «ليوني» عن نزهتنا على نحو ما يفعل إمّا ليرفّه عنها وإمّا لأنّهم لم يفقدوا الأمل تماماً في أن يحملوها على الخروج في نزهة. فقد كانت فيما مضى تحبّ هذه البقعة حبّاً جمّاً وكانت زيارات «سوان» من جهة أخرى آخر ما أَذِنَتْ به في حين أَخَذَتْ توصد بابها في وجه الجميع. ومثلما كانت تبعث إليه حينما يأتي ليستعلم أخبارها (فقد ظلت الشخص الوحيد في بيتنا الذي يطلب «سوان» مقابلته) أنّها متعبة ولكنّها ستسمح له بالدخول في المرّة القادمة، كذلك قالت في هذا المساء: «أجل، سوف أذهب بالعربة حتى باب الحديقة في يوم يكون صحواً». حتى كانت تقول ما تقول صادقة، فإنّها تحبّ لو ترى «سوان» و«تانسونفيل»، ولكن رغبتها في ذلك كانت توازي ما بقي لها من قوى؛ أمّا التحقيق فربّما تخطّى هذا الباقي. وأحياناً يردّ إليها الطقس الجميل بعض القوّة فتنهض وترتدي ثيابها، ولكن التعب يعاجلها قبل أن تنتقل إلى الغرفة الثانية فتلتمس سريرها. وإنّ ما أخذ يعتمل في نفسها - ولكن في وقت مبكّر أكثر ممّا يتّفق بالعادة - هو زهد الشيخوخة التي تستعدّ للموت وتلف جسمها داخل خادرتها (chrysalide)، الأمر الذي يمكن ملاحظته في نهاية الحيوات التي تمتد حتى زمن متأخّر

حتى بين عشّاق قدامى تحابّوا أكثر ما يكون الحبّ وبين الأصدقاء الذين تجمعهم أكثر الروابط روحانية والذين ينقطعون بدءاً من سنة معيّنة عن إتمام السفر أو القيام بالطلعة اللازمة ليشاهد أحدهم الآخر ويتوقّفون عن التراسل ويعلمون أنّهم لن يتواصلوا بعد في هذا العالم. لقد كانت خالتي لا بدّ تعلم تمام العلم أنّها لن ترى «سوان» من بعد وأنّها لن تغادر البيت في يوم، ولكن هذا الحبس قد أضحى يسيراً إلى حدّ ما من جرّاء السبب نفسه الذي كان ينبغي، في نظرنا، أن يجعله أكثر إيلاماً: ذلك أن هذا الحبس مفروض عليها من جرّاء التناقص الذي كان بوسعها ملاحظة حدوثه كل يوم في قواها والذي كان يجعل من كل عمل ومن كل حركة إرهاقاً إن لم يكن عذاباً فيضفي في نظرها على اللاحركة وعلى العزلة والصمت حلاوة الراحة المُرَمّمة المباركة.

ولم تذهب خالتي لمشاهدة سياج الزعرور الوردي اللون ولكني كنت أسأل والديّ في كلّ لحظة إن كانت ستفعل وإن كانت فيما مضى تذهب كثيراً إلى «تانسونفيل» وأنا أحاول حملها على التحدّث عن والدي الآنسة «سوان» وجدّيها والكلّ يبدو لي عظيماً وفي مصافّ الآلهة. واسم «سوان» هذا الذي أضحى بالنسبة إليّ بمثابة أسطورة تقريباً أصبحت تضنيني الحاجة حينما أتحدّث مع أهلي إلى أن أسمعهم يردّدونه، وما كنت أجرؤ أن أقوله بنفسي ولكنني أستجرّهم إلى موضوعات تقع إلى جوار «جيلبيرت» وأسرتها وتخصّهما ولا أشعر فيها بأنني مبعد إلى حدّ كبير عنها. وكنت أضطرّ والدي فجأة، وأنا أتظاهر مثلاً بالاعتقاد بأن وظيفة جدّي كانت من قبله وقفاً على العائلة أو أن سياج الزعرور الورديّ اللون الذي كانت خالتي «ليوني» راغبة في رؤيته واقع على أراضي الناحية، كنت أضطرّه بذلك إلى تصويب ما أكدته وإلى أن يقول لي وكأنّما غصباً عنّي، وكأنّما من تلقاء ذاته: «لا، لا! تلك الوظيفة كانت لوالد «سوان» وهذا السياج جزء في حديقة «سوان». وكنت أضطرّ حينئذ إلى التقاط أنفاسي لشدّة ما يضغط عليّ هذا الاسم حتى ليخنقني إذ يحطّ دوماً في المكان الذي انحفر فيه في

نفسي ويبدو لي في اللحظة التي أسمعه فيها أكثر امتلاءً من أي اسم آخر لأنّه تثقله جميع المرّات التي كنت قد تفوّهت فيها سلفاً به. وكان يبعث في نفسي سروراً كنت أخجل من أنني تجرّأت وطالبت أهلي به لأنّ هذا السرور كان عظيماً إلى حدّ أنّه اقتضاهم ولا شك جهداً كبيراً ليوفروه لي وبدون أي مقابل إذ لم يكن يشكلّ مسرّة بالنسبة إليهم، ولذلك كنت أغيّر مجرى الحديث من قبيل التأدّب؛ ومن قبيل التحسّب كذلك. فقد كنت ألقى في اسم «سوان» هذا حالما يلفظونه جميع الإغراءات التي أضعها فيه، إذ يبدو لي حينئذ على نحو مفاجئ أنّه لا بدّ إلّا أن يشعر بها أهلي وأنّهم ينحازون إلى وجهة نظري وأنّهم يدركون بدورهم أحلامي فيغفرون ويؤيدون فأراني حزيناً وكأنّني غلبتهم وأفسدتهم.

وحينما حدّد أهلي في ذلك العام يوم عودتنا إلى باريس في وقت أبكر قليلاً من المعتاد وجدتني والدتي صبيحة الرحيل بعد أن صفّفوا شعري بغية تصويري ووضعوا بعناية على رأسي قبّعة ما أُلْبِسْتُها بعد وجعلوا عليّ سترة من المخمل، وبعدما بحثت عنّي في كلّ مكان أبكي في الدرب الصغير الملاصق لِـ«تانسونفيل» وأنا أودّع الزعرور الأبيض وأطوّق بذراعيّ الأغصان الشائكة وأنكر، شأن أميرة في مأساة تمجّ هذه الزينات الكاذبة، جميل اليد الثقيلة التي اهتّمت بتشكيل هذه العقد جميعها وبجمع شَعْري على جبيني، وأدوس بقدميّ لفّافات شعري التي انتزعتها وقبّعتي الجديدة. ولم تتأثّر والدتي بدموعي ولكنّها لم تتمالك عن الصراخ لدى رؤية القبّعة المبعوجة والسترة المفقودة. ولم أسمعها، بل كنت أقول باكياً: «يا أزاهيري البيضاء المسكينة لستِ من يودّ حمل الغمّ إلى نفسي وإرغامي على الرحيل، فأنت ما حملت إليّ الحزن في يوم! ولذلك سوف أحبّك على الدوام». ثم كنت أعدها، وأنا أكفكف الدمع، أنني حينما أكبر لن أقلّد حياة الناس الآخرين الجنونيّة وسوف أذهب حتى في باريس وفي أيّام الربيع، عوضاً عن أن أقوم بزيارات وأصغي إلى حماقات، إلى الريف لأشاهد أولى أزاهير الزعرور.

وما إن نبلغ الحقول حتى لا نفارقها من بعد طوال الفترة الباقية من النزهة التي نقوم بها من جهة «ميزيكليز». وكانت الريح تمرّ فيها على الدوام وكأنها جوّال خفيّ، الريح التي تؤلّف بالنسبة إليّ الروح الخاصّة بـ«كومبريه». وفي كل سنة كنت أصعد يوم وصولنا لألتقيها تجري في الأثلام وتحملني على الجري على إثرها، وذلك كيما أحسّ أنّني في «كومبريه».

لقد كانت الريح دوماً إلى جانبك من جهة «ميزيكليز» فوق هذا السهل المحدّب الذي لا تصادف فيه على مدى فراسخ أي تموّج في قشرة الأرض. كنت أعلم أن الآنسة «سوان» غالباً ما تذهب إلى «لان» لقضاء بضعة أيّام، ومع أنّ المسافة تبعد عدّة فراسخ فقد كان يعوّضها غياب الحواجز أيّة كانت، وكنت لذلك في العشيات الدافئة أحسب حينما أرى النسمة نفسها تجيء من أقصى الأفق وتثني قامات القمح في البعيد البعيد وتمتد كالموج على المساحة الشاسعة ثم تأتي لتستريح في همسها الدافئ بين الجلبانة والبرسيم وعلى قدميّ، في هذا السهل المشترك بيننا والذي يبدو وكأنّه يقرّبنا ويجمعنا، كنت أحسب أنّ هذه النسمة مرّت على مقربة منها وأنها رسالة منها تهمس لي بها ولا أستطيع فهمها فكنت أعانقها وهي تمرّ بي. وكانت إلى اليسار قرية تدعى «شامبيو» («كامبوس باغاني» - معسكر الوثنيّين - في لغة الكاهن)، فيما تشاهد إلى اليمين ومن خلف حقول القمح قبّتي جرس كنيسة «سانت آندريه - دي - شان» المنحوتتين القرويتين، وهما حادّتان تكسوهما الحراشف وتتشابك فيهما النخاريب والخطوط المتعرّجة المحفورة وتعلوهما الصفرة والأدران كأني بهما سنبلتان.

وعلى أبعاد متماثلة كانت أشجار التفاح، وسط زينة أوراقها الرائعة التي لا يمكن الخلط بينهما وبين ورق أية شجرة مثمرة أخرى، تبسط تويجاتها العريضة التي من الساتين الأبيض أو تعلّق باقات براعمها الخجولة المحمّرة. وقد لاحظتُ من جهة «ميزيكليز» وللمرّة الأولى

الظلال الدائرية التي تنشرها أشجار التفاح على الأرض المشمسة وكذلك حرير الذهب الهوائي الذي تنسجه الشمس الغاربة بخطوط مائلة تحت الأوراق والذي كنت أبصر والدي يقطّعه بعصاه دون أن يفلح قطّ في حرف خطوطه.

وأحياناً يمرّ القمر في سماء ما بعد الظهيرة أبيض بياض سحابة سريعاً لا ألق له كأني به ممثلة لم تحن ساعة تمثيلها تنظر من الصالة باللباس اليوميّ إلى رفاقها مقدار لحظة وتحتجب إذ لا تبغي أن تسترعي الانتباه. وكنت أحبّ أن ألقى صورته في لوحات وفي السنوات الأولى على الأقلّ وقبل أن يعوّد «بلوك عينيّ» وفكري على ضروب من التزاوج اللوني أوفر دقّة - عن تلك التي ربّما بدا لي القمر فيها جميلاً اليوم وما كان ليبدو كذلك حينئذ. فمن هذا القبيل مثلاً رواية لِ«سانتين» ومنظر لِ«غلير» يقطّع فيه على صفحة السماء منجلاً فضيّاً على نحو دقيق الوضوح، وهي من تلك الأعمال الساذجة غير المنجزة على غرار انطباعاتي نفسها والتي كانت تثور شقيقتا جدّتي حينما ترياني أهيم بها. فقد كانتا تحسبان أنّه ينبغي أنه توضع أمام الأطفال الأعمال الفنّية التي نقدرها تقديراً نهائياً حينما نبلغ مرحلة النضج وأنّهم يبدون سلامة ذوقهم إن أحبّوها في الحال. ذلك أنّهما تتخيلان الفضائل الجماليّة وكأنّها حاجات ماديّة لا يمكن للعين المفتوحة إلا أن تدركها ودونما حاجة إلى إنضاج ما يساويها في القلب إنضاجاً بطيئاً.

ومن جهة «ميزيكليز»، في «مونجوفان»، وهو بيت يقع على حافّة بركة كبيرة ويتّكئ على هضبة يجتاحها العوسج، كان يسكن السيّد «فانتوي». وغالباً ما كنا نصادف ابنته على الطريق وهي تقود عربة مكشوفة بأقصى سرعة. ثم ما عدنا نصادفها وحدها بدءاً من إحدى السنوات، بل بصحبة صديقة تكبرها سنّاً كانت سيّئة السمعة في المنطقة وقد أقامت ذات يوم في «مونجوفان» إقامة نهائيّة. وكانوا يقولون: «أفينبغي أن يعمي الحنان السيّد «فانتوي» المسكين هذا حتى لا ينتبه لما يروى ويسمح لابنته، وهو من

يستنكر كلمة في غير محلّها، أن تأخذ امرأةً كهذه تحت سقف بيتها. إنّه يقول عنها إنها امرأة متفوّقة وقلب كبير وإن لديها استعداداً عظيماً للموسيقى لو اتفق لها أن ترعاه. فليكن واثقاً أن الموسيقى ليست موضع اهتمامها مع ابنته». كان السيّد «فانتوي» يقول بذلك؛ وإنّه لممّا تجدر ملاحظته إلى أي مدى يستثير شخص الإعجاب دوماً بصفاته الأخلاقية لدى أقرباء أي شخص آخر يقيم معه علاقات جنسيّة. فالحبّ الجسديّ الذي طالما انتقص قدره يضطرّ كلّ فرد إلى إبراز حتى أقلّ ما يملك من شذرات الطيبة وإنكار الذات إلى حدّ تشعّ فيه حتى أمام أعين المحيط المباشر. وكان الدكتور «بيرسبييه» الذي يمكّنه صوته الضخم وحاجباه الكبيران أن يقوم ما شاء له ذلك بدور الغادر الذي لا يوحي به من الناحية الجسمانية ودون أن يسيء في شيء إلى سمعته الثابتة غير المستحقّة في أنّه فظ جليل الفائدة، كان يجيد إضحاك الكاهن والقوم جميعهم أشدّ الضحك وهو يقول بخشونة: «هيه! يبدو أن الآنسة «فانتوي» تنصرف إلى الموسيقى مع صديقتها. والأمر يثير دهشتكم فيما يظهر. أمّا أنا فلست أدري. إنّه السيّد «فانتوي» الذي أفضى لي بذلك البارحة. إن لتلك الفتاة الحقّ في أن تحبّ الموسيقى، وما كنت لأقف في وجه ميول الأطفال الفنيّة وما كان «فانتوي» فيما يبدو. ثم إنّه بدوره ينصرف إلى أمور الموسيقى مع صديقة ابنته. آه! إنّهم يمارسون موسيقى غريبة في ذلك المكان. ولكن ما لكم تضحكون؟ إنّهم يبالغون في تعاطي الموسيقى. فقد التقيت بالعم «فانتوي» في ذلك اليوم بالقرب من المقبرة وكانت لا تحمله ساقاه».

أمّا الذين شاهدوا السيّد «فانتوي» في تلك الفترة كما شاهدناه يتجنّب الأشخاص الذين يعرفهم ويعرض عنهم حينما يراهم ويشيخ في مدى بضعة شهور ويغرق في غمّه ويضحي عاجزاً عن أيّ جهد لا يهدف مباشرة إلى إسعاد ابنته ويقضي أيّاماً كاملة أمام ضريح زوجته، فمن العسير ألا يدركوا أنه كان آخذاً في الموت غمّاً وأن يفرضوا أنّه ما كان ينتبه للأقاويل التي يتناقلها الناس. فقد كان يعرفها وربّما بلغ به الأمر أن يصدّقها، فليس ربّما

من إنسان مهما سمت فضائله إلا ويستطيع تعقّد الظروف أن يحمله يوماً على العيش في ألفة مع الرذيلة التي يشجبها شجباً قاطعاً - ودون أن يتعرّفها تماماً على أيّ حال تحت قناع الوقائع الخاصّة الذي تتقنّع به كيما تتّصل به وتعذّبه: من مثل الكلمات الغريبة والموقف الغامض الذي يقفه ذات مساء هذا الشخص الذي تجمّع لديك من جهة ثانية الكثير من الأسباب الداعية إلى محبّته. بيد أنّه كان لا بدّ أن يداخل رجلاً من أمثال «فانتوي» قسط من العذاب أوفر ممّا يداخل أي رجل آخر في التسليم بواحدة من هذه الحالات التي نظنّ خطأ أنها وقف على دنيا البوهيميّين: فتلك حالات تتمّ في كل مرّة يحتاج فيها أحد العيوب الذي تعمل الطبيعة نفسها على تفتّحه لدى أحد الأطفال، ولا تفعل في ذلك أحياناً سوى أن تمزج بين فضائل أبيه وأمّه كما هو أمر لون عينيه، إلى أن يؤمّن لنفسه المكان والأمان اللذين يحتاجهما. على أنّه لا ينجم عن معرفة السيّد «فانتوي» المحتملة لسلوك ابنته أنّ ولعه بها قد تناقص، فالوقائع لا تنفذ إلى العالم الذي تعيش فيه معتقداتنا، فهي لم تعمل على ولادتها وهي لا تهدّمها؛ ويمكن أن تكذّبها تكذيباً مستمرّاً دون أن تضعفها، وإن سيلاً من المصائب أو الأمراض التي تتوالى على أسرة دونما انقطاع لن يحملها على الشكّ بكرم إلهها أو بمهارة طبيبها. ولكن عندما كان السيّد «فانتوي» يفكّر بابنته وبنفسه من وجهة نظر دنيويّة ومن وجهة نظر سمعتهما، حينما كان يحاول تحديد المكان الذي يشغله وإيّاها في التقدير العام حينئذ كان يصدر هذا الحكم الاجتماعي كما قد يفعل أكثر سكان «كومبريه» عداءً له، فيرى نفسه وابنته في أقصى درك وقد اكتسبت تصرّفاته منذ قليل من جرّاء ذلك هذا الاتّضاع وهذا الاحترام إزاء الذين يقعون فوقه وينظر إليهم من تحت (وإن كانوا حتى ذاك دونه بكثير) وهذه النزعة في محاولة الارتقاء إلى حيث هم التي هي الناتج الآلي تقريباً لجميع صنوف الانحطاط. ففي ذات يوم كنا نسير فيه برفقة «سوان» في أحد شوارع «كومبريه»، وجد السيّد «فانتوي» نفسه، وهو يخرج من شارع آخر، قبالتنا على نحو مفاجئ حتى

لم يتسنّ له الوقت أن يتجنبّنا، وأخذ «سوان»، بهذا العطف المستكبر الذي يبديه رجل المجتمع الراقي والذي لا يجد في خزي الغير، وسط انحلال جميع أحكامه الأخلاقية المسبقة، إلّا سبباً في أن يبدي له عطفاً تدغدغ مظاهره اعتزاز الذي يجود به إلى حدّ يتعاظم على قدر ما يحسّ أنّه ذو أهميّة كبيرة في نظر من يُوَجّه إليه، أخذ «سوان» يطيل في حديثه مع السيّد «فانتوي»، وكان حتى ذاك لا يكلّمه، ويسأله قبلما يفارقنا إن كان لن يبعث ابنته ذات يوم لتلعب في «تانسونفيل». والدعوة كانت لسنتين خلتا تثير حنق السيّد «فانتوي» ولكنها الآن تعمر فؤاده بمشاعر من عرفان الجميل عميقة حتى ليخال نفسه مضطرّاً من جرّائها أن يتحفّظ في قبولها. فقد كان يبدو له لطف «سوان» تجاه ابنته وكأنه في حدّ ذاته دعم مشرّف ورائع إلى حدّ يحسب معه أنّه ربما كان من الأجدى ألا يفيد منه كي يستبقي عذوبة الاحتفاظ به. وقال لنا بعدما فارقنا «سوان» بلهجة التكريم المتحمسة نفسها التي تمسك ببورجوازيات نبيهات جميلات في حدود احترام إحدى الدوقات وتحت وطأة سحرها ولو كانت قبيحة بلهاء:

- «أي رجل ظريف هذا! أي رجل ظريف هذا! وأيّة مصيبة أنّه تزوّج زواجاً في غير محلّه تماماً!».

ولكثرة ما يخالط الرياء أكثر الناس صدقاً وتراهم إذ يتحدّثون إلى أحدهم يعرّون الفكرة التي يحملونها عنه ويعبّرون عنها حالما ينصرف، أخذ أهلي يأسفون والسيّد «فانتوي» لزواج «سوان» باسم مبادئ ولياقات يبدون (لمحض أنّهم ينادون بها معه بوصفهم أناساً طيّبين من طينته) وكأنهم يضمرون أن ليس من يخالفها في «مونجوفان». ولم يبعث السيّد «فانتوي» ابنته إلى منزل «سوان» وكان هذا الأخير أول من أسف لذلك. فقد كان يتذكر عقب كل مرة يفارق فيها السيّد «فانتوي» أنّ لديه منذ وقت قليل معلومات ينبغي سؤاله عنها حول شخص يحمل اسمه وهو فيما يعتقد من أقربائه. وقد أخذ على نفسه تلك المرّة أنه لن ينسى ما كان ينبغي أن يقوله حينما يبعث السيّد «فانتوي» ابنته إلى «تانسونفيل».

ولما كانت النزهة من جهة «ميزيكليز» أقلّ الاثنتين اللتين نقوم بهما حول «كومبريه» طولاً وأنها كانت لذلك وقفاً على الطقس المتقلّب فقد كان الوقت من جهة «ميزيكليز» ماطراً نوعاً ما فلا تغيب عن أعيننا إطلاقاً أطراف أحراج «روسانفيل» التي يمكن أن نحتمي تحت كثافة أشجارها.

وكثيراً ما كانت تختفي الشمس خلف سحابة تشوّه استدارتها وتطلي هي بالذهب حواشيها، فتفقد السهول الألق لا الضياء وتبدو الحياة وقد توقّفت فيها فيما تُبرز قرية «روسّانفيل» الصغيرة على صفحة السماء سهامها البيضاء بدّقة وكمال يذهلانك. وتهبّ ريح خفيفة فيطير غراب ثم يعود فيهوي في البعيد في حين تبدو أطراف الأحراج البعيدة وهي تتكئ على السماء البيضاء أكثر زرقة وكأنها رسمت بالطريقة شبه النافرة التي تزيّن بها أعالي جدران المنازل القديمة.

وأحياناً أخرى يأخذ المطر في الهطول وكان قد لوّح به مقياس الضغط الجويّ الكائن في واجهة مخزن البصريّات. وكانت قطرات المطر تهطل من السماء مرصوصة الصفوف كأنّها طيور مهاجرة تأخذ في الطيران جماعة واحدة، فلا افتراق بينها ولا هي تهيم كيفما اتّفق لها في أثناء رحلتها السريعة، بل تحافظ كل واحدة منها على مكانها وتشد إليها التي تليها فتظلم منها السماء أكثر من رحيل السنونو. وكنّا نتّخذ من الحرج ملجأً؛ وتظلّ تبلغنا بضع قطرات أشدّ وهناً وأكثر بطئاً حينما تبدو رحلتها وكأنها انتهت. على أننا كنّا نغادر ملجأنا، فالقطرات تحلو لها أوراق الشجر إذ الأرض أوشكت تبدو جافّة وأكثر من واحدة منها تتباطأ في اللهو فوق عصيبات ورقة فتتأرجح على أطرافها ملتمعة في الشمس ثم تنزلق فجأة من أعالي الغصن لتسقط على أنفنا.

وغالباً ما كنا نأوي أيضاً إلى بوّابة «سانت آندريه دي شان» فنختلط بتماثيل القديسين وآباء الكنيسة. وما أبرز الطابع الفرنسي في هذه الكنيسة! ففوق الباب تمّ تمثيل القديسين والملوك الفرسان وفي يدهم زنبقة ومشاهد أعراس وجنائز كما يمكن لها أن تكون في صدر «فرانسواز»؛ كما روى

النحّات كذلك بعض الحكايات التي تدور حول «أرسطو» و«فيرجيليوس» بالطريقة نفسها التي كان يحلو لِـ«فرانسواز» أن تتحدّث بها عن القدّيس «لويس» وكأنما عرفته معرفة شخصيّة، وبعامّة كي تلحق العار بجدّيي عن طريق المقارنة، إذ هما أقلّ صلاحاً». فقد كنت تشعر أنّ الأفكار التي يحملها فنان العصر الوسيط وفلّاحة العصر الوسيط (التي ما زالت تعيش في القرن التاسع عشر) عن التاريخ القديم أو المسيحي والتي تتّسم بقدر متساوٍ من انعدام الدقّة والسذاجة إنّما أخذاها لا عن الكتب بل عن موروث قديم ومباشر في الآن نفسه غير منقطع مشوّه غير واضح المعالم نابض بالحياة. وهنالك شخصيّة أخرى من أهالي «كومبريه» كنت أجدها محتملة وموحىً بها بين تماثيل «سانت أندريه - دي - شان» القوطيّة: إنها شخصيّة الفتى «تيودور» المستخدم لدى «كامو». وكانت «فرانسواز» على أيّة حال تحسّ فيه بلدها وعصرها حتى إنّها تفضّل استدعاء «تيودور» عندما يستبدّ المرض بخالتي «ليوني»، فلا تستطيع «فرانسواز» أن تقلبها في سريرها أو تحملها إلى مقعدها، على أن تدع لخادمة المطبخ تصعد لِـ«تَحْسُنَ» في عيني خالتي. فقد كانت تعمر قلب هذا الفتى الذي كانوا يعدّونه بحق من أهل السوء الروح التي زيّنت «سانت أندريه - دي - شان»، وعلى وجه الخصوص مشاعر الاحترام التي ترى «فرانسواز» أنّها واجبة «للمرضى المساكين» و«لسيّدتها المسكينة» حتى إنّه يتّخذ كيما يرفع رأس خالتي على وسادتها المحيّا الساذج الغيور الذي للملائكة الصغار في النقوش وهم يتدافعون من حول العذراء التي فقدت قواها وفي يد كل منهم شمعة، كأنما الوجوه المربدّة العارية المنحوتة في الحجر ليست، كما الأحراج في الشتاء، سوى سبات، سوى احتياطيّ على أهبة أن يزهر في الحياة على هيئة وجوه شعبيّة لا حصر لها تفيض جلالاً ومكراً مثل وجه «تيودور» وتزينها حمرة التفاح الناضج. وهنالك قدّيسة غير لاصقة بالحجر شأن الملائكة الصغار بل تنفصل عن البوّابة وتقف بقامتها التي تجاوزت الحدّ البشريّ فوق قاعدة وكأنّها فوق كرسي صغير يجنبها أن تطأ بقدميها

الأرض المبلّلة، قديسة مكتنزة الوجنتين يكوّر صدرها الصلب قماش ثوبها كمثل عنقود ناضج في كيس من خشن القماش، ضيّقة الجبين، صغيرة الأنف ثائرته، غائرة العينين تبدو بقوّة فلّاحات المنطقة ورباطة جأشهنّ. وغالباً ما تؤكّد هذا الشبهَ الذي يضفي على التمثال عذوبة لم أبحث عنها فيه فتاةٌ من الحقول جاءت تحتمي مثلنا، ويبدو وجودها وكأنّه أعدّ ليسمح بالحكم على صدق العمل الفنيّ بمواجهته بالطبيعة كمثل هذه الأغصان الجداريّة التي نبتت بالقرب من الأغصان المنحوتة. وأمامنا في البعيد «روسّانفيل» أرض الميعاد أو اللعنة التي لم ألج أسوارها في يوم والتي يستمرّ عقابها، بعدما يتوقّف المطر حيث نحن، كمثل قرية من قرى الكتاب المقدّس تجلد منازل سكّانها جميع سهام العاصفة، أو التي صفح عنها اللّه الآب فأحلّ عليها خيوط شمسه العائدة المذهبة بحواشيها السائبة على أطوال غير متساوية كمثل أشعة بيت القربان المقدّس.

ومرّات يسوء الطقس أشدّ السوء فنرغم على العودة ونظلّ سجناء المنزل. وفي الحقول البعيدة التي جعلت الظلمة والمياه منها ما يشبه البحر تسطع بيوت منعزلة تتشبّث بسفح هضبة غاصت في الليل والماء وكأنّها مراكب صغيرة طوت أشرعتها وظلّت طوال الليل في عرض البحر لا تبدي حراكاً. ولكن أي همّ للمطر وأيّ همّ للعاصفة! فرداءة الطقس في الصيف إن هي إلا ثورة عابرة سطحيّة للطقس الجميل الثابت القائم في الأساس الذي يختلف اختلافاً تاماً عن الطقس الجميل المتقلّب المائع في الشتاء والذي أقام على العكس فوق الأرض، حيث تصلّب على هيئة أغصان كثيفة الأوراق تستطيع قطرات المطر أن تتساقط عليها دون أن تعرّض للخطر مقاومة فرحها الدائم، ورفع على مدى الفصل كلّه فوق أسوار البيوت والحدائق، حتى في داخل شوارع القرية، أعلامه المنسوجة من حرير بنفسجي أو أبيض. وكنت أسمع، وأنا أجلس في الصالة الصغيرة حيث أنتظر ساعة العشاء وأنا أقرأ، كنت أسمع الماء يقطر من أشجار الكستناء، ولكنّي أعلم أنّ زخّ المطر إنّما يصقل أوراقها وأنّها وعدت أن

تظلّ هناك بمثابة ضمانات للضيف على مدى الليل الماطر الطويل لتضمن استمرار الطقس الجميل، وأنّه عبثاً يهطل المطر في الغد فوق سياج «تانسونفيل» الأبيض، إذ سوف تموج الأوراق الصغيرة التي على شكل القلوب كثيرةً كما كانت. وكنت أبصر في غير ما اغتمام شجرة الأزدرخت في شارع «بيرشان» تتوسّل إلى العاصفة وتلوّح بيد يائسة، كما كنت أسمع غير حزين في أطراف الحديقة آخر هزيم للرعد يغمغم بين أزهار الليلك.

فإن كان الطقس رديئاً منذ الصباح، تخلّى ذويّ عن النزهة فلا أخرج. ولكني تعودت فيما بعد أن أخرج في تلك الأيام لأسير بمفردي من جهة «ميزيكليز - لا - فينوز» في الخريف الذي انبغى لنا أن نجيء فيه إلى «كومبريه» من أجل أن نرث خالتي «ليوني»، فقد وافتها المنيّة أخيراً وحقّقت بذلك في الآن نفسه انتصار أولئك الذين كانوا يزعمون أن حميتها التي تذهب بقواها سوف تقضي في النهاية عليها، والآخرين الذين أكّدوا على الدوام أنها تعاني لا من مرض وهميّ بل من مرض عضوي لا بدّ أن يسلّم المرتابون ببداهته حينما يصرعها، ولم تورث بموتها من ألم كبير إلّا فرداً واحداً، ولكنّما الألم ألم لا يطيقه. فطوال الخمسة عشر يوماً لمرض خالتي الأخير لم تفارقها «فرانسواز» لحظة واحدة ولم تخلع ثيابها ولم تدع لأحد أن يهتمّ بها ولم تفارق جسدها إلا حينما ووري التراب. وأدركنا إذ ذاك أن تلك الخشية التي كانت فيها «فرانسواز»، من جرّاء كلمات خالتي السيّئة وشكوكها وغضبها إنّما ولّدت في صدرها شعوراً ظنّنا أنّه كراهية وكان إجلالاً وحبّاً. وها قد ذهبت إلى غير رجعة سيّدتها الحقيقية التي لا يمكن استشفاف قراراتها والتي يصعب إفشال حيلها وتسهل استمالة قلبها الطيّب، ذهبت مولاتها ومليكها المقتدر المليء بالأسرار. لقد كنّا نساوي القليل القليل بالمقارنة بها، وما أبعد الزمن الذي كان لنا من المهابة في عيني «فرانسواز»، حينما شرعنا نجيء إلى «كومبريه» لقضاء عطلتنا، بقدر ما لخالتي. وقد تعوّد أهلي في ذلك الخريف، وقد انصرفوا تماماً إلى المعاملات الواجب إتمامها والمحادثات مع الكُتّاب بالعدل والمزارعين،

ولم يتّسع لهم الوقت للقيام بنزهات كان الطقس يحول دونها على أيّة حال، تعوّدوا أن يسمحوا لي بالذهاب في نزهة بدونهم من جهة «ميريكليز» وأنا ألفّ نفسي بمعطف كبير كان يحميني من المطر وألقي به على كتفيّ راضياً بمقدار ما كنت أحسّ أنّ خطوطه السكوتلنديّة تُثير حنق «فرانسواز» التي لم يملك أحد أن يدخل في روعها أنّه لا صلة البتّة لألوان الثياب بالحداد والتي لم يكن الغمّ الذي بنا من جرّاء موت خالتي ليروقها لأننا لم نقم مأدبة كبرى بداعي الوفاة وأننا لا نضفي على صوتنا رنّة خاصّة للتحدّث عنها وأنّه يبلغ بي الأمر أن أدندن أحياناً. وإني لواثق أن تصوّر الحداد هذا على صفحات كتاب على نحو ما هو وارد في «**ملحمة رولان**» (*la Chanson de Roland*) وعلى بوّابة كنيسة «سانت أندريه - دي - شان» كان راقني - وكنت في ذلك أميناً لذاتي كما هو شأن «فرانسواز» -. ولكن «فرانسواز» ما إن تقف بالقرب مني حتى يدفعني شيطان إلى تمنّي إغضابها فأغتنم أوهن حجّة لأقول لها إنّي أتأسّف على خالتي لأنّها كانت امرأة طيّبة على الرغم من مواطن الهزء لديها، وما أسفت لأنّها خالتي، إذ كان يمكن أن تكون خالتي وأن تبدو مقيتة في عيني ولا يصيبني غم من جرّاء وفاتها، وهي كلمات ربّما بدت لي سخيفة على صفحات كتاب.

فإن اعتذرت «فرانسواز» حينذاك، وقد ازدحم صدرها شأن الشعراء بسيل من الأفكار المبهمة حول الغمّ وذكريات الأسرة، أنّها لا تعرف كيف تجيب على نظرياتي وقالت: «إني لا أجيد التعبير عن نفسي» كنت أهلّل لهذا القرار بتفكير تداخله السخرية والفظاظة خليق بالدكتور «بيرسبييه»، فإن أضافت قولها: «لقد كانت على أيّ حال من الأهل وهنالك على الدوام الاحترام الواجب للأهل»، كنت أرتفع بمنكبي وأقول في نفسي: «ما أجمل أن أناقش مع أميّة تطلع عليّ بمثل هذه الترّهات» وأتبنّى على هذا النحو للحكم على «فرانسواز» وجهة النظر السخيفة لجماعة يستطيع من يحتقرونهم أكثر ما يكون الاحتقار ساعة ينظرون بتجرّد إلى الأمور أن يضطلعوا بدورهم حينما يقومون بتمثيل أحد المشاهد السخيفة في الحياة.

وكان يزيد من متعة نزهاتي في ذلك الخريف أنّني أقوم بها بعد ساعات طويلة أقضيها مكبّاً على كتاب. فحينما يصيبني التعب من جراء قراءتي طوال الصباح في الغرفة كنت أرمي بمعطفي على كتفي وأخرج وقد أضحى جسمي الذي أجبر منذ فترة طويلة على التزام اللاحركة ولكنّه امتلأ بالحيوية والسرعة اللتين يراكمهما في جلوسه، أضحى في حاجة إلى أن يصرفهما فيما بعد في جميع الاتجاهات كمثل بلبل أطلقته. فكانت جدران المنازل وسياج «تانسونفيل» وأشجار أحراج «روسّانفيل» والأدغال التي يستند إليه «مونجوفان»، كانت كلها تُصاب بضربات شمسيّة أو عصا وتسمع صيحات فرح، وما كانت هذه وتلك سوى أفكار مبهمة تُثيرني ولكنّها لم تبلغ الاستقرار في النور لأنّها فضّلت على التوضح العسير البطيء متعة تحوّل أيسر باتّجاه مخرج فوريّ. وإن أكثر الترجمات المزعومة لما أحسسنا به إنّما يقتصر على تخليصنا منه وذلك بإخراجه من صدورنا بصورة غير واضحة لا تمكّننا من تعرّفه. وحينما أحاول احتساب ما بذمّتي لجهة «ميزيكليز» والاكتشافات المتواضعة التي كانت إطاراً عارضاً لها أو هي بالضرورة ألهمتها فإني أذكر أنّني أُخِذْتُ للمرة الأولى إبان ذلك الخريف في إحدى النزهات قرب المنحدر المدغل الذي تستظله «مونجوفان» بالتناقض بين انطباعاتنا والتعبير المعتاد عنها. فبعد ساعة من المطر والريح كافحت فيها ضدّهما والابتهاج يعمر فؤادي وحينما وصلت إلى ضفّة مستنقع «مونجوفان» أمام كوخ صغير سقفه قرميد كان بستانيّ السيّد «فانتوي» يجمع فيه أدوات البستنة عادت الشمس إلى الظهور من جديد وذهبها الذي غسله وابل المطر يتألّق مشعاً في السماء وعلى الأشجار وعلى جدار الكوخ وعلى سقفه القرميدي الذي لا يزال مبلّلاً والذي كانت تطوف دجاجة على قمّته. وكانت الريح التي هبّت تجذب وفق خطّ أفقي الحشائش البريّة التي نبتت على صفحة الجدار وريش الدجاجة الأزغب فيستسلم هذا وتلك لهوى أنفاسها يجريان بها حتى حدود قاماتهم استسلام الأشياء الخفيفة التي لا حياة فيها. وكان سقف

القرميد يبعث في المستنقع، وقد أعادت إليه الشمس قدرته العاكسة، صفحة مموّجة ورديّة لم تكن قد استرعت حتى ذاك انتباهي. وإذ رأيت على وجه الماء وعلى صفحة الجدار ابتسامة شاحبة تقابل ابتسامة السماء صرخت في أقصى الحماسة وأنا أرفع شمسيّتي المطويّة: «العمى، العمى، العمى، العمى»[١]. ولكني أحسست في الوقت نفسه من واجبي ألّا أكتفي بهذه اللفظات الغائمة وأن أحاول الرؤية بوضوح داخل نشوتي.

وفي تلك اللحظة بالذات - وبفضل فلاح كان يمرّ وقد بدا أنّه معكّر المزاج إلى حدّ ما ثم ازداد غيظاً حينما أوشكت شمسيّتي أن تستقرّ على وجهه فأجاب بغير حرارة على ما كنت أقول: «طقس جميل، أليس كذلك، تحلو النزهة فيه» - علمت أن الانفعالات نفسها لا تجري في الوقت نفسه لدى جميع الناس وفق نظام سلف ترتيبه. وفيما بعد، وفي كل مرّة كانت تحملني قراءة طويلة بعض الشيء على طلب التحدّث كان الرفيق الذي أنا بأحرّ الشوق إلى محادثته قد انتهى بالضبط من الاستسلام إلى لذّة الحديث ويرغب إذ ذاك أن يترك وشأنه في قراءته. وإن اتّفق لي أن أفكّر في ذويّ بحنان وأن أتخذ أكثر القرارات حكمة وأكثرها أهلاً لأن تجلب لهم السرور فإنهم كانوا ينفقون الوقت نفسه في الإحاطة بهفوة صغيرة نسيتها ويلومونني عليها شديد اللوم في الوقت الذي أرتمي عليهم لأعانقهم.

وكان ينضاف أحياناً إلى الهيجان الذي تخلفه العزلة في نفسي هيجان آخر ما كنت أستطيع تفريقه عنه على نحو واضح وتبعثه فيّ الرغبة في أن أبصر فلّاحة تطلع أمامي وأستطيع ضمّها بين ذراعيّ. وما كانت تبدو لي اللذة التي ترافقها، وقد انبثقت فجأة، ودون أن يتّسع لي الوقت كيما أردّها بدقّة إلى سببها، وسط أفكار شديدة التباين، ما كانت تبدو لي سوى درجة عليا من اللذة التي تبعثها فيّ تلك الأفكار. وكنت أضيف مزيّة إلى كلّ ما

(١) آثرنا الكلمة على ما جاء في متن النص Zut.

كان في ذهني في تلك اللحظة، إلى الظلّ الورديّ لسقف القرميد والأعشاب البريّة وقرية «روسّانفيل» التي كنت أرغب في الذهاب إليها منذ زمن بعيد وأشجار أحراجها وقبّة جرس كنيستها وبي هذا الانفعال الجديد الذي كان يجعلها مشتهاة عندي لأنّني أحسب أنّها هي التي تبعثه فيّ والذي يبدو وكأنّه لا يبغي سوى أن يحملني إليها بسرعة أكبر حينما يرسل في شراعي نسيماً قوياً ومجهولاً ومواتياً. ولئن اتفق لرغبتي في ظهور امرأة أن تضيف إلى سحر الطبيعة بالنسبة إليّ ما هو أكثر إثارة، فإن سحر الطبيعة بالمقابل كان يوسّع ما يبدو ربّما مقلصاً إلى حدّ بعيد. فكان يبدو لي أن جمال الأشجار إنّما هو جمالها أيضاً وأنّ روح هذه الآفاق وقرية «روسّانفيل» والكتب التي كنت أقرأها في ذلك العام إنّما تضعها قبلتها بين يديّ. وإذ يستعيد خيالي قواه بالقرب من شهواتي وتمتد هذه لتغطيّ سائر ساحات خيالي تصبح رغبتي بدون حدود. ثم إنّ عابرة السبيل التي تناديها رغبتي - وكما يتّفق في لحظات الأحلام هذه في أحضان الطبيعة التي نعتقد فيها، بعدما يتوقّف تأثير العادة ونضع جانباً أفكارنا المجرّدة التي نحملها عن الأشياء، اعتقاداً جازماً بتفرّد المكان الذي نحن فيه وبحياته الخاصة به - إنما كانت تبدو لي لا كمجرّد نموذج لهذا النمط العام الذي هو المرأة بل كنتاج ضروري وطبيعيّ لهذه الأرض. فقد كان يبدو لي كلّ ما عداني في ذلك الوقت، سواء في ذلك الأرض والكائنات، أوفر قيمة وأكثر أهمية ويتمتّع بوجود حقيقي أكثر ممّا يبدو ذلك للأفراد الناضجين. أمّا الأرض والكائنات فما كنت أفرّق بينها، فقد كنت أشتهي فلّاحة من «ميزيكليز» أو «روسّانفيل» أو صيّادة من «بالبيك» مثلما أشتهي «ميزيكليز» و«بالبيك». ولعلّ المتعة التي تستطيع أن توفّرها لي كانت تبدو أقلّ حقيقة ولعليّ ما كنت أصدّقها لو بدّلت على هواي في شروطها. فالتعرّف في باريس بصيّادة من «بالبيك» أو بفلّاحة من «ميزيكليز» كمثل أن تصلني أصداف لم أبصرها من قبل على الشاطئ وعرق سرخس لم أجده من قبل في الأحراج، وكمثل أن أقتطع من المتعة التي توفّرها لي المرأة جميع تلك

التي أحاطها بها خيالي. على أن التطواف على هذا النحو في أحراج «روسّانفيل» بدون فلّاحة أضمّها بين ذراعي إنّما يعني الجهل بكنز هذه الأحراج الدفين وبجمالها الخفي. وإن تلك الفتاة التي ما كنت أراها إلا غارقة في أوراق الشجر إنّما كانت بالنسبة إليّ بمثابة نبتة محليّة ولكنّها من نوع أرفع درجة من الأنواع الأخرى تسمح بنيته بالاقتراب من طعم المنطقة الخفيّ أكثر مما يتمّ ذلك فيها. وكان بوسعي الاعتقاد بذلك (وبأنّ المداعبات التي ستوصلني إليه سوف تكون كذلك من صنف خاصّ ما كان بإمكان واحدة أخرى أن توفّر لي متعته) بسهولة تزايدت بقدر ما كنت لا أزال بعد لفترة طويلة في السنّ التي لم يجرّد المرء فيها بعد متعة الامتلاك من النساء المختلفات اللواتي تذوقها معهنّ ولم يردّها إلى فكرة عامّة تحتسبهنّ مذ ذاك بمثابة وسائل يمكن مبادلتها لمتعة لا تتبدّل. وإنّها حتى لا وجود لها منفردة ومنفصلة ومصوغة في الفكر بمثابة الهدف الذي تجري وراءه بمقاربتك امرأة وبمثابة سبب الاضطراب السابق الذي تحسّ به؛ وتكاد لا تفكّر فيها على أنّها متعة سوف تتوافر لك، وإنّك لتدعوها بالأحرى سحرها النابع منها لأنّ المرء لا يفكر في ذاته، بل هو لا يفكّر إلّا في الخروج من ذاته. وإذ ننتظرها مبهمة ثابتة خفيّة فإنّها تبلغ بالمسرات الأخرى التي توفّرها لنا الألحاظ الحلوة وقبلات تلك التي بجانبنا، تبلغ بها في اللحظة التي تتحقّق فيها درجة من العنف حتى لتبدو لنا على وجه الخصوص وكأنّها ضرب من فورة إقرارنا بالجميل إزاء طيبة قلب رفيقتنا ومعزّتها المؤثّرة لنا والتي نقيسها بالإحسان والسعادة التي تغمرنا بها.

ولكن عبثاً كنت أتوسّل، وأأسفي، إلى برج «روسّانفيل»، وأسأله أن يحضر لي بالقرب منّي ولداً من قريته، وكأنّما إلى النديم الوحيد الذي كان لي في رغباتي الأولى حين لا أرى من أعلى منزلنا في «كومبريه»، من الغرفة الصغيرة التي تفوح منها رائحة السوسن، سوى برجه يتوسّط زجاج النافذة المفتوحة، فيما أشقّ لنفسي داخل ذاتي، خائر القوى، بالتردّد البطولي الذي ينتاب المسافر الذي يهمّ باكتشاف ما أو اليائس الذي

ينتحر، درباً مجهولاً كنت أظنّه مميتاً حتى اللحظة التي ينضاف فيها إلى أوراق شجرة الريباس الأسود التي تنحني فوق رأسي أثر طبيعيّ كأثر حلزون مثلاً. وعبثاً أتوسّل إليه الآن؛ عبثاً أجوب المدى الذي أحضره في ساحة رؤيتي بعينيّ وهما تودّان أن تعودا منه بامرأة. كان بوسعي الذهاب حتى بوّابة كنيسة «سانت أندريه - دي - شان» ولا أجد مرّة فيها الفلّاحة التي ما كنت إلّا لألقاها لو كنت بصحبة جدّي وفي موقف يستحيل عليّ فيه تبادل الحديث معها. وكنت أحدّق إلى ما لا نهاية في جذع شجرة في البعيد سوف تطلع فجأة من خلفه وتأتي إليّ، ويظلّ الأفق الذي أتفحّصه مقفراً ويحلّ الليل، وإنّه لأمر لا أمل فيه أن ينصرف انتباهي إلى هذه الأرض الجدباء، هذه الأرض المتعبة، وكأنّما ليمتصّ المخلوقات التي يمكن أن تحويها. وما كنت من غبطة بل من حنق أضرب أشجار أحراج «روسّانفيل» التي ما كان ليخرج من بينها كائنات حيّة كما لو كانت أشجاراً مرسومة على لوحة تحوي منظراً، حينما لا أستطيع التسليم بالعودة إلى المنزل قبلما أضمّ بين ذراعي المرأة التي أشتهيها إلى ذلك الحدّ وأضطر مع ذلك إلى الرجوع في طريق «كومبريه» وأنا أقرّ في ذاتي أنّ المصادفة التي ربّما وضعتها على دربي إنّما يقل احتمالها أكثر فأكثر. ولئن اتفق على أيّة حال أن تكون فيه أفكنت أجرؤ على التحدّث إليها؟ كان يبدو لي أنّها ربّما احتسبتني مجنوناً، فأكف عن الاعتقاد بأنّ الرغبات التي كانت تتشكّل في صدري في أثناء هذه النزهات ولا تتحقّق إنّما تشاطرني إيّاها كائنات أخرى وأنّها حقيقيّة خارج نفسي، ولا تظهر لي من بعد إلا بمثابة ابتداعات يفرزها مزاجي وهي ذاتية محضة وعاجزة ووهميّة. وما كان يظلّ لها ما يربطها بالطبيعة وبالواقع الذي كان يفقد مذ ذاك كل سحر وكل دلالة ولا يظلّ بالنسبة إلى حياتي سوى إطار متعارف عليه مثلما عربة القطار التي يجلس المسافر على مقعدها ليقرأ رواية في سبيل تمضية الوقت بالنسبة إلى تخيّلات هذه الرواية.

وربّما نجمت الفكرة التي كوّنتها لنفسي، كثيراً بعد ذلك، عن

السادیّة، ربّما نجمت عن انطباع أحسست به كذلك قرب «مونجوفان» بعد بضع سنوات وظلّ آنذاك مبهماً. وسوف نرى فيما بعد أن ذكرى هذا الانطباع ستلعب دوراً هاماً في حياتي لأسباب مغايرة تماماً. لقد وقع ذلك في طقس شديد الحرارة، وكان ذويّ قد أشاروا عليّ، بعدما اضطرّوا إلى التغيّب طوال النهار، بأن أعود متأخّراً قدرَ ما أشاء. فبعدما ذهبت حتى بركة «مونجوفان»، حيث كان يحلو لي أن أرى انعكاسات سقف القرميد، استلقيت في الظلّ وأغفيت في دغل التلّة التي تطلّ على المنزل ذلك الذي انتظرت فيه والدي فيما مضى في يوم ذهب فيه لزيارة السيّد «فانتوي». وكان الليل قد أوشكَ يحلّ حينما استيقظت، وأردت أن أنهض ولكنيّ أبصرت الآنسة «فانتوي» (بقدر ما استطعت تعرّفها لأنّني لم أكن رأيتها كثيراً في «كومبريه» وكانت آنذاك لا تزال طفلة، في حين أخذت تنقلب شابة)، وربّما عادت منذ قليل، قبالتي على بضعة سنتيمترات منّي في تلك الغرفة التي استقبل فيها والدها والدي والتي جعلت منها ردهة استقبال لها. وكانت النافذة مفتوحة والمصباح مضاءً فكنت أرى سائر حركاتها دون أن تراني، ولكنّي لو ذهبت لتكسّرت الأشواك وسمعتني وحسبت أنّني اختبأت هنالك لأراقبها.

وكانت في ثياب الحداد التامّ لأنّ والدها قضى نحبه منذ قليل. ولم نذهب لزيارتها إذ لم ترغب والدتي في ذلك من جرّاء مزيّة كانت تحدّ وحدها آثار الطيبة لديها، عنينا الحياء، ولكنّها كانت ترثي لحالها أشدّ الرثاء. فقد كانت والدتي تتذكّر آخرة السيّد «فانتوي» التعيسة وقد استهلكتها تماماً بادئ الأمر اهتمامات الوالدة والخادمة التي كرّسها لابنته ثم العذاب الذي جلبته له هذه فيما بعد. وتعود ترى الوجه المعذّب الذي كان للعجوز على مدى الأيام الأخيرة. فقد كانت تعلم أنّه تخلّى نهائياً عن إتمام نقل كامل آثاره في السنوات الأخيرة، وهي مقطوعات باهتة لمدرس بيانو قديم، لعازف أرغن سابق في القرية، نعلم أنّها لم تكن لها قيمة في ذاتها ولكنّنا ما كنّا نزدريها لأنّها تملك الكثير في نظره.

وقد كانت سبب حياته قبل أن يضحّي بها لابنته ومعظمها لم يدوّن بل احتفظ به في الذاكرة فحسب، والبعض سجّل على وريقات مبعثرة غير مقروءة، وسوف يظلّ مجهولاً. وكانت والدتي تفكر في ذلك الزهد الآخر الأشدّ قسوة الذي أجبر عليه السيّد «فانتوي»، وهو التخلّي في ما يخصّ ابنته عن مستقبل سعادة قوامها الشرف والكرامة. وكانت تحسّ، فيما تستذكر كل هذه التعاسة التي عانى أقصى درجاتها أستاذ خالاتي السابق في دروس البيانو، غمّاً حقيقياً وتفكّر مذعورة بالغمّ الذي لا بدَّ أن تعاني منه الآنسة «فانتوي»، وهو أشدّ مرارة إذ يخالطه تأنيب الضمير لأنّها قتلت والدها تقريباً. وكانت والدتي تقول: «مسكين السيّد «فانتوي»، لقد عاش ومات في سبيل ابنته ودون أن يتقاضى أجره. فهل يتقاضاه بعد موته وأيّ شكل سيتّخذ؟ إذ لا يمكن أن يأتيه إلّا منها».

وكان في صدر صالة الآنسة «فانتوي» رسم صغير لوالدها موضوع فوق الموقد، وقد سارعت إليه تأخذه في اللحظة التي دوّى فيها ضجيج عربة أقبلت من الطريق ثم ارتمت على أريكة وجرّت إليها طاولة صغيرة جعلت الرسم فوقها مثلما وضع السيّد «فانتوي» بالقرب منه فيما مضى القطعة التي كان يرغب في عزفها لوالديّ. وبعد قليل دخلت صديقتها، فاستقبلتها الآنسة «فانتوي» دون أن تنهض ويداها خلف رأسها وتراجعت إلى الطرف المقابل من الأريكة وكأنّما تفرد لها مكاناً. غير أنّها شعرت في الحال أنّها تبدو وكأنّها تفرض عليها موقفاً ربّما كان مزعجاً بالنسبة إليها. وظنّت أنّه ربما راق صديقتها أن تكون على كرسيّ بعيداً عنها ووجدت نفسها وقد تجاوزت حدّها فاضطربت رقّة قلبها من جرّاء ذلك، وعادت فشغلت كامل المكان على الأريكة وأطبقت عينيها وأخذت تتثاءب كيما تشير إلى أنّ رغبة النوم كانت السبب الوحيد في أنّها استلقت على هذا النحو. وكنت على الرغم ممّا تبدي من ألفة قاسية فوقيّة مع رفيقتها أتعرّف حركات والدها التي تفيض بالمجاملة والتحفّظ ووساوسه المفاجئة. ونهضت بعد قليل وتظاهرت بأنّها تبغي إغلاق مصراعي النافذة وأنّها لا تفلح في ذلك.

وقالت صديقتها:

- «دعيها مفتوحة، فالجو حارّ». وأجابت الآنسة «فانتوي»:

- «ولكن ذلك مزعج، فسوف يشاهدوننا».

ولكنّها حزرت ولا ريب أن صديقتها سوف تحسب أنّها لم تقل هذه الكلمات إلّا لتحملها على الإجابة ببعض كلمات أخرى كانت ترغب بالتأكيد في سماعها ولكنّها تريد من قبيل التحفّظ أن تدع لها مبادرة النطق بها. ولا بدّ لذلك أن حمّلت نظرتها، وما كنت أستطيع تمييزها، ذلك التعبير الذي كان يروق جدّتي كثيراً حينما أضافت بحدّة:

- «عندما أقول «يشاهدوننا» فإنّما أعني أنهم سيشاهدوننا نقرأ، فمن المزعج أن تحسب أن عيناً تراك، مهما كنت تفعل من أمر تافه».

كانت تكتم الكلمات التي سبق أن صمّمت على قولها والتي حكمت أنه لا غنى عنها لتحقيق رغبتها بالتمام من جرّاء كرم نفسي عفوي وتأدّب غير متعمّد. وفي كل لحظة تسترحم في قرارة ذاتها عذراء خجولة متوسّلة جلفاً فظّاً ظافراً وتحمله على التراجع.

وقالت صديقتها بلهجة ساخرة:

- «أجل، من المرجّح أنّهم ينظرون إلينا هذه الساعة في هذه الأرض التي تعجّ بالناس». ثم أضافت قولها (وهي تظنّ من واجبها أنّه لا بدّ من أن ترافق رقّة عين ممزاحة ورقيقة هذه الكلمات التي قالتها بطيبة، وكأنّها نصّ تعلم أنّه عذب على فؤاد الآنسة «فانتوي»، وبلهجة كانت تحاول أن تجيء غير محتشمة): «حتى لو رأونا فإنّما يزداد الأمر حلاوة».

وارتعشت الآنسة «فانتوي» ونهضت. وكان فؤادها الدقيق الحساس يجهل أيّة كلمات يجدر بها أن تأتي تلقائياً لتلائم المشهد الذي تطالب به حواسّها. كانت تحاول من أبعد نقطة عن طبيعتها الأخلاقية الحقيقية أن تعثر على اللغة الخاصّة بالفتاة الفاسقة التي ترغب في أن تكونها، ولكن اللفظات التي تحسب أن هذه الأخيرة قد تقولها بصدق كانت تبدو لها زائفة على لسانها. والقليل الذي تسمح لنفسها بقوله كان يجيء بلهجة

متكلّفة تشلّ فيها عاداتها الخجولة رغبة الجرأة لديها ويختلط بعبارات من مثل: «ألا تشعرين بالبرد، أليس الحرّ شديداً، ألا ترغبين أن تكوني وحيدة وتقرئي؟».

وقالت في النهاية وهي تردّد دون شكّ جملة كانت سمعتها فيما مضى على لسان صديقتها: «يبدو أن أفكاراً شديدة المجون تراود الآنسة هذا المساء».

وأحسّت الآنسة «فانتوي» أنّ صديقتها تسرق قبلة من شق صدارها المعرّق فأطلقت صوتاً طفيفاً وهربت فتطاردتا قفزاً وأكمامهما العريضة تتفتّح كالأجنحة وهما تقهقهان وتزقزقان كمثل عاشقات الطير. وأخيراً سقطت الآنسة «فانتوي» على الأريكة يغطّيها جسد صديقتها. ولكن هذه الأخيرة كانت تولي ظهرها للطاولة الصغيرة التي وضع فوقها رسم مدرس البيانو السابق. وأدركت الآنسة «فانتوي» أن صديقتها لن تراه إن لم تلفت انتباهها إليه فقالت لها وكأنّما تلاحظ الأمر ساعتها فقط:

- «آه! لست أدري من وضع رسم والدي هذا الذي ينظر إلينا ههنا مع أنّني أوضحت عشرين مرّة أن ليس ههنا مكانه».

وذكرتُ أنها الكلمات التي قالها السيّد «فانتوي» لوالدي بشأن المقطوعة الموسيقيّة. وكان الرسم يستخدم بالعادة دونما شكّ في إقامة طقوس تدنيسيّة إذ أجابتها صديقتها بكلمات لا بدّ أنّها كانت تؤلّف جزءاً من إجاباتها الطقسيّة:

- «دعيه حيث هو، فلم يعد هنا كي يزعجنا. أفتظنّين أنه لو رآك هنا، ذلك القرد القبيح، والنافذة مفتوحة، لتباكى وودّ أن يلبسك معطفك؟».

وأجابت الآنسة «فانتوي» بعبارات يبطّنها عتاب رقيق: «ما هذا، ما هذا؟»، من تلك التي تشهد بطيب طبيعتها، وما ذلك لأنها إنما يمليها الغيظ الذي أمكن أن تثيره فيها هذه الطريقة في التحدّث عن والدها (كان ذلك بالبداهة شعوراً تعوّدت أن تكتمه في صدرها في تلك اللحظات، ولكن بفضل أيّة مغالطات!) ولكن لأنّها كانت بمثابة كابح توقف به المتعة

التي تجهد صديقتها في توفيرها لها، كي لا تبدي أنّها أنانية. ثم إن هذا الاعتدال الضاحك في الإجابة على تلك الشتائم وهذا العتاب المنافق الرقيق ربّما يبدوان لطبيعتها الصريحة الطيّبة بمثابة شكل قذر بصورة خاصّة، شكل تفه من هذا السلوك الآثم الذي تجهد في تمثّله. على أنّها لم تستطع مقاومة إغراء المتعة التي سوف تحسّ بها للمعاملة الرقيقة التي تلقاها على يد شخص لا شفقة به حيال ميّت أعزل. فقفزت إلى حضن صديقتها ومدّت إليها جبينها العفيف لتقبّلها كما ربّما فعلت لو كانت ابنتها، فيما تحسّ والنشوة تهزّها أنّهما تمضيان على هذا النحو إلى أقصى حدّ في الشراسة إذ تسلبان السيّد «فانتوي» حتى في القبر أبوّته. وأخذت صديقتها رأسها بين يديها وطبعت قبلة على الجبين بهذا الخضوع الذي يسهّله العطف الكبير الذي تحمله للآنسة «فانتوي» ورغبتها في أن تدخل بعض السلوى في حياة اليتيمة التي أضحت الآن حزينة جدّاً. قالت وهي تأخذ الرسم:

- «هل تدرين ما أودّ أن أفعل بهذا العجوز القبيح؟».

وهمست في أذن الآنسة «فانتوي» شيئاً لم يمكنّي سماعه.

- «لا! لن تتوافر لك الجرأة لذلك».

وقالت الصديقة بفظاظة متعمّدة: «لن تتوافر لي الجرأة أن أبصق عليه؟ على هذا؟» ولم أسمع أكثر مما سمعت، فقد أقبلت الآنسة «فانتوي» يبدو عليها الإجهاد والارتباك والاستعجال والكرامة الحزينة، أقبلت تغلق المصراعين والنافذة، ولكنّي كنت أعلم الآن ما تقاضاه السيد «فانتوي» من ابنته بمثابة أجر بعد موته في مقابل جميع الآلام التي تحمّلها طوال حياته بسببها.

على أنّي فكرت مذ ذاك بأنه لو اتّفق للسيّد «فانتوي» أن يشهد هذا الفصل لما فقد ربّما إيمانه بطيبة قلب ابنته وربّما لم يكن مخطئاً في الأمر تماماً. صحيح أن مظهر الشرّ في عادات الآنسة «فانتوي» كان تامّاً حتى ليصعب أن تلقاه محقّقاً إلى هذا الحدّ من الكمال إلّا لدى فتاة ساديّة؛

فإنّما تُمْكِن رَؤْيَةُ فتاة تحمل صديقتها على البصاق على رسم والد لم يقضِ حياته إلا في سبيلها تحت أضواء مسارح الشارع أكثر ممّا يتّفق ذلك تحت ضوء مصباح منزل ريفيّ حقيقيّ. وليس فيما عدا الساديّة ما يوفّر لجماليّة الميلودراما أساساً في الحياة. أمّا في الواقع وفيما عدا حالات الساديّة فربّما ارتكبت فتاة خطيئات في مثل قسوة خطيئات الآنسة «فانتوي» بحقّ مشيئة والدها المتوفّى «ذكراه»، ولكنّها لا تختصرها على نحو صريح في فعلة رموزها بدائية وساذجة إلى هذا الحدّ، ذلك أنّ ما يتضّمنه سلوكها من إجرام سوف يكون أكثر خفاء بالنسبة إلى الآخرين وحتى بالنسبة إليها هي التي تقترف الشرّ دون أن تقرّ لنفسها بالأمر. على أننا إذا تجاوزنا المظاهر فإن الشرّ في قلب الآنسة «فانتوي» لم يجئ دون شك، في البداية على الأقلّ، صافياً لا اختلاط فيه. إنّ فتاة ساديّة مثلها هي فنّانة في الشر، وهو ما لا تستطيعه مخلوقة شرّيرة تماماً لأنّ الشرّ لن يكون خارج طبيعتها بل يبدو لها طبيعيّاً تماماً ولعلّه لا يتميّز عنها؛ أمّا الفضيلة وذكرى المتوفّين وحنان البنوة فلن تجد متعة الانتهاك في تدنيسها لأنّها لا تقدّسها. والساديّون من أمثال الآنسة «فانتوي» محض عاطفيين وفاضلون في أساس طبيعتهم إلى حدّ تبدو لهم معه لذّة الحواس من بعض السوء ووقفاً على الأشرار؛ فإذا تركوا لذواتهم أن ينساقوا إليها في لحظة فإنّما يجهدون في لبس جلد الأشرار ويستجرّون إليه شريكهم لكي يتوهّموا للحظة أنّهم فرّوا من نفسهم التي تعمرها الوساوس وتفيض بالرقّة إلى دنيا اللذة اللا إنسانية. وكنت أدرك إلى أي حدّ يمكن أن تصبو إلى ذلك وهي ترى إلى أي حدّ يستحيل عليها أن تفلح فيه. ففي الوقت الذي كانت تودّ أن تكون مختلفة فيها عن والدها إلى حدّ بعيد، كان ما تذكّرني به هي طريقة مدرّس البيانو العجوز في التفكير والتحدّث. إن ما كانت تدنّسه أكثر من صورته وما كانت تستخدمه لملذّاتها ولكنّه يظلّ قائماً بين هذه الملذات وبينها ويحول دون أن تتذوّقها مباشرة إنّما هو التشابه في المحيّا وعينا والدته الزرقاوان، والدته هو، اللتان أورثهما إيّاها وكأنّهما حلية عائلية، وحركات التأدّب

هذه التي كانت تضع بين رذيلة الآنسة «فانتوي» وبينها طريقة تعبير وذهنيّة لا توافقان هذه الرذيلة وتحولان دون أن تراها الآنسة «فانتوي» على أنّها شيء يختلف أشدّ الاختلاف عن واجبات التهذيب التي تعوّدت أن تكرّس لها نفسها. فليس الشر الذي كان يورثها فكرة اللذة ويبدو لها ممتعاً، بل اللذة كانت تبدو لها من الشرّ. ولمّا كانت تترافق في كلّ مرّة تنصرف إليها وهذه الأفكار الشريرة التي كانت بعيدة طوال الزمن المتبقّي عن نفسها الفاضلة فقد بلغ بها الأمر أن تجد للمتعة مزية شيطانية وأن تماثل بينها وبين «الشرّ». وربّما أحسّت الآنسة «فانتوي» أن صديقتها ما كانت شريرة في أعماقها كما لم تكن صادقة ساعة تتفوّه بهذا السباب. ولكنّها كانت تستمتع على الأقلّ في أن تقبّل بَسماتٍ على محيّاها ونظرات ربّما كانت مخادعة ولكنّها شبيهة في مظهر الفسق والبذاءة فيها بتلك التي ربّما صدرت عن كائن قوامه القسوة والمتعة لا عن كائن قوامه الطيبة والعذاب. كانت تستطيع أن تتخيّل حيناً من الزمن أنّها تؤدّي بالحقيقة ما تؤدِّيه مع شريكة في مثل فسادها فتاة أحسّت بمثل هذه المشاعر البربريّة حيال ذكرى والدها المتوفّى. ولعلّها ما حسبت أن الشرّ حالة نادرة وخارقة وغريبة المعالم تجد الكثير من الراحة في الهجرة إلى تخومها لو استطاعت أن تميّز في ذاتها وفي جميع الناس على السواء هذه اللامبالاة بالآلام التي تسبّبها للآخرين والتي تظلّ، مهما أطلق عليها من أسماء أخرى، الشكل المخيف الدائم للقسوة.

ولئن كان من السهل الذهاب من جهة «ميزيكليز»، فالذهاب من جهة «غيرمانت» أمر آخر لأنّ المشوار طويل ولا بدّ من التأكّد من الطقس المرتقب. فحينما كان يبدو أنّنا نباشر سلسلة من الأيّام الجميلة، وحينما كانت تصيح «فرانسواز»، وقد يئست لما لا تسقط قطرة من الماء لخير «المزروعات المسكينة» ولأنها لم تعد تبصر سوى غيمات بيضاء نادرة تسبح على صفحة السماء الهادئة الزرقاء، وتشتكي قائلة:

«أليس يبدو أنّك لا ترى سوى كلاب بحر تلهو وتبرز فوقنا أخطامها؟

آه! لكم تفكّر في إرسال المطر للفلّاحين المساكين! ثم بعدما تنمو الأقماح يأخذ المطر إذ ذاك في الهطول هطولاً خفيفاً دون انقطاع ودون أن يعلم من بعد أين يتساقط وكأنّ من تحته البحر»، وحينما كانت تبلغ والدي أجوبة مشجّعة لا تتبدّل يجود بها البستانيّ ومقياس الضغط الجوي حينئذ كنا نقول في العشاء: «إن بقي الطقس في غد على ما هو عليه ذهبنا من جهة «غيرمانت». كنّا نذهب بعد الغداء مباشرة من باب الحديقة الصغيرة فنفضي إلى شارع «بيرشان»، وهو ضيّق ويشكّل زاوية حادّة وتملؤه النجيليّات التي تمضي النهار فيها زرقطتان أو ثلاث في مهمّة تعشيب، ويبدو في مثل غرابة اسمه الذي كانت تبدو لي خصائصه المدهشة وشخصيّته الفظّة وكأنّها تنحدر منه، وعبثاً تبحث عنه في «كومبريه» القائمة في يومنا إذ تقوم المدرسة على مرتسمه القديم. ولكنّ أحلامي (وهي شبيهة بهؤلاء المهندسين تلاميذ «فيوليه - لو - دوك» الذين يعيدون بناء بكامله إلى الوضع الذي لا بدّ أنّه كان عليه في القرن الثاني عشر إذ يظنّون أنّهم يلاقون آثار كورس من الطراز «الروميني» (Roman) تحت منبر من طراز النهضة أو هيكل من القرن السابع عشر) لا تدع حجراً في البناء الجديد وتفتح شارع «بيرشان» ثانية و«تردّه» إلى سابق عهده. وإنها تملك من أجل إعادة البناء هذه معطيات أكثر دقّة من تلك التي يملكها المرمّمون بعامّة: وهي بضع صور أحتفظ بها في ذاكرتي، ربّما كانت الأخيرة المتوفّرة حاليّاً وهي معدّة للزوال عمّا قريب، بضع صور عمّا كانت مؤثّرة - إن استطعنا أن نقارن بين رسم مجهول وتلك الصور المجيدة التي كانت جدّتي تحب أن تزوّدني بنسخ منها - شأن تلك الرسوم القديمة للعشاء السرّي أو تلك اللوحة لِـ«جنتيله بلليني» (Gentile Bellini) التي نشاهد فيها رائعة «دافنشي» وبوّابة «القدّيس مرقص» في حالة لم تعد قائمة اليوم.

وكنا نمرّ في شارع «لوازو» أمام فندق «العصفور السمين» القديم الذي دخلت إلى باحته الكبرى أحياناً في القرن السابع عشر عربات دوقات «مونبانسييه» و«غيرمانت» و«مونمورانسي» حينما كان عليهنّ أن يجئن إلى

«كومبريه» من أجل خلاف مع مزارعيهنّ حول قضايا الولاء. ثم كنا نصل إلى مكان النزهة وتبدو من بين إشجاره قبّة جرس «القديس هيلاريون». كنت أودّ لو أستطيع الجلوس هناك والمكوث طوال النهار وأنا أقرأ وأصغي إلى الأجراس، فقد كان الطقس جميلاً وهادئاً إلى الحدّ الذي يخيّل إليك معه حينما تدّق الساعة أنها لا تحطّم سكون النهار بل هي تُخْليه مما يحويه وأنّ قبة الجرسية، بالدقة والتراخي والإتقان التي تسم شخصاً لا يقع عليه أن يفعل غير ذلك، قد قامت لتوّها بعصر السكون المطلق في اللحظة المناسبة كيما تستخرج منه القطرات الذهبيّة القليلة التي جمّعها فيه الحرّ ببطء وبحكم الطبيعة ثم تنثرها.

والسحر العظيم في جهة «غيرمانت» قوامه أن مجرى نهر «الفيفون» يظلّ طوال الوقت تقريباً إلى جانبك. وكنّا نجتازه المرّة الأولى بعد عشر دقائق من مغادرة المنزل على معبر خشبيّ يدعى الجسر القديم، وكنت منذ غداة وصولنا، أي في يوم الفصح بعد الخطبة، أجري حتى هناك، إن كان الطقس جميلاً، لأشاهد في فوضى صبيحة عيد كبير تُظهر فيها بعض الاستعدادات الفخمة الأدوات المنزلية المهجورة أكثر قذارة، لأشاهد الساقية التي بدأت جولتها بثوبها الأزرق السماوي بين الأراضي التي ما زالت سوداء جرداء ولا يرافقها سوى جماعة من طيور الوقوق وصلت مبكّرة وبعض زهور الربيع التي سبقت أوانها، فيما ترى ههنا وهناك بنفسجة زرقاء الشفتين تثني قامتها وقد أرهقتها قطرة العطر التي تحتجزها داخل قمعها. وكان الجسر القديم ينفذ إلى درب لجرّ المراكب تفرش أرضه في الصيف زرقة أوراق شجرة جوز نبت تحتها صياد يعتمر قبّعة قشّ. وصياد السمك هذا كان الشخص الوحيد الذي لم أكشف في يوم هويّته في «كومبريه» التي كنت أعرف فيها أي بيطار أو أجير سمّان يختفي داخل بزّة الجنديّ أو ثوب خادم الهيكل. ولا بدّ أنّه كان يعرف والديّ، إذ كان يرفع قبّعته لدى مرورنا، وكنت أودّ حينذاك السؤال عن اسمه ولكنّهم يشيرون عليّ بالصمت لئلا يذعر السمك. وكنّا نسير في درب جرّ المراكب

الذي يشرف على القناة من منحدر بعلوّ عدّة أقدام: أمّا من الجهة الثانية فقد كانت الضفّة منخفضة تمتدّ مروجاً فسيحة حتى القرية وحتى المحطّة التي كانت بعيدة عنها. كانت تنتشر فوقها آثار توارت تقريباً تحت العشب لقصر كونتات «كومبريه» السابقين الذي كان يتخذ في العصر الوسيط من مجرى نهر «الفيفون» في تلك الجهة خطّ دفاع ضد هجمات أسياد «غيرمانت» وآباء «مارتانفيل»، ولم يظلّ منه سوى بقايا أبراج تتحدّب بها المروج وتكاد لا تتبينها العين، وبعض الكوى التي كان القاذف فيما مضى يرمي منها الحجارة ويرقب منها الراصد «نوفيون» و«كليرفونتين» و«مارتنفيل - لو - سيك» و«بايوّ ليكزان»، وكلّها أراضٍ مُقْطَعَة لِ«غيرمانت» تنحصر بينها «كومبريه» تلك الكوى التي أصبحت اليوم في مستوى العشب والتي ينظر إليها من علٍ أولاد مدرسة «الإخوة» الذين كانوا يجيئون إلى هناك ليتعلّموا دروسهم أو يلعبوا أثناء الاستراحات - إنّه ماضٍ غاص تقريباً في الأرض واستلقى على حافّة الماء كمثل متنزّه يسترطب، ولكنّه يطلق العنان لأحلامي ويجعلني أضيف داخل اسم «كومبريه»، إلى مدينة اليوم الصغيرة، مدينة مختلفة عنها أشدّ الاختلاف وتستقطب أفكاري بوجهها الخفيّ الذي من سالف الزمان والذي تخبئه تقريباً تحت الأزرار الذهبيّة. لقد كانت عديدة جدّاً في هذا المكان الذي اختارته لصنوف لهوها أُحادَ وأزواجاً وجماعات صفراء كصفار البيض يزداد تألّقها فيما أرى من جرّاء أنّني لا أستطيع تحويل المتعة التي تسببها لي رؤيتها إلى رغبة في التذوّق فأراكمها في بقعتها المذهبة حتى تبلغ حدّاً من القوّة تُنْتِج معه من اللامفيد جمالاً. والأمر تم منذ نعومة أظفاري حينما كنت أمدّ ذراعيّ إليها من درب جرّ المراكب ولا أستطيع بعد أن أهجّي تماماً اسمها الجميل، اسم أمراء حكايات الجنيّات الفرنسيّة، وربّما جاءت لقرون مضت من آسيا ولكنّها استوطنت القرية للأبد راضية بالأفق المتواضع، محبّة للشمس وضفّة الماء، أمينة لمرأى المحطّة الصغير ولكنّها تحتفظ مع ذلك في بساطتها الشعبيّة، مثل بعض لوحاتنا القديمة المرسومة، بألق شعريّ من المشرق.

وكنت أتسلىّ بالنظر إلى الزجاجات التي كان الصغار يضعونها في نهر «الفيفون» ليأخذوا بها الأسماك الصغيرة والتي يملؤها النهر الذي يحتويها بدورها فتصبح في الآن نفسه «محتوى» شاف الجنبات مثل ماء متصلّب و«محتوى» مغموساً في «محتوى» أكثر اتّساعاً من الكريستال السائل الجاري، وتذكر بصورة الأشياء الطازجة على نحو أكثر حلاوةً وأبعد إثارة مما لعلها فعلت على طاولة ممدودة إذ هي لا تظهرها إلا هاربة في هذه المجانسة الحرفيّة الدائمة بين الماء الذي لا قوام له ولا تستطيع اليد الإمساك به والزجاج الذي لا سيولة فيه ولا يستطيع سقف الفم الاستمتاع به. وكنت أمني النفس بالمجيء في وقت لاحق ومعي صنانير صيد، واحصل على بعض الخبز من مؤونة «العصرونية» فألقي منه في نهر «الفيفون» كرات صغيرة تبدو كافية كيما تحدث ظاهرة فرط إشباع إذ يتجمد الماء في الحال من حولها على هيئة عناقيد بيضويّة من شراغيف جائعة كان يحتفظ بها حتى ذاك دونما شكّ منحلّة غير مرئيّة وقد أوشكت تبلغ حدّ التبلور.

ولا يلبث مجرى «الفيفون» أن ينسدّ بفعل نباتات مائيّة. فهنالك بادئ الأمر نباتات منفردة كمثل هذا النيلوفر الذي اتخذ لنفسه موقعاً مشؤوماً في عرض تيّار الماء فلا يدع له هذا الأخير أن يستكين إلا القليل القليل حتى لا يبلغ ضفّة إلّا ويعود إلى التي جاء منها فلا ينفكّ يجتاز النهر ذهاباً وإياباً مثل مركب عبور يعمل بصورة آلية. كان معلاقه يُدفع باتجاه الضفّة وينتشر ويمتّد ويجري فيبلغ أقصى حدّ في سعيه حتى الحافّة حيث يستعيده التيّار فينطوي الحبل الأخضر على ذاته ويعيد النباتَ التعيس إلى ما يمكن أن ندعوه بحقّ نقطة انطلاقه إذ هو لا يمكث فيها ثانية دون أن ينطلق منها من جديد في تكرار للعمليّة نفسها. وكنت أعود فألقاه من نزهة إلى أخرى لا يتبدّل وضعه ويذكّر ببعض مرضى الأعصاب الذين يحتسب جدّي وخالتي «ليوني» في عدادهم والذين يقدّمون لنا على مرّ السنين المنظر الذي لا يتبدّل للعادات الغريبة التي يخالون أنفسهم كلّ مرّة في عشيّة الانعتاق منها

والتي يحتفظون بها على الدوام؛ فالجهود التي يتخبّطون فيها وهم في دوّامة ضروب قلقهم وهوسهم، وعبثاً يفعلون للخروج منها، إنّما تضمن فحسب سير نظامهم الحياتي الغريب المشؤوم الذي لا يرحم ويؤذن ببدء هذا السير. على تلك الصورة كان ذلك النيلوفر. وكان كذلك شبيهاً بواحد من هؤلاء التعساء الذين أثار عذابهم الفريد الذي يتوالى أبد الأزلية وإلى ما لا حدود فضول «دانتي» ولعلّه طلب أن يُروى له أكثر عن خصائص هذا العذاب وسببه على لسان المحكوم نفسه لو لم يضطرّه «فيرجيليوس»، وهو يبتعد بخطى واسعة، إلى اللحقاق به أسرع ما يكون اللحاق، كما فعلت للحاق بذويّ.

على أنّ المجرى يتباطأ بعد ذلك ويجتاز أرضاً سمح مالكها للجمهور بدخولها، وكان قد راقه القيام فيها بأعمال بستنة مائيّة فأنبت في الأحواض الصغيرة التي يؤلّفها نهر «الفيفون» حدائق حقيقيّة من أزهار النيلوفر الأبيض. ولمّا كانت الضفّتان في هذا المكان كثيفتي الشجر فقد كانت الأشجار بظلالها العريضة تكسب الماء قاعاً يتخذ عادة اللون الأخضر العاتم، ولكني رأيته أحياناً، حينما كنّا نعود في بعض عشيّات سكنت على إثر جوّ عاصف بعد الظهر، من لون أزرق فاتح زاهٍ يضرب إلى البنفسجي وقد قُطّعَ على الطريقة اليابانية. وعلى صفحته ههنا وهناك تحمرّ كحبّة توت الأرض زهرة نيلوفر أرجوانية القلب بيضاء الحواشي. وفي البعيد كانت الأزهار أوفر عدداً وأكثر شحوباً وأقلّ نعومة وأكثر خشونة وتجاعيد وقد رتّبتها المصادفة لفّاتٍ أنيقة حتى ليخيّل إليك أنّك تبصر، وكأنّما بعد انفراطٍ كئيب لحفلة غراميّة، وروداً مزبدة ممدودة الأطواق تطفو على هوى الرياح والتيار. وتبدو زاوية في مكان آخر وكأنّها خصّصت للأنواع الشائعة التي كانت تبرز في ألوان زهر الجوليانا نصاعة الأبيض والورديّ وقد غسلا مثلما البورسلين بعناية ربّة المنزل، فيما تتراصّ من بعدها على هيئة حوض حقيقي عائم أصناف منها تخالها من بنفسج الحدائق جاءت تبسط كما الفراشاتُ أَجْنِحَتَها الصقيلة الضاربة إلى الزرقة فوق هذه الحديقة المائية

وشفافية خطّها المائل، هذه الحديقة السماوية كذلك: لأنّها كانت تقدّم للأزهار أرضاً يفوق لونها لون الأزهار نفسها ثمناً وتأثيراً في النفس، فقد كانت تبدو، سواء أبعثت من تحت أزهار النيلوفر في فترة ما بعد الظهيرة تألّقات قزحيّة لسعادةٍ قوامها اليقظة والصمت والحركيّة أم امتلأت في العشيّة كمثل مرفأ بعيد بحمرة الغروب وأحلامه وهي في تبدّل لا ينقطع لتظلّ على الدوام منسجمة من حول التويجات، وهي على ثبات في اللون أكبر، مع ما كان في الساعة الزمنيّة أكثر عمقاً وهروباً وخفاء - مع ما كان فيها لا محدوداً - كانت تبدو وكأنّها جعلت أزهارها تتفتّح في كبد السماء.

ويعود نهر «الفيفون» لدى خروجه من هذه الحديقة فيصبح جارياً. فكم مرة رأيت ووددت إن أضحيت حرّاً في العيش على هواي أن أقلّد مجذّفاً ترك المجذاف واستلقى على ظهره وقد تدلّى رأسه في قاع قاربه الذي تركه يسبح حسب مشيئة التيّار، ولا يستطيع أن يبصر سوى السماء تمرّ بطيئة فوقه وعلى محيّاه طعم السعادة والطمأنينة المرتجى!

وكنا نجلس بين أزهار السوسن على ضفة الماء، وفي السماء التي ملأتها الزينات تذهب غيمة عاطلة عن العمل في جولة طويلة. وبين الآن والآخر يطلع فوق الماء شبّوط في نشقة متلهّفة وقد ضيّق عليه الملل. وتحين إذ ذاك ساعة العصرونية، ونظلّ فترة طويلة قبل العودة نتناول فواكه وخبزاً وشوكولاته فوق العشب حيث تبلغ أسماعنا رنّات جرس القدّيس «هيلاريون» أفقيّة واهنة ولكنّها لا تزال كثيفة معدنيّة لم تختلط بالهواء الذي تجتازه منذ فترة طويلة وتئزّ على رؤوس الأزهار وعلى أقدامنا بعدما ضلّعتها الخفقات المتوالية في جميع خطوطها الرنّانة.

وأحياناً نلتقي على ضفّة الماء المحاط بالأحراج بيتاً يقولون هو للترويح عن النفس منعزلاً قصيّاً لا يبصر من الدنيا سوى النهر الذي يغسل قدميه. وتطلّ امرأة شابّة يدلّ وجهها الحالم وحجابها الأنيق أنّها ليست من المنطقة وأنها جاءت بلا شكّ «تدفن» فيها نفسها على حدّ قول العامّة وتتذوّق مرارة الاستمتاع بالشعور بأنّ اسمها، ولا سيّما اسم ذاك الذي لم

تستطع أن تأسر فؤاده، مجهول فيها، تطلّ برأسها في إطار النافذة الذي لا يسمح أن تنظر إلى أبعد من القارب المربوط قرب الباب. حتى كانت ترفع عينين ساهيتين وهي تسمع خلف أشجار الضفّة صوت المارّة الذين تعلم بالتأكيد قبل أن تلمح وجوههم أنّهم ما عرفوا قطّ الخائنة ولن يعرفوها وأن ليس في ماضيهم ما يحمل أثراً منها ولن يتّفق لشيء في مستقبلهم أن يحتفظ بشيء منه. وكنت تشعر أنها في زهدها هجرت بملء إرادتها أماكن ربّما استطاعت فيها على الأقلّ أن تلمح الذي تحبّه إلى هذه التي لم تنعم قط بمرآه. وكنت أنظر إليها وهي تعود من نزهة على درب تعلم أنّه لن يمرّ فيه وتنزع من يديها المستسلمتين قفّازين طويلين لا فائدة ترجى من جمالهما.

لم تفلح قطّ في النزهة من جهة «غيرمانت» في الوصول إلى منابع نهر «الفيفون» التي غالباً ما فكّرت فيها وكانت تتمتّع في نظري بوجود مجرّد ومثالي إلى حدّ دهشت فيه حينما قيل لي إنّها واقعة في المقاطعة على كيلومترات من «كومبريه» مثل دهشتي يوم علمت أن هنالك نقطة أخرى محدّدة على الأرض كانت تنفتح فيها في العصور القديمة بوّابة جهنّم. ولم نستطع قط كذلك أن نذهب حتى الحد الذي شد ما تمنيّت بلوغه، حتى «غيرمانت». كنت أعلم أن سيّدي القصر، دوق «غيرمانت» ودوقة «غيرمانت»، يقيمان هنالك، كما أعلم أنهما شخصيّتان حقيقيّتان وموجودتان حاليّاً ولكنّي أتخيّلهما في كلّ مرّة أفكّر فيهما مرسومين على السجّاد تارة كما كان أمر دوقة «غيرمانت» في سجادة «تتويج استير» المعلّقة في كنيستنا، وطوراً بألوان متغيّرة كما هو أمر «جيلبير - لو - موفيه» في الزجاج الملّون حيث يختلف من خضرة الملفوف إلى زرقة الخوخ حسبما أكون في طور أخذ الماء المقدّس أو أنّني وصلت إلى مقاعدنا، وطوراً لا يُدْرَكان باللمس كمثل صورة «جنيفييف دو برابان»: وهي من أسلاف أسرة «غيرمانت»، وكان الفانوس السحري ينقّلها على ستائر غرفتي أو يصعد بها إلى السقف، - وأخيراً يلفّهما على الدوام سرّ

عصور «الميروفانجيّين» ويسبحان، وكأنّما في غروب شمس، في الضوء البرتقالي المنبعث من مقطع «آنت» (antes)[1]. ولئن كانا بالنسبة إليّ كائنين حقيقيّين على الرغم من غرابتهما وذلك باعتبارهما دوقاً ودوقة، فقد كانت شخصيّتهما الدوقية تتمدد أعظم التمدد وتضحي لاماديّة كي تستطيع احتواء بقعة «غيرمانت» هذه، وهما دوقها ودوقتها، وكامل «جهة غيرمانت» هذه المشمسة ومجرى نهر «الفيفون» ونيلوفره وأشجاره الضخمة والكثير من فترات ما بعد الظهيرة الجميلة. وكنت أعلم أنهما لا يحملان لقب دوق ودوقة «غيرمانت» فحسب بل إن الأسلاف منذ القرن الرابع عشر بعدما حاولوا عبثاً قهر أسياد «كومبريه» الأوّلين ارتبطوا بهم بصلات زواج وأصبحوا يحملون لقب «كونتات» كومبريه وعلى رأس مواطني «كومبريه» مع أنّهم لا يقطنون فيها. إنّهم «كونتات» كومبريه، يملكون «كومبريه» داخل اسمهم، داخل شخصهم، ويحملون دون شكّ في نفوسهم هذا الحزن الغريب الورع الذي تتفرّد به «كومبريه»؛ وهم أصحاب المدينة، لا أصحاب بيت معيّن، يقطنون دون شكّ في العراء، في الشارع، بين أرض وسماء كمثل «جيلبير دو غيرمانت» الذي ما كنت أبصر منه في زجاج حنيّة كنيسة القديس «هيلاريون» سوى القفا المدهون باللكّ الأسود إن رفعت رأسي وأنا ذاهب لجلب بعض الملح من دكّان «كامو».

واتفق لي أن مررت أحياناً في جهة «غيرمانت» أمام أسياج صغيرة رطبة تتسلقها عناقيد من الأزهار العاتمة. فكنت أتوقف ظنّاً مني أني أكتسب فكرة ثمينة، فقد كان يبدو لي أنني أرى قسماً من هذه المنطقة النهرية التي رغبت كثيراً في معرفتها منذ أن وقعت على وصفها بريشة أحد كتابي المفضلين. ولقد تغيّر بها وبأرضها الخيالية التي تغطيها المياه المتفجرة منظر «غيرمانت» داخل فكري وتماثلت معها بعدما سمعت الدكتور «بيرسبييه» يحدثنا عن الأزهار والمياه العذبة الجميلة التي تملأ

---

(١) كلمة لاتينية تعني «قبل».

حديقة القصر. وكنت أحلم أن السيدة «دو غيرمانت» تأتي بي إلى هناك وقد شغفت بي من جراء نزوة مفاجئة وتظل تصيد سمك التروتة معي طوال النهار. وكانت تريني في المساء، وهي تمسك بيدي لدى مرورنا أمام حدائق أتباعها الصغيرة، على امتداد الجدران الواطئة، الأزهار التي تريح فوقها عناقيدها البنفسجية والحمراء وتعلمني أسماءها. ثم تدعوني لأقول لها موضوع القصائد التي كنت أنوي نظمها. وكانت تلك الأحلام تنبهني إلى أن الوقت حان كي أعلم ما أنوي كتابته بما أني أبغي أن أضْحي ذات يوم كاتباً. ولكن ما إن أطرح السؤال على نفسي محاولاً العثور على موضوع أستطيع تضمينه مدلولاً فلسفياً لا حدود له حتى يتوقف فكري عن العمل ولا أبصر من بعد سوى الفراغ قبالة انتباهي وأشعر أن لا عبقرية لدي أو أن مرضاً عقلياً يحول دون مولدها. وكنت أعتمد أحياناً على والدي لتدبير الأمر، فقد كان شديد الاقتدار وكبير الحظوة لدى أصحاب المراكز إلى حد يستطيع معه أن يمكننا من تجاوز القوانين التي علمتني «فرانسواز» أن أعدّها أكثر حتمية من قوانين الحياة والموت، وأن يؤخر لعام واحد أعمال التكملة بالنسبة إلى بيتنا وحده في الحي كله، والسماح لابن السيدة «سازيرا» الذي يبغي الذهاب إلى مدن المياه بأن يتقدم إلى امتحان البكالوريا قبل شهرين ضمن سلسلة المرشحين الذين يبدأ اسمهم بحرف «آ» بدلاً من أن ينتظر دور حرف «س». وإن ألمّ بي مرض خطير أو أسرني لصوص فإنما أنتظر، وأنا متأكد أن والدي على قدر كبير من العلاقات السرية بالسلطات العليا وعلى مقدار عظيم من كتب التوصية التي لا تردّ أمام الحضرة الإلهية كيما يكون مرضي أو أسري شيئاً يغاير المظاهر الخداعة التي لا خطر منها عليّ، أنتظر بهدوء ساعة العودة المحتمة إلى الواقع الأكيد، ساعة الإنقاذ أو الشفاء. وربما لم يكن غياب العبقرية وهذه الحفرة السوداء التي تنفتح في عقلي حينما أبحث عن موضوع كتاباتي في المستقبل سوى وهم لا قوام له وسوف يزولان بفضل تدخل والدي الذي لا بدَّ أنه اتفق مع الحكومة والعناية الإلهية على أن أضحي أول كتاب

العصر. غير أن حياتي الراهنة كانت تبدو لي في مرات أخرى، وفيما ينفد صبر ذويّ من أني ظللت وراءهم وأني لا ألحق بهم، كانت تبدو لي على العكس وكأنها ضمن واقع لم يشيّد من أجلي وليس من اعتراض ممكن عليه ولا حليف لي في داخله ولا يخبئ شيئاً خلف حدوده عوضاً عن أن تبدو لي ابتداعاً من صنع والدي يستطيع تبديله متى شاء. كان يبدو لي آنذاك أنني موجود على نحو ما يوجد الآخرون وأنني سأشيخ وأموت على غرارهم وأنني كنت فيما بينهم في عداد الذين لا يملكون ميلاً إلى الكتابة فحسب. وكنت لذلك أتخلى نهائياً عن الأدب وقد خارت عزائمي على الرغم من التشجيع الذي بذله لي «بلوك». وكان هذا الشعور الحميم المباشر الذي فيّ عن عدم فكري يطغى على جميع عبارات الإطراء التي يمكن أن تغدق عليّ كما يطغى وخز الضمير لدى رجل شرير يمتدح الجميع أعماله الخيرة.

وقالت لي أمي ذات يوم: «ما دمت تتحدث دوماً عن السيدة «دو غيرمانت» وبما أن الدكتور «بيرسبييه» قد عالجها خير علاج لأربع سنوات خلت، فإنها ستجيء إلى «كومبريه» لحضور زواج ابنتها وتستطيع أن تشاهدها في الاحتفال». وكان الدكتور «بيرسبييه» أكثر من سمعته يتحدث عن السيدة «دو غيرمانت»، وقد أرانا عدد مجلة مصورة كانت ممثلة فيها بالثوب الذي كانت ترتديه في حفلة راقصة تنكرية في منزل الأميرة «دو ليون».

وفي أثناء القداس المقام بمناسبة الزواج سمحت لي فجأة حركة قام بها المرافق وهو يبدل مكانه أن أبصر سيدة شقراء، ذات أنف كبير وعينين زرقاوين حادتين وربطة عنق منفوشة من حرير خبازي مالس جديد لماع وحبة صغيرة في زاوية أنفها، تجلس في أحد الهياكل. ولأنني كنت أميّز على صفحة وجهها الأحمر، وكأنما اشتد عليها الحر، نتفاً تذوب فيه وتكاد لا تدرك، نتفاً من التشابه مع الرسم الذي أروني إياه، وعلى وجه الخصوص لأن الملامح الخاصة التي ألاحظها فيها لو حاولت التعبير عنها

لتمت صياغتها بالضبط بالعبارات نفسها: الأنف الكبير والعينين الزرقاوين، العبارات التي استخدمها الدكتور «بيرسبييه» حينما وصف أمامي دوقة «غيرمانت»، قلت في نفسي: «هذه السيدة تشبه السيدة «دو غيرمانت»، وكان الهيكل الذي تحضر القداس فيه هيكل «جيلبير الشرير» الذي كان يرقد تحت قبوره المسطحة المذهبة المشدودة كنخاريب العسل كونتات «برابان» السالفون والذي كنت أذكر أنه مخصص فيما قيل لي لأسرة «غيرمانت» إن جاء أحد أعضائها لاحتفال في «كومبريه»؛ ولم يكن على الأرجح سوى امرأة واحدة تشبه رسم السيدة «دو غيرمانت» وقد حضرت في ذلك اليوم، الذي ينبغي بالضبط أن تجيء فيه، إلى هذا الهيكل: إنها هي! لقد كانت خيبتي كبيرة، ومردها أنني لم أنتبه قط حينما كنت أفكر بالسيدة «دو غيرمانت» إلى أنني أتمثلها بألوان سجادة أو زجاج ملون وفي قرن آخر وعلى نحو يختلف عن باقي الشخصيات الحية. ولم يدر ببالي قط أنه يمكن لها أن تحمل وجهاً أحمر وربطة عنق خبازية مثل السيدة «سازيرا» وقد ذكرتني استدارة خديها إلى حد بعيد بأشخاص رأيتهم في البيت حتى خالجني الشك، ولكنه تبدد في الحال، بأن هذه السيدة ربما لم تكن في مبدئها المولّد وفي جميع ذرات جسمها دوقة «غيرمانت» في جوهرها وأن جسدها الذي يجهل الاسم يطلق عليه إنما يعود لنموذج أنثوي معين يتضمن إلى جانبها نساء أطباء وتجار. «إنها السيدة «دو غيرمانت» ولا يمكن إلا أن تكون كذلك!». حسبما يقول الوجه المتأمل المذهول الذي كنت أتأمل به هذه الصورة التي لا صلة لها بالطبع إطلاقاً بالصور التي ظهرت لي تحمل اسم السيدة «دو غيرمانت» نفسه لمرات عديدة في أحلامي لأنها هي لم تتشكل كالأخريات تشكّلاً اعتباطياً في خاطري ولكنها وضحت في عيني للمرة الأولى منذ لحظة فقط في الكنيسة، ولم تكن من الطبيعة نفسها ولا هي تتلوّن ما شئنا لها كاللواتي يتشرّبن لون مقطع برتقالي، ولكنها حقيقية حتى ليؤكد كل شيء وحتى هذه الحبة المتوهجة في زاوية أنفها خضوعها لقوانين الحياة مثلما تكشف في

ذروة المجد المسرحي ثنية فستان الجنية وارتجافة خنصرها عن الحضور المادي لممثلة حية حيث كنا نحار إن لم يكن ما يبدو أمامنا محض رشق ضوئي.

بيد أني كنت أحاول في الوقت نفسه أن ألصق بهذه الصورة التي علقها في ناظري الأنف البارز والعينان الحادتان (لأنهما ربما كانا أول ما بلغ ناظري وحفر فيه الثلم الأول حينما كان لا يتوافر بعد لي الوقت في التفكير بأن المرأة التي تظهر أمامي يمكن لها أن تكون السيدة «دو غيرمانت») الفكرة القائلة بأنها السيدة «دو غيرمانت» دون أن أفلح إلا في تحريكها قبالة الصورة كمثل أسطوانتين تفصل بينهما مسافة. على أن السيدة «دو غيرمانت» هذه التي كثيراً ما حلمت بها قد اكتسبت الآن، وقد تبينت أنها موجودة فعلاً خارج ذاتي، سيطرة أعظم من ذي قبل على مخيلتي التي أخذت، وقد شلّت لفترة بملامسة واقع شديد الاختلاف عما تتوقع، أخذت تتحرك وتقول لي: «كان لأسرة «غيرمانت»، وقد أحاطت بها الأمجاد من قبل «شارل الكبير»، حق الحياة والموت على أتباعها. إن دوقة «غيرمانت» تنحدر من «جنفييف دو برابان»، وهي لا تعرف، ولا ترضى بأن تعرف أياً من القوم الموجودين هنا».

ثم - ويا لروعة استقلال الألحاظ البشرية التي يشدها إلى الوجه رباط رخو طويل مطاط إلى حد أنّها تستطيع أن تجول وحدها بعيدة عنه! - بينما كانت السيدة «دو غيرمانت» تجلس في الهيكل فوق أضرحة موتاها كانت ألحاظها تتنقل ههنا وهناك وتتسلق الأعمدة وتتوقف حتى عليّ كمثل شعاع شمس يتيه في صحن الكنيسة ولكنه شعاع شمس بدا لي واعياً لحظة لامسني. فأما السيدة «دو غيرمانت» نفسها فقد استحال عليّ، وقد ظلّت لا تبدي حراكاً وهي تجلس كأم تبدو وكأنها لا ترى وقاحات أولادها وخبثهم وأعمالهم غير اللائقة إذ يلعبون وينادون أشخاصاً لا تعرفهم، أن أتبين إن كانت تقر أو تشجب شرود ألحاظها عبر فراغ نفسها.

ورأيت من الأهمية بمكان أن لا تغادر قبل أن يتاح لي النظر إليها

على نحو كافٍ، إذ تذكّرت أنني كنت أعد منذ سنين مرآها أمنيةً غالية فما أصرف عيني عنها كما لو استطاعت كل واحدة من نظراتي أن تحمل معها مادياً صورة الأنف البارز والوجنتين الحمراوين، وجميع هذه الخصائص التي كانت تبدو لي بمثابة معلومات ثمينة وأصلية وفريدة حول وجهها، وتخزنها في صدري. والآن وقد أخذت جميع الأفكار التي أردها إليه تحملني على أن أراه جميلاً - وربما على وجه الخصوص تلك الرغبة التي فينا على الدوام في ألا نُخَيّب، وهي صيغة من غريزة استبقاء أفضل الأجزاء فينا - وعدت أضعها (بما أنها ودوقة «غيرمانت» هذه التي ذكرتها حتى ذاك إنما تؤلفان شخصاً واحداً) خارج دائرة باقي البشرية التي حملتني محض رؤية جسمها على أن أدخلها للحظة في صفوفها، فقد أخذت أغتاظ لسماع من يقول من حولي: «إنها خير من السيدة «سازيرا» ومن الآنسة «فانتوي»، كما لو أمكنت مقارنتها بهما. كانت نظراتي تتوقف على شعرها الأشقر وعينيها الزرقاوين وأول عنقها فأتناسى الملامح التي ربما استطاعت أن تذكرني بوجوه أخرى وأصرخ أمام هذه الخطوط التي تعمدتها غير كاملة قائلاً: «ما أجملها! وأي نبل فيها! وإلى أي حد تبدو من سلالة «غيرمانت» الأبية وسليلة «جنفييف دوبرابان» تلك الماثلة أمامي».

وكان الانتباه الذي أنير به وجهها يعزله إلى الحد الذي يستحيل عليّ معه اليوم إن عدت أفكر في هذا الاحتفال أن أرى أياً كان الأشخاص الذين حضروه فيما عداها هي والقندلفت الذي ردّ بالإيجاب حينما سألته إن كانت تلك السيدة «دو غيرمانت». ولكني في ما يخصها أعود فأراها على وجه الخصوص لحظة الطواف في «السكرستيّا»[1] التي كانت تنوّرها الشمس المتقطعة الدافئة ليوم رياح وعواصف والتي كانت تقفد فيها السيدة «دو غيرمانت» وسط جميع هؤلاء القوم من «كومبريه» الذين لا تعرف حتى

---

(١) غرفة ملحقة بالكنيسة تحتوي كلّ ما يستخدم في طقوس العبادة.

أسماءهم والذين كان يشهد تدني مستواهم بتفوقها الكبير إلى حدّ تحس معه إزاءهم بعطف صادق وتأمل على أي حال أن تزيد من هيبتها لديهم بالمغالاة في اللطف والبساطة. ولأنها لا تستطيع أن ترسل هذه النظرات المتعمدة المحملة بدلالة واضحة التي نخص بها واحداً ممن نعرفهم، بل تكتفي بأن تدع لأفكارها الشاردة أن تنطلق دون توقف أمامها في فيض من الضياء الأزرق لا تستطيع أن تحدّ منه فقد كانت لا تريد أن يورث الإزعاج وأن يبدو وكأنه يزدري هؤلاء القوم المساكين الذين يصادفهم في تنقله والذين يقع عليه في كل لحظة. وإني لا أزال أرى فوق ربطة عنقها الخبازية الحريرية المنفوشة عذوبة ذهول عينيها الذي أضافت إليه ابتسامة الإقطاعية الخجلى التي تبدو وكأنها تعتذر من أتباعها وتعرب عن حبها لهم، ولكن دون أن تتجرأ وتخص أحداً بها كيما يتمكن الجميع من أخذ نصيبهم منها. وحطت هذه الابتسامة عليّ أنا الذي لم تفارقها عيناي. حينذاك قلت في نفسي وأنا أتذكر تلك النظرة التي سمحت لها أن تتوقف عليّ في أثناء القداس زرقاء كشعاع شمس اجتاز الزجاج الملون الذي رسم عليه «جيلبير لوموفيه»: «لا ريب أني لفتّ انتباهها». وظننت أنني قد حسنتُ في عينيها وأنها سوف تظل تفكر بي بعدما تغادر الكنيسة وأنها سوف تكون حزينة بسببي في المساء في «غيرمانت». فكنت في الحال أحبها لأنه إن كان يكفي أحياناً كيما نحب امرأة أن تنظر إلينا بازدراء كما ظننت أن الآنسة «سوان» فعلت وأن نحسب أنها لن تكون ملكنا في يوم، فإنه يكفي أحياناً أن تنظر إلينا بعطف كما تفعل السيدة «دو غيرمانت» وأن نحسب أنه يمكن أن تكون ملكنا. كانت عيناها تتخذان لوناً أزرق من زرقة زهرة عناق يستحيل قطفها ولكنها ربما قدمتها لي مع ذلك. وكانت الشمس التي تهددها سحابة ولكنها لا تزال ترسل أشعة محرقة فوق الساحة وداخل السكرستيا تضفي لون الجيرانيوم على السجاد الأحمر الذي فرشوا به أرضها بمناسبة العيد والذي كانت تتقدم عليه السيدة «دو غيرمانت» مبتسمة وتضيف إلى صوفه زغباً وردياً وقشرة رقيقة من الضياء، هذا الضرب من

الرقة والعذوبة الجادة في الجلال والفرح اللذين يطبعان بعض صفحات «**لوهانغرين**» (*Lohengrin*) وبعض لوحات «كارباتشيو» (Carpaccio) وندرك بهما أن يكون «بودلير» قد استطاع إضفاء «العذوبة» على صوت البوق.

وكم بدا لي منذ ذلك اليوم في نزهاتي من جهة «غيرمانت» أبعث على الغم من ذي قبل أن أشعر بميول أدبية وأن أضطر إلى التخلي عن أمل أن أصبح كاتباً مشهوراً ذات يوم! وكان الأسف الذي أعانيه من جراء ذلك فيما أظلّ وحيداً وأنا أحلم على انفراد يبعث فيّ من الألم قدراً عظيماً يتوقف به عقلي، لكي لا أحسّ بهذا الأسف من بعد، تلقائياً من جراء ضرب من الكبت أمام الألم، يتوقف كلياً عن التفكير بالأشعار والروايات وبمستقبل شعريّ يحول غياب الموهبة دون أن آخذه في اعتباري. حينئذ، وبعيداً عن جميع هذه الاهتمامات الأدبية بما لا يرتبط بشيء فيها، كان يستوقفني فجأة سطح ووهج الشمس على حجر ورائحة طريق، وذلك من جراء لذة خاصة تولدها فيّ، ولأنها كانت تبدو إلى ذلك وكأنها تخبئ خلف حدود ما أرى شيئاً تدعوني أن أبادر إلى أخذه ولا أستطيع، على الرغم من جهودي، اكتشافه. وبما أني كنت أحس أن ذلك موجود فيها كنت أمكث هنالك لا أبدي حراكاً أتطلع وأستنشق وأحاول أن أذهب بفكري إلى ما وراء الصورة أو الرائحة. فإن انبغى لي اللحاق بجدي أو متابعة طريقي كنت أحاول العودة إليها وأنا أطبق عينيّ؛ وكنت أسعى إلى أن أتذكر بالضبط خط السطح ولون الحجر وقد بديا لي، دون أن أتمكن من إدراك السبب، مليئين وعلى وشك أن ينشقا ويجودا بما كانا محض غطاء له. وما كان لانطباعات من هذا القبيل بالتأكيد أن ترد لي الأمل الذي فقدته في أن أستطيع يوماً أن أصبح كاتباً وشاعراً لأنها كانت ترتبط على الدوام بموضوع خاص خلو من أية قيمة فكرية ولا يتعلق بأية حقيقة مجردة. ولكنها حتى كانت تمنحني على الأقل متعة لا تخضع لقوانين العقل وتوهّمَ ضرب من الخصوبة فتصرفني بذلك عن الملل وعن الشعور

بالعجز اللذين عانيت منهما في كل مرة بحثت فيها عن موضوع فلسفي لأثر أدبي كبير. ولكن واجب الضمير كان شاقاً جداً ذلك الذي تفرضه علي انطباعات الشكل أو العطر أو اللون هذه في محاولةِ تبين ما يختبئ خلفها حتى إنّي ما ألبث أن أبحث لنفسي عن أعذار تسمح لي بالتحرر من هذه الجهود وبتجنيبي هذا التعب. ولحسن حظي كان أهلي ينادون عليّ وأشعر أني ما كنت أملك آنها الطمأنينة اللازمة لأتابع بحثي على نحو مفيد وأنه من الأولى ألّا أفكر فيه حتى أعود وألّا أجهد نفسي سلفاً دون جدوى. وكنت حينئذ لا أهتم من بعد بهذا الشيء المجهول الذي يلف نفسه في شكل أو رائحة وأنا مطمئن أتم الاطمئنان لأنني كنت أنقله إلى المنزل يحميه غطاء الصور الذي سأجده تحته نابضاً بالحياة كمثل الأسماك التي كنت أنقلها في سلتي في الأيام التي يسمحون لي فيها بالذهاب إلى الصيد وقد غطيتها بطبقة من العشب تحافظ على طراوتها. وما إن أصل البيت حتى أفكر بأمر آخر، وهكذا يتكدس في فكري (كما تتكدس في غرفتي الأزهار التي قطفتها في نزهاتي أو الأغراض التي أُعطيتها) حجر يلهو عليه شعاع، وسطح، ورنة جرس، ورائحة أوراق وهي صور كثيرة مختلفة ماتت الحقيقة المستشفة تحتها منذ زمن بعيد ولم أملك قدراً من الإرادة كافياً لأتوصل إلى اكتشافها. بيد أنه وافاني ذات مرة - امتدت فيها نزهتنا إلى أبعد من دوامها المعتاد وسعدنا جداً أن لقينا في منتصف طريق العودة وفي أواخر ما بعد الظهر الدكتور «بيرسبييه» الذي كان يمر في عربته وقد أطلق العنان للجياد فعرفنا وأصعدنا معه - انطباع من هذا القبيل ولم أتخل عنه دون أن أتعمق فيه قليلاً. فقد أشاروا عليّ بالصعود إلى جانب الحوذي وكنا نمضي كالريح لأنه كان على الدكتور «بيرسبييه» أن يتوقف قبل العودة إلى «كومبريه» في «مارتنفيل لوسيك» لدى مريض تمّ الاتفاق أن ننتظره على بابه. وأحسست فجأة في منعطف طريق بهذه المتعة الخاصة التي لا تشبه أية متعة أخرى في مشاهدة قبتي جرسية «مارتنفيل» وعليها ترسل الشمس الغاربة أشعتها وتبدو حركة العربة

وتعرجات الطريق وكأنها تبدل من موقعهما، ثم قبة جرسية «فيوفيك» الذي تفصله عنهما تلة ووادٍ ويقع على تلة أعلى في البعيد ويبدو مع ذلك شديد القرب منهما.

وكنت أشعر فيما ألاحظ وأدوّن شكل السهم فيها وتنقّل خطوطها وامتلاء صفحتها بضياء الشمس أنني لم أبلغ حدّ انطباعي وأن أمراً ما يكمن خلف هذه الحركة وخلف هذا الضياء، يبدوان وكأنّهما يحويانه ويخفيانه في آنٍ معاً.

وكانت قبب الجرسيات تبدو بعيدة جداً فيما نبدو وكأنّنا لا نقترب منها إلا قليلاً جدّاً حتى أصابتني الدهشة بعد لحظات حينما توقفنا أمام كنيسة «مارتنفيل». وما كنت أعلم سبب المتعة التي أصبتها من جرّاء رؤيتها في الأفق فيبدو لي وجوب محاولة اكتشاف هذا السبب شاقاً جدّاً. كنت أرغب في خزن هذه الخطوط المتحركة تحت الشمس في رأسي وألّا أفكر فيها الآن من بعد. ومن المرجّح أنني لو فعلت ذلك للحقت قبّتا الجرسية إلى الأبد بالكثير من الأشجار والسطوح والعطور والأصوات التي كنت قد ميّزتها عن غيرها بسبب هذه المتعة المبهمة التي وفرتها لي ولم أعمّقها البتّة. ونزلت أتحدّث مع ذويّ بانتظار الدكتور. ثم عاودنا السير واتّخذت مكاني ثانية على المقعد وأدرت رأسي لأرى القباب مرّة أخرى وعدت فلمحتها مرّة أخيرة في منعطف طريق. ولما بدا أن الحوذيّ غير مستعد للتحدّث إذ كاد لا يجيب على أقوالي رأيتني مضطرّاً لغياب الرفيق أن أنكفئ إلى رفقة ذاتي وأحاول تذكّر قبابي. وبعد قليل تمزّقت خطوطها وصفحاتها المشمسة كما لو كانت نوعاً من القشرة، وظهر لي بعض ممّا كان مختبئاً فيها ووردتني فكرة لم تكن موجودة لديّ في اللحظة السابقة وانصاغت كلمات في رأسي وإذا بالمتعة التي وفّرتها لي رؤيتها قبل لحظة قد ازدادت إلى حدّ لم أستطع معه أن أفكِّر بأمر آخر وقد أُخِذْتُ بضرب من النشوة. وقد لمحتهما من جديد في تلك اللحظة وأنا أدير رأسي بعدما ابتعدنا عن «مارتنفيل» فإذا هما شديدا السواد هذا المرّة لأنّ الشمس كانت

غائبة. وكانت منعطفات الطريق تحجبهما أحياناً ثم ظهرا مرّة أخيرة لم أرهما بعدها.

ودون أن أحدّث نفسي بأن ما يختفي خلف قبّتي أجراس «مارتنفيل» ينبغي أن يكون شيئاً يشبه جملة حلوة بما أنّ الأمر بدا لي على هيئة كلمات تبعث المتعة في أوصالي، طلبت من الدكتور قلماً وورقة وألفت على الرغم من اهتزاز العربة وكيما أريح ضميري وأنصاع لحماستي المقطوعة القصيرة التالية التي عثرت عليها مذ ذاك والتي لم أدخل عليها إلا بعض التعديلات:

«وحدهما قبّتا جرسية «مارْتنفيل» ترتفعان فوق صفحة السهل وكأنّهما تائهتان في السهول المستوية وتصعدان نحو السماء. وبعد قليل أبصرنا ثلاث قباب: فقد لحقت بهما قبّة متأخرة، هي قبّة جرسية «فيوفيك»، وجاءت في دورة سريعة وجريئة فأقامت قبالتهما. كانت الدقائق تنقضي ونحن نمضي مسرعين ومع ذلك ظلّت قباب الجرسياتالثلاث على الدوام أمامنا في البعيد كثلاثة طيور حطّت في السهل لا تتحرّك ونتبيّنها في الشمس. ثمّ انتحت قبّة جرسية «فيوفيك» جانباً وابتعدت ومكثت قبّتا «مارتنفيل» وحيدتين تنيرهما أشعّة الشمس الغاربة التي كنت أراها حتى على تلك المسافة تلهو وتبتسم على جنباتها. وكنت أفكّر، لشدّة ما صرفنا من الوقت للاقتراب منهما، بالوقت اللازم لبلوغهما حينما وضعتنا العربة فجأة بعدما انعطفت على حضيضهما، وقد ارتمتا أمام العربة بخشونة كبيرة حتى لم يتّسع لنا إلّا وقت التوقّف كي لا نصطدم بالبوّابة. وتابعنا سيرنا. كنّا قد غادرنا «مارتنفيل» منذ وقت قصير والقرية غابت عنّا بعدما رافقتنا لبضع ثوانٍ وظلّت قبّتا جرسياتها وقبّة «فيوفيك» وحيدة في الأفق ترقبنا في هربنا وتلوّح بقممها المشمسة بمثابة وداع. وكانت إحداهما تغيب أحياناً لتتمكّن الأخريان من رؤيتنا لحظة أخرى. ولكن الطريق بدّلت اتّجاهها، فانعطفت القباب في النور وكأنّها ثلاثة محاور ذهبيّة وغابت عن ناظري، ولكنّي لمحتها فيما بعد إذ أصبحنا على مقربة من «كومبريه» والشمس قد

غابت الآن، لمحتها للمرّة الأخيرة في البعيد البعيد وقد أصبحت وكأنّها ثلاث زهرات خُطَّتْ على صفحة السماء فوق خطّ الحقول. وكانت تذكّرني أيضاً بفتيات الأسطورة الثلاث وقد تُركن في مكان مهجور حلّ فيه الظلام. وفيما كنا نبتعد مسرعين رأيتها تبحث خجلى عن دربها ثم هي تتراصّ بعد تعثّر ظلالها الكريمة الواحدة إلى جانب الأخرى وتنزلق الواحدة خلف الأخرى حتى لا تؤلّف على صفحة السماء التي لا تزال ورديّة اللون سوى شكل وحيد أسود ساحر مستسلم، ثم تمّحي في الليل».

ولم أعد إلى التفكير بهذه الصفحة في يوم، ولكنني في تلك اللحظة، وبعدما أتيت على كتابتها في زاوية المقعد الذي تعوّد حوذيّ الدكتور أن يضع فيها في سلّة الطيورَ التي اشتراها من سوق «مارتنفيل»، وجدتني سعيداً جدّاً وأحسست أنّها خلّصتني تماماً من هذه القباب وما تخبّئه خلفها حتى إنّي أخذت أغنّي بأعلى صوتي كما لو كنت دجاجة وأتيت على وضع بيضة.

لقد استطعت في هذه النزهات أن أحلم طوال النهار باللذة التي سوف أجنيها في أن أكون صديق دوقة «غيرمانت» وأصيد سمك التروتة وأتنزه في قارب على نهر «الفيفون» وأن لا أطلب من الحياة في تلك اللحظات، وبي نهم إلى السعادة، سوى أن تتألّف على الدوام من تتابع ظهيرات سعيدة. ولكنّي ما إن ألمح عن طريق العودة إلى اليسار مزرعة كانت على بعد كافٍ من اثنتين أخريين متقاربتين جداً على العكس، ومنها لا يظلّ علينا للدخول إلى «كومبريه» إلّا أن نسلك ممرّاً من أشجار السنديان تحيط به من جانب واحد منها مروج يعود كل واحد منها لكرم صغير وقد زرعت على أبعاد متساوية بأشجار التفاح التي تلقي عليها، حينما تضيئها أشعة الشمس الغاربة، رسوم ظلالها اليابانية، حتى يأخذ قلبي فجأة بالخفقان، فقد كنت أعلم أنّنا سنكون وصلنا قبل نصف ساعة وأنّهم سيبعثونني، كما هي القاعدة في الأيّام التي كنّا نذهب فيها من جهة «غيرمانت» والتي يقدّم فيها العشاء متأخراً، إلى النوم حالما أنتهي من احتساء الشوربة حتى إن والدتي

لن تصعد لتتمنّى لي ليلة سعيدة في سريري وقد مكثت على المائدة وكأن هنالك مدعوين إلى العشاء. كانت منطقة الاغتمام التي دخلتها منذ قليل متميّزة عن المنطقة التي اندفعت فيها فرحاً منذ لحظة فقط مثلما تنفصل في بعض مناطق السماء قطعة ورديّة اللون عن قطعة خضراء أو أخرى سوداء بخطّ فاصل. فترى عصفوراً يطير في الحيّز الورديّ وسيبلغ عمّا قليل نهايته، إنّه على وشك بلوغ الحيّز الأسود ثم هو يغيب فيه. فالرغبات التي كانت تحاصرني منذ هنيهة في الذهاب إلى «غيرمانت» والسفر والسعادة كنت الآن خارج دائرتها ولعلّ تحقيقها ما كان ليوفّر لي أيّة متعة. وَلَكَمْ رغبت لو أجود بكلّ ذلك مقابل أن يتيسّر لي البكاء طوال الليل بين ذراعي أمي! كنت أرتعش ولا أصرف عينيّ القلقتين عن وجه أمي التي لن تظهر هذا المساء في غرفتي التي أرى نفسي مذ ذاك فيها بالفكر، وودت لو أموت. لسوف تدوم هذه الحال حتى الغد حينما تسند أشعة الشمس في الصباح، كما يفعل البستاني، قضبانها إلى الجدار المكسوّ بزهر السلبوت الذي يتسلقه حتى نافذتي فأقفز من سريري أرضاً لأنزل سراعاً إلى الحديقة دون أن أتذكّر بأنّ المساء سوف يعيد في يوم ساعة فراق والدتي. وهكذا كان أن تعلمت من جهة «غيرمانت» كيف أميّز بين هذه الحالات التي تتوالى في نفسي في أثناء بعض الفترات وتبلغ حد تقاسم كلّ نهار فتعود الواحدة لتطرد الأخرى بدقّة مواعيد الحمّى. إنّها متجاورة ولكنّها غريبة فيما بينها وتخلو من أية وسيلة تواصل بينها حتى إني لا أستطيع أن أدرك أو حتى أتطوّر في إحداها ما رغبت فيه أو خشيت منه أو أنجزته في الأخرى.

ولذلك تظلّ جهة «ميزيكليز» وجهة «غيرمانت» ترتبطان بالنسبة إليَّ بطائفة من الأحداث من الحياة التي هي من بين مختلف الحيوات التي نعيشها على نحو متوازٍ أكثرها امتلاءً بالحوادث، عنيت الحياة العقلية. فإنّها تتقدم فينا دون شكّ تقدماً غير ملحوظ وإنّ الحقائق التي غيّرت في نظرنا معناها ومظهرها والتي فتحت أمامنا دروباً جديدة إنّما كنا نُعِدّ

لاكتشافها منذ زمن بعيد، ولكن دون علم منّا، فهي لم تبدأ بالنسبة إلينا إلّا منذ اليوم، منذ الدقيقة التي أصبحت واضحة في نظرنا. فالأزهار التي كانت تلهو حينذاك فوق العشب والماء الذي كان يجري تحت الشمس، إن كامل المنظر الذي أحاط بتجلّيها إنّما يستمرّ في مرافقة ذكراها بوجه اللاواعي أو الشارد. وما كان بالتأكيد لزاوية الطبيعة هذه ولهذا الجزء الصغير من الحديقة أن يتبادر إليهما، حينما يتأمّلهما طويلاً عابر السبيل المتواضع هذا، هذا الطفل الحالم - مثلما يتأمّل المؤرّخ الضائع في صفوف الجمهور ملكاً - أنّهما سوف يكتب لهما البقاء بفضله في أكثر خصائصهما سرعة زوال؛ ومع ذلك فإن عطر زهرة الزعرور هذا الذي يتنقّل على امتداد السياج والذي سيحلّ محلّه النسرين عمّا قليل، وضجّة خطى لا يتردّد لها صدى على حصباء الممرّ وفقاعة تتشكل على نبتة مائيّة بفضل ماء النهر ثم تنفجر في الحال، كلّها حملتها حماستي وأفلحت في جعلها تجتاز الكثير من السنين المتعاقبة في حين امّحت من حولها الدروب ومات من داسوها بأقدامهم وذهب ذكر من داسوها بأقدامهم. وإن وصل هذا المنظر الجزئيّ إلى يومنا على هذا النحو فإنّه ينفصل أحياناً وهو في عزلة عن الكلّ الباقي حتى ليطفو مبهماً على صفحة فكري كمثل «ذيلوس»[1] مزهرة ودون أن يسعني القول من أي بلد ومن أي زمن - وربّما بكل بساطة من أي حلم - يجيئني. على أنه ينبغي لي على وجه الخصوص التفكير في جهة «ميزيكليز» وجهة «غيرمانت» بوصفهما مناجم عميقة في أرض فكري والحقول الصلبة التي لا أزال أستند إليها.

ولأني كنت أؤمن بالأشياء والكائنات حينما كنت أطوف فيهما، فإنّ الأشياء والكائنات التي عرّفتاني بها لا تزال الوحيدة التي آخذها على محمل الجدّ ولا تزال توفّر لي المسرّة. وسواء أكان الإيمان الذي يبدع قد جفّ فيّ أم أنّ حقيقة الواقع لا تتشكّل إلّا في الذاكرة، فإن الأزهار التي

(١) أصغر جزر السيكلاديس اليونانية حيث معبد «ابولون» الشهير.

تُعْرَضُ عليّ اليوم للمرّة الأولى لا تبدو لي أزهاراً حقيقية. إن جهة «ميزيكليز» بليلكها وزعرورها وزهرها الأزرق وشقائقها وتفاحها، وجهة «غيرمانت» بنهرها المليء بأفراخ الضفادع ونيلوفرها الأبيض وأزرارها الصفر قد شكّلتا إلى الأبد في نظري شكل البلاد التي أحب العيش فيها والتي أصرّ قبل كل شيء أن يستطيع المرء فيها الذهاب إلى صيد السمك والتنزّه في قارب ورؤية آثار حصون قوطيّة وأن يجد وسط القمح كنيسة ضخمة ريفيّة مذهبة كأكداس القمح مثلما كانت كنيسة «سانت آندري دي شان». وإنّ الأزهار الزرقاء والزعرور وأشجار التفاح التي يتّفق لي في أسفاري أن ألقاها في الحقول لتتواصل في الحال مع فؤادي لأنها واقعة على العمق نفسه وفي مستوى ماضيّ. ومع ذلك، ولأن في الأماكن شيئاً تتفرّد به، حينما تعصف بي الرغبة أن أعود لأرى جهة «غيرمانت» فإنّه لا يتمّ إشباعها بأن أُقاد إلى ضفة نهر أجد فيها نيلوفراً في مثل جمال نيلوفر «الفيفون» بل ويفوقه، كما أنّي لدى عودتي في المساء - ساعة يستيقظ في نفسي هذا الضيق الذي يهاجر فيما بعد إلى تخوم الحبّ ويمكن أن لا ينفصل عنه البتّة - ما تمنيّت أن تجيء أمّ أجمل وأذكى من أمي لتتمنّى لي ليلة سعيدة، لا. كما أن ما كان ينبغي لي كي أستطيع النوم سعيداً وبي ذلك الهدوء الذي لا اضطراب فيه والذي لم تستطع عشيقة مذ ذاك أن توفّره لي لأنّك لا تزال ترتاب منهن لحظة تؤمن بهنّ وأنّك لا تمتلك البتّة فؤادهنّ مثلما يوافيني فؤاد أمي في قبلة كاملاً لا تنتقص منه فكرة مضمرة ولا يظلّ منه مقصد غير موجّه إليّ - إنّ ما كان ينبغي لي أن تكون هي نفسها، أن تحني فوق هذا الوجه الذي يحمل تحت العين شيئاً كان فيما يبدو عيباً وكنت أحبه كسواه. كذلك ما أريد أن أراه ثانية إنما هو جهة «غيرمانت» التي عرفتها مع المزرعة التي تبعد قليلاً عن المزرعتين الأخريين المتراصتين على مدخل الممرّ المحاط بالسنديان؛ إنها تلك المروج التي ترتسم عليها أوراق التفاح حينما تجعلها الشمس عاكسة كبركة ماء؛ إنّه ذلك المنظر الذي تتملّكني في أحلامي الليلية ميزته الفرديّة بقوّة

تقارب السحر ولا أستطيع العثور عليه في اليقظة. إن جهة «ميزيكليز» أو جهة «غيرمانت» عرضتاني فيما بعد للكثير من خيبات الأمل ولبل للكثير من الأخطاء، لأنّهما قرنتا فيّ بلا ريب إلى الأبد على نحو لا ينفصم انطباعات مختلفة للأمر إلا لأنهما جعلتاني أعانيها في الوقت نفسه. فغالباً ما وددت أن أرى إنساناً لمرّة ثانية دون أن أتبيّن أن السبب يكمن في أنّه يذكّرني فحسب بسياج زعرور، كما ساقتني محض رغبة في السفر إلى الاعتقاد بمزيد من الحنان، وسقت سواي إلى الاعتقاد. لكنّهما إذ تظلان ماثلتين في عدد من انطباعاتي الأخر. وتضيفان إليها كذلك سحراً ودلالة خصصْت بهما وحدي. فحينما تزأر السماء في عشيّات الصيف بصوتها الرخيم وكأنها وحش مفترس ويعبس الجميع في وجه العاصفة، فإنّما أدين لجهة «ميزيكليز» بأن أظلّ وحدي أستنشق مفتوناً عبر صوت المطر الهاطل رائحة ليلك خفيّ ملحاح.

هكذا كنت أمكث مراراً حتى الصباح أفكر في أيام «كومبريه» وبأمسياتي الحزينة التي هجرها النوم وبالعديد من الأيام التي أعاد إليّ منذ وقت قريب صورتها طعمُ كوب شاي - أو ما كانوا يدعونه في «كومبريه» بالعطر - وعن طريق توارد الذكريات ما عرفته بعد سنوات عديدة من مغادرتي لهذه المدينة الصغيرة حول حبّ وقع لِ«سوان» قبل ولادتي بهذه الدقّة في التفاصيل التي يسهل الحصول عليها أحياناً في ما يتعلّق بحياة أشخاص قضوا نحبهم منذ قرون أكثر ممّا يتم ذلك بالنسبة إلى حياة أفضل أصدقائنا والتي تبدو مستحيلة - كما كان يبدو التحدّث من مدينة إلى أخرى مستحيلاً - ما دمنا نجهل الوسيلة التي تمّ بها تخطّي هذه الاستحالة. ولم تعد تشكّل هذه الذكريات وقد انضاف بعضها إلى بعضها الآخر سوى كتلة واحدة، بيد أنّه يمكن أن نميّز فيما بينها - ما بين أكثرها قدماً وما كان منه أقرب عهداً وقد انبعث من عطر. ثم تلك التي كانت مجرّد ذكريات شخص آخر أطلعني هو عليها - إمّا شقوقاً وثغرات حقيقية أو على الأقلّ

هذه العروق وهذه البرقشة في اللون التي تنمّ في بعض الصخور وبعض أنواع المرمر عن اختلاف في المنشأ والعمر و«التكوّن».

وحينما كان يقترب الصباح كانت تلك الحيرة القصيرة التي تنتابني ساعة أستيقظ قد تبدّدت بالتأكيد منذ وقت طويل. فكنت أعلم في أيّة غرفة أقيم بالفعل، وقد أعدت بناءها من حولي في الظلام، لقد أعدت بناءها كاملة - إما بالاتّجاه من طريق الذاكرة وحدها وإمّا مسترشداً بضوء هزيل رأيته فوضعت تحته ستائر النافذة - وأثّثتها مثل مهندس وصانع أثاث يحتفظان للنوافذ والأبواب بفتحتها الأولية وأعدت المرايا إلى مواقعها والخزانة إلى مكانها المعتاد. ولكن ما إن يخطّ النهار - وليس وهج جمرة أخيرة على قضيب نحاس حسبته هو - ما إن يخطّ في الظلام وكأنّما بالطبشور أوّل خطّ أبيض تصحيحي حتى تغادر بستائرها إطار الباب الذي وضعتها فيه خطأً؛ فيما يجرى المكتب الذي وضعته ذاكرتي على نحو غير موفّق هناك بأقصى سرعة كيما يفسح لها مكاناً ويدفع الموقد أمامه ويزيح الحائط الأوسط للممر؛ وكان يقوم فِناء صغير في المكان الذي كان يحتله الحمّام منذ لحظة، وذهب المنزل الذي أعدت بناءه في الظلام ليلحق بالمنازل التي لمحتها في دوّامة استيقاظي، وقد هزمته تلك العلامة الشاحبة التي خطها النهار فوق الستائر بإصبعه المرفوعة.

* * *

مكتبة
t.me/soramnqraa

القسم الثّاني

من حب لـ«سوان»

هنالك شرط كافٍ ولكنّه ضروريّ كيما تصبح في عداد «النواة الصغيرة» بل «الجماعة الصغيرة» بل «العشيرة الصغيرة» لعائلة «فيردوران»: كان لا بدّ من أن تتبنى ضمنيّاً قانون إيمان تنصّ إحدى موادّه على أن عازف البيانو الشاب الذي تناصره السيّدة «فيردوران» في هذا العام والذي كانت تقول عنه: «ليس معقولاً أن يُجَادَ عزف «فاغنر» إلى هذا الحدّ!» قد فاق «بلانتيه» و«روبنشتاين» وأنّ الدكتور «كوتار» يجيد التشخيص خيراً من «بوتان». وكلّ «منتسب جديد» لم تستطيع أسرة «فيردوران» إقناعه بأن أمسيات الذين لا يفدون إلى منازلهم مملّة كالمطر كان يُلفي نفسه مفصولاً في الحال. ولما كانت النساء بهذا الصدد أشدّ تمرّداً من الرجال في التخلي عن كل فضول دنيويّ والرغبة في الاستعلام شخصياً عن مباهج المنتديات الأخرى وإذ شعرت أسرة «فيردوران» من جهة ثانية بأن روح التمحيص تلك وشيطان الطيش يمكن أن يقضيا بالعدوى على أرثوذكسيّة[1] الكنيسة الصغيرة فقد انساقت إلى أن ترفض على التوالي جميع «المؤمنين» الذين من الجنس اللطيف.

فقد اقتصر الخُلّص تقريباً في ذلك العام، فيما عدا زوجة الدكتور

(١) من اليونانية وتعني صحة العقيدة واستقامتها.

الشابّة (مع أن السيّدة «فيردوران» كانت فاضلة ومن عائلة بورجوازيّة محترمة وطائلة الثراء ومغمورة تماماً وقد قطعت شيئاً فشيئاً كلّ علاقة بها)، على امرأة من دنيا الطيش تقريباً كانت السيّدة «فيردوران» تناديها باسمها «أوديت» وتعلن أنّها محبّبة جدّاً، وعلى عمّة عازف البيانو التي لا بدّ أنّها عملت فيما مضى بوّابة، والمرأتان جاهلتان بالناس وقد كان من السهل جداً حملهما على التوهّم بأن الأميرة «دوساغان» ودوقة «غيرمانت» تضطّران إلى دفع المال للمعوزين ليفد بعض الناس إلى حفلات العشاء لديهما وأنه لو عرض على الحاجبة السابقة وعلى المرأة اللعوب أن تُدْعَيا إلى منزل هاتين السيّدتين الجليلتين لرفضتا بازدراء.

أما آل «فيردوران» فلا يدعون إلى طعام العشاء، فإنّك عندهم «من أصحاب البيت». ولا برنامج للسهرة، فعازف البيانو الشاب يعزف، ولكن إن راقه الأمر فقط لأنهم ما كانوا يغضبون أحداً: «كل شيء للأصدقاء، وعاش الرفاق!» على حدّ قول السيّد «فيردوران». فإن أراد عازف البيانو أن يعزف نزهة خيّالة «فالكيري» أو مطلع «تريستان» احتجت السيّدة «فيردوران»، لا لأنّ تلك الموسيقى لا تروقها بل لأنّها على العكس شديدة الوقع عليها. «إنكم تصرّون إذاً على أن يصيبني الصداع؟ فأنتم تعلمون تمام العلم أنّ الأمر لا يتبدّل في كلّ مرّة يعزفها. إني أعرف ماذا ينتظرني! ففي الغد حينما أبغي النهوض لا يظلّ أحد، والسلام!» وإن لم يعزف تجاذبوا أطراف الحديث، وكان أحد الأصدقاء، وهو في أغلب الأحيان الرسام المفضّل لديهم آنذاك، «يطلق مزحة كبيرة يقهقه الجميع لدى سماعها» على حدّ قول السيّد «فيردوران» وبخاصّة السيّدة «فيردوران» التي اضطرّ الدكتور «كوتار» (وهو مبتدئ شابّ آنذاك) أن يردّ ذات يوم فكّها الذي خلعته لشدّة ما ضحكت - لكثرة ما تعودت أن تأخذ العبارات المجازيّة حول الانفعالات التي تحسّ بها بالمعنى الحقيقي.

كان اللباس الرسميّ محرماً لأنّ الأمور تجري بين «الرفاق» وكي لا يتمّ التشبّه «بالمزعجين» الذين يحاذرونهم كما يحاذرون الطاعون والذين لا

يُدْعوْنه إلا في السهرات الكبرى التي تقام أقلّ ما يمكن وإن أدى قيامها فحسب إلى تسلية الرسّام أو التعريف بالموسيقي. وكان يُكتفى باللهو بالحزازير وتناول طعام العشاء بأزياء تنكّريّة، ولكن ذلك مقصور عليهم فلا يَدعُوْنَ لأيّ غريب أن يختلط «بالنواة» الصغيرة.

على أنّه كلما تمّ «للرفاق» أن يحتلوا مكاناً أكبر في حياة السيّدة «فيردوران» أصبح «المزعجون» و«الهالكون» كلّ ما يمسك بالأصحاب بعيداً عنها وما يحول دون أن يكونوا أحياناً أحراراً، فهم أمّ هذا ومهنة ذاك وبيت الثالث الريفي أو سوء صحته. فإن ظنّ الدكتور «كوتار» من واجبه أن يذهب بعد المائدة ليعود إلى جانب مريض في حالة خطرة كانت السيّدة «فيردوران» تقول له: «من يدري، ربّما كان خيراً له بكثير ألا تذهب لإزعاجه في هذا المساء، فسوف يقضي ليلة طيّبة بدونك، ثم تذهب في صباح الغد في ساعة مبكرة فتجده معافى». وكان يصيبها المرض منذ أوائل كانون الأول لدى التفكير بأن الخُلّص «يعطّلون» بمناسبة الميلاد ورأس السنة. وكانت عمّة عازف البيانو تطالب بأن يجيء في ذلك اليوم لتناول وجبة عشاء عائلي في منزل والدتها هي. وصرخت السيّدة «فيردوران» تقول بقسوة:

- «وتظنّين أن والدتك سوف تموت من جرّاء أنّكما لن تتناولا طعام العشاء وإيّاها في رأس السنة، كما هي العادة في الريف!».

وتعود مخاوفها في «أسبوع الآلام»(١) فتقول لِـ«كوتار» في السنة الأولى بلهجة واثقة كأنّما لا تستطيع الشكّ بالجواب: «وأنت يا دكتور، أنت العالم والعقل الراجح، سوف تجيء بالطبع في يوم الجمعة العظيم(٢) كمثل أي يوم آخر؟» ولكنّها ترتجف بانتظار أن يتلفّظ بها لأنّها عرضة لأن تظلّ وحدها إن لم يجئْ.

---

(١) الأسبوع الذي يسبق عيد الفصح لدى المسيحيين.
(٢) يوم الجمعة من أسبوع الآلام.

- «سأجيء في يوم الجمعة العظيم. . . لأودّعك لأنّنا ذاهبون لقضاء أعياد الفصح في مقاطعة «الأوفيرنيي»».

- «في مقاطعة «الأوفيرنيي»؟ لتصبحوا، وفّقكم اللّه، طعمة البراغيث والهوام»! وتضيف بعد لحظة صمت:

- «لو رويتم عن ذلك على الأقلّ لحاولنا تنظيم الأمر والسفر سويّة ضمن شروط مريحة».

ولئن كان كذلك لأحد الخُلّص صديق أو «لواحدة من الروّاد» محبوب قادر أحياناً على «إبعاده» فقد كانت أسرة «فيردوران» تقول، وهي لا تفزع أن يكون لامرأة عشيق بشرط أن يتم ذلك في بيتهم وأن تحبّه فيهم ولا تفضله عليهم: «هيّا، جيئي بصديقك». فيتمّ قبوله تحت الاختبار ليتبيّنوا إن كان قادراً أن لا يخفي شيئاً على السيّدة «فيردوران» وكان قابلاً لأن يُضَمَّ إلى «العشيرة الصغيرة». فإذا لم يكن كذلك أنتُحِي بالوفي الذي قدّمه جانباً وأدّيت له خدمة تعكير علاقاته بالصديق أو العشيقة. أمّا في حالة العكس فيصبح «المستجدّ» بدوره من الخُلّص. ولذلك حينما روت المرأة الماجنة للسيّد «فيردوران» في ذلك العام أنّها تعرفت برجل ظريف يدعى «سوان» وألمحت أنّه سيكون شديد السعادة إن استقبلوه في منزلهم، نقل السيّد «فيردوران» هذه الرغبة إلى زوجته في الحال. (ولم يكن يبدي رأياً إلا بعد زوجته ويقوم دوره الخاصّ على تنفيذ رغباتها ورغبات الخُلّص على حدّ سواء بالكثير من صنوف البراعة).

- ها إن للسيّدة «دو كريسي» أمراً تطلبه منك. فهي راغبة أن تقدّم لك أحد أصدقائها ويدعى السيّد «سوان». فما رأيك؟».

- «ما هذا! أو يستطيع المرء أن يرفض أمراً لجمال محبّب بهذا الكمال؟ اصمتي، فما يُطلب منك أن تبدي رأيك. قلت لك إنّك كاملة الجمال».

وأجابت «أوديت» بلهجة مغناجة: «ما دمت تريدين ذلك»، ثم أضافت: «تعلمين أني لا أجري خلف المديح».

- حسناً جيئي بصديقك إن كان ظريفاً.

لم تكن «النواة الصغيرة» بالتأكيد لتُقاسَ بأيّة حال بالمجتمع الذي كان «سوان» يتردّد عليه، ولعلّ رجال مجتمع أصيلين كانوا يرون أن لا داعي لأن يشغل المرء فيه كما هي حاله مكانة غير عاديّة كما يتم تقديمه لعائلة «الفيردوران». ولكنّ «سوان» كان يحبّ النساء إلى حدّ كبير حتى إنه منذ اليوم الذي عرف فيه جميع نساء الطبقة الأرستقراطيّة على وجه التقريب ولم يعد لديهنّ ما يطلعنه عليه لم يعد يتمسّك بدوره بأوراق التجنّس هذه، وتقرب أن تكون ألقاباً أرستقراطيّة منحه إياها حي «سان جيرمان»، إلّا على أنّها نوع من قيم التبادل ورسالة اعتماد لا ثمن لها بحدّ ذاتها ولكنها تسمح له بأن يرتجل لنفسه مكانة في هذا الحجر الصغير في الريف أو ذلك الوسط المغمور في باريس حيث بدت له ابنة الإقطاعي الصغير أو كاتب المحكمة جميلة. ذلك أنّ الرغبة أو الحبّ كان يعيد إليه آنذاك شعوراً بالاعتزاز بالنفس هو الآن خالٍ منه في تعوده الحياة (مع أنّه هو الذي وجّهه دونما شك فيما مضى إلى هذه الحياة الاجتماعية التي بدّد فيها مواهبه العقلية في الملذات الطائشة وجعل تعمّقه في مادّة الفنّ في خدمة سيّدات المجتمع لإرشادهنّ في مشتريات اللوحات وتأثيث منازلهنّ الخاصّة) وكان يحبّب إليه أن يبرز في عيني امرأة مغمورة وقع أسير حبّها في أناقة لم يكن اسم «سوان» بمفرده ليتضمّنها. وكان يرغب في ذلك على نحو خاصّ إذا كانت المرأة المغمورة من طبقة متواضعة. ومثلما لا يخشى رجل ذكي أن يبدو غبيّاً في عيني رجل ذكي آخر، كذلك لا يخشى رجل أنيق أن يسيء تقدير أناقته سيّد كبير بل رجل غليظ الطباع. فثلاثة أرباع ما ينفق من فكر ويُقال من أكاذيب اعتزاز بالذات، منذ أن وجد العالم، على لسان قوم لا تؤدّي إلا إلى انتقاص مكانتهم، إنما تمّت في سبيل جماعة من طبقة أدنى. وإن «سوان» الذي كان بسيطاً ومهملاً مع إحدى الدوقات كان يرتجف من أن تزدريه خادمة فيتصّنع حينما يقف أمامها.

فلم يكن كالعديد من الناس الذين يمتنعون، عن كسل أو عن تسليم

بالالتزام الذي تقضي به الكرامة الاجتماعية في أن يظل المرء يلازم شاطئاً معيّناً، عن الملذات التي يوفّرها الواقع لهم خارج المكانة الدنيوية التي يعيشون معتكفين داخلها حتى موتهم، ويرتضون أن يسمّوا في النهاية ملذّات، لانعدام توافر ما هو أفضل، التسليات الهزيلة أو صنوف الملل المحتمل الذي تنطوي عليه ما إن يفلحوا في التعوّد عليها. أمّا «سوان» فما كان يبحث عن أن يجد النساء اللواتي يقضي معهن وقته جميلات بل أن يقضي وقته مع النساء اللواتي سبق أن وجدهنّ جميلات، وكن في الغالب نسوة جمالهنّ عاميّ لأنّ الصفات الجسميّة التي كان يبحث عنها دون أن ينتبه للأمر كانت تناقض تماماً تلك التي تضفي الروعة على النساء التي ينحتها أو يرسمها الأساتذة المفضلون لديه. فالملامح العميقة الحزينة كانت تجمّد حواسّه التي يكفي على العكس لإيقاظها لحم معافى وفير متورّد.

وإن كان يلقى أثناء السفر أسرة كان من اللباقة ألا يحاول التعرّف بها وبدت لناظريه فيها امرأة تزدان بسحر لم يعرفه بعد فإنّما يبدو له المكوث في زاويته الخاصّة والتشاغل عن الرغبة التي بعثتها في صدره وإحلال متعة مختلفة محلّ المتعة التي كان من الممكن أن يتعرّفها معها بالكتابة إلى عشيقة قديمة يدعوها للقائه استسلاماً جباناً أمام الحياة وتخلّياً غبيّاً عن سعادة جديدة يساويان اعتزال المرء في غرفته لمشاهدة مناظر من باريس بدلاً من زيارة البلد. فلم يكن يسجن ذاته داخل مبنى علاقاته بل جعل منه نوعاً من هذه الخيام النقّالة، كتلك التي يحملها المستكشفون معهم، وذلك ليستطيع إعادة بنائه بالقرب من مكان العمل بتكاليف جديدة حيثما حَلَتْ في عينه امرأة ولعلّه يقدّم بدون مقابل ما كان منه لا يقبل النقل أو المبادلة بمتعة جديدة مهما بدا ذلك مشتهى في نظر غيره. وكم تخلّص دفعة واحدة من نفوذه لدى دوقة وقد قام على الرغبة التي تراكمت منذ سنين لديها في أن تحلو في عينيه دون أن تجد مناسبة لذلك بأن طالبها في عجالة مفضوحة المقاصد بتوصية برقيّة تسهّل علاقته في الحال مع أحد وكلائها بعدما

استرعت ابنته انتباهه في الريف، مثلما يفعل جوعان يستبدل بماسة قطعة من الخبز! ويبلغ به الأمر بعد فعلته أن يسخر منها لأن به فظاظة يعوض عنها بالقليل من صنوف الرقّة. ثمّ إنّه من هذه الفئة من القوم الأذكياء الذين عاشوا في البطالة والذين يبحثون عن عزاء وربّما عن عذر في الفكرة القائلة بأنّ هذه البطالة إنّما توفّر لعقلهم موضوعات جديرة بالاهتمام مثلما يستطيع أن يوفّر الفنّ أو الدراسة وأنّ «الحياة» تحوي حالات أكثر إثارة وأشدّ خيالية من الروايات كافّة. كان يؤكد ذلك على الأقلّ ويقنع به بسهولة أكثر أصدقائه في المجتمع حسّاً مرهفاً وبخاصة البارون «دو شارلوس» الذي كان يجد تسلية في إسعاده برواية المغامرات المثيرة التي كانت تجري معه، فإمّا أنّه اكتشف بعدما صادف في المطار امرأة جاء بها بعد ذلك إلى منزله أنّها شقيقة عاهل تتشابك بين يديه في هذه اللحظة جميع خيوط السياسة الأوروبية التي يجد أنّه يطّلع عليها هكذا على نحو ممتع جدّاً أو أنّه بسبب تعقّد الظروف إنّما يتوقّف على الانتخاب الذي سيتم على يد المجتمع المقدّس إن كان يستطيع أن يصبح عشيق إحدى الطّباخات أم لا.

ولم يقتصر الأمر على أيّة حال على الفريق اللامع الذي تؤلّفه الموسرات المسنّات الفاضلات والألوية ورجال المجامع اللغوية - وإنّه لتربط «سوان» بهم علاقات وطيدة وكان يرغمهم بكثير من الوقاحة أن يصبحوا سماسرة لديه. فقد تعوّد جميع أصدقائه أن يتلقّوا بين الحين والحين رسائل منه يطلب فيها إليهم كلمة توصية أو تقديم بحذاقة الدبلوماسيين، تلك الحذاقة التي كانت تكشف باستمرارها عبر ضروب العشق المتتالية والذرائع المختلفة عن طباع مستديمة وأهداف متماثلة أكثر مما قد يكشف غياب اللباقة. وغالباً ما نقلوا إلي بعد ذلك بسنوات عديدة، حينما شرعت أهتمّ بطباعه من جرّاء التشابه الذي تبرزه مع طباعي في أجزاء أخرى مغايرة تماماً، أنّه حينما كان يكتب لجدّي (ولم يكن بعد جدّي لأن علاقة «سوان» الكبرى بدأت حوالي الفترة التي ولدت فيها، الأمر الذي عطّل هذه الممارسات فترة طويلة) فإن هذا الأخير كان يصرخ

إذ يتعرّف خطّ صديقه على المغلّف: «ها إنّ «سوان» يزمع أنْ يطلب أمراً، فحذار!» وسواء أكان الأمر من قبيل الحذر أم هو الشعور الشيطاني اللاواعي الذي يدفعنا إلى أنّ لا نقدّم شيئاً إلّا للناس الذين لا يرغبون فيه، فقد كان جدي وجدتي يرفضان رفضاً قاطعاً التوسّلات التي يمكن تلبيتها بأيسر السبل والتي يرفعها إليهما كأن يقدّماه لفتاة كانت تتناول طعام العشاء في المنزل كلّ يوم أحد ويضطرّا في كل مرة يحدّثهما «سوان» عنها أن يتظاهرا بأنّهما ما عادا يريانها في حين نتساءل طوال الأسبوع عمّن يمكن أن ندعوه معها وغالباً ما لا نجد أحداً في النهاية لأنّنا لا نطلب ذلك ممن يسعده الأمر إلى حدّ بعيد.

وأحياناً يعلن هذان الزوجان لجدّي وجدتي بعدما شكيا حتى ذاك من أنّهما لا يريان «سوان» على الإطلاق، يعلنان ببعض الرضى وربّما ببعض الرغبة في إثارة الغيرة أنّه أصبح من أكثر الناس ظرفاً بالنسبة إليهما وأنّه لم يعد يفارقهما. ولا يشاء جدّي تعكير اغتباطهما ولكنه ينظر إلى جدّتي وهو يدمدم:

«أيّ سرّ هو هذا؟
فلست أستطيع إدراك شيء فيه».

أو

«رؤيا عابرة...»

أو

«الأفضل في هذه الأمور ألّا يرى المرء شيئاً».

فإن سأل جدّي صديق «سوان» الجديد بعد بضعة شهور قائلاً: «و«سوان» هذا، ألا تزال تراه كثيراً؟» استطال وجه مخاطبه: «لا تتلفّظ البتّة باسمه في حضرتي!».

- «ولكني ظننت أنكما ترتبطان ارتباطاً وثيقاً...» من ذلك أنّه كان صديق أسرة أبناء عمّ لجدّي يتناول طعام العشاء في منزلهم كلّ يوم تقريباً.

وانقطع فجأة عن المجيء دون إعلام مسبق. فحسبوه مريضاً وكادت ابنة عم جدّتي تبعث في السؤال عن أخباره حينما وجدت رسالة منه في غرفة الخدم ضمن دفتر حسابات الطباخة. وكان يعلن فيها لهذه المرأة أنّه يزمع مغادرة باريس وأنه لن يمكنه المجيء من بعد. لقد كانت عشيقته، فحكم ساعة قطع صلته بها أنّ من المفيد إعلامها هي وحدها بالأمر.

وعندما كانت عشيقة الساعة على العكس امرأة من دنيا المجون أو امرأة لا يحول منبتها المتواضع أو وضع شاذ جدّاً دون أن تظهر معه في المجتمعات حينئذ كان يعود من أجلها ولكن إلى الدائرة الخاصّة التي تتحرك فيها فحسب أو التي استجرها إليها. فيقولون مثلاً: «لا فائدة من ترجّي حضور «سوان» هذا المساء، فإنّك تعلم تماماً أنّ اليوم يوم «أوبرا» صديقته الأمريكية». فكان يعمل على أن تُدعى إلى المنتديات المغلقة جدّاً حيث كانت له عاداته وطعام عشائه الأسبوعي ولعبة «البوكر»؛ وفي كل مساء وبعدما يخفف تنفيش طفيف يضيفه إلى تمرير الفرشاة في شعره الأصهب من حدّة عينيه الخضراوين ببعض ما يجلب من عذوبة، كان يختار زهرة لعروة سترته ويذهب ليلاقي عشيقته على طعام العشاء لدى هذه أو تلك من النسوة اللواتي من جماعته؛ ويعود، إذ يفكّر بما سيغدق عليه رجال المودة الذين يشكل بالنسبة إليهم المطر والصحو والذين سيلقاهم هناك من إعجاب ومودّة في حضرة المرأة التي يحبّها، يعود فيلاقي بهجة في هذه الحياة الطائشة التي أصبح إزاءها لا مبالياً إلا أنّ مادّتها أصبحت تبدو له ثمينة منذ أن أولج فيها حباً جديداً وقد دخلها ولوّنها بالألوان الدافئة وهج تسرب إليها وآخذ يلعب على صفحتها.

وبينما كان كل من هذه العلاقات أو كل من ضروب العشق تلك التحقيق المتكامل إلى حدّ يكثر أو يقلّ لحلم نجم عن رؤية وجه أو جسم وجد «سوان» عفوياً ودون أن يجهد النفس في ذلك أنّهما رائعان فإنه عندما قدّمه أحد أصدقاء الأمس ذات يوم في المسرح لِـ«أوديت دو كريسي» وكان قد حدّثه عنها على أنّها امرأة رائعة ربّما استطاع أن يتوصّل معها إلى أمر

ما، ولكنه وصفها له على أنّها أكثر تمنّعاً مما هي في الواقع وذلك بغية أن يبدو أوفر لطفاً إذ عرّفه بها، بدت لِ«سوان» لا عديمة الجمال بالتأكيد ولكنّها من جمال لا يؤثر فيه ولا يوحي إليه بأيّة رغبة بل يتسبب لديه بنوع من النفور الجسديّ، فكانت في عداد تلك النساء اللواتي يتوافرن لكلّ منّا مختلفات بالنسبة إلى كل واحد واللواتي هن نقيض النموذج الذي تطالب به حواسّنا. فقد كان لها قسمات شديدة البروز وكان جلدها شديد الهشاشة ووجنتاها بالغتا البروز وخطوط وجهها بادية النحول كيما تحلو في عينيه. لقد كانت عيناها جميلتين ولكنّهما في اتّساع ينوءان به تحت حملهما ويشيعان التعب في باقي الوجه ويبرزانها على الدوام وكأنّها مجهدة أو حانقة. وبعد هذا التعريف في المسرح بوقت يسير كتبت إليه تستأذنه في رؤية مجموعاته التي تثير اهتمامها إلى حدّ بعيد «هي الجاهلة التي بها ميل إلى الأشياء الجميلة» قائلة إنّه يبدو لها أنّها ستعرفه على نحو أفضل بعد ما يتمّ لها أن تراه «في بيته» حيث تتخيّله «شديد الارتياح إلى جانب إبريق الشاي وكتبه»، مع أنّها لم تخف عليه دهشتها لأنّه يسكن هذا الحي الذي كان ينبغي أن يكون كئيباً جدّاً وهو «على قدر ضئيل جدّاً من الأناقة فيما هو على قدر كبير منها». وبعد ما سمح لها بالمجيء أعربت له لدى فراقه عن أسفها لقلّة ما مكثت في هذا المنزل الذي اغتبطت أشد الغبطة في دخولها إليه، وهي تتحدّث عنه كما لو كان بالنسبة إليها شيئاً أكثر من الناس الآخرين الذين كانت تعرفهم وتبدو وكأنّها تقيم بين شخصيهما نوعاً من صلة الوصل الخياليّة جعله يبتسم. ولكن تقارب القلوب هذا، في سنّ خيبة الآمال التي كان «سوان» يقترب منها والتي يعرف المرء فيها كيف يرتضي أن يكون عاشقاً من أجل التمتع بأن يكون كذلك دون أن يطلب كثيراً بالمقابل، إن لم يعد تقارب القلوب هذا كحاله في أوّل الشباب الهدف الذي يتّجه إليه الحبّ بالضرورة فإنّه يظلّ بالمقابل مرتبطاً به بتداعي أفكار شديد إلى حدّ يستطيع معه أن يضحي مسبباً له إن وقع قبله. فقد كان المرء فيما مضى يحلم بامتلاك فؤاد المرأة التي وقع في حبّها. أمّا فيما بعد

فيمكن للشعور بامتلاك فؤاد امرأة أن يكون كافياً ليوقعك في حبّها. وهكذا، وفي السن التي يبدو فيها، باعتبار أنّنا نبحث في الحب بشكل خاصّ عن متعة ذاتيّة، بأنه يجدر بحصّة تذوّق جمال المرأة أن تشغل فيها الحيّز الأكبر، يمكن أن ينبثق الحبّ - الحب الجسدي كأكثر ما يكون - دون أن تقوم في أساسه شهوة مسبقة. فلقد سبق للمرء في هذه الفترة من العمر أن وقع مرّات عديدة في الحبّ ولم يعد الحبّ يتحرّك وحده تبعاً لقوانينه الخاصّة المجهولة المحتّمة حيال فؤادنا الذاهل الذي لا دور له، بل نُقبل على مدّ يد العون له ونزيّفه عن طريق الذاكرة، عن طريق الإيحاء. وإذ نتعرّف أحد أعراضه نتذكر أعراضه الأخرى ونعمل على بعثها من جديد. وبما أنّنا نتقن أغنية، وقد نقشت كاملة في صدورنا، فليست بنا حاجة أن تقول لنا امرأة مطلعها - وقد امتلأ بالإعجاب الذي يوحي به الجمال - كي نلقى تتمّتها. فإن بدأتها في منتصفها - حيث تتقارب القلوب ويتمّ التحدّث عن أن الواحد لا يحيا إلّا في سبيل الآخر - فقد تعودنا هذه الموسيقى إلى حدّ يكفي لنلحق في الحال برفيقتنا في المقطع الذي تنتظرنا فيه.

وعادت «أوديت دو كريسي» للقاء «سوان»، ثمّ قاربت بين زياراتها وليس من شك أن كل واحدة منها كانت تجدّد بالنسبة إليه الخيبة التي يحس بها في وقوفه أمام هذا الوجه الذي كان قد نسي بعض الشيء خصائصه في الفترة الفاصلة ولم يتذكّره لا معبّراً إلى هذا الحدّ ولا ذابلاً إلى هذا الحدّ على الرغم من شبابها؛ وكان يأسف فيما تتحدّث إليه ألا يكون الجمال الكبير الذي هي عليه من صنف اللواتي لعلّه يفضلهنّ تلقائياً، على أنّه ينبغي القول بأن وجه «أوديت» كان يبدو أكثر نحولاً وبروزاً من الجبين وأعلى الوجنتين، لأن هذه المساحة الواحدة والأكثر استواء كانت تغطيها كتلة الشعر الذي كان يُرسَل خصلاً أماميّة ارتفعت تجعيدات وتناثرت مشعّثة فوق الأذنين. فأمّا جسمها، وكان رائع التكوين، فقد كان من العسير تبيّن ترابطه (بسبب أزياء العصر مع أنّها كانت في عداد أفضل

نساء باريس ثياباً) لشدّة ما تبرز الصدريّة كأنّما فوق بطن خيالي وتنتهي فجأة على هيئة طرف دقيق فيما تشرع في الانتفاخ من تحتها كرة التنانير المزدوجة فتبدو المرأة بها وكأنّها مؤلّفة من قطع مختلفة لا تتداخل في الأخرى تداخلاً جيداً، لكثرة ما تتبع تثنيّات القماش والحواشي السائبة والصدريّة بحريّة تامّة، وحسب نزوة الرسم فيها أو تماسك قماشها، الخطّ الذي يقود إلى العُقَد، إلى دفقات الدنتلا والحواشي السوداء اللماعة العموديّة أو يوجّهها على امتداد الصدريّة ولكنّها لا تلتصق بالكائن الحي الذي كان يلفي نفسه عائراً فيه أو ضائعاً حسبما تقترب هندسة هذه الخرق الملوّنة أو تبتعد في كثير أو قليل عن هندسته.

على أنّ «سوان» كان يبتسم بعدما تذهب «أوديت» وهو يفكّر بأنّها قالتْ له كم سيطول بها الوقت إلى حين يسمح لها بالعودة، فيتذكر المظهر القلق الوجل الذي رجته به مرّة ألا يكون ذلك بعد وقت طويل جدّاً ونظراته في تلك اللحظة وقد تسمّرت عليه في توسّل امتلأ بالخشية وجعلتها تبدو مؤثِرة تحت باقة أزهار البنفسج الاصطناعي المثبّتة أمام قبّعتها المستديرة المصنوعة من القش الأبيض وبها سيور من المخمل الأسود. «وأنت، تقول له، ألن تأتي مرّة لتناول الشاي في منزلي؟» وتذرّع بأشغال يقوم بها ودراسة - هجرها بالحقيقة منذ سنوات حول - «فير مير دو ديلفت» (Ver Meer de Delft). وأجابت تقول: «أعلم أني لا أستطيع القيام بأي شيء، أنا الهزيلة، إلى جانب علماء عظام مثلكم، لعلّي أبدو إذ ذاك كالضفدعة أمام مجمع العلماء، مع أني شديدة الرغبة في التعلّم والمعرفة والتدرّب». ثم أضافت تقول بهيئة الراضي عن نفسه الذي تبدو فيها المرأة الأنيقة لتؤكد بأن مسرّتها تكمن في أن تنصرف إلى عمل قذر دون أن تخشى الاتّساخ كأن تقوم بأعمال المطبخ وتنجز العمل بنفسها: «كم ينغي أن يكون تصفّح الكتب وتقليب الأوراق العتيقة مسليّاً!» «سوف تسخر منيّ، فهذا الرسّام الذي يحول دون أن تراني (وكانت تقصد «فيرمير») لم أسمع قطّ من يتحدّث عنه، ألا يزال على قيد الحياة؟ وهل يمكن رؤية بعض أعماله في

باريس لأستطيع أن أتمثل ما تحبّ وأخمّن بعض ما يختفي خلف هذا الجبين العريض الذي يعمل كثيراً وداخل هذا الرأس الذي تحسّ على الدوام أنّه آخذ في التفكير فيه؛ وأي حلم هو أن أنخرط في مشاغلك!» وأبدى اعتذاراً حول خشيته من الصداقات الجديدة وهو ما دعاه بداعي التهذيب خوفه أن يصبح تعيساً. وقالت بصوت طبيعي ومقنع إلى حدّ أن ذلك هزّ مشاعره: «وهل تخاف من الحنان؟ ما أغرب ذلك عليّ أنا التي لا تبحث لتلقى إلا عنه وتقدِّم حياتها ثمناً بعضاً منه. لا بدّ أنّك عانيت العذاب على يد امرأة، وتظنّ أنّ الأخريات يشبهنها. إنّها لم تفلح في فهمك فأنت شخص متميّز إلى حدّ بعيد. ذلك ما أحببت بادئ الأمر فيك فقد أحسست تماماً أنك تغاير باقي الناس». وقال لها: «وأنت بدورك على أيّة حال، إني أعرف تماماً أمور النساء، ولا بدّ أن لديك أكداساً من المشاغل ولا تنعمين إلّا بالوقت القليل من الفراغ». - «أنا ليس لدي شيء أفعله! إني على الدوام خالية المشاغل وسأكون دوماً كذلك من أجلك. فابعث في طلبي في أيّة ساعة من النهار أو الليل يلائمك أن تراني فيها وسوف أكون شديدة السعادة في الإسراع. فهلّا فعلت؟ أتدري أي أمر أراه لطيفاً؟ أن تجد من يقدّمك للسيّدة «فيردوران» التي أذهب إلى بيتها كلّ مساء فتصور! إن تمّ اللقاء هنالك وإن حسبت أنّك تحضر إلى حدّ ما من أجلي!».

لقد كان دونما شكّ يحرّك صورتها فحسب بين العديد من صور النساء الأخريات في أحلام خياليّة وهو يتذكّر أحاديثهما ويفكّر فيها حينما يمكث وحيداً. ولكن إن اتّفق بفضل ظرف أي ظرف (أو ربّما تمّ ذلك بدونه فالظرف الذي يظهر في اللحظة التي تبرز فيها حالة كانت حتى ذاك كامنة يمكن ألا تكون أثّرت فيه) أن تستقطب صورة «أوديب دو كريسي» جميع أحلامه، ولم يستطيع من بعد فصل أحلامه عن ذكراها فلن يظلّ لعيوب جسمها من بعد أيّة أهميّة كما لن يظلّ لكونه أكثر أو أقلّ من أي جسم آخر على غير ما يشتهي «سوان» لأنّه بعد ما أضحى جسم تلك التي يحبّها سوف يكون منذ الآن الوحيد القادر على أن يكون سبب أفراحه وعذابه.

وكان جدّي قد عرف بالضبط عائلة «فيردوران»، وهو ما لا يمكن قوله عن أيّ من أصدقائهم الحاليّين. غير أنّه كان قد فقد كلّ علاقة بمن كان يدعوه «فيردوران» الشابّ والذي كان يعتبر أنّه انحدر بشكل عام - فيما ظلّ يحتفظ بملايين كثيرة - إلى مصاف البوهيميين والرعاع. وذات يوم وردته رسالة من «سوان» يسأله فيها إن لم يكن باستطاعته أن يقيم الصلة بينه وبين أسرة «فيردوران». وصاح جدّي قائلاً: «حذار! حذار! ذلك لا يدهشني البتّة، وكان لا بدَّ أن ينتهي «سوان» حيث انتهى. إنّه وسط رائع! لست أستطيع بادئ الأمر أن أفعل ما يسألني إيّاه لأنّني لم أعد أعرف ذلك السيّد. ثم لا بدّ أن ينطوي ذلك على قصّة نساء ولست أقحم نفسي في مثل هذه الأمور. آه! إن التصق «سوان» بهؤلاء الصغار من آل «فيردوران» فسوف نمتّع النفس بذلك».

ولدى جواب جدي السلبي قامت «أوديت» نفسها باصطحاب «سوان» إلى منزل عائلة «فيردوران».

كان على مائدة عائلة «فيردوران» لطعام العشاء في اليوم الذي شهد بدايات «سوان» هناك الدكتور والسيّدة «كوتار»، وعازف البيانو الشابّ وعمته، والرسام الذي كان يحظى إذ ذاك بتقديرهم وقد انضمّ إليهم في السهرة عدد من الخُلّص الآخرين.

لم يعرف الدكتور «كوتار» في يوم معرفة أكيدة بأيّة لهجة كان يجدر به أن يجيب أحدهم وإن كان مخاطبه يبغي الضحك أم كان جادّاً، فكان يضيف من قبيل التحسّب إلى تعابير وجهه كافّة عرض ابتسامة مشروطة ومؤقتة يمكن لنعومتها المترَقِبَّة أن تبرِّئه من تهمة السذاجة إن اتّفق للحديث الذي تبودل معه أن يكون من قبل التفكهة. ولما لم يكن يجرؤ، بغية مواجهة الفرضيّة المعاكسة، أن يدع لهذه الابتسامة أن تتأكّد فوق وجهه على نحو واضح فقد كانت تطفو باستمرار على صفحته حيرة تقرأ فيها السؤال الذي لم تكن به جرأة لطرحه «أتقول ذلك جادّاً؟» ولم يكن أكثر تأكّداً من الطريقة التي ينبغي له أن يتصرّف وفقها في الشارع وحتى في

الحياة منه في إحدى الصالات، فكنت تراه يقابل المارّين والعربات والأحداث بابتسامة خبيثة تجرّد موقفه سلفاً من أيّة صبغة في غير محلها فقد كان يبرهن أنّه إن لم يكن وارداً فهو يدرك الأمر تمام الإدراك وأنه إن أخذ بذلك فعلى سبيل المزاح.

على أنّ الدكتور لم يكن يوفّر جهداً في تقليس ساحة شكوكه وإتمام علمه حول جميع النقاط التي يبدو له أنّ السؤال الصريح عنها مسموح به.

وهكذا لم يكن يدع قطّ لعبارة أو اسم علم أن يمرا وهو على جهل بهما دون أن يحاول التزوّد بمعلومات عنهما وذلك عملاً بالنصائح التي أسدتها له والدة متبصرة حينما هجر منطقته الريفية.

وكان في ما يخصّ العبارات لا يعاف المعلومات، فقد كان راغباً في معرفة ما يبغى بالضبط بتلك التي يسمعها تستخدم أكثر ما يسمع وهو يفترض أحياناً أن لها معنى أدقّ ممّا هي عليه، من مثل: «جمال إبليس، الدم الأزرق، قضى حياة كخشبة الكرسي، ربع ساعة «رابليه»، كان أمير الأناقة، منحه بطاقة بيضاء، بلغ به الأمر حدّ الإرتاج[1] إلخ. وفي أيّة حالات محدّدة يستطيع بدوره أن يجعلها تبرز في أحاديثه. فإن لم يتيسّر له ذلك كان يجيء بتلاعبات لفظيّة سبق أن تعلّمها. فأمّا أسماء الأشخاص الجديدة التي كانت تُقال في حضرته فقد كان يكتفي بتردادها بلهجة استفهاميّة يظنّها كافية لتسوق إليه إيضاحات لا يبدو أنّه يطلبها.

ولما كان الحسّ الناقد الذي يحسب أنّه يمارسه على كل شيء يعوزه تماماً فإن فرط التأدّب الذي قوامه أن تؤكد لرجل تمنّنه أنّك إنما تدين له بمنّة دون أن ترغب في أن يصدّقك كان يذهب معه أدراج الرياح فهو يأخذ كلّ شيء بمعناه الحرفي. ومهما بلغ تعامي السيّدة «فيردوران» في ما يخصّه فقد انتهت إلى أن تضيق ذرعاً، مع أنّها ظلّت تجده رقيقاً جداً، لملاحظتها

(١) الجمال الطاغي - دم النبلاء - قضى حياة مضطربة - الوقت الذي ينبغي فيه دفع الحساب - البطاقة البيضاء التي تسمح بكل شيء.

أن الدكتور «كوتار»، حينما كانت تدعوه إلى مقصورة في الجزء الأمامي من المسرح لسماع «ساره بيرنار» وتقول له لمزيد من التلطّف: «إنّك يا دكتور بالغ اللطف لأنّك جئت فإنّي متأكدة أنه سبق لك أن سمعت كثيراً «ساره بيرنار»، ثم ربّما كنّا قريبين جدّاً من خسبة المسرح». كان يجيب بعدما دخل إلى المقصورة بابتسامة تنتظر كيما تتضح أو تزول أن يطلعه شخص ثقة على قيمة العرض المسرحي، يجيب بقوله: «الأكيد أنّنا قريبون جدّاً وبدأنا نملّ «ساره بيرنار». ولكنّك أبديت لي رغبتك في مجيئي ورغباتك أوامر عندي. إني سعيد جدّاً أن أؤدّي لك هذه الخدمة الصغيرة. فماذا عسانا لا نفعل لنحسن في عينيك، فأنت طيّبة إلى حدّ كبير» ثم يضيف: «أليست «ساره بيرنار» هي الصوت الذهبيّ؟ وغالباً ما يكتبون عنها أنها تحرق خشبة المسرح[1]، تلك عبارة غريبة، أو ليست كذلك؟» وهو يأمل إيضاحات لا تجيئه.

وتقول السيدة «فيردوران» لزوجها: «تدري، في اعتقادي أنّنا على ضلال حينما نحطّ من قيمة ما نقدّمه للدكتور بداعي الابتعاد عن الزهو، فإنّه عالم يعيش خارج الحياة العملية ولا يعرف بنفسه قيمة الأشياء بل يعود في حكمه إلى ما نقوله له عنها». فيجيب السيّد «فيردوران»: «لم أجرؤ أن أقول لك ذلك مع أنّه سبق لي أن لاحظته». وفي يوم رأس السنة التالي اشترى السيّد «فيردوران» بثلاث مئة فرنك حجراً كريماً مرمّماً وهو يوحي بأنّه من العسير أن يرى المرء حجراً بذلك الجمال، عوضاً عن أن يبعث للدكتور «كوتار» بياقوتة تساوي ثلاثة آلاف فرنك فيما يقول إن ذلك شيء زهيد جدّاً.

وحينما أعلنت السيّدة «فيردوران» أنّهم سيستقبلون في السهرة السيّد «سوان» صرخ الدكتور بنبرة جعلتها الدهشة قاسية: «سوان؟»، لأنّ أقلّ خبر كان يأخذ دوماً على حين غرّة، أكثر من أيّ رجل آخر، هذا الرجل

(١) أي أنها تمثل بحرارة واندفاع.

الذي يحسب أنّه مهيّأ أبداً لكلّ أمر. ولما رأى أنه لم يستجب صاح قائلاً: «سوان؟ من ذا يكون سوان!» وهو في قمة القلق، قلق تراخى فجأة عندما قالت السيّدة «فيردوران»: «ولكنّه الصديق الذي سبق أن حدثتنا عنه «أوديت». وأجاب الدكتور وقد هدأت نفسه: «آه! حسن، حسن، الأمر على ما يرام». أمّا الرسّام فقد اغتبط من جرّاء إدخال «سوان» إلى منزل السيّدة «فيردوران» لأنّه كان يفترضه عالقاً في حب «أوديت» وهو يحبّ تيسير هذه العلاقات. وأسرّ في أذن الدكتور «كوتار» يقول: «ليس يفرحني كمثل إتمام الزيجات، ولقد أفلحت في العديد منها حتى بين النساء!».

حينما قالت «أوديت» لأسرة «فيردوران» إن «سوان» أنيق جدّاً فقد جعلتهم يتهيبّون «الإزعاج». ولكنّه خلّف فيهم، على العكس انطباعاً ممتازاً كان من أسبابه غير المباشرة، على غير علم منهم، تردّده على المجتمع الأنيق. فقد كان من وجوه تفوقه على الرجال الذين لم يرتادوا المجتمع الراقي قطّ، وحتى الأذكياء منهم، تفوّق الذين عاشوا فيه قليلاً وقوامه أنّهم لا يحسّنون صورته عن طريق الرغبة أو الاشمئزاز الذي يوحي به للخيال وأنهم يعتبرونه وكأنّه غير ذي أهميّة. وتتّسم لطافتهم وقد انفصلت عن الحذلقة وخشية الظهور بمظهر مفرط في اللطف، وأصبحت مستقلّة، بهذه الرشاقة وهذا الجمال في حركات الذين تقوم أعضاؤهم، وقد لانت، بما يريدون بالضبط ودون مشاركة ظاهرة وهوجاء لباقي الجسم. إن محض الرياضة الأوّلية لرجل المجتمعات وهو يمدّ يده بطيب خاطر للشابّ المجهول الذي يقدّمونه له وينحني يتحفّظ أمام السفير الذي يقدّم إليه قد داخلت في النهاية دون وعي منه كامل موقف «سوان» الاجتماعي، فقد أظهر بالغريزة حيال قوم من وسط أدنى من وسطه، كما كانت عليه أسرة «فيردوران» وأصدقاؤهم، اهتماماً كبيراً وقام بأنواع من المجاملات ربّما أحجم عنها في رأيهم رجل مزعج. «ولم يصب بلحظة فتور إلّا مع الدكتور «كوتار»، فقد حسب «سوان» إذ رآه يغمز له بعينه ويبتسم ابتسامة غامضة قبلما يجري بينهما الحديث (وهي الإيماءة التي كان

يدعوها «كوتار» «تيسير الأمور») أن الدكتور كان يعرفه دون شك لأنه التقى به في بعض أماكن اللهو مع أنه كان يقلّ كثيراً من ارتيادها إذ لم يعش إطلاقاً في عالم المجون. ولما رأى التلميح يتّسم بذوق غير سليم ولا سيّما في حضرة «أوديت» التي ربّما حملت من جراء ذلك فكرة سيّئة عنه تصنّع مظهراً بارداً جدّاً، ولكنّه حينما علم أن السيّدة التي كانت تقف على مقربة منه إنّما هي السيّدة «كوتار» فكّر أنّ زوجاً بهذا الشباب ما كان ليحاول التلميح إلى صنوف لهو من هذا القبيل أمام امرأته. فتوقف عن تزويد مظهر العارف ببواطن الأمور الذي يظهر به الدكتور بالمدلول الذي كان يخشاه. ودعا الرسّام «سوان» في الحال للمجيء إلى مشغله بصحبة «أوديت» وألفاه «سوان» لطيفاً. وقالت السيّدة «فيردوران» بلهجة ظاهرها الغيظ: «ربما لقيت هنالك حظوة أكثر منّي فأروك صورة «كوتار» (وكانت قد أوصت الرسّام عليها). وقالت تذكّر الرسّام «فكر جيّداً يا «سيّد» «بيش» (وهو مزاح لا تحيد عنه في قولها «يا سيّد») في أن تؤدى تماماً النظرة الجميلة والجانب الدقيق المبهج في العين. فإنّك تعلم أنّ ما أبغي على وجه الخصوص هي ابتسامته، وما طالبتك به إنما هو رسم ابتسامته». ولما بدا لها هذا التعبير جديراً بالملاحظة كرّرته بصوت عالٍ جدّاً لتتيقّن من أنّ العديد من المدعوين سمعه وبلغ بها الأمر أن طلبت بادئ الأمر اقتراب بعض منهم متذرّعة بحجّة غامضة. وطلب «سوان» التعرّف بالجميع وحتى بصديق قديم لعائلة «فيردوران» يدعى «سانييت» أفقده خجله وبساطته وطيبة قلبه التقدير الذي كسبه بفضل ما لديه من إلمام بالمحفوظات وثروته الضخمة والأسرة المرموقة التي ينتسب إليها. لقد كان في فمه ساعة يتحدّث خلاطة لزجة محبّبة جدّاً لأنّك كنت تحسّ أنّها تكشف عن ميزة في النفس أكثر منها عن عيب في اللسان وكأنما تلك بقيّة من براءة الطفولة الأولى التي لم يفقدها في يوم. فجميع السواكن التي لا يستطيع نطقها كانت تبرز بمثابة عدد مماثل من مواطن الصعوبة التي لا يقوى عليها. وبدا «سوان» للسيّدة «فيردوران» وهو يطلب أن تقدمّه للسيد «سانييت» بمثابة من

يقلب الأدوار (إلى حدّ أنها قالت جواباً عن ذلك وهي تلحّ عن الفارق: «هلّا تلطّفت يا سيّد: سوان» وسمحت لي بأن أقدِّم لك السيّد «سانييت»)، ولكنّه بعث لدى «سانييت» شعوراً بالتعاطف قوياً لم تكشف عنه أسرة «فيردوران» لِـ«سوان» البتّة لأنّهم كانوا يضيقون بـ«سانييت» ولا يرغبون في أن يوفّروا له الأصدقاء. على أنّ «سوان» أثّر فيهم في المقابل إلى حدّ بعيد، إذ ظنّ من واجبه أن يطلب التعرّف في الحال بعمّة عازف البيانو. كانت بفستان أسود شأنها على الدوام، إذ تظن أن المرء دوماً على ما يرام بالثوب الأسود وأنّه من أكثرها أناقة، ووجهها بالغ الاحمرار كحاله في كلّ مرة سبق لها أن تناولت طعامها. وانحنت أمام «سوان» باحترام ولكنّها انتصبت بمهابة. ولما لم تكن على شيء من العلم وكانت تخشى ارتكاب أخطاء في الفرنسيّة فقد كانت تتقصّد اللفظ لفظاً مبهماً وتحسب أنها إن وقعت في خطأ فاحش فسوف يحجبه قدر من الإبهام لا يمكن معه تمييزه على نحو أكيد حتى أضحى حديثها محض غمغمة غير مميزة تطفو على صفحتها بين الحين والحين اللفظات القليلة التي تشعر أنها واثقة منها. وظنّ «سوان» أنّه يستطيع أن يسخر منها سخرية طفيفة في حديثه مع السيّد «فيردوران» الذي ثارت ثائرته على العكس وأجاب قائلاً:

- «إنّها امرأة طيبة جداً. وإنّي متّفق معك بأنها لا تفتن الألباب ولكني أؤكّد لك أنّها ممتعة حينما يتمّ التحدّث معها على انفراد».

وسارع «سوان» يسلم بالأمر: «لست أشكّ في ذلك، كنت أبغي أن أقول إنها لا تبدو لي «بارزة»، قالها وهو يركّز على هذه الصفة، «وذلك أقرب إلى المديح إجمالاً». وقال السيد «فيردوران»: «خذ مثلاً، سوف أدهشك، أنها كتبت كتابة ساحرة، أما سمعت قطّ ابن أخيها؟ رائع، أليس كذلك يا دكتور؟ أتريد أن أطلب إليه عزف لحن ما يا سيّد «سوان»؟ وكان «سوان» قد أخذ يجيب بقوله: «من دواعي السعادة أن. . .» حينما قاطعه الدكتور بطريقة ساخرة. ذلك أنّه حفظ أنّ التفخيم واللجوء إلى الصيغ الفخمة في الحديث قد عفا عهدهما، فما إن يسمع كلمة رزينة تُقال على

نحو جادّ شأن ما تم بكلمة «السعادة» حتى يحسب أن الذي تلفّظ بها قد ظهر بمظهر الأدعياء. فإن اتفق لهذه اللفظة إلى ذلك أن تظهر مصادفة فيما كان يدعوه بالمعاني المطروقة ومهما كانت اللفظة مألوفة كان الدكتور يفترض أن الجملة التي بُدئ بها مضحكة فينهيها على نحو ساخر بالمعنى المطروق الذي يبدو أنّه يتهم محدّثه بنيّة اللجوء إليه في حين لم يفكر هذا الأخير البتّة فيه. وصاح يقول بخبث وهو يرفع ذراعيه بعظمة:

- «من دواعي سعادة فرنسة!»

ولم يملك السيّد «فيردوران» نفسه عن الضحك، وصاحت السيّدة «فيردوران»:

- «ما لهؤلاء الناس يضحكون، يبدو أن ليس من ينقل الحزن في زاويتكم الصغيرة هناك». وأضافت بلهجة حانقة وهي تقلّد الأطفال: «أو تظنّون أنّي ألهو ببقائي وحيدة أكفّر عن ذنوبي؟».

كانت السيّدة «فيردوران» تجلس على مقعد سويدي عالٍ من خشب الصنوبر المصقول أهداها إياه عازف كمان من ذلك البلد وكانت تحتفظ به مع أنّه يذكّر بشكل السلم ويخالف تماماً الأثاث القديم الجميل الذي في بيتها، ولكنّها كانت تصرّ أن تحفظ على نحو بارز الهدايا التي تعوّد الخلّص إهداءها بين الحين والحين حتى تتسنى للواهبين متعة تعرّفها حينما يفدون. ولذلك كانت تحاول الإقناع بأن يكتفى بالأزهار والسكاكر التي تتلف على الأقلّ، ولكنها لا تفلح في ذلك فترى لديها مجموعة من دفّاءات الرجلين والمساند والساعات الجداريّة والسواتر ومقاييس الضغط الجوي والآنية الخزفيّة في تراكم المكرور وتنافر هدايا العيد.

من ذلك المركز المرتفع كانت تشارك بحيويّة في حديث الخلّص وتضحك من مزحاتهم، ولكنها منذ الحادث الذي وقع لنفكّها رفضت أن تكلف نفسها عناء الانفجار بالضحك فعلاً وأخذت تنصرف عوضاً عن ذلك إلى إيمائية متّفق عليها كانت تعني دونما تعب أو مخاطر بالنسبة إليها أنها تضحك أشد الضحك. وكانت لأقلّ كلمة يطلقها أحد الروّاد بحقّ

أحد المزعجين أو بحقّ أحد الروّاد القدامى الذي صنّف في صفوف المزعجين تُطلق صيحة قصيرة وتطبق تماماً عينيها، عيني طائر أخذت تغطيهما غشاوة، وفجأة يغوص وجهها في راحتيها اللتين تغطّيانه فلا تدعان شيئاً منه وكأنما لم يتّسع لها من الوقت إلّا أن تخفي عنها منظراً مؤذياً أو تتّقي نوبة مميتة، فتبدو وكأنها تجهد في احتباس ضحكة بل في القضاء عليها لأنّها ربما بلغت بها، لو استرسلت فيها، حالة الإغماء - الأمر الذي يزيد من غم السيّد «فيردوران» الذي ادّعى لفترة طويلة أنّه في مثل لطف زوجته ولكنّه كان يضحك ضحكاً فعليّاً فيفقد أنفاسه بسرعة فيتمّ التقدّم عليه ثم قهره بفضل هذه الحيلة في ضحك وهميّ لا ينقطع -. هكذا كانت السيدة «فيردوران» تنتحب لطفاً وقد دوّخها مرح الخلّص وأسكرتها الرفقة والنميمة والرضى وهي جاثمة فوق مجثمها كأنها طائر غُمست زينة رأسه في خمرة ساخنة.

وكان السيّد «فيردوران» يرجو آنذاك الفنان الشاب أن يجلس إلى البيانو بعدما يستأذن «سوان» في إشعال غليونه («ههنا لا يثقل أحد على نفسه فنحن بين رفاق»).

وصاحت السيّدة «فيردوران»: «انتبه، لا تزعجه فإنّه ليس ههنا كيما يتمّ إزعاجه، ولست أريد أن يزعجه أحد!».

وقال السيّد «فيردوران»: «ولكن لماذا يزعجه الأمر؟ إن السيّد «سوان» قد لا يعرف «السوناتا» بـ«فا» التي اكتشفناها وسيعزف لنا ما رُتِّبَ منها للبيانو.

وصاحت السيّدة «فيردوران»: «لا، لا، لا تعزفوا مقطوعتي فلست أرغب أن يصيبني الرشح وأشكو من التهاب أعصاب الوجه كما تمّ لي المرّة الفائتة لشدّة البكاء. فشكراً للهدية، إنه لا رغبة لي في إعادة الكرّة. أنتم على أحسن الصورة، ومن الواضح تماماً أن ليس بينكم سيلازم الفراش ثمانية أيّام!».

كان ذلك المشهد الصغير الذي يتجدّد في كل مرة يزمع فيها عازف

البيانو العزف يفتن الأصدقاء كما لو كان جديداً وباعتباره برهاناً على البراعة الساحرة التي تتميّز بها «سيّدة البيت» وعلى إحساسها الموسيقي. وكان الذين يقفون على مقربة منها يشيرون إلى من يدخنّون بعيداً أو يلعبون بالورق أن يقتربوا وأن هنالك أمراً يجري ويقولون لهم شأن ما يتم في «الرايشستاغ»[1] في اللحظات المهمّة: «أصغوا، أصغوا». وفي الغد يثيرون أسف الذين لم يستطيعوا المجيء بقولهم إنّ المشهد جاء أكثر إبهاجاً من المعتاد.

وقال السيّد «فيردوران»: «حسن! اتّفقنا، لن يعزف سوى قسم الـ«أندانته».

وصاحت السيّدة «فيردوران»: «سوى قسم الـ«أندانته»، ما أبسط الأمر عليك! إنه قسم الـ«أندانته» بالضبط الذي يشلّ يديّ ورجليّ. سيّد البيت بالحقيقة رائع! فكما لو أنّه يقول: لن «نسمع في «التاسعة» سوى الحركة الأخيرة وفي «الأسياد» سوى الافتتاحيّة».

ولكن الدكتور كان يدفع السيّدة «فيردوران» إلى السماح لعازف البيانو بالعزف لا لأنّه يحسب من قبيل الخداع الاضطرابات التي تولّدها فيها الموسيقى - فقد كان يرى فيها بعض حالات الوهن العصبيّ - بل انطلاقاً من العادة التي يجري عليها الكثير من الأطبّاء في أن يعمدوا إلى تلطيف قسوة إرشاداتهم حالما يتعرّض للخطر اجتماع للطبقة الراقية يشاركون فيه ويؤلّف الشخص الذي ينصحونه بأن ينسى لمرّ سوء هضمه أو نزلته الوافدة أحد أركانه الأساسيّين، والأمر في نظرهم أكثر أهميّة بكثير.

وقال لها وهو يحاول أن يدخل ذلك في روعها عن طريق النظرات: «لن يلمّ بك مرض هذه المرّة، وسترين وإن ألم بك مرض عالجناك».

وأجابت السيّدة «فيردوران»: «أصحيح ذلك؟» كما لو لم يظلّ لها حيال الأمل بمثل هذه المنّة سوى الاستسلام. وربما كانت هنالك أيضاً

---

(١) البرلمان الألماني.

فترات لم تعد تذكر فيها، لكثرة ما تُرَدِّدُ أنّها مريضة، أن الأمر كذب فكانت تتقمّص نفسيّة المريض. وإذ يتعب هؤلاء من أنّهم يضطرون دوماً أن يخضعوا ندرة نوباتهم لتعقّلهم فإنّه يطيب لهم أن يذهبوا إلى الاعتقاد بأنّهم يستطيعون الإتيان بما يحلو لهم ويسيء إليهم بالعادة دونما عقاب ينالونه بشرط أن يوكلوا أمرهم لشخص مقتدر يردّ لهم عافيتهم بكلمة أو بقرص دون أن يكلّفوا النفس أي عناء.

وكانت «أوديت» قد بادرت إلى الجلوس على أريكة مغطّاة بالطنافس قرب البيانو وقالت للسيّدة «فيردوران»: «لي مكاني الصغير كما تعلمين».

ولما رأت هذه الأخيرة «سوان» جالساً على كرسيّ أنهضته: «لست ههنا على ما يرام، فاذهب واجلس بالقرب من «أوديت». ألن توسعي مكاناً للسيّد «سوان» يا أوديت؟».

وقال «سوان» قبل أن يجلس وهو يحاول أن يبدو لطيفاً: «ما أجمل الأريكة!».

وأجابت السيّدة «فيردوران»: «يسرّني أنّك تقدّر أريكتي وإنّي أنبّهك إلى أنّك تستطيع التخلّي في الحال عن مقصدك إن ابتغيت مشاهدة واحدة بجمالها. فإنهم لم يصنعوا قطّ مثيلتها. والكراسي الصغيرة كذلك من الروائع. بعد قليل تشاهدها. إن كلّ قطعة برونز كالخبر للمبتدأ الذي هو المقعد الصغير. ولديك، لو تدري، ما تلهو به إن شئت أن تشاهد ذلك، ولو لم يقتصر الأمر إلا في أفاريز الحوافي الصغيرة؛ خذ ههنا مثلاً الكرمة الصغيرة على خلفيّة حمراء التي تمثّل «الدبّ والعنب». فأي رسم ذلك! ما عساك تقول؟ باعتقادي أنّهم كانوا يتقنون الرسم! أليست تثير الشهيّة هذه الكرمة؟ إن زوجي يدعي أنّني لا أحب الفاكهة لأنّني آكل منها أقلّ منه. ولكنّي أكثر نهماً منكم جميعاً ولكن لا حاجة لي بأن أضعها في فمي بما أنّني أجد المتعة بعيني. ما بكم جميعاً تضحكون؟ اسألوا الدكتور وسيقول لكم إنّ هذا العنب يطهّر معدتي. هنالك من يستشفون في «فونتيتبلو»، أمّا أنا فأعالج نفسي بهذه الأريكة. أمّا أنت يا سيّد «سوان» فلن تذهب قبلما

تضع يدك على لوحات المساند البرونزيّة الصغيرة. أناعمة الطبقة التي تغطيها؟ لا! لا! تلمّسها جيّداً، بملء يديك».

وقال الرسّام: «اصمت، يا لك من شرير». والتفت إلى «سوان»: «إنّهم في الأساس يمنعون عنّا نحن النساء أموراً أقلّ حثاً على الملذات من ذلك بيد أنّه ليس من بشرة تقارب هذا! وحينما كان يوليني السيّد «فيردوران» شرف الغيرة عليّ - هيّا، كن مهذّباً على الأقلّ ولا تقل إنّك لم تكن غيوراً في يوم...».

- ولكنّي لا أقول شيئاً على الإطلاق: دكتور، إنّي أطلب أن تشهد عليّ: أتراني قلت شيئاً؟».

وكان «سوان» يتلمس اللوحات البرونزيّة من قبيل التهذيب ولا يجرؤ على التوقّف في الحال.

- «هيّا، سوف تداعبها فيما بعد: أمّا الآن فسيداعبونك أنت، سيداعبونك في أذنك، وأحسب أن الأمر يروقك؛ هوذا شاب صغير سيتولّى ذلك».

وبعد ما قام عازف البيانو بالعزف، بدا «سوان» أكثر تودّداً له منه للأشخاص الآخرين الحاضرين، وإليك السبب:

كان قد استمع في إحدى سهرات العام الماضي إلى عمل موسيقيّ تمّ عزفه على البيانو والكمان. ولم يتذوّق بادئ الأمر سوى الميزة الماديّة للأصوات التي أفرزتها الآلات. ولقد شعر بلذّة عظيمة حينما تبيّن تحت خطّ الكمان الدقيق الصلب الكثيف السائد كتلة القسم المخصّص للبيانو تحاول فجأة أن تتعالى مبتلّة الحفقات متعدّدة الأشكال غير منقسمة مستوية متدافعة كاضطراب المياه القاتم الذي يضفي عليه ضياء القمر سحراً وحزناً. وفي لحظة معيّنة حاول، دون أن يفلح في تمييز حدّ واضح وفي إطلاق اسم على ما راقه، حاول، وقد أخذ منه السحر فجأة أن يلتقط الجملة أو تناسق النغمات - ليس يدري - الذي مرّ به والذي وسّع مدى نفسه مثلما تملك بعض روائح الورود التي تجول في الهواء الرطب خاصيّة

توسيع فتحات الأنوف. ولعلّه استطاع لجهله بالموسيقى أن يحمل انطباعاً بمثل هذا الإبهام، واحداً من تلك الانطباعات التي ربما كانت مع ذلك الوحيدة في كونها موسيقيّة بحتة لا امتداد لها أصيلة لا يمكن ردّها إلى أي صنف آخر من الانطباعات. ويبدو الانطباع من هذه القبيل للحظة دون مرتكز ماديّ إن جاز القول وليس من شكّ أن النوطة التي نسمعها آنذاك إنّما تنزع حسب ارتفاعها وكميتها إلى أن تغطي مساحات مختلفة الأبعاد أمام أعيننا وإلى اختطاط زخرفات عربيّة وإعطائنا إحساسات بالامتداد والدقّة والاستقرار والتقلب. ولكن النوطة تتلاشى قبل أن تتشكّل فينا هذه الإحساسات على قدر كافٍ كي لا تغرقها تلك التي توقطها النوطة التالية أو حتى التي تزامنها. وقد يتوالى هذا الإحساس ليغلّف بسيولته وألوانه الذائبة بعض الفِكَر الموسيقيّة التي تطفو على صفحته بين الحين والحين وتكاد لا تتبيّنها لتغوص في الحال وتغيب ولا تعرفها إلا من جرّاء المتعة الخاصّة التي تجود بها ويستحيل وصفها وتذكّرها وتسميتها والتحدّث عنها - لو لم تمكّنّا الذاكرة، كمثل عامل يعمل لإقامة أساسات دائمة وسط المياه، من مقارنتها بالتي تليها وتمييزها عنها إذ تصنع لنا صوراً تطابق هذه الجمل العابرة. وهكذا ما إن تلاشى الإحساس اللذيذ الذي أحس به «سوان» حتى قدّمت له ذاكرته في الحال تسجيلاً مختصراً ومؤقتاً حوّل إليه نظره فيما تستمرّ المقطوعة حتى إن الانطباع نفسه حينما عاد من جديد على نحو مفاجئ لم يعد مستحيل الإدراك من بعد. فقد كان يتمثّل امتداده وزمره المتناظرة وصورته المكتوبة وقيمته التعبيريّة. لقد كان أمامه هذا الشيء الذي لم يعد موسيقى بحتة بل هو رسم وهندسة وفكر يسمح بتذكّر الموسيقى. لقد تسنّى له هذه المرّة أن يميّز بوضوح جملة تتعالى على مدى لحظات فوق الموجات الصوتيّة، جملة وضعت أمام عينيه في الحال ملذات خاصة لم تراوده فكرتها قبل سماعها وكان يحسّ أن ليس من شيء آخر يستطيع أن يوصله إليها، وأحسّ إزاءها كأنّما بحبّ مجهول.

كانت توجّهه بإيقاع بطيء إلى هنا بادئ الأمر، ثم إلى هناك، ثم إلى

مكان آخر، إلى سعادة سامية دقيقة تستحيل على الإدراك. وفجأة ومن النقطة التي بلغتها والتي كان يتهيّأ ليلحقها منها كانت تغيّر اتجاهها بصورة مفاجئة بعد استراحة تدوم لحظة واحدة وتجذبه معها إلى آفاق مجهولة بحركة جديدة أكثر سرعة، بحركة دقيقة حزينة لا تنقطع عذوبتها. ثم اختفت، فتمنّى بعنف أن يراها مرّة ثالثة، وعادت إلى الظهور ولكن دون أن تحدّثه على نحو أوضح وربّما سبّبت له متعة أقلّ عمقاً. إلا أنّه شعر بالحاجة إليها حينما عاد إلى بيته: لقد أضحى كرجل أدخلت عابرة سبيل لمحها مقدار لحظة صورة لجمال جديد في حياته يضفي على حساسيته الخاصّة قيمة أعظم ودون أن يعلم إن كان يستطيع فقط أن يعود فيرى في يوم تلك التي أخذ يحبّها والتي يجهل حتى اسمها.

وبدا حتى هذا العشق لجملة موسيقيّة، بدا لحظة وكأنّما ينبغي له أن يكون بداية لإمكانية نوع من تجديد الشباب. فمنذ زمن طويل كان قد تخلّى عن صرف حياته إلى هدف مثالي وظلّ يقصرها على ملاحقة متع يوميّة وكان يحسب أنّ الأمر لن يتبدّل حتى الممات، دون أن يفضي البتّة لنفسه بذلك صراحة. ولما لم يعد يحسّ في ذاته بأفكار سامية في عقله فقد كفّ إلى ذلك عن الاعتقاد بحقيقتها دون أن يستطيع إنكارها تماماً. وكان لذلك قد اتّخذ عادة الاعتصام داخل أفكار لا أهميّة لها تسمح له بأن يدع جانباً أساس الأشياء. ومثلما كان لا يتساءل إن لم يكن خيراً له أن يتردّد على المجتمع الراقي ولكنّه يعلم بالمقابل علم اليقين أنّه إن قبل بدعوة فلا بدّ له أن يذهب وأنّه إن لم يقم بزيارة بعدها فينبغي له أن يرسل بطاقات، كذلك كان يجهد في حديثه ألا يعبّر البتّة بحرارة عن رأي خاص حول الأشياء بل يقدّم تفاصيل ماديّة قيمتها إلى حد ما في ذاتها وتمكّنه ألا يفرغ ما عنده. لقد كان دقيقاً بالغ الدقّة في ما يتعلّق بوصفة طبخ وبتاريخ مولد رسّام أو موته وبأسماء أعماله. وكان يسمح لنفسه أحياناً على الرغم من ذلك بإصدار حكم على عمل فنيّ وعلى طريقة في فهم لحياة، ولكنّه يضفي على كلامه حينذاك لهجة ساخرة وكأنّه لا يتبنّى بكليّته ما يقول. وكمثل

بعض المسنّين الذين يبدو فجأة أنّ بلداً وصلوا إليه، أنّ نظاماً مختلفاً، وأحياناً أنّ تطوّراً عضويّاً عفويّاً وعامضاً يحمل معه تراجعاً لمرضهم كبيراً حتى ليشرعون في التطلّع إلى الإمكانية غير المؤمّلة في بدء حياة مختلفة تماماً في أواخر أيّامهم، كان «سوان» يعثر في ذاته، وفي ما يذكر من الجملة التي سمعها، وفي بعض مقطوعات السوناتا التي طلب أن تُعزف له ليتبيّن إن كان لن يكتشفها فيها، كان يعثر على وجود إحدى تلك الحقائق اللامرئيّة التي كفّ عن الإيمان بها والتي كان يحسّ من جديد بالرغبة وحتى بالقدرة على تكريس حياته لها، وكأنّما للموسيقى نوع من التأثير الاصطفائي على الجفاف الأدبي الذي كان يعانى منه، ولكنّه لم يستطع من جرّاء أنّه لم يفلح في معرفة من كان صاحب العمل الفني الذي سمعه أن يحصل عليه وانتهى به الأمر إلى النسيان. لقد التقى في بحر الأسبوع بعدد من الأشخاص الذين حضروا مثله تلك السهرة وساءلهم في ذلك، إلّا أنّ الكثير منهم كان قد وصل بعد العزف الموسيقي أو غادر قبله؛ على أن نفراً منهم كان حاضراً في أثناء العزف ولكنّه ذهب يتحدّث في صالة أخرى فيما لم يسمع آخرون، وقد ظلّوا للإصغاء، أكثر مما تيسّر للأوّلين. أمّا أسياد البيت فقد كانوا يعلمون أنّه عمل فنّي جديد طلب الفنّانون المتعاقد معهم أن يعزفوه، ولما ذهب هؤلاء في جولة فقد عجز «سوان» عن أن يعرف أكثر من ذلك، وكان له الكثير من الأصدقاء الموسيقيين غير أنّه على الرغم من تذكّر المتعة الخاصّة التي يصعب الإفصاح عنها والتي وفرتها له تلك الجملة ورؤية الأشكال التي تخطّها أمام عينيه ظلّ عاجزاً عن إنشادها لهم؛ ثمّ كفّ عن التفكير بها.

إلّا أنّه لم تنقض سوى بضع دقائق على بدء العزف الذي باشره عازف البيانو الصغير في منزل السيّدة «فيردوران» حتى رأى فجأة بعد نوطة عالية امتدّت طويلة على مقدار مقياسين الجملة الهوائية العطرة التي كان يهواها تقترب وقد أفلتت من تحت ذلك الرنين المتطاول المشدود على هيئة ستار صوتي يخفي خلفه سرّ حضانتها وتَعَرّفها خفيّة مغمغمة منقسمة. وكانت

خاصّة وتتسّم بسحر مفرد لا يمكن لما عداها أية كانت أن تحلّ محلّها إلى حدّ أنّها كانت بالنسبة إلى «سوان» كأنّما تمّ له أن يلقى في صالة صديقة شخصاً أعجب به في الشارع ويئس أن يعود فيعثر عليه في يوم. وابتعدت في نهاية المطاف منبئة مجدّة بين تشعّبات عطرها مخلّفة على وجه «سوان» انعكاس ابتسامتها. ولكنّه كان يستطيع الآن أن يسأل عن اسم المجهولة (وقيل له إنّها حركة «الأندانته» من «سوناتا» لِ«فانتوي» بعنوان «سوناتا للبيانو والكمان») فقد كان يمسك به ويستطيع أن يحتفظ بها في منزله قدر ما يشاء وأن يحاول تعلم لغتها والاطّلاع على سرّها.

ولذلك اقترب «سوان» من عازف البيانو حالما انتهى ليعبّر له عن شكر أعجبت السيّدة «فيردوران» بحيويّته أشدّ الإعجاب. فقالت لِ«سوان»:

- «أيّ ساحر هو، أليس كذلك؟ وهل يحسن فهم هذه «السوناتا» أيّما فَهم هذا الشقيّ الصغير؟ ما كنت تعلم أن بوسع البيانو أن يبلغ هذا المبلغ؛ إنّه كل شيء والحقّ يُقال فيما عدا البيانو، ففي كلّ مرّة أؤخذ بها من جديد وأحسب أنّي أسمع أوركسترا، وهي حتى أجمل من الأوركسترا وأكثر كمالاً.

وانحنى عازف البيانو الشابّ وقال مبتسماً وهو يشدّد على الكلمات كما لو جاء بنكتة:

- «إنّك متسامحة جدّاً معي».

وفيما كانت السيّدة «فيردوران» تقول لزوجها: «هيّا أعطه عصير البرتقال، فقد استحقّه تمام الاستحقاق»، كان «سوان» يروي لِ«أوديت» كيف عشق هذه الجملة الصغيرة. وحينما قالت السيّدة «فيردوران» من بعيد: «يبدو لي يا «أوديت» أن أشياء حلوة تُقال لك» أجابت «أجل، وحلوة جدّاً» ورأى «سوان» أن بساطتها رائعة. وفي تلك الأثناء كان يطلب معلومات حول «فانتوي» وأعماله وعن الحقبة التي ألّف فيها هذه السوناتا في حياته وعما أمكن أن تعني الجملة الصغيرة بالنسبة إليه وكان ذلك على وجه الخصوص ما كان يودّ معرفته.

على أنّ جميع هؤلاء الناس الذين يجاهرون بإعجابهم بهذا الموسيقى (فقد صاحت السيّدة «فيردوران» حينما قال «سوان» إن السوناتا جميلة جدّاً: «إني أصدّقك بأنّها جميلة! بيد أنّه لا يجوز الإقرار بعدم معرفة سوناتا «فانتوي» فليس لأحد ألا يعرفها» فيما أضاف الرسّام: «إنّها بالتمام آلة عظيمة جدّاً، أليس كذلك؟ على أنّها ليست، إذا شئت، الشيء «الغزير» و«الذائع» أليس كذلك؟ ولكنّها ما يؤثّر أعظم التأثير بالفنّنين»)، هؤلاء الناس كانوا يبدون وكأنهم لم يطرحو قطّ على أنفسهم تلك المسائل فقد عجزوا عن الإجابة عنها.

حتى السيّدة «فيردوران» أجابت عن ملاحظتين خاصّتين أبداهما «سوان» حول جملته المفضّلة:

- «ذلك عجيب. ما انتبهت قطّ للأمر؛ وسأقول لك إنّه لا يروقني كثيراً أن أبحث عن صغائر الأمور وأضيع بين وخزات الإبر، فالمرء لا يهدر وقته ههنا في أمور لا طائل تحتها فما ذلك الطراز الذي يسير عليه هذا البيت»، أجابت والدكتور «كوتار» ينظر إليها بإعجاب ورضى وحماسة وجدّ تتلاعب لاهية وسط هذا الفيض من العبارات الجاهزة. لقد كان يحترس على أيّة حال هو والسيّدة «كوتار»، بنوع من الحسّ السليم الذي يتمتّع به كذلك بعض أفراد الشعب، من إبداء رأي أو التظاهر بالإعجاب حيال موسيقى كان يقرّ كلاهما بعدما يعودان إلى المنزل أنهما لا يفهمانها أكثر ممّا يفهمان رسم «السيّد بيش». وبما أنّ الجمهور لا يعلم من السحر والظرف وأشكال الطبيعة إلا ما استقاه منها من مكرورات فنّ تمّ له أن يتمثّله ببطء وأنّ الفنّان الأصيل يبدأ برفض هذه المكرورات فإنّ السيّد «كوتار» وعقيلته، وهما في ذلك صورة عن الجمهور، ما كان يلقيان لا في سوناتا «فانتوي» ولا في رسوم الرسّام ما يقوم عليه في نظرهما انسجام الموسيقى وجمال الرسم. فقد كان يتراءى لهما حينما يعزف عازف البيانو السوناتا أنّه يعلّق كيفما اتّفق على البيانو نوطات لا ترتبط فيما بينها الأشكال التي تعوّداها وأنّ الرسّام يرمي كيفما اتّفق ألواناً على لوحاته.

فإذا تيسّر لهما أن يتعرّفا في هذه اللوحات شكلاً وجداه ثقيلاً مبسّطاً (أي خاوياً من أناقة مدرسة الرسم التي كانا يريان من خلالها في الشارع حتى الكائنات الحيّة) لا حقيقة له كما لو لم يعلم السيّد «بيش» كيف تُنْجز كتف وأن ليس للنساء شعر بنفسجيّ.

على أنّ الدكتور أحسّ بعدما تفرّق الخُلّص أنّ هناك فرصة سانحة، وفيما كانت السيّدة «فيردوران» تجود بكلمة أخيرة حول سوناتا «فانتوي»، وكمثل سبّاح مبتدئ يلقي بنفسه في الماء ليتعلّم ولكنّه يختار لحظة لا يتوافر فيها شعب غفير لرؤيته، صاح بتصميم مفاجئ:

- «ذلك إذن ما يدعى بموسيقى من الدرجة الأولى!».

ولكن «سوان» علم أن ظهور سوناتا «فانتوي» القريب العهد قد أحدث تأثيراً عظيماً في مدرسة ذات نزعات متقدّمة جدّاً ولكنّها مجهولة كليّاً لدى الجمهور الواسع.

وقال «سوان» وهو يفكّر بأستاذ البيانو لشقيقتي جدّتي: إني أعرف واحداً يُدعى «فانتوي».

فصاحت السيّدة «فيردوران»: «ربّما كان هو».

وأجاب «سوان» ضاحكاً: «لا، لا، ! فلو تسنّى لك أن تشاهديه على مدى دقيقتين لما طرحت هذا السؤال على نفسك».

وقال الدكتور: «طرح السؤال إذن إنّما يعني حله؟».

وأردف «سوان» قائلاً: «يمكن أن يكون قريباً له، والأمر محزن إلى حدّ ما غير أنّ صاحب العبقريّة يمكن أن يكون ابن عمّ لحيوان عجوز، ولئن صحّ ذلك فإني أعترف بأنّه ما من عذاب إلا وألزم به نفسي كي يقدّمني الحيوان العجوز لمؤلّف السوناتا وفي المقدّمة عذاب التردّد على الحيوان العجوز الذي ينبغي أن يكون فظيعاً.

كان الرسّام يعلم أنّ «فانتوي» كان في تلك الفترة شديد المرض وأن الدكتور «بوتان» يخشى ألا يستطيع إنقاذه. وصاحت السيّدة «فيردوران» قائلة:

- «كيف ذلك، لا يزال هنالك أناس يهتمّ «بوتان» بمعالجتهم!».

وقال «كوتار» بلهجة المتظّرف: «آه! يا سيّدة «فيردوران» فاتك أنك تتحدّثين عن أحد إخواني، بل ينبغي أن أقول أساتذتي».

وكان الرسّام قد سمع من يقول إن «فانتوي» مهدّد بالجنون، ويؤكّد أنّه يمكن تبيّن ذلك من بعض مقاطع في «سوناتته». ولم يرَ «سوان» أنّ الملاحظة من باب العبث ولكنّها بعثت فيه الاضطراب؛ ذلك أن العمل الموسيقي المحض لا يتضّمن أيّة من العلاقات المنطقيّة التي يكشف اضطرابها في اللغة عن الجنون فيبدو له الجنون الذي نتعرّفه في سوناتا شيئاً خفيّاً كخفاء جنون كلبة أو جنون حصان وهما مع ذلك يقعان تحت الملاحظة.

وأجابت السيّدة «فيردوران» بلهجة من كان شجاعاً في حمل آرائه وواجه بشجاعة أولئك الذين ليسو من رأيه: «دعني وشأني من أساتذتك فإنّك تعرف عشرة أضعاف ما يعرف. أنت على الأقلّ لا تقتل مرضاك!».

وأجاب الدكتور بلهجة ساخرة: «ولكنّه من المجمع العلمي يا سيّدتي. فإن فضّل أحد المرضى أن يموت على يد أحد أمراء العلم... وإنّه لتأنّق أكبر بكثير أن يمكنه القول: إنّ «بوتان» يعالجني».

وقالت السيّدة «فيردوران»: «آه! ذلك أكثر أناقة؟ هنالك إذن تأنّق في الأمراض الآن؟ ما كنت أعلم ذلك...» ثم صاحت فجأة وهي تغوص بوجهها في راحتيها: «لكم تفرحونني! وأنا البلهاء التي كانت تناقش بجدّ دون أن تتبيّن أنّكم تسخرون منها».

أمّا السيّد «فيردوران» فقد رأى أن الأخذ بالضحك لأمر طفيف إلى هذا الحدّ يرهق بعض الشيء واكتفى لذلك بسحبة من غليونه وهو يفكّر حزيناً بأنّه لم يعد بمقدوره اللحاق بامرأته في ميدان اللطافة.

وقالت السيّدة «فيردوران» لِـ«أوديت» فيما كانت تتمنّى لها هذه الأخيرة ليلة سعيدة: «تدرين أنّ صديقك يعجبنا كثيراً، فإنّه بسيط وجذّاب؛

وإن لم يتيسّر لك سوى أصدقاء كمثله تقدمينهم لنا فبإمكانك أن تصحبيهم إلينا».

ولفت السيّدُ «فيردوران» إلى أن «سوان» لم يقدر مع ذلك عمّة عازف البيانو.

فأجابت السيّدة «فيردوران»: «لقد أحسّ ذلك الرجل ببعض الغربة، ولست تبغي أن يملك للمرة الأولى لهجة أهل البيت كالدكتور «كوتار» الذي أصبح من أفراد عشيرتنا الصغيرة منذ عدّة سنوات. إنّه لا حساب للمرّة الأولى، ففائدتها كانت في مران اللسان. من المتفق عليه يا «أوديت» أنّه سيلحق بنا إلى الشاليه» في الغد؛ فهل تمرّين به لاصطحابه؟».

- «ولكنّه لا يريد».

- «فكما يحلو لك إذاً. وأملنا ألا يتخلّى عنا في آخر لحظة!».

ولكنّه لدهشة السيّدة «فيردوران» الشديدة لم يتخلّف في يوم، فقد أخذ يلحق بهم في كلّ مكان، فأحياناً في مطاعم الضاحية حيث لا يذهبون كثيراً بعد، إذ لم يحن الموسم، والأغلب في المسرح الذي كانت السيّدة «فيردوران» تحبّه حبّاً جمّاً. وإذ قالت ذات يوم أمامه في منزلها إن بطاقة توصية ربّما كانت عظيمة الفائدة لهم في أمسيات العروض الأولى والحفلات الساهرة وأنّهم شعروا بحرج عظيم أنْ لم يتوافر لهم شيء من هذا القبيل يوم دفن «غامبيتّا»، أجاب «سوان»، وما كان يتحدّث البتّة عن معارفه المرموقين بل يقتصر على غير المرغوب فيهم الذين يرى في التستر عليهم قلّة لباقة والذين تعوّد أن يضع في عدادهم في حارة «سان جيرمان» معارفه في دنيا الرسميّين، أجاب قائلاً:

- «أعدك بأن أهتمّ بالأمر وستحصلين عليها في الوقت المحدّد حال إعادة عرض «عائلة داينشيف»، فإني أتناول طعام الغداء غداً مع قائد الشرقة في «الإيليزيه».

وصاح الدكتور «كوتار» بصوت كهزيم الرعد: «ماذا تقول، في

«الإيليزيه»؟» فأجاب «سوان» وبه بعض الضيق من الأثر الذي خلفته جملته: «أجل لدى السيّد «غريفي»».

وقال الرسّام للدكتور ممازحاً: «وهل يعتريك ذلك كثيراً؟».

كان الدكتور «كوتار» يقول، بعامّة، بعد ما يزودونه بالشرح: «حسن، حسن، الأمر على ما يرام» ولا يُبدي من بعد أثراً لانفعال. إلّا أنّ كلمات «سوان» الأخيرة بلغت هذه المرّة الحدّ الأقصى من دهشته أن يكون الرجل الذي كان يتناول طعام العشاء معه والذي لا يشغل وظائف رسميّة أو يتمتّع بأيّة شهرة على علاقة حسنة برئيس الدولة.

- «كيف ذلك، السيّد «غريفي؟» أو تعرف السيّد «غريفي»؟ يقول لِ«سوان» بمظهر الأبله المتشكّك الذي يتخذه موظف بلدية يطلب إليه رجل مغمور مقابلة رئيس الجمهورية والذي يؤكّد، بعدما يدرك من هذه الكلمات «من هو عميله»، حسبما تقول الصحف، يؤكّد للمعتوه المسكين أنّه سيحظى بالمقابلة في الحال ويقوده إلى المستوصف الخاصّ بالمستودع.

وأجاب «سوان» وهو يحاول أن يطمس ما كانت تبدو عليه العلاقات برئيس الجمهورية، في نظر محدّثه، من روعه بالغة: «معرفتي به يسيرة، فلدينا أصدقاء مشتركون (ولم يجرؤ على القول بأنّ الأمير «دوغال» من أصدقائه)، وهو على أية حال سهل الدعوات، إني أؤكد لك أن حفلات الغداء هذه لا سلوى بها البتّة وهي على قدر كبير من البساطة ولا يحضر فيها قطّ أكثر من ثمانية».

وتبنّى «كوتار» في الحال، بالاستناد إلى حديث «سوان»، الرأي التالي في ما يخصّ قيمة الدعوة لدى السيّد «غريفي» وقوامه أنها أمر غير مرغوب فيه كثيراً وشائع بين الناس. ولم يدهش مذ ذاك أن يتردّد على «الإليزيه» «سوان» وغير «سوان»، بل كان يرثي قليلاً لحاله أن ذهب إلى حفلات غداء يقرّ المدعو نفسه أنّها مملّة. وقال بلهجة الخفير الجمركي، وكان حذراً منذ لحظة، ولكنّه بعد إيضاحاتك يزودك بالتأشيرة ويدعك تمرّ دون أن يفتح حقائبك: «آه! حسن، حسن، كلّ شيء على ما يرام».

وقالت السيّدة «فيردوران» التي كان يبدو رئيس الجمهورية في نظرها شخصاً مزعجاً ورهيباً على نحو خاصّ لأنّه يملك وسائل الإغراء والقسر التي تستطيع إن استخدمت مع الخُلّص أن تحملهم على الهجران: «آه! إنّي أصدّق أن حفلات الغداء هذه ينبغي ألّا تكون مسلّية وأنّك على قدر من قوة النفس حتى تذهب إليها. إنّه فيما يبدو شديد الصمم ويتناول طعامه بأصابعه».

وقال الدكتور بشيء من الإشفاق: «إنّك بالتأكيد إذن لا تجد كبير سلوة في التردّد إليها»، وإذ تذكّر عدد المدعوين الثمانية سأله بحماسة عالم اللغة أكثر منه بفضول المتسكّع: «أهي حفلات غداء خاصّة؟».

ولكنّ التي كان يتمتع بها رئيس الجمهورية في نظره تغلّبت في النهاية على تواضع «سوان» وسوء طويّة السيّدة «فيردوران» فكان «كوتار» يسأل باهتمام في كلّ عشاء: «ترانا سنرى «سوان» هذا المساء؟ فإن له صلات شخصيّة بالسيّد «غريفي». أفذلك ما يسمّونه «جنتلمان»؟» وبلغ به الأمر أن قدّم له بطاقة دعوة إلى المعرض السنّيّ.

– «سيسمح لك بالدخول مع الأشخاص الذين سيكونون برفقتك، إلا أنّه لا يسمح بدخول الكلاب. وإني أقول ذلك كما تعلم لأنّه كان من بين أصدقائي من لم يعرفوا ذلك فعضّوا أصابعهم ندماً».

أما السيّد «فيردوران» فقط لاحظ الأثر السيئ الذي خلّفه في زوجته اكتشاف ما لِ«سوان» من صداقات قويّة النفوذ لم يتحدّث البتّة عنها من قبل.

كان «سوان» يجتمع بالنواة الصغيرة في منزل أسرة «الفيردوران» إن لم يتم إعداد حفلة ساهرة في الخارج، ولكنّه لا يجيء إلا في المساء ولا يقبل البتّة تقريباً الدعوة إلى العشاء على الرغم من رجاء «أوديت» الملحّ.

وكانت تقول: «ربما أمكن أن أتناول طعام العشاء وحيدة معك إن فضلت ذلك».

– «والسيّدة «فيردوران»؟».

- «الأمر بسيط جداً، فقد لا يقع عليّ إلا أن أقول إنّ فستاني لم يكن جاهزاً وإنّ عربتي جاءت متأخرة، فهناك دوماً وسيلة نتدبّر أمرنا بها».

- «إنّك لطيفة».

ولكنّ «سوان» كان يقول في نفسه إنّه إن أبدى لِ«أوديت» (بمجرّد قبول لقائها بعد العشاء) أن هنالك متعاً يقدّمها على متعة البقاء معها فإنّ الميل الذي تحسّ به تجاهه لن يعرف حدّ الاكتفاء لفترة طويلة. ولما كان يقدّم إلى حدّ بعيد على جمال «أوديت» جمال عاملة صغيرة غضّة العود في زهو الورود وكان قد علقها، فقد كان يفضّل قضاء أوّل السهرة معها إذ هو موقن أنّه سيرى «أوديت» بعد ذلك. وكان لا يقبل للأسباب نفسها أن تأتي «أوديت» لاصطحابه إلى منزل عائلة «الفيردوران». فقد كانت العاملة الصغيرة تنتظره على مقربة من منزله وفي زاوية شارع يعرفه حوذيّه «ريمى»، فتصعد إلى جانب «سوان» وتظلّ بين ذراعيه حتى تقف بها العربة أمام منزل عائلة «الفيردوران». ولدى دخوله وفيما تقول له السيّدة «فيردوران» وهي تريه زهوراً بعث بها في الصباح: «إني أؤنّبك» وتدلّه على مكان إلى جانب «أوديب»، كان عازف البيانو يعزف من أجلهما جملة «فانتوي» الصغيرة التي كانت بمثابة اللحن الوطني لحبّهما. كان يبدأ بارتعاشات الكلمات التي تسمع وحيدة على مدى بعض الفواصل وتشغل كامل الحيّز الأمامي ثم تبدو فجأة وكأنّها تتنحى وتلوح الجملة الصغيرة، كما في لوحات لِ«بييتر دوهوخ Peeter de Hooch» يعمّقها الإطار الضيق لباب نصف مفتوح، في البعيد البعيد بلون مغاير تماماً وفي عذوبة إنارة غير مباشرة وهي تتراقص في لون رعويّ منضاف عرضي جاء من عالم آخر. كانت تمرّ في ثنيات بسيطة خالدة توزّع ههنا وهناك هِبات ملاحتها بالبسمة نفسها التي تمتنع على التعبير- ولكن «سوان» يظنّ أنّه يميّز فيها الآن خيبة أمل، فقد كانت تبدو وكأنّها تَعْلَمُ بطلان هذه السعادة التي كانت تدلّك على طريقها. لقد كان في ملاحتها الهوائية شيء له صفة المُنْجَز كمثل اللامبالاة التي تعقب الأسف. ولكن أيّة أهميّة لذلك، فقد كان لا ينظر إليها إلّا في القليل في

حدّ ذاتها - وفي ما يمكن أن تعبّر عنه بالنسبة إلى موسيقيّ كان يجهل وجوده ووجود «أوديت» حينما ألفها وبالنسبة إلى جميع الذين سيسمعونها على مدى قرون - بل هو يعتبرها بمثابة عربون وذكرى لحبّه، عربون يحمل حتى أسرة «الفيردوران» وعازف البيانو الشابّ على التفكير بـ«أوديت» وبه في الوقت نفسه ويؤلّف بينهما. وقد بلغ الأمر به حدّاً تخلّى فيه، إذ رجته «أوديت» في ذلك تظرّفاً، عن مشروعه في أن يعزف له أحد الفنّانين كامل السوناتا التي ظلّ لا يعرف منها سوى هذا المقطع. كانت تقول له: «ما حاجتك بالبقيّة؟ فتلك هي مقطوعتنا». وكان إذ يعاني من التفكير، لحظة تمرّ شديدة القرب ولكنّها بعيدة إلى ما لا نهاية، بأنّها فيما تتوجّه إليهما لا تعرفهما، كان يأسف حتى أن تكون لها دلالة وجمال ضمنيّ ثابت غريب عنهما مثلما يسؤونا في الجواهر المهداة أو حتى في الرسائل التي سطّرتها امرأة حبيبة ألا يكون صفاء الحجر الكريم ولفظات اللغة قد صنعت من محض جوهر علاقات عابرة ووجود خاصّ.

وغالباً ما اتفق لـ«سوان» أن يتأخّر مع العاملة الشابّة قبل أن يذهب إلى منزل أسرة «الفيردوران» حتى إنه ما إن يتمّ عزف الجملة الصغيرة على يد عازف البيانو حتى يتبيّن أنّه قد آن «لأوديت» أن تعود. وكان يصحبها حتى باب منزلها الصغير في شاعر «لابيروز» خلف قوس النصر. ولعلّه كان يضحّي بسبب ذلك، وكي لا يطلب منها جميع الامتيازات، بالمتعة الأقلّ ضرورة في نظره في أن يراها قبل ذلك وأن يصل إلى منزل أسرة «الفيردوران» بصحبتها، في سبيل ممارسة هذا الحقّ الذي تعترف له به في الذهاب سويّة والذي كان يعلّق عليه أهميّة أكبر لأنّه إنما يتراءى له بفضله أنه لا يراها أحد ولا يدخل بينهما أحد فيمنعها أن تظلّ معه بعدما يكون غادرها.

وهكذا كانت تعود في عربة «سوان». وفيما كانت تنزل منها ذات مساء وهو يستودعها حتى الغد قطفت على عجل في الحديقة الصغيرة التي قبل البيت أقحوانة أخيرة وأعطته إيّاها قبل عودته. فأمسك بها يشدّها إلى

شفتيه في أثناء العودة ولمّا ذبلت الزهرة بعد بضعة أيّام وضعها باهتمام كبير في خزانة أوراقه.

ولكنّه ما كان يدخل البتّة إلى منزلها؛ مرّتين فقد ذهب بعد الظهر ليشارك في هذه العمليّة الأساسيّة بالنسبة إليها: «تناول الشاي». كانت العزلة وخلوّ هذه الشوارع القصيرة (وكلها نزل صغيرة متجاورة تحطّم رتابتها فجأة دكان مشؤومة هي شهادة تاريخيّة وبقيّة قذرة من الزمن الذي كانت لا تزال هذه الأحياء فيه مشبوهة) والثلج الذي ظلّ في الحديقة وعلى الأشجار وزينة الموسم التي لا تصنّع فيها وجوار الطبيعة تضفي شيئاً من جوّ الأسرار على الجوّ الدافئ وعلى الأزهار التي لقيها وهو داخل.

كان هنالك درج مستقيم يخلّي إلى يساره في الطابق الأرضي المرتفع حجرة نوم «أوديت» المطلة من الخلف على شارع موازٍ صغير ويصعد بين جدران مطليّة بلون قاتم تتدلّى منها أقمشة شرقيّة وخيوط مسابح تركيّة ومصباح ياباني كبير معلّق بحبل حريريّ (وكان يضاء بالغاز كي لا يتمّ حرمان الزوار من آخر أسباب الراحة في الحضارة الغربية) إلى الصالة والبهو الصغير. وكان يسبقهما ردهة ضيّقة جدارها مكسو بترابيع عريش حدائقي ولكنّه مذهب ويحيط به على امتداد جوانبه صندوق مستطيل يزهر فيه وكأنما في قفص زجاجي صف من أزهار الأقحوان الضخمة، وهي نادرة في تلك الحقبة ولكنها بعيدة عن تلك التي أفلح خبراء البستنة في الحصول عليها فيما بعد. كان «سوان» منزعجاً من جراء المودة التي انصبّت عليها منذ السنة الماضية. ولكنّه ابتهج هذه المرّة لدى رؤية الظلمة اليسيرة في الحجرة المخططة باللون الوردي والبرتقاليّ والأبيض من جرّاء الأشعة العطرة المنبعثة من تلك الكواكب الزائلة التي تضيء في الأيام العاتمة. لقد استقبلته «أوديت» بقميص نوم من الحرير الوردي وعنقها مكشوف وكذلك ذراعاها. وأجلسته بالقرب منها في واحد من أماكن العزلة الخفيّة العديدة التي كانت معدّة في حنايا الصالة تظلّلها أشجار بلح عملاقة تحتويها أوعية صينية أو سواتر ثبّتت عليها بعض الصور وأشرطة

معقودة ومراوح يدويّة. وقالت له: «لست مرتاحاً على هذا النحو، فانتظر فإني سوف أتدبّر أمرك»، ثم وضعت خلف رأس «سوان» وتحت قدميه وسائد من الحرير الياباني تعركها بين يديها كأنّما هي مسرفة بهذه الثروات ولا تبالي بقيمتها، وقد أطلقت الضحكة القصيرة المزهوّة التي ربّما لجأت إليها من جرّاء اختراع خاص بها. إلا أنها حينما جاء الخادم يحمل على التوالي المصابيح العديدة، وقد جُعلت كلّها في آنية خزفية صينيّة ترسل ضياءها فرادى أو ثُنى وكلها فوق قطع مختلفة من الأثاث، كأنّما على هياكل، وقد أعادت في الشفق الذي استحال ظلاماً أو كاد غروب شمس أكثر ديمومة وأشرقَ لوناً وردياً وأوفر إنسانية - وربّما أيقظت في الشارع أحلام مولّه وقف أمام سرّ الحضور الذي كان يكشف عنه ويخفيه في آن معاً الزجاج الذي بُعث فيه الضياء ثانية - أخذت تراقب الخادم بحزم من طرف العين لترى إن كان يُحسن وضعها في المكان المخصّص لها. فقد كانت تظن أنّه إن وضع واحداً فحسب حيث لا ينبغي فإنما ينهدم بذلك الانطباع الإجمالي عن الصالة وتسوء إنارة صورتها الموضوعة على حامل خشبي مائل ملفوف بقماش مخمليّ. وكانت لذلك تتابع بحرارة حركات هذا الرجل الفظّ وقد أنّبته بشدّة لأنه اقترب كثيراً من حوضين كانت تحتفظ لنفسها بحق تنظيفهما لخشيتها من الإضرار بهما وذهبت تنظر عن كثب لتتأكد من أنّه لم يتلف زاويتهما. لقد كانت ترى في جميع التحف الصينيّة لديها أشكالاً «مسلية» وكذلك في أزهار الأوركيدا ولا سيّما «الكاتليّا» التي تؤلف مع أزهار الأقحوان أفضل ما لديها، لأنّ لها الفضل العظيم الذي قوامه أنها لا تُشبه الأزهار بل هي من حرير وساتين. «هذه تبدو وكأنها قُصت في بطانة معطفي»، تقول، وهي تُري «سوان» زهرة أوركيدا بلهجة يخالطها التقدير لهذه الزهرة «الأنيقة جدّاً»، لهذه الشقيقة الأنيقة اللامتوقّعة التي تهبها الطبيعة لها وهي شديدة البعد عنها في سلّم الكائنات ولكنّها رقيقة وأهل لأن تَفْسَحَ لها مكاناً في صالتها أكثر من العديد من النساء. وكانت ساعة تريه على التوالي وحوشاً بألسن من لهب تزين آنية خزفية أو

طرّزت على ستارة، وتويجات باقة من زهر الأوركيدا وجَمَلاً من فضّة عليه نقش أسود وقد رصّعت عيناه بأحجار الياقوت الأحمر وهو بجوار ضفدع من اليشم على الموقد، كانت تتظاهر حيناً بالخوف من أذيّة الوحوش وحيناً بالضحك من غرابتها وآخر بالخجل من قلّة احتشام الأزهار وبالإحساس برغبة لا تقاوم في المبادرة إلى تقبيل الجمل والضفدع اللذين تدعوهما «حبيبيها». وكانت ضروب التصنّع تلك تناقض بعض مظاهر التقوى لديها ولا سيّما تجاه «سيّدة لاغيه» التي سبق أن شفتها فيما مضى من مرض عضال حينما كانت تقطن مدينة «نيس» وظلّت تحمل لها أيقونة ذهبيّة تخصها بسلطان لا حدّ له. وأعدت «أوديت» الشاي لـ«سوان» على طريقتها وسألته: «بالليمون أم القشدة؟» وإذ أجاب «بالقشدة» قالت لها ضاحكة: «كمثل سحابة!» ولمّا وجده طيّباً: «أنت ترى أنّني أعرف ما تحب» والحقيقة أنّ ذلك الشاي بدا لـ«سوان» كما بدا لها شيئاً ثميناً؛ وإنما الحبّ كبير الحاجة إلى إيجاد ما يبرّره وما يضمن ديمومته في المتع التي لولاه لما كانت على العكس متعاً بل تنتهي بانتهائه حتى إنه حينما فارقها في الساعة السابعة ليعود إلى منزله لارتداء ثيابه كان يردد لنفسه طوال المسافة التي قطعها في عربته وهو لا يستطيع كتم الفرح الذي أشاعته فيه فترة ما بعد الظهيرة؛ لعله من الممتع جداً أن يتفق لك هكذا شخص محبب يمكنك أن تلقى لديه هذا الشيء النادر جداً، أي الشاي الطيب». وبعد ساعة بلغته كلمة من «أوديت» وتعرّف في الحال هذا الخط الكبير الذي فرض فيه تصنع الجفاف البريطاني مظهراً من النظام في حروف عديمة الشكل ربّما دلت في نظر من كان أقل اطلاعاً على فوضى الفكر ونقصان التربية وانتفاء الصراحة والإرادة. وكان «سوان» قد نسي علبة سكائره في منزل «أوديت». «يا ليتك نسيت قلبك أيضاً هناك، إذن لما سمحت لك باستعادته».

واتخذت زيارة أخرى لها ربما مزيداً من الأهمية. فإذا كان في طريقه إليها في ذلك اليوم أخذ يتمثلها مسبقاً شأنه في كل مرة ينبغي له أن يراها فيها. كانت تبعث فيه الضرورة التي هو فيها في أن يَقْصُر الخدين، اللذين

يغلب أن يكونا شاحبين واهنين، تنتثر فوقهما أحياناً نقاط حمر صغيرة، على عظم الوجنتين الموردتين الزاهيتين كيما يجد وجهها جميلاً، كانت تبعث فيه الغم على أنها الرهان بأن المثل الأعلى عزيز المنال وأن السعادة تافهة. وكان يحمل إليها صورة مطبوعة تحبّ أن تراها. وكانت مريضة بعض الشيء فاستقبلته بعباءة من حرير صيني بنفسجي اللون وهي ترد إلى صدرها قماشاً فاخر التطريز وكأنه معطف. ووقفت إلى جانبه وقد أرسلت شعرها الذي حلته على طول خديها وثنت إحدى ساقيها في وقفة تقارب الرقص كي تتمكن من أن تميل دونما تعب على الصورة التي تنظر إليها حانية الرأس بعينيها الكبيرتين المتعبتين الكئيبتين إلى حد بعيد حينما تهزها الحمية فأدهشت «سوان» بالشبه بينها وبين وجه «زيفورا» ابنة «جيترو» المرسومة على لوحة جدارية في كنيسة الـ«سكستين». لقد كان لدى «سوان» ميل خاص يحب به أن يلقى في رسوم الأساطين لا الخصائص العامة للواقع الذي يحيط بنا فحسب بل ما يبدو على العكس أقل ما يمكن أهلاً للعمومية كالملامح الفردية في الوجوه التي نعرفها: ففي تمثال نصفي عائد للدوج «لوريدان» من أعمال «أنطوان ربزو» بروز عظم الوجنتين وانحراف الحاجبين والشبه الصارخ بينه وبين حوذيه «ريمى»، وفي ألوان الرسام «غير لاندايو» أنف السيد «بالانسي»، وفي صورة للرسام «تنتوريتو» اجتياح أول شعر السالفين لأعلى الخدين لدى الدكتور «دو بولبون» وكسرة أنفه ونفاذ نظرته واحقان جفنيه. فربما ظن، وقد أنّبه على الدوام ضميره من أن قصر حياته على العلاقات الدنيوية والمحادثة، ربما ظن أنه يلقى ضرباً من التسامح والمغفرة يهبه له الفنانون العظام في أنهم تأملوا هم أيضاً مثل هذه الوجوه باغتباط وأدخلوها في أعمالهم الفنية، هذه الوجوه التي تضفي على تلك الأعمال شهادة فريدة في الواقع والحياة ونكهة عصرية؛ وربما غمره كذلك طيش أهل المجتمع إلى الحد الذي كان يشعر معه بحاجة العثور في عمل فني قديم على هذه التلميحات المستبقة الزاخرة بالشباب إلى أسماء أعلام من يومنا. وربما احتفظ على العكس بما يكفي

من طبيعة الفنان لتحمل له هذه الميزات الفردية بعض المتعة إذ تتخذ دلالة أكثر شيوعاً حالما يشاهدها مقتلعة منتزعة في الشبه الذي بين صورة أقدم عهداً والأصل الذي لا تمثله. ومهما يكن من أمر ولأن كامل الانطباعات التي يشعر بها منذ بعض الوقت ربما أغنت ميله إلى التصوير، مع أنها توافرت له قبل ذلك في حبه للموسيقى، فقد كانت المتعة أكثر عمقاً - وقد أثرت في «سوان» تأثيراً ثابتً - تلك التي لقيها في تلك اللحظة في التشابه ما بين «أوديت» و«زيفورا» التي رسمها «ساندرو دي ماريانو» الذي يحلو لهم أن يطلقوا عليه لقبه الشعبي «بوتيتشللي» منذ أن أصبح هذا اللقب يذكّر بالفكرة التافهة والمغلوطة التي شاعت عن أعماله عوضاً عن أن يذكر بأعمال الرسام الحقيقية. ولم يعد يقدر وجه «أوديت» وفق الزيادة والنقصان في مقدار جودة وجنتيها وحسب نعومة اللحم البحتة التي يفترض أنه سيلقاها ساعة يلامسهما بشفتيه إن تجرأ يوماً وقبلها، بل على أنه شلة من الخطوط الدقيقة الجميلة التي لفتها نظراته وهي تتابع انحناءة التفافها وتلحق بإيقاع العنق في نقطة تدفق الشعر وتكسر الأجفان وكأنما في رسم لها أصبح فيه نموذجها سهل الإدراك واضحاً.

كان ينظر إليها، ويظهر جزء من اللوحة الجدارية في وجهها وجسمها حاول على الدوام مذ ذاك أن يلقاه فيهما سواء أكان بالقرب من «أوديت» أم فكر فيها فحسب؛ ومع أنه لم يهتم دونما شك بالرائعة الفلورانسية إلا أنه يلقاها فيها فإن هذا التشابه كان يضفي عليها هي الأخرى جمالاً ويجعلها أكثر قيمة. ولام «سوان» نفسه على أنّه تجاهل قيمة كائن لعله بدا بالأمس محبباً جداً إلى نفس «ساندرو» العظيم وهنّأ نفسه على أن المتعة التي يلقاها في رؤية «أوديت» تجد لها تبريراً في ثقافته الجمالية ذاتها. وأسرّ لنفسه أنه إذ قرن التفكير بـ«أوديت» بأحلام السعادة لديه فإنه لم يرتضِ حلاً رديئاً تعتوره الشوائب إلى الحد الذي ظنه حتى ذاك بما أنها كانت ترضي فيه أكثر ميوله الفنية شفافية. وكان ينسى أن «أوديت» لم تكن لذلك امرأة أقرب إلى ما يرغب لأن رغبته قد اتجهت على الدوام وجهة

تناقص ميوله الجمالية. وقد أدت كلمة «العمل الفني الفلورانسي» خدمة كبيرة لـ«سوان»، فقد سمحت له، شأن أحد الألقاب، بإدخال صورة «أوديت» في دنيا أحلام لم تدخلها حتى ذاك واكتسبت بها كرم الأصل. وفيما كانت الرؤية الجسدية المحضة التي اتفقت له عن هذه المرأة تضعف حبه إذ تجدد باستمرار شكوكه حول جودة وجهها وجسمها وكامل جمالها، قضي على تلك الشكوك وتأكد ذلك الحب حينما تيسر له مكانها بمثابة أساس لها معطيات جمالية أكيدة؛ أضف أن القبلة والامتلاك اللذين كانا يبدوان عاديين وطفيفين إن جاد بهما جسد متلف، إنما يبدوان حتماً خارقين ولذيذين إذ هما يتوجان تعشّق قطعة تضمها المتاحف.

وحينما يغريه أن يأسف أنه قصر نفسه منذ شهور على رؤية «أوديت» كان يقول في نفسه إنه من المعقول أن يخص بالكثير من وقته رائعة لا تقدر بثمن صُبّت لمرة في مادة مختلفة ولذيذة إلى حد بعيد وفي نموذج بالغ الندرة كان يتأمله تارة بتواضع الفنان وروحانيته وتجرده وطوراً بزهو هاوي المجموعات وأنانيته وشهوانيته.

وجعل على طاولة شغله نسخة من ابنة «جيترو» وكأنها صورة شمسية لـ«أوديت». كان ينظر بإعجاب إلى العينين الواسعتين والوجه الرقيق الذي ينم عن بشرة لا تخلو من عيب وتجعيدات الشعر الرائعة على طول الخدين المتعبين. وكان يلائم بين ما وجده جميلاً حتى ذاك من وجهة جمالية وبين صورة امرأة تنبض بالحياة فيحوله إلى فضائل جسدية يغبط نفسه أنه يجدها مجتمعة في كائن قد يستطيع امتلاكه. وهذا الميل المبهم الذي يدفعنا إلى رائعة فنية نشاهدها أصبح الآن وقد عرف الأصل الجسدي لابنة «جيترو» رغبة حلّت منذئذ محل الرغبة التي لم يوح بها من قبل جسد «أوديت». كان يفكر بعد ما يطيل النظر في لوحة «بوتيتشللي» تلك، بلوحة «بوتيتشللي» التي تخصه والتي كان يجدها أكثر جمالاً ويظن حين يقرب منه صورة «زيفورا» أنه يضم «أوديت» إلى صدره.

على أنه لم يكن يجهد في الحؤول دون فتور عزيمة «أوديت» فحسب

بل دون فتور عزيمته هو أحياناً؛ فقد أخذ يخشى، إذ أحسّ أن «أوديت» تبدو منذ أن نعمت بجميع التسهيلات لرؤيته وكأنه ليس لديها شيء كثير تقوله له، أن تخلص تصرّفاتها القليلة الشأن الرتيبة التي اتخذت شكلاً كأنما نهائياً، هذه التصرّفات التي تقوم بها حينما يكونان سوية، إلى قتل هذا الأمل الخيالي لديه في يوم تشاء أن تبوح فيه بهواها، ذاك الأمل الذي جعله وحده عاشقاً وحفظ عشقه. وكيما يجدد بعض الشيء مظهر «أوديت» الأخلاقي الجامد الذي يخشى أن يمله كان يكتب إليها فجأة رسالة مليئة بخيبات الأمل الكاذبة والغضب المتصنّع يبعث بها إليها قبل العشاء. كان يعلم أن الذعر سيدبّ فيها وأنها ستبعث بالجواب ويأمل أن تنبثق كلمات لم تتفوه بعد بها قط من الانقباض الذي ستعاني منه نفسها من جراء خشيتها أن تفقده؛ - وقد حصل في الحقيقة بهذه الطريقة على أكثر الرسائل التي سطّرتها له رقة، ومن بينها واحدة بعث بها إليها وقت الظهر من «البيت الذهبي» (وكان يومها احتفال «باريس ومورسي» المقام من أجل المتضررين بفيضان «مورسي») وكانت تبدأ بهذه الكلمات: «يا صديقي، إن يدي ترتجف بشدة أكاد لا أستطيع معها الكتابة»، وقد احتفظ بها في درج زهرة الأقحوان اليابسة نفسه. فإن لم يتسع لها الوقت لتكتب، أن تبادر إليه بحرارة حينما يصل إلى منزل «الفيردوران» وتقول له: «لدي كلام أقوله لك» فيتأمل ملياً وبشيء من الفضول على وجهها وفي كلماتها ما خبّأته عنه حتى ذاك داخل فؤادها.

وكان لمجرد أن اقترب من منزل أسرة «الفيردوران» وحينما يشاهد النوافذ الكبيرة التي ما كانت تغلق مصاريعها البتّة وقد أنارتها المصابيح، كان يرقّ قلبه إذ يفكر بالكائن الرائع الذي سوف يراه متهللاً في نورها الذهبي. وكانت ظلال المدعوين تبرز أحياناً نحيفة سوداء وكأنها حاجز أمام المصابيح كمثل هذه الصورة الصغيرة التي يضعونها بين نقطة وأخرى في عاكس نور شفاف أجزاؤه التالية محض ضياء. كان يحاول تمييز خيال «أوديت». وما إن يصل حتى تتألق عيناه دون أن ينتبه للأمر، بغبطة كبيرة

حتى يقول السيد «فيردوران» للرسام: «أعتقد أن الحرارة ترتفع». لقد كان وجود «أوديت» يضيف إلى هذا البيت في نظر «سوان» ما لم يتهيأ لأي من تلك التي كان يستقبل فيها، عنينا نوعاً من الأجهزة الحساسة والشبكة العصبية التي تتفرع في جميع الحجرات وتغذي فؤاده بإثارات مستمرة.

وهكذا فقد كان مجرد تحرك هذه الهيئة الاجتماعية التي تمثلها «العشيرة» الصغيرة يضرب لـ«سوان» مواعيد يومية بصورة آلية مع «أوديت» ويمكنه من التظاهر باللامبالاة وبرؤيتها أو حتى بالرغبة في ألا يراها، والرغبة لا تعرضه لخطر كبير لأنه مهما كتب لها في أثناء النهار فسوف يراها حتماً في المساء ويرافقها في عودتها إلى منزلها.

ولكنه بعدما فكّر باكتئاب إلى عودتهما المحتمة سوية اصطحب عاملته الشابة حتى الغابة كي يؤخر لحظة الذهاب إلى منزل أسرة «الفيردوران»، فوصل إلى منزلهم وقد تأخر إلى حد ظنّت معه «أوديت» أنه لن يجيء فذهبت. ولما رأى «سوان» أنها لم تعد في الصالة أحسّ بألم في قلبه. لقد داخلته الخشية أن يتم حرمانه من متعة كان يقدرها للمرة الأولى إذ كان حتى ذاك على يقين من أنه واجدها ساعة يشاء، ذلك اليقين الذي ينقص في نظرنا المتع بل يحول دون أن نتبين عظمتها.

وقال «فيردوران» لزوجته: «هل رأيت كيف انقلبت سحنته حينما لاحظ أنها لم تكن حاضرة؟ يمكن أن نقول، فيما أعتقد، إنّه منقبض الصدر!».

وسأل لدكتور «كوتار» بلهجة عنيفة، وكان قد ذهب لفترة بالقرب من أحد المرضى وعاد ليصحب زوجته دون أن يعلم حول من يدور الحديث: «كيف انقلبت سحنته؟».

- «كيف ذلك، أو لم تصادف على الباب أجمل وأبهى «سوان»...

- «لا. أوجاء السيد «سوان»؟».

- «للحظة فحسب. لقد شهدنا «سوان» شديد الاضطراب، شديد العصبية. فهمت حتماً، كانت «أوديت» قد ذهبت».

وقال الدكتور: «مرادك أن تقول إنها على ما يرام معه وإنها أرشدته إلى الساعة الفضلى للحب»، قال وهو يجرّب بحذر معنى هذه التراكيب.

- «كلا إنه لا شيء من ذلك البتة ، وأرى في ما يخصني أنها مخطئة وأنها تتصرف تصرف الحمقاوات، وهي حمقاء على أية حال».

وقال السيد «فيردوران»: «تا، تا، تا، وما يدريك أن لا شيء البتة ؟ إننا لم نكن هناك لنرى، أليس كذلك؟».

وردت السيدة «فيردوران» باعتزاز: «لعلها كانت تروي لي عن ذلك. أقول لك إنها تحدثني عن كل مشكلاتها الخاصة! وبما أنها لم تحتفظ بأحد الآن فقد قلت لها إنه ينبغي لها أن تضاجعه. ولكنها تدعي أنها لا تستطيع، وأنها بالتأكيد قد تولعت به ولكنّه خجول معها والأمر يبعث فيها الخجل هي الأخرى. ثم هي لا تحبه على هذا النحو، فهو إنسان مثالي وتخشى أن تدنس الشعور الذي تحس به تجاهه، وغير ذلك مما لا أعلم. مع أن ذلك ما ينبغي لها بالتمام».

وقال السيد «فيردوران»: «اسمحي ألا أشاطرك رأيك، فلست تماماً إلى جانب هذا السيد، وإني أجده متصنعاً».

وتوقفت السيدة «فيردوران» عن الحركة وجمدت ملامحها كما لو أضحت تمثالاً؛ وهذا الإيهام يسمح أن يفترض أنها لم تسمع لفظة «المتصنع» هذه التي لا تطاق والتي بدا أنها تضمن أنه يمكن لأحد أن «يتصنع» معهم وذلك يعني أنه «أكثر منهم»».

وقال السيد «فيردوران» مستهزئاً: «إن لم يكن شيء فلست أحسب أن الأمر يكمن في أن السيد يظنها «فاضلة». ثم إنه لا يمكن أن تقول شيئاً، إذ يبدو وكأنه يحسبها ذكية. فلست أدري إن سمعت ما كان يرويه لها في تلك الأمسية حول سوناتا «فانتوي»؛ إنني أحب «أوديت» من صميم فؤادي، بيد أنه لا بدّ أن يكون المرء بالغ السذاجة حتى يوافيها بنظريات حول علم الجمال».

وقالت السيدة «فيردوران» وهي تتصنع الطفولة: «هيا، لا تتناول «أوديت» بسوء، فإنها فاتنة».

- «ولكن ذلك لا يحول دون أن تكون فاتنة، فلسنا نتناولها بالسوء، وإنما نقول إنها ليست الفضيلة بالذات ولا الذكاء». ثم قال للرسام: «وهل يهمكم في الأساس إلى هذا الحد أن تكون فاضلة؟ فلربما أضحت بذلك أقل فتنة بكثير، من يدري؟».

كان قد لحق بـ«سوان»، على صحن الدرج، رئيس الخدم الذي لم يكن حاضراً لحظة وصل وكانت «أوديت» قد كلّفته أن يقول له، - ولكن ساعة كاملة أنقضت مذ ذاك - إن اتفق له بعد أن يجيء، إنها ستذهب على الأرجح لتناول الشوكولا عند «بريفو» قبلما تعود إلى البيت. وانطلق «سوان» إلى مطعم «بريفو» ولكن عربته تستوقفها في كل لحظة عربات أخرى أو ناس يجتازون وهم بمثابة عوائق كان يسعد أن يلقيها أرضاً لو لم يؤخره ضبط رجل الشرطة أكثر من مرور المشاة. كان يحسب الوقت الذي يستغرقه ويضيف بضع ثوانٍ إلى جميع الدقائق ليتأكد من أنّه لم يبالغ في تقصيرها، الأمر الذي قد يجعله يظن حظه في الوصول في وقت مبكر بعض الشيء وفي لقيا «أوديت» أوفر مما كان في الحقيقة. وكمثل رجل محموم أغفى منذ قليل ثم وعى عبث الأحلام التي تتوالى عليه دون أن يميّز نفسه عنها تمييزاً واضحاً، تبين «سوان» فجأة في ذاته غرابة الأفكار التي يرددها منذ اللحظة التي قِيل له فيها في منزل «الفيردوران» إن «أوديت» ذهبت، وجدّة العذاب الذي يعاني منه فؤاده والذي لاحظه مع ذلك فقط وكأنما هو يفيق من غفوته. ما هذا؟ كل هذا الاضطراب لأنه لن يرى «أوديت» إلا في الغد، وهو ما كان يتمنّاه بالضبط منذ ساعة وهو في طريقه إلى منزل «الفيردوران»! واضطر أن يلاحظ أنه لم يعد الرجل نفسه ولم يعد وحيداً في هذه العربة التي تقله إلى مطعم «بريفو» وأن إنساناً جديداً كان هناك معه لاصقاً به مندمجاً معه وربما استطاع أن يتخلص منه وسوف يضطر معه إلى اللجوء إلى صنوف المداراة وكأنما هو سيد أو داء. بيد أن

حياته أخذت تبدو له أكثر إمتاعاً منذ أن أحس أن شخصاً جديداً قد انضاف إليه. وما كان إلا بالجهد ليسرّ إلى ذاته بأن هذا اللقاء الممكن في مطعم «بريفو» (الذي كان انتصاره يسلب اللحظات التي سبقته ويعريها إلى الحد الذي لم يعد يلقى معه فكرة واحدة وذكرى واحدة يستطيع أن يدع فكره يخلد إلى الراحة خلفهما) إنما يبدو من المرجح أنه لو تمّ فسوف يكون كاللقاءات الأخرى، يعني شيئاً يسيراً. فما إن سيصبح في حضرة «أوديت» حتى يتوقف، شأنه كل مساء، إذ يسترق نظرة إلى وجهها المتبدل يحولها في الحال مخافة أن تبصر فيها تباشير رغبة وألا تؤمن بتجرده من بعد، عن إمكان التفكير بها وقد شغله تماماً أمر إيجاد أعذار تمكنه من ألا يتركها في الحال وأن يتيقن أنه سوف يلقاها في الغد في منزل «الفيردوران» دون أن يبدو أنه متمسك بذلك، أي ليطيل في اللحظة الراهنة وليجدد ليوم آخر الخيبة والعذاب اللذين يحملهما إليه وجود لا طائل تحته لهذه المرأة التي كان يقترب منها وتخونه الجرأة في تقبيلها.

ولم تكن في مطعم «بريفو»، فأراد أن يبحث في جميع مطاعم الشوارع الكبيرة. وفيما كان يزور بعضها أرسل، التماساً لكسب الوقت، إلى بعضها الآخر حوذيه «ريمي» (الدوج «لوريدان دي ريزو») الذي راح ينتظره فيما بعد - بعد أن لم يلق هو شيئاً - في المكان الذي حدده له. ولم تعد العربة وكان «سوان» يتمثل اللحظة التي تقترب على أنها في الآن نفسه تلك التي سيقول له «ريمي» فيها: «هذه السيدة ههنا» وتلك التي سيقول له فيها: «لم تكن تلك السيدة في أي من المقاهي». وهكذا كان يبصر أمامه نهاية الأمسية، واحدة وتتيح الخيار مع ذلك، يسبقها إمّا لقاء «أوديت» الذي سيقضي على قلقه وإما التخلي الاضطراري عن لقائها ذلك المساء بارتضاء العودة إلى المنزل دون أن تتوافر له مشاهدتها.

وعاد الحوذي، ولكنه لحظة وقف أمام «سوان» لم يقل له هذا الأخير: «تراك عثرت على هذه السيدة؟» بل: «ذكرني في الغد أن أوصي على حطب، ففي ظني أن المؤونة لا بدّ شارفت على النفاد». وربما كان

يقول في نفسه إنه إن اتفق أن لقي «ريمي» «أوديت» في مقهى كانت تنتظره فيه فقد قضي مذ ذاك على نهاية الأمسية المشؤومة من جراء البدء بتحقيق نهاية الأمسية السعيدة وأنه لم يكن بحاجة إلى العجلة لبلوغ سعادة تمّ الظفر بها وهي في مكان أمين ولن تفلت من بعد. على أن ذلك كان مرده أيضاً قوة العطالة، فقد كان في نفسه الافتقار إلى المرونة الذي تشكو منه بعض الكائنات في جسدها، من تلك التي تتمهّل في لحظة تجنب صدمة وإقصاء لهب نار عن ثيابها والقيام بحركة مستعجلة فتبدأ بأن تظل مقدار ثانية في الموقف الذي كانت فيه من قبل كأنما تبغي أن تعثر فيه على نقطة ارتكازها وزخمها. ولو قاطعه الحوذي بقوله: «هذه السيدة ههنا» لأجاب بدون شك: «آه! أجل. صحيح، المشوار الذي أوصيتك به، عجيب، ما كنت لأصدق»، وتابع الحديث معه عن مؤون الحطب ليخفي عليه الانفعال الذي أصابه وليدع لنفسه مجال مقاطعة الاضطراب والانصراف إلى السعادة.

ولكن الحوذيّ عاد ليقول له إنه لم يعثر عليها في أي مكان وأضاف في ذلك رأيه بوصفه خادماً قديماً:

- «في اعتقادي أنه لم يظل للسيد إلا أن يعود». ولكن اللامبالاة التي كان «سوان» يتظاهر بها بسهولة حينما لا يستطيع «ريمي» أن يبدل من بعد شيئاً في الجواب الذي يتقدم به انهار لما رآه يحاول أن يثنيه عن أمله وبحثه، وصاح قائلاً:

- «لن يكون ذلك البتة، ولا بدّ من العثور على هذه السيدة فالأمر بالغ الأهمية. ولسوف تصاب بانزعاج كبير نظراً لمسألة معيّنة وتستاء إن لم ترني».

وأجاب «ريمي» بقوله: «لست أرى كيف يمكن لهذه السيدة أن تستاء بما أنّها هي التي ذهبت دون أن تنتظر سيدي، وأنها قالت إنها ذاهبة إلى مطعم «بريفو» ولم تكن هنالك».

وكانت الأنوار على أية حال قد أخذت تطفأ في كل مكان، وتحت أشجار الشوارع وفي ظلمة مليئة بالأسرار كان المارة القلائل يهيمون وتكاد

لا تتبينهم. واتفق أحياناً لطيف امرأة تقترب منه وتهمس كلمة في أذنه وتسأله أن يرافقها إلى بيتها أن جعله يرتعش. فقد كان يلامس جميع هذه الأجسام الغامضة بقلق كما لو يبحث بين أطياف الأموات وفي مملكة الظلام عن «أوريديس».

وإنما تشكّل رياح الاضطراب التي تعصف بنا أحياناً الصيغة الأكثر فعالية من بين جميع صِيغ إنتاج الحب وجميع عوامل انتشار الداء المقدس. وإن الشخص الذي نعجب به في ذلك الوقت إنما هو مَنْ سنحب، بذلك قضت الأقدار. ولا حاجة حتى أن نكون قد أُعجبنا به حتى ذاك قدر ما أُعجبنا بغير أو أكثر. كان ينبغي فقط أن يصبح ميلنا مقصوراً عليه، ويتحقق هذا الشرط حينما تحل فينا فجأة - في تلك اللحظة التي تفتقده فيها - محل البحث عن المتع التي كان يوفرها لنا رضاه حاجة متلهفة اتخذت من هذا الشخص عينه موضوعها، حاجة لا معقولة تجعلها قوانين هذا العالم مستحيلة الإرضاء وعسيرة الشفاء - الحاجة المجنونة المؤلمة في امتلاكه. وطلب «سوان» أن يُذهب به إلى البقية الباقية من المطاعم. كانت تلك الفرضية الوحيدة في السعادة التي واجهها بهدوء، فلم يعد يخفي الآن اضطرابه والأهمية التي يعلقها على هذا اللقاء ووعد حوذيه بمكافأة في حال نجاحه كما لو أنه يستطيع، إذ يوحي إليه برغبة النجاح التي تنضاف إلى الرغبة التي به هو الآخر، أن يجعل «أوديت» في أحد مطاعم الشارع مع أنها قد عادت إلى منزلها لتنام. وتابع السير حتى «البيت الذهبي» ودخل مرتين إلى مقهى «تورتوني» وكان خارجاً من «المقهى الإنكليزي»، دون أن يكون لذلك قد رآها، وهو يشير بخطى واسعة شارد الذهن ليلاقي عربته التي كانت تنتظره في زاوية شارع «الإيطاليين» حينما اصطدم بشخص كان يمضي في الاتجاه المعاكس: فإذا هي «أوديت». لقد أوضحت له فيما بعد أنها لما لم تلق مكاناً في مطعم «بريفو» فقد ذهبت لتناول العشاء في «البيت الذهبي» في زاوية غائرة لم يكتشفها فيها، وكانت عائدة إلى عربتها.

وما كانت تتوقّع رؤيته مما بعث فيها بوادر ذعر. أمّا هو فقد طاف أرجاء باريس لا لأنّه يظنّ لقاءها محتملاً بل لأنّه يبدو بالغ القسوة عليه أن يتخلّى عن هذا اللقاء. ولكنّ هذه المسرة التي لم تنفكّ يقدّر أنّها مستحيلة التحقيق في ذلك المساء كانت تبدو له الآن أكثر حقيقة لأنه لم يسهم فيها عن طريق توقّع الاحتمالات، بل ظلّت خارجة عنه؛ فلم تكن به حاجة لأن يستخرج من فكره تلك الحقيقة، التي كانت تشعّ حتى لتبدّد كالحلم الوحدة التي خشي منها والتي يشدّ ويريح فوقها أحلامه السعيدة، كيما يزوّده بها فقد كانت تنبعث منها ومنها تنطلق إليه كذلك المسافر الذي وصل في طقس جميل إلى شاطئ المتوسط يدع لناظريه، وقد أصبح يشكّ بوجود البلدان التي غادرها، أن تبهرهما الأشعة التي ترسلها باتجاههما زرقة المياه المشرقة الصلبة عوضاً عن أن يوجه إليها نظراته.

وصعد إلى جانبها في العربة التي كانت معها وأشار إلى عربته أن تلحق بهما. كانت تحمل في يديها باقة أزهار كاتليا ورأى «سوان» تحت منديلها الذي من الدانتيل أن في شعرها أزهاراً من زهر الأوركيدا نفسها ربطت بخصلة من ريش البجع. وكانت ترتدي تحت معطفها سيلاً من المخمل الأسود يكشف عبر ثنية مائلة أسفل تنورة من قماش «الفاي» الأبيض على هيئة مثلّث عريض، كما يبرز أيضاً وصلة صنعت كذلك من «الفاي» الأبيض في فتحة الصدار التي تكشف عن الصدر وحيث غرست أزهار كاتليا أخرى. وما كاد يهدأ روعها من جرّاء الرعب الذي سبّبه لها «سوان» حتى أجفل الحصان أمام أحد الموانع، الأمر الذي دفعهما بقوّة عن موضعيهما فيما صرخت صرخة وظلّت ترتجف بشدّة وقد انحبست أنفاسها. فقال لها:

- «لا بأس عليك، لا تخافي».

وكان يمسك بها من كتفيها ويشدّها إليه كي لا تتحرّك؛ ثم قال لها:

- «خصوصاً لا تحدّثيني ولا تجيبيني إلّا بإشارات كي لا تفقدي أنفاسك أكثر فأكثر. أليس يزعجك أن أقوّم أزهار صدارك التي غيّرت الصدمة من مواضعها؟ فإنيّ أخشى أن تفقديها وأودّ أن أغرزها قليلاً».

فقالت، وهي التي لم تتعوّد رؤية الرجال يلجؤون إلى اللفّ والدوران إلى هذا الحدّ معها، قالت وهي تبتسم:

- «لا، ذلك لا يزعجني البتة».

ولكنه صاح قائلاً وقد أفزعه جوابها وربّما كذلك لأنه بدا وكأنّه كان صريحاً أو بلغ به الأمر أن يعتقد أنّه تمّ له ذلك:

- «لا! خصوصاً لا تتكلمي فسوف تفقدين أيضاً أنفاسك؛ تستطيعين أن تجيبيني بالإشارات وسوف أفهمك تماماً. بصراحة ألا أزعجك؟ انظري، هنالك القليل... أظنّ أنّه غبار الطلع تناثر عليك؛ هلّا سمحت أن أمسحه بيدي؟ ألست أضغط كثيراً، ألست بالغ القسوة؟ بل ربّما دغدغتك قليلاً؟ ذلك أني لا أريد لمس مخمل الفستان كي لا أجعّده. على أنّه كان من الضروري كما ترين أن أثبتها فلولا ذلك سقطت؛ وهكذا حينما أغرزها قليلاً بنفسي... بصراحة، ألست مزعجاً؟ وحينما استنشقها لأرى إن كانت بالحقيقة عديمة الرائحة، ألست مزعج كذلك؟ ما شممت من هذه الأزهار قطّ. فهل أستطيع؟ قولي الحقيقة».

وارتفعت قليلاً بمنكبيها وهي تبتسم كأنّما لتقول: «أنت مجنون، فإنّك ترى أن ذلك يروقني».

كان يرفع يده الأخرى على صفحة خدّ «أوديت»، فنظرت إليه محدّقة بتلك الهيئة المتعبة الرزينة التي تتّخذها نساء المعلّم الفلورانسي اللواتي وجد ما يشبههنّ فيها. وبدت عيناها الملتمعتان الواسعتان الدقيقتان كعيونهنّ، إذ تندفعان إلى حافّة الأجفان، وكأنّهما على وشك الانفلات كمثل دمعتين. وكانت تثني عنقها مثلما يفعلن جميعهن في المشاهد الوثنيّة واللوحات الدينية على حدّ سواء. وبدت، في وضع كان لا شكّ مألوفاً لديها وتعلم أنّه يلائم هذه اللحظات وتحترس أن يفوتها اتّخاذه، بدت وكأنها بحاجة إلى كامل قوّتها كي تمسك بوجهها كما لو أنّ قوّة خفيّة دفعت به نحو «سوان». وكان «سوان» هو الذي أمسك به مقدار لحظة بين يديه على بعد يسير منه قبلما تركته يهوي، وكأنما على الرغم منها، على

شفتيه. لقد شاء أن يدع لفكرة الوقت اللازم ليبادر ويتعرّف الحلم الذي طالما داعبه ويشهد تحقيقه، كمثل قريبة تدعى لتأخذ قسطها من نجاح طفل أحبّته كثيراً. وربما كان «سوان» كذلك يصوّب إلى وجه «أوديت» التي لم يمتلكها بعد، بل التي لم يقبّلها بعد، إلى وجهها هذا الذي يراه للمرّة الأخيرة تلك النظرة التي نودّ بها في يوم سفر أن نحمل معنا منظراً طبيعيّاً نزمع أن نغادره نهائياً.

ولكنه كان شديد الحياء معها حتى إنّه إذ امتلكها في ذلك المساء بعدما بدأ يرتب أزهار الكاتليا لديها لجأ في الأيّام التالية إلى العذر نفسه إمّا مخافة أن يثير استياءها وإمّا خشية أن يبدو بعد الأوان وكأنّه كان كاذباً وإمّا لغياب الجرأة في الإعلان عن مطلب أكثر من ذلك المطلب (الذي كان بوسعه أن يكرّره بما أنّه لم يغضب «أوديت» في المرّة الأولى). فإن حملت من أزهار الكاتليا في صدارها قال: «مؤسف، أزهار الكاتليا في هذا المساء لا حاجة بها إلى الترتيب، فلم تحد من مواقعها شأنها في ذلك المساء؛ على أنّه يبدو أنّ هذه ليست مستقيمة تماماً. فهل أستطيع أن أرى إن لم تكن رائحتها أقوى من تلك؟» أو هو يقول إن لم تحمل شيئاً منها: «آه! لا أزهار كاتليا هذا المساء، ولا سبيل أن أنصرف إلى ترتيباتي الصغيرة». فكان أن لم يتغيّر طوال ردح من الزمن الترتيب الذي اتّبعه في المساء الأول إذ بدأ بلمسات من يديه وشفتيه على عنق «أوديت» وبها ظلّت تبدأ في كلّ مرة مداعباته. وبعد ذلك بكثير حينما عفّى الزمان منذ فترة طويلة على ترتيب أزهار الكاتليا (أو المُخايل في ترتيبها) أعقب التعبير المجازيّ «مارس الكاتليا»، وقد أصبح مجرّد لفظة يستخدمانها دونما تفكير عندما يبغيان بها الدلالة على فعل الامتلاك الجسدي - حيث لا نمتلك شيئاً على أية حال - هذا الاستعمال المنسيّ في لغتهما التي ظلّت تعيد ذكراه. وربّما لم تعن هذه الطريقة الخاصّة في التعبير عن «تعاطي الحبّ»، ربّما لم تعن بدقة الشيء نفسه الذي تعنيه مرادفاته. فعبثاً يكون المرء لا مبالياً في ما يخصّ النساء وينظر إلى امتلاك أكثرهن اختلافاً على أنّه واحد

على الدوام ومعروف سلفاً فإن هذا الامتلاك يصبح متعة جديدة على العكس إن كان الأمر أمر نساء عسيرات إلى حدّ ما - أو هكذا نحسبهنّ - كيما نضطرّ إلى بعثه من حادثة غير متوقّعة في علاقتنا بهن على غرار ما كان ترتيب أزهار الكاتليا بالنسبة إلى «سوان» في المرّة الأولى. فقد كان يأمل، وهو يرتعد خوفاً في ذلك المساء، - (ولكن «أوديت»، يقول في نفسه، لا يمكن أن تحزر، إن كانت ضحيّة حيلته) أنّ ما سينبثق من بين تويجياتها العريضة البنفسجيّة إنما هو امتلاك هذه المرأة. وقد بدت له المتعة التي أخذ يحسّ بها والتي ربّما لم تسمح بها «أوديت»، فيما يظنّ، إلا لأنّها لم تتبيّنها، بدت له لذلك - كما أمكن أن تبدو للرجل الأول الذي تذوّقها بين أزهار الفردوس الأرضيّ - متعة لم يسبق أن وجدت حتى ذاك، متعة يحاول ابتداعها، متعة متميّزة تماماً وجديدة - حسبما يبدو أثر ذلك في الاسم الذي أطلقه عليها.

والآن كان عليه في كل مساء، بعد ما يصحبها إلى منزلها، أن يدخل وغالباً ما تعود فتخرج بمعطف النوم وتصحبه حتى عربته وتقبّله على مرأى من الحوذي وتقول: «ماذا يهمّني من كل ذلك وما لي والآخرين؟» أما في الأمسيات التي لا يذهب فيها إلى منزل «الفيردوران» (وهو ما يحدث أحياناً منذ أن أصبح بإمكانه أن يراها بطريقة أخرى) وفي الأمسيات التي يرتاد فيها المجتمعات الراقية، وقد أضحت أكثر فأكثر ندرة، فقد كانت تطلب منه أن يجيء إلى منزلها قبلما يعود إلى بيته أيّة كانت الساعة. كان الوقت ربيعاً، ربيعاً صافياً شديد البرودة. وكان يصعد لدى خروجه من السهرة في عربته ويمدّ حراماً على ساقيه ويجيب الأصدقاء الذين يذهبون في الوقت الذي يذهب فيه ويطلبون إليه العودة معهم بأنّه لا يستطيع وأنّه لا يذهب في الجهة نفسها، وكان الحوذيّ يمضي بأقصى سرعة وهو يعلم إلى أين الذهاب. أما هم فيدهشون، وفي الحقيقة لم يعد «سوان» الرجل نفسه؛ فما عاد ترد رسالة منه يطلب فيها التعرّف بامرأة، ولم يعد يعير انتباهه لأيّة امرأة وأخذ يمتنع عن الذهاب إلى الأماكن التي يلقى المرء

بعضهنّ فيها. كان يتّخذ في مطعم في الريف موقفاً يناقض تماماً ذلك الذي كنت تعرفه به بالأمس فقط وكان يبدو أنّه ينبغي أن يكون على الدوام موقفه. فما أكثر ما يصبح الهوى فينا بمثابة طبع مؤقت ومختلف يحلّ محلّ الآخر ويلغي العلامات الثابتة حتى ذاك والتي كان يستبين بها! ولكنّ ما أصبح بالمقابل ثابتاً الآن هو أنّ «سوان» لم يعد يحجم عن اللحاق بـ«أوديت» أنّى كان. كانت المسافة التي تفصله عنها تلك التي يجتازها حتماً وكأنّها انحدار حياته ذاتها، انحدار سريع لا يقاوم. ولعلّه كان يفضّل، والحقّ يُقال، بعد ما يتأخّر في الغالب في المجتمعات الراقية، أن يعود مباشرة إلى منزله دون أن يقوم بهذا المشوار الطويل وألا يراها إلا في الغد؛ ولكنّ مجرّد تكلف هذا العناء للذهاب إلى منزلها والتخمين بأن الأصدقاء يقولون في أنفسهم لدى فراقه: «إن له ارتباطات قوية وهنالك بالتأكيد امرأة تلزمه أن يكلف نفسه عناء الذهاب إلى منزلها أيّة ساعة»، كل ذلك يبعث فيه إحساساً بأنه يقضي حياة الناس الذين تعترض حياتهم مسألة حبّ والذين تولّد فيهم تضحيتهم براحتهم ومصالحهم في سبيل حلم إمتاعي سحراً داخلياً. ثم إن ذلك اليقين بأنها تنتظره وأنها ليست مع آخرين في مكان آخر وأنه لن يعود دون أن تتمّ له رؤيتها إنما يبطل، دون أن يتبيّن ذلك، مفعول ذلك القلق المنسيّ، ولكنّه على الدوام وشيك الانبعاث، الذي عانى منه في المساء الذي لم تكن فيه «أوديت» في منزل أسرة «الفيردوران» والذي تبدو هدأته الحالية عذبة حتى ليمكن أن نطلق عليه اسم السعادة. وربّما كان مديناً لهذا القلق في الأهميّة التي اتخذتها «أوديت» بالنسبة إليه. فالناس بالعادة قليلو الأهمية بالنسبة إلينا حتى ليبدو لنا أنّنا حينما وضعنا في أحدهم مثل تلك الإمكانات في الألم والفرح بالنسبة إلينا فإنّه يبدو في عالم آخر ويلفّه الشعر ويجعل في حياتنا ما يشبه مساحة مؤثّرة يصبح فيها أكثر أو أقلّ قرباً منّا. وما كان «سوان» يستطيع أن يسائل نفسه دونما اضطراب عمّا سوف تصبح «أوديت» بالنسبة إليه في السنوات القادمة. وكان أحياناً يفكّر، إذ يرى من عربته في تلك الليالي

الباردة الجميلة القمر المتألّق ينشر ضياءه ما بين ناظريه والشوارع المقفرة، كان يفكّر بذلك الوجه الآخر المضيء المتورّد قليلاً، شأن القمر، والذي طلع ذات يوم أمام فكره ولا يزال يرسل مذذاك على العالم الضياء المحمل بالأسرار الذي يراه فيه. فإذا وصل بعد الساعة التي كانت «أوديت» ترسل فيها خدمها للنوم كان يذهب بادئ الأمر، قبل أن يضغط جرس باب الحديقة الصغيرة، إلى الشارع الذي تطلّ عليه في الطابق الأرضي بين نوافذ النُزُل المتلاصقة، وكلها متشابهة ولكنها مظلمة، نافذة غرفتها المضاءة وحدها. كان يضرب على لوح الزجاج فتجيب بعدما تمّ إعلامها وتذهب لتنتظره في الجهة الأخرى على باب المدخل. وكان يلقى على البيانو بعض المقطوعات التي تفضّلها وقد تركت مفتوحة: من مثل «**رقصة الورود**» أو «**المجنون المسكين**» لـ«تاغليافيكو» (وكان ينبغي أن تعزفا حين دفنها حسب وصيّتها المكتوبة) فيطلب إليها أن تعزف عوضاً عنها الجملة الصغيرة من سوناتا «فانتوي»، مع أن «أوديت» كانت تعزف عزفاً رديئاً، ولكن أجمل رؤيا تظلّ لدينا من عمل فني هي في الغالب تلك التي ارتفعت فوق النغمات غير المتجانسة التي عزفتها أصابع غير حاذقة من بيان مختلّ الأوتار لِـ«أوديت». كان يحسّ تماماً أنّ هذا الحبّ أمر لا يوافق أي شيء خارجيّ يمكن أن يلاحظه آخرون غيره. وكان يدرك أن صفات «أوديت» لا تبرّر أن يعلّق هذه القيمة الكبيرة على اللحظات التي يقضيها بالقرب منها. وكثيراً ما كان «سوان» يريد التوقّف عن التضحية بهذا العدد الكبير من المصالح الفكرية والاجتماعية في سبيل تلك المتعة الخيالية حينما كان العقل الموضوعي يسيطر بمفرده عليه. ولكنّ الجملة الصغيرة كانت تعرف، حالما يسمعها، كيف تحرّر في داخله المساحة التي كانت ضرورية بالنسبة إليها، فتتبدّل من جرّاء ذلك النسب في نفس «سوان» فقد خُصّص فيها هامش لاستمتاع لم يكن يقابل هو الآخر أي غرض خارجي ولكنّه كان مع ذلك يفرض نفسه على «سوان» على أنه حقيقة تفوق الأشياء المشخّصة، بدلاً من أن يكون فرديّاً محضاً كالاستمتاع بالحبّ. فهذا

التعطّش إلى روعة مجهولة كانت الجملة الصغيرة توقظه فيه ولكنّها لا تأتيه بشيء محدّد لإشباعه. وهذه الأقسام في نفس «سوان» التي طمست فيها الجملة الصغيرة الاهتمام بالمصالح المادية والاعتبارات البشرية التي تنسحب على الجميع تركتها خالية بيضاء وكان حرّاً أن يسجّل فيها اسم «أوديت». وكانت الجملة الصغيرة تبادر بعد ذلك فتضيف ماهيّتها الخفيّة وتمزجها بما يمكن أن ينطوي عليه حبّ «أوديت» من قصر وخيبة. فإذا ما رأيت وجه «سوان» في أثناء إصغائه للجملة خلت أنّه يبتلع مخدّراً يجعل أنفاسه أكثر اتساعاً. فقد كانت المتعة التي توفّرها له الموسيقى والتي ستبعث عمّا قليل لديه حاجة حقيقيّة، كانت تشبه، في تلك اللحظات المتعة التي قد يلقاها في اختبار عطور وفي التواصل مع عالم لم نصنع له ويبدو لنا فاقد الشكل لأنّ أعيننا لا تدركه، فاقد الدلالة لأنه يخفى على عقلنا، ولا نبلغ إليه إلّا بملكة حسيّة واحدة. إنها لراحة كبرى لِ، «سوان» وتجدّد خفيّ - هو الذي تحمل عيناه إلى الأبد، مع أنّهما هاويتا فنّ رقيقتان، وفكره، مع أنّه مراقب دقيق للأخلاق، أثر جفاف الحياة التي لا يمّحي - أن يحّس أنّه استحال مخلوقاً غريباً عن الإنسانية أعمى يفتقر إلى الملكات المنطقية وكأنّه وحيد قرن خياليّ، مخلوق خياليّ لا يدرك العالم إلّا بالسمع. ولما كان يبحث في الجملة الصغيرة مع ذلك عن معنى لا يستطيع عقله أن ينحدر إليه، فإية نشوة يحسّ بها في أن يعرّي أكثر المكامن باطنيّة في نفسه من جميع صنوف العون التي يجود بها العقل وأن يمرر هذه النفس وحيدة في ممرّ النغم، في مصفاته المظلمة! لقد أخذ يدرك كلّ ما كان أليماً، بل ربّما كلّ ما كان غير مرتوٍ في أعماق عذوبة تلك الجملة، ولكنه لا يستطيع التألّم منها. فما همّ أن تحدّثه عن أنّ الحبّ هشّ العظام وحبّه قويّ إلى حدْ بعيد! لقد كان يلهو بالكآبة التي تنشرها ويحسّ أنّها تمرّ عليه ولكن بمثابة مداعبة تجعل إحساسه بسعادته أكثر عمقاً وأوفر عذوبة. كان يطلب إلى «أوديت» أن تعيد عزفها عشر مرّات وعشرين مرّة ويصرّ ألا تتوقف في الوقت نفسه عن تقبيله. وكل قبلة تستدعي قبلة أخرى. آه! إن

القبلات في الفترات الأولى التي نحبّ فيها تولد على نحو طبيعي جدّاً! فهي تعجّ وتتدافع بشدّة، وقد يصادفك من المشقّة في عد القبلات التي تبودلت في مدى ساعة ما يصادفك في عدّ الأزهار في شهر أيّار. حينذاك كانت تتظاهر التوقّف قائلة: «كيف تريدني أن أعزف على هذا النحو إن كنت تمسك بي؟ إني لا أستطيع القيام بكل شيء في الآن نفسه، فاعلم على الأقلّ، ما تريد، أفعليّ أن أعزف الجملة أو أن أقوم بمداعبات رقيقة؟» فيغضب هو وتنفجر هي في ضحكة تتبدّل وتتساقط عليه وابلاً من القبلات. أو هي تنظر إليه بوجه متجهّم فيبصر وجهاً أهلاً لأن يتخذ مكانه في «**حياة موسى**» لِـ«بوتيتشيللي»، فكان يحدّد موقعه فيها ويزوّد عنق «أوديت» بالانحناءة اللازمة؛ وبعد ما يُتمّ رسمها باللون المذاب، في القرن الخامس عشر، على جدار كنيسة «السيكستين» كانت فكرة أنّها ظلّت مع ذلك ههنا بالقرب من البيانو في اللحظة الراهنة جاهزة لتقبّل العناق والامتلاك، كانت فكرة ماديّتها وحياتها تبعث فيه النشوة بقوّة يندفع معها، تائه النظرات ممدود الفكّين وكأنّما لافتراس فريسة، إلى عذراء «بوتيتشللي» هذه ويشرع يقرص خدّيها. وفيما كان يعود في عربته بعدما يفارقها، دون أن يفوته أن يعود أدراجه ليقبّلها مرّة أخرى لأنّه نسي أن يحمل معه في خاطره خاصيّة من رائحتها أو ملامحها، كان يبارك «أوديت» لأنّها تسمح له بهذه الزيارات اليوميّة التي يحسّ أنه ما كان ينبغي أن تبعث فيها فرحاً عظيماً ولكنّها قد تعينه، إذ تحميه من الغيرة - وتجنّبه فرصة معاناة جديدة للداء الذي اجتاحه في الأمسية التي لم يلقها فيها في منزل أسرة «الفيردوران» - في أن يصل دون أن يصاب بأزمات أخرى، من تلك التي كانت أولاها مؤلمة جدّاً وسوف تظلّ الوحيدة، إلى نهاية هذه الساعات الفريدة في حياته، هذه الساعات المسحورة تقريباً على غرار تلك التي كان يجتاز فيها باريس في ضوء القمر. وإذ لاحظ في أثناء العودة أنّ الكوكب قد تحوّل الآن بالنسبة إليه وأضحى تقريباً في آخر الأفق وشعر أن حبّه خاضع هو الآخر لقوانين ثابتة طبيعيّة، أخذ يسائل نفسه إن كانت هذه

الفترة التي دخل فيها سوف تدوم زمناً طويلاً وإن كان فكره عمّا قليل لن يبصر المحيّا العزيز من بعد إلّا في موقع بعيد مُقَلّص وعلى وشك التوقّف عن نشر سحره. ذلك أن «سوان» كان يجد في الأشياء سحراً منذ أن أضحى عاشقاً كمثل الفترة التي كان يخال نفسه فيها فنّاناً في زمن المراهقة. على أن السحر لم يكن ذلك السحر نفسه، فهذا إنّما تضفيه «أوديت» وحدها على الأشياء. لقد أخذ يحسّ في نفسه إيحاءات شبابه تعود لتنبعث من جديد بعدما بدّدتها حياة طائشة، ولكنها تحمل جميعها صورة كائن خاص وسمته. وفي الساعات الطويلة التي يشعر الآن بمتعة حلوة في قضائها في منزله وحيداً مع نفسه المتماثلة للشفاء كان يعود شيئاً فشيئاً فيصبح ذاته ولكنّه يخصّ أخرى.

وما كان يذهب إليها إلا في المساء ولا يعرف عن كيفيّة إنفاق وقتها في أثناء النهار أكثر ممّا يعرف عن ماضيها إلى حدّ أنّه كان ينقصه حتى تلك المعلومات الصغيرة الأولية التي تسمح لنا بتخيّل ما لا نعرفه فتبعث فينا الرغبة في معرفته. ولذلك لم يكن ليسائل نفسه عمّا يمكن أن تفعله وعمّا كانت عليه حياتها. على أنّه كان يبتسم فحسب حينما يفكّر أنّه روي له منذ بضع سنوات، وما كان يعرفها آنذاك، عن امرأة كان ينبغي، إن لم تخنه الذاكرة، أن تكون هي بالتأكيد، وكأنّما عن فتاة ساقطة، عن امرأة تعيش في كنف عشيق، من تلك النساء اللواتي كان يخصّهنّ، لعلّة ما عاش في مجتمعهنّ، بالطبع الواحد الفاسد في صميمه الذي حباهنّ به لفترة طويلة خيال بعض الروائيّين. وكان يقول في نفسه إنّه ما علينا غالباً إلّا اعتماد نقيض السمعات التي يروجها الناس كيما نحكم بدقة على شخص حينما يضع في مقابل مثل ذلك الطبع طبع «أوديت» الطيّبة الساذجة الشغوفة بالمثل العليا والعاجزة إلى حدٍ بعيد تقريباً عن أن لا تقول الحقيقة حتى إنّه، بعدما رجاها ذات يوم كيما يستطيع تناول طعام العشاء معها بمفرده أن تكتب إلى عائلة «الفيردوران» بأنّها متوعّكة، رآها في الغد تحمر خجلاً أمام السيدة «فيردوران» التي كانت تسألها إن هي تحسّنت وتتلعثم

وتعكس على وجهها على الرغم منها الغمّ والعذاب الذي يصيبها من الكذب وتبدو فيما تضاعف في جوابها من التفصيلات المبتدعة حول وعكتها المزعومة بالأمس وكأنها تستغفر بنظراتها المتوسّلة وصوتها الحزين عن كذب روايتها.

بيد أنّها كانت تجيء في بعض الأيام، وهي نادرة، إلى منزله بعد الظهر لتقطع عليه أحلامه أو تلك الدراسة حول «فيرمير» التي عاد إليها في الأونة الأخيرة. كانوا ينقلون إليه أنّ السيدة «دو كريسي» في صالته الصغيرة فيذهب للقائها هناك وحينما يفتح الباب كانت تسرع ابتسامة لتمتزج بوجه «أوديت» الورديّ، ما إن تبصر «سوان»، - فتبدّل من شكل فمها ونظرة عينيها وقالب وجنتيها. وما إن يضحي وحده حتى يعود يرى تلك الابتسامة التي بدت على وجهها بالأمس وأخرى استقبلته بها هذه المرّة أو تلك، والتي ألّفت جوابها في العربة حينما سألها وهو يعدّل من وضع أزهار الكاتليا إن كان ذلك يزعجها. وكانت تبدو له حياة «أوديت» في باقي الوقت، بما أنّه لا يعرف شيئاً عنها، تبدو وكأنّها بخلفيّتها الرتيبة الفاقدة الألوان شبيهة بأعمال «واتو» (Watteau) التجريبية التي نرى فيها ههنا وهناك وفي الأمكنة جميعها وسائر الاتجاهات ابتسامات لا تُحصى مرسومة بالأقلام الثلاثة على الورق الذي بلون ظبي الجبال. ولكن صديقاً، أي صديق، في زاوية من حياتها تلك التي يحسبها «سوان» فارغة، ولو قال له فكره إنّها غير ذلك، لأنه لا يستطيع تخيّل الأمر، يصف له أحياناً وقد خامره الشكَ أنّهما يتحابان فلا يغامر بأن يقول له شيئاً عنها إلّا ما كان غير ذي بال، يصف له قوام «أوديت» التي لمحها في الصباح نفسه تصعد شارع «أبا توسي» سيراً على الأقدام ترتدي سترة مبطّنة بالفراء وتستظلّ قبعة من طراز قبعات «رامبرانت»، وفي فتحة صدارها باقة من أزهار البنفسج. كانت هذه الخطوة البسيطة تهزّ «سوان» لأنها تجعله يدرك فجأة أنّ لِ«أوديت» حياة لم تكن كلّها ملكاً له. فكان يودّ أن يعلم من حاولت أن تعجبه بهذا التبرّج الذي ما عهده لديها. ويحدّث النفس بأن يسألها إلى أين

كانت ماضية في تلك اللحظة كما ل لوم يكن في كامل حياة عشيقته التي لا لون لها - ولا وجود لها تقريباً لأنّها خفيّة عليه - سوى شيء واحد لا يدخل في عداد جميع تلك الابتسامات الموجّهة إليه: مشيتها في ظلّ قبّعة من طراز قبعات «رامبرانت» وفي فتحة صدارها باقة من أزهار البنفسج.

وما كان يحاول «سوان»، إلّا إذ يطلب منها جملة «فانتوي» الصغيرة بدلاً من «رقصة الورود»، أن يجعلها تعزف بالأحرى ما يحبّ وأن يصلح من ذوقها الفاسد، في الموسيقى والأدب على حدّ سواء. فقد كان يدرك أنها ليست ذكيّة. حينما كانت تقول له إنّها شغوفة بأن يحدّثها عن الشعراء الكبار تصورت أنها ستعرف في الحال مقاطع بطوليّة وخياليّة من نمط مقاطع الفيكونت «دو بوريللي» ولكنها أكثر تأثيراً. أمّا في ما يخصّ «فيرمير دو ديلفت» فقد سألته إن كان قد تعذب على يد امرأة وإن كانت ألهمته امرأة. ولمّا أقر لها «سوان» أن ليس من يعرف شيئاً عن ذلك لم تعد تبالي بهذا الرسّام. وكانت غالباً تقول: «في اعتقادي، الشعر، بالطبع، ليس هنالك ما هو أجمل لو كان صادقاً ولو كان الشعراء يفكرون في كل ما يقولون. ولكن ليس في الغالب من هو أكثر نفعيّة من هؤلاء القوم. إني على علم بذلك فقد كان لي صديقة أحبّت واحداً من صنف الشعراء. ما كان يروي في أشعاره إلا عن الحبّ والسماء النجوم. آه! كما خاب ظنّها! لقد سلبها أكثر من ثلاثمئة ألف فرنك». فإن حاول «سوان» آنذاك أن يعلّمها على ما يقوم الجمال الفني وكيف ينبغي أن ننظر بإعجاب إلى الأشعار أو اللوحات كانت تتوقف بعد فترة عن الإصغاء قائلة: «أجل. . . ما كنت أتصور أنّ ذلك على هذا النحو». ويحسّ أنّها تشعر بخيبة كبيرة لدرجة أنّه يفضل الكذب بأن يقول لها إن ذلك لم يكن شيئاً ولا يعدو كونه تفاهات وإن الوقت لا يتّسع له لتناول الجوهر فهنالك غير ذلك. ولكنّها تقول له بحرارة: «غير ذلك؟ ماذا؟ قله إذاً». ولكنه لا يقوله إذ يعلم كم سيبدو لها الأمر هيّناً ومختلفاً عمّا أمل وأقل إثارة وأقل تأثيراً ويخشى إن هي خاب أملها في الفنّ أن يخيب في الحبّ في الوقت ذاته.

فقد كانت تجد «سوان» على الصعيد الفكري دون ما كانت تظنّ. «إنك تحتفظ دوماً ببرودة أعصابك ولا أستطيع أن أحدّدك». ولكنها معجبة أكثر بلامبالاته بالمال وبلطفه مع الجميع وبرقته. ذلك أنّه يتّفق في الغالب لمن هم أرفع من «سوان»، لعالم، لفنّان، حينما لا يجهلهم من يحيط بهم، أن الشعور الذي يبرهن، من بين جميع مشاعرهم، على أنّ سمو عقلهم قد فرض ذاته عليهم ليس إعجابهم بأفكارهم، إذ هي تخفى عليهم، بل احترامهم لطيبته. وقد كانت المكانة التي لِـ«سوان» في المجتمع توحي لـ«أوديت» بالاحترام، ولكنها لا ترغب أن يحاول فتح أبوابه لها؛ فربّما أحسّت أنّه لن يستطيع النجاح فيه، وربّما حتى خشيت أن يؤدي مجرّد الحديث عنها إلى فضح أسرار كانت تُرهبها. ومهما يكن من أمر فقد جعلته يقطع عهداً بألا يتلفّظ باسمها البتة. أمّا السبب الذي لا تريد من أجله أن ترتاد المجتمعات فهو، حسبما قالت له، خلاف وقع لها فيما مضى مع صديقة تناولتها فيما بعد بكثير من السوء طلباً للانتقام. ويعترض «سوان»: «ولكن لم يعرف الناس جميعاً صديقتك». - «بلى، الأمور تتفشّى كنقطة الزيت، فالعالم شرير جدّاً». ولم يدرك «سوان» هذه القصّة من جهة، ولكنّه كان يعلم من جهة أخرى أن الجملتين «العالم شريراً جدّاً» و«حديث الافتراء يتفشّى كنقطة الزيت» تعتبران صحيحتين بعامّة، فلا بدّ أنّ هنالك حالات تنطبق عليها. فهل كانت حالة «أوديت» من بينها؟ كان يسائل نفسه عن ذلك ولكن لا لفترة طويلة فقد كان هو الآخر عرضة لبلادة الذهن التي كان يزرح تحتها والده حينما يطرح على نفسه مسألة صعبة. وهذا المجتمع، على آية حال، الذي كان يوحي لِـ«أوديت» بهذا المقدار من الخوف لم يكن ربّما ليبعث فيها رغبات كبيرة لأنّه كان بعيداً جداً عن المجتمع الذي تعرفه كيما تتمثّله على أتم وضوح. ومع أنّها ظلّت في بعض النواحي على بساطة حقيقية (فقد احتفظت مثلاً بصداقة خياطة بسيطة اعتزلت العمل فتتسلّق في كلّ يوم تقريباً درجها العسير المظلم النتن) وكانت متعطّشة مع ذلك للأناقة ولكنها لا تحمل عنها ما يحمل أهل

المجتمع من أفكار. فالأناقة بالنسبة إليهم فيض من بعض شخصيّات قليلة تبعث به إلى مسافة بعيدة إلى حدّ ما - وبدرجة تضعف في كثير أو قليل بمقدار ما يكون المرء بعيداً عن مركز ألفتهم - إلى أوساط أصدقائهم أو أصدقاء أصدقائهم الذين تؤلّف أسماؤهم ضرباً من الفهارس. إن أهل المجتمعات يحفظونها في ذاكرتهم ولهم إحاطة تامّة بهذه الموادّ التي استخرجوا منها نوعاً من الذوق والكياسة حتى إنّ «سوان» مثلاً، لو اتفقّ له أن يقرأ في جريدة، ودون أن تكون به حاجة إلى الاستعانة بمعرفته بالمجتمع، أسماء الأشخاص الذين حضروا حفلة عشاء لاستطاع أن يقول في الحال عن مدى أناقة هذا العشاء مثلما يقدّر مثقّف، بمجرّد قراءة جملة، الميزة الأدبية لهذه الجملة تقديراً صحيحاً. ولكنّ «أوديت» كانت في عداد الأشخاص (الكثيرين جدّاً، على الرغم ممّا يحسبه أهل المجتمعات، والذين يتوزّعون في جميع طبقات المجتمع) الذين لا يملكون هذه المفاهيم ويتخيلّون أناقة مغايرة تماماً ترتدي مظاهر شتّى حسب الوسط الذي ينتمون إليه ولكنّ لها ميزة خاصةً - سواء أكانت الميزة التي تحلم بها «أوديت» أم تلك التي تنحني أمامها السيّدة «كوتار» - قوامها أنّ الجميع يستطيعون إدراكها مباشرة. أمّا تلك، ونقصد أناقة أهل المجتمع، فأمرها والحقّ يُقال واحد، إلّا أنّه لا بدَّ من بعض المدة لذلك.
كانت «أوديت» تقول عن أحدهم:

- «إنّه لا يرتاد البتة الأماكن الأنيقة».

فإن سألها «سوان» عمّا تقصده بذلك إجابته بشيء من الازدراء:

- الأماكن الأنيقة، يا الله! ولئن انبغى أن نعلّمك في مثل سنّك ما هي الأماكن الأنيقة فماذا تريدني أن أقول لك، أنا؟ في صباح الأحد مثلاً، شارع الإمبراطورة، وفي الساعة الخامسة الطواف حول البحيرة، وفي يوم الخميس مسرح جنّة عدن، وفي يوم الجمعة ميدان سباق الخيل، والحفلات الراقصة. . . . ».

- «ولكن أية حفلات راقصة؟».

- «الحفلات التي تُقام في باريس، أقصد الحفلات الأنيقة. خذ مثلاً «هيربنجر»، أنت تعرفه، ذاك الذي يعمل لدى أحد السماسرة؟ بلى، ينبغي أن تعرفه، فهو أكثر القوم شهرة في باريس، ذاك الشاب الأشقر الطويل القامة الذي يبدو شديد التحذلق، إنّه يضع على الدوام زهرة في عروة سترته وله مفرق في قفاه وسراويل فاتحة. معه تلك اللوحة القديمة التي ينقّلها في جميع العروض الأولى. حسن! لقد أقام حفلة راقصة ذلك المساء حضرها صفوة أهل الأناقة في باريس. لكم وددت أن أذهب إليها ولكن كان ينبغي إبراز بطاقة الدعوة على الباب ولم أستطع الحصول على واحدة. ولكنّني في الأساس أودّ بالمقدار نفسه ألا أكون ذهبت، فقد كانت مجزرة ولعلّني ما كنت شاهدت شيئاً. والأمر بالأحرى أن تستطيع القول إنّك كنت في حفلة «هيربنجر». أما الغرور بالنسبة إليّ، فأنت أدرى ويمكنك القول على أية حال بأن من بين مئة يروين أنهنّ كن هناك أكثر من النصف لا حقيقة لما يقلن... ولكنّ ما يدهشني أن رجلاً في مثل مكانتك لم يكن هناك».

ولكنّ «سوان» لم يكن يحاول على الإطلاق حملها على تبديل تصوّرها لمفهوم الأناقة، فقد كان يحسب أن تصوره لم يكن أكثر صحّة بل هو في مثل غباء تصوّرها وخلوّه من الأهميّة فلا يجد أيّة مصلحة في إطلاع عشيقته عليه لدرجة أنها لم تعد تهتمّ بعد أشهر بالأشخاص الذين يذهب إلى منازلهم إلا من أجل بطاقات الوزن وسباق الخيول وبطاقات العروض الأولى التي يمكن أن يحوزها عن طريقهم. كانت تتمنّى أن ينمّي مثل هذه العلاقات المفيدة، ولكنما يدفعها من جهة أخرى ما يحملها على احتسابها قليلة الأناقة منذ أن رأت المركيزة «دو فيلباريسيس» تمرّ في الشارع بفستان من الصوف الأسود وقبعة ذات سيور.

- «ولكنّها تبدو وكأنها عاملة أو بوّابة عجوز يا عزيزي! أهي مركيزة ما أرى! لستُ مركيزة، ولكن ينبغي أن يدفع لي الكثير كيما أخرج بمثل هذا اللباس!».

وما كانت تدرك كيف يقطن «سوان» في النزل الكائن على «رصيف أورليان» الذي تجده غير أهل به دون أن تجرؤ على مفاتحته بالأمر.

صحيح أنها كانت تدعي حبّ «الآثار» وكانت تتخذ هيئة مفتونة لطيفة لتقول إنّها تعشق تمضية نهار كامل في «تقليب التحف» والبحث عن «سقط المتاع» وأشياء «العهود القديمة». ومع أنّها تتشبّث بنوع من الالتزام بالشرف (وتبدو وكأنّها تتبع في ذلك وصيّة عائلية) في الامتناع عن الإجابة عن الأسئلة والابتعاد عن «تأدية الحساب» عمّا تفعله في نهارها، فقد روت مرّة لِ«سوان» عن صديقة دعتها وكان شيء في بيتها «من أيام زمان». ولكن «سوان» لم يفلح في حملها على أن تقول «من أيّ عصر» كان. على أنّها أجابت مع ذلك بعدما أعملت الفكر أنّه من العصر الوسيط، وكانت تعني بذلك أن ثمة خشبيّات على الجدران. وبعد وقت قليل حدّثته مرة أخرى عن صديقتها وأضافت باللهجة المتردّدة والتظاهر بالفهم الذي تَذْكُرُ به رجلاً تَناولتَ معه طعام العشاء البارحة وما كنت سمعت قطّ باسمه ولكن مضيفيك بدا عليهم أنّهم يحتسبونه إنساناً ذائع الصيت لدرجة أنّك تأمل أن يعلم محدّثك عمّن تبغي التحدث: «لديها غرفة طعام من... القرن الثامن عشر!» كانت على أيّة حال تجد ذلك قبيحاً عارياً كما لو لم يكن المنزل منجزاً فالنساء تبدو فيه قبيحة وليمكن أن يشيع طرازه في يوم. وعادت مرة ثالثة فحدّثته عنها وأبرزت لِ«سوان» عنوان الرجل الذي صنع غرفة الطعام والذي كانت ترغب أن تحضره حينما يتجمّع لديها المال لترى إن لم يكن بمقدوره أن يصنع لها واحدة، لا تشبه تلك بالتأكيد، بل حتى التي كانت تراود أحلامها، والتي لا تحتويها لسوء الحظّ جدران نزلها الخاصّ، بخزائن عالية وأثاث من طراز عصر النهضة ومواقد كالتي في قصر «بلوا». وفي ذلك النهار باحت في حضرة «سوان» بما كان يجول في فكرها حول مسكنه في «رصيف أورليان». فلمّا أبدى انتقاداته من أنّ صديقة «أوديت» لم تقع ضحيّة طراز لويس السادس عشر لأن ذلك يمكن أن يكون لطيفاً، مع أنّ الأمر، فيما يقول، غير مستحب، بل كانت ضحيّة القديم المزيّف،

قالت له: «ألست تبغي لها أن تعيش مثلك ما بين أثاث محطّم وسجّاد مهترئ»، وقد تغلّب استحياء البورجوازية لديها على نزوات المرأة الرخيصة.

لقد جعلت من الذين يحبّون «تقليب التحف» ويحبّون الشعر ويحتقرون الحسابات الرخيصة ويحلمون بالشرف والحبّ نخبة تسمو على باقي البشرية. وما كان من حاجة بالمرء أن تكون به تلك الميول فعلاً بشرط أن ينادي بها. وكانت تعود فتقول عن رجل أقرّ لها على العشاء أنّه يعشق التجوال وتلطيخ أصابعه في الدكاكين العتيقة وأن هذا القرن التجاري لن يعرف قيمته في يوم لأنّه ما كان يهتمّ بمصالحه وأنّه من جرّاء ذلك من عصر آخر: «ولكنّه روح محببة جدّاً ورجل حسّاس ولم تراودني تلك الفكرة قطّ!» وتحسّ نحوه مودة مفاجئة لا حدود لها. فأما الذين بهم تلك الميول ولا يأتون على ذكرها، شأن «سوان»، فقد كانوا في المقابل يثيرون البرودة فيها. كانت ولا شك مضطّرة إلى الإقرار بأنّ «سوان» غير مهتم بالمال، ولكنّها تضيف بوجه عابس: «أمّا بالنسبة إليه فليس الأمر واحداً، ذلك أنّ ما يثير خيالها مفردات التجرد لا ممارسته.

وإذ كان يحسّ أنه لا يستطيع في الغالب تحقيق ما تحلم به، كان يحاول على الأقلّ أن تستمتع معه وألا يقاوم هذه الأفكار العاميّة، هذا الذوق الفاسد الذي لديها في جميع الأمور والذي كان يحبّه على أي حال شأن كلّ ما يصدر عنها، وكانت تلك الأفكار تفتنه لأنّها ملامح خاصّة يظهر له من خلالها جوهر هذه المرأة ويضحي مرئياً. لذلك حينما كانت تبدو سعيدة لأنّها ستمضي لمشاهدة مسرحية «**الملكة توباز**»، أو تصبح نظرتها جدّية قلقة بادية العزم إن خشيت أن يفوتها مهرجان الزهور أو حتى ساعة الشاي بالحلوى و«التوست» في مقهى شاي الشارع الملكي «حيث تظنّ المواظبة ضروريّة لتكريس شهرة المرأة الأنيقة»، كان «سوان» يستخفّه الفرح مثلما يتمّ لنا إزاء تصرّف فطري لطفل أو الصدق في رسم يبدو على وشك الكلام فيحسّ بروح عشيقته ترفّ على وجهها لدرجة أنّه لا يستطيع

مقاومة المبادرة إلى ملامسته بشفتيه. «آه! إنّها تودّ أنّ تُصْحَبَ إلى مهرجان الزهور، «أوديت» هذه الصغيرة، وتودّ استثارة الإعجاب بها، إذن فسوف تصْحَبَ إلى هناك وما علينا إلا الرضوخ». ولما كان بصر «سوان» ضعيفاً فقد اضطرّ أن يرتضي استخدام نظّارات ليعمل في بيته وأن يتبنّى في ظهوره في المجتمع النظّارة ذات الزجاجة الواحدة التي تشوّهه أقلّ من تلك. ولم تستطع كتم غبطتها أوّل مرّة أبصرته يضع واحدة على عينه: «في رأيي أن فيها الكثير من الأناقة بالنسبة إلى الرجل ولا مجال أن نقول العكس! ما أجمل ما تبدو هكذا! إنّك تبدو حقاً رفيع التهذيب ولا ينقصك». تضيف ببعض الأسف، «سوى اللقب!» كان يجب أن تكون «أوديت» على هذه الشاكلة كما لعلّه كان سعد لو وقع في حبّ امرأة من مقاطعة «بريتانيا» أن يراها بقبّعتها الخاصّة وسمِعها تعرب عن إيمانها بالأموات العائدين. فقد قام لديه حتى ذاك، شأن الكثير من الناس الذين يتنامى ميلهم إلى الفنون بمعزل عن نزعتهم الشهوانية، تباين غريب بين صنوف استجابته لهذه وذلك، فينعم بصحبة نساء تزداد فظاظتهنّ من واحدة إلى أخرى، بسحر أعمال فنيّة متعاظمة الدقة كأن يصْطَحِب خادمة صغيرة إلى مقصورة ذات حاجز مشبّك لحضور رواية من النمط الانحطاطي[1] يرغب في سماعها أو إلى معرض رسم انطباعي، وهو متيقن على أيّة حال أن امرأة مثقفة من علية القوم ما كانت لتفهم المزيد، ولكنها لا تستطيع أن تصمت بمثل اللطف الذي تفعله هذه! بيد أنه منذ أحبّ «أوديت» أصبح على العكس يرى أن المشاركة الوجدانية معها ومحاولة ألا يكون لكليهما سوى روح واحدة إنما هي من العذوبة لدرجة أنّه أخذ يحاول الاستمتاع بالأشياء التي تحبّها ويجد لذة لا في تقليد عاداتها فحسب بل في تبني آرائها، متعه تزداد عمقاً بالقدر الذي لا يتوافر لها فيه جذور في عقله، بل هي تذكره فقط بحبّه الذي من جرّائه تمّ تفضيله لها. فإن عاد إلى مشاهدة «**سيرج بانين**» وإن التمس فرص

(١) الحركة الأدبية التي سبقت الرمزية.

الذهاب لمشاهدة قيادة «أوليفييه ميترا» فذلك لحلاوة التدرّب على جميع مفاهيم «أوديت» والإحساس بأنّه يشاطرها جميع ميولها. وكانت تبدو له الفتنة التي تحيط بالأعمال أو الأماكن التي تحبها من جرّاء أنّها تقرّبه منها أكثر خفاء من تلك التي تحتويها بالضرورة أعمال أوفر جمالاً ولكنّها لا تذكّره بها. لقد كان يظنّ على أيّة حال، بعدما ترك الضعف يدبّ في معتقدات شبابه الفكريّة وبعد ما نفذت إليها على غير علم منه ريبيّة رجل المجتمع، كان يظنّ (أو هو على الأقل ظنّ ذلك لفترة طويلة جدّاً لدرجة أنّه لا يزال يقول به) أن مواضيع ميولنا لا تملك في حدّ ذاتها قيمة مطلقة، بل كل شيء عائد للعصر والطبقة الاجتماعية ويقوم على اختلاف الأزياء التي تساوي أكثرها شعبية تلك التي تحتسب من أكثرها رقيّاً. ومثلما كان يرى أن الأهميّة التي تعلّقها «أوديت» على الحصول على بطاقات العروض الأولى لأعمال الرسّامين لم تكن بحدّ ذاتها أمراً أكثر إثارة للسخرية من المتعة التي كان يحسّ بها فيما مضى بتناول طعام الغداء على مائدة الأمير «دو غال»، كذلك ما كان يحسب أن الإعجاب الذي تبديه لـ«مونتي كارلو» أو الـ«ريغي» أكثر بعداً عن المعقول من الميل الذي به إلى هولندا التي تتصوّرها قبيحة و«فيرساي» التي تجدها حزينة. ولذلك كان يحرم نفسه الذهاب إليها، إذ يسرّه أن يقول في نفسه إن ذلك من أجلها وإنّه يودّ ألا يحسّ أو يحبّ إلّا معها. ولمّا كان كل ما يحيط بـ«أوديت»، وليس، إلى حدّ ما، سوى الصيغة التي يمكنه أن يراها ويتحدّث إليها فيها، فقد كان يحبّ مجتمع أسرة الـ«فيردوران». وبما أنّه كان هناك، في أساس جميع التسليات، من طعام وموسيقى وألعاب ومآدب بملابس تنكّريّة وجولات في الريف وأمسيات مسرحية وحتى «السهرات الكبيرة» النادرة التي تقام «للمزعجين»، وجود «أوديت» ورؤية «أوديت» والتحدّث إلى «أوديت» الذي توفره عائلة «الفيردوران» لـ«سوان» بمثابة هبة لا تقدّر بثمن فقد كان يستمتع هنالك داخل «النواة الصغيرة» أفضل من أي مكان آخر ويحاول أن يخصّها بمزايا حقيقية لأنّه كان يتخيّل أنه سوف يظلّ يتردّد عليها على هذا النحو

طوال حياته وذلك عن ميل. ذلك أنّه إذ لا يجرؤ أن يقول لذاته بأنّه سوف يحب «أوديت» على الدوام مخافة ألا يصدّق الأمر، فإنه إذ يفترض على الأقل أنّه سيتردّد على الدوام على عائلة «الفيردوران» (والقضية تثير قبلياً اعتراضات مبدئية أقل في عقله) فإنّما يرى نفسه وهو يوالي في المستقبل لقاءاته مع «أوديت» في كلّ مساء. وما كان ذلك ربّما يعني بالتمام الاستمرار في حبّها إلا أن الاعتقاد في أثناء ما يحبها الآن أنّه لن يتوقف يوماً عن رؤيتها كان كلّ ما يطلبه. وكان يقول في نفسه: «يا له من وسط فتّان! وكم تلك في الأساس الحياة الحقيقة التي يقضونها ههنا! وكم يبدو المرء فيها أوفر ذكاء وفنّاً منه في المجتمع! وما أشدّ حبّ السيّدة «فيردوران» الصادق، على الرغم من بعض المبالغات المضحكة، للرسم والموسيقى، وأي هوى للأعمال الفنيّة وأيّة رغبة في كسب ودّ الفنّانين! لقد كوّنت فكرة غير دقيقة عن أرباب المجتمعات، ولكن كم تفوقها خطأ تلك التي كوّنها المجتمع عن أوساط الفنانين. ربّما لم تكن لديّ حاجات فكريّة كبيرة أشبعها في الحديث ولكني أشعر بالراحة التامة مع «كوتار» على الرغم من أنّه يقدم أحاجي حمقاء. أمّا الرسّام، فإن كان ادّعاؤه مزعجاً حينما يحاول إثارة الدهشة فإنّه بالمقابل أحد أصفى العقول التي عرفتها. ثم إنك ههنا تحسّ أنك حرٌ وأنك تفعل ما تشاء دونما قيود وبلا تكلّف. لكم ينفق من السرور في هذه الصالة يوميّاً! لن أرتاد بالتأكيد قطّ غير هذا الوسط إلّا في ما ندر، وههنا سأجعل أكثر فأكثر حياتي وعاداتي».

ولمّا لم تكن الميزات التي يظنّها ملازمة لأسرة «الفيردوران» سوى انعكاس متع نعم بها حُبُّه في منزلهم لِ«أوديت» فقد كانت تلك الميزات تضحي أكثر جدية وأوفر عمقاً وحيويّة عندما تكتسب هذه المتع الصفات نفسها. مثلما كانت السيدة «فيردوران» توفّر أحياناً لِ«سوان» ما كان يستطيع وحده أن يؤلف السعادة في نظره، وكمثل ذلك المساء الذي كان يشعر فيه بالضيق لأنّ «أوديت» تحدّثت مع أحد المدعوين أكثر ممّا فعلت مع آخر والذي لم يشأ فيه وقد اغتاظ منها، أن يبادر إلى سؤالها إن كانت ستعود

معه فجاءت السيّدة «فيردوران» تحمل له الطمأنينة والفرح بقولها على نحو عفويّ: «سوف تصحبين السيّد «سوان» إلى منزله يا «أوديت»، أليس كذلك؟» وكمثل الصيف الذي كان آتياً والذي تساءل فيه بادئ الأمر بقلق إن كانت «أوديت» لن تمضي بدونه وإن كان يستطيع الاستمرار في رؤيتها يومياً فإذا السيّدة «فيردوران» تبادر إلى دعوتهما لقضائه سويّة لديها في الريف - وإذ يدع «سوان» على غير علم منه الإقرار بالجميل والمصلحة يتسربّان إلى عقله فيؤثران على أفكاره يبلغ به الأمر أن يعلن بأن السيدة «فيردوران» نفس كبيرة. ومهما حدّثه أحد رفاقه القدامى في مدرسة «اللوفر» عن أناس ظرفاء أو بارزين كان يجيبه قائلاً: «أفضّل مئة مرة «الفيردوران». ثم يقول بلهجة فخمة كانت جديدة عليه: «إنهم قوم كريمو الأخلاق، وكرم الأخلاق هو في الأساس الشيء الوحيد الذي يكتسب أهمية ويوفر رفعة الشأن على الأرض. أرأيت، ثمة طبقتان من الناس فحسب: كريمو الأخلاق والآخرون، وقد بلغت العمر الذي لا بدّ فيه من اتخاذ موقف والتقرير نهائياً من نريد أن نحبّ ومن نريد أن نزدري وأن نكتفي بمن نحبّ وألا نفارقهم من بعد حتى الوفاة لتعوّض عن الزمن الذي بدّدناه مع الآخرين». ويضيف بهذا الانفعال الطفيف الذي يصيبنا حينما نقول شيئاً، دون أن نتبينّه تماماً، لا لأنه حقيقيّ بل لأنّنا نجد متعة في قوله وأنّنا نسمعه بصوتنا نحن وكأنّه آتٍ من مكان غريب عنّا: «حسن! بذلك قضت الأقدار؛ لقد اخترت أن أحبّ النفوس الكريمة وحدها وأن لا أعيش إلّا في كرم النفس. تسألني إن كانت السيّدة «فيردوران» ذكيّة بحقّ؛ وإنّي أؤكّد لك أنّها قدّمت براهين على نبل في النفس وسمو في الأخلاق لا يبلغها المرء بالتأكيد دونما سمو مقابل في العقل. صحيح أنّها تدرك الفنون إدراكاً عميقاً، ولكنّها ربّما لم تكن أكثرها روعة في هذا المجال، وأن فعلة صغيرة، أية فعلة، بارعة الطيب لذيذة قامت بها ما أجلي، إنّ رعاية بالغة الذكاء والتفاتة أليفة في سموها إنما تكشف جميعها في فهم للحياة أكثر عمقاً من جميع أبحاث الفلسفة».

ولعلّه كان مع ذلك يستطيع أن يقول في نفسه إنّ هناك أصدقاء قدامى لذويه في مثل بساطة عائلة «فيردوران» ورفاق صبا في مثل شغفهم بالفنّ وأنه يعرف أناساً آخرين كبيري النفوس ولكنّه لم يعد يراهم منذ أن اختار البساطة والفنون وسموّ الأخلاق. بيد أنّ هؤلاء ما كانوا يعرفون «أوديت» ولعلّهم لو عرفوها ما اهتموا بتقريبها منه.

وهكذا لم يكن دونما شك في محيط أسرة «الفيردوران» بأسره شخص واحد من الخُلّص أحبّهم أو حسب أنّه يحبّهم قدر ما يفعل «سوان». ومع ذلك «فإنّ السيد «فيردوران» لم يعبّر، حينما قال إن «سوان» لا يعجبه عن تفكيره الخاصّ بل استشفّ تفكير زوجته. وليس من شكّ أنّ «سوان» يكنّ لِ«أوديت» مودّة خاصة وقد أهمل أن يجعل من السيدة «فيردوران» نجيّته اليوميّة بهذا الشأن؛ وأن التحفظ الذي يبديه في الإفادة من كرم ضيافة أسرة «الفيردوران» إذ يمتنع غالباً عن الحضور إلى العشاء لسبب لا يخطر لهم ببال ويبصرون مكانَه الرغبةَ في أن لا تفوته دعوة لدى «المزعجين»، وكذاك الاكتشاف التدريجي الذي يقومون به لمكانته الاجتماعية اللامعة على الرغم من جميع الاحتياطات التي اتخذها ليخفيها عن أعينهم، كلّ ذلك أسهم ولا شك في اغتياظهم منه. بيد أن السبب العميق كان غير ذلك. فإنّما الأمر أنّهم سرعان ما أحسّوا لديه مساحة محفوظة لا ينفذ إليها كان يستمر فيها في الجهر لنفسه جهراً صامتاً بأن الأميرة «دو ساغان» لم تكن مضحكة وأنّ نكات «كوتار» لم تكن طريفة وأخيراً الاستحالة التي هم فيها، مع أنّه لم يفقد لطافته في يوم ولا ثار على عقائدهم، في أن يفرضوا ذلك عليه وأن يردّوه إليه تماماً، استحالة لم يصادفوا مثلها لدى أي إنسان ولعلهم كانوا يصفحون له تردّده على «المزعجين» (الذين يفضّل عليهم في قرارة نفسه ألف مرة أسرة «الفيردوران» والنواة الصغيرة) لو ارتضى أن ينكرهم في حضرة فئة الخلّص ابتغاء للمثل الصالح. ولكنّه جحود أدركوا أنه لا يمكن لهم انتزاعه منه.

وأي فارق بينه وبين «مستجد» كانت «أوديت» قد طالبتهم بدعوته، مع

أنها لم تلتق به سوى مرات قليلة، وكانوا يعقدون عليه آمالاً عريضة، عنينا الكونت «دو فورشفيل»! (واتفق أن كان بالضبط شقيق زوجة «سانييت»، الأمر الذي ملأ فئة «الخالص» دهشة: فقد كان في سلوك رجل المحفوظات من الاتّضاح ما حملهم دوماً على الاعتقاد بأنه من طبقة اجتماعية أدنى من طبقتهم ولم يتوقّعوا أن يعلموا بأنه ينتمي إلى عالم غنيّ وأرستقراطي نسبياً). صحيح أنّ «فورشفيل» كان متحذلقاً من الطراز السمج وما كان «سوان» كذلك؛ وصحيح أنه ما كان ليضع الوسط الذي تؤلفه أسرة «الفيردوران»، مثلما يفعل «سوان»، فوق جميع ما عداه. ولكنه لم يكن على تلك الرقة في الطباع التي كانت تحول دون أن يشارك «سوان» في الانتقادات التي يبدو كذبها واضحاً جداً والتي تشرف عليها السيّدة «فيردوران»، بحق جماعة يعرفها. أمّا في ما يخصّ المقطوعات المغرورة التافهة التي كان الرسّام يجود بها في بعض الأيام، ومزحات البائع المتجوّل التي يغامر بها «كوتار» والتي كان يجد «سوان» لها أعذاراً، إذ هو يحبّ كلا الرجلين، ولكنه لا يملك الشجاعة والرياء ليصفق لها، فقد كان «فورشفيل» على العكس من مستوى فكريّ يسمح له أن يبدو شديد الذهول تبهره هذه دون أن يفهمها ويتلذّذ بتلك. وقد اتفق أن أوضح العشاء الأول الذي حضره «فورشفيل» لدى أسرة «الفيردوران» جميع هذه الفوارق وأبرز صفاته فعجّل في إفقاد «سوان» حظوته.

وكان على ذلك العشاء إلى جانب الروّاد المعتادين أستاذ في السوربون يدعى «بريشو» كان التقى بالسيّد «فيردوران» وعقيلته في مدن المياه ولعلّه كان أكثر من المجيء إلى منزلهم لو لم تحدّ مهامّه الجامعيّة وأعماله العلميّة المتعمّقة من فترات فراغه. فقد كان على ذلك الفضول، ذلك التعلق الشديد بالحياة الذي يَكْسبُ بعض الرجال الأذكياء من أية مهنة كانوا، من أطبّاء لا يؤمنون بالطبّ وأساتذة تجاهيز لا يؤمنون بالترجمة إلى اللاتينية، إذا ما اقترن ببعض الشكّ الخاصّ بموضوع دراساتهم، شهرة في سعة الفكر وتألقه وحتى تفوّقه. وكان يصطنع في منزل السيّدة «فيردوران»

البحث عن وجوه المقارنة في ما كان أكثر التصاقاً بالحاضر حينما يتحدّث عن الفلسفة والتاريخ لأنّه كان يعتقد بادئ الأمر أنّهما مجرّد إعداد للحياة وأنّه يتخيّل أنّه واجد ما لم يعرفه حتى ذاك إلّا في الكتب ناشطاً داخل العشيرة الصغيرة، ثم ربّما لأنه كان يظنّ، وقد أدخل في روعه فيما مضى احترام بعض الموضوعات وظلّ يحتفظ به على غير علم منه، أنّه يعري الجامعي إذ يقدم معهم على بعض صنوف الخروج عن المألوف التي لا تبدو له على نحو ما تبدو إلّا لأنّه ظل جامعيّاً.

ومنذ أول الطعام وإذ قال السيّد «دو فورشفيل» وقد اتخذ مكانه إلى يمين السيّدة «فيردوران» التي أسرفت في زينتها من أجل «المستجد»، إذ قال لها: «طريف هذا الفستان الأبيض»، التقط الدكتور الذي ما فتئ يراقبه، لشدّة ما به من فضول ليعرف ماهيّة ما كان يسميّه بالأرستقراطيّين، ويبحث عن فرصة يلفت بها انتباهه إليه ويدخل في صلة أوثق معه، التقط لفظة «أبيض» في الحال وقال دون أن يرفع رأسه عن طبقه: «بلانش؟ بلانش دو كاستيي؟»[1] ثمّ أرسل خلسة ذات اليمين وذات الشمال ودون أن يحرك رأسه نظرات غير واثقة كلها بسمات. وفيما أبدى «سوان»، من جراء الجهد المؤلم اللامجدي الذي بذله ليبتسم، أنّه يجد هذا التلاعب بالألفاظ سخيفاً، أبرز «فورشفيل» أنّه يستسيغ ظرفه وأنّه يدرك آداب الحياة إذ يحصر ضمن حدود معقولة مرحاً فتنت صراحته السيّدة «فيردوران». فسألت «فورشفيل» قائلة: «ما قولك بعالم من هذا الطراز؟ إنّه لا سبيل إلى التحدّث معه بجديّة لمدة دقيقتين». ثم أضافت وهي تلتفت إلى الدكتور: «وهل تقول لهم شيئاً من هذا القبيل في مستشفاك؟ لا بدَّ إذن أن الأمور لا تبعث على السأم كلّ يوم. وأرى أنّه ينبغي لي المطالبة بالدخول إليه».

- «أحسب أنّي سمعت الدكتور يتحدّث عن هذه المشاكسة العجوز

---

(١) تلاعب بالألفاظ يصعب رده بالعربية إلا إذا عربنا اسم الملكة «بلانش دو كاستيي» بقولنا «بيضاء قشتاله» على أن بيضاء اسم علم فتصبح العبارة: «بيضاء، بيضاء قشتاله؟».

المدعوة «بلانش دو كاستيي»، إن جاز لي القول. أليس ذلك صحيحاً يا سيّدتي؟» هكذا قال «بريشو» للسيّدة «فيردوران» التي سارعت مغمضة العينين مغشياً عليها تخفي وجهها بين يديها ومنهما أفلتت صرخات مخنوقة. «يا إلهي، لست أودّ، يا سيّدتي، أن أبعث القلق في النفوس الفاضلة إن كان منهنّ حول هذه المائدة، ممن يتخفّين في أثوابهنّ. . . وإنّي أقرّ على أيّة حال بأنّ جمهوريتنا الاثينيّة التي لا يحيط بها وصف - وما أبعد أن يحيط! - يمكن أن تكرّم في شخص تلك الظلاميّة من الأسرة «الكابيسيانية» أوّل مدراء الشرطة من ذوي القبضة الحديديّة. بلى، يا مضيفي العزيز بلى، بلى «أضاف بصوته الرنّان الذي كان يبرزه كلّ مقطع جواباً على اعتراض للسيّد «فيردوران». «إن «تاريخ سان دوني» الذي لا نستطيع التشكيك بصحة معلوماته لا يدع لنا مجالاً للشكّ بهذا الخصوص. وليس من يمكن أن يتمّ اختيارها بمثابة «راعية» لبروليتاريا علمانية أفضل من والدة قديس كهذه جرَّعته المرارة على أيّة حال، حسبما يقول «سوجر» والقديس «بيرنار»؛ فقد كان ينال كل واحد منها بحسب مرتبته».

وسأل «فورشفيل» السيّدة «فيردوران» قائلاً: «من عسى يكون هذا السيد؟ فإنّه يبدو متمكّناً إلى حد بعيد»».

- «كيف ذلك؟ أو لست تعرف «بريشو» الذائع الصيت؟ إنّه مشهور في أوروبا بأسرها».

وصاح «فورشفيل»: «آه! إنّه بريه شو» (ولم يكن قد سمع تماماً)؛ وأضاف وهو يثبّت على الرجل المشهور عينين واسعتين: «سوف تحدثيني عنه. إنه لمثير دوماً للاهتمام أن يتناول المرء العشاء مع رجل مرموق. ولكن، قولي لي. إنّك تدعيننا مع ضيوف مختارين ولا سبيل للسأم عندكم».

وقالت السيّدة «فيردوران» بتواضع: «آه! أنت تدري، ما في الأمر أنّهم يشعرون على وجه الخصوص بالطمأنينة، فهم يتحدثون عمّا يشاؤون وينطلق الحديث على هيئة سهام. فـ«بريشو» في هذا المساء شيء زهيد:

لقد رأيته، كما تعلم، في منزلي رائعاً حتى لتجثو أمامه؛ ولكنّه لدى الآخرين لا يظلّ الرجل نفسه ولا يملك خفّة الروح ولا بدّ من انتزاع الكلمات من فمه فإذا هو يثير حتى السأم.

وقال «فورشفيل» متعجّباً: «ذلك غريب!».

ولعل خفّة روح كالتي لِـ«بريشو» كانت تُحتسب غباء صرفاً في الجماعة التي قضى «سوان» فيها شبابه، مع أنّها لا تتنافى والذكاء الحقيقي. وكان يمكن على الأرجح للكثير من أهل المجتمع الذين يجدهم «سوان» خفيفي الروح أن يتمنّوا مثل ذكاء الأستاذ المتين الغزير. ولكن هؤلاء توصّلوا في النهاية إلى غرس ميولهم وكراهياتهم في نفسه، على الأقلّ في كل ما يتعلق بالحياة الاجتماعية وحتى بالجزء الذي من بين أجزائها الملحقة يجدر أن يردّ بالأحرى إلى مجال الذكاء، ونقصد التحدّث، لدرجة أن «سوان» لم يستطع إلا أن يجد مزحات «بريشو» متحذلقة تافهة دسمة حتى الغثيان. ثم إنّه أصيب بصدمة فيما تعوّده من آداب المعشر من جرّاء اللهجة الخشنة العسكرية التي يتكلفها الجامعي حامل الأوسمة في حديثه مع كلّ منهم. وربّما فقد أخيراً على وجه الخصوص بعضاً من تسامحه في ذلك المساء وهو يشاهد اللطف الذي تجود به السيّدة «فيردوران» كرمى لِـ«فورشفيل» هذا الذي خطرت لـ«أوديت» الفكرة الغريبة في اصطحابه، وكانت قد سألت «سوان» لدى وصولها إذ شعرت ببعض الحرج إزاءه: «كيف تجد مدعوّي هذا؟».

أمّا هو فأجاب، وقد لاحظ للمرّة الأولى أن «فورشفيل» الذي يعرفه منذ زمن طويل كان قادراً أن يعجب امرأة وأنه جميل الطلعة إلى حدّ ما: «قذر!» لم يخطر له بالتأكيد أن يكون غيوراً على «أوديت» ولكنّه لم يكن يحسّ أنه في مثل سعادته المعتادة، وحينما أراد «بريشو» بعد ما شرع يروي قصّة والدة «بلانش دو كاستيي» التي «أمضت سنوات مع «هنري بلانتاجنيه» قبل أن تتزوجه»، حينما أراد أن يسأله «سوان» تتمّة القصّة فقال له: «أليس كذلك يا سيّد «سوان»؟ باللهجة الحربيّة التي تتخذها لتضع نفسك في

مستوى فلّاح أو لتبعث الشجاعة بين ضلوع جنديّ، قطع «سوان» على «بريشو» سحر قوله وأجاب فأثار بذلك حنق ربّة البيت الشديد، بأن يتفضلوا ويعذروه لاهتمامه اليسير جدّاً بـ«بلانش دو كاستيي»، ولكنّ لديه أمراً يريد سؤال الرسام عنه. ذلك أنّه سبق لهذا الأخير أن ذهب بعد الظهر لزيارة معرض فنّان صديق للسيّدة «فيردوران» توفي منذ فترة قريبة، وكان «سوان» يودّ لو يعلم منه (إذا كان يقدّر ذوقه) إن كان بالحقيقة في أعماله الفنيّة الأخيرة أكثر من البراعة التي سبق أن بعثت على الذهول في أعماله السابقة. وقال «سوان» وهو يبتسم:

- «كان ذلك خارقاً من وجهة النظر تلك، ولكنّه لا يبدو من فنّ «رفيع» جدّاً، كما يقولون».

وقاطعه الدكتور «كوتار» وهو يرفع ذراعيه بوقار يصطنعه قائلاً: «رفيع... ليوازي ارتفاع مؤسسة».

وانفجرت المائدة كلها بالضحك. وقالت السيّدة «فيردوران» لِـ«فورشفيل»: «حينما كانت أقول لك إنّك لا يسعك الاحتفاظ بجديتّك معه. فإنّه يطالعك بكلام فارغ في اللحظة التي يندر فيها أن تتوقّع ذلك».

ولكنّها لاحظت أن «سوان» وحده لم تنفرج أساريره. ولم يكن على أية حال مسروراً جداً أن يثير «كوتار» سخرية القوم منه في حضرة «فورشفيل». ولكنّ الرسّام فضّل أن يثير إعجاب المدعوين بتقديم مقطوعة تدور حول حذاقة المعلم الراحل عوضاً عن أن يجيب «سوان» على نحو مفيد، الأمر الذي كان فَعَله على الأرجح لو كان وحيداً معه، فقال:

- «اقتربت لأرى كيف أُنجز ذلك ودسست أنفي فيه. حسن! ما كان يمكن القول إن هو أنجز من صمغ أو ياقوت أو صابون أو برونز أو ضياء أو غائط!».

وصاح الدكتور متأخراً جداً فلم يفهم أحد معنى مقاطعته: «وزاد في الطنبور نغماً».

وعاد الرسّام يقول: «كأنّما أنجز من لا شيء، ولا سبيل إلى اكتشاف

السرّ أكثر ممّا يتّفق لك في لوحتي «**الدوريّة**» *La Ronde* أو «**الوصيّات على العرش**» *Les Régentes*، أضف أنّه من طينة تفوق «رامبرانت» و«هالز». وأقسم أن قد تجمّع فيه كلّ شيء».

وكمثل المغنين الذين بلغوا أعلى نغمة يمكنهم أداؤها فيتابعون بصوت رفيع ليّن، اكتفى بأن يهمس ضاحكاً كما لو كان ذلك الرسم بالحقيقة سخفاً لفرط جماله:

- «إنه طيّب الرائحة يبعث فيك النشوة ويقطع عليك أنفاسك ويدغدغك، ولا سبيل إلى أن تعلم ممّا صنع حتى ليبدو من السحر والمكر والأعجوبة (وينفجر تماماً بالضحك)، وبعيداً عن النزاهة!» وتوقّف وهو يرفع رأسه بوقار وأخذ نغمة قرار حاول أن يجعلها رخيمة وأضاف قوله: «ومن الصدق بمكان!».

وفيما عدا اللحظة التي قال فيها: «إنّه يفوق «**الدوريّة**»، والقول تجديف أثار احتجاج السيّدة «فيردوران» التي تعدّ «**الدوريّة**» أضخم رائعة فنيّة في العالم إلى جانب «**التاسعة**» و«الساموتراس»، وقوله «صنع من غائط» الذي جعل «فورشفيل» يطوف بنظرة دائرية على المائدة ليرى إن كانت اللفظة تصادف قبولاً ثم يضع على شفتيه بعد ذلك ابتسامة محتشمة مسترضية، فقد حدّق جميع المدعوين، باستثناء «سوان»، في وجه الرسّام بعيون فتنها الإعجاب.

وصاحت السيّدة «فيردوران» بعدما انتهى، وهي في افتتان شديد لأن المائدة كانت مسلّية إلى هذا الحدّ في اليوم الذي يحضر فيه السيّد «دو فورشفيل» للمرة الأولى: «لكم يسليني حينما يهزّه الحماس على هذا النحو». ثم قالت لزوجها: «وأنت ما بك حتى تظلّ هكذا فاغر الفم كحيوان كبير؟ مع أنّك تعلم أنّه يجيد التحدّث؛ يخيّل إليك أنه يسمعك للمرة الأولى. لو رأيته في أثناء ما كنت تتحدّث، فقد كان يلتهمك، وغداً يذكر لكِ كلّ ما قلته دون أن يغفل كلمة واحدة».

وقال الرسّام وقد اغتبط لنجاحه: «لا، ليس الأمر من قبيل المزاح،

إذ يبدو وكأنك تحسبين أنّي أقوم بدعاية فارغة وأنّها محض خدعة. سوف أصحبك إلى هناك لتري، وتقولين إن كنت مبالغاً وإني أراهن أنك ستعودين أكثر حماسة منّي!».

- «ولكننا لا نحسب أنك تبالغ، مرادنا فقط أن تأكل وأن يأكل زوجي كذلك. أعطوا السيّد ثانية من سمك موسى النورماندي فأنتم ترون أن سمكته باردة. لسنا على عجلة من أمرنا، وتقدّمون الطعام كأنّما هنالك حريق، فانتظروا قليلاً لتقديم السلطة».

وكانت السيّدة «كوتار» متواضعة قليلة الكلام، غير أنّها تعرف كيف لا تفقد ثقتها بنفسها إن أسعدها الحظ فألهمها كلمة صائبة. كانت تحسّ أن النجاح سوف يحالفها فتشيع الثقة في نفسها، وما كان الذي تقدم عليه في سبيل أن تتألّق بل لتخدم مستقبل زوجها. ولذلك لم تدع للفظة السلطة التي نطقت بها السيّدة «فيردوران» أن تفلت منها. وقالت بصوت منخفض وهي تلتفت إلى «أوديت»:

- «أليست سلطة يابانيّة؟».

وأطلقت ضحكة ساحرة ساذجة قليلة الضجّة ولكنها لا تقاوم لدرجة أنّها ظلّت للحظات لا تقوى على السيطرة عليها، وقد تهلّلت وأخجلها حضور البديهة والجرأة الكامنة في التلميح على هذا النحو من طرف خفّي ولكنّه واضح إلى رواية «دوماس» الجديدة المدوية. وقال «فورشفيل»: «من عسى تكون السيّدة؟ فإنّها خفيفة الروح».

- «لا، ولكنّنا سنعدّها لكم إن جئتم جميعاً للعشاء نهار الجمعة». وقالت السيّدة «كوتار» لـ«سوان»: «سوف أبدو أمامك ريفيّة إلى حدّ بعيد، يا سيّد، ولكنّي لم أشاهد حتى الآن رواية «**فرانسيون**» التي يتحدث عنها الجميع. أمّا الدكتور فقد سبق له أن ذهب (فإنّي أذكر حتى قوله لي إنه كان شديد الاغتباط لأنّه أمضى الأمسية معك) وأقرّ بأنني ما رأيت من المعقول أن يحجز أماكن ليعود معي ثانية إلى هناك. صحيح أنّه لا سبيل إلى أن تأسف لقضاء أمسيتك في المسرح الفرنسي»، فالأداء دوماً ناجح إلى حد

بعيد، ولكن لنا أصدقاء لطيفين جدّاً (ونادراً ما كانت السيدة «كوتار» تتفوه باسم علم وتكتفي بأن تقول «أصدقاء لنا» و«واحدة من صديقاتي» من قبيل «التأنّق» وبلهجة متكلفة وبمظهر من كان ذا شأن ولا يسمّي إلّا من يشاء) يحصلون في الغالب على مقصورات ومن جميل ما يخطر لهم أن يصطحبونا إلى كلّ جديد جدير بالاهتمام، وإني متيقنة على الدوام من مشاهدة «فرانسيون» في وقت مبكّر أو متأخّر بعض الشيء ومن إمكان تكوين رأي لنفسي. على أنّه ينبغي لي الاعتراف بأني أجد نفسي على شيء من الغباء لأنّ الحديث لا يجرى بالطبع في جميع الصالات التي أذهب إليها في زيارة إلا حول هذه السلطة اليابانية التعسية». ثم أضافت وقد رأت أنّ «سوان» لا يبدو مهتمّاً بالقدر الذي كانت تظنه بالأحداث اليوميّة اللاهبة: «لقد شرع الناس يملّونها بعض الشيء. غير أنّه لا بدّ من الإقرار بأن ذلك يوفّر أحياناً الحجة لبروز أفكار مسلّية إلى حدّ ما. وهكذا لديّ واحدة من صديقاتي غريبة الأطوار إلى حدّ بعيد، مع أنّها امرأة شديدة الجمال كثيرة الأصدقاء واسعة الشهرة، تدّعي أنّها عملت على إعداد هذه السلطة اليابانية في بيتها ولكنّها طلبت أن يوضع فيها كلّ ما يقوله «ألكسندر دوماس» الابن في الرواية. وكانت قد دعت بعض الصديقات إلى المجيء لتناولها، ولم أكن في عداد المصطفيات لسوء حظّي، ولكنّها روت لنا عن ذلك مؤخَّراً في يوم استقبالها، ويبدو أنها كانت مقيتة، وقد أضحكتنا حتى فاضت عيوننا». وقالت إذ رأت «سوان» يحتفظ بمظهر رزين: «ولكن كل شيء يكمن كما تعلم في الطريقة التي تروي بها الأمور».

وإذ افترضت أن سبب ذلك ربّما كان لأنه لا يحبّ **«فرانسيون»**:

- «أعتقد على أيّة حال أني سأمنى بخيبة أمل. فلست أحسب أنها تساوي **«سيرج بانين»**، معبودة السيّدة «دو كريسي». تلك على الأقلّ موضوعات تقوم على أساس وتحثّ على التفكير؛ أمّا تقديم مقادير سلطة على خشبة «المسرح الفرنسي»! أين منها **«سيرج بانين»**! إنّها على أيّة حال مثل كل ما ورد على ريشة «جورج أونيه»، لقد تمت كتابته على الدوام

بعناية فائقة، ولست أدري إن كنت تعرف «**سيّد الحدّادين**» التي ربّما فضلتها حتى على «**سيرج بانين**».

وقال لها «سوان» بلهجة ساخرة: «عفوك، ولكني أقرّ بأنّ قلّة إعجابي بهاتين الرائعتين متساوية تقريباً».

- «حقاً، ما هي مآخذك عليهما؟ وهل ذلك تحيّز؟ وهل ترى فيهما ربّما بعض الكآبة؟ ينبغي على أيّة حال، كما أقول دوماً، ألا نناقش في الروايات أو المسرحيّات، فلكلّ طريقته في رؤية الأمور ويمكن أن تجد ما أحبّه مقيتاً».

وقاطعها «فورشفيل» الذي كان ينادي «سوان». ذلك أن «فورشفيل» كان قد عبّر للسيّدة «فيردوران» عن إعجابه بما دعاه «خطاب» الرسّام الصغيرة فيما كانت السيّدة «كوتار» تتحدث عن «**فرانسيون**».

لقد قال للسيّدة «فيردوران» بعدما أتى الرسّام إلى نهاية مقالته: «يتمتّع السيّد بسهولة في الحديث وبذاكرة ما صادفت نظيرها إلّا في القليل. لكم أودّ أن أكون على مثلها. ولعلّه يصبح واعظاً ممتازاً. ويمكن القول إن لديكّ مع السيّد «بريشو» شخصين متساويين ولست أدري إن كان حتى لا يفوق الأستاذ على صعيد تألّق الجوهر. فالأمور لديه أقرب إلى الطبيعة وأقلّ تصنّعاً. ومع أنّه يلجأ، إذ يسترسل، إلى بعد المفردات الواقعية، ولكنّه الذوق السائد، وإني لم أرَ من يحمل المبصقة بمثل تلك المهارة، كما كنا نقول أيام الجيش حيث كان لي رفيق يذكّرني به السيد بعض الشيء. فقد كان بوسعه أن يثرثر ساعات حل أيّ شيء، لست أدري، أنا، حول القدح على سبيل المثال؛ لا، ليس حول هذا القدح، فما أقوله من الغباء، بل حول معركة «واترلو» وكل ما يخطر لك ببال، وكان يتحفنا أثناء الحديث بأمور ما كانت لتخطر لنا ببال. لقد كان «سوان» على أيّة حال في الكتيبة نفسها ولا بدّ أنّه عرفه».

وسألت السيّدة «فيردوران»: - «وهل ترى السيّد «سوان» كثيراً؟».

فأجاب السيّد «دو فورشفيل»: «لا»، ولمّا كان يرغب في سبيل

التقرّب من «أوديت» بأيسر السبل أن يروق لِـ«سوان» وشاء أن ينتهز تلك المناسبة في التحدّث، بغية مما لقته، عن علاقاته الراقية، ولكن حديث رجل المجتمعات وبلهجة الانتقاد الودي، حديث من يبدو وكأنّه لا يغبطه لذلك الأمر كأنّما لفوز غير متوقع، أضاف قائلاً: «أليس صحيحاً يا «سوان» أني لا أراك البتّة؟ وما العمل حتى تراه؟ فإن هذا الحيوان قابع طوال الوقت في منزل أسرة «لاتريمواي» وأسرة «لوم» ولدى كلّ هذه الجماعة!...». والاتهام كاذب يزيد من كذبه أنّ «سوان» لم يتردّد منذ سنة إلّا على أسرة «الفيردوران». ولكنّ مجرّد ذكر أشخاص لا يعرفونهم كان يقابله لديهم صمت يبطّنه الاستنكار. وإذ خشي السيّد «فيردوران» الانطباع الأليم الذي لا بدّ بعثته في صدر زوجته أسماء «المزعجين» تلك، ولا سيما أنها رشقت هكذا في وجوه فئة الخُلص جميعهم دون لباقة، فقد اختلس نظرة إليها زاخرة بالعطف والقلق. ورأى حينذاك أن السيّدة «فيردوران» في عزمها على ألّا تأخذ علماً بالخبر الذي نقل إليها منذ قليل وألّا تتأثر به وعلى ألا تظلّ خرساء فحسب بل أن يكون أصابها الصمم، مثلما نصطنع الأمر حينما يحاول صديق مذنب أن يهمس في الحديث باعتذار إنما يعني إصغاؤنا إليه من غير ما احتجاج أننا نقبل به، أو حينما يتمّ أمامنا النطق باسم ممنوع عائد لشخص عاق، وكي لا يبدر سكوتها على أنه قبل بل على أنّه الصمت الجاهل الذي يميز الأشياء الجامدة، رأى السيّدة «فيردوران» تخلع فجأة عن وجهها كلّ حياة وكلّ حركة؛ ولم يعد جبينها المحدّب سوى دراسة تخطيطية جميلة لحدبة مستديرة لم يستطيع النفاذ إليها اسم أسرة «لاتريمواي» هذه التي كان «سوان» يظلّ على الدوام قابعاً لديها. وكان أنفها المتغضّن قليلاً يكشف عن فرضة تبدو وكأنما تمّ نسخها عن الحياة. فقد كان يخيّل أن فاها المشقوق على شفا أن يتكلم. لم تعد من بعد سوى تمثال شمع ضائع وقناع من الجصّ، ومجسّم لبناية وتثمال نصفي معدّ لقصر الصناعة يقف الجمهور أمامه بالتأكيد ليتأمّل كيف استطاع النحّات، إذ عبّر عن كرامة عائلة «الفيردوران» التي لا يطالها

الزمان في مقابل كرامة عائلة «لاتريمواي» و«لوم» وهي تساويهما بالتأكيد كما تساوي جميع المزعجين في الأرض، أن يضفي على بياض الحجر وصلابته جلالاً يكاد يكون بابويّاً. ولكنّ الرخام تحرّك في النهاية وأبلغ الأسماع أنّه لا بدّ للمرء ألا يتملّكه القرف كيما يتردّد على هؤلاء القوم لأنّ المرأة ثملة دوماً والزوج جاهل حتى ليقول «مملاً» بدلاً من قوله «ممرّاً». وختمت السيّدة «فيردوران» قولها وهي تنظر إلى «سوان» بهيئة صارمة:

- «حتى لو دفعوا لي الكثير لما سمحت لمثل هذه البضاعة أن تدخل بيتي».

وما كانت تأمل دون شكّ أنه سيبلغ في خضوعه حدّ تقليد ورع عمّة عازف البيانو وبساطتها حينما صاحت قائلة: «أرأيت؟ وما يثير دهشتي أنّهم بعد يجدون جماعة يوافقون على التحدّث إليهم! أمّا أنا فيبدو لي أنني أخشى من الأمر، فما أسرع ما تحلّ الواقعة المشؤومة! كيف يمكن أن يظلّ هنالك جماعة من صنف البهائم لتجري خلفهم؟» ولكن لماذا لا يجيب على الأقلّ مثل «فورشفيل»: «ولكنّها دوقة وهنالك من لا يزال للأمر تأثير عليهم»، ممّا سمح على الأقلّ للسيّدة «فيردوران» أن تجيب: «عسى أن ينالهم من ذلك خير!» وعوضاً عن ذلك اكتفى «سوان» بأن بضحك ضحكة من يعني أنّه لا يستطيع حتى أن يأخذ على محمل الجدّ مثل هذه الأمور المستهجنة. ورأى السيّد «فيردوران» باغتمام وأدرك، وهو يوالي اختلاس النظر إلى زوجته، أدرك تماماً أنّها تحسّ بحنق مفتّش ديني كبير لا يفلح في اقتلاع البدعة، فصاح بـ«سوان» كيما يجهد في حمله على الرجوع عن رأيه، بما أنّ الجرأة في إبداء آرائه تظهر دوماً بمثابة تحسّب وجبانة في نظر أولئك الذين تتم لغير صالحهم:

- «أفصح عن رأيك بصراحة، فلن نبادر إلى ترداده أمامهم».

وأجاب «سوان» على ذلك بقوله:

- «ليس مردّ ذلك على الإطلاق الخوف من الدوقة (إن كنت تتحدث عن عائلة «رتريمواي»). إنّي أؤكد لك أنّ الجميع يودّون الذهاب إلى

منزلها. ولست أقول إنّها «عميقة» (ونطق لفظة «عميقة» كما لو كانت كلمة مضحكة، فقد كانت لغته تحتفظ بآثار عادات ذهنيّة أفقده إياها إلى حين شيء من التجديد طبعه حبّ الموسيقى - وكان يعبر أحياناً بحرارة عن آرائه -) ولكنّها بكل صدق ذكيّة وزوجها مثقف حقيقيّ وإنّي أعدهما الظرفاء».

ولم تستطع السيدة «فيردوران»، وقد أحسّت أن هذا الخائن بمفرده سوف يحول دون تحقيق وحدة النواة الصغيرة الأدّبية، أن تمسك، في حنقها ضدّ هذا المعاند الذي لا يبصر إلى أيّ حدّ تعذّبها أقواله، عن أن تصرخ من صميم فؤادها.

«وذلك لك إن شئت، ولكن لا تقله لنا على الأقلّ».

وقال «فورشفيل» وهو يودّ أن يتألق بدوره: «كلّ ذلك رهن بما تسمّيه ذكاء. فهيّا قل يا «سوان»، ما عساك تعني بالذكاء؟» وصاحت أوديت قائلة: «تلك هي الأمور العظيمة التي أسأله أن يحدثني عنها، ولكنه لا يقبل في يوم».

واحتجّ «سوان»: «بلى...».

وقالت «أوديت»: «أية مزحة هذه!».

فسأل الدكتور قائلاً: «أيّة مزجة تبغ؟»[١].

وتابع «فورشفيل» قوله: «هل الذكاء في نظرك حثالة الناس والذين يعرفون كيف يندسّون؟»

وقالت السيّدة «فيردوران» بلهجة حادّة وهي تتوجّه بحديثها إلى «سانييت» الذي توقّف عن الأكل وقد غاص في بعض الأفكار: «إنْهِ ما أمامك من حلوى كي يمكن أخذ صحنك». وأضافت، وربّما خجلت بعض الشيء من جرّاء اللهجة التي اتّخذتها: «لا بأس عليك، أمامك متّسع

---

(١) «مزحة ومزجة» حاولنا بهما رد التلاعب اللفظي blague à tabac, blague وتعني الأولى المزاح والثانية كيس التبغ.

من الوقت، وإن قلت لك ما قلت فمن أجل الآخرين لأنّ ذلك يحول دون أن نقدّم باقي الطعام».

وقال «بريشو» وهو يشدّد على المقاطع: «هنالك تحديد طريف جداً للذكاء لدى هذا الفوضوي المحبّب المدعو «فينلون» (Fénelon). . .

وقالت السيّدة «فيردوران» لِ«فورشفيل» وللدكتور: «أصغيا! سوف يسرد لنا تعريف الذكاء على لسان «فينلون». الأمر يثير الاهتمام، فليس يتفق لنا دوماً أن نسمع ذلك».

بيد أن «بريشو» كان ينتظر أن يقدّم «سوان» تعريفه، ولكن هذا الأخير لم يجب وفشلت من جرّاء تهربه المناظرة الرائعة التي كانت السيّدة «فيردوران» تغتبط بأن تتحف بها «فورشفيل».

وقالت «أوديت» بلهجة الحردان: «ذلك بالطبع مثلما يفعل معي، ولست غاضبة أن أرى أنني لست الوحيدة التي لا يجدها على قدر المقام».

وسأل «بريشو» وهو يشدّد على المقاطع: أسرة «دو لاتريمواي» هذه التي أبرزت السيّدة «فيردوران» أنها غير جديرة بالاحترام إلى حدّ بعيد أتراها تنحدر من أولئك الذين كانت تقرّ تلك المتحذلقة الساذجة المدعوة «دو سيفينييه» (De Sévihne) أنها سعيدة بمعرفتها لهم لأن ذلك يروق فلّاحيها؟ صحيح أنّ المركيزة كان لديها سبب آخر كان ينبغي أن يعلو على الأوّل لأنها كانت أديبة في الأعماق وتفرد للكتابة المكان الأول. وفي اليوميات التي كانت تبعث بها بانتظام لابنتها كانت السيّدة «دو لاتريمواي» هي التي تصنع السياسة الخارجية إذ كانت على اطّلاع واسع بفضل روابط مصاهراتها المرموقة.

وقالت السيّدة «فيردوران» على سبيل الاحتياط: «لا، لست أظنّ أنها الأسرة ذاتها».

أما «سانييت» الذي عاد فغرق في صمته وتأمّله منذ أن أعاد على عجل صحنه الملآن إلى رئيس الخدم فقد خرج عنه في النهاية كي يروي

وهو يضحك قصّة عشاء تناوله مع الدوق «دو لاتريمواي» يستخلص منه أن هذا الأخير لم يكن يعلم أن «جورج صاند» اسم امرأة مستعار. ولكن «سوان» الذي كان يميل إلى «سانييت» فقد ظنّ من واجبه أن يزوّده بتفاصيل حول ثقافة الدوق تبرز بأنّ مثل هذا الجهل كان مستحيلاً لديه؛ ولكنّه توقّف فجأة إذ أدرك أنّ «سانييت» لم يكن بحاجة إلى هذه البراهين وأنه يعلم كذب القصّة لأنّه أقدم على اختراعها منذ لحظة. فقد كان هذا الرجل الطيّب يعاني من أن تجده أسرة «الفيردوران» مبرماً أشدّ البرم. ولمّا شعر أنّه كان أقل تألقاً في ذلك العشاء من عادته لم يشأ أن يدعه ينتهي دون أن يفلح في إلهاء القوم. واستسلم بسرعة وبدا عليه من التعاسة لفشل الأثر المتوقّع الذي كان يعوّل عليه وأجاب بلهجة فيها من التراخي كي لا يجدّ «سوان» في تفنيد أصبح مذ ذاك غير ضروريّ: «طيّب، طيّب، على أيّة حال ليس في الأمر جريمة، فيما أعتقد، حتى إذا أخطأت»، لدرجة أنّ ودّ «سوان» لو يستطيع القول بأن الرواية كانت صحيحة وممتعة. وخطر للدكتور بعدما أصغى إليهما أنه قد آن له أن يقول لهما: (*Se non è vero*) «فإذا لم يكن صحيحاً»، ولكنه لم يكن واثقاً من الكلمات وخشي أن يختلط عليه الأمر.

وتوجّه «فورشفيل» من تلقاء ذاته بعد العشاء إلى الدكتور.

- «لا بدّ أنّ السيّدة «فيردوران» كانت على جمال، ثم إنها امرأة يمكن التحدّث إليها، وكل شيء بالنسبة إليّ يكمن في ذلك. لقد أخذت دائرة بطنها تتعاظم بعض الشيء. أمّا السيّدة «دو كريسي» فتلك امرأة حلوة بادية الذكاء. عجيب! أنت تبصر في الحال أنها حادّة النظرة». ثم قال للسيّد «فيردوران»، وكان يقترب وغليونه في فمه: «نتحدّث عن السيّدة «دو كريسّي». إني أتصوّر أنها كجسم أنثويّ...».

«إني أفضّلها في سريري على الرعد»، هكذا قال الدكتور «كوتار» على عجل، فعبثاً كان ينتظر منذ لحظات أن يلتقط «فورشفيل» أنفاسه ليتسنى له تمرير هذه النكته القديمة التي كان يخشى ألّا يعود وقتها المناسب إن غيّر

الحديث مجراه والتي سردها بهذه العفويّة والثقة المفرطة التي يحاول المرء بها تخفية البرودة والاضطراب اللذين يلازمان كلّ ما يحفظ عن ظهر القلب. وكان «فورشفيل» يعرفها ففهمها وسرّ بها. أما السيّد «فيردوران» فلم يساوم على سروره، فقد وجد منذ وقت قريب للدلالة عليه رمزاً غير الذي تستخدمه زوجته ولكنّه في مثل بساطته ووضوحه. فما إن يباشر في تحريك رأسه ومنكبيه كمثل من ينفجر ضاحكاً حتى يأخذ توّاً في السعال كأنّما بلع دخان غليونه لشدّة ضحكه، وكان يظلّ يحتفظ به في زاوية فمه فيطيل بذلك إلى ما لا نهاية تصنّع الاختناق والضحك. وهكذا كان والسيّدة «فيردوران» التي تصغي قبالته إلى الرسام الذي يروي لها قصّة فتطبق عينيها قبلما تغوص بوجهها بين يديها يبدوان وكأنّهما قناعا مسرح يمثّلان الفرح بصورتين مختلفتين. مكتبة سُر مَن قرأ

وقد تصرّف السيّد «فيردوران» على أيّة حال تصرفاً حكيماً إذ لم ينزع غليونه من فمه لأنّ «كوتار» الذي كانت به حاجة إلى أن يبتعد قليلاً قال بصوت منخفض مزحة تعلّمها منذ وقت قريب، وكان يكرّرها كلّ مرة يقع عليه أن يذهب إلى المكان نفسه: «ينبغي لي أن أذهب لأحدّث دوق «أومال» لوقت وجيز»، ممّا أعاد نوبة سعال السيّد «فيردوران».

فقالت له السيّدة «فيردوران»، وكانت مقبلة لتقديم مشروبات: «هيّا انزع غليونك من فمك، فأنت ترى أنّك ستختنق لإمساكك عن الضحك على هذا النحو».

وأعلن «فورشفيل» للسيّدة «كوتار» قوله: «أي رجل ساحر وهو زوجك، إن لديه خفّة الروح بقدر ما يتجمّع لأربعة. شكراً يا سيّدتي، إن جنديّاً قديماً مثلي لا يرفض «الدمعة»(١) في يوم».

وقال السيّد «فيردوران» لزوجته: «يرى السيّد «دو فورشفيل» أن «أوديت» رائعة».

---

(١) نظن الاصطلاح يوافق تماماً اللفظة الفرنسية La goutte.

- «وهي بالضبط تودّ تناول طعام الغداء مرة معك. سوف ندبّر الأمر ولكن ينبغي ألّا يعرف «سوان» بذلك، فأنت تعلم أنّه يضفي بعض الفتور على الجوّ. على أن ذلك لا يحول دون أن تأتي لتناول العشاء بالطبع ونأمل أن تكون بيننا مرّات كثيرة. سوف نعمد كثيراً إلى تناول العشاء في الهواء الطلق مع حلول فصل الصيف فهل تزعجك وجبات العشاء الخفيفة في الغابة؟ حسن، حسن، سيكون الأمر لطيفاً للغاية». وصاحت بعازف البيانو الشابّ كي تبرز أمام مستجد من وزن «دو فورشفيل» ذكاءها وسلطانها المستبد على الخلّص لديها «ألن تعمل بمهنتك أنت؟».

وقالت السيّدة «كوتار» لزوجها حين عاد إلى الصالة: «كان السيّد «دو فورشفيل» يغتابك». أمّا هو فقال لها وهو يتابع فكرة «فورشفيل» حول طبقة الأشراف التي كانت تشغل باله منذ أول العشاء:

- «إني أعالج في هذه الآونة «بارونة» تدعى البارونة بوتبوس». لقد شارك قوم «البوتبوس» في الحملات الصليبيّة أليس كذلك؟ وهم يملكون في «بومرانيا» بحيرة تبلغ مساحتها عشر مرّات مساحة ساحة «الكونكورد». إني أعالجها بسبب التهاب جافّ في المفاصل وهي امرأة رائعة. إنّها تعرف السيّدة «فيردوران» فيما أعتقد».

وقد سمح ذلك لِ«فورشفيل» حينما ألفى نفسه في اللحظة التالية وحيداً مع السيّدة «كوتار» أن يُكمل الحكم المشجع الذي أطلقه على زوجها:

- «ثم إنّه ظريف يبدو جلياً أنّه يعرف الكثير من أهل المجتمع، فما أكثر ما يعرف الأطباء!».

وقال عازف البيانو: «سأعزف جملة السوناتا من أجل السيّد «سوان». وسأل السيّد «دو فورشفيل»، ومراده استرعاء الأنظار: «ويحك! ما تلك على الأقلّ ذات السوناتات؟»[1].

---

(١) تلاعب بالألفاظ لا سبيل إلى رده إلى العربية: Serpent à Sonnettes وهي ذات الأجراس (حية) و Serpent à Sonates من السوناتا للخلط بين اللفظتين.

ولكن الدكتور «كوتار» الذي لم يسمع قطّ هذا التلاعب اللفظيّ لم يفهمه وحسب السيّد «دو فورشفيل» مخطئاً، فاقترب بسرعة ليصحّحه وقال بلهجة غيورة متلهّفة ظافرة: - «لا، لا يقولون «حيّة السوناتات»، بل ذات الأجراس».

وأوضح له «فورشفيل» التلاعب بالألفاظ فكست الحمرة وجه الدكتور.

«أليس طريفاً، قل يا دكتور؟».

فأجاب «كوتار»: «آه، إني أعرفه منذ زمن طويل».

ولكنّهما صمتا، فقد برزت الجملة الصغيرة من تحت اضطراب ارتعاشات الكمان التي كانت تحميها بوقفتها المختلجة على بعد قرارين منها - مثلما تلمح في منطقة جبليّة خلف جمود الشّلّل الظاهر المدوخ على بعد مئتي قدم في الأسفل صورة متنزهة صغيرة جدّاً - برزت في البعيد رشيقة تحميها موجة طويلة لستار الأنغام الشفافة التي لا تتوقّف. وخاطبها «سوان» في قلبه وكأنما يخاطب نجيّة حبّه، وكأنما يخاطب صديقة لِ«أوديت» يقع عليها أن تقول لها بأن لا تصرف انتباهها إلى «فورشفيل».

وقالت السيّدة «فيردوران» لواحد من الخلّص لم تَدْعُهُ إلا في اللحظات الأخيرة: «لقد وصلت متأخّراً، فإنّنا نعمنا بـ«بريشو» من نمط لا مثيل له ومن بلاغة! ولكنه ذهب. أليس كذلك يا سيّد «سوان»؟ «وقالت كيما يلاحظ أنّه مدين لها بتعرّفه إليه: «أعتقد أنّها المرّة الأولى التي تلقاه فيها. أما كان ممتعاً «بريشو»؟».

وانحنى «سوان» بتهذيب.

فسألته السيّدة «فيردوران» بجفاء: «ألم يكن ممتعاً؟ لا؟».

- «بلى يا سيّدتي، وإلى حدّ بعيد، لقد فتنني. ربما كان ذا لهجة قاطعة إلى حدّ ما ومرحاً بعض الشيء في ما يخصّني. ولعلّني أرغب له أحياناً قليلاً من التردّد وبعض اللين، ولكنّما يشعر المرء أنّه يعرف الكثير من الأمور ويبدو أنه رجل طيب إلى أبعد حدّ».

وانصرف الجميع في ساعة متأخرة جداً. وكانت أولى كلمات «كوتار» لزوجته:

- «نادراً ما رأيت السيّدة «فيردوران» في متل فورتها هذا المساء».

وقال «فورشفيل» للرسّام وقد عرض عليه أن يعود معه: «ما عسى أن تكون السيّدة «فيردوران» بالضبط، أتراها من الرخيصات؟».

ورأته «أوديت» لأسفها يبتعد ولم تجرؤ أن لا تعود بصحبة «سوان» ولكنّها كانت حادّة المزاج في العربة وحينما سألها إن كان عليه أن يدخل إلى بيتها قالت «بالطبع» وهي ترتفع بمنكبيها وقد نفد صبرها. ولما انصرف جميع المدعوين قالت السيّدة «فيردوران» لزوجها:

- «هل لاحظت كيف ضحك «سوان» ضحكة بلهاء حينما تحدّثنا عن السيّدة «لاتريمواي»؟».

وكانت قد لاحظت أن «سوان» و«فورشفيل» أقدما مرّات عديدة على حذف الأداة «دو» من أمام ذلك الاسم. وما شكّت أنّهما إنّما يفعلان ليشيرا إلى أنّ الألقاب لا تخيفهما، فكانت تتمنّى محاكاة اعتزازهما ولكنّها لم تدرك تماماً بأيّة صيغة قواعديّة تترجمه. وكانت لذلك لا تنفكّ تقول، إذ تغلب لديها طريقتها الخاطئة في الكلام على تشدّدها الجمهوري: أسرة «دو لاتريمواي» أو بالأحرى أسرة «دلا ترايمواي»[1] وذلك باختصار مألوف في كلمات أغاني المقاهي الموسيقيّة وتعليقات الكاريكاتوريّين تختفي به الأداة «دو»، ولكنها كانت تستدرك فتقول: «مدام لاتريمواي». ثمّ أضافت تقول، بلهجة ساخرة وبابتسامة تشير إلى أنها تستشهد ولا تأخذ لحسابها تسمية ساذجة ومثيرة للسخرية: «الدوقة، حسبما يقول «سوان»».

- «أقول لك إني وجدته في غاية الغباء».

---

(١) عادة شعبية في اختصار الأداة الدالة على طبقة النبلاء: d'La Trémoille بدلاً من de la Tremoille.

وأجابها السيّد «فيردوران» قائلاً:

- «ما هو بصادق. إنّه رجل مراوغ وموقفه على الدوام بين بين. فهو يبتغي على الدوام مراعاة الذئب والشاة. ما أعظم الفارق بينه وبين «فورشفيل»! فهذا على الأقلّ رجل يقول لك طريقته في التفكير دون مواربة، فإمّا أن تروقك أو لا تروق. إنّه ليس كالآخر الذي لا هو بالحصرم ولا بالعنب. ويبدو على أيّة حال أن «أوديت» تفضّل «فورشفيل» وهي محقّة في نظري. وبما أن «سوان» يريد أن يتصرّف معنا تصرف رجل المجتمعات وحامي حمى الدوقات، فإن الآخر يملك لقباً على الأقلّ»، وأضاف بلهجة ناعمة: «هو لا يزال كونت فورشفيل»، وكأنّما يزن بالميزان الدقيق، وهو على اطلاع على تاريخ الدوقيّة، قيمتها الخاصّة بها.

وقالت السيّدة «فيردوران»: «سأخبرك أنّه حسب من واجبه أن يطلق بحقّ «بريشو» بعض التلميحات الخبيثة والمثيرة للسخرية. وبما أنّه لاحظ أنّ «بريشو» محبوب في منزلنا فقد كان ذلك من قبيل النيل منّا وتخريب مأدبة العشاء التي ندعو إليها. فأنت تحسّ فيه الرفيق الطيّب المسكين الذي يذمّك لدى مغادرته».

وأجاب السيّد «فيردوران»: «لقد سبق أن قلت لك، إنّه الفاشل، الحاسد الوضيع لكل ما كان على شيء من الرفعة».

ولم يكن في الحقيقة واحد من الخُلّص إلا وكان أكثر إساءة من «سوان»، ولكنّهم يحتاطون جميعاً بتطييب نميمتهم بمزحات معروفة وبشيء من العاطفة والمودة، في حين يبدو أقلُّ تحفّظ يقدم عليه «سوان» وقد خلا من الصيغ المعهودة من مثل: «ليس ما نقوله قدحاً» التي يأنف أن ينحدر إلى مستواها على أنّه خيانة. هنالك كتّاب أصلاء تثير أقل جرأة لديهم ثائرة الناس لأنّهم لم يتملّقوا قبل كلّ شيء ميول الجمهور ولم يقدموا له الموضوعات المطروقة التي ألفها. وكان «سوان» يثير حفيظة السيّد «فيردوران» بالطريقة نفسها. وإنّما جدّة اللغة هي التي تحمل على الظنّ، في ما يخصّ «سوان» ويخصّهم على حد سواء، بخبث مقاصده.

كان «سوان» لا يزال يجهل فقدان الحظوة الذي يتهدّده لدى عائلة «الفيردوران» وظلّ ينظر إلى مهازلهم بمنظار الاستحسان من خلال حبّه.

ولم يكن له موعد مع «أوديت» في الغالب على الأقلّ إلّا في المساء ولكنّه يودّ في أثناء النهار، إذ يخشى أن يصيبها الضجر منه إن هو ذهب إليها، ألّا ينفكّ يشغل تفكيرها فيبحث في كلّ لحظة عن فرصة يلج منها إليها ولكن بطريقة ممتعة بالنسبة إليها. فإن خلب لبّه في واجهة بائع زهور أو مجوهرات منظر شجيرة أو مجوهرة فكّر في الحال أن يبعث بهما لِ«أوديت»، وهو يتخيّل المتعة التي وفراها له فجاءت تزيد، وقد أحسّت بها، من الحنان الذي تكنه له، وأرسل من يحملها في الحال إلى شارع «لابيروز» كي لا يؤخّر اللحظة التي يشعر فيها أنّه قريب منها إلى حدّ ما ساعة يصلها شيء من جانبه. كان يودّ على وجه الخصوص أن يصلاها قبل أن تخرج كيما يعود عليه العرفان بالجميل الذي ستحسّ به باستقبال أوفر مودّة حينما تراه في منزل أسرة «الفيردوران» أو، من يدري؟ إن البائعَ حثّ الخطى، ربّما رسالة تبعث بها إليه قبل العشاء، أو مجيئها شخصياً إلى منزله في زيارة إضافية تشكره بها. ومثلما كان فيما مضى يجرّب ردود فعل الغيظ على طباع «أوديت»، كان يحاول عن طريق العرفان بالجميل أن يسترق منها بعض نتف من عاطفة دفينة لم تكشف بعد عنها.

وغالباً ما تقع في ضائقة مالية فترجوه وقد ضيّقت الديون عليها أن يمدّ لها يد العون. وكان سعيداً بذلك سعادته بكل ما يمكن أن يزوّد «أوديت» بفكرة رفيعة عن الحبّ الذي يكنّه لها أو بمجرد فكرة رفيعة عن نفوذه وعن الفائدة التي يمكن أن تجنيها منه. ولا ريب أنّه لو قيل له في البداية: «إنّما مكانتك التي تروقها»، ولو قيل الآن: «إنّما تحبّك من أجل ثروتك»، لما صدّق ذلك ولما ساءه إلى حدّ بعيد على أية حال أن يتصورها الناس مشدودة إليه - أن يحسّ الناس أنّهما متّحدان - بفضل أمر في مثل قوّة التحذلق أو المال. وحتى لو ظن الأمر صحيحاً، فلعلّه ما كان غمّه أن

يكتشف لحبّ «أوديت» له دعامة أكثر ديمومة من الإمتاع أو الصفات التي يمكن أن تلقاها فيه: ونقصد المصلحة، التي تحول دون أن يجيء اليوم الذي قد يغريها فيه أن تكف عن رؤيته. كان بوسعه في الوقت الحاضر، إذ يغمرها بالهدايا ويؤدّي لها الخدمات، أن يستريح بفضل مكاسب خارجة عن شخصه وعن عقله في العناء المضني بأن يحسن هو نفسه في عينيها. وكانت لذّة الإحساس بأنّه عاشق وأنه يحيا بالحبّ وحده، تلك اللذة التي يشكّ أحياناً في حقيقتها، إنّما يزيد ذلك الثمن الذي يدفعه مقابلها في نهاية المطاف، كهاوٍ لأحاسيس غير ماديّة، من قيمتها في عينيه - مثلما ترى أناساً يحارون إن كان منظر البحر وضجيج أمواجه ممتعين فيقنعون أنفسهم بذلك وبالميزة النادرة لميولهم المتجردة على السواء إذ يستأجرون غرفة الفندق التي تمكنهم من التمتع بها بمبلغ مائة فرنك في اليوم الواحد.

وفي ذات يوم كانت تردّ إليه تأملات من هذا القبيل ذكريات الزمن الذي حدّثوه فيه عن «أوديت» بوصفها امرأة تعيش في كنف عشيق، وتلهّى مرة أخرى في إجراء تقابل بين التشخيص الغريب الذي تمثّله المرأة التي تعيش في كنف عشيق - وهي مزيج براق من عناصر مجهولة شيطانية ترصّعه شأن بعض أطياف «غوستاف مورو» (Gustave Moreau) أزهار سامّة تتشابك مع جواهر ثمينة - و«أوديت» هذه التي أبصر على وجهها توالي العواطف نفسها، من إشفاق على المساكين وثورة على الظلم وإقرار بمعروف، التي رأى والدته فيما مضى تشعر بها وكذلك أصدقاءه، «أوديت» هذه التي غالباً ما كانت أقوالها ذات علاقة بالأشياء التي يعرفها بذاته أفضل المعرفة، بمجموعاته، بغرفته، فخادمه العجوز وبصاحب المصرف الذي يودع لديه سنداته، واتفق أن ذكّرته صورة صاحب المصرف الأخيرة أنّه يقع عليه سحب أموال منه. ذلك أنّه إن مد يد العون لـ«أوديت» في صعوباتها الماديّة في هذا الشهر أقلّ ممّا في الشهر الماضي الذي منحها فيه خمسة آلاف فرنك، وإن لم يقدّم لها عقداً من الألماس تشتهيه فلن يجدّد فيها ذلك الإعجاب الذي تبديه بسخائه وذلك الإقرار بالجميل،

وكلاهما يجعله في غاية السعادة، وربّما حملها على الاعتقاد بأنّ حبّه لها قد تناقص إذ ترى أن مظاهره قد أصبحت أقلّ حجماً. وإذ ذاك سأل نفسه فجأة إن لم يعنِ بالضبط أن «تعيش في كنفه» (كما لو أمكن استخلاص فكرة صرف المال على العشيقة من عناصر لا هي بالخفيّة ولا هي بالفاسقة بل تكمن في أساس حياته اليومي والخاصّ، كمثل ورقة الألف فرنك البيتيّة الأليفة، الممزّقة الملصقة التي حصرها خادمه بعد ما دفع حسابات الشهر والقسط الشهري في درج المكتب العتيق حيث استعادها «سوان» ليبعث بها مع أربع ورقات أخرى إلى «أوديت») وإن لم يكن بوسعه أن يطلق على «أوديت» منذ أن عرفها (لأنه لم يخامره لحظة واحدة أن تكون استطاعت في يوم تقبّل المال من أحد قبله) تلك الكلمة التي ظنها لا تتآلف معها، عنينا «المرأة التي تعيش في كنف عشيق». ولم يستطع تعميق هذه الفكرة لأن نوبة من كسل فكريّ كان ولاديّاً لديه ومتقطعاً ومن تدبير العناية الربّانيّة جاءت تطفئ في تلك اللحظة كلّ نور في عقله على النحو المفاجئ الذي أصبح ممكناً به فيما بعد، حينما تمّ تركيب الإنارة الكهربائية في كل مكان، قطع الكهرباء في أحد المنازل. وتلمس فكره مقدار لحظة طريقه في الظلام، ثم رفع نظارتيه ومسح زجاجهما وأمرّ يده على عينيه ولم يبصر الضياء ثانية إلا حينما وجد نفسه من جديد أمام فكرة مغايرة تماماً ومفادها أنّه ينبغي له أن يجهد في إرسال ستة أو سبعة آلاف فرنك بدلاً من خمسة إلى «أوديت» بسبب المفاجأة والفرح اللذين يصيبانها من جرّاء ذلك.

وفي المساء وحينما لم يكن يمكث في البيت بانتظار ساعة لقاء «أوديت» لدى عائلة «الفيردوران» أو بالأحرى في أحد المطاعم الصيفيّة التي يحبّانها في الغابة ولا سيما في «سان كلو»، كان يذهب لتناول طعام الغداء في بعض تلك المنازل الأنيقة التي كان فيما مضى من جلسائها المعتادين. فما كان يريد أن يفقد صلته بجماعة ربّما استطاعوا في يوم - من يدري؟ - أن ينفعوا «أوديت» وقد أفلح كثيراً بفضلهم أن يحسن في عينيها. ثم إن تعوّده الطويل للمجتمعات الراقية والبذخ خلّف فيه

ازدراءهما والحاجة إليهما في الوقت نفسه حتى إنّه منذ اللحظة التي بدت له أكثر الأكواخ تواضعا في منزلة أكثر البيوتات بذخاً كانت حواسّه قد ألفت الثانية لدرجة أنّه ربّما أحسّ ببعض الانزعاج أن يجد نفسه في الأولى. وكان يضع على قدم المساواة - إلى حدّ من التماثل لا يصدّق - بورجوازيين صغاراً يقيمون حفلة راقصة في الطابق الخامس، المدخل د، الباب الذي إلى اليسار، وأميرة «بارم» التي كانت تقيم أجمل حفلات باريس؛ لم يكن يداخله الشعور بأنّه في حفلة راقصة حينما يقف مع الآباء في حجرة نوم ربّة المنزل، فيما يورث لديه منظر المغاسل المغطاة بالمناشف والأسرّة التي تحوّلت إلى مستودع ملابس وتراكمت فوق أغطيتها المعاطف والقبعات الإحساس بالاختناق نفسه الذي يمكن أن تسببه، في يومنا هذا، رائحة مصباح يدخّن أو سراج يطلق سخامه لقوم تعودوا الكهرباء عشرين سنة.

وفي اليوم الذي كان يتناول فيه طعام العشاء في المدينة كان يأمر بالإسراج في السابعة والنصف. وكان يرتدي ثيابه وهو يفكّر بـ«أوديت» فلا يجد نفسه على هذا النحو وحيداً لأن التفكير المستمر بـ«أوديت» كان يضفي على الفترات التي كان فيها بعيداً عنها السحر نفسه الذي يلازم الفترات التي تحضر فيها. كان يصعد إلى العربة ولكنّه يحسّ أنّ هذا التفكير قد قفز إليها في الوقت نفسه وجلس فوق ركبتيه كحيوان محبوب ينقّله في كلّ مكان ويحتفظ به على المائدة من دون علم المدعوين؛ فكان يداعبه ويستدفئ به وتصيبه، إذ يشعر بضرب من الوهن، ارتعاشة خفيفة تتشنّج بها رقبته وأنفه وهو يثبّت في عروة سترته باقة أزهار «كفّ العذراء». ولعل «سوان» كان يحبّ إذ شعر أنّه مريض وحزين منذ بعض الوقت ولا سيما منذ قدّمت «أوديت» «فورشفيل» لعائلة «الفيردوران»، أن يذهب ويرتاح قليلاً في الريف. على أنّه ما كان يجرؤ أن يغادر باريس يوماً واحداً عندما تكون «أوديت» فيها. كان الطقس دافئاً وقد حلّت أجمل أيام الربيع. وعبثاً كان يجتاز مدينة من حجر ليذهب إلى فندق مغلق إذ تمثل

باستمرار أمام نظريه حديقة يملكها على مقربة من «كومبريه» حيث يمكن منذ الرابعة أن ينعم المرء تحت الممرّات المظلّلة وقبل أن يبلغ حقل الهليون بقدر من البرودة يماثل ما يتسنّى له على جانب البِركة التي تحيط بها أزهار السوسن وزهرة الأفراح وذلك بفضل الريح التي تهبّ من حقول «ميزيلغيز»، وحيث تجرى حول المائدة حينما يتناول طعام الغداء أزهار الكشمش والورد التي جدلها بستانيّه.

فإن اتّفق أن يجيء الموعد في الغابة أو «سان كلو» مبكراً، كان ينطلق بعد العشاء لدى مغادرة المائدة بسرعة - ولا سيما أن إنذار المطر بالهطول وبوصول «الخلّص» قبل الأوان - إلى الحد الذي قالت معه أميرة «لوم» ذات مرّة (وكانوا قد تناولوا طعام العشاء متأخرين في بيتها وفارقها «سوان» قبل تقديم القهوة ليلحق بأسرة «الفيردوران» في جزيرة الغابة):

- «لو زاد عمر «سوان» ثلاثين عاماً وعانى من مرض المثانة لعذرناه حقّاً في الإسراع على هذا النحو ولكنه وهذه حاله يسخر من الناس».

وكان يقول في نفسه بأن سحر الربيع الذي لا يستطيع أن يبادر إلى التمتع به في «كومبريه» ربّما لقيه على الأقلّ في جزيرة التمّ أو في «سان كلو». ولما لم يكن يستطيع التفكير إلا ب- «أوديت»، فلم يتسنّ له حتى أن يعلم إن كان قد استنشق رائحة الأوراق وإن كانت الليلة مقمرة. وكانت تستقبله جملة السوناتا الصغيرة التي يجرى عزفها في الحديقة على بيانو المطعم. فإن لم يتوافر واحد هنالك تكبدت عائلة «الفيردوران» مشقّة كبيرة لينزلوا واحداً من إحدى الحجرات أو من غرفة الطعام: وليس يعني ذلك أن «سوان» عاد إلى مكانته لديهم، بل العكس. غير أن فكرة تنظيم متعة طريفة لأحدهم وإن كانوا لا يحبّونه إنّما تبعث فيهم أثناء الفترة اللازمة للإعداد عواطف حنان ومودة عارضة وسريعة الزوال. وكان يقول في نفسه أحياناً إنها أمسية أخرى من الربيع تنقضي فيجهد في صرف انتباهه إلى الأشجار والسماء. ولكن الاضطراب الذي ينتابه من جراء حضور «أوديت»، بالإضافة إلى حمّى خفيفة لا تفارقه منذ بعض الوقت، كان

يحرمه من الهدوء والراحة وهما الأساس الذي لا غنى عنه للانطباعات التي يمكن أن تخلّفها فينا الطبيعة.

وذات مساء قبل «سوان» فيه تناول طعام العشاء مع أسرة «الفيردوران» وحين بادر في أثناء العشاء إلى القول بأن لديه في الغد مأدبة مع رفاقه القدماء أجابته «أوديت» أمام جميع المدعوين، أمام «فورشفيل» الذي أصبح الآن واحداً من «الخلّص» وأمام الرسّام وأمام «كوتار»:

- «أجل، أعلم أنّ لديك مأدبة، ولن أراك إذن إلّا في منزلي، ولكن لا تجئ متأخراً جدّاً». ومع أن «سوان» لم يمتعض بعد جديّاً من المودة التي تبديها «أوديت» لهذا الفرد أو ذاك من فئة الخُلّص فقد أحسّ بعذوبة عميقة وهو يسمعها تقرّ على هذا النحو أمام الجميع، وبهذه الوقاحة الهادئة، بلقاءاتهما اليومية في المساء والمكانة المميّزة التي يشغلها عندها وما يتضمّنه ذلك من تفضيل له. صحيح أنّ «سوان» كثيراً ما خطر له أنّ «أوديت» لم تكن امرأة على قدر من الروعة كبير وأن السيطرة التي يبسطها على مخلوق أدنى منه بكثير ليس في إعلانها على رؤوس الأشهاد في حضرة فئة «الخُلّص» ما ينبغي أن يبدو مشجعاً إلى هذا الحدّ، ولكنّه منذ تبيّن أنّ «أوديت» تبدو في نظر العديد من الرجال امرأة فاتنة ومشتهاة فقد أيقظ فيه السحر الذي تبدو لهم فيه - الحاجة المؤلمة إلى سيطرة تامّة في أصغر أجزاء فؤادها. وأخذ يعلّق أهميّة كبرى على هذه اللحظات التي يقضيها عندها في المساء والتي يجلسها فيها على ركبتيه ويحملها على أن تقول له تفكيرها بهذا الشيء أو ذاك، والتي يعدّد فيها الخيرات الوحيدة التي يهمّه امتلاكها الآن على هذه الأرض. ولذلك انتحى بها بعد العشاء ناحية ولم يفته أن يشكرها بعاطفة فيّاضة محاولاً أن يعلّمها، حسب درجات العرفان بالجميل الذي يبديه لها، تدرّج المتع التي تستطيع أن تبعثها فيه وأقصاها أن تقيه ضربات الغيرة على مدى الفترة التي يمتدّ فيها حبّه لها ويجعله ضعيفاً إزاءه.

ولما خرج في الغد من المأدبة كان المطر يهطل مدراراً ولم يكن

بتصرّفه سوى عربته المكشوفة، فعرض صديق له أن يصحبه إلى منزله في عربته المغطّاة، وإذ جعلته «أوديت» يوقن بأنها لا تنتظر أحداً من جراء أنها طلبت إليه المجيء فربّما عاد لينام في منزله هادئ الباب مشروح الفؤاد خيراً من أن يذهب على هذا النحو تحت المطر. ولكنها إن رأت أنه لا يبدي اهتماماً بأن يقضي دوماً معها آخر السهرة دون أي استثناء فربّما أهملت أن تحتفظ له بها يوم يرغب بالضبط في ذلك رغبة خاصّة.

ووصل إلى منزلها بعد الساعة الحادية عشرة، وفيما كان يعتذر أنّه لم يستطع المجيء قبل ذلك اشتكت من أن الوقت متأخر جدّاً بالحقيقة وأن العاصفة جلبت لها الألم وأنها تحسّ آلاماً في رأسها وحذرت من أنّها لن تستبقيه أكثر من نصف ساعة وأنها ستصرفه في منتصف الليل. وبعد قليل أحسّت أنها متعبة وأبدت رغبتها في النوم فقال لها:

- «لا «كاتليا» إذن هذا المساء؟ وأنا الذي جعل أمله في «كاتليا» يسيرة طيّبة».

وأجابته وقد بدت عابسة بعض الشيء وعصبية:

- «لا، يا صغيري، لا «كاتليا» هذا المساء فأنت ترى أنّني منحرفة الصحّة».

«ربّما جاءك ذلك ببعض الفائدة، ولكنّي على أية حال لا ألحّ».

ورجته أن يطفئ النور قبل أن يذهب وأغلق بنفسه ستائر السرير ومضى. بيد أنه حينما عاد إلى منزله خطر له فجأة أنّ «أوديت» ربّما كانت تنتظر أحدهم في ذلك المساء وأنّها تظاهرت فقط بالتعب وأنها لم تطلب إليه أن يطفئ النور إلا ليحسب أنها تزمع أن تنام وأنها عادت فأضاءت حالما ذهب وأدخلت من كان سيقضي الليل بالقرب منها. ونظر إلى الساعة؛ لقد انقضت ساعة ونصف منذ أن فارقها، فعاد وخرج وأخذ عربة واستوقفها على مقربة من منزلها في شارع صغير يعامد الشارع الذي يطلّ عليه من الخلف بيتها الخاصّ وحيث كان يذهب أحياناً لينقر على نافذة حجرة نومها كيما تبادر وتفتح له. ونزل من العربة، وكان كل شيء مقفراً

مظلماً في ذلك الحيّ، ولم يتكلف سوى بضع خطوات يخطوها حتى أفضى تقريباً أمام بيتها. ووسط إظلام جميع النوافذ المطفأة منذ وقت طويل في الشارع رأى نافذة واحدة يفيض منها النور، - من بين المصراعين اللذين يعتصران لبّه الخفي المذهب -، النور الذي يملأ الحجرة والذي كان يحمل له، من أقصى ما يراه وهو يقترب في الشارع، الغبطة وينبئه: «أن هي هناك تنتظرك» وهو يعذّبه الآن إذ يقول له: «إنها هناك مع من كانت تنتظره». وشاء أن يعرف من، فانسلّ على امتداد الجدار حتى النافذة ولكنه لم يستطع أنْ يبصر شيئاً من بين شرائح المصراعين المائلة، بل كان يسمع فقط في سكون الليل همس حديث.

كان يعذبه بالتأكيد أن يرى هذا النوع الذي يتحرك في جوّه المذهب، وخلف الحاجز، الثنائيّ الخفيّ الممقوت وأن يسمع هذا الهمس الذي يكشف عن وجود ذلك الذي جاء بعد ذهابه وعن نفاق «أوديت» وعن السعادة التي كانت تنعم بها معه. ومع ذلك فقد كان سعيداً أنْ جاء فالقلق الذي اضطره الخروج من منزله قد فقد من حدّته إذ فقد من إبهامه الآن وقد وضع في قبضته حياة «أوديت» الأخرى التي ساوره إذ ذاك ارتياب بها مفاجئ وعاجز والتي ينيرها المصباح تماماً وهي سجينة، ولا تدري، في هذه الحجرة التي يمكن حينما يشاء أن يدخل إليها ليفاجئها ويلقي القبض عليها. أو هو بالأحرى سيبادر إلى النقر على مصراعي نافذتها كما كان يفعل في الغالب حينما يجيء متأخراً جداً؛ وهكذا تعلم «أوديت» على الأقلّ أنّه اطلع على الأمر وأنّه رأى النور وسمع الحديث، وهو الذي كان يتمثّلها لتوه تسخر مع الآخر من أوهامه إنّما يراهما الآن مطمئنين إلى خطأهما وقد خدعهما هو في النهاية وهما يحسبانه بعيداً جدّاً عن المكان، هو الذي يعلم مذ ذاك أنّه سيبادر إلى النقر على خشب النافذة. وإنّ ما يشعر به في هذه اللحظة ممّا يقارب الإمتاع ربما كان كذلك غير هدأة الشّك والألم: ربّما كان متعة عقلية. فلئن كانت الأشياء، مذ أصبح عاشقاً، قد استعادت في نظره شيئاً من الإثارة المستحبّة التي كان يجدها

فيها فيما مضى ولكن حيثما تستنير بذكرى «أوديت» فإن حاسة أخرى من شبابه المجدّ تستثيرها غيرته الآن، عنينا حبّ الحقيقة، ولكنّها حقيقة قائمة هي الأخرى بينه وبين عشيقته لا تستمدّ ضياءها إلّا منها، حقيقة فرديّة محضة تتخذ لها موضوعاً وحيداً لا محدود الثمن ومن جمال متجرّد تقريباً، موضوعاً قوامه أعمال «أوديت» وعلاقتها ومشروعاتها وماضيها. وكانت تصرفات المرء اليومية البسيطة قد بدت على الدوام لِـ«سوان»، في أيّة فترة أخرى من حياته، غير ذات قيمة فإن نقلوا إليه عن ذلك وجد الأمر تافهاً وكان أقلّ انتباهه، فيما هو يصغي، ينصرف إليه، وكان ذلك في نظره من الفترات التي يحسّ أنّه أكثر ما يكون ضحالة فيها. ولكنّ الفرديّ في هذه الفترة الغريبة من الحبّ يتخذ طابعاً عميقاً إلى الحدّ الذي يبدو فيه الفضول الذي يحسّ أنه يستفيق في داخله إزاء أقلّ اهتمامات تشغل امرأة، كذلك الذي كان به فيما مضى إزاء التاريخ. وكلّ ما قد كان يخجله حتى ذاك، كالتجسّس أمام نافذة، وربما في غد، من عساه يدري؟ حمل اللامبالين بطريقة حاذقة على الكلام ورشوة الخدم والتنصت على الأبواب، كلّ ذلك لم يعد يبدو في نظره، كمثل استجلاء النصوص ومقارنة الأدلّة وتفسير الآثار سواء بسواء، سوى طرق استقصاء علميّ ذي قيمة فكرية حقيقيّة وملائمة للبحث عن الحقيقة.

وإذ كان على وشك النقر على خشب النافذة أصابه الخجل مقدار لحظة لظنه أن «أوديت» سوف تعلم أن الشكوك ساورته وأنّه عاد أدراجه وكمن في الشارع. وكثيراً ما نقلت إليه كرهها للغيارى وللعشاق الذين يتجسسون. إن ما كان يزمع أن يفعله غير لبق إلى حد بعيد ولسوف تمقته من الآن فصاعداً فيما هي ربما لا تزال في هذه اللحظة تحبه طالما لم ينقر على نافذتها بعد، وإن كانت تخدعه. فما أكثر ضروب السعادة الممكنة التي يضحّى بتحقيقها في سبيل نزق متعة فورية! ولكن الرغبة في معرفة الحقيقة كانت أقوى وبدت له أكثر نبلاً. كان يعلم أن حقيقة ظروف من التي ربما دفع حياته ثمناً ليعيدها كما هي تماماً إنما دوّنت بوضوح خلف

هذه النافذة التي يثلمها النور وكأنها تحت غلاف مزوق بالذهب لإحدى تلك المخطوطات الثمينة التي لا يمكن للعالم الذي يرجع إليها أن يظل لامبالياً بثروتها الفنية نفسها. لقد كان يحس بنشوة في تعرّف الحقيقة التي يتعشقها في هذا المثال الوحيد والسريع الزوال والثمين لمادة شفافة شديدة الدفء والجمال. ثم إن التفوّق الذي يحس به لنفسه عليها - والذي كان بحاجة شديدة إلى الإحساس به - ربما كان أقل في أن يعرف منه في إمكانية إبراز أنه يعرف. ورفع نفسه على أطراف قدميه. ونقر. فلم يسمعا، وعاد ينقر نقراً أشد فتوقف الحديث وسأل صوت رجل حاول أن يعلم إلى أي من أصدقاء «أوديت» الذين يعرفهم كان يمكن أن يعود:

- «من هناك؟»

ولم يكن أكيداً أنه تعرّفه، فنقر مرة أخرى. وفتحت النافذة ثم المصراع الخشبي. ولم يظل ثمة وسيلة للتراجع وكيلا يبدو شديد التعاسة، شديد الغيرة والفضول، فقد اكتفى بالصراخ بنبرة لا مبالية مرحة:

- «لا تزعجي نفسك، فقد مررت من هنا ورأيت نوراً فأردت أن أعلم إن لم تكوني بعد متوعكة الصحة».

ونظر فإذا سيدان عجوزان يقفان أمام النافذة قبالته وفي يد أحدهما مصباح وأبصر الغرفة حينذاك وكانت غرفة مجهولة. ذلك أنه تعود حينما يجيء إلى منزل «أوديت» في ساعة متأخرة أن يتعرف نافذتها لأنها كانت وحدها المضاءة بين النوافذ التي تتشابه كلها فيما بينها، فأخطأ ونقر على النافذة التالية وكانت للبيت المجاور. وابتعد معتذراً وعاد إلى منزله وهو مغتبط لأن إرضاء فضوله قد أبقى على حبه كاملاً وأنه بعدما تظاهر منذ زمن طويل بنوع من اللامبالاة إزاء «أوديت» لم يقدم لها بغيرته البرهان على أنه يغالي في حبها، هذا البرهان الذي يُعفي من يحصل عليه من العاشقين من أن يحب حباً كافياً في يوم.

ولم يحدثها عن تلك المغامرة المؤسفة، فهو نفسه لم يعد يفكر فيها. ولكن حركة من فكره كانت تصادف بين الحين والحين ذكرى ذلك العارض

الذي لم تتبينه فتصطدم بها وتعمقها أكثر فأكثر، وقد أحسّ «سوان» من جراء ذلك بألم مفاجئ وعميق. ولم تستطع أفكار «سوان» أن تخفف منه كما لو كان ألماً في جسمه. على أن الألم الجسدي، إذ هو مستقل عن الفكر، إنما يستطيع الفكر أن يتوقف عليه وأن يلاحظ أنه تناقص وأنه توقف إلى حين. ولكن ذلك الألم إنما كان الفكر يبعثه من جديد بمجرد تذكره. والسعي إلى الإقلاع عن التفكير به إنما يؤدي إلى التفكير به والتألم من جرائه. وحينما كان ينسى ألمه في حديثه مع أصدقائه كانت تأتي كلمة تُقال له فتغير فجأة من لون وجهه، شأن جريح أقدم شخص أهوج على لمس المطرح المؤلم لديه دونما احتراس للأمر. حينما كان يفارق «أوديت» كان سعيداً ويحس بالهدوء ويتذكر الابتسامات التي علت شفتيها ساخرة إذ تتحدث عن هذا أو ذاك ورقيقة في ما يخصه، وتثاقل رأسها إذ فصلته عن محوره لتثنيه وتدعه يهوي وكأنما على الرغم منها على شفتيه، مثلما فعلت المرة الأولى في العربة، والنظرات المستميتة التي رمته بها وهي بين ذراعيه تشد بارتعاش رأسها المحنيّ على كتفيه.

ولكن غيرته كانت تُسْتَكْمَلُ في الحال، وكأنها ظل حبه، بمثيلة تلك الابتسامة الجديدة التي حَبَته بها في المساء نفسه - والتي انعكست الآن إذ هي تسخر من «سوان» مثقلة بالحب بالنسبة إلى آخر غيره - وبانحناءة رأسها، ولكنّه انقلب إلى شفاه أخرى ومُنح لآخر غيره، وبجميع مظاهر المودة التي أبدتها له. وكانت جميع الذكريات المثقلة بالشهوة التي يحملها من عندها بمثابة ترسيمات و«مشروعات» شبيهة بتلك التي يقدمها لك مهندس الديكور وكانت تمكّن «سوان» من أن يكوّن لنفسه فكرة عن الوقفات اللاهبة أو المتهالكة التي يمكن أن تتخذها مع آخرين سواه. وقد بلغ به الأمر أن يأسف لكل متعة يتذوقها بالقرب منها وكل مداعبة ابتدعها وكان قليل التبصر إذ أعلن لها عن عذوبتها، وكل ظرف يكتشفه فيها لأنه يعلم أنها سوف تضاعف بعد لحظة وسائل عذابه.

ثم إنّ العذاب كان يضْحي أشد قسوة حينما يستعيد «سوان» ذكرى

نظرة سريعة رآها فجأة منذ أيام مضت للمرة الأولى في عيني «أوديت». لقد وقع ذلك بين طعام العشاء في منزل أسرة «الفيردوران». فإما أن «فورشفيل» أحس أن صهره «سانييت» لم يكن مرغوباً فيه لديهم فأراد أن يتخذ منه هدفاً لسخريته وأن يتألق أمامهم على حسابه، وإمّا هو اغتاظ لكلمة هوجاء قالها له هذا الأخير، كلمة لم ينتبه إليها أحد من الحاضرين الذين ما كانوا يعلمون ما يمكن أن تتضمّنه من تلميح مسيء وذلك على الرغم من ذاك الذي نطق بها دون خبث، وإما أنه كان يبحث منذ بعض الوقت عن مناسبة يقصي بها عن البيت شخصاً يعرفه أدق المعرفة ويعلم أنه بالغ الحساسية حتى لا يشعر بالضيق في بعض الأوقات من مجرد حضوره، فرد «فورشفيل» على كلام «سانييت» غير اللبق هذا بقدر كبير من الفظاظة آخذاً في شتمه، ويزداد جرأة، فيما يصرخ بملء صوته، بفضل ذعر الرجل الآخر وألمه وتوسلاته، حتى إن المنكود الحظ بعدما سأل السيدة «فيردوران» إن كان عليه أن يمكث غادر المكان وهو يتمتم والدمع يجول في عينيه حين لم يبلغه جواب. وكانت «أوديت» قد شهدت ما حدث دون أن تتأثر، ولكن ما إن أغلق الباب خلف «سانييت» حتى برقت في عينيها ابتسامة خبيثة، بعدما انحدرت بملامح وجهها المعتادة عدة درجات، إن جاز القول، لتتمكن من الوقوف على قدم المساواة مع «فورشفيل» في مجال السفالة، ابتسامة تهنئة للجرأة التي أبداها وسخرية من الذي كان ضحيتها؛ ورمته بنظرة المتواطئ في الشر كأنما تقول أحسن القول: «تلك ضربة قاضية، وإنّني خبيرة بمثل هذه الأمور. تراك رأيت مظهره التعس؟ لقد أوشك يبكي» حتى إن «فورشفيل» حينما صادفت عيناه تلك النظرة، وقد صحا من غضبه أو تظاهره بالغضب الذي ما يزال دمه يغلي به، ابتسم وأجاب:

«ما كان عليه إلّا أن يكون لطيفاً، إذاً لكان الآن ههنا. إن العقاب الصارم مفيد في كل الأعمار».

وفي يوم خرج فيه «سوان» في منتصف ما بعد الظهيرة ليقوم بزيارة لم

يلق الشخص الذي كان يبغي لقاءه فخطر له أن يدخل إلى منزل «أوديت» في تلك الساعة التي ما كان يذهب البتة فيها إلى منزلها ولكنه يعلم أنها تلازم البيت دوماً في أثنائها للقيلولة أو لكتابة رسائل قبل ساعة الشاي وأنه سوف يسر برؤيتها لوقت قصير دون أن يزعجها. وقال له البواب إنه يعتقد أنها في الداخل، فقرع الجرس وحسب أنه يسمع ضجة ووقع خطى إلا أن الباب لم يفتح. فذهب وبه ضيق وحنق إلى الشارع الصغير الذي تطل عليه واجهة البيت الأخرى ووقف أمام نافذة غرفة «أوديت»، وكانت الستائر تحول دون أن يبصر شيئاً فنقر بقوة على الزجاج ونادى ولم يفتح أحد. ورأى أن بعض الجيران كانوا ينظرون إليه، فذهب وهو يظن أنه ربما اغتر حينما حسب أنه يسمع وقع خطى، ولكنه ظل مشغول الفكر بذلك حتى لم يستطع التفكير بأمر آخر. وبعد ساعة عاد، فوجدها، فقالت له إنها كانت في المنزل منذ قليل حينما قرع الجرس ولكنها كانت نائمة. وقد أيقظها الجرس وحزرت أنه «سوان» وجرت خلفه ولكنه كان قد ذهب. وقد سمعت تماماً النقر على الزجاج. وعرف «سوان» في الحال في هذا القول أحد أجزاء واقعة صحيحة يتعزى الكذابون الذين أخذوا على حين غرة بإدخاله في صلب الواقعة الكاذبة التي يبتدعونها ظناً منهم يفردون له مكانه فيها ويسرقون منه شبهه بالحقيقة. صحيح أن «أوديت» حينما كانت تقدم على عمل أمر لا تريد الكشف عنه إنما كانت تخفيه في أعمق أعماقها. ولكنها ما إن تجد نفسها في حضرة الذي تريد أن تكذب عليه حتى يأخذ منها الاضطراب وتنهار جميع أفكارها وتشل جميع قدراتها على الاختراع والمحاكمة فلا تجد من بعد في رأسها سوى الفراغ، وكان لا بد لها مع ذلك أن تقول شيئاً فتلاقي بالضبط في متناول يدها الأمر الذي أرادت إخفاءه والذي ظل وحيداً هناك بما أنه حقيقي. فكانت تنتزع منه قطعة صغيرة لا أهميّة لها في حد ذاتها وتقول في نفسها إن الأمر أفضل ما يكون على هذا النحو بما أنه جزء يمكن التأكد منه ولا يسوق المخاطر نفسها التي تحف بالتفصيلات الكاذبة. «هذا صحيح على الأقل، تقول في

نفسها، وهو خير لي على الدوام فإنه يستطيع أن يستعلم وسيعترف أن ذلك صحيح على الأقل، تقول في نفسها، وهو خير لي على الدوام ولن تنكشف فعلتي عن طريقه». وكانت على ضلال فذلك ما كان يكشف أمرها. ذلك أنها لم تكن تنتبه إلى أن هذا الجزء الحقيقي يملك زوايا لا يمكنها التداخل إلا مع الأجزاء الملاصقة من الواقعة الحقيقية التي انتزعته اعتباطاً من بينها والتي سوف تكشف دوماً، أيّة كانت التفصيلات المبتدعة التي ستضعه فيما بينها، بفضل المادة الزائدة والفراغات غير المملوءة، أنّه لم يجئ من بين هذه التفضيلات. وكان «سوان» يخاطب نفسه هكذا: «إنها تقر بأنها سمعتني أقرع الجرس ثم أنقر على الزجاج وأنّها ظنت أنني فعلت ذلك وكانت ترغب في أن تراني. ولكن ذلك لا يتماشى وأنها لم تعمل على فتح الباب».

ولكنه لم يحملها على ملاحظة هذا التناقض لأنه كان يظن أن «أوديت» لو تُركت لذاتها لطلعت ربما بكذبة جاءت بمثابة دليل ضعيف على الحقيقة. كانت تتكلم ولا يقاطعها بل يجمع بتقوى ونهم وألم تلك الكلمات التي تقولها له ويحس أنها تحفظ على نحو مبهم، شأن الحجاب المقدس، بصمة هذه الحقيقة التي لا يدركها ثمن ولا يمكن العثور، وأسفي، عليها وترسم خطوطها غير الواضحة (لأنها بالضبط تخفيها خلف هذه الكلمات إذ هي تتحدث إليه): - ما عساها كانت تفعل للتوّ في الساعة الثالثة حينما جاء - تلك الحقيقة التي لن ينال منها سوى هذه الأكاذيب، وهي آثار رائعة لن ينفذ إلى أسرارها، والتي لم تعد موجودة إلا في مخابئ ذاكرة ذلك الرجل الذي كان يتأملها دون أن يعلم كيف يقدّرها ولكن دون أن يسلمها إليه. صحيح أنه كان يظن بين حين وآخر أن أعمال «أوديت» اليومية لم تكن بحد ذاتها مثيرة إلى حد كبير وأن العلاقات التي كان يمكن أن تقوم بينها وبين رجال آخرين ما كانت تنشر من حولها على نحو طبيعي وشامل بالنسبة إلى كل إنسان مفكر حزناً مرضياً يمكن أن يورث حمى الانتحار. كان يلاحظ حينئذ أن هذا الاهتمام وهذا الحزن لا يقيمان إلا

في صدره على هيئة علة وأن أعمال «أوديت» والقبلات التي ربما منحتها سوف تضحي، بعدما يتم شفاؤه منها، عديمة الأذى شأن قبلات الكثيرات غيرها من النساء. ولكن كون الفضول المؤلم الذي يحرك «سوان» خلفها الآن إنما يكمن سببه في داخله لم يكن ليحمله على أن يرى من غير المعقول أن ينظر إلى هذا الفضول على أنه مهم وأن يفعل ما بوسعه لإرضائه. ذلك أن «سوان» بلغ عمراً لم تعد فلسفته - التي يسرها قيامها فلسفة تلك الحقبة وكذلك فلسفة الوسط الذي قضى «سوان» فيه ردحاً طويلاً من عمره بالإضافة إلى جماعة أميرة «لوم» حيث اصطلح على أن مقدار الذكاء يُقاس بقدر ما يشك المرء بكلّ شيء ولا يعتبر سوى ميوله الفردية حقيقة واقعة لا يرقى الشك إليها - تلك التي حملها في شبابه، بل فلسفة وضعية قاربت أن تكون طبية لرجال يحاولون بدلاً من إظهار موضوع أمانيهم أن يستخلصوا من سنيهم التي انقضت بقية ثابتة من العادات والأهواء يستطيعون أن يعدّوها مميزة ودائمة ويسهرون قبل كل شيء متعمدين أن يستطيع نمط المعيشة الذي اتخذوه مسايرتها. لقد كان «سوان» يرى من الحكمة أن يأخذ في اعتباره الألم الذي يعاني منه من جراء جهله بما فعلت «أوديت» وكذلك تفاقم الإكزيما الذي تسببه رطوبة المناخ، وأن يلحظ في ميزانيته مبلغاً هاماً ليحصل على معلومات حول ما تقوم به «أوديت» في بحر النهار، ولولاها لأحس بالتعاسة، مثلما يلحظ مبلغاً آخر لميول أخرى يعلم أنه يستطيع أن يجني منها متعة، على الأقلّ قبلما أصبح عاشقاً من مثل ميله إلى المجموعات والطبخ الطيب.

وحينما أراد أن يستودع «أوديت» ليعود طلبت منه أن يبقى وبلغ بها الأمر أن تمسك به بحرارة وهي تأخذ بذراعه ساعة همّ يفتح الباب ليخرج. ولكنه لم ينتبه للأمر، لأنه لا مفر للإنسان في غمرة الحركات والأقوال والحوادث الصغيرة التي يعج بها الحديث من أن يمر بالقرب من تلك التي تخفي حقيقة تبحث عنها شكوكه على غير هدى دون أن يلاحظ فيها ما يثير انتباهه وأن يتوقف على العكس أمام تلك التي لا تخبئ شيئاً.

وكانت تكرر عليه طوال الوقت: «أيّ أسف أني لم أرك، أنت الذي لا يأتي البتة بعد الظهر، في مرة اتفق لك أن تجيء فيها». كان يعلم حق العلم أنها لم تكن تعشقه إلى حد تشعر فيه بأسف شديد جداً لأنها فوتت عليها زيارته، إلا أنها لما كانت طيبة راغبة في إسعاده حزينة في الغالب حينما تعاكسه فقد رأى من الطبيعي أن تشعر بالأسى هذه المرة لأنها حرمته من لذة قضاء ساعة معاً، واللذة عظيمة جداً لا بالنسبة إليها بل بالنسبة إليه. ولكن الأمر كان مع ذلك قليل الأهمية لدرجة أنه أخذ يعجب في النهاية للهيئة المعذبة التي استمرت تبديها. وكانت تذكّر هكذا أكثر مما تعود أن يراه بوجود رسّام لوحة «الربيع» (La Primavera). فقد كان لها في تلك اللحظة وجههنّ المتعب الحزين الذي يبدو وكأنه ينوء تحت عبء عذاب ثقيل عليهن حينما يدعن الطفل يسوع يلعب برمانة أو ينظرن إلى موسى يسكب الماء في جرن. وكان قد أبصر على وجهها حزناً كهذا ولكنه لا يعلم متى. وفجأة تذكر: حينما كذبت «أوديت» في حديثها مع السيدة «فيردوران» غداة ذلك العشاء الذي لم تجئ إليه بحجة أنها مريضة وفي الحقيقة لتظل مع «سوان». ولو أنها كانت بالتأكيد أكثر النساء نزاهة لما استطاعت أن تشعر بوخز الضمير لكذبة بريئة إلى هذا الحد. ولكن كذبات «أوديت» كانت أقل براءة وغايتها الحؤول دون اكتشافات قد تخلق لها مصاعب مخيفة مع هؤلاء أو أولئك. ولذلك كان يتملكها الخوف حينما تكذب وتحس أنها قليلة العدة للدفاع عن نفسها وغير متيقنة من النجاح فتأخذها الرغبة في البكاء من الإجهاد كمثل بعض الأطفال الذين لم يتسن لهم أن يناموا. ثم هي تعلم أن كذبتها تلحق بالعادة ضرراً بالغاً بالرجل الذي تكذب عليه والذي ربما أصبحت تحت رحمته إن أساءت الكذب. فتشعر إذ ذاك أمامه بالاتضاع والذنب معاً وحينما كانت تضطر أن تكذب كذبة اجتماعية غير ذات بال كانت تعاني عن طريق تداعي الإحساسات والذكريات من الانزعاج الذي يورثه الإجهاد والأسف الناجم عن الإساءة.

فأية كذبة مثبطة للعزيمة كانت تمررها على «سوان» حتى تتفق لها هذه

النظرة المعذبة وهذا الصوت الشاكي اللذان يبدوان وكأنهما ينوآن تحت فداحة الجهد الذي تفرضه على نفسها ويستغفران؟ وخطر له أنها لم تكن تجهد في إخفاء الحقيقة حول حادث بعد الظهر فحسب بل حول أمر أكثر راهنية وربما هو لم يجر بعد وهو قريب الحدوث وربما استطاع أن يستجليهذه الحقيقة. وفي تلك اللحظة سمع رنة جرس. ولم تتوقف «أوديت» مذ ذاك عن الكلام ولكن كلامها أضحى نواحاً صرفاً: لقد أصبح أسفها لأنها لم تر «سوان» بعد الظهر ولم تفتح له يأساً حقيقياً.

وبلغ الأسماع صوت إغلاق المدخل وضجة عربة، كما لو أن شخصاً يغادر المكان - ذلك الشخص الذي لن يتسنّى لـ«سوان» ربما أن يلتقي به - وقد قِيل له إن «أوديت» خرجت. وداخله إذ ذاك شعور بالفتور وحتى بالضيق وهو يفكر بأن مجرد مجيئه في ساعة لم يتعود المجيء فيها قد أفضى إلى تعطيل الكثير من الأمور التي لا تود أن يعرفها. بيد أنه لما كان يحب «أوديت» وتعوّد أن يوجه إليها جميع أفكاره فإن الإشفاق الذي كان يمكن أن يحس به إزاء ذاته إنما أحس به إزاءها وهمس قائلاً: «أيتها العزيزة المسكينة!» وحينما فارقها أخذت عدة رسائل كانت على طاولتها وسألته إن لم يكن بوسعه أن يضعها في البريد. فحملها وتبيّن بعد عودته أنه احتفظ بالرسائل معه. فعاد إلى البريد وأخرجها من جيبه ونظر إلى العناوين قبل أن يرمي بها في الصندوق. كانت جميعها موجّهة إلى تجار فيما عدا واحدة إلى «فورشفيل». كان يمسك بها في يده ويقول في نفسه: «لو رأيت ما بداخلها لعلمت كيف تدعوه وكيف تحدثه وإن كان من أمر بينهما. بل ربما ارتكبت قلّة لباقة بحق «أوديت» حين لا أنظر في داخلها، فتلك الطريقة الوحيدة التي أتخلص بها من شك ربما كان افتراء عليها وهو يفضي على أية حال إلى تعذيبها ولن يفلح أي شيء من بعد في القضاء عليه بعدما تذهب الرسالة».

وعاد إلى منزله بعد مغادرته للبريد ولكنه كان قد احتفظ معه بالرسالة الأخيرة. وأشعل شمعة وقرب منها المغلف الذي لم يتجرأ على فتحه.

ولم يستطع بادئ الأمر أن يقرأ شيئاً، ولكن المغلف كان رقيقاً وإذ ألصقه بالبطاقة الصلبة التي كانت في داخله استطاع عبر شفافيته أن يقرأ الكلمات الأخيرة، فكانت عبارة ختامية جافة جداً. ولو اتفق أن يقرأ «فورشفيل»، لاستطاع أن يبصر كلمات في غير هذه الرقة! وأمسك بالبطاقة التي كانت تتراقص داخل المغلف الواسع عليها فثبتها ثم أخذ يدفعها بإبهامه فجاء على التوالي بمختلف السطور تحت قسم المغلف الذي لم يكن بطبقتين وهو الوحيد الذي يمكن القراءة من خلاله.

ولم يكن يميِّز تمييزاً واضحاً على الرغم من ذلك. ولكن لا بأس على أية حال، فقد تمّ له أن يرى منها الكفاية كي يتبيّن أن الأمر يدور حول حادثة صغيرة لا أهمية لها ولا علاقة بها البتة بصلات عاطفية؛ كان ذلك يتعلق بعم لـ«أوديت». صحيح أن «سوان» تسنى له أن يقرأ في بداية السطر: «كنت على حق»، ولكنه لم يفهم أي أمر كانت «أوديت» محقة في القيام به حينما برزت فجأة أمامه كلمة لم يستطع بادئ الأمر قراءتها فأوضحت معنى الجملة بكاملها: «أنت على حق في فتح الباب، فقد كان عمي». فتح الباب! لقد كان «فورشفيل» هناك إذن منذ قليل حينما قرع «سوان» الجرس وقد أشارت عليه بالذهاب، فكانت الضجة التي سمعها.

حينئذٍ قرأ الرسالة برمّتها: كانت تعتذر في الختام لأنها تصرّفت معه بدون تكليف وتقول له إنّه نسي سكائره لديها. وهي الجملة نفسها التي سبق أن كتبتها لِـ«سوان» في إحدى المرّات الأولى التي جاء فيها. ولكنّها كانت قد أضافت لِـ«سوان»: «ليتك تركت هناك قلبك، إذاً لما سمحت لك باستعادته». أمّا بالنسبة إلى «فورشفيل» فلا شيء من هذا القبيل: لم يكن هنالك أيّة إشارة تسمح بافتراض أي ارتباط بينهما. لقد كان «فورشفيل» على أيّة حال مخدوعاً بالحقيقة أكثر منه بما أنّ «أوديت» تكتب إليه لتحمله على الاعتقاد بأن الزائر كان عمها. وقصارى القول أنّه كان هو، «سوان»، الرجل الذي توليه أهميّة والذي صرفت الآخر من أجله. بيد أنه لو لم يكن من أمر بين «أوديت» و«فورشفيل» فلِمَ لم تفتح في الحال، ولِمَ قالت:

«حسناً فعلت أن فتحت، لقد كان عمّي»؟ فإن لم تفعل سوءاً في تلك اللحظة فكيف يستطيع «فورشفيل» أن يفسّر لنفسه أنّها استطاعت أن لا تفتح؟ لقد مكث «سوان» حزيناً مضطرباً ولكنّه سعيد أمام رسالة «أوديت» هذه التي سلّمته إيّاها دونما خوف، لشدّة ما كانت ثقتها مطلقة برهافة ذوقه، والتي ينكشف له من خلال شفافيتها، إلى جانب سرّ حادثة ما ظنّ في يوم أنّه يستطيع معرفته، شيء من حياة «أوديت» وكأنّما في مقطع صغير مضيء مفتوح في صفحة المجهول. ثم كانت غيرته تغتبط بذلك كما لو توافرات لتلك الغيرة حيويّة مستقلّة أنانيّة تلتهم كلّ ما قد يغذّيها حتى لو كان ذلك على حسابه هو. فقد اتّفق لها الآن غذاء وسوف يستطيع «سوان» مذ ذاك أن يغلق في كلّ يوم من جرّاء الزيارات التي وقعت لِـ«أوديت» في نحو الساعة الخامسة، وأن يجهد معرفة المكان الذي يكون فيه «فورشفيل» في تلك الساعة. ذلك أن مودّة «سوان» ظلّت تحافظ على الطابع نفسه الذي وسمها به منذ البداية الجهل الذي هو فيه بكيفية توزيع «أوديت» لأوقاتها في النهار والخمول العقلي الذي كان يحول دون أن يعوّض عن الجهل بالخيال. فلم تتأجّج غيرته بادئ الأمر من كامل حياة «أوديت»، بل من اللحظات الوحيدة التي دعاه فيها ظرف ربّما أساء تفسيره إلى افتراض أنّ «أوديت» استطاعت أن تخدعه فيها. وكمثل أخطبوط يرمي أول رباط ثم ثانياً وآخر ثالثاً، تمسّكت غيرته بوقت الساعة الخامسة مساء، ثم بآخر، ثم بآخر أيضاً. على أن «سوان» لم يكن يفلح في استنباط عذابه الذي لم يكن سوى ذكرى، سوى استمرار لعذاب جاءه من الخارج.

ولكن كل شيء هنا يأتيه ببعض منه. فأراد أن يبعد «أوديت» عن «فورشفيل» وأن يصحبها لبضعة أيّام إلى الجنوب، ولكنّه كان يعتقد أنّها موضع رغبات جميع الرجال من روّاد الفندق وأنها كانت تشتهيهم بدورها. ولذلك كنت تراه هو الذي كان يبحث في سفره بالأمس عن جماعات جديدة وعن التجمّعات ذات الروّاد الكثيرين، كنت تراه منعزلاً يهرب من مجتمع البشر وكأنه أساء إليه إساءة بالغة. وكيف لا يضحي كارهاً للناس

حينما يرى في كل رجل عشيقاً ممكناً لِ«أوديت»؟ وهكذا كانت غيرة «سوان» تفسد طبعه أكثر مما فعله الميل الشهواني الضحوك الذي دفعه بادئ الأمر إلى «أوديت»، وتُغيّر تماماً في نظر الآخرين مظهر العلامات الخارجيّة التي يتجلى بها هذا الطبع.

وبعد شهر من اليوم الذي قرأ «سوان» فيه الرسالة التي وجّهتها «أوديت» إلى «فورشفيل» ذهب إلى مأدبة عشاء أقامتها أسرة «الفيردوران» في غابة «فانسين». ولاحظ في أثناء الاستعداد للرحيل مشاورات بين السيّدة «فيردوران» والعديد من المدعوين ورأى أنّهم كانوا يذكّرون عازف البيانو بالمجيء في الغد إلى حفلة راقصة في «شاتو»؛ ولكنه لم يكن مدعوّاً إليها، هو، «سوان».

ولم يتحدّث جماعة «الفيردوران» إلا بصوت خافت وبكلمات مبهمة ولكن الرسّام صاح، وربّما كان شارد الفكر:

– «ينبغي أن لا يكون هنالك أيّ نور وأن يعزف سوناتا «**ضوء القمر**» في الظلام كي تستضيء الأشياء بصورة أفضل».

ورأيت السيّدة «فيردوران» أن «سوان» يقف على خطوتين فاتّخذت تلك الملامح التي تتعادل فيها الرغبة في إسكات من يتكلّم وفي الحفاظ على هيئة بريئة في نصر من يسمع في نقطة الصفر من النظرة الحادّة، والتي تتخفّى فيها علامة التواطؤ الجامدة لدى المتواطئ خلف ابتسامات السذاجة، تلك الملامح المشتركة بين جميع الذين يلاحظون هفوة فتكشفها في الحال على الأقلّ لمن كانت موجّهة إليه إن لم تكشفها للذين يرتكبونها. واتخذت «أوديت» فجأة هيئة يائسة ترفض النضال ضدّ مصاعب الحياة المرهقة، أما «سوان» فكان يعدّ بقلق الدقائق التي تفصله عن اللحظة التي يستطيع فيها في أثناء العودة معها بعد مغادرة ذلك المطعم أن يطلب منها إيضاحات ويحصل على وعد بألا تذهب في الغد إلى «شاتو» أو أن تدبر دعوته إلى هناك وأن يهدّئ بين ذراعيها القلق الذي يعاني منه. وأخيراً أرسلوا في طلب العربات. وقالت السيّدة «فيردوران» لِ«سوان»:

«الوداع إذن وإلى لقاء قريب، أليس كذلك؟» وهي تحاول بالنظرة اللطيفة والبسمة المتكلّفة أن تمنعه من التفكير بأنّها لا تقول له كما لعلّها كانت تفعل على الدوام حتى ذلك الحين: «إلى الغد في «شاتو»، إلى ما بعد الغد في منزلي».

وأصعد السيّد «فيردوران» وعقيلته «فورشفيل» معهما؛ وكانت عربة «سوان» قد وقفت خلف عربتهما وهو بانتظار إقلاعها ليطلب إلى «أوديت» أن تصعد إلى عربته. وقالت السيّدة «فيردوران»:

- «تعودين معنا يا «أوديت» فلدينا مكان صغير لك إلى جانب السيّد «دو فورشفيل»».

فأجابت «أوديت»: «أجل يا سيّدتي».

وصاح «سوان» قائلاً دون أن يكتم الكلمات الضروريّة لأنّ الباب كان مفتوحاً والثواني معدودة وهو لا يستطيع العودة بدونها في الحال التي كان عليها:

- «كيف ذلك، ظننت أنّني أعيدك إلى منزلك؟».

- «ولكن السيّدة «فيردوران» طلبت إليّ. . .».

وقالت السيدة «فيردوران»: «هيّا، تستطيع العودة بمفردك، فقد تركناها لك مرّات كافية».

- «ولكن كان لديّ أمر مهم أقوله للسيّدة».

- «حسن! اكتبه لها. . .».

وقالت له «أوديت» وهي تمدّ له يدها: «إلى اللقاء».

وحاول أن يبتسم إلا أنه كان يبدو مصعوقاً.

وقالت السيّدة «فيردوران» لزوجها بعدما عادا: «تراك رأيت التصرّف الذي يبيحه «سوان» لنفسه معنا الآن؟ حسبت أنّه سيلتهمني لأنّنا أعدنا «أوديت» معنا. وأي تخطٍ للياقة بالحقيقة! فليقل إذن في الحال إنّنا ندير داراً للمواعيد! لست أفهم أن تطيق «أوديت» مثل هذه التصرفات؛ لكأنّه

يقول بالضبط: أنتِ ملك يديّ. سوف أقول لِ«أوديت» عن كيفيّة تفكيري وآمل أن تفهم».

وأضافت بعد لحظة بلهجة غاضبة:

- «لا، هلّا نظرت إليه، ذلك الحيوان القذر!» وهي تستخدم دون أن تنتبه للأمر، وربّما تخضع للحاجة المبهمة ذاتها في تبرير نفسها - شأن «فرانسواز» في «كومبريه» حينما كان الفرّوج يرفض أن يموت - الكلمات التي تنتزعها الانتفاضات الأخيرة لحيوان غير مسيء في نزعه الأخير من فم الفلّاح الذي يمعن في سحقه.

وبعدما ذهبت عربة السيّدة «فيردوران» وتقدّمت عربة «سوان» سأله حوذيّه وهو ينظر إليه إن لم يكن مريضاً أو لم تكن مصيبة قد حلَّت.

وصرفه «سوان» فهو يودّ المشي، وقد عاد إلى منزله سيراً على الأقدام عبر الغابة. كان يتحدّث وحده بصوت عالٍ وبذات اللهجة المتكلفة بعض الشيء التي كانت لهجته حتى ذاك حينما يعدّد مواطن السحر في النواة الصغيرة وسمو أخلاق عائلة «الفيردوران»، ولكن مثلما أضحت أقوال «أوديت» وابتساماتها وقبلاتها مقيتة لديه إن هي وجّهت إلى آخرين سواه بمقدار ما كان يجدها عذبة، كذلك كانت صالة عائلة «الفيردوران» التي كانت لا تزال تبدو لفترة مسلّية ينبعث منها ميل حقيقي إلى الفنّ وحتى ضرب من النبل الأخلاقي تبرز مواطن السخرية فيها وحماقتها وسفالتها الآن وقد أضحى من ستقابله «أوديت» فيها وتحبّه بملء حريّتها شخصاً آخر غيره.

وكان يتمثّل سهرة الغد في «شاتو» بقرف. «فكرة الذهاب إلى «شاتو» بادئ الأمر! كمثل حانوتيين أقدموا على إغلاق دكّانهم! حقّاً أن هؤلاء القوم عظيمون في بورجوازيتهم. لا بدّ أنهم غير موجودين في الواقع، ولا بدّ أنّهم يطلعون من مسرح «لابيش» (Labiche)»!

سوف يحضر إلى هناك الزوجان «كوتار» وربّما «بريشو». «أليست مضحكة حياة صغار القوم تلك، من الذين يتكدّسون بعضهم فوق بعض

ويظنّون أنّهم هالكون بالتأكيد إن لم يلتقوا جميعاً في الغد في «شاتو»! سوف يكون هنالك، وأسفي، الرسّام، الرسّام الذي يحبّ «إتمام الزيجات» والذي ربّما دعا «فورشفيل» أن يجيء مع «أوديت» إلى مشغله، وكان يبصر «أوديت» ترتدي ثياباً بالغة الأناقة بالنسبة إلى هذه الحفلة في الريف، «ذلك أنها عاميّة جدّاً، إنّها على وجه الخصوص غبيّة جدّاً، تلك الصغيرة المسكينة!!!».

كانت تبلغ مسامعه المزحات التي ستطلقها السيّدة «فيردوران» بعد العشاء، تلك المزحات التي أفرحته على الدوام، أيّاً كان ثقيل الظلّ الذي تتخذه هدفاً، لأنّه كان يبصر «أوديت» تضحك منها، تضحك منها معه، وتكاد تضحك في داخله. أمّا الآن فيحسّ أنّهم ربّما يزمعون إضحاك «أوديت» منه. «أيّ مرح نتن!» وتعلو شفتيه إمارات قرف شديد حتى ليوافيه الإحساس العضلي بتكشيرته في عنقه التي تلتوي على ياقة قميصه. «وكيف تستطيع مخلوقة صنع وجهها على صورة اللّه ومثاله أن تلقى ما يضحكها في هذه المزحات المنتنة؟ إنّ كل أنف على قدر من اللطافة قليل إنّما يتحوّل باشمئزاز كي لا تخدشه مثل هذه الروائح الكريهة. إنّه من غير المصدَّق بالحقيقة أن تفكِّر بأنّ كائناً بشريّاً يمكن أن يدرك بأنّه إن أباح لنفسه ابتسامة بحقّ واحد من أبناء جنسه مدّ له يداً صادقة فإنّما ينحطّ إلى أوحال لن تتمكّن أيّة إرادة خيّرة في العالم أن ترفعه منها في يوم. إني أقيم على ارتفاع آلاف كثيرة من الأمتار فوق قيعان تموج فيها وتتصادم مثل هذه الثرثرات حتى يمكن أن أتلوّث من جرّاء مزحات سيّدة من نوع «الفيردوران»، يصيح وهو يرفع رأسه ويردّ جسمه باعتزاز إلى الخلف، «شهيدي اللّه أنني وددت بصدق اجتذاب «أوديت» من هناك ورفعها إلى أجواء أكثر نبلاً وصفاءً. ولكن لصبر الإنسان حدوداً وقد عيل صبري» قال كما لو أنّ مهمّة انتزاع «أوديت» من أجواء التهكّم هذه تعود إلى أكثر من بضع دقائق وكما لو أنّه لم يكلّف نفسه بها منذ أن أخذ يفكِّر أنّ هذا التهكّم ربّما اتخذه هو موضوعاً له فحسب وأنّه يحاول أن يبعد «أوديت» عنه.

كان يبصر عازف البيانو يستعدّ لعزف سوناتا «**ضوء القمر**» وملامح السيّدة «فيردوران» وهي ترتعد من السوء الذي سلتحقه موسيقى «بيتهوفن» بأعصابها. وصاح قائلاً: «أيتها الحمقاء الكذابة! وتحسب أنّها تحبّ الفنّ!» ولعلها ستقول لِ«أوديت» بعدما توحي لها بحذاقة ببعض كلمات المديح لِ«فورشفيل». مثلما فعلت مرّات عديدة من أجله: «سوف تهيّئين مكاناً صغيراً للسيّد «دو فورشفيل» إلى جانبك». «في الظلام! يا لك من مومس وقوّادة». و«القوّداة» هي كذلك الاسم الذي يطلقه على الموسيقى التي ستدعوهما إلى الصمت والحلم المشترك وأن ينظر كلّ منهما إلى الآخر ويأخذ بيده. لقد أخذ يرى بعض الصلاح في القسوة على الفنون، قسوة أفلاطون و«بوسّويه» والمربّين الفرنسيين القدامى.

وقصارى القول إن الحياة التي يعيشونها لدى عائلة «الفيردوران» والتي كثيراً ما دعاها «الحياة الحقّة» أخذت تبدو له من أكثرها سوءاً ونواتهم الصغيرة من أحطّ الأوساط. وكان يقول: «إنها بالحقيقة أحطّ ما يكون في سلّم المجتمع وآخر دائرة لدى «دانتي» (Dante). وليس من شكّ أنّ النصّ الكريم يحيل إلى عائلة «الفيردوران»! وإلى أي حدّ، في الأساس، يبدي رجال المجتمع حكمتهم العميقة في رفضهم التعرّف بهم وأن يوسّخوا حتى أطراف أصابعهم، هؤلاء الرجال الذين يمكن الإفتراء عليهم ولكنّهم على أيّة حال غير زمر الأوغاد هذه! وأيّة نبوءة في شعارضاحية «سان - جيرمان»[١]: «لا تمسّني»[٢]. وكان قد غادر ممرّات الغابة منذ فترة طويلة وقارب بلوغ منزله وهو لا يزال يوالي الخطابة بصوت عالٍ في سكون الليل ولم تخفّ بعد سورة ألمه ولا ذهبت نشوة قريحته غير الصادقة التي تسكب له نبراتها الكاذبة ورنين صوته المتكلف من حين إلى حين شرابها المسكر بغزارة متزايدة: «إن لأهل المجتمع نقائصهم التي لا

(١) حي علية القوم من سكان باريس فيما مضى وإلى زمن قريب.
(٢) وردت باللاتينية: Noli me tangere.

يعرفها أحد أفضل منيّ، ولكنّهم مع ذلك جماعة تبدو بعض الأمور معهم مستحيلة. فهذه المرأة الأنيقة التي عرفتها كانت بعيدة عن الكمال إلّا أنّ لديها مع ذلك عنصراً من اللطافة وصدقاً في التصرّف ربّما جعلاها عاجزة، مهما حدث، عن الغدر وهما كافيان ليقيما هوّة سحيقة بينها وبين امرأة سيّئة من صنف «الفيردوران». «فيردوران»! يا له من اسم! آه! إنّه ليمكنك القول إنّهم كاملون، وما أحسنهم فيما يبدون! شكراً للّه، فقد آن لي بالضبط أن لا أتنازل من بعد إلى الاختلاط بهذه السفالة، بهذه الأقذار».

ولكن مثلما لم تكن المزايا التي كان يخصّ بها عائلة «الفيردوران» لفترة وجيزة مضت كافية، وإن ملكوها حقّاً ولكنهم لم يشجّعوا حبّه ويحموه، لتبعث في «سوان» هذه النشوة التي يرقّ فؤاده فيها لسمو أخلاقهم والتي لا يمكن أن تجيئه إلّا من «أوديت» وإن جاءت مبثوثة عبر أفراد آخرين، - كذلك كان فساد الأخلاق الذي يراه اليوم في عائلة «الفيردوران» عاجزاً، حتى إذا اتّفق له أن يكون واقعاً، عن أن يثير حنقه وأن يحمله على التنديد «بسفالتهم» لو لم يقوموا بدعوة «أوديت» بصحبة «فورشفيل» وبدونه. وليس من شكّ أنّ صوت «سوان» كان أكثر تبصرّاً منه حينما كان يرفض النطق بهذه الكلمات الزاخرة بالاشمئزاز من وسط عائلة «الفيردوران» وبالمسرّة لخلاصه منه إلا بلهجة مصطنعة وكما لو تمّ اختيارها لتهدئة غضبه أكثر منها للتعبير عن فكره. ذلك أنّ هذا الأخير كان ينصبّ على الأرجح، فيما هو ينصرف إلى تلك الشتائم، ودون أن ينتبه للأمر، على موضوع مغاير تماماً، لأنّه ما إن عاد إلى منزله وما كاد يغلق البوّابة الرئيسيّة حتى ضرب على جبينه فجأة وطلب أن يعاد فتحها وخرج من جديد وهو يصيح بصوت طبيعيّ هذه المرّة: «أظنّ أنّني وجدت الوسيلة لأدعى غداً إلى عشاء «شاتو»! وكان لا بدّ أن تكون الوسيلة رديئة لأنّ «سوان» لم يدعَ. وقال الدكتور «كوتار»، الذي كان قد استدعي إلى الريف بسبب حالة خطيرة ولم يرَ عائلة «الفيردوران» منذ عدّة أيّام ولم يتمكّن من

الذهاب إلى «شاتو»، قال غداة ذلك العشاء وهو يجلس إلى مائدة الطعام لديهم:

- «ولكن، ألنّ نرى السيّد «سوان» هذا المساء؟ فإنّه بالضبط ما نسمّيه صديقاً شخصياً لِ. . .».

وصاحت السيّدة «فيردوران»: «أملي الأكيد أن لا يكون ذلك. حمانا اللّه، فإنّه ثقيل الظلّ غبي قليل التربية».

ولدى سماع هذه الكلمات أبدى «كوتار» دهشته وخضوعه في الوقت نفسه وكأنّما أمام حقيقة مناقضة لكلّ ما آمن به حتى ذاك ولكنّها من بداهة لا تقاوم، واكتفى بأن يجيب وهو يخفض أنفه فوق صحنه بادي التأثّر والخوف: «آه! آه! آه! آه!» وهو يجتاز في عودته القهقرى، وفي تراجعه الذي أتمّه على نحو منظّم حتى أقصى نفسه، على طول سلّم موسيقي نازل، كامل مدى صوته. ولم يرد ذكر «سوان» من بعد لدى عائلة «الفيردوران».

حينئذٍ أصبحت تلك الصالة التي جمعت فيما مضى بين «سوان» و«أوديت» عقبة أمام مواعيدهما. فلم تعد تقول له شأنها في أول أيّام حبّهما: «سوف نلتقي على أيّة حال في مساء الغد فهناك عشاء في منزل عائلة «الفيردوران»، بل تقول: «لن نستطيع أن نلتقي في مساء الغد، فهناك عشاء يقام في منزل عائلة «الفيردوران». أو أن عائلة «الفيردوران» ستصطحبها إلى دار الأوبرا الهزليّة لمشاهدة مغناة «**ليلة من ليالي كيلوباترا**»، فكان «سوان» يقرأ في عيني «أوديت» ذلك الذعر من أن يطلب إليها العدول عن الذهاب إليها، ذلك الذعر الذي ما كان يملك نفسه عن تقبيله قبلة عابرة على جبين عشيقته والذي يضيق به الآن صدره. وكان يقول في نفسه: «مع أن ما أحسّ به لدى رؤية الرغبة التي بها في المبادرة إلى التنقير في ثنايا هذه الموسيقى الدمنيّة ليس من الغضب في شيء. إنّه بعض الغمّ، لا في ما يخصّني بالتأكيد، بل في ما يخصها، بعض الغم إذ أتبيّن أنها بعدما عاشت ستّة شهور في اتّصال يوميّ معي لم تعرف كيف

تصبح امرأة أخرى بما يسمح لها باستبعاد الموسيقار «فيكتور ماسّي» (Victor Massé) على نحو تلقائيّ! ولا سيّما لأنّها لم تتمكّن من إدراك أنّ امرأً رقيق الطبيعة إلى حدّ ما ينبغي له في بعض الأمسيات أن يعلم كيف يتخلّى عن متعته حينما يطلب إليه ذلك. ينبغي لها أن تعرف كيف تقول: «لن أذهب» على الأقلّ بداعي الذكاء لأنّ جودة نفسها سوف تُصَنَّف نهائياً بناءً على جوابها». وبعدما أقنع ذاته أنه ما كان يرغب أن تمكث معه في ذلك المساء بدلاً من أن تذهب إلى دار الأوبرا الهزلية إلّا ليستطيع إصدار حكم أكثر إبرازاً لقيمة «أوديت» الروحية، أخذ يسوق إليها الفكرة نفسها وفي مثل درجة انعدام الصدق مع نفسه وحتى بدرجة أعلى لأنّه كان ينساق إذ ذاك أيضاً وراء رغبة أخذها عن طريق الاعتزاز بالذات. فكان يقول لها قبل لحظات من ذهابها إلى المسرح:

- «أقسم لك أنّني حينما أطلب إليك ألّا تذهبي لكلّ آمالي لو كنت أنانيّاً ربّما تجمعت في أن ترفضي فإن لديّ ألف أمر يقع عليّ أن أفعله هذا المساء وسوف ألفي نفسي وقد وقعت في الشرك وأحار في أمري إن أجبتِ على غير ما أتوقّع أنّك لن تذهبي. ولكن مشاغلي وملذّاتي لا تمثّل كلّ شيء ويجدر بي أن أفكّر بك. فربّما جاء يوم كان لك الحقّ فيه إذ ترينني وقد انفصلت عنك إلى الأبد أن تنحي عليّ باللائمة لأنّني لم أحذّرك في الدقائق الحاسمة التي أحسست فيها أنني أزمع أن أصدر عليك حكماً من تلك الأحكام القاسية التي لا يصمد الحب طويلاً في وجهها. تأكدي أن «**ليلة من ليالي كليوباترا**» (يا له من عنوان!) لا دخل لها بالمناسبة. ما ينبغي أن نعرفه هو إن كنت حقاً ذلك الفرد الذي يقع في آخر مرتبة من مراتب الفكر وحتى الظرف، الفرد الجدير بالازدراء الذي لا يستطيع التخلّي عن متعة. فإن كنت ذلك فكيف تمكن والحالة هذه محبتك، إذ لست حتى فرداً، مخلوقاً محدداً غير كامل ولكنه يتجه إلى الكمال على الأقل؟ فإن ماء لا شكل له يجري وفق الانحدار الذي يوفر له، وسمكة بدون ذاكرة وبدون تفكير ستصطدم، ما دامت تعيش في الحوض

الزجاجي، مئة مرة في اليوم الواحد بالحاجز الذي ستظل تحتسبه ماءً. فهلا أدركت أن جوابك، لا أقول إنه يستتبعه أنني سأتوقف عن حبك في الحال بالطبع. بل هو يجعلك أقل فتنة في عيني حينما أدرك أنك لست بشراً وأنك أدنى من جميع الأشياء ولا تستطيعين أن تكوني فوق أي منها؟ كنت أفضل بالطبع أن أطلب إليك على غرار أمر لا أهمية له أن تتخلي عن «**ليلة من ليالي كليوباترا**» (ربما أنك تضطرينني إلى تدنيس شفتيّ بهذا الاسم الحقير) وأملي أنك ستذهبين مع ذلك. ولكني صممت أن آخذ ذلك في حسابي وأن أستخلص مثل تلك النتائج من إجابتك فرأيت أن تحذيرك من ذلك أكثر نزاهة».

كانت «أوديت» قد أخذت تبدي منذ لحظة علامات تأثر وارتباك. فلئن فاتها معنى هذا الخطاب، فقد كانت تدرك أنه يمكن أن ينضوي تحت عنوان واحد تشترك فيه الخطب والمشاهد التي تدور حول العتاب أو التوسلات والتي يمكّنها تعودها على الرجال أن تستخلص منها، دون أن تُعنى بتفصيلات الكلام، أنهم لا ينطقون بها إن لم يكونوا عاشقين وأنه لا فائدة من الخضوع لهم ما داموا عاشقين وأنهم سيزدادون عشقاً من جراء ذلك. ولعلها كانت أصغت لِ«سوان» بأكبر قسط من الهدوء لو لم تحكم أن الوقت يمضي وأنه إن تحدث بعد بعض الوقت فسوف «ينتهي بها الأمر أن تفوتها الافتتاحية» كما قالت له ذلك بابتسامة رقيقة عنيدة خجلى.

وفي مرات أخرى كان يقول لها إن ما سيؤدي أكثر من أي أمر آخر إلى أن يكف عن حبها إنما هو رفضها التخلي عن الكذب. فكان يقول لها: «ألست تدركين إلى أي حد تفقدين من جاذبيتك حتى من وجهة نظر الدلال البحتة حينما تنحطين إلى درجة الكذب؟ وكم من الأخطاء يمكنك التكفير عنها بإقرار واحد! حقاً إنك أقل ذكاء مما ظننت بكثير»! ولكن عبثاً كان «سوان» يبسط لها هكذا جميع الأسباب التي تدعوها إلى الامتناع عن الكذب، ولعلها كانت تستطيع تخريب نظام عام للكذب لدى «أوديت»؛ ولكن «أوديت» لا تملك شيئاً من هذا القبيل، فقد كانت تكتفي في كل

حالة ترغب فيها أن يجهل «سوان» أمر فعلته بأن لا تقوله له. وهكذا كان الكذب بالنسبة إليها تدبيراً مؤقتاً من نوع خاص، فأمّا ما كان وحده يستطيع أن تقرّر إن انبغى لها أن تلجأ إليه أو أن تقر بالحقيقة فإنما سبب من نوع خاص أيضاً، أي احتمال أن يتمكن «سوان» في كثير أو قليل اكتشاف أنها لم تقل الحقيقة.

وكانت تجتاز على صعيد جسمها مرحلة مشؤومة: لقد كانت آخذة بالسمنة وأخذ السحر المعبر المغناج والنظرات الذاهلة الحالمة التي كانت لها فيما مضى، أخذت تبدو وكأنها زالت مع شبابها الأول، لدرجة أنها أضحت عزيزة جداً على قلب «سوان» في الوقت الذي شرع يجدها فيه بالضبط على درجة من الحلاوة أقل بكثير. فكان يطيل النظر إليها ليحاول التقاط السحر الذي عرفه بالأمس فيها ولم يعد يجده. ولكن معرفته بأن «أوديت» هي التي توالي العيش داخل هذا الغلاف الجديد، كما تتوالى الإرادة نفسها المتقلّبة المتهربة الخبيثة، كانت كافية ليستمرّ «سوان» في إنفاق الهوى نفسه في محاولة استمالتها. ثم كان ينظر إلى رسوم فوتوغرافية مضت عليها سنتان ويتذكّر إلى أي حدّ كانت لذيذة وكان الأمر يحمل له بعض العزاء لأنّه ينفق في سبيلها هذا القدر من العناء.

وحينما كانت أسرة «الفيردوران» تصطحبها إلى «سان جيرمان» و«شاتو» و«مولان» غالباً ما كانوا يعرضون هنالك فقط، إن اتّفق ذلك في فصل الصيف، أن يمكثوا هنالك، ينامون ولا يعودون إلّا في الغد. وكانت السيّدة «فيردوران» تجهد في تهدئة مخاوف عازف البيانو الذي ظلّت عمّته في باريس.

- «سوف يسرّها أن تتخلّص منك يوماً واحداً. وكيف تقلق من جرّاء ذلك وتعلم أنّك معنا. إنّي على أيّة حال أتحمّل مسؤولية كلّ شيء».

فإن لم تفلح، شمّر السيّد «فيردوران» عن ساعده فوجد مركز بريد وبرق أو رسولاً واستعلم عمّن كان له من بين الخُلّص شخص يريد إبلاغه. ولكن «أوديت» تشكره وتقول أن ليس لديها برقية تبعث بها لأحد إذ سبق

أن قالت لِـ«سوان» قولاً قاطعاً إنها إن بعثت إليه بواحدة على مرأى من الجميع فسوف تعرّض سمعتها للخطر. وكان غيابها أحياناً يطول عدّة أيّام إذ تصحبها أسرة «الفيردوران» لزيارة قبور «درو» (Dreux) أو إلى «كومبيانيي» (Compiègne) لتنعم بناءً على مشورة الرسّام بمشاهدة غروب الشمس في الغابة ويتابعون السير بعد ذلك حتى قصر «بييرفون».

- «تصوّر أنّها تستطيع زيارة آثار حقيقيّة بصحبتي أنا الذي درس فنّ العمارة على مدى عشر سنوات والذي يتوسّلون إليه طوال الوقت ليصحب إلى «بوفيه» أو «سان لو دو نو» أناساً من أعلى المراتب ولا يفعل إلّا في سبيلها، وأنّها عوضاً عن ذلك تذهب مع أحطّ البهائم لتبدي دهشتها على التوالي أمام أوساخ «لوي فيليب» وأمام أوساخ «فيوليه لو دوك» (Viollet-le-Duc)! ويبدو لي أن ليس من حاجة إلى أن يكون المرء فنّاناً من أجل ذلك، وأنّه دون أن يتمتّع بذوق رفيع على نحو خاصّ لا يختار أن يذهب لتمضية الصيف في المراحيض ليكون أكثر قرباً من رائحة الغائط».

ولكن بعدما تذهب إلى «درو» أو «بييرفون» - دون أن تسمح له، وأسفي، بالذهاب من جانبه، وكأنما مصادفة، إلى هناك حيث هي لأن «الأمر، تقول، سوف يقع موقعاً سيّئاً» - كان يغوص في أكثر روايات الحبّ بعثاً للنشوة، في دليل السكك الحديديّة الذي كان يدلّه على وسائل اللحاق بها بعد الظهر وفي المساء وحتى في هذا الصباح نفسه! الوسيلة فحسب؟ بل ربّما أكثر: السماح. ذلك أنّ الدليل والقطارات نفسها لم تُصنع للكلاب، فلئن أُعلن على الجمهور، بطريق المطبوعات، أنّ قطاراً ينطلق في الثامنة صباحاً فيصل إلى «بييرفون» في العاشرة، فإنّما يعني ذلك أنّ الذهاب إلى «بييرفون» أمر مشروع يضحي مع إذْن «أوديت» أمْراً نافلاً وأنّه كذلك أمر يمكن أن يكون له دافع يغاير تماماً الرغبة في لقاء «أوديت» بما أنّ أناساً ممّن لا يعرفونها يقومون بالرحلة في كل يوم وبأعداد كبيرة حتى يستأهل الأمر تسيير القاطرات.

وقصارى القول إنّها ما كانت تستطيع منعه من الذهاب إلى «بييرفوت»

إن رغب في ذلك! وكان يحسّ أنّه راغب بالضّبط في ذلك وأنّه لو لم يعرف «أوديت» لكان ذهب بالتأكيد إلى هناك، فإنّه يودّ منذ زمن طويل أن يكوّن فكرة أكثر دقّة عن أعمال ترميم «فيوليه لو دوك». وكان يشعر أنّ به في هذا الطقس السائد رغبة ملحّة في نزهة عبر غابة «كومبيانيي».

كان بالحقيقة قليل الحظّ أن تحرّم عليه المكان الوحيد الذي يغريه اليوم. اليوم! فإمّا ذهب إلى هناك على الرغم من حظرها فسيتمكّن من رؤيتها في هذا اليوم بالذات! ولكنّها لو التقت في «بييرفون» واحداً ممّن لا تبالي بهم لقالت له باغتباط: «ويحك، أنت هنا!» ولطلبت إليه أن يذهب لرؤيتها في الفندق الذي حلّت فيه مع أسرة «الفيردوران»، أمّا إذا التقت به على العكس، هو «سوان»، فسوف تستاء وتقول إن هناك من يتبعها وسوف تحبّه أقلّ من ذي قبل وربّما أعرضت عنه إذ تراه. «ويحك، ألم يعد لي حقّ بالسفر!» تقول له على أثر عودتها فيما لم يعد له، هو، حقّ بالسفر!

وقد خطرت له حيناً، كي يتمكّن من الذهاب إلى «كومبيانيي» و«بييرفون» دون أن يبدو ذلك وكأنّما لمجرّد ملاقاة «أوديت»، فكرة أن يصحبه إلى هناك أحد أصدقائه، وهو المركيز «دو فوريستيل» وكان يملك قصراً في الجوار. ولم يتمالك هذا الأخير، بعدما أطلعه «سوان» على مشروعه دون أن يكشف له الدافع إليه، لم يتمالك نفسه من الفرح وأخذه الذهول أن يقبل «سوان» أخيراً وللمرّة الأولى منذ خمسة عشر عاماً بالمجيء لمشاهدة ملكيّته وأن يعده على الأقلّ، بما أنّه لا يبغي التوقّف فيها، حسبما قال له، أن يقوما سويّة بنزهات ورحلات على مدى عدّة أيّام. وأخذ «سوان» يتخيّل نفسه هناك مع السيّد «دو فوريستيل». وما أعظم سعادته، حتى قبلما يرى «أوديت» هناك وحتى إن لم يفلح في رؤيتها، من جرّاء وضع قدميه على تلك الأرض حيث يحسّ، إذ هو لا يدري مكان وجودها بالضبط في لحظة معيّنة، بإمكان ظهورها المفاجئ خفّاقاً في كل مكان: في باحة القصر الذي أضحى جميلاً في عينيه لأنّه بادر إلى زيارته بسببها وفي سائر شوارع المدينة التي تبدو له ساحرة، وفي

كل طريق في الغابة تكسوها الشمس الغاربة بلون ورديّ رقيق عميق السّر، - وكلها ملاجئ تتناوب ولا تحصى يلجأ فؤاده إلى جميعها في الآن نفسه، فؤاده السعيد المتشرد المتعدّد في حيرة تعدّد أماكن آماله. «فلنحترس بخاصّة، هكذا لعلّه يقول للسيد «دو فوريستيل»، ألّا نقع على «أوديت» وأسرة «الفيردوران»، فقد علمت منذ قليل أنّهم اليوم بالضبط في «بييرفون». إن الوقت يتّسع أمامنا للتلاقي في باريس وليس يجدر بنا مغادرتها إن لم يتيّسر لنا أن نخطو خطوة الواحد دون الآخرين». ولن يدرك صديقه لماذا يبدل عشرين مرةّ في مشروعاته بعدما يصلان، ويفتّش غرف الطعام في سائر فنادق «كومبيانيي» دون أن يقرّر الجلوس في أيّ من التي لم يشاهدا فيها أثراً لواحد من جماعة «الفيردوران» فيبدو وكأنّه يسعى وراء ما يقول إنّه يودّ تجنّبه، وهو يتجنّبه على أيّة حال عندما يلقاه لأنّه لو تمّ له لقاء الجماعة الصغيرة لابتعد عنها بتصنّع وقد سرّه أنّه رأى «أوديت» وأنها رأته، أنّها رأته على وجه الخصوص غير عابئ بها. ولكن لا، سوف تحزر أنّه حضر من أجلها. وحينما كان يجيء السيّد «دو فوريستيل» لاصطحابه كان يقول له: «لا، آسف، لست أستطيع اليوم الذهاب إلى «بييرفون» لأنّ «أوديت» بالحقيقة هناك». وكان «سوان» سعيداً على الرغم من كل شيء لشعوره بأنّه إن كان لا يحقّ له وحده من بين سائر البشر أن يذهب في ذلك اليوم إلى «بييرفون» فلأنّه كان بالتأكيد بالنسبة إلى «أوديت» شخصاً مختلفاً عن الآخرين، كان عشيقها، وأنّ هذه القيود التي أُدْخِلَتْ على الحق العام في التنقّل الحرّ في ما يخصّه إن هي إلا شكل من أشكال هذه العبوديّة، هذا الحبّ العزيز جدّاً على قلبه. وخير له بالتأكيد ألا يغامر بالاختصام معها، وأن يصبر وينتظر عودتها. فكان يقضي أيّامه منكبّاً على خريطة لغابة «كومبيانيي» وكأنّها خريطة «الحنان»[1] ويضع من حوله صوراً

(١) من رواية في القرن السابع عشر بعنوان **«الأستريه»** (*L'Astrée*) تضمنت خريطة للحب توضح سيره من أيسر الحب إلى أعنفه.

شمسيّة لقصر «بيرفون». وما إن يحلّ اليوم الذي يمكن أن تعود فيه حتى يعود إلى فتح الدليل فيحسب القطار الذي لا بدّ أنّها استقلّته، فإن تأخّرت فالقطارات المتبقيّة. ولم يكن يخرج مخافة أن تفوته برقيّة، ولا ينام فلعلها رغبت، إن عادت بآخر قطار، أن تفاجئه بالمجيء لزيارته في منتصف الليل. وإنّه ليسمع بالضبط قرعاً على الباب الرئيسي ويبدو له أنّهم يتأخّرون في فتح الباب ويودّ إيقاظ البواب ويقف على النافذة لينادي على «أوديت» إن ثبت أنّها هي، فقد كان من الممكن أن يقال لها إنّه ليس هناك، على الرغم من التوصيات التي نزل أكثر من عشر مرّات ليقولها بنفسه. وما كان سوى خادم يعود. كان يلاحظ مرور أسراب لا تنقطع من العربات ولم يكن قد انتبه لذلك البتّة من قبل. فقد كان يسمع كل واحدة تجيء من البعيد وتقترب ثم تتجاوز بابه دون أن تتوقّف وتحمل إلى أبعد منه رسالة غير موجّهة إليه. وينتظر طوال الليل وعبثاً يفعل لأنّ «أوديت»، بعدما قدّمت أسرة «الفيردوران» موعد العودة، كانت في باريس منذ الظهيرة. ولم يخطر ببالها أن تعلمه بالأمر، ولما لم تدر ما تفعل فقد ذهبت لقضاء سهرتها وحيدة في المسرح وعادت منذ زمن طويل لتستريح وتنام.

ذلك أنّه لم يتّفق لها حتى أن تفكّر به، وكانت مثل تلك اللحظات التي تنسى فيها حتى وجود «سوان» أكثر فائدة لِ«أوديت» وتفيدها في أن يتعلّق بها «سوان» أكثر من كل غنجها. فـ«سوان» كان يعيش هكذا ذلك الاضطراب المعذّب الذي سبق أن كان من قوّة جعلت حبّه يولد في المساء الذي لم يلقَ فيه «أوديت» في منزل «الفيردوران» وبحث عنها طوال السهرة. ولم يكن لديه، على نحو ما تمّ لي في طفولتي في «كومبريه»، أيّام سعيدة تُنسى في أثنائه العذابات التي تعود إلى الظهور في المساء. فقد كان «سوان» يقضي أوقات النهار بدون «أوديت»، وكان يقول لنفسه بين الحين والآخر إنّ ترك امرأة بهذا الجمال تخرج وحيدة هكذا في باريس كان بعيداً عن الحذر كمثل أن تضع علبة مليئة بالمجوهرات في قلب الشارع. حينئذ كان يثور ضدّ جميع المارة وكأنّما ضدّ لصوص. ولكنّ

وجههم الجماعيّ الذي يفتقر إلى الشكل لا يغذّي غيرته لأنّه يخفى على خياله. وكان يرهق تفكير «سوان» الذي كان يمرر يده على عينيه ويصرخ قائلاً: «على بركة اللّه»، كمثل الذين يهبون دماغهم المتعب الراحة الناجمة عن فعل إيمان بعدما أجهدوا أنفسهم في الإحاطة بمشكلة حقيقة العالم الخارجي أو خلود النفس. على أنّ التفكير بالغائية كان يمتزج على الدوام امتزاجاً وثيقاً بأبسط الأفعال في حياة «سوان» - كتناول الغداء واستقبال البريد والخروج والنوم - من جرّاء الغمّ الذي به في القيام بها بدونها، شأن الحروف الأولى من اسم «فيليبير لو بو» التي شابكت «مارغريت دوتريش» بينها وبين الحروف الأولى من اسمها في كلّ مكان من كنيسة «برو» بسبب حزنها عليه. كان يذهب بعض الأيّام، بدلاً من البقاء في البيت، لتناول طعام الغداء في مطعم مجاور نوعاً ما أعجب فيما مضى بطعامه الطيّب ولا يذهب إليه الآن إلّا لأحد تلك الأسباب الروحيّة والسخيفة في الآن نفسه التي تدعى خياليّة ومفاده أنّ هذا المطعم (ولا يزال قائماً) يحمل اسم الشارع نفسه الذي تقطن فيه «أوديت»: «لابيروز». وما كانت تفطن في بعض الأحيان، بعدما تقوم برحلة قصيرة، أن تعلمه بأنّها رجعت إلى باريس إلّا بعد مضيّ عدّة أيّام وتقول له الأمر ببساطة تامّة، ودون أن تحتاط لنفسها، شأنها بالأمس، بأن تتّخذ من جزء صغير من الحقيقة غطاء لها تحسّباً لكلّ طارئ، تقول إنّها عادت منذ قليل بقطار الصباح. وكانت تلك الأقوال كاذبة، كانت كاذبة على الأقلّ بالنسبة إلى «أوديت» ولا قوام لها إذ لا تملك، شأنها لو كانت صحيحة، نقطة ارتكاز في ذكرى وصولها إلى المحطّة. وكان يحول حتى دون أن تتمثّلها لحظة تنطق بها الصورة المناقضة لما فعلت من أمر مختلف تماماً في الوقت الذي تدّعي أنّها نزلت فيه من القطار. وكانت هذه الأقوال، على العكس، لا تصادف ما يعوقها في ذهن «سوان» فتنغرس فيه وتتّخذ ثبات حقيقة لا يرقى إليها الشكّ لدرجة أنّه لو قال له صديق إنّه جاء بذلك القطار ولم يبصر «أوديت» لجزم بأنّ الصديق قد أخطأ في اليوم أو الساعة بما أنّ قوله

لا يتّفق وأقوال «أوديت». ولعلّ أقوالها تلك ما كانت تبدو له كاذبة إلا لو سبق أن ساوره شكّ بأنّها كذلك. فالشكّ المسبق كان شرطاً لازماً كيما يعتقد أنّها تكذب. وكان من ناحية أخرى كذلك شرطاً كافياَ. وإذ ذاك يبدو كلّ ما تقول «أوديت» مريباً. فإن سمعها تذكر اسماً كان الاسم بالتأكيد لواحد من عاشقيها، وما إن يطلع بهذا الافتراض حتى يقضي أسابيع غارقاً في الغمّ. وبلغ به الأمر أن اتّصل ذات مرّة بمكتب مخابرات ليعرف منه عنوان المجهول، الذي لن يدع له أن يتنفّس إلا بعدما يذهب في سفر، وبرنامجه اليومي وعرف في النهاية أنّه عمّ لِـ«أوديت» توفّي منذ عشرين عاماً.

ومع أنّها لم تكن تبيح له أن يلحق بها في الأماكن العامّة قائلة إن ذلك سوف يثير الأقاويل، فقد كان يتّفق أن يكون وإيّاها في الوقت نفسه في سهرة دعي إليها مثلها - إلى منزل «فورشفيل» أو الرسّام أو إلى حفلة خيريّة راقصة في إحدى الوزارات -، فكان يراها ولكنّه لا يجرؤ على البقاء مخافة إغضابها إذ يبدو وكأنّه يرصد المتع التي تنعم بها مع الآخرين والتي تبدو له - فيما هو يعود وحيداً ويبادر للنوم وفي صدره ضيق مثلما كان سيتمّ لي بدوري بعد عدّة سنوات في العشيات التي يجيء فيها لتناول العشاء في بيتنا في «كومبريه» - غير محدودة لأنّه لم يبصر نهايتها. وقد عرف مرّة أو اثنتين في مثل تلك الأمسيات بعض تلك المسرّات التي ربّما أُغرينا - لو لم تصبها بعنف شديد صدمة القلق المرتدّة، القلق الذي أوقف فجأة - أن نسمّيها مسرّات هادئة لأنّ قوامها نوع من التهدئة: فقد ذهب لقضاء فترة في احتفال أقيم في منزل الرسّام وكان يهمّ بفراقه، ويترك «أوديت» هناك وقد انقلبت غريبة رائعة وسط رجال تبدو لهم نظراتها ومرحها - وكلّها توجّه لغيره - وكأنّها تتحدّث عن لذّة سوف يتمّ تذوّقها هنا أو في مكان آخر (وربّما في «حفلة الفوضويّين الراقصة» حيث يرتجف خوفاً من أن تذهب هناك فيما بعد) وتثير لدى «سوان» غيرة أوسع من الاقتران الجسديّ ذاته لأنّه يتخيّلها بصعوبة أكبر؛ وإنّه لعلى استعداد

لاجتياز عتبة باب المشغل حينما يسمع من يطلب عودته بهذه الكلمات (التي تجعل من الحفلة عبر الاستذكار شيئاً بريئاً إذ تُسقط منها تلك النهاية التي تخيفه، وتجعل من عودة «أوديت» لا أمراً مخيفاً لا يمكن تصوّره بل أمراً عذباً ومعهوداً يقف إلى جانبه في عربته شبيهاً ببعض من حياته في كلّ يوم، وتنزع عن «أوديت» ذاتها مظهرها المتألق المرح إلى حدّ بعيد وتبرز أن ذلك مجرّد تنكّر ارتدته لفترة ولمحض التنكّر، لا في سبيل متع خفيّة، وقد ملّته) بهذه الكلمات التي تطلقها وهو على عتبة الباب: «هلّا انتظرتني خمس دقائق فعمّا قليل أذهب ونعود سويّة وتصحبينني إلى بيتي».

صحيح أن «فورشفيل» طلب ذات يوم أن يعود بصحبتهما في الوقت نفسه، إلا أنّه حينما التمس، إذ وصل أمام باب «أوديت»، أن يؤذن له هو الآخر بالدخول أجابته «أوديت» وهي تشير إلى «سوان»: «آه! إنّ الأمر يتعلّق بهذا السيّد، فاسأله. وادخل برهة إن شئت ولكن لا لفترة طويلة، فإنّي أحذّرك أنّه يحبّ أن يحدثني حديثاً هادئاً وأنّه لا يحبّ كثيراً أن يوافيني زائرون حينما يجيء. آه! لو كنت تعرف هذا الإنسان بمقدار ما أعرفه! فليس يعرفك حقّ المعرفة غيري، أليس كذلك يا حبيبي؟».

كان «سوان» أكثر تأثّراً إذ يراها توجّه إليه على هذا النحو في حضرة «فورشفيل» لا أقوال الحنان والتفضيل تلك فحسب بل بعض الانتقادات كذلك كمثل قولها: «إنّي واثقة من أنّك لم تُجِب بعد أصدقاءَك حول غدائك نهار الأحد. فإن لم ترغب فلا تذهب إلى هناك ولكن كن مهذباً على الأقل»، أو «هل تركت ههنا على الأقلّ مقالتك حول «فيرمير» ليمكنك أن تتقدّم بها قليلاً في الغد؟ يا لك من كسول! ولكني سأحملك على الشغل أنا!»، تلك الانتقادات التي كانت تبرهن على أن «أوديت» مطّلعة على دعواته في دنيا المجتمع وعلى دراساته الفنيّة وأنّ حياة مشتركة تجمع بين الاثنين. وإذ تقول ذلك كانت توجه إليه ابتسامة يحسّ في أعماقها أنّها له بكليّتها.

وفي تلك اللحظات وبينما كانت تعدّ لهما شراب البرتقال كانت جميع

الأفكار المخيفة المتحرّكة التي ينسجها حول «أوديت» تتلاشى وتنضمّ إلى الجسد الرائع الذي يقف أمام «سوان» مثلما ينقّل عاكس ضوئي غير محكم في البداية حول غرض ما ظلالاً خياليّة كبيرة على الجدار تعود فيما بعد إلى التراجع والتلاشي فيه. ويتبادر إليه فجأة أنّ هذه الساعة التي يقضيها لدى «أوديت» تحت المصباح لم تكن ربّما ساعة متكلّفة خصّصت له (وأُعدت لتخفي هذا الأمر المريع واللذيذ الذي كان دائم التفكير به دون أن يتمكّن من تمثّله تماماً، ساعة من حياة «أوديت» الحقيقيّة، حياة «أوديت» حينما لا يكون هناك) مع لوازم مسرحيّة وثمار من الكرتون، بل ربّما كانت ساعة من حياة «أوديت» الحقّة، وأنّه لو لم يكن هناك لقدّمت لِـ«فورشفيل» الكرسيّ نفسه وما سكبت له شراباً مجهولاً بل شراب البرتقال هذا بالضبط، وأن العالم الذي تسكنه «أوديت» لم يكن ذلك العالم الآخر المروّع الخارق الذي كان يمضي الوقت في تحديد مكانها فيه والذي لا وجود له إلّا في مخيّلته، بل الكون الحقيقي الذي لا ينبعث منه أيّ غمّ خاص ويحوي هذه الطاولة التي سوف يستطيع الكتابة عليها وهذا السراب الذي سيسمح له بتذوّقه وجميع هذه الأشياء التي يتأملّها بالمقدار نفسه من الفضول والنظرة المعجبة والإقرار بالجميل لأنّها إن كانت بامتصاص أحلامه قد خلّصته منها، فإن هذه الأحلام على العكس قد أغنيت بها وكانت تريه تحقّقها الملموس وتثير فكره وتتجسّم أمام ناظريه وتُطَمئن فؤاده في الوقت نفسه. آه! لو سمحت الأقدار ألا يكون له سوى منزل واحد مع «أوديت» وأن يكون في بيتها كأنّما في بيته، ولو اتّفق له حينما يسأل الخادم عمّا أعدّ للغداء أن يكون ما وافاه في الجواب لائحة طعام «أوديت» ولو اضطره واجب الزوج الصالح، حينما تبغي «أوديت» النزهة في الصباح في شارع «غابة بولونيا»، أن يرافقها، وإن لم تكن به رغبة في الخروج، يحمل معطفها حينما يشتّد بها الحرّ، وأن يصنع في المساء بعد العشاء ما تبتغيه إن رغبت في المكوث في المنزل بمباذلها وإن اضطّر أن يظلّ هناك بالقرب منها. وكم كانت تتّخذ جميع الصغائر في حياة «سوان»

والتي تبدو له كئيبة جدّاً، كم كانت تتّخذ على العكس، حتى المألوف منها لأنّها ألّفت في الوقت نفسه جزءاً من حياة «أوديت»، - شأن هذا المصباح وشراب البرتقال هذا وهذا المقعد الذي يضمّ الكثير من الأحلام ويجسِّد الجمّ من الرغبات - نوعاً من العذوبة الفيّاضة والكثافة الغامضة!

على أنّه كان يظن أنّ ما يأسف عليه على هذا النحو إنّما هو هدوء وراحة لعلّهما لا يؤلفان جوّاً مناسباً لحبّه. فحينما تكفّ «أوديت» عن أن تكون بالنسبة إليه مخلوقاً غائباً على الدوام يثير الحسرة ويغذِّي الخيال، وحينما لا يظلّ الشعور الذي به نحوها هذا الاضطراب الغامض عينه الذي تبعثه فيه جملة السوناتا بل مودّة وعرفان بالجميل، وحينما تقوم بينهما صلات طبيعيّة تضع حدّاً لجنونه وحزنه، حينئذ تبدو له الأفعال في حياة «أوديت» قليلة الأهميّة في حدّ ذاتها دونما شكّ - كما سبق أن راوّده الشكّ مرّات عديدة بأنّها كذلك، كاليوم الذي قرأ فيه مثلاً من خلال المغلّف الرسالة الموجّهة إلى «فورشفيل». وكان يقول في نفسه، وهو يتأمل داءه بنفاذ بصيرة كبير كما لو أنّه حقن نفسه به ليجري الدراسة عليه، إنّه حينما يشفى منه فما يمكن أن تفعله «أوديت» يصبح غير ذي بال. ولكنّه كان يخشى في وضعه المرضي، والحق يُقال، بمقدار ما يخشى الموت، مثل ذلك الشفاء الذي يعني بالتأكيد موت كلّ ما هو عليه الآن.

بعد تلك الأمسيات كانت تهدأ مخاوف «سوان» فيبارك «أوديت» ويبعث إليها في الغد منذ الصباح أجمل المجوهرات إلى بيتها لأنّ ألطافها بالأمس أثارت إمّا عواطف الإقرار بالجميل وإما الرغبة في أن يراها تتجدّد ثانية وإمّا حبّاً عنيفاً بحاجة إلى أن يفيض.

ولكن عذابه يعاوده في فترات أخرى فيتخيّل أن «أوديت» عشيقة «فورشفيل» وأنّها، حينما رأياه في الغابة من المقعد الخلفيّ في عربة أسرة «الفيردوران»، عشيّة حفلة «شاتو» التي لم يُدعَ إليها، حينما رأياه يرجوها عبثاً، بتلك الهيبة اليائسة التي لاحظها حتى حوذيّه، أن تعود معه ثم يبتعد بدوره وحيداً مهزوماً، لا بدَّ أرسلت كيما تدلّ «فورشفيل» عليه وتقول له:

«هيه، ما أشدّ حنقه!» النظرات نفسها الملتمعة الماكرة الدنيئة الخبيثة التي أرسلتها يوم طرد هذا الأخير «سانييت» من منزل أسرة «الفيردوران».

حينئذ كان «سوان» يمقتها ويقول في نفسه: «ولكنني إلى ذلك شديد الغباء، فإني أدفع من مالي متعة الآخرين. ويحسن بها أن تنتبه على أيّة حال وألا تبالغ في شدّ الحبل فربّما بلغ بي أن أعطي شيئاً على الإطلاق. ولنتخلّ مؤقتاً على أيّة حال عن بوادر اللطف الإضافيّة! تصوّر أنّني بلغت البارحة فقط، حينما كانت تقول لي عن رغبتها في حضور موسم «بايروت» (Bayreuth)، مبلغاً من الغباء عرضت عليها معه استئجار أحد قصور ملك منطقة «بافيير» لنا نحن الاثنين في جوار المنطقة. ولم يظهر عليها من جهة أخرى أنّها أكثر اغتباطاً بذلك فلم تجب حتى الآن بنعم أو لا، وأملي أنّها ترفض، يا ربّ! لسوف يكون سماع موسيقى «فاغنر» على مدى خمسة عشر يوماً معها ممتعاً، هي التي تبدي اهتماماً بها مثلما تبدي سمكة بتفاحة!» ولما كان حقده، شأن حبّه تماماً، بحاجة إلى أن يبرز وينشط، فقد كان يطيب له أن يدفع تخيّلاته الشريرة أكثر فأكثر إلى الأمام، ذلك أنّه بفضل الخيانات التي يضعها في «أوديت» يزداد كرهاً لها ويمكنه إن اتّفق أن تكون صحيحة - وهو ما كان يحاول تمثّله - أن يلقى مناسبة يعاقبها فيها ويشبع فيها حنقه المتعاظم. وبلغ به الأمر على هذا النحو أن يفترض أنّه سيصله منها كتاب تطلب منه فيه بعض المال لاستئجار ذلك القصر قرب «بايروت» ولكنّها تعلمه فيه أنّه لن يستطيع المجيء لأنّه سبق لها أن وعدت بدعوة «فورشفيل» وأسرة «الفيردوران». آه! لشدّ ما يحبّ أن تتجمّع لديها تلك الجرأة!! فأي فرح سينتابه في أن يرفض وأن يخطّ جواب الانتقام الذي كان يتلذّذ في انتقاء مفرداته وإعلانها عالياً كما لو تسلّم بالحقيقة الرسالة!

وكان ذلك ما حصل في الغد نفسه، فقد كتبت إليه أن أسرة «الفيردوران» وأصدقاءها أبدوا رغبتهم في حضور عروض «فاغنر» وأنّها، إن تفضّل وأرسل لها هذا المال، سوف تستطيع أخيراً أن تغتبط بدورها

بدعوتهم بعدما نعمت كثيراً بضيافتهم في منزلهم. أمّا عنه فلا تقول كلمة واحدة إذ كان من المعلوم أنّ حضورهم يستبعد حضوره.

ها قد اتفق له إذن أن يُسرّ بأن يبعث إليها بذلك الجواب الرهيب الذي رصد فيه البارحة كل كلمة دون أن يجرؤ على توقّع إمكانية الاستفادة منه في يوم. ولكنّه يشعر تماماً، للأسف، أنّها تستطيع بالمال الذي بين يديها أو الذي ستجده بسهولة أن تستأجر في «بايروت» بما أنّها ترغب في ذلك هي التي لم تكن قادرة على التمييز بين «باخ» و«كلابيسّون». على أنها تعيش هنالك عيشة ضيّقة على الرغم من كلّ شيء. فلا سبيل، كما قد يتّفق لها لو بعث إليها هذه المرّة ببعض أوراق نقديّة من فئة الألف فرنك، أن تقيم في كل مساء في أحد القصور بعضاً من تلك الولائم الفاخرة التي ربّما سمحت لنفسها بعدها بنزوة، ربّما لم تتّفق لها بعد، وقوامها أن ترتمي بين ذراعي «فورشفيل»، ثم هو لن يكون على الأقلّ ذلك الذي سيتولّى دفع تلك الرحلة المقيتة! - آه! لو أنه استطاع أن يحول دونها! ولو أنّها تلوي قدمها قبل السفر، ولو قبل الحوذيّ الذي سينقلها إلى المحطّة بأيّ ثمن أن يقودها إلى مكان تظلّ فيه محتجزة بعض الوقت، تلك المرأة الغادرة ذات العينين اللتين تزينهما ابتسامة تواطؤ موجّهة إلى «فورشفيل» والتي ارتدت ملامحها «أوديت» منذ ثمانٍ وأربعين ساعة بالنسبة إلى «سوان»!

ولكنّها لم تكن تلبث كذلك زمناً طويلاً، فبعد بضعة أيّام كانت النظرة البرّاقة الغادرة تفقد من ألقها ونفاقها، وتشرع صورة «أوديت» البغيضة التي تقول لِـ«فورشفيل»: «ما أشدّ حنقه!» بالشحوب فالزوال. حينئذ كان يعود إلى الظهور تدريجيّاً ويرتفع بلمعان خفيف وجه «أوديت» الأخرى، تلك التي كانت توجّه هي أيضاً ابتسامة لِـ«فورشفيل»، ولكنّها ابتسامة ليس فيها بالنسبة إلى «سوان» سوى الحنان حينما تقول: «لا تمكث طويلاً لأن هذا السيّد لا يحبّ كثيراً أن يوافيني زائرون حينما يرغب أن يكون بالقرب منّي. آه! لو كنت تعرف هذا الإنسان بمقدار ما أعرفه!»، تلك الابتسامة نفسها التي تبدو على ثغرها لتشكر «سوان» لبعض مظاهر رقّته التي كانت

تقدرها كثيراً، ولمشورة طلبتها منه في واحدة من تلك المناسبات الخطيرة التي لا تثق فيها إلّا به.

وإذ ذاك كان يسائل نفسه كيف استطاع أن يسطّر لِ«أوديت» هذه مثل تلك الرسالة الشائنة التي ما كانت تظنّه دون شكّ قادراً على تسطيرها والتي لا بدّ انحدرت به من مقامه العالي الفريد الذي اكتسبه في تقديرها بفضل طيبته وصدقه. سوف يضحي أقلّ معزّة لديها لأنّها إنّما كانت تحبّه بسبب تلك الصفات التي لا تجدها لدى «فورشفيل» أو أيّ من الآخرين. وبسببها كانت «أوديت» تبدي له في الغالب لطافة ما كان يحسبها شيئاً لحظة تعصف به الغيرة لأنها لم تكن علامة اشتهاء وأنّها برهان على المودّة أكثر منها على الحبّ، ولكنّه يأخذ من جديد بالإحساس بأهميّتها كلّما جعل التراخي التلقائي في شكوكه، وغالباً ما تزيد فيه السلوى التي تجلبها له قراءة فنّية أو حديث صديق. كلما جعل هذا التراخي هواه أقلّ تشدّداً في المطالبة بعواطف متبادلة.

والآن وقد عادت «أوديت» بعد ذلك التأرجح عودة طبيعيّة إلى المكان الذي أقصتها عنه لفترة غيرة «سوان» وفي الزاوية التي يجدها فيها رائعة، أخذ يتصوّرها مليئة بالحنان وفي عينيها نظرة رضى وهي على هذه الصورة جميلة حتى لا يستطيع حجب النفس عن رفع شفتيه نحوها كما لو كانت أمامه وأعطي له أن يقبّلها. ويظلّ يحفظ لها من هذه النظرة الساحرة الطيبة من المعروف كما لو أنّه اتّفق لها مثل هذه النظرة بالحقيقة ولم يكن خياله وحده الذي بادر إلى رسمها ليرضي رغبته.

كم من الأسى بعث في صدرها! صحيح أنّه يجد أسباباً مقبولة لامتعاضه منها، ولكنّها ما كانت تكفي لتبعثه فيه لو لم يحبّها إلى الحدّ الذي فعل. أو لم تتجمّع لديه مآخذ في مثل جسامتها على نساء أخريات لعله كان أدّى لهنّ اليوم خدمات بطيبة خاطر إذ هو غير غاضب منهنّ لأنّه لا يحبهنّ من بعد؟ ولو اتّفق له أن يلفي نفسه في يوم في حالة اللامبالاة نفسها إزاء «أوديت» لأدرك بأن غيرته وحدها هي التي جعلته يرى أمراً

فظيعاً لا يمكن التغاضي عنه في تلك الرغبة الطبيعيّة تماماً في أساسها والناجمة عن بعض التصرّفات الصبيانية في أن تستطيع بدورها ردّ المجاملات لأسرة «الفيردوران» وأن تقوم بدور ربّة البيت بما أنّ المناسبة قد عرضت.

كان يعود إلى وجهة النظر هذه - المناقضة لوجهة نظر حبّه وغيرته والتي يتّخذها أحياناً بداعي ضرب من النزاهة الفكريّة ولمراعاة مختلف الاحتمالات - ومنها يحاول أن يصدر حكمه على «أوديت» وكأنّه لم يحبّها وكما لو كانت بالنسبة إليه امرأة كالأخريات وكما لو لم تكن حياة «أوديت» حالما يغيب، مختلفة تنسج خفية عنه وتحاك ضدّه.

فلماذا الظنّ بأنّها تتذوّق هناك مع «فورشفيل» أو مع آخرين متعاً لم تعهدها معه وتختلقها غيرته دفعة واحدة؟ فإن اتّفق لِـ«فورشفيل» في «بايروت» وباريس على حدّ سواء أن يفكّر به فلا يمكن أن يفعل إلّا على أنّه شخص يساوي الكثير في حياة «أوديت» ويضطرّ، هو، أن يخلي المكان إن التقيا في منزلها. وإن هلّل «فورشفيل» وهلّلت أن يكونا هنالك برغم أنفه فإنّما يكون قد ابتغى ذلك بنفسه إذ يجهد في الحؤول دون أن يذهبا، وعبثاً يفعل، فلو كان أقرّ مشروعها، وهو مقبل على أيّة حال، لبدا أنّها هناك كأنّما وفق رأيه ولأحسّت أنّها أرسلت إلى هناك وتوافر لها السكن على يده وأنّها تدين لِـ«سوان» بالفرحة التي تشعر بها لاستضافة هؤلاء القوم الذين طالما استضافوها.

فلو بعث لها بهذا المال - بدلاً من أن تذهب وهي على خلاف معه دون أن تراه - وحثّها على هذه الرحلة واهتمّ بأن يجعلها ممتعة فسوف تسارع سعيدة عارفة بالفضل وسوف يفرح برؤيتها تلك الفرحة التي لم يتذوّقها منذ قرابة أسبوع والتي لا يمكن لشيء أن يحلّ محلّها. فما إن كان يتسنّى لِـ«سوان» أن يتخيّلها دون اشمئزاز وأن يعود فيبصر الطيبة في ابتساماتها، ولم تعد الغيرة تضيف إلى حبّه الرغبة في خطفها من أيّ شخص آخر فيما عداه، حتى كان هذا الحبّ يعود فيصبح ميلاً إلى الأحاسيس التي

تخلّفها فيه شخصيّة «أوديت» والمتعة التي يجنيها من أن يتأمّل بإعجاب، وكأنما أحد المشاهد، ويسائل، وكأنّما إحدى الظاهرات، طلوعَ إحدى نظراتها وتشكّلَ إحدى ابتساماتها وإرسال نبرة من صوتها. وقد خلقت هذه المتعة المختلفة عن كلّ ما عداها، خلقت في النهاية لديه حاجة إليها تستطيع وحدها إشباعها عن طريق حضورها أو رسائلها، حاجة متجرّدة وفنّية وفاسقة بما يقارب مقدار حاجة أخرى كانت تسم هذه الفترة الجديدة في حياة «سوان» التي أعقب فيها نوع من الامتلاء الروحي جفاف السنوات السابقة وانخفاض مستواها دون أن يعلم إلى أيّ أمر يدين بهذا الإغناء غير المؤمّل في حياته الداخليّة أكثر ممّا يعلم شخص ضعيف البنية تدبّ فيه القوّة ابتداءً من لحظة معيّنة ويسمن ويبدو بعض الوقت وكأنّه يسير نحو شفاء تامّ: كانت تلك الحاجة التي كانت تنمو كذلك خارج دنيا الواقع تتمثّل في سماع الموسيقى ومعرفتها.

وهكذا، بعدما صنع، بكيميائية دائه نفسها غيرة من حبّه، شرع يصنع حناناً وإشفاقاً على «أوديت». لقد أضحت من جديد «أوديت» الفاتنة الطيّبة. لقد أخذ ضميره يبكّته لأنّه كان قاسياً عليها. إنّه يريد أن تأتي بالقرب منه ويريد قبل ذلك أن يكون وفّر لها بعض السرور ليرى عرفان الجميل يعجن محيّاها ويقولب ابتسامتها.

ولذلك تعوّدت «أوديت» أن لا تخشى من بعد الإساءة إليه وحتى إغضابه فترفض الامتيازات التي تعلّق بها أيّما تَعلّق حينما ترى الأمر مواتياً لها وهي واثقة من رؤيته يعود بعد بضعة أيّام رقيقاً طيّعاً كذي قبل.

ربّما لم تكن تعلم إلى أيّ مدى كان صريحاً إزاءها أثناء الخلاف حينما قال لها إنّه لن يبعث لها مالاً وسيحاول أن يسيء إليها. وربّما لم تكن تعلم أكثر من ذلك إلى أي مدى كان صريحاً، إن لم يكن تجاهها فعلى الأقلّ تجاه نفسه في حالات أخرى كان يقرّر فيها أن يظلّ بعض الوقت دون أن يذهب إلى منزلها وذلك لصالح مستقبل علاقتهما وليظهر لِـ«أوديت» أنّه يستطيع الاستغناء عنها وأنّ القطيعة ممكنة دوماً.

كان ذلك أحياناً على أثر بضعة أيّام لم تتسبّب له فيها بهمّ جديد؛ ولما كان يعلم أنّه لا يستطيع استخلاص أية غبطة كبيرة من الزيارات القريبة التي سيقوم بها إلى عندها بل على الأرجح بعض الغمّ الذي قد يضع حدّاً للطمأنينة التي يعيش فيها كان يكتب إليها أنه لن يستطيع لمشاغله الكثيرة أن يراها في أيّ من الأيّام التي قالها لها. وتلتقي رسالته رسالة منها ترجوه فيها بالضبط أن يبدّل في توقيت أحد مواعيده، فيتساءل عن الخبر، ويعاوده عذابه وتعاوده شكوكه. لم يعد باستطاعته الوفاء، في الوضع المضطرب الجديد الذي هو فيه، بالعهد الذي قطعه في وضع سابق يتسم بالهدوء النسبي، فيجري إلى منزلها ويطالب بزيارتها في جميع الأيّام التالية. وحتى إذا لم تكن البادئة بالكتابة وإن أجابت فقط بالموافقة على مطالبته بفراق قصير كان ذلك كافياً كي لا يستطيع من بعد البقاء دون أن يراها. ذلك أنّ موافقة «أوديت» قد بدّلت كلّ شيء في «سوان» على عكس ما كان في حسابه. فكيما يعرف، على غرار جميع الذين يملكون أمراً، ما الذي يحلّ به إن كفّ لفترة عن امتلاكه أقصى هذا الأمر عن فكره تاركاً كل ما تبقى على الوضع نفسه الذي كان قائماً في أثناء وجود ذلك الأمر. ولكنّ غياب أمر لا يعني ذلك الغياب فحسب وليس مجرّد نقص جزئيّ بل هو انقلاب شامل لكل الباقي ووضع جديد لا يمكن توقّعه في الوضع القديم.

وفي مرّات أخرى على العكس - و«أوديت» إذ ذاك على وشك الذهاب في رحلة - كان يقرّر، بعد مشاجرة هيّنة يتّخذها حجّة، ألا يكتب إليها وألا يراها ثانية قبل عودته فيضفي بذلك مظاهر الخلاف الكبير الذي ربّما ظنّته نهائياً، على فراق كان جزؤه الأكبر محتماً بسبب السفر، غير أنّه يُبَكِّر قليلاً في بدايته، ويطالب بثمن ذلك الخلاف. ويتصوّر «أوديت» مذ ذاك قلقة مغتمّة لأنّها لم تتلق كتاباً ولا زيارة وكانت تلك الصورة تسهّل عليه، إذ تهدئ غيرته، الإقلاع عن عادة رؤيتها، وليس من شكّ أنّه كان يتأمّل بسرور بين الحين والحين فكرة رؤية «أوديت» من جديد لدى

عودتها، والفكرة تقبع في آخر ركن من فكره حيث حشرها تصميمه بفضل كامل مدى أسابيع الانفصال الثلاثة التي قبل بها ووضعها من دونه: على أنّه يفعل بلهفة يسيرة حتى ليأخذ في التساؤل إن كان لن يبادر عن طيبة خاطر إلى مضاعفة مدّة انقطاع يسير إلى هذا الحدّ. والانقطاع لم يمضِ عليه بعد سوى ثلاثة أيّام وهي مدّة أقلّ بكثير من تلك التي غالباً ما قضاها دون أن يرى «أوديت» ودون أن يتعمد ذلك كما هو شأنه الآن. ولكنّما يتّفق لحادث مؤسف أو وعكة صحيّة - إذ يدفعانه إلى احتساب اللحظة الحاضرة لحظة شاذّة تخرج على المعهود وترتضي الحكمة فيها أن يقبل المرء بالطمأنينة التي تجلبها المتعة، أي متعة، وأن يعطل إرادته إلى حين معاودة الجهد على نحو مجد - أن يوقفا عمل هذه الإرادة التي تكفّ عن ممارسة ضغطها؛ أو هي، والأمر أقلّ من ذلك، معلومات يتذكّر أنّه نسي سؤال «أوديت» عنها، إن هي قرّرت مثلاً اللون الذي تريد أن تعيد به دهان عربتها أو إن كانت ترغب في شراء أسهم عاديّة أو ممتازة في ما يخصّ بعض قِيم البورصة (فجميل جدّاً أن تبرهن أنّك تستطيع البقاء دون مشاهدتها، ولكن إن وجب بعد ذلك إعادة الدهان أو لم تأتِ الأسهم بأرباح فسوف تكون قد أفلحت كثيراً) فتعود فكرة رؤيتها من جديد من البعيد الذي أقصيت فيه، دفعة واحدة إلى ساحة الحاضر والممكنات الآنيّة وكأنّها مطّاط مشدود ترخيه أو الهواء ينفلت من مضخّة هوائيّة تفتحها.

كانت تعود دون أن تلقى مقاومة من بعد وبقوّة لا تقاوم حتى إنّ «سوان» صادف مشقّة أقل في إحساسه يوماً بعد يوم باقتراب الأيام الخمسة عشر التي ينبغي أن يظل فيها بعيداً عن «أوديت» من مشقة انتظار الدقائق العشر التي ينفقها حوذيّه في تهيئة العربة التي ستقلّه إلى منزلها، وأخذت تهزّه فورات من نفاد الصبر والفرح يستعيد فيها ألف مرّة فكرة لقائها ليفرغ فيها حنانه، تلك الفكرة التي أضحت من جديد، بعد عودتها المفاجئة وفي حين كان يظنّها شديدة البعد، قريبة منه وفي أقرب نقطة من وعيه. ذلك أنّها لم تعد تلقى بمثابة عقبة في دربها الرغبة في محاولة مقاومتها دون

إبطاء فهي لم تعد قائمة من بعد لدى «سوان» منذ لم يجد ضيراً في إرجاء محاولة الانفصال التي أيقن الآن أنّه ينفّذها حالما يريد، بعدما أقام لنفسه البرهان على ذلك - أو هو ظنّ على الأقل - أضف أن فكرة رؤيتها من جديد تعود وقد ازدانت في نظره بجدّة وفتنة وتمتّعت بجدّة كانت العادة قد ذهبت بزخمها ولكنّها تقوّت بذلك الحرمان الذي دام لا ثلاثة أيّام بل خمسة عشرة يوماً (لأن مدّة الزهد بأمر ما ينبغي أن تُقاس استباقاً على الحدّ المعين لها) وقد جعلت ممّا لعله كان حتى ذاك متعة متوقّعة يُضحّى بها بيسر سعادة غير مؤمّلة لا يقوى المرء على مقاومتها. ثم إن «أوديت» تعود وقد زاد في جمالها الجهل الذي لدى «سوان» بما أمكن أن تفكّر فيه أو ربّما تفعله حينما رأت أنه لم يَرد منه خبر، حتى إن ما كان يزمع أن يلقاه إنما كان الكشف الرائع عن شخصيّة في «أوديت» مجهولة تقريباً.

أمّا هي، فمثلما اعتقدت بأن رفضه لإرسال المال كان محض خدعة، فإنّها لم تجد في المعلومات التي جاء «سوان» يسألها عنها حول إعادة دهان العربة أو شراء السندات سوى حجّة. ذلك أنّها لم تكن تعيد تركيب مختلف أطوار تلك الأزمات التي يجتازها فكانت تغفل من خلال الفكرة التي كوّنتها عنها أن تدرك آليتها ولا تعتقد إلا بما تعرفه سلفاً من نهاية لازِمَة حتميّة متماثلة على الدوام. والفكرة غير تامّة - وهي ربّما لذلك أكثر عمقاً - إن نظرنا إليها من وجهة نظر «سوان» الذي ربّما رأى أنّ «أوديت» لا تفهمه، كمثل مدمن على المورفين أو مصاب بالسلّ قنع كلاهما بأنهما أُوقفا، الأول من جرّاء حادث خارجي في الوقت الذي كان فيه على وشك الانعتاق من عادته المتأصلة فيه، والآخر من جرّاء وعكة طارئة في الوقت الذي أوشك فيه أن يشفى نهائياً، فيحسّان أن الطبيب يسيء فهمهما إذ لا يعلق ما يعلّقان من أهميّة على هذه الممكنات المزعومة، وهي في نظره محض ثياب تنكّرية يرتديها، كيما تضحي محسوسة بالنسبة إلى مريضه، العيب والحالة المرضيّة اللذان لم ينفكّا في الواقع عن الضغط عليهما ضغطاً لا شفاء يؤمل بعده فيما تدغدغهما أحلام التعقّل أو الشفاء. وكان

حبّ «سوان» قد بلغ بالتأكيد تلك الدرجة التي يتساءل فيها الطبيب وفي بعض الإصابات أكثر الجراحين جرأة إن كان من المعقول أو حتى من الممكن إنقاذ مريض من إدمانه أو نزع دائه منه.

صحيح أن «سوان» لم يكن يعي مدى هذا الحبّ وعياً مباشراً. فقد كان يتّفق له أحياناً حينما يحاول أن يقيسه أن يبدو له مقلّصاً وقد انخفض إلى لا شيء تقريباً. فقد كان يعاوده بعض الأيّام مثلاً الميل الطفيف وربّما القرف الذي بعثته في نفسه قبلما يحبّ «أوديت» خطوط وجهها ولونها غير الرّيان. «هنالك تقدّم ملموس بالحقيقة، يقول في نفسه في الغداة؛ فإذا ما رأينا الأمور بدقّة، فإني لم تداخلني أيّة غبطة تقريباً في أن أكون البارحة في سريرها، والغريب أنني كنت ألقاها حتى قبيحة». لقد كان بالتأكيد صادقاً ولكنّ حبّه كان يمتد إلى ما وراء مناطق الرغبة الجسديّة. وشخصيّة «أوديت» نفسها لم تعد تشغل فيها مكاناً كبيراً. فحينما كان يقع نظره على صورة «أوديت» فوق طاولته أو حينما كانت تأتي لزيارته كان يجد مشقّة في المماثلة بين الصورة الحقيقيّة أو صورة البريستول وبين الاضطراب الأليم المستمرّ الذي يسكن في ضلوعه. وكان يقول في نفسه بشيء من الدهشة تقريباً: «إنها هي»، كما لو أبرزوا لنا فجأة أحد أمراضنا بعدما يستخرجونه أمامنا فلا نجده مشابهاً لما نتألّم منه. كان يحاول أن يتساءل من تكون «هي»؛ ذلك أنها تشابه بين الحبّ والموت أكثر منها تلك التشابهات المبهمة التي يردّدونها دوماً وقوامها أن نسائل أكثر فأكثر خبايا الشخصيّة مخافة أن تفلت حقيقتها منّا. وكان ذلك المرض الذي قوامه حبّ «سوان» قد تضاعف إلى حدّ كبير وامتزج بعادات «سوان» جميعها امتزاجاً وثيقاً، امتزج بأفعاله كافّة وبفكره وعافيته ونومه وحياته وحتى بما يرغب فيه بعد مماته حتى لا يمكن انتزاعه منه دون تهديمه كليّاً على وجه التقريب: فلم يعد حبّه واقعاً ضمن إمكانات العمل الجراحي كما يقولون في الجراحة.

وكان «سوان» قد تجرّد بفضل هذا الحبّ عن جميع المصالح إلى حدّ أنّه كان يحسّ، حينما يعود بالمصادفة إلى دنيا المجتمعات وهو يقول في

نفسه إن معارفه تستطيع، كمثل مطيّة أنيقة ما كانت لتفلح على أيّة حال في أن تقدرها حقّ قدرها، أن تعيد إليه شيئاً من التقدير في عيني «أوديت» (وربّما كان الأمر صحيحاً لو لم يحطّ من قدر تلك المعارف ذلك الحبُّ نفسه الذي كان يقلّل، من أجل «أوديت»، من قدر جميع الأشياء التي يلامسها من جرّاء أنّه يبدو وكأنّه يعلن أنّها أقلّ شأناً)، كان يحسّ، إلى جانب اغتمامه لوجوده في أماكن ووسط جماعة لا تعرفها، بالمتعة الخالصة التي ربّما بعثتها فيه رواية أو لوحة صوّرت فيهما ملاهي طبقة عاطلة عن العمل، مثلما يطيب له في بيته أن يتأمل في سير حياته المنزلية وأناقة ثيابه وملابس خدمه وحسن توظيف سنداته الماليّة على النحو نفسه الذي يقرأ فيه في مؤلّفات «سان سيمون»، وهو أحد كُتّابه المفضّلين، آلية أيّام «مدام دو مانتنون» ولائحة طعامها أو بخل «لوللي» (Lulli) المدروس ومظاهر البذخ في عيشته. وبالمقدار الضعيف الذي لم يكن فيه هذا التجرّد مطلقاً كان سبب هذه المتعة الجديدة التي يتذوّقها «سوان» أنّه يستطيع أن يهاجر بعض الوقت إلى الزوايا النادرة من نفسه التي ظلّت غريبة عن حبّه، عن غمّه، وكانت شخصيّة «الابن سوان» التي تطلقها عليه، بهذا الشأن، شقيقة جدّي، وهي متميّزة عن شخصيّة «شارل سوان» الأكثر فردية، كانت الشخصيّة التي يرتاح إليها الآن أكثر ما يرتاح. ففي ذات يوم شاء أن يبعث فيه، بمناسبة عيد ميلاد أميرة «بارم» (لأنها غالباً ما تستطيع تأدية خدمات غير مباشرة لـ«أوديت» بتمكينها من الحصول على مقاعد في المهرجانات وحفلات اليوبيل[1])، فاكهة ولم يعلم تماماً كيف يوصي عليها فكلّف بالأمر ابنة عم لأمّه كتبت إليه، وقد ملأتها الغبطة أن تؤدّي خدمة له، تحيطه علماً أنّها لم تبتع كلّ فاكهتها في المكان نفسه بل أخذت العنب من دكّان «كرابوت» وهو مختص به، وتوت الأرض من دكان «جوريه» والإجّاص من دكّان «شوفيه» وهو لديه أبهى، إلخ. ، «وقمت بنفسي

---

(١) عيد يحتفل فيه بمرور كذا سنة (خمسين بعامة) على إنشاء أمر أو مباشرة وظيفة.

بالوقوف أمام كل ثمرة وفحصها». واستطاع بالحقيقة أن يحكم من خلال شكر الأميرة على نكهة توت الأرض وعذوبة الإجّاص. ولكنّ قولها على وجه الخصوص «قمت بنفسي بالوقوف أمام كل ثمرة وفحصها» هدّأ من عذابه إذ حمل وعيه إلى منطقة يندر أن يرتادها مع أنّها ملك يديه بوصفه وارثاً لأسرة غنية راسخة في البورجوازية ظلّت معرفة «العناوين الصحيحة» وفن حسن القيام بالمشتريات المطلوبة قائمين فيها بالوراثة وجاهزين للإسراع في خدمته حالما يرغب في الأمر.

لقد نسي بالفعل فترة طويلة جدّاً أنّه «الابن سوان» حتى لا يحسّ حينما يعود فيصبح ذلك «الابن» حيناً بغبطة أشدّ ممّا يمكن أن يحسّ به في الأوقات الأخرى وهو لا يبالي بها. ولئن كانت لطافة البورجوازيين، وهو في نظرهم «ذلك» على وجه الخصوص، أقلّ حرارة مما يبدي الأرستقراطيون (ولكنّها أكثر إثارة للزهو على أي حال لأنّها لا تنفصل لديهم عن التقدير)، فما كانت تستطيع رسالة صاحب سموّ، مهما عرضت عليه من صنوف لهو الأمراء، أن تحسن في عينيه مثلما تحسن رسالة تطلب إليه أن يكون شاهداً لزواج أو أن يحضر تلك الحفلة فحسب في أسرة أصدقاء عريقين لذويه، استمرّ بعض منهم في زيارته - كجدّي الذي دعاه في السنة السابقة لحضور زواج والدتي - فيما يكاد البعض الآخر لا يعرفه شخصياً ولكنّه يظنّ أن عليه واجبات مجاملة إزاء ابن المرحوم «سوان» ووريثه الجدير بأبيه.

بيد أنّ رجال المجتمع كان يشكّلون كذلك، من جرّاء العلاقات الحميمة القديمة التي يقيمها معهم، جزءاً من بيته ومن حياته الداخليّة وأسرته. وكان يحسّ لنفسه، إذ ينظر إلى صداقاته المرموقة، السند نفسه خارج ذاته والارتياح نفسه الذي يتمّ له حينما ينظر إلى الأراضي الحلوة والفضيّات الجميلة وبياضات السفرة الجميلة التي ورثها عن ذويه. ثم إن التفكير بأن خادمه سوف يسارع بالطبع، إن هو سقط في بيته صريع نوبة، لاستدعاء دوق «شارتر» وأمير «روس» ودوق «لوكسمبور» والبارون «دو

شارلوس» إنّما كان يحمل إليه العزاء نفسه الذي كان يحمله لخادمتنا العجوز «فرانسواز» أن تعلم أنّها سوف تدفن في شراشف فاخرة خاصّة بها مدموغة غير مرتوقة (أو أن ذلك تمّ بدقّة تخلّف فيك فكرة أسمى عن عناية العاملة)، وإنّه كفن تستخلص من صورته المتكرّرة بعض الرضى الناجم على الأقلّ عن الاعتزاز بالنفس إن لم يكن عن الشعور بالرفاهية. ولكن «سوان» كان على وجه الخصوص في جميع أعماله وأفكاره المتعلّقة بـ«أوديت» يرزح دوماً تحت وطأة الشعور غير المعلن بأنّه ربما لم يكن أقلّ معزّة لديها ولكنّه أقلّ من أن تبهجها رؤيته، أقلّ من أكثر الذين يلازمون أسرة «الفيردوران» إزعاجاً، - وحينما يعود بالفكر إلى عالم هو بالنسبة إليه عنوان الظرف ويلجأ الناس فيه إلى كل وسيلة ممكنة لاجتذابه ويغتمّون إن لم يروه، كان يعود إلى الاعتقاد بوجود حياة أوفر سعادة ويكاد يحسّ بالرغبة فيها مثلما يتّفق لمريض يلازم فراشه منذ شهور وقد أخضع للحمية إذ يبصر في جريدة لائحة طعام غداء رسميّ أو الإعلان عن رحلة إلى صقلّية.

ولئن كان يضطر إلى تقديم الأعذار لأرباب المجتمعات الراقية لأنّه لا يزورهم فقد كان يحاول الاعتذار لِـ«أوديت» لأنّه يقوم بزيارات لها. وكان مع ذلك يدفع أثمانها (ويتساءل آخر الشهر لأقلّ ما يجور على طول أناتها ويذهب كثيراً لزيارتها إن كان يكفي أن يبعث إليها بأربعة آلاف فرنك) ويلقى حجّة لكلّ واحدة، فهديّة يحملها إليها ومعلومات هي بحاجة لها، والسيّد «دو شارلوس» لقيه ذاهباً إلى منزلها وطالب بأن يصحبه إلى هناك. فإن غابت الحجّة رجا السيّد «دو شارلوس» أن يسارع إلى منزلها وأن يقول لها وكأنّما تلقائيّاً في سياق الحديث أنّه تذكّر أنّه ينبغي له التحدّث مع «سوان» وأن تتفضّل وتطلب إليه أن يحضر في الحال إلى منزلها. ولكن غالباً ما كان «سوان» ينتظر عبثاً. ويقول له السيّد «دو شارلوس» في المساء إنّ حيلته لم تنجح. وبلغ بها الأمر أنّها أصبحت قليلاً ما تراه إن هي تغيّبت الآن مرّات عديدة، وحتى في باريس حينما

تظلّ فيها؛ وكانت تتذرّع، هي التي كانت تقول له حينما كانت تحبّه: «أنا على الدوام لا يشغلني شاغل» وتقول أيضاً «ماذا يهمّني من رأي الآخرين؟» كانت تتذرّع الآن في كل مرّة يودّ فيها أن يراها، باللياقات أو تحتجّ بمشاغلها. وحينما كان يتحدّث عن الذهاب إلى حفلة خيريّة، أو إلى افتتاح معرض فنّي أو عرض أوّل ستكون فيه كانت تقول له إنّه يبغي فضح علاقتهما وإنّه يعاملها وكأنّها ساقطة. وبلغت الحال بـ«سوان» أن بادر يحاول ألّا يحرم من لقائها في كلّ مكان، ولما كان يعلم أنها تعرف «أدولف» شقيق جدّي الذي كان هو نفسه صديقاً عليه وأنها تكنّ له كثيراً من المودّة فقد ذهب ذات يوم لزيارته في شقّته الصغيرة في جادّة «دو بيلشاس» كيما يسأله استخدام نفوذه لدى «أوديت». ولما كانت تتخذ على الدوام هيئة شاعرية حينما تحدّث «سوان» عن عمّي وتقول: «آه! إنّه ليس على غرارك، فمودّته لي شيء جميل وعظيم ورفيع جدّاً، ولن يقلّل من قدري إلى هذا الحدّ الذي يريد فيه أن يظهر معي في جميع الأمكنة العامّة»، ارتبك «سوان» ولم يعد يعلم إلى أي أسلوب يجدر به أن يرتفع كيما يحدّث عمّي عنها. فقرّر بادئ الأمر قبلياً علوّ مكانة «أوديت» ومقولة إنسانيّتها المتفوّقة الملائكيّة وفضائلها المنزلة التي يصعب إقامة البرهان عليها والتي لا يمكن استخلاص فكرتها من التجربة. «إني أرغب في التحدّث إليك؛ فإنك تعلم أنت أية امرأة هي «أوديت» التي تفوق سائر النساء، وأي كائن محبّب هي وأيّ ملاك. ولكنّك تعلم أيّ شيء هي الحياة في باريس. والجميع لا يعرفون «أوديت» مثلما نعرفها أنا وأنت. فهنالك جماعة ترى أنّني أنهض بدور مضحك بعض الشيء؛ فإنّها ترفض حتى التسليم بأن ألاقيها في الخارج، في المسرح. أفلست تستطيع أنت الذي تثق به إلى حدّ بعيد أن تقول لها بضع كلمات في صالحي وتؤكد لها أنّها تبالغ في الضير الذي تجرّه تحيّتي عليها؟».

وأشار عمّي على «سوان» أن يلبث فترة وجيزة دون رؤية «أوديت» التي ستزداد من جرّاء ذلك حبّاً له، وعلى «أوديت» أن تسمح لِـ«سوان»

باللحاق بها أينما طاب له ذلك. وبعد بضعة أيام قالت «أوديت» لِ«سوان» إنّها أصيبت بخيبة أمل إذ رأت أن عمّي شبيه بجميع الرجال: فقد حاول منذ قريب أن يأخذها عنوة. وهدّأت «سوان» الذي كان يبغي للوهلة الأولى المبادرة إلى دعوة عمّي للنزال، على أنّه رفض أن يصافحه حينما التقى به. وقد أسف كثيراً لهذا الخلاف مع عمّي «أدولف» بقدر ما أمل، لو تسنّى له أن يلقاه أحياناً وأمكنه التحدّث إليه بكامل الثقة، أن يحاول توضيح بعض الشائعات الخاصّة بالحياة التي سلكتها «أوديت» فيما مضى في مدينة «نيس». ذلك أن عمّي «أدولف» كان يقضي فيها فصل الشتاء، وكان «سوان» يظنّ أنّه ربّما تعرّف هنالك إلى «أوديت». والقليل الذي تسرّب على لسان أحدهم أمامه، بالنسبة إلى رجل يفترض أنّه كان عشيق «أوديت»، قد بعث في نفس «سوان» أشدّ الاضطراب. ولعلّ الأمور التي يجد، قبلما يعرفها، أنها من أفظع ما يمكن الاطلاع عليه وما يستحيل تصديقه كانت، بعد ما يعرفها، كانت تمتزج نهائياً بغمّه فيسلّم بها ولا يستطيع من بعد أن يدرك أنّها لم تكن. ولكنّ كل أمر كان يضيف لمسة لا تمّحي إلى الفكرة التي يكوّنها عن عشيقته. وحسب مرّة أن طيش «أوديت» الذي ما كان ليرتاب بأمره إنّما كان معلوماً وأنّها تمتّعت في مدينتي «بادن» و«نيس»، حينما كانت تقضي فيهما فيما مضى عدّة شهور، بضرب من النفوذ الغراميّ. وحاول التقرّب من بعض أرباب الحياة الماجنة ولكنّهم كانوا على علم بمعرفته لِ«أوديت»، ثم إنّه كان يخشى أن يعودوا إلى التفكير بها وأن يدلهم على آثارها. وكان يعكف، هو الذي ما كان لأمر أن يبدو له أكثر مللاً حتى ذاك من كلّ ما يتّصل بالحياة الجامعة في مدينتي «بادن» و«نيس»، بعدما علم بأنّ «أوديت» ربّما انصرفت بالأمس إلى اللهو في مدينتي الملذّات ودون أن يتوصّل في يوم إلى معرفة ما إذا كان الأمر لمحض شدّ حاجة إلى المال لم تعد بفضله واقعة فيها أم لنزوات يمكن أن تستفيق من جديد، كان يعكف وبه قلق عاجز أعمى مدوّخ على الهوّة التي لا قرار لها حيث غرقت تلك السنوات من بداية «عهد السنوات السبع»

التي كانوا يقضون فصل الشتاء في أثنائها على جادّة «الإنكليز»، وفصل الصيف تحت ظلال الزيزفون في «بادن»، وكان يجد لها عمقاً مؤلماً ولكنّه رائع كمثل العمق الذي يضفيه عليها شاعر. ولعلّه كان ينفق في إعادة ترتيب الوقائع الصغيرة التي تؤلّف تاريخ أخبار الشاطئ الأزرق آنذاك، لو استطاعت تلك الأخبار أن تعينه على إدراك بعض ما في ابتسامة «أوديت» أو نظراتها - مع أنّها شديدة الاستقامة والبساطة -، لعلّه كان ينفق من الهوى أكثر ما يفعل المختصّ بالجماليّات الذي ينعم النظر في الوثائق المتبقيّة من مدينة «فلورانسا» في القرن الخامس عشر ليحاول النفاذ أكثر إلى روح لوحات «الربيع» أو «فانا الجميلة» أو «فينوس» من أعمال «بوتيتشللي». وغالباً ما كان ينظر إليها دون أن يقول لها شيئاً ويفكّر؛ وتقول له: «كم تبدو حزيناً!» لقد انتقل من فترة ليست بعد بالطويلة من فكرة أنّها مخلوقة طيّبة تماثل أفضل من عرف منهنّ إلى أنّها امرأة تعيش على حساب عشيقها. واتّفق له على العكس مذ ذاك أن يتراجع عن صورة «أوديت دو كريسّي» التي ربّما ذاع صيتها بين أرباب اللهو ومتصيّدي النساء إلى ذلك الوجه ذي الملامح العذبة جدّاً وتلك الطبيعة الإنسانية جدّاً. وكان يقول في نفسه: «ماذا يعني أن يعلم الجميع في «نيس» من هي «أوديت دو كريسّي»؟ فأمثال تلك الشهرة وإن كانت صحيحة إنّما صنعت من أفكار الآخرين»؛ ويحسب أن تلك الأسطورة وإن كانت حقيقيّة إنّما تظلّ خارجة عن «أوديت» ولا تلازمها على غرار شخصيّة شريرة لا تتحوّل؛ وأن المرأة التي أمكن أن تنجرّ إلى عمل الشرّ امرأة ذات عينين خيّرتين وقلب تملؤه الشفقة على المعذبين وجسد طيّع أخذه بين ذراعيه واحتضنه وقلّبه، امرأة قد يتوصّل ذات يوم إلى امتلاكها بكليّتها إن أفلح في جعلها لا تستغني عنه. كانت هنالك، متعبة في الغالب وقد فرغ وجهها للحظة من الانشغال المحموم المغتبط بالأمور المجهولة التي تعذّب «سوان»؛ وتباعد شعرها بكلتا يديها، فيبدو جبينها ووجهها أكثر اتّساعاً. وتطفر من عينيها إذ ذاك فجأة فكرة، أيّ فكرة، إنسانية محضة، عاطفة خيّرة، مثلما يتّفق لجميع

المخلوقات حينما تعود إلى ذاتها في لحظة سكون أو انطواء، تطفر وكأنّها نور أصفر. ويشرق محيّاها في الحال كمثل سهول قاتمة تغطّيها سحب تتباعد فجأة لتبرزها لحظةَ الغروب. كان بوسع «سوان» أن يقاسم «أوديت» في تلك اللحظة الحياة التي تنبض في عروقها والمستقبل نفسه الذي تبدو وكأنّها تنظر إليه من خلال أحلامها، إذ لم يكن يبدو أن أي اضطراب شرير قد خلّف فيها من بقاياه. ومهما أضحت تلك اللحظات نادرة فإنّها لم تكن غير مجدية. فقد كان «سوان» يصل بين هذه الرقع ويلغي الفواصل ويسكب كأنّما من ذهب «أوديت» صُنِعَتْ من خير وهدوء وقد قَدَّمَ لها فيما بعد (مثلما سنرى في الجزء الثاني من هذا المؤلّف) تضحيات ما كان لِـ«أوديت» الثانية أن تحصل عليها. ولكن كم كانت تلك اللحظات نادرة وما أقلّ ما يراها الآن! ذلك أنّها ما كانت تقول له إلّا في آخر لحظة، حتى في ما يتعلّق بموعدهما المسائي، إن كان بإمكانها أن تخصّصه له لأنّها تبغي بادئ الأمر التأكّد، إذ تحسب أنّها ستجده هو جاهزاً على الدوام، من أنّه لن يعرض عليها أحد غيره أن تجيء إليه. كانت تتذرّع بأنها مضطرّة لانتظار جواب بالغ الأهميّة بالنسبة إليها، ولو طلب أصدقاء من «أوديت»، حتى بعدما يحضر «سوان» وتبدأ السهرة، أن تلحق بهم إلى المسرح أو إلى العشاء كانت تقفز فرحة وترتدي ثيابها على عجل. وكانت كلّما مضت قدماً في ارتداء ملابسها قرّبت كل حركة تقوم بها «سوان» من اللحظة التي يقع عليه فيها أن يفارقها والتي ستهرب فيها باندفاع لا يقاوم. وحينما كانت تعود، بعدما أصبحت على أتمّ الاستعداد وأرسلت لآخر مرّة في مرآتها نظراتها المتوتّرة الملتمعة لشدّة انتباهها، لتضع قليلاً من الحمرة على شفتيها وتثبت خصلة على جبينها وتطالب بمعطف السهرة الأزرق السماوي ذي الشراريب الذهبيّة، كان «سوان» يبدو حزيناً لدرجة أنّها لم تكن تستطيع كتم حركة تشير إلى نفاد صبرها وتقول: «انظر كيف تشكرني لأنّني احتفظت بك حتى آخر دقيقة، أنا التي ظننت أنّها أتت أمراً لطيفاً يحسن بي أن أعرف ذلك لمرّة قادمة!» وكان يعتزم أحياناً، وهو يتعرّض

لخطر إغضابها، أن يحاول معرفة الجهة التي ذهبت إليها ويحلم بتحالف مع «فورشفيل» ربما استطاع أن يجيئه بالمعلومات. وحينما كان يعلم على أية حال مع من قضت السهرة كان يَنْدُرُ ألّا يستطيع من بين معارفه كافة أن يلقى الشخص الذي يعرف، ولو معرفة غير مباشرة، الرجل الذي خرجت معه ويستطيع أن يحصل بيسر منه على هذه المعلومات أو تلك. وفيما كان يكتب إلى أحد أصدقائه ليسأله محاولة إيضاح هذه النقطة أو تلك كان يحسّ براحة الانقطاع عن مساءلة نفسه أسئلة لا جواب لها وبأن ينقل إلى آخر سواه عناء السؤال. صحيح أن «سوان» لم يكن يحرز تقدّماً كبيراً حينما تتوافر لديه بعض المعلومات. ذلك أن معركة الأمر لا تسمح دوماً بالحيلولة دون وقوعه، ولكنّ الأشياء التي نعرفها إنّما نمسك بها، إن لم يكن بين أيدينا، فعلى الأقلّ داخل فكرنا حيث نرتّبها على هوانا. وهو ما يخلّف لدينا الوهم في ضرب من السلطان عليها. فقد كان سعيداً في كلّ مرّة تكون فيها «أوديت» بصحبة السيّد «دو شارلوس». ذلك أن «سوان» يعلم أنّه لا يمكن قيام شيء بين السيّد «دو شارلوس» وبينها، وأنه حينما يخرج السيّد «دو شارلوس» معها فإنّما يتم ذلك بداعي المودّة له وأنّه لن يتصعّب في رواية ما فعل. واتفق لها أحياناً أن تعلن لِ«سوان» إعلاناً قاطعاً بأنّه يستحيل عليها أن تراه ذات مساء وتبدو وكأنها تحرص أشدّ الحرص على الطلعة ممّا يعلّق «سوان» معه أهميّة حقيقية على أن يكون السيّد «دو شارلوس» حرّاً لمرافقتها. وفي الغد كان يرغم السيّد «دو شارلوس»، دون أن تتجمّع لديه الجرأة ليطرح عليه أسئلة كثيرة، كان يرغمه، فيما يبدو وكأنّه لم يفهم تماماً أجوبته الأولى، على تقديم أجوبة جديدة يحسّ بعد كلّ منها بارتياح متزايد، فسرعان ما كان يعلم أنّ «أوديت» شغلت وقت سهرتها بأكثر المتع براءة: «كيف ذلك، يا عزيزي «ميميه»، لست أفهم تماماً. . .، لم تذهبا إلى متحف «غريفان» وأنتما تغادران منزلها. لقد ذهبتما قبل ذلك إلى مكان آخر. لا؟ آه! ما أغرب ذلك! لست تعلم إلى أي حدّ تبعث السرور في نفسي يا عزيزي «ميميه». ولكن ما أغرب تلك

الفكرة التي خطرت لها في أن تذهب بعد ذلك إلى ملهى «القطّة السوداء»، تلك فكرة لها بالتأكيد. . . لا؟ إنّها فكرتك أنت. غريب! والفكرة على أيّة حال ليست سيّئة، فلا بدّ أنّها تعرف كثيراً من الناس هناك؟ لا؟ لم تحدّث أحداً؟ غريب جدّاً. لقد مكثتما إذن هكذا وحيدين؟ إني من هنا أرى ذلك المشهد. يا عزيزي «ميميه» أنت رجل لطيف وإني أودّك كثيراً». ويشعر «سوان» بارتياح. فبالنسبة لمن وقع له مثله أن يسمع أحياناً، وهو يتحدّث إلى بعض اللامبالين الذين يكاد لا يصغي إليهم، بعض الجمل (كهذه الجملة مثلاً: «لقد رأيت البارحة السيّدة «دو كريسّي» وكانت مع سيّد لا أعرفه») التي تتجمّد في الحال في قلب «سوان» وتتصلّب على هيئة طبقة صلدة تمزّقه ولا تبرحه من بعد، ما كان أعذب هذه الكلمات، على العكس: «ما كانت تعرف أحداً ولم تكلّم أحداً» وبأيّة سهولة تسري فيه، وكم هي سيّالة سلسة سهلة المتنفّس! ولكنّه مع ذلك كان يقول في نفسه بعد لحظة بأن «أوديت» لا بدّ تجده مملاً جدّاً كيما تكون تلك متعاً تفضّلها على صحبته. ولئن بعثت تفاهة تلك المتع الطمأنينة في صدره فقد كان يغتمّ بها وكأنّها خيانة.

كان يكفيه، حتى لو لم يستطع أن يعلم إلى أين ذهبت، وكيما يهدّئ القلق الذي يعاني منه إذ ذاك والذي كان يشكّل حضور «أوديت» وعذوبة المكوث بالقرب منها الدواء المخصّص الوحيد (وهو دواء يثقل به الداء مع الأيّام ولكنّه يخفف العذاب على الأقلّ إلى حين)، كان يكفيه، لو أذنت «أوديت» فقط، أن يظلّ في بيتها طوال غيابها عنه وأن ينتظرها حتى ساعة العودة تلك التي سوف تختلط في هدوئها الساعات التي جعلته الروعة والسحر يظنّها تختلف عن سواها. ولكنّها ما كانت تريد ذلك، فيعود إلى بيته ويجهد وهو في طريقه في وضع مشاريع مختلفة ويكفّ عن التفكير بـ«أوديت» حتى إنه كان يفلح وهو يخلع ثيابه في بعث أفكار سعيدة نوعاً ما في نفسه، وكان يأوي إلى فراشه ويطفئ النور وقلبه مفعم بأمل أن يذهب في الغد لزيارة إحدى الروائع الفنّية: غير أنّه ما إن يكفّ، استعداداً للنوم،

عن ممارسة ضغط على نفسه لم يعد يشعر به لشدّة ما أصبح اعتيادياً حتى تعاوده في اللحظة نفسها رعشة بالغة البرودة ويجهش بالبكاء. ولا يريد أن يعلم لماذا يفعل ويجفّف عينيه ويقول في نفسه ضاحكاً: «رائع، لقد أصبحتُ موهن الأعصاب». ولا يستطيع أن يفكّر بعد ذلك دون إرهاق كبير أن ينبغي له في الغد أن يعود إلى محاولة معرفة ما فعلت «أوديت» وأن يسيّر بعض ذوي النفوذ لمحاولة رؤيتها. وإن ضرورة هذا النشاط الذي لا هوادة فيه ولا تنوّع ولا جدوى أصبحت قاسية عليه حتى إنّه شعر ذات يوم وهو يبصر انتفاخاً فوق بطنه بغبطة حقيقيّة لدى التفكير بأنّه ربّما أصيب بورم قاتل وأنّه لن يهتم بأمر بعد الآن وأنّ المرض سوف يبسط سلطانه عليه ويجعل منه ألعوبته حتى النهاية القريبة المحتومة. ولئن اتّفق له في الغالب في تلك الفترة أن يتمنى الموت دون أن يقرّ لنفسه بذلك فإنّما لينجو من رتابة جهده أكثر من النجاة من حدّة آلامه.

على أنّه كان يردّ أن يعيش حتى الفترة التي لن يحبّها فيها من بعد والتي لن يظلّ لها فيها ما يدعوها إلى أن تكذب عليه ويستطيع أخيراً أن يعلم منها إن كانت في اليوم الذي ذهب فيه لزيارتها بعد الظهر في سرير «فورشفيل» أم لا. وغالباً ما كان ارتيابه بأنّها تحبّ آخر غيره يصرفه بضعة أيّام عن طرح ذلك السؤال المتعلّق بـ«فورشفيل» على نفسه ويجعله غير ذي بال في نظره كتلك الصيغ الجديدة لحالة مرضيّة حينما تبدو إلى حين وكأنّها أنقذتنا من الصيغ السابقة. وكان يتّفق أن تمرّ به أيّام لا يخامره فيها أيّ شكّ، ويظن أنّه شفي. ولكنّه كان يحسّ صباح الغد لدى استيقاظه في المكان نفسه الألم نفسه الذي سبق أن ذوّب إحساسه به في سيل من الانطباعات المختلفة. بيد أنّه لم يبرح مكانه إلى حدّ أنّ حدّة ذلك الألم هي التي أيقظت «سوان».

ولما لم تكن «أوديت» تزوّده بأيّة معلومات حول هذه الأمور البالغة الأهمية التي كانت تشغلهما إلى حدّ بعيد في كلّ يوم (مع أنّه قطع في الحياة شوطاً كافياً ليعلم أن لا شيء آخر سوى الملذات) فلم يكن بوسعه

أن يتابع البحث طويلاً في تخيّلها إذ كان دماغه يعمل في الفراغ، حينئذ كان يمرّ أصبعه على جفنيه المتعبين كما لو يمسح زجاج نظّارتيه ويكفّ عن التفكير تماماً. بيد أنّه يظلّ يطفو على صفحة هذا المجهول بعض المشاغل التي تعود إلى الظهور بين الحين والحين وقد ربطت ربطاً مبهماً بينها وبين بعض التزاماتها إزاء أقارب بعيدين أو أصدقاء من الأيّام السالفة كانوا يبدون لِ«سوان» وكأنّهم يشكّلون الإطار الثابت والضروري لحياة «أوديت» لأنّهم الوحيدون الذين تذكرهم له في الغالب وكأنهم يحولون دون أن تراه. وبسبب اللهجة التي كانت تقول له بها بين الحين والحين «في اليوم الذي أذهب فيه مع صديقتي إلى ميدان سباق الخيل»، كان يقول في نفسه، إن تذكّر فجأة، ساعة يحسّ أنّه مريض ويفكّر قائلاً: «ربّما تفضّلت «أوديت» ومرّت بي»، أنّه بالضبط هذا اليوم: «لا! لا داعي أن أطلب إليها المجيء وكان يجدر بي التفكير بذلك قبل الآن فإنّه اليوم الذي تذهب فيه مع صديقتها إلى ميدان سباق الخيل. لنوفّر جهودنا لما هو ممكن، إذ لا جدوى من إرهاق النفس في اقتراح وأمور غير مقبولة ومرفوضة سلفاً».

ولم يكن ذلك الواجب الذي يقع على عاتق «أوديت» في أن تذهب إلى ميدان سباق الخيل والذي يسلّم به «سوان» على هذا النحو، لم يكن ليبدو له محتماً فحسب، ولكن سمة الضرورة التي تطبعه تبدو وكأنها تجعل كلّ ما يتّصل به من قريب أو بعيد محتملاً ومشروعاً. فإن وافى «أوديت» في الشارع سلام من أحد المارّة أيقظ غيرة «سوان» وأجابت هي على أسئلة هذا الأخير بأن ربطت بين وجود ذلك المجهول وبين أحد الواجبين أو الثلاثة التي تحدّثه عنها، إن قالت على سبيل المثال: «إنّه سيّد كان في مقصورة صديقتي التي أذهب معها في ميدان سباق الخيل»، هدّأ هذا الإيضاح من شكوك «سوان» الذي كان يرى أنّه لا مفرّ من أن يكون للصديقة ضيوف آخرون غير «أوديت» في مقصورتها في ميدان سباق الخيل ولكنّه لم يحاول يوماً تصوّرهم أو أفلح في ذلك. آه! كم كان يودّ أن يعرفها، صديقتها تلك التي تذهب إلى ميدان سباق الخيل، وأن تصطحبه

إلى هناك مع «أوديت»! وإلى أي مدى لعلّه كان يقدّم جميع معارفه في مقابل أي شخص تعوّدت «أوديت» أن تراه، ولو كان فتاة تهتمّ بجمال الأظافر أو بائعة في مخزن! فلعلّه كان يهتمّ بهما أكثر ممّا يفعل مع الملكات. أفما كانتا ستزوّدانه فيما تملكان من حياة «أوديت» بالمسكّن الفعّال الوحيد لآلامه؟ بأيّة سرعة لعلّه كان يجري فرحاً لقضاء أوقات النهار عند أحد أولئك القوم الصغار الذين تحافظ «أوديت» على علاقاتها بهم إمّا بداعي المصلحة وإمّا عن بساطة حقيقيّة! وكم لعلّه كان يطيب له أن يتّخذ له سكناً دائماً في الطابق الخامس من أي بيت قذر ومشتهى لا تصطحبه إليه «أوديت» وحيث ربّما تسنّى له أن يتلقّى زيارتها في كلّ يوم تقريباً لو أنّه قطن فيه مع الخيّاطة الصغيرة التي اعتزلت العمل والتي لعلّه كان يتظاهر بطيبة خاطر بأنّه عشيقها! وأية عيشة متواضعة ذميمة، بل حلوة، بل ملأى بالهدوء والسعادة لعلّه كان يرتضي أن يعيشها إلى أمد غير محدود!

وكان لا يزال يتّفق له أحياناً أن يلاحظ على وجه «أوديت» ذلك الحزن الذي ألمّ بها يوم جاء لزيارتها حينما كان «فورشفيل» هناك، وذلك عندما كانت تبصر، بعدما تلتقي بـ«سوان»، أحداً ممّن لا يعرفهم يقترب منها. على أن الأمر نادراً ما يحدث! ذلك أن ما كان يسيطر الآن على مظهرها في الأيّام التي يتسنّى لها فيها أن ترى «سوان» على الرغم من كل ما يقع عليها من أعمال وخوفها ممّا قد يحسب الناس إنّما هو الثقة بالنفس: وفي الأمر تعارض كبير وربّما انتقام لا واعٍ أو ردّ فعل طبيعيّ مقابل الاضطراب الوجل الذي كانت تعاني منه في الفترات الأولى التي عرفته فيها حينما تكون بقربه وحتى بعيدة عنه، وحينما كانت تبدأ رسالتها بهذه الكلمات: «يا صديقي، إنّ يدي ترتجف بشدّة أكاد لا أستطيع معها الكتابة» (كانت تدّعي ذلك على الأقلّ، ولا بدّ أن القليل من ذلك التأثّر كان صادقاً حتى ترغب في التظاهر بأكثر منه). كان «سوان» يروقها آنذاك، فليس يرتجف المرءُ إلّا خوفاً على نفسه أو على من يحبّ. وحينما لا تظلّ

سعادتنا ملك أيديهم، فأيّ هدوء وأي يسر وأيّة جرأة نتمتّع بها بالقرب منهم! ولم تعد تملك تلك الكلمات التي كانت تحاول أن تتوهم بها وهي تحدّثه أو تكتب إليه أنه ملك لها فتوجِدُ مناسباتٍ تقول فيها «خاصّتي» و«ما يخصّني» إن تعلّق الأمر به: «إنّك ما أملك، وهذا عطر صداقتنا، إنّي أحتفظ به»، وتحدّثه عن المستقبل وحتى عن الموت وكأنما عن أمر مشترك بينهما. كانت في تلك الفترة تجيب على كل ما يقول إجابة المعجب: «أمّا أنت، فلن تكون في يوم كسائر الناس»؛ وكانت تنظر إلى رأسه المتطاول الذي حلّ به صلع قليل والذي يخطر للناس الذين يعرفون مدى نجاح «سوان» بصدده: «ليس جماله، إن شئت، متناسباً، ولكنّه أنيق: فانظر إلى هذه الثقة بالنفس وهاتين النظارتين وهذه الابتسامة!» وكانت تقول، وربّما كانت أكثر فضولاً لمعرفة ما كان عليه منها رغبة في أن تكون عشيقته: «لو أستطيع أن أعرف ما في هذا الرأس!» أمّا الآن فكانت تردّ على جميع أقوال «سوان» بلهجة غاضبة أحياناً وأحياناً متسامحة: «تراك لن تصبح في يوم كسائر الناس!» كانت تنظر إلى ذلك الرأس الذي شاب قليلاً من جرّاء الهمّ فقط، (ولكنّ الجميع يفكّرن الآن، بفضل القابليّة نفسها التي تسمح بكشف مقاصد مقطوعة سمفونية جاؤوا على قراءة برنامجها ومواطن التشابه لدى طفل هم على علم بنسبه: «إنّه ليس قبيحاً تماماً إن شئت، ولكنّه مثير للسخرية؛ فانظر إلى هاتين النظارتين وهذه الثقة بالنفس وهذه الابتسامة!»، وهم يعون في مخيّلتهم المثارة الخطّ اللامادي الذي يفصل في بضعة شهور بين رأس العاشق ورأي الزوج المخدوع)، وتقول: «آه! لو أستطيع تغيير ما في هذا الرأس وحمله على استرشاد العقل».

وينقضّ على ذلك القول بنهم وهو دائم الاستعداد لتصديق ما يتمنّاه إن فسحت تصرّفات «أوديت» معه المجال للشك، فيقول لها:

– «تستطيعين ذلك إن شئت».

ويحاول أن يبدي لها أن طمأنته وهدايته وحمله على العمل إنّما هي مهمّة نبيلة لا تطلب غيرها من النساء سوى تكريس أنفسهنّ لها، على أنّه

من الحقّ أن يضيف إلى ذلك أنّ المهمّة النبيلة ما كانت لتبدو له بين أيديهنّ أكثر من تعدّ على حريّته من وقاحة لا تطاق. وكان يقول في نفسه: «لو لم تكن تحبّني بعض الشيء لما تمنّت أن تبدّل فيّ. ولا بدّ لها كيما تبدّل فيّ أن تراني أكثر ممّا تفعل». وهكذا كان يجد في هذا العتاب الذي توجّهه إليه كأنّما برهاناً على الاهتمام وربّما الحبّ. وإنّما تقدّم له منها الآن القليل القليل حتى يضطرّ إلى احتساب ما تنهيه به عن هذا الأمر أو ذاك من هذا القبيل. وصرّحت له ذات يوم أنّها لا تحبّ حوذيّه وأنّه ربّما يوغر صدره عليها وأنّه لم يكن يبدو معه على أيّ حال بما تبغي له من دقّة واحترام. وتحسّ أنّه يرغب في أن يسمعها تقول: «لا تستخدمه من بعد للمجيء إلى منزلي» كما لو كان يرغب في قبلة. ولما كانت رائقة المزاج فقد أسمعته ذلك فتأثّر. وإذ كان يحدّث في المساء السيّد «دو شارلوس» الذي كان ينعم معه بإمكان التحدّث عنها بصراحة (لأن أقلّ ما يجود به من أقوال حتى في حضرة أشخاص لا يعرفونها إنّما كانت تُبَلّغُهُ بطريقة وبأخرى)، قال له:

- «أظنّ مع ذلك أنّها تحبّني، فهي لطيفة في ما يخصّني إلى حد بعيد وليس ما أفعل بالتأكيد غير ذي بال بالنسبة إليها».

فإن اتّفق ساعة يذهب إلى بيتها وهو يجلس في عربته مع صديق سيتركه في طريقه، أن اتفق أن قال هذا الأخير: «عجباً، أليس «لوريدان» من يجلس على المقعد؟»، بأي اغتباط حزين كان يجيبه «سوان»:

- «لا، بالتأكيد لا! سأقول لك، أنا لا أستطيع استخدام «لوريدان» حينما أذهب إلى شارع «لابيروز». فـ«أوديت» لا تحبّ أن أستخدم «لوريدان» لأنها لا تراه مناسباً لي. إيه، ما عساك تريد! إني أعلم أن ذلك يسوؤها إلى حدّ بعيد. أجل! ما كان عليّ إلا استخدام «ريمي» لتحلّ بي كارثة!»

أجل كان «سوان» يعاني من جرّاء هذه التصرّفات الجديدة اللامبالية الساهية السريعة في انفعالها التي أضحت الآن تصرّفات «أوديت» معه.

ولكنّه لم يكن يعرف عذابه؛ ذلك أن «أوديت» فترت عواطفها نحوه تدريجيّاً ويوماً بعد يوم وما كان بوسعه أن يسبر غور التبدّل الذي تحقّق إلّا إذا جعل في مقابل ما هي عليه اليوم ما كانت عليه في البداية. والأكيد أن هذا التبدّل إنّما كان جرحه الخفيّ العميق الذي يؤلمه ليل نهار، فكان يوجّه أفكاره، حالما يحسّ أنّها تبالغ في الاقتراب منها، إلى جهة أخرى مخافة أن يتعذّب أشدّ العذاب. صحيح أنّه كان يقول لنفسه على نحو مجرّد: «كان زمان أحبّتني فيه «أوديت» أكثر من ذلك»، ولكنّه لم يبصر مرة صورة ذلك الزمان. فمثلما كان في حجرته خزانة يتدبّر أمره كيلا ينظر إليها وينعطف عنها في دخوله وخروجه ليتجنّبها لأنّه تجمّع فيها الأقحوانة التي قدّمتها له في أوّل مساء صحبها فيه إلى منزلها والرسائل التي كانت تقول فيها: «يا ليتك نسيت هنالك قلبك أيضاً، إذاً لما سمحت لك باستعادته» و«في أيّة ساعة كنت بحاجة إليّ في النهار أو الليل بادرني بإشارة فقط تجد حياتي رهن تلك الإشارة»، كذلك كان في نفسه مكان لا يدع إطلاقاً لفكره أن يقترب منه فيضطرّه أن ينعطف في تفكير طويل إن اقتضى الأمر كيلا يقع عليه أن يمرّ أمامه: وكان المكان ذلك الذي تعيش فيه ذكريات الأيّام السعيدة.

بيد أن حذره واحتراسه أُحبطا ذات مساء ذهب فيه إلى أحد المجتمعات الراقية.

كان ذلك لدى المركيزة «دو سانت أوفيرت» في آخر أمسية في ذلك العام من الأمسيات التي يعزف فيها فنّانون تستخدمهم فيما بعد لحفلاتها الموسيقية الخيريّة. أمّا «سوان» الذي داخلته الرغبة في أن يذهب على التوالي إلى سائر الحفلات السابقة ولم يستطع الجزم في الأمر فقد تلقّى فيما هو يرتدي ثيابه للذهاب إلى هذه الحفلة الأخيرة زيارة البارون «دو شارلوس» الذي جاء يعرض عليه أن يعود معه إلى منزل المركيزة إن استطاعت رفقته أن تعينه على التخفيف بعض الشيء من سأمه وعلى أن يلفي نفسه أقلّ اغتماماً، ولكنّ «سوان» أجابه قائلاً:

- «لست تشكّ بالغبطة التي ستداخلني في أن أكون معك. على أنّ أرفع غبطة يمكن أن توفّرها لي أن تذهب بالأحرى لزيارة «أوديت»؛ فإنّك تعلم التأثير الفائق الذي لك عليها. أظنّ أنها لا تخرج هذا المساء قبلما تذهب إلى منزل خيّاطتها السابقة حيث سيغبطها بالتأكيد أن ترافقها. ولعلّك تجدها في منزلها على أيّة حال قبل ذلك. فحاول أن تلهيها وأن ترشدها. فإن استطعت أن تدبّر للغد أمراً يسرها ويمكن أن نقوم به ثلاثتنا... حاول كذلك رسم بعض معالم هذا الصيف، إن كانت ترغب في شيء، في رحلة بحرية نقوم بها نحن الثلاثة، لست أدري! أمّا هذا المساء فلا أعتزم زيارتها. أمّا إذا رغبت هي أو وجدتَ أنت ملتقى فما عليك إلا أن تبعث إليّ بكلمة إلى منزل السيّدة «دو سانت أوفيرت» حتى منتصف الليل، ثم إلى منزلي بعد ذلك. وشكراً لك على كلّ ما تصنعه من أجلي، فأنت تعلم كم أحبّك».

ووعده البارون بأن يذهب للقيام بالزيارة التي يرغب فيها بعدما يكون أوصله إلى باب منزل «سانت أوفيرت» حيث وصل «سوان» وقد هدأ روعه من جرّاء أنّ السيّد «دو شارلوس» سوف يقضي السهرة في شارع «لابيروز»، ولكنّه ظلّ في حالة من اللامبالاة الحزينة بكل ما لا يتعلّق بـ«أوديت» ولا سيّما الأمور الدنيويّة، تلك الحالة التي كانت تزودها بروعة ما يظهر في حدّ ذاته بما أنّه لم يعد هدفاً لإرادتنا. ومنذ أن نزل «سوان» من العربة، وفي مقدّمة هذا المختصر الوهمي للحياة المنزلية الذي تطمع ربّات البيوت في تقديمه لمدعويهنّ في أيّام الاحتفالات ويحاولن فيه احترام صحّة اللباس والزينة، اغتبط برؤية ورثة «نمور» بلزاك وهم الوصفاء وخدم النزهة المعتادون الذين كان يظلّون في الخارج بقبّعاتهم وأحذيتهم العالية أمام الفندق على أرض الشارع أو أمام الإسطبلات كمثل بستانيّين اصطفّوا على مداخل حدائقهم. وإن النزعة الخاصّة التي كانت دوماً لديه في البحث عن مواطن شبه بين الأحياء من الناس ورسوم المتاحف كانت لا تزال قائمة ولكن على نحو أكثر ثبوتاً وعموميّة؛ فالحياة الدنيويّة بأسرها

أخذت تبدو له، الآن وقد تجرد عنها، بمثابة متتالية من اللوحات. فقد لاحظ للمرّة الأولى في الردهة التي كان يدخلها فيما مضى، حينما كان رجل مجتمعات، ملتفّاً بمعطفه، ليغادرها باللباس الرسمي ولكن دون أن يعلم منذ قليل أو هو أضحى في الحفلة التي يزمعون إدخاله إليها، زمرة الخدم المشتّتة الرائعة العاطلة عن العمل وقد أغفى أفرادها ههنا وهناك على مقاعد وصناديق فانتصبوا، بعدما أيقظهم هذا القدوم المباغت والمتأخّر جدّاً لأحد المدعوّين، يرفعون خطوط وجوههم الحادّة كوجوه السلاقي وتحلّقوا من حوله بعدما تجمّعوا.

وتقدّم أحدهم نحوه، وكان مظهره يوحي بالضراوة ويشبه منفّذ الإعدامات في بعض لوحات النهضة التي تمثّل مشاهد تعذيب، تقدّم بهيئة لا تلين ليأخذ منه أغراضه. على أن قسوة نظرته الفولاذيّة كانت تعادلها نعومة قفازيه المصنوعين من القماش حتى إنه كان يبدو وهو يقترب من «سوان» وكأنّه يظهر الازدراء لشخصه والاحترام لقبّعته. فقد أخذها باهتمام يضفي عليه القياس المحكم شيئاً من الدقّة ولطافة يجعلها مظهر قوّته مؤثّرة. ثم دفعها إلى أحد أعوانه وهو حديث العهد وخجول يعبّر عمّا ينتابه من ذعر بتنقيل نظراته الحانقة في كلّ اتجاه ويبدو في اضطراب حيوان أسير في ساعات تدجينه الأولى.

وعلى خطوات منه يحلم مارد في حلّته وقد جمد كالتمثال وبدا نافلاً كذلك المحارب التزييني المحض الذي يظهر في أكثر لوحات «مانتينيا» (Mantegna) صخباً وهو يفكّر وقد اتكأ على ترسه فيما يتدافعون ويتذابحون إلى جانبه، وكان يبدو، وقد انفصل عن مجموعة رفاقه الذين أحاطوا بـ«سوان» مصمّماً على اللّامبالاة بهذا المشهد الذي كان يتابعه بشرود عينيه الخضراوين القاسيتين تصميمه لو كان المشهد مذبحة الأبرياء أو استشهاد القديس يعقوب. كان يبدو بالضبط وكأنّه ينتمي إلى ذلك الجنس المنقرض - أو الذي لم يوجد ربّما قط إلا في صدر مذبح «سان زينو» (San Zeno) ولوحات «إيريميتاني» الجداريّة حيث شاهده «سوان»

عن قرب ولا يزال يحلم فوق تلك الجدارن - وهو ثمرة إخصاب تمثال عتيق بوساطة نموذج «بادواني» للمعلم أو «ساكسوني» من رجال «ألبير دورر» (Albert Dürer). وكانت خصلات شعره الأصهب الذي جعّدته الطبيعة وثبّته الزيت قد لقيت عناية واسعة كما هي حالها في المنحوتات اليونانية التي كان لا ينفكّ يدرسها رسّام «مانتو» (Mantoue) والتي تعرف على الأقلّ، إن هي لم تمثّل في الخليقة سوى الإنسان، كيف تستخرج من أشكاله البسيطة ثروات كثيرة التنوّع وكأنّما أخذت من كامل الطبيعة الحيّة حتى إن الشعر، بفضل التفاف حلقاته المالسة وثنياته الحادّة أو تناضد جدائله على شكل تاج مثلّث متفتّح الأزهار إنّما يبدو وكأنّه في الآن نفسه حزمة من الأشنيات وعشّ من الحمائم وتاج من الحدقيّات والتفاف حيّات.

ويقف آخرون عمالقة كذلك على درجات سلّم ضخم ربّما استطاع حضورهم التزيني وجمودهم المرمريّ أن يطلقا عليه تسمية تماثل اسم سلّم قصر الدوق: «سلّم العمالقة» الذي ارتقى «سوان» درجاته وبه غمّ أن يحسب أنّ «أوديت» لم تصعده في يوم. وما أشدّ ما تكون غبطته على العكس لو تسلّق الطوابق السوداء النتنة الخطرة لدى الخياطة الصغيرة المعتزلة فلعلّه يسعد جدّاً في طابقها الخامس أن يدفع أكثر ما يدفع في مقصورة أمامية في الأسبوع لقاء حق قضاء السهرة حينما تجيء «أوديت» إلى هذا المكان وحتى الأيّام الأخرى ليستطيع التحدّث عنها والعيش مع الناس الذين تعودت أن تراهم حينما لا يكون هناك والذين يبدون لذلك وكأنهم يحتفظون من حياة عشيقته بأمر أكثر حقيقة وأعزّ منالاً وأعمق سراً. ففي حين كنت ترى مساءً على درج الخيّاطة السابقة النتن والمشتهي، بما أنّه لم يكن هنالك آخر للخدام، علبة للحليب فارغة وقذرة معدّة فوق الممسحة أمام كلّ باب، كان يقف على الدرج الرائع والمزدري الذي يتسلّقه «سوان» في هذه اللحظة، من هذا الصوب وذاك وعلى ارتفاعات مختلفة، أمام كلّ تجويف تغور فيه نافذة مقصورة أو باب شقّة، بواب

وكبير خدم وقيّم على المال (وهم من البسطاء الذين كانوا يعيشون بقيّة الأسبوع في استقلال نسبي على أملاكهم ويتغدّون في بيوتهم مثل أصحاب دكاكين صغيرة وربّما ذهبوا في الغد ليقوموا بخدمة أحد الأطبّاء أو الصناعيّين) يسهرون على أن لا يخلّوا بالتوصيات التي تليت عليهم قبل أن يسمح لهم بارتداء اللباس الزاهي الذي لا يرتدونه إلا في فترات نادرة ويحسّون أنّهم لا يلقون راحة فيه، كانوا يقفون تحت أقواس البوابة بزهو وجلال تخفّف منهما البساطة الشعبيّة وكأنهم قديسون في مشاكيهم. وكان هنالك حارس ضخم كأنّما في ملابس كنسيّة يضرب البلاط بعصاه لدى مرور كل مدعو. ولما وصل «سوان» إلى أعلى الدرج الذي لحق به على امتداده خادم شاحب الوجه له ضفيرة صغيرة يربطها برياط خلف رأسه، كمثل قندلفت من لوحات «غويا» (Goya)، أو كاتب عدل من المجموعة، مر أمام مكتب نهض فيه خدّام كانوا يجلسون مثل كُتّاب بالعدُل خلف سجلات كبيرة وسجّلوا اسمه. حينذاك اجتاز ردهة صغيرة كانت - شأن بعض حجرات أعدّها صاحبها لتكون إطاراً لعمل فنّي وحيد تقتبس منه اسمها ولا تحتوي في عريها المقصود على أي شيء سواه - تبرز في مدخلها، كمثل صورة ثمينة لِـ«بينفنوتو تشلليني» (Benvenuto Cellini) تمثّل راصداً، خادماً شاباً يثني جسمه قليلاً إلى الأمام ويرفع فوق ياقته الحمراء وجهاً يفوقها حمرة تنبعث منه سيول من النار والوجل والحماسة ويبدو، وهو يخترق سجّاد «أوورسون» (Aubusson) الممدود أمام الصالة المعدّة لسماع الموسيقى بنظرته الحادّة المتيقّظة الوالهة وفي جمود العسكريّين أو الإيمان بالماورائيات - كأني به رمز الرعب وتجسيد الانتظار وذكرى استعدادات الحرب -، يبدو وكأنّه يترقّب، بوجه ملاك أو راصد، من برج حصن أو كاتدرائيّة، ظهور الأعداء أو ساعة الدينونة. ولم يظلّ أمام «سوان» سوى دخول قاعة الحفلات الموسيقية التي فتح له بواب مثقل بالسلاسل أبوابها وهو ينحني أمامه كما لو أنه يسلّمه مفاتيح مدينة. ولكنّه يفكّر بالبيت الذي كان يستطيع أن يكون فيه في تلك اللحظة عينها لو

سمحت «أوديت» بذلك وبعث اللوعة في ضلوعه بريق علبة حليب فارغة ذكرها فوق ممسحة الباب.

وسرعان ما عاد لِـ«سوان» الشعور بقباحة الرجال حينما تلا منظر الخدم خلف ستائر السجاد منظر المدعوّين. ولكنّ قباحة الوجوه تلك التي يعرفها تمام المعرفة إنّما تبدو له جديدة منذ أخذت ملامحها تستقر داخل خطوطها المستقلّة ولا تربط بينها سوى علاقات جماليّة - عوضاً عن أن تكون في نظره علاقات تستخدم عملياً للتحقّق من هذا الشخص أو ذاك وما كان يمثّل حتى ذاك سوى حزمة من المتع عليه أن يلاحقها أو مزعجات عليه تجنبها أو مجاملات واجبة عليه. حتى النظارات لدى أولئك الرجال الذين رأى نفسه محاصراً بينهم، النظارات التي يضعها الكثير منهم (والتي ما كانت فيما مضى لتسمح لِـ«سوان» بأكثر من أن يقول بأنّهم يضعون نظارات) أخذت تبدو بنوع من التفرّد الذي يميّز كلّاً منها وقد أصبح الآن في حلّ من الدلالة على عادة معيّنة تسري على الجميع. وربّما اتّفق له، لأنّه لم ينظر إلى اللواء «دو فروبيرفيل» والمركيز «دو برييوتيه» اللذين كانا يتحدّثان في المدخل إلّا على أنهما شخصان في لوحة في حين ظلّا لفترة طويلة بالنسبة إليه الصديقين النافعين اللذين قدّماه في نادي الفروسيّة وشهدا له في مبارزاته، أن بدت نظّارة اللواء، وقد ظلّت بين جفنيه كشظيّة قنبلة في وجهه العاديّ المشطّب الظافر وفي منتصف جبينه الذي تنفتح كعين أعور **الاوديسة** الوحيدة، وكأنّها جرح فظيع يمكن أن يعتز به ولكنّ إبرازه بعيد عن الاحتشام؛ أمّا تلك التي يضيفها السيّد «دو برييوتيه» إلى قفّازيه الرماديّين وقبعته الرسميّة وربطة عنقه البيضاء بمثابة دليل على الاحتفال فقد كانت تحمل بملاصقة وجهها الآخر عيناً بالغة الصغر تعجّ باللطافة ولا تنفكّ تبتسم لارتفاع السقوف وجمال الحفلات وإمتاع البرامج وجودة المرطّبات، عيناً كأنها مستحضر علوم طبيعيّة تحت المهجر.

- «عجباً، هذا أنت، ما رأيناك من دهور»، يقول اللواء لِـ«سوان»، ويلاحظ ملامح وجهه المتعبة فيضيف بعدما يستنتج أن مرضاً خطيراً ربّما

أبعده عن دنيا المجتمع: «وجهك ينضح بالصحّة، تدري» فيما يسأل السيّد «دو بريبوتيه» قائلاً: «كيف، هذا أنت يا عزيزي، وما عساك تفعل ههنا؟» ويوجّه السؤال لأحد كُتّاب الرواية من رجال المجتمع وقد ركّز منذ قليل نظارة في زاوية عينه وهي عضو البحث النفسي الوحيد لديه والتحليل الذي لا يرحم وأجاب بادي الخطر بعيد السر وهو يشدّ على حرف «الراء»:

- «أراقب».

كانت نظارة المركيز «دو فوريسيتل» ضئيلة الحجم لا إطار لها البتّة تضطرّ العين، التي تنغرس فيها كغضروف زائد لا تدرك سبب وجوده وترغب أشدّ الرغبة في مادّته، إلى انقباض دائم ومؤلم ممّا يضفي على وجه المركيز نعومة حزينة تحكم النساء بها أنّه قادر على توليد متاعب غراميّة جسيمة. وأما نظارة السيّد «دو سان كانديه» التي تحيط بها حلقة ضخمة، شأن زحل، فقد كانت بمثابة مركز الثقل لوجه ينتظم في كلّ لحظة بالنسبة إليها ويحاول الأنف المرتعش الأحمر والشفتان المكتنزتان الساخرتنان أن تكون جميعها بفضل علامات الاستياء على مستوى الذكاء الذي يتطاير شرراً من القرص الزجاجيّ، فترى أنها المفضلة على أجمل ألحاظ الدنيا لدى نساء شابّات متحذلقات فاسدات تجعلهنّ يحلمن بمفاتن كاذبة ولذة مفرطة؛ وأما السيّد «دو بالانسي» فقد كان يبدو خلف نظّارته، برأس الشبّوط الضخم ذي العينين المستديرتين، وهو يتنقّل على مهل وسط الأفراح يفتح فكيه بين حين وآخر وكأنّما يبحث عن اتّجاه كان يبدو وكأنّه ينقل معه قطعة عارضة بل ربّما محض رمزيّة من زجاج الحوض السمكي، وهي جزء أُعدّ لتمثيل الكلّ وأعاد لِ«سوان» المعجب الكبير بلوحتي «**النقائص**» و«**الفضائل**» من أعمال الرسّام «جيوتّو» في مدينة «بادوفا» صورة ذلك الظالم الذي يذكّر غصن كثيف الأوراق على مقربة منه بالغابات التي تخفي وكره.

وتقدّم «سوان» ووقف، بناء على إلحاح السيّدة «دو سانت أوفيرت» كيما يسمع لحن «**أورفيوس**» الذي يؤدّيه عازف ناي، في زاوية لا ينظر

منها لسوء الحظ سوى سيّدتين ناضجتين تجلس الواحدة قرب الأخرى وهما المركيزة «دو كامبرمير» والفيكونتيس «دو فرانكتو» اللتان كانتا قريبتين وكانتا لذلك تمضيان الوقت في السهرات، وهما تحملان حقيبتيهما وتتبعهما ابنتاهما، تبحث الواحد عن الأخرى كأنما في محطّة قطارات ولا تطمئنان إلا بعدما تحجزان بمروحة أو بمنديل مقعدين متجاورين: فالسيّدة «دو كامبرمير» تزداد سعادة بتوافر رفيقة لها لأنها قليلة المعارف، أمّا السيّدة «دو فرانكتو» فترى لأنها على العكس كثيرة المعارف شيئاً من التألق والابتكار في أن تبدي لمعارفها الجميلات كافّة أنّها تفضّل عليهنّ سيّدة مجهولة تشاركها ذكريات الشباب. كان «سوان» ينظر إليهما، تملؤه سخرية حزينة، وهما تصغيان إلى وصلة البيانو (وهي بعنوان «**القديس فرانسيس يتحدّث إلى الطيور**». للموسيقار «ليست» (-Liszt-) التي تلت لحن الناي وتتابعان عزف البيانو البارع المدوخ، فالسيّدة «دو فرانكتو» بقلق تائهة العينين كما لو كانت المضارب التي يجري فوقها بخفّة مجمعة أراجيح يمكن أن يسقط منها من ارتفاع ثمانين متراً ولا يفوتها أن ترسل إلى جارتها نظرات استعجاب وإنكار تعني بها: «الأمر صعب التصديق، فما حسبت أن يستطيع إنسان في يوم تأدية ذلك»، وأمّا السيّدة «دو كامبرمير» فتعيّن الإيقاع، بوصفها امرأة اكتسبت ثقافة موسيقيّة عميقة، برأسها وقد استحال رقاص مقياس سرعة أصبحت تأرجحاته بين كتف وأخرى من الاتساع والسرعة (إلى جانب هذه النظرة التائهة المستسلمة التي تتّسم بها الآلام التي لم تعد تعرف ذاتها ولا تحاول السيطرة من بعد على نفسها وتقول «ما في اليد حيلة!») حتى إن مأساتها المتفرّدة أخذت تعلق في عرى صدارها وأنّها تجد نفسها مضطرّة إلى إصلاح حبات العنب الأسود التي في شعرها دون أن تتوقّف لذلك عن مسارعة حركتها. وفي مقابل الجهة التي تقف فيها السيّدة «دو فرانكتو»، ولكن إلى الأمام قليلاً، اتخذت المركيزة «دو غالاردون» مكانها وقد شغلتها فكرتها المفضّلة ونعني علاقة المصاهرة التي بينها وبين أسرة «غيرمانت»، تلك العلاقة التي تعتزّ بها أشدّ الاعتزاز

بالنسبة إلى الناس وبالنسبة إلى نفسها مع شيء من الخجل لأنّ ألمعهم شهرة لا يُبالي بها ربّما لأنّها تبعث السأم أو هي شريرة أو لأنّها من فرع أدنى أو ربّما لغير ما سبب. فحينما حتى كانت تجد نفسها بالقرب من شخص لا تعرفه، شأنها في هذه اللحظة بالقرب من السيدة «دو فرانكتو»، كانت تعاني ألا يستطيع شعورها بأنّها قريبة أسرة «غيرمانت» أن يبرز إلى الخارج بأحرف مرئية كتلك التي رُتّب بعضها فوق بعضها الآخر في فسيفساء الكنائس البيزنطيّة وسجّلت في عمود بالقرب من شخص قدّيس الكلمات التي يفترض أنّه ينطق بها. كانت تفكر في تلك اللحظة أنّها لم تتلقّ قطّ دعوة من ابنة عمها الشابة أميرة «لوم» ولا حظيت بزيارتها منذ سنوات ست انقضت على زواج هذه الأخيرة. وكانت تلك الفكرة تملؤها حنقاً واعتزازاً مع ذلك. فلقد بلغ بها الأمر، لوفرة ما تقول للذين يعجبون كيف لا يرونها في منزل السيّدة «دي لوم» بأن سبب ذلك أنّها ربّما واجهت خطر لقاء الأميرة «ماتيلد» هنالك – وهو أمر لن تغتفره لها أسرتها المبالغة في انحيازها إلى الشرعية –، لقد بلغ بها الأمر أن تحسب أن ذلك كان السبب الذي من أجله لا تذهب إلى منزل ابنة عمها الشابّة. ولكنّها تذكر مع ذلك أنّه سبق لها مرّات عديدة أن سألت السيّدة «دي لوم» كيف يمكن لها أن تلتقي بها، بيد أنّها لا تذكر الأمر إلا بإبهام وتبادر على أيّة حال إلى تحييد هذه الذكرى المخزية، بل تتجاوز ذلك هامسة: «لا يقع عليّ أنا أن أقوم بالخطوات الأولى فإني أكبرها بعشرين عاماً». وبفضل مزايا هذه الكلمات الباطنة كانت تردّ منكبيها باعتزام إلى الخلف وقد انفصلا عن نصفها الأعلى وذكّر رأسها الموضوع فوقهما على نحو يكاد يكون أفقيّاً برأس تدرج مزهّو يقدّم على المائدة بكامل ريشه. وليس يعني ذلك أنّها لم تكن بطبيعتها قصيرة القامة «مسترجلة» بدينة، ولكن الإهانات قوّمتها كتلك الأشجار التي تبصر النور في موقع سيئ على حافّة هاوية فتضطرّ إلى النموّ باتّجاه الخلف للحفاظ على توازنها. فلما كانت مضطرة كيما تعزّي النفس لأنّها لا تساوي تماماً بقيّة أعضاء أسرة «غيرمانت» أن تقول في نفسها

دونما انقطاع بأنّها لا تراهم إلّا قليلاً لتشدّدها في المبادئ واعتدادها بذاتها فقد تمّ لهذه الفكرة في النهاية أن تقولب جسمها وتورثها ضرباً من المهابة يبدو في نظر البورجوازيّات على أنّه علامة طيب المحتد ويعكّر أحياناً برغبة عابرة ألحاظ رجال الشلّة المتعبة. ولو أُخضع حديث السيّدة «دو غالاردون» لتلك التحليلات التي «فيردوران» تسمح باكتشاف مفتاح لغة مرمّزة وذلك بتحديد تواتر كلّ لفظة ما كثر منه أو قلّ لتبيّن أنّه ما من عبارة، حتى أكثرها استعمالاً، تتردّد فيه بالوفرة التي تتردّد فيها عبارات «لدى أبناء عمّي من أسرة «غيرمانت» و«لدى عمّتي من أسرة «غيرمانت» و«صحّة «إيلزيار غيرمانت» و«مغطس ابنة عمّي من أسرة «غيرمانت». وكانت تجيب حينما يحدّثونها عن شخصيّة مشهورة أنّها التقت بها، دون أن تعرفها شخصياً، ألف مرة في منزل عمتها من أسرة «غيرمانت»، ولكنّها تجيب عن ذلك بلهجة فيها من البرودة وبصوت فيه من الكتمان ما يبدو واضحاً معه أنّها لم تعرفه شخصياً فبسبب جميع المبادئ الراسخة العنيدة التي تلامس منكبيها من الخلف كمثل تلك السلالم التي يمدّدك فوقها مدرّسو الرياضة لتنمية صدرك.

ولكن أميرة «لوم» التي كان التقاؤها غير متوقّع في منزل السيّدة «دوسانت أوفيرت» كانت قد وصلت بالضبط منذ قليل. وكيما تقيم البرهان على أنّها لا تحاول بعث الشعور بعلوّ مكانتها في صالة لا تأتي إليها إلّا تنازلاً فقد دخلت وهي تقلّص منكبيها حيث لا جمهور يجب اختراقه ولا أحد تسمح له بالمرور، وظلّت عن عمد في آخر الغرفة وكأنّما هي في مكانها مثل ملك ينتظر دوره على باب مسرح ما داموا لم يعلموا السلطات بحضوره. وظلّت تقف، وهي تقصر نظرتها - كي لا يبدو عليها أنّه تنبّه إلى حضورها وتطالب بالمراعاة - على النظر مليّاً إلى رسم السجّادة أو رسم تنّورتها هي، ظلّت تقف في المكان الذي بدا أنّه الأكثر اتضاعاً (والذي تعلم أن صرخة تعجّب مفتونة تطلقها السيّدة «دو سانت أوفيرت» سوف تخرجها منه حالما تكون هذه الأخيرة قد أبصرتها)، بالقرب من

السيّدة «دو كامبرمير» التي كانت مجهولة لديها، كانت تراقب إشارات جارتها المولعة بالموسيقى ولكنّها لا تقلّدها. وليس يعني ذلك أن أميرة «لوم» ما كانت تتمنّى أن تبدو في أكثر ما يمكن من اللطف، بما أنّه اتّفق لها أن جاءت لقضاء خمس دقائق في منزل السيّدة «دو سانت أوفيرت»، وذلك كيما تُحتسب هذه المجاملات التي تقوم بها مضاعفة. ولكنّها كانت تمقت بطبيعتها ما تدعوه «بالمبالغات»، وكان يهمّها البرهان على أنّه «لم يكن عليها» أن تنصرف إلى تظاهرات لا تتماشى ونوع «الشلّة» التي تعيش بين صفوفها ولكنّها لا تنفكّ تؤثّر فيها من جرّاء روح التقليد الغريب من الخجل الذي يولده لدى أكثر الناس ثقة بأنفسهم جوّ الوسط الجديد ولو كان أدنى مرتبة. فقد أخذت تسائل نفسها إن لم تكن هذه الإشارة أصبحت ضرورية من جرّاء المقطوعة التي تعزف والتي ربّما لا تنسجم مع إطار الموسيقى التي سمعتها حتى هذا اليوم وإن لم يكن الامتناع برهاناً على عدم التفهّم في ما يخصّ العمل الفني وعلى الإخلال باللياقة تجاه ربّة البيت: مما دفعها كيما تعبّر عن احاسيسها المتناقضة بطريقة التسوية إلى الاكتفاء تارة برفع شريط كتفيتها أو تثبيت كرات المرجان أو المينا الورديّة المرصّعة بالماس في شعرها الأشقر والتي توفّر لها تسريحة بسيطة ورائعة، فيما هي تنظر بإمعان وفضول لا حماسة فيه إلى جارتها المفعمة نشاطاً، وإلى تعيين الإيقاع طوراً بمروحتها للحظة واحدة ولكن على نحو معاكس كي لا تتخلى عن استقلاليّتها. ولمّا أتى عازف البيانو على آخر مقطوعة «ليست» وبدأ افتتاحية لِ«شوبان» ابتسمت السيّدة «دو كامبرمير» للسيّدة «دو فرانكتو» ابتسامة تبعث فيها المعرفة الراضية والتلميح إلى الماضي لوناً من الحنان. فقد سبق أن تعلّمت في شبابها مداعبة جُمَل «شوبان» ذات العنق المتعرّج المديد، الطليقة المطواعة الملموسة إلى أبعد حدّ والتي تشرع بالبحث عن مكانها واختباره خارج اتجاه نقطة انطلاقها وبعيداً جدّاً عنها، بعيداً جدّاً عن النقطة التي كان يمكن أن يبلغه تماسّها، والتي لا تتلاعب في هذه النزوة المتباعدة إلّا لتعود بتروٍّ أكبر لتنغرس في فؤادك - عودة

تتّسم بتعمّد أكبر ودقّة أوفر وكأنّما على إناء من الكريستال يدوّي حتى ليحمل على الصراخ.

ولما كانت تعيش داخل أسرة ريفيّة قليلة المعارف ولا ترتاد الحفلات الراقصة، فقد كانت تأخذها النشوة في عزلة قصرها الريفيّ في تبطيء خطى جميع هؤلاء الراقصين الخياليين وتسريعها وتفتيتها كوريقات الأزهار، وفي مغادرة الحفلة الراقصة لفترة لتسمع أنفاس الريح بين الصنوبر على ضفّة البحيرة ولتبصر فيها شاباً رقيقاً في صوته غنّة وغربة وشذوذ يتقدّم فجأة بقفّازين أبيضين، وهو أكثر اختلافاً عن كلّ ما راود المرء في يوم حول عشّاق الأرض قاطبة. أمّا اليوم فإن جمال هذه الموسيقى يبدو فاقد الرونق وقد تقادم عهده. ذلك أنّها فقدت عزّتها وسحرها بعدما خذلها منذ عدّة سنوات تقدير المطّلعين وما كان يجد فيها حتى أصحاب الذوق الفاسد سوى متعة هيّنة لا يقرون بها. واسترقت السيّدة «دو كامبرمير» النظر خلفها، فقد كانت تعلم أن كنّتها الشابة (التي تقدّر أتمّ التقدير أسرتها الجديدة إلا في ما يتعلق بأمور الفكر التي لها اطلاع خاص عليها فتعرف حتى «الهرموني» وحتى اللغة اليونانية) تحتقر «شوبان» وتعاني منه حينما تسمع من يعزف له. ولكنّ السيّدة «دو كامبرمير» كانت بعيدة عن رقابة هذه المعجبة بـ«فاغنر» التي وقفت بعيداً عنها مع جماعة في مثل عمرها فتركت لنفسها أن تنساق وراء انفعالات لذيذة. وكانت أميرة «لوم» تقاسمها تلك الانفعالات. فقد سبق لها، دون أن تكون موهوبة بطبيعتها في الموسيقى، أن أخذت دروساً قبل خمسة عشر عاماً على يد مدرّسة بيانو من ضاحية«سان جيرمان»، وهي امرأة عبقرية ألّمت بها الفاقة في آخر أيّامها فعادت في سنّ السبعين إلى إعطائها لبنات تلميذاتها السابقات وحفيداتهنّ. لقد وافتها المنيّة الآن ولكنّ طريقتها والرنّة الصافية لديها كانتا تنبعثان من جديد أحياناً من أطراف أصابع تلميذاتها، حتى اللواتي أصبحن فيما عدا ذلك شخصيّات ضحلة وهجرن الموسيقى وما فتحن تقريباً بيانو بعد ذلك. ولذا استطاعت السيّدة «دي لوم» أن تهزّ رأسها، وهي على أتمّ علم

بالأمر، مع تقدير صحيح للطريقة التي يؤدّي بها عازف البيانو تلك الافتتاحية التي كانت تعرفها عن ظهر القلب. وانبعث نغم آخر الجملة من تلقاء ذاته على شفتيها، وهمست قائلة: «إن في الأمر سحراً دائماً» بالتشديد على حرف السين في أول الكلمة، والتشديد علامة نعومة شعرت أنّه يلوي شفتيها على هيئة زهرة جميلة وعلى نحو عاطفي كبير دفعها غريزياً إلى مواءمة نظراتها معها فأضفت عليها في تلك اللحظة ضرباً من العاطفيّة والغموض. وكانت السيّدة «دو غالاردون» تقول في نفسها في تلك الأثناء إنّه من المؤسف ألّا تتسنى لها إلّا فيما ندر فرصة لقاء أميرة «لوم» لأنّها ترغب أن تلقنها درساً بأن لا تردّ لها تحيّتها. وما كانت تعلم أنّ ابنة عمّها هناك، فجاءت حركة من رأس السيّدة «دو فرانكتو» تكشفها لها. وانقضّت في الحال صوبها وهي تزعج الجميع. ولما كانت راغبة في الاحتفاظ بمظهر متعالٍ وجافّ يذكر الجميع بأنّها لا ترغب في قيام علاقات بينها وبين امرأة يمكن أن يجد الإنسان نفسه في بيتها وجهاً لوجه مع الأميرة «ماتيلد» ولا يقع عليها أن تبادر إليها لأنّها لم تكن «من عصرها»، فقد شاءت مع ذلك أن تعوّض عن هذا المظهر المتعالي المتحفّظ بقول، أيّ قول، يبرّر مسعاها ويضطرّ الأميرة إلى بدء المحادثة. وما إن وصلت السيّدة «دو غالاردون» بالقرب من ابنة عمّها حتى قالت لها بسحنة قاسية ويد ممدودة كمثل بطاقة إلزامية: «كيف حال زوجك؟» وباغتمام في الصوت كما لو كان الأمير خطير المرض. وأجابتها الأميرة وهي تنفجر ضاحكة على نحو كان خاصّاً بها ومعدّاً ليبرز للآخرين أنّها تسخر من أحدهم ولتبدو في الأن نفسه أكثر جمالاً بتركيز ملامح وجهها حول فمها الذي يضجّ بالحياة وبريق عينيها:

- «على أحسن ما يرام!».

وضحكت أيضاً. ولكن السيّدة «دو غالاردون» قالت لابنة عمّها وهي ترفع قامتها وتضفي جفاءً على وجهها ولا يزال بها قلق مع ذلك على حال الأمير:

- «أوريان»، (وهنا نظرت السيّدة «دي لوم» متعجبة ساخرة إلى شخص ثالث متوارٍ تبدو وكأنها تهتمّ بأن تؤكد أمامه بأنّها لم تسمح قطّ للسيّدة «دو غالاردون» أن تناديها باسمها) لعلّي شديدة الاهتمام بأن تحضري لفترة في مساء الغد إلى بيتي لسماع «خماسيّة» بمصاحبة المزمار من أعمال «موزار»، فإني أودّ الوقوف على رأيك».

وكانت تبدو لا كمن توجّه دعوة، بل كمن تطلب خدمة وهي بحاجة إلى رأي الأميرة حول خماسيّة «موزار» كما لو أن الأمر طبق من تأليف طبّاخة جديدة يبدو الوقوف على رأي ذوّاقة في ما يخصّ مواهبها كبير الأهميّة.

- «ولكنّي أعرف هذه الخماسيّة وأستطيع أن أقول لك في الحال... إنّي أحبها!».

- «زوجي كما تعلمين ليس على ما يرام، فإن كبده... سوف يغتبط كثيراً برؤيتك»، تقول السيّدة «دو غالاردون» وهي تفرض الآن على الأميرة المجيء إلى أمسيتها من قبيل عمل الخير.

وكانت الأميرة لا تحبّ أن تقول للناس إنّها لا تريد الذهاب إلى منازلهم. وكانت تكتب في كل يوم عن أسفها لأنها حُرمت - من جرّاء زيارة غير متوقّعة لحماتها، من جرّاء دعوة لصهرها، من جرّاء طلعة إلى الريف - أمسيةً ما فكرت في يوم أن تذهب إليها. وكانت هكذا توفّر لكثير من الناس غبطة الاعتقاد بأنّها في عداد معارفهم وأنّها ربّما ذهبت راضية إلى بيوتهم وأنّه لم يُحل دون أن تفعل سوى عوائق ناجمة عن الأمراء ويفخرون أن يروهم ينافسونهم على سهرتهم. ثم إنّها كانت من شلّة أسرة «غيرمانت» الذكيّة التي ظلّ لديها شيء من رشاقة الفكر المجرّدة من المعاني المطروقة والعواطف المألوفة التي تتحدّر من الكاتب «ميريميه» (Mérimée) وقد وجدت آخر تعبير لها في مسرح «ميلاك» (Meilhnac) و«آليفي» (Halévy)، فكانت تكيّفها بما يتّفق حتى والعلاقات الاجتماعية وتنقلها حتى إلى صيغ تهذيبها التي تجهد في أن تكون موضوعية ودقيقة

وأن تقترب من الحقيقة المتواضعة. فما كانت تطيل أمام ربّة بيت في التعبير عن الرغبة التي بها في الذهاب إلى سهرتها، بل ترى مزيداً من اللطف في أن تبسط لها بضع وقائع صغيرة يترتّب عليها أن تتمكّن أو لا تتمكّن من المجيء. وقالت للسيّدة «دو غالاردون»:

- «اسمعي، ينبغي لي مساء الغد أن أذهب لدى صديقة طلبت مني يومي منذ فترة طويلة. فإن ذهبت بنا إلى المسرح فلن يتسنّى لي أن أذهب إلى منزلك، وإن صدقت العزيمة. أمّا إذا ظللنا في بيتها فسوف أستطيع فراقها بما أنّني أعلم أنّنا سنكون وحدنا».

- «ولكن، هل رأيت صديقك السيّد «سوان»؟

- «لا، «شارل» الحبيب هذا ما كنت أعلم أنّه ههنا، وسوف أجهد في أن يراني».

وقالت السيّدة «دو غالاردون»: «غريب أن يذهب حتى إلى منزل الخالة «سانت أوفيرت»؛ وأضافت تقول: «اعلم أنّه ذكيّ»، وتقصد أنّه دسّاس، «ولكن ذلك لا يفيد، يهودي في منزل شقيقة وزوجة أخ لرئيسَيْ أساقفة».

وأجابت أميرة «لوم»: «إنّي أعترف، واخجلتي، أنني لا أجد في الأمر ما يثير».

- «أعلم أنّه مرتدّ، وحتى والداه وجدّاه من قبله. إلّا أنّ المرتدّين، فيما يقال، يظلّون أكثر تمسّكاً من سواهم بدينهم، وأن الأمر من قبيل الخدعة، فهل ذلك صحيح؟».

كان على عازف البيانو أن يؤدِّي مقطوعتين لِـ«شوبان» فباشر في الحال إحدى «البولونيات»[1] بعدما أنهى الافتتاحيّة. على أنّه كان يمكن لِـ«شوبان» العائد من القبر، منذ أن لفتت السيّدة «دو غالاردون» انتباه ابنة عمّها إلى وجود «سوان»، أن يبادر ويعزف بنفسه جميع مقطوعاته دون أن

(١) مقطوعات راقصة لِـ«شوبان».

يمكن للسيدة «دي لوم» أن تصرف إليه انتباهها. فقد كانت في عداد أحد نصفي البشرية ممن يحل لديهم الاهتمام بالأفراد الذي يعرفونهم محل الفضول الذي لدى النصف الآخر إزاء الأفراد الذين لا يعرفونهم. فعلى غرار العديد من نساء ضاحية«سان جيرمان» كان وجود أحد أفراد شلتها في مكان هي فيه يستحوذ حصراً على كامل انتباهها على حساب كل ما عداه، مع أنه لا شيء خاص لديها تقول له. منذ تلك اللحظة لم تقم الأميرة، يحدوها الأمل في أن يلاحظها «سوان»، بأكثر من أن تدير وجهها، وقد غصّ بألف من علامات التواطؤ لا تمت بصلة إلى الإحساس بمقطوعة «شوبان» الراقصة، في الاتجاه الذي يقف فيه «سوان»، كمثل فأر أبيض مروّض تمد له قطعة من السكر ثم تبعدها، فإذا غيّر «سوان» مكانه أزاحت بموازاته ابتسامتها الممغنطة.

وعادت السيدة «دو غالاردون» تقول، ولم تستطع في يوم أن تمنع نفسها عن التضحية بأعظم آمالها الاجتماعية وإدهاش العالم ذات يوم في مقابل اللذة الخفية الفورية الخاصة بها في أن تقول شيئاً مكدراً: «أوريان، لا تغضبي فهنالك أناس يزعمون بأن السيد «سوان» هذا امرؤ لا يمكن استقباله في المنزل، فهل الأمر صحيح؟».

وأجابت أميرة «لوم» قائلة: «ولكن.. ينبغي أن تعلمي تمام العلم أن الأمر صحيح، بما أنك دعوته خمسين مرة ولم يجئ في يوم».

وتركت ابنة عمها مذلة وقهقهت من جديد قهقهة أثارت الذين كانوا يصغون إلى الموسيقى.

ولكنها لفتت انتباه السيدة «دو سانت أوفيرت» التي ظلّت من قبيل المجاملة قرب البيانو وشاهدت إذ ذاك فقط الأميرة. وزاد من فرحة السيدة «دو سانت أوفيرت» لمشاهدتها السيدة «دي لوم» أنها كانت لا تزال تحسبها في «غيرمانت» تعنى بوالد زوجها المريض.

- «كيف ذلك، أكنت ههنا أيتها الأميرة؟».

- «أجل، لقد أقمت في زاوية صغيرة وسمعت أشياء حلوة».

- «عجباً، إنك ههنا منذ فترة طويلة!».

- «أجل، منذ فترة طويلة جداً بدت لي قصيرة جداً؛ كانت طويلة لمجرد أني ما كنت أشاهدك».

وأرادت السيدة «دو سانت أوفيرت» أن تقدم مقعدها للأميرة التي أجابت بقولها:

- «لا، على الإطلاق. ولماذا؟ إني على ما يرام حيثما كنت!».

ثم قالت إذ لمحت عن قصد، كي تبرز على أحسن وجه بساطة السيدة الكبيرة لديها، مقعداً صغيراً بدون مسند:

- «إليك هذا الجلد المنفوخ مثلاً، فذلك كل ما يلزمني وسوف يضطرني إلى جلسة صحيحة. آه يا إلهي، ما زلت أثير الضجيج وسينتهرونني جهاراً».

وفي تلك الأثناء كان عازف البيانو يُضاعف سرعته ويبلغ الانفعال الموسيقي أشدّه، ويمر خادم بمرطبات على صينية ويخشخش بملاعق فيما تشير إليه السيدة «دو سانت أوفيرت»، شأنها في كل أسبوع، بالابتعاد دون أن يراها. وكان هنالك عروس شابة نقلوا إليها أن امرأة شابة ينبغي ألا تظهر مظهر اللامبالي فأخذت تبتسم مغتبطة وتبحث بعينيها عن ربة المنزل لتعرب لها بالنظرة عن شكرها لأنها «فكرت بها» لمثل هذه الوليمة. على أنها لم تكن تتابع المقطوعة دونما قلق على الرغم من أنها في ذلك أكثر هدوءاً من السيدة «دو فرانكيتو». ولكن موضوع قلقها بدلاً من أن يكون عازف البيانو، كان البيانو الذي ترتعش فوقه شمعة لدى كل عزف قوي فتوشك، إن هي لم تحرق عاكس النور، أن تلطخ على الأقل بالبقع خشب البيانو. ولم تتمالك نفسها في النهاية فصعدت درجتي المنصة التي وضع البيانو فوقها وسارعت لترفع الصحن الذي ثبتت فيه الشمعة. وما كادت يداها تقاربان لمسه حتى انتهت المقطوعة بنغمة أخيرة مؤتلفة ونهض عازف البيانو. ولكن مبادرة هذه المرأة الشابة الجريئة والاختلاط القصير الذي نجم عنها بينها وبين عازف الآلة خلفا أثراً مشجعاً بعامة.

وقال اللواء «دو فروبيرفيل» لأميرة «لوم» التي جاء يسلم عليها والتي تركتها السيدة «دو سانت أوفيرت» لحظة: «هل لاحظت ما فعلت هذه المرأة أيتها الأميرة؟ غريب! أو تكون فنانة؟».

وأجابت الأمير بلهجة طائشة: «لا، إنها سيدة صغيرة من آل «دو كامبرمير»، ثم أضافت بحماس: «إني أردد ما سمعته فليست لدي أية فكرة عمن تكون؛ لقد قيل خلفي إنهم جيران في الريف للسيدة «دو سانت أوفيرت»، ولكني لا أظن أن هنالك من يعرفهم. لا بدّ أنهم «جماعة ريف»! ولست أعلم على أية حال إن كانت علاقاتك واسعة جداً في المجتمع الراقي الموجود ههنا، أما أنا فلا فكرة لديّ عن أسماء جميع هؤلاء الأشخاص المدهشين. فبم تحسب أنهم يقضون حياتهم خارج أمسيات السيدة «دو سانت أوفيرت»؟ لا بدّ أنها أحضرتهم من الموسيقيين والكراسي والمرطبات. وعليك الإقرار بأن هؤلاء المدعوين المستقدمين من عند «بيللوار» رائعون. فهل تحالفها الشجاعة بالحقيقة في استئجار هؤلاء الممثلين الصامتين كل أسبوع؟ ذلك غير ممكن!».

وقال اللواء: «آه! ولكن «كامبرمير» اسم أصيل وقديم».

وأجابت الأمير بجفاء: «لست أجد سوءاً في أن يكون قديماً»، ولكنها أضافت: «ولكنه ليس حلو النغمة على أي حال» وهي تشدد على «حلو النغمة» كما لو وضعت العبارة بين مزدوجتين، والأمر تصنّع طفيف في الإلقاء تتميز به شلة آل «غيرمانت».

وقال اللواء الذي كان يلاحق السيدة «دو كامبرمير» بنظراته: «ترين ذلك؟ إنها جميلة حتى لتؤكل. ألست ترين هذا الرأي أيتها الأميرة؟».

وأجابت السيدة «دي لوم»: «إنها تبالغ في إبراز نفسها وأرى أن ذلك غير محبب لدى امرأة شابة إلى هذا الحد، فلست أحسب أنها من جيلي (والعبارة مشتركة بين آل «غالاردون» وآل «غيرمانت»).

ولكن الأميرة أضافت، حينما رأت أن السيد «دو فروبيرفيل» يوالي النظرة إلى السيّدة «دو كامبرمير»، أضافت قولاً يتنازعه الأذى في ما يخص

هذه الأخيرة والتودد في ما يخص اللواء: «ذلك غير محبب... بالنسبة إلى زوجها! وإني آسف لأنني لا أعرفها بما أنها عزيزة على قلبك، فقد كنت عرَّفتك بها»؛ قالت الأميرة ذلك ولعلها ما كانت على الأرجح تفعل منه شيئاً لو عرفت المرأة الشابة. «وأراني مضطرة أن أستودعك، فإن عيد صديقة لي لا بدّ لي من الذهاب لتهنئتها به»، تقول بلهجة متواضعة صادقة وهي تقلّص حجم الاجتماع الذي تذهب إليه إلى حفلة بسيطة مملة ولكن ارتيادها اضطراري ومؤثر. «وينبغي لي على أية حال أن ألقى «بازان» هنالك، وكان قد ذهب لزيارة أصدقائه الذين تعرفهم، فيما كنت أنا ههنا، وأحسب أنهم يحملون اسم أحد الجسور، إنهم آل «إيينا» (Iéna)».

وقال اللواء: «كان الاسم بادئ الأمر اسم أحد الانتصارات أيتها الأميرة». وأضاف وهو ينزع نظارته ليمسحها كما لو يبدل ضماداً، فيما تشيح الأميرة بعينيها تلقائياً: «ما عساك تبغين، إن نبلاء الإمبراطورية، بالنسبة إلى محارب قديم مثلي، أمر مختلف بالطبع، ولكنهم على ما هم عليه شيء جميل جداً في مجاله؛ إنهم قوم قاتلوا في نهاية المطاف كالأبطال».

وقالت الأميرة بلهجة تلونها السخرية: «ولكني شديدة الاحترام للأبطال: فإن لم أرافق «بازان» إلى منزل الأميرة «إيينا» فما ذاك لهذا السبب على الإطلاق، بل لمجرد أني لا أعرفهم. أما «بازان» فيعرفهم ويتعشقهم. لا! ليس الأمر ما قد يراود فكرك، ليس الأمر أمر غرام ولا يقع عليّ أن أعارضه! وأية فائدة على أية حال أن أقف في طريقه!» تضيف قائلة بصوت حزين لأن الجميع يعلمون أن أمير «لوم» لم يفتأ، من غداة اليوم الذي تزوج فيه ابنة عمه الرائعة، يخدعها. «ولكن الأمر غير ذلك، فإنهم قوم عرفهم فيما مضى وقد جعل فيهم أعمق حبه وأجد ذلك حسناً جداً. سأقول لك بادئ الأمر إن محض ما قاله لي عن منزلهم... تصور أن كل أثاثهم من طراز الإمبراطورية»!

- «بالطبع أيتها الأميرة، فذلك لأنه أثاث أجدادهم».

- «لست أعارضك في الأمر ولكن ذلك السبب لا يقلل من قباحته. إني أدرك تماماً أن لا يستطيع المرء اقتناء أشياء جميلة، ولكن لا يقتنين أشياء مضحكة. ما عساك تريد؟ إنه لا عهد لي بما هو أكثر سماجة وأكثر بورجوازية من هذا الطراز بخزائنه التي تحمل رؤوس طيور تَمَّ شبيهة بالمغاطس».

- «على أني ربّما اعتقدت أنهم يقتنون أشياء جميلة، فلا بدّ أنهم يملكون طاولة الفسيفساء الشهيرة التي وقعت عليها اتفاقية...».

- «أما أنهم يقتنون أشياء مهمة من الناحية التاريخية فلست أقول العكس. ولكنها لا يمكن أن تكون جميلة... بما أنها بشعة. وأنا أيضاً أملك أشياء من هذا القبيل ورثها «بازان» عن آل «مونتيسكيو»، ولكنها في مستودعات قصر «غيرمانت» حيث لا يراها أحد. وليست تلك المسألة على أية حال، فلعلي كنت أسارع إلى منزلهم مع «بازان»، ولعلي أبادر إلى زيارتهم حتى وسط تماثيل أبي الهول لديهم ووسط نحاسهم لو كنت أعرفهم، ولكني... لا أعرفهم!» ثم قالت وهي تتخذ لهجة طفولية: «لقد قِيل لي دوماً حينما كنت صغيرة إن ارتياد منازل من لا نعرفهم بعيد عن التهذيب». «إني أفعل إذاً ما تعلمت. أفترى هؤلاء الناس الطيبين لو أبصروا شخصاً يدخل ولا يعرفونه؟ لربما استقبلوني كأسوأ ما يكون!» تقول الأميرة.

وحسّنت عن دلع الابتسامةَ التي ينتزعها منها ذلك الافتراض بإكسابها مظهراً حالماً وحلواً لعينيها الزرقاوين الشاخصتين إلى اللواء.

- «آه! تعلمين أيتها الأميرة أنهم لن يتمالكوا أنفسهم من الفرح...».

- «لا! ولماذا؟» هكذا سألته بحيوية بالغة، إما كيلا تبدو وكأنها تعلم أن الأمر واقع لأنها واحدة من أعظم سيدات فرنسا، وإما لتستمتع بسماع اللواء يقول ذلك. «لماذا؟ وما يدريك؟ فربما كان ذلك من أكثر الأمور إزعاجاً. لست أدري، أنا، ولكني إن حكمت انطلاقاً من نفسي، فإن لقاء الأشخاص الذين أعرفهم يزعجني إلى حد بعيد، فلو انبغى، في اعتقادي،

أن ألتقي أناساً لا أعرفهم فسوف أجن ولو كانوا «أبطالاً». ولست أدري على أي حال إن كانت البطولة من قياس نقال جداً في العالم، إلا حينما يكون الأمر أمر أصدقاء قديمين مثلك يعرفون بدون بطولة. إنّه ليزعجني في الغالب أن أقيم حفلات العشاء، فإن انبغى أن يأخذ «سبارتاكوس» ذراعي ليقوم إلى الطاولة... لا، لن يقع اختياري بالحقيقة قطّ على «فيرسانجيتوريكس» ليكون الرابع عشر[1]، وأحس أنني إنما أحتفظ به للأمسيات الكبيرة؛ ولما كنت لا أقيم مثلها...».

- «آه! أيتها الأميرة، لستِ من آل «غيرمانت». فما أكثر ما تملكين من نباهة آل «غيرمانت»!

- «إنهم يقولون على الدوام: نباهة آل «غيرمانت»، ولم أستطع أن أدرك السبب في يوم. إنك تعرف إذن آخرين يتمتعون بها»، أضافت تقول في قهقهة مزبدة مهللة وقد تركّزت ملامح وجهها وتزاوجت في شبكة حيويتها وتألقت العينان وتوهجتا من جراء إشراقة فرح تستطيع وحدها أن تشيعها على هذا النحو الأقوالُ التي تشكل امتداحاً لنباهة عقلها أو لجمالها حتى ولو قالتها الأميرة نفسها. «انظر، إنه «سوان» يبدو وكأنه يحيي «كامبرمير»؛ هناك.. إنه بالقرب من العجوز «سانت أوفيرت»، أفما ترى! اسأله أن يقدمك لها. هيا أسرع فإنه يزمع أن يذهب!».

وقال اللواء: «هل لاحظت السحنة المخيفة التي يبدو بها؟».

- «آه! «ياشارل» العزيز! وأخيراً يقبل علينا؛ لقد أخذت أفترض أنه لا يودّ رؤيتي!».

كان «سوان» يحب أميرة «لوم» حباً جماً، ثم إن مشاهدتها تذكره بـ«غيرمانت»، وهي أرض بجوار «كومبريه»، وكل هذه المقاطعة التي يحبها كثيراً ولا يعود إليها من بعد لئلا يبتعد عن «أوديت». ولجأ إلى صيغ نصفها فن والنصف غزل يعلم أن الأميرة تغتبط بها وتعود إلى ذهنه عودة طبيعية

---

(١) لتجنّب العدد ١٣ على المائدة.

حينما ينغمس للحظة في بيئته القديمة - وهو يبتغي من جهة أخرى أن يعبر لنفسه عن الحنين الذي به إلى الريف - فقال كمن لا يخاطب أحداً لتسمعه في الآن نفسه السيّدة «دو سانت أوفيرت» التي يتحدث إليها والسيّدة «دي لوم» التي يتحدث من أجلها:

- «آه! إليكم الأميرة الرائعة! ها إنها جاءت خصيصاً من «غيرمانت» لتسمع مقطوعة «**القديس فرنسيس الأسيزي**» للموسيقار «ليست» ولم يتسع لها الوقت، كمثل قبّرة حلوة، إلا لتبادر إلى قطف بعض ثمار خوخ الطيور والزعرور لتضعها على رأسها. هنالك حتى بعض قطرات الندى وقليل من الصقيع الذي لا بدَّ أن يبعث تأوهات الدوقة. ذلك جميل جداً، يا أميرتي العزيزة».

وأطلقت السيدة «دو سانت أوفيرت»، وهي لم تألف بعد طريقة «سوان» في التفكير، صيحة ساذجة: «كيف، أو جاءت الأميرة خصيصاً من «غيرمانت»؟ ما كنت أعلم وأراني شديدة الخجل». وبعدما نظرت ملياً إلى شعر الأميرة: «صحيح، في ذلك تقليد... ما عسى أقول... لا للكستناء، لا! إنها فكرة رائعة! ولكن كيف استطاعت الأميرة أن تعرف برنامجي! فلم يبح به الموسيقيون حتى لي».

أما «سوان» الذي تعود ساعة يكون بالقرب من امرأة ظل يحتفظ معها بعادات تظرّف في الكلام أن يقول أشياء رقيقة لا يفهمها الكثير من أرباب المجتمعات فقد أنف أن يوضح للسيدة «دو سانت أوفيرت» أنه لم يتكلم إلا من باب المجاز. وأما الأميرة فقد انفجرت بالضحك لأن روح الفكاهة لدى «سوان» كانت مقدرة إلى أبعد حد ضمن شلته ولأنها إلى ذلك كانت لا تستطيع سماع مديح موجه إليها دون أن تجد فيه أرقّ أنواع الظرافة وغرابة مضحكة إلى حد لا يقاوم.

- «حسن! إني شديدة السرور يا «شارل» إن كانت ثمار الزعرور الصغيرة تعجبك. لماذا تحيي السيدة «كامبرمير» هذه، هل أنت أيضاً جارها في الريف؟».

وكانت السيّدة «دو سانت أوفيرت» قد ابتعدت إذ رأت أن الأميرة تبدو مسرورة لتحدثها إلى «سوان».

- «ولكنك أنت جارتها كذلك ايتها الأميرة».

- «أنا! إن لهؤلاء القوم إذاً أريافاً في كل مكان! ولكن كم أودّ أن أكون مكانهم!».

- «ليس القوم آل «كامبرمير»، بل ذووها هي، فإنها آنسة من آل «لوغراندان» كانت تأتي إلى «كومبريه». ولست أدري إن كنت تعلمين أنّك كونتيسة «كومبريه» وأن مجلس الكنيسة مدين لك بإتاوة؟».

- «لست أدري بما يدين لي مجلس الكنيسة، ولكني أعلم أن الخوري «يسحب» مني مئة فرنك في كل عام، الأمر الذي ربما كنت في غنى عنه».

وقالت ضاحكة: «على كل حال، لآل «كامبرمير» هؤلاء اسم مدهش جداً: إنه ينتهي في الوقت اللازم بالضبط، ولكن نهايته غير مستحبة».

وأجاب «سوان» قائلاً: «وليست البداية أفضل».

- «أجل هذا الاختصار المزدوج!...»[1].

- «إنه واحد من الناس كان شديد الغضب وشديد اللياقة فلم يجرؤ أن يمضي حتى آخر اللفظة الأولى».

- «على أنه خيراً كان فعل لو أتم اللفظة الأولى لينتهي منها بالمرة بما أنه لم يكن باستطاعته حجب نفسه عن مباشرة اللفظة الثانية». وأضافت بلهجة الدلع تقول: «ها إننا نمزج مزحات من ذوق بديع يا عزيزي «شارل»، ولكن ما أشد مللي لأني لا أراك فإني أعشق التحدث إليك.

---

(١) «كامبرمير Cambremer»: في الحوار مزاح حول هذا الاسم الذي يردّه المتحاوران إلى اللفظتين اللتين تؤلفانه؛ فلفظة Camre مأخوذة من اسم Cambronne، وهو أحد جنرالات نابوليون واشتهر بالإكثار من لفظة «طز» فغلب هذا المعنى على اسمه، ولفظة mer مأخوذة من Merde وتعني الغائط وتستخدم كما تستخدم اللفظة العربية المقابلة في مجال الشتيمة أو التأفف. والاختصار المشار إليه إنما يشير إلى اختصار اللفظين الذي يفضي إلى هذا الاسم الغريب.

فكّر أنني ما كنت حتى استطعت إفهام هذا الأبله المدعو «دو فروبرفيل» أن اسم «كامبرمير» مدهش. إعترفْ أن الحياة أمر مقرف، فلست أكف عن التضجر إلا حينما أراك».

وليس من شك أن ذلك لم يكن صحيحاً. ولكن «سوان» والأميرة كانا يملكان الطريقة نفسها في الحكم على الأشياء الصغيرة، الأمر الذي ينتج عنه - إن لم يكن يتسبب - تشابه كبير في طريقة التعبير وحتى في التلفظ. وما كان هذا التشابه يثير الانتباه لأنه ما من أمر كان أكثر اختلافاً من صوتيهما. فأما إذا استطاع المرء بالفكر أن ينزع عن أقوال «سوان» الرنين الذي يغلفها والشاربين اللذين تنطلق من بينهما تبيّن أنها الجمل نفسها والنبرات نفسها: إنها طريقة شلة آل «غيرمانت». أما في ما يخص الأمور المهمة فلم يكن لـ«سوان» وللأميرة الأفكار نفسها حول أي منها. إلا أن «سوان»، مذ أصبح حزيناً إلى هذا الحد وأخذ يحس على الدوام بهذا الضرب من الرعشة التي تسبق اللحظة التي يزمع فيها المرء أن يبكي، كانت به حاجة إلى التحدث عن الحزن كحاجة القاتل نفسها إلى التحدث عن جريمته. فإذ سمع الأميرة تقول له إن الحياة شيء رهيب أحس بالعذوبة نفسها كما لو حدثته عن «أوديت».

- «آه! أجل، إن الحياة شيء رهيب. لا بدَّ أن يرى أحدنا الآخر يا صديقتي العزيزة. اللطيف معك أنك لست مرحة، فلعلّنا نستطيع أن نقضي أمسية معاً».

- «ذلك ما أراه بالضبط، فلم لا تجيء إلى «غيرمانت»؟ سوف تجنّ زوجة عمي فرحاً. إن المكان قبيح جداً في نظر الناس، ولكني أقول لك إن تلك المنطقة لا تسوء في عيني، فإني أكره المناطق الرائعة».

وأجاب «سوان»: «إني أرى ذلك بالتمام؛ المنطقة رائعة، لقد جاوزت تقريباً حد الجمال والحيوية بالنسبة إليّ في هذه الفترة. إنها بلد خلق للإسعاد. ذلك ربما لأنني عشت فيه، ولكن الأشياء فيه شديدة الوقع عليّ، فما إن تهب نسمة هواء وتتحرك الأقماح حتى يخيل إليّ أن أحدهم

يزمع أن يصل وأنني على وشك أن أتلقى خبراً؛ وتلك البيوت الصغيرة على ضفاف الماء. . . سوف أكون شديد التعاسة!

- آه! احترس يا عزيزي «شارل»، فها قد رأتني المقيتة «رامبيون»، خبئني وذكرني بما حدث لها، فإني أخلط، لقد زوجت ابنتها أو عشيقها، لست أدري؛ ربما الاثنين، والواحدة للآخر!. . . لا! ها إني أتذكر، لقد طلقها زوجها الأمير. . . تظاهر بأنك تحدثني كيلا تجيء هذه «الخنساء» وتدعوني للعشاء. سأمضي على أية حال. فأصغ يا عزيزي «شارل»، ألا تريد، ما دمت قد رأيتك، أن تسمح لي باختطافك واصطحابك إلى منزل أميرة «بارم» التي ستسر كثيراً، وكذلك «بازان» الذي ينبغي أن يلحق بي إلى هناك. ولو لم تصلنا أخبارك على يد «ميميه». . . تصور أنني لم أعد أراك!».

ورفض «سوان». ذلك أنه أعلم السيد حتى «دو شارلوس» أنه سوف يعود مباشرة إلى منزله لدى مغادرته منزل السيّدة «دو سانت أوفيرت»، فلم يعد يهتم في ذهابه لدى أميرة «بارم» أن يخاطر بتفويت «كلمة» داخَله الأملُ طوال الوقت أن يرى خادماً يسلمه إياها في أثناء السهرة وهو ربما سيلقاها لدى بوابه. وقالت السيّدة «دي لوم» لزوجها في ذلك المساء: «مسكين «سوان»، إنه لطيف على الدوام، ولكنه يبدو شديد التعاسة. سوف تراه، فلقد وعد أن يجيء للعشاء ذات يوم. إني أرى من السخرية أن يتعذب رجل في ذكائه في سبيل امرأة من هذا الصنف، فهي حتى لا تثير الاهتمام إذ يقولون إنها بلهاء»، تضيف برصانةِ الناس غير العاشقين الذين يرون أن الرجل الذكي ينبغي له أن لا يكون تعيساً إلا من جراء شخص يستحق ذلك، والأمر يماثل على وجه التقريب أن يسلّم المرء بالإصابة بمرض الكوليرا الناجم عن كائن في مثل ضآلة عصيّة هذا المرض.

كان «سوان» يريد الذهاب، ولكن اللواء «دو فروبيرفيل» طلب منه، في اللحظة التي أوشك الإفلات فيها، التعرّف بالسيّدة «دو كامبرمير» فاضطر أن يعود معه إلى الصالة للبحث عنها.

- «ألا قل لي يا «سوان»، إني أفضل أن أكون زوج هذه المرأة على أن يذبحني المتوحشون، فما قولك أنت؟».

وكان أن حزت هذه الكلمات «أن يذبحني المتوحشون» في فؤاد «سوان» فشعر في الحال بحاجة إلى متابعة الحديث مع اللواء وقال له:

- «هنالك الكثير من النفوس الطيبة التي قضت بهذه الطريقة... فتلك كانت حال... ذلك البحار، كما تعلم، الذي أعاد جثمانه «ديمون دورفيل»، وكان يدعى «لابيروز»... (وتملكت «سوان» السعادة كما لو تحدث عن «أوديت»). وأضاف بهيئة حزينة: «أكرم به من طبع، طبع «لابيروز» وإني أهتم به كثيراً».

وقال اللواء: «بالضبط، «لابيروز»، إنه اسم معروف وله شارعه».

وسأل «سوان» بهيئة مضطربة: «أو تعرف أحداً في شارع «لابيروز»؟».

- «لست أعرف سوى السيدة «دو شانليفو» شقيقة هذا الرجل الطيب المدعو «شوسبيير»، فقد قدمت لنا أمسية قيمة من المسرح الهزلي ذلك اليوم. ولسوف يصبح ذلك المنتدى أنيقاً جداً ذات يوم، كما سترى!».

- «آه! إنها تسكن في شارع «لابيروز». ذلك أمر محبب، فالشارع جميل وشديد الكآبة».

- «لا! ذلك أنك لم ترتده منذ بعض الوقت، فليس كئيباً من بعد، لقد بوشر ببناء هذا الحي بكامله».

وحينما قَدّم «سوان» في نهاية الأمر السيد «دو فروبيرفيل» إلى السيّدة الشابة «دو كامبرمير»، ولما كانت تسمع للمرة الأولى اسم اللواء، فقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة الفرح والدهشة التي ربما علتهما لو لم ينطقوا قط أمامها بغير ذلك الاسم. فقد كانت تظن، إذ هي لا تعرف أصدقاء عائلتها الجديدة، إزاء كل شخص يأتونها به، أنه واحد منهم وتحسب أنها تبرهن على حسن ذوق حينما تبدو وكأنها سمعت عنه الكثير منذ أن تزوجت فتمد يدها بهيئة مترددة ترمي إلى إبراز التأدب الملقن الذي ينبغي

لها التغلب عليه والعاطفة التلقائية التي تفلح في التغلب عليها. كان والدا زوجها، ولا تزال تحسبهما من ألمع الناس في فرنسا، يعلنان لذلك أنها مَلاك، ولا سيما أنهما يفضلان الظهور، في تزويجها لابنهما، مظهر من انقاد لجاذب صفاتها أكثر منه لثروتها الطائلة.

وقال لها اللواء: «واضح أنك موسيقية في قرارة نفسك يا سيدتي»، وهو يشير على نحو لا شعوري إلى حادثة الشمعة.

ولكن الموسيقى عادت من جديد وأدرك «سوان» أنه لن يستطيع الذهاب قبل نهاية هذا الدور الجديد من البرنامج. وكان يتألم أن يظل سجيناً بين هؤلاء الناس الذين تؤثر فيه بلاهتهم ومواطن الهزء فيهم على نحو يزيده ألماً بقدر ما يجهلون حبه، وهم عاجزون لو عرفوه عن أن يهتموا به وأن يقوموا بغير التبسم وكأنما من عمل صبياني أو الرثاء له وكأنما هو جنون، فيظهرونه له في صورة حالة ذاتية لا وجود لها إلا بالنسبة إليه ولا شيء في الخارج يؤكد حقيقتها. كان يتألم على وجه الخصوص حتى ليخلف فيه رنين الآلات الرغبة في الصراخ لأنه يطوّل منفاه في هذا المكان الذي لن ترتاده «أوديت» في يوم وحيث لا أحد، حيث لا شيء يعرفها، وهي غائبة عنه تماماً.

إلا أنّه بدا له فجأة كما لو أنّها دخلت وكان أن خلّف فيه هذا التخيّل عذاباً أليماً إلى حدّ اضطرّ معه أن يضع يده على قلبه. ذلك أن الكمان ارتفع إلى نغمات عالية مكث فيها وكأنّما في انتظار، في انتظار يتطاول دون أن ينفكّ يمسك بها هناك في الحماسة التي به أن يرى موضوع انتظاره يقترب وأن يستقبله، وهو يبذل جهوداً يائسة يحاول بها الدوام حتى وصوله، قبل أن يلفظ أنفاسه، وأن يبقي له بكلّ ما تبقى من قواه الدرب مفتوحاً كي يستطيع المرور، مثلما تسند باباً إنّما يعود فيسقط لولا ذاك. وقبل أن يتاح الوقت لِـ«سوان» أن يفهم وأن يقول في نفسه: هذه الجملة الصغيرة في سوناتا «فانتوي» فلا تسمعنّها!» استفاقت جميع ذكرياته عن الزمن الذي كانت فيه «أوديت» تهيم بحبّه وقد غرّتها هذه الومضة المفاجئة

لزمن الحبّ الذي حسبته يعود فتصاعدت إليه سريعة الجناح تشدو له ولهانة ودونما إشفاق على سوء حظه الراهن أغنيات السعادة المنسيّة، ذكرياته تلك التي أفلح حتى ذاك النهار في استبقائها خفيّة في أعماق ذاته.

فعوضاً عن العبارات المجرّدة من مثل «الزمن الذي كنت فيه سعيداً» و«الزمن الذي كنت فيه محبوباً» التي غالباً ما نطق بها حتى ذاك ودونما فرط عذاب لأنّ عقله لم يخبّئ فيها من الماضي سوى خلاصات مزعومة لا تحتفظ بشيء منه، عاد فلقي كل ما سبق أن ثبّت على الدوام الجوهر النوعي والمتطاير لتلك السعادة المفقودة. لقد عاد فرأى كل شيء، رأى تويجيات الأقحوان البيضاء الجعدة التي ألقتها في عربته والتي احتفظ بها يشدّها إلى شفتيه - والعنوان البارز لِ«الدار الذهبيّة» على الرسالة التي قرأ فيها «إن يدي ترتجف بشدة حينما أكتب إليك» - وتَقارُب حاجبيها حينما قالت له بلهجة المتوسّل: «ألن أنتظر طويلاً حتى آخذ إشارة منك؟»؛ وأحسّ برائحة مكواة الحلّاق التي كان يرفع بها شعره القصير فيما يذهب «لوريدان» ليجيئه بالعاملة الصغيرة، وبالأمطار العاصفة التي غالباً ما هطلت في ذلك الربيع، والعودة الباردة في عربته المكشوفة تحت ضياء القمر، وجميع حلقات العادات الذهنية والانطباعات الموسميّة وردود الفعل الجلديّة التي مدّت على مدى أسابيع متوالية شبكة من نسق واحد وقع جسمه في حبالها. لقد كان يُشْبِع في ذلك الوقت فضولاً شهوانيّاً في التعرّف إلى متع الناس الذين يحيون بالحبّ، وحسب أنّه يستطيع الاكتفاء بذلك وأنّه لن يضطّر إلى معرفة آلامه؛ وما أقلّ سحر «أوديت» بالنسبة إليه الآن في مقابل هذا الذعر المخيف الذي يمتدّ من حوله كهالة غامضة وهذا القلق اللامحدود لأنّه لا يعلم في كل لحظة ما الذي فعلته ولأنّه لا يمتلكها على الدوام وفي كل مكان! لقد تذكّر، واأسفاه، النبرة التي صاحت بها: «ولكنّي أستطيع على الدوام أن أراك، فإنيّ حرّة على الدوام من أيّ قيد!» هي التي لم تعد حرّة في يوم! والاهتمام والفضول اللذين أبدتهما إزاء حياته الخاصّة، والرغبة العنيفة في أن يمنّ عليها بإذن الدخول فيها - الأمر

الذي كان هو يخشاه على العكس في ذلك الوقت بوصفه سبباً لتبدّل في العادات مزعج -؛ وكيف اضطرَّت أن تتوسّل إليه كي يقبل بالذهاب إلى منزل أسرة «الفيردوران» وكيف انبغى لها، حينما كان يجيء بها إلى بيته مرّة في الشهر، أن تردّد أمامه، قبلما يرتضي أن يلين، مدى ما ستسفر عنه لقاءاتهما كلّ يوم من لذّة كانت تحلم بها، في حين لا تبدو له سوى إزعاج مملّ، ثم أخذت تمقتها وقطعتها نهائياً في حين أضحت بالنسبة إليه حاجة مؤلمة جداً ولا يمكن مقاومتها. ولم يكن يعلم أنّه يقول الصحيح حينما أجابها في المرّة الثالثة التي لقيها فيها، إذ كانت تعيد عليه قولها: «ولكن لِمَ لا تدعني أجيء أكثر من ذلك؟»، أجابها ضاحكاً متظرّفاً: «مخافة أن أتعذّب». والآن لا يزال يتفق لها أحياناً، واأسفي، أن تكتب إليه من مطعم أو فندق على ورق يحمل اسمهما مطبوعاً، بيد أنها كانت رسائل كأنّما من نار تحرقه. «لقد كُتبت من فندق «فويمون»؟ فما عساها ذهبت تفعل هناك؟ وبصحبة من؟ وما الذي جرى هناك؟» وتذكّر مصابيح الغاز التي كانوا يطفئونها في شارع «الإيطاليين» حينما التقى بها خلافاً لكلّ أمل بين الأشباح الهائمة في تلك الليلة التي بدت له خارقة تقريباً - ليلة من عهد لم يكن يقع عليه حتى أن يتساءل إن لم يكن يغضبها في البحث عنها وملاقاتها لشدّة يقينه بأن ليس لديها غبطة أعظم من أن تراه وتعود معه - ليلة هي بالتأكيد من عالم خفيّ لا يمكن للمرء أن يعود إليه البتّة بعدما تُطْبَقُ أبوابه. ولاح لِ«سوان» رجل تعيس لا يبدي حراكاً أمام هذه السعادة المعادة فأثار شفقته لأنه لم يعرفه في الحال حتى إنه اضطرّ أن يخفض عينيه كي لا يبصر أحد أنهما تفيضان بالدمع. وكان هو نفسه.

وحينما أدرك ذلك توقّفت شفقته ولكنّما أخذته الغيرة من شخصه الآخر الذي أحبّته ومن أولئك الذين غالباً ما أسرّ لذاته عنهم دون أن يحسّ بعذاب زائد «ربّما هي تحبّهم»، الآن وقد استبدل بفكرة الحبّ الغامضة التي لا حبّ فيها تويجيات الأقحوان وعنوان «البيت الذهبي» وهي زاخرة به. ولما أضحى عذابه شديداً جدّاً أمرّ يده على جبينه وترك

نظّارته تهوي ومسح زجاجها. ولو رأى نفسه في تلك اللحظة لأضاف دونما شكّ إلى مجموعة النظّارات التي سبق أن لاحظها النظّارة التي كان يحرّكها كفكرة مزعجة ويحاول أن يزيل هموماً عن صفحتها المغشّاة بوساطة منديل.

إن في الكمان - إذا لم تبصر الآلة فلا تستطيع أن تردّ ما تسمعه إلى صورتها التي تبدّل من رنّته - نبرات تشبه إلى حدّ بعيد بعض أصوات الكونترالتو[١] حتى ليخيّل للمرء أن مغنّية قد انضافت إلى المجموعة الموسيقية. ويرفع المرء عينيه فلا يبصر سوى بيوت الآلات، وهي فاخرة كالعلب الصينيّة، إلا أنّه يضلّله بين الحين والحين نداء جنيّة البحر المخيّب للآمال. ويخيّل لك أحياناً أنكّ تسمع جنيّاً أسيراً يتخبّط في أسفل العلبة العليمة المسحورة المرتعشة تخبّط شيطان في جرن ماء مقدّس. وأحياناً يبدو كأنّما هنالك في الهواء كائن خارق الطبيعة وطاهر يمرّ وهو ينشر رسالته الخفيّة.

وكما لو أن العازفين يقومون بالطقوس المطلوبة كيما تظهر الجملة الصغيرة أكثر ممّا يؤدّونها ويبادرون إلى التعاويذ اللازمة للحصول على أعجوبة استذكارها وتطويلها بضعة لحظات، شعر «سوان»، الذي لم يكن يستطيع رؤيتها أكثر ممّا لو كانت من عالم فوق البنفسجي، والذي كان يتذوّق ما يشبه رطوبة التحوّل في العمى المؤقت الذي يصيبه في اقترابه منها، شعر «سوان» أنّها حاضرة كإلهة حامية لحبه حافظة لسرّه تنكّرت في هذا المظهر الرنّان لتتمكّن من الوصول إليه أمام الجمهور وتنتحي به ناحية لتحدثّه. وفيما هي تمرّ خفيفة مهدّئة مهموساً بها كمثل عطر، تقول له ما كان عليها أن تقله له وما كان ينعم النظر في جميع كلماته وبه أسف أن يراها تتلاشى بسرعة، كان يحرّك شفتيه على نحو لا إرادي ليقبّل الجسم المتناسق المتهرّب ساعة يمرّ به. ولا يشعر من بعد أنه منفيّ وحيد لأنّها إذ

(١) الصوت الذي هو دون الحاد (السوبرانو) لدى المغنيات.

كانت تتوجّه بالحديث إليه إنّما كانت تحدّثه بصوت خفيض عن «أوديت». ذلك أنّه لم يعد به انطباع، شأنه بالأمس، بأنّه و«أوديت» غير معروفين لدى الجملة الصغيرة، فما أكثر ما كانت شاهداً على مسرّاتهما! صحيح أنّها غالباً ما نبّهته كذلك إلى هشاشتها. وفيما كان يستشفّ الألم في ابتسامتها في ذلك الوقت وفي نبرتها الصافية المخيّبة، فإنّه يجد فيها اليوم بالأحرى منّة التسليم الذي يقارب الفرح. وكانت تبدو وكأنّها تقول له عن هذه الأحزان التي كانت تحدّثه عنها فيما مضى والتي كان يراها تجرفها، دون أن تصيبه، في مجراها المتعرّج السريع، عن هذه الأحزان التي أضحت الآن أحزانه دون أن يكون به أمل في الخلاص منها في يوم، مثلما تقول له بالأمس عن سعادته: «ما عسى يكون ذلك؟ كلّه لا شيء». واتّجه فكر «سوان» للمرّة الأولى في اندفاعة إشفاق ومودّة إزاء «فانتوي» هذا، إزاء هذا الأخ المجهول النبيل الذي لا بدَّ أنّه تعذّب كثيراً؛ فما عساها كانت حياته؟ ومن أعماق أيّة آلام استقى هذه القوّة الإلهيّة وهذه القدرة التي لا تحدّ على الإبداع؟ وحينما كانت الجملة الصغيرة هي التي تحدّثه عن بطلان آلامه، كان «سوان» يلقى عذوبة في هذه الحكمة نفسها التي بدت له لا تطاق منذ هنيهة حينما كان يخيّل إليه أنّه يقرأها على وجوه اللامبالين الذين يحتسبون حبّه بمثابة هذيان لا أهميّة له. ذلك أن الجملة الصغيرة كانت ترى فيه على العكس، وأيّاً كان رأيها حول عمر هذه الحالات النفسيّة القصير، شيئاً لا يقلّ جديّة عن الحياة الموضوعية كما يفعل جميع هؤلاء الناس، بل شيئاً على العكس يفوقها بكثير حتى ليستحقّ وحده أن يتمّ التعبير عنه. وإنّما سحر الحزن الدفين ما كانت تحاول أن تقلّده وتعيد خلقه، وحتى جوهره، وهو الذي يعني امتناع نقله وظهوره بمظهر الخفّة في نظر جميع من لم يكابدوه، حتى ذلك الجوهر أمسكت به الجملة الصغيرة وجعلته مرئياً. وقد حملت بذلك جميع هؤلاء الحضور أنفسهم على أن يقرّوا بثمن ذلك السحر ويتذوّقوا عذوبته الإلهيّة - لو اتّفق لهم أن يكونوا موسيقيّين إلى حدّ قليل - في كلّ حبّ خاصّ سيشهدون

ميلاده بالقرب منهم، مع أنّهم سيتجاهلون ذلك الثمن وتلك العذوبة بعد ذلك في الحياة. ولا ريب أن الصيغة التي دوّنتها بها ما كان يمكن حلّها على هيئة محاكمات عقليّة. بيد أن «سوان»، منذ أن أخذ حبّ الموسيقى يولد لزمن يسير على الأقل في نفسه إذ يكشف له قبل نيّف وعام عن ثروات جمّة في ذاته، كان يعتبر الموضوعات الموسيقيّة بمثابة أفكار حقيقيّة من عالم آخر وطراز آخر، أفكار يغلّفها الظلام مجهولة لا ينفذ إليها العقل ولكنّها لا تقلّ لذلك تميّزاً فيما بينها ولا تتساوى في القيمة والدلالة. وحينما طلب أن تعزف له الجملة الصغيرة بعد أمسية آل «فيردوران» وحاول أن يستشف كيف أنّها كانت تدور من حوله وتلفّه مثلما يفعل العطر والمداعبة الرقيقة، تبيّن أن ذلك الانطباع بعذوبة متقلّصة مرتعشة إنّما مردّه الفارق الهيّن بين النوطات الخمس التي تؤلّفها وفي العودة المستمرّة لاثنتين منها. ولكنّه كان يعلم في الواقع أنّه يفكّر على هذا النحو لا بالجملة نفسها، بل بمحض قيم حلّت لسهولة إدراكه محلّ الكيان الخفيّ الذي تبيّنه قبل أن يتعرّف بآل «فيردوران» في تلك الأمسية التي سمع فيها للمرّة الأولى السوناتا. وكان يعلم أنّ تَذكّر البيانو ذاته يفسد المستوى الذي يرى فيه أمور الموسيقى وأن الحقل الذي ينفتح أمام الموسيقيّ ليس مدى فقيراً من سبع نوطات، بل مدى لا حدود له لا يزال كلّه مجهولاً بوجه التقريب وحيث اكتُشِفَ ههنا وهناك بعض يسير من ملايين مضارب الحنان والهوى والشجاعة والسكينة التي تفصل ما بينها ظلمات كثيفة لم تستكشف وكل واحدة تغاير الأخريات مثلما يختلف عالم عن عالم آخر غيره، اكتشف على يد بعض الفنانين العظام الذين يفيدوننا بأن يوقظوا فينا ما يقابل الموضوع الذي عثروا عليه فيكشفون لنا أيّة ثروة وأي تنوّع يخفيهما على غير علم منّا ذلك الظلام الواسع في نفسنا الذي يصعب النفاذ إليه ويبعث على القنوط ونظنّه فراغاً وعدماً. لقد كان «فانتوي» أحد هؤلاء الموسيقيين. فقد كنت تشعر في جملته الصغيرة، مع أنّها تقدّم للعقل مساحة مظلمة، مضموناً متماسكاً وجليّاً إلى حدّ بعيد تزوّده بقوّة جديدة

وطريفة لدرجة أن الذين سمعوها كانوا يحفظونها في صدورهم إلى جانب الأفكار وليدة العقل سواء بسواء. وكان «سوان» يعود إليها وكأنّما إلى مفهوم للحبّ والسعادة يدرك في الحال مواطن التفرّد فيه مثلما يدرك ذلك في روايتي «**أميرة كليف**» و«**رونيه**»[١] حينما يحضره اسمهما. حتى حينما لم يكن يفكّر بالجملة الصغيرة فقد كانت تقيم خفيّة في خاطره شأنها في ذلك شأن بعض الأفكار الأخرى التي لا مقابل لها كفكرة النور والصوت والارتفاع واللذة الجسديّة، وهي الممتلكات الثريّة التي تتنوّع بها أملاكنا الداخليّة وتزدان. ربّما فقدناها وربّما زالت إذا ما عدنا إلى العدم. ولكننا لا نستطيع ما دمنا على قيد الحياة أن نفعل في سبيل ألا نكون عرفناها أكثر ممّا يتيّسر لنا ذلك في أيّ غرض حقيقيّ، أكثر مما نستطيع الارتياب مثلاً بأمر المصباح الذي نضيئه أمام الأغراض التي تنقلب من حال إلى حال في غرفتنا التي هرب منها الظلام حتى ذكراه. بذلك كانت جملة «فانتوي» قد اتّحدت تماماً بشرطنا كبشر فانين واتّخذت شيئاً من الإنسانيّة يؤثّر في النفس إلى حدّ ما، كمثل هذه الفكرة أو تلك في «**تريستان**» مثلاً التي تشكّل لنا كذلك مكتسباً ما عاطفياً. لقد أضحى مصيرها مرتبطاً بالمستقبل وبحقيقة نفسنا وقد أصبحت إحدى زيناتها الأكثر تفرّداً والأكثر تميّزاً. وربّما كان العدم هو الصحيح وكان كامل حلمنا فاقد الوجود، إلّا أنّنا نشعر أنّه لا بدّ والحالة هذه أن تكون تلك الجملة الموسيقيّة، تلك الأفكار الموجودة بالنسبة إليه، لا شيء هي الأخرى. سوف نزول ولكنّ لدينا هذه الأسيرات الإلهيّة بمثابة رهائن تسير على إثر حظّنا، وإنّما الموت معها أمر أقلّ مرارة وأقلّ بعداً عن المجد وربّما أقلّ احتمالاً.

فلم يكن «سوان» إذن على ضلال في اعتقاده بأن جملة السوناتا موجودة بالحقيقة. ولئن كانت إنسانية من وجهة النظر هذه، فقد كانت

---

(١) *La princesse de Clèves* للكاتبة «مدام دو لافييت» (القرن السابع عشر) و*René* للكاتب «شاتوبريان» (القرن التاسع عشر).

تنتمي مع ذلك إلى صنف من المخلوقات الخارقة التي لم نشاهدها في يوم ولكنّنا نتعرّفها على الرغم من هذا كلّه بغبطة شديدة حينما يتمكّن أحد مكتشفي عالم اللامرئي أن يقبض على واحدة منها ويجيء بها من العالم الإلهي الذي انفتحت له أبوابه لتتألّق على مدى لحظات فوق عالمنا. ذلك ما فعله «فانتوي» بشأن الجملة الصغيرة. وكان «سوان» يحسّ بأنّ المؤلف اكتفى بآلاته الموسيقيّة بكشفها وجعلها مرئية ومتابعة خطوطها واحترامها بيد رفيقة حذرة ناعمة واثقة حتى إنّ النغمة كانت تتبدل في كلّ لحظة فتتلاشى للتدليل على الظلال ويعاودها النشاط حينما ينبغي لها الانطلاق على إثر تعرّجات جريئة. والبرهان على أن «سوان» لم يكن على ضلال حينما يعتقد بوجود هذه الجملة الحقيقي أنّ كلّ هاوٍ على شيء من رهافة الذوق كان سيتبيّن في الحال كذبها لو اتّفق لِ«فانتوي» زخم أقلّ في تبيّن أشكالها وتصويرها فأضاف ههنا وهناك خطوطاً من عنده يحاول أن يستر بها ثغرات رؤيته أو عجزيده.

لقد اختفت، ولكن «سوان» يعلم أنّها ستعاود الظهور في نهاية الحركة الأخيرة بعد مقطوعة طويلة كان عازف البيانو لدى السيّدة «فيردوران» يتجاوزها على الدوام. كان هناك فكر رائعة لم يسبق لِ«سوان» أن ميّزها في العزف الأول وأخذ يتبيّنها الآن وكأنّما نزعت عنها في مشلح الذاكرة الجدّةَ المتمثلة في لباسها التنكّري. كان «سوان» يصغي إلى جميع الأفكار المتناثرة التي ستدخل في تركيب الجملة كمثل المقدّمات في النتيجة الحتميّة، كان يشهد ميلادها، ويقول في نفسه: «يا جرأة ربّما كانت في مثل نبوغ جرأة «لافوازييه» و«أمبير»، جرأة «فانتوي» يجرّب القوانين الخفيّة لقوّة مجهولة ويكتشفها ويقود عبر اللامكتشف باتّجاه الهدف الوحيد الممكن العربةَ اللامرئية التي منحها ثقته ولن يراها في يوم!» ويا للحوار الجميل الذي سمعه «سوان» يجري بين الكمان والبيانو في أوّل المقطوعة الأخيرة! فحذف الكلمات البشرية عوضاً عن أن يشيع فيه غرابة التركيب مثلما كان ذلك متوقّعاً قد أقصاها عنه. فلم تكن لغة الحديث في يوم

ضرورة صارمة إلى هذا الحدّ وما عرفت إلى هذا الحدّ سداد الأسئلة ووضوح الأجوبة. ففي البدء تأوّه البيانو وحيداً كطائر هجرته رفيقة حياته؛ وسمعه الكمان فأجاب كأنّما من شجرة مجاورة. كأنّما كان ذلك في بدء الخليقة، كأنْ ليس بعد سواهما على الأرض أو بالأحرى في هذا العالم المغلق في وجه كلّ ما عداهما والذي بناه منطق خالق مبدع ولن يكونا قطّ فيه إلّا اثنين: عنينا تلك السوناتا. فهل كان طائراً، أم هو روح الجملة الصغيرة لم تكتمل بعد، أم هو جنيّة ذلك الكائن اللامرئي المتأوّه الذي كان البيانو يعيد فيما بعد بحنان أنينه؟ كانت صرخاته مفاجئة إلى حدّ يضطّر معه عازف الكمان إلى المبادرة إلى قوسه ليجمعها. ما أبدعه من طائر! لقد بدا عازف الكمان وكأنّه يبغي أن يفتنه ويجعله أليفاً ويأسره. لقد عَبَر مسالك روحه، والجملة الصغيرة المستذكَرة أخذت تهزّ جسد عازف الكمان المسكون حقّاً كما يتمّ لأحد الوسطاء. كان «سوان» يعلم أنّها سوف تتكلّم مرّة أخرى. وكان شخصه قد بلغ من الازدواج حدّاً هزّه معه انتظار اللحظة الوشيكة التي سيجد نفسه فيها بمواجهتها بزفرة من تلك التي يبعثها فينا بيت شعر جميل أو خبر مشؤوم، لا ساعة نكون وحدنا، بل حينما ننقلهما إلى أصدقاء نبصر ذواتنا فيهم بمثابة رجل آخر يؤثر فيه انفعاله المتوقّع. ولاحت من جديد ولكن لتتعلّق في الهواء وتلهو مجرّد لحظة وكأنّها لا حراك بها لتلفظ أنفاسها بعد ذلك. وكان «سوان» لا يضيّع لذلك شيئاً من الوقت القصير جدّاً الذي تردّد فيه. كانت لا تزال هناك، كمثل فقاعة بألوان قوس قزح. وكمثل قوس قزح يضعف ألقه ويتناقص ثم يعود فيشتدّ ويزداد قوة، قبلما يتلاشى، كما لم يفعل من قبل، هكذا أضافت إلى اللونين اللذين أبرزتهما حتى ذاك أوتاراً أخرى مختلفة الألوان، ألوان الموشور جميعها، وجعلتها كلّها تشدو. وكان «سوان» لا يجرؤ على الحركة وودّ لو يهدأ كذلك جميع الناس الآخرين كما لو استطاعت أقلّ حركة أن تعرّض للخطر الروعة الخارقة واللذيذة والهشّة التي شارفت على الزوال. وما كان أحد يفكّر بالحقيقة في التكلّم، فالكلام

الممتنع على القول والذي يجود به غائب بمفرده بل ميت ربّما (إذ لا يعلم «سوان» إن كان «فانتوي» لا يزال على قيد الحياة)، كان كافياً في انتشاره فوق طقوس هؤلاء المحتفلين لأن يقهر انتباه ثلاثة مئة شخص وجعل من تلك المنصة التي تُسْتَذْكر روح فوقها على هذا النحو أحد أسمى المذابح التي يمكن أن يجري فوقها احتفال خارق. حتى إنّ «سوان» لم يستطع، حينما تفكّكت الجملة في النهاية وراحت تخفق مزقاً عبر الفِكَر التالية التي سارعت تحلّ محلّها، وإن هو داخله الحنق للوهلة الأولى أن يرى الكونتيسّة «مونترياندير» المشهورة بأصوالها الصبيانيّة تميل عليه لتسرّ إليه بانطباعاتها حتى قبلما تنتهي السوناتا، لم يستطع أن يحجب نفسه عن الابتسام وربّما عن أن يعثر في الكلمات التي استخدمتها عن معنى عميق لا تبصره فيها. فقد صاحت الكونتيسّة، التي فتنتها براعة العازفين، تتوجّه بالحديث إلى «سوان» «ذلك شيء خارق، وإنّي لم أشهد ما كان بمثل هذه القوّة...» ولكنّها أضافت تحفّظها وقد حملها ميل شديد إلى الدقّة على تصحيح هذا الادّعاء الأوّل: «لم أشهد ما كان بمثل هذه القوّة... مذ رأيت الطاولات الدوّارة!».

منذ تلك الأمسية أدرك «سوان» أن العاطفة التي عمرت صدر «أوديت» نحوه لن تعود البتّة وأن آماله في السعادة لن تتحقّق من بعد. وكان في الأيام التي ظلّت فيها لطيفة ورقيقة معه وإن بدرت منها التفاتة ما إليه يدوّن هذه العلامات الظاهرة الكاذبة لعودة طفيفة إليه بهذه العناية المشفقة المرتابة، بهذا الفرح اليائس، فرح الذين يهتمون بصديق بلغ آخر مراحل مرض غير قابل للشفاء فيروون بمثابة وقائع قيّمة: «البارحة أتمّ حساباته بنفسه وهو الذي لاحظ خطأ في الجمع كنّا وقعنا فيه؛ لقد أكل بيضة وهو بادي السرور، فإن أحسن هضمها جرّبنا ضلع «خروف» في الغد»، مع أنّهم يعلمون أنّها خالية من الدلالة عشيّة موت لا مفر منه. ولا ريب أنّ «سوان» كان متأكّداً أنّه لو عاش الآن بعيداً عن «أوديت» لأصبحت في النهاية غير ذات شأن بالنسبة إليه، ولعلّه لذلك كان سُرَّ لو

أنّها غادرت باريس إلى غير رجعة، ولكانت حالفته جرأة البقاء، ولكنّه ما كان يملك جرأة الرحيل.

وغالباً ما راودته فكرته. ولعلّه كان بحاجة، الآن وقد عاد إلى دراسة «فيرمير»، أن يرجع بضعة أيّام على الأقل إلى «لاهاي» و«دريسدن» و«برونزويك». فقد كان متيقّناً أن لوحة «**مُغْتَسَل ديانا**» التي ابتاعها متحف «ماوريتزهويس» في مزاد «غولدشميت» على أنّها من أعمال «نقولاس ماس» (Nicolas Maes) كانت بالحقيقة من أعمال «فيرمير». وكان بودّه أن يستطيع دراسة اللوحة في مكانها ليدعم يقينه. ولكنّ مغادرة باريس و«أوديت» موجودة فيها، وحتى وهي غائبة عنها - لأنّ المرء إنّما يجدّد الألم وينشّطه في الأماكن التي لم تخفّف العادة فيها من حدّة الأحاسيس - كانت بالنسبة إليه مشروعاً قاسياً حتى إنّه ما كان يشعر أنّه قادر على التفكير به دون انقطاع إلا لأنّه يعلم عزمه أن لا يحقّقه في يوم. إلا أنّه كان يتّفق أن تعود إليه في نومه نيّة السفر - ودون أن يذكر أن ذلك السفر مستحيل - وتتحقق فيه. فقد وافاه في الحلم ذات يوم أنّه راحل لمدّة سنة. كان «سوان» على باب عربة القطار ينحني صوب شاب يودّعه على الرصيف وهو يبكي، ويحاول إقناعه بالرحيل معه. وإذ تحرّك القطار أيقظه القلق وتذكّر أنّه غير راحل وأنّه سوف يرى «أوديت» ذلك المساء وفي الغد وفي كل يوم تقريباً. حينئذ بارك الظروف الخاصّة، وهو لا يزال منفعلاً من جرّاء حلمه، الظروف التي يستطيع بفضلها أن يظلّ بالقرب من «أوديت» وأن يفلح في حملها على السماح له برؤيتها أحياناً. وإذ راجع جميع هذه المزايا: مكانته - وثروته التي غالباً ما كانت بأمسّ الحاجة إليها كي لا تتراجع أمام فكرة القطيعة (ويساورها حتى، فيما يقولون، فكرة خفيّة في الزواج منه)، - وصداقة السيّد حتى «دو شارلوس» التي لم تمكّنه في يوم، والحق يُقال، أن ينال من «أوديت» شيئاً ذا بال ولكنّها توفّر له عذوبة الإحساس بأنّها تسمع من يتحدث عنه حديثاً مشجّعاً بلسان هذا الصديق المشترك الذي تكنّ له تقديراً عظيماً - وحتى ذكاؤه في النهاية الذي كان

يستخدمه بكليّته ليدبّر في كل يوم دسيسة جديدة تجعل من حضوره أمراً ممتعاً، إن لم يكن ضرورياً لِ«أوديت»، - فكّر في ما لعلّه أضحى لو نقصه كلّ ذلك، فكّر لو أنّه كان مثل كثيرين آخرين فقيراً متواضعاً معدماً مضطرّاً إلى القبول بأي عمل أو مرتبطاً بأقارب أو بزوجة لاضطر ربّما إلى هجر «أوديت»، وأن هذا الحلم الذي لا يزال الهلع الذي أشاعه قريباً جدّاً كان يمكن أن يكون حقيقيّاً وقال في نفسه: «لا يعرف المرء سعادته، وما كان قطّ في مثل التعاسة التي يظنّها». ولكنّه لاحظ أن هذه الحياة تدوم منذ عدّة سنوات وأن كل ما يمكن أن يأمل فيه أن تظلّ على الدوام وأنّه قد يضحّي بأعماله وملذاته وأصدقائه وكلّ حياته في النهاية في مقابل الانتظار اليومي لموعد لا يستطيع أن يجيئه بأيّة سعادة، وساءل نفسه إن لم يكن على ضلال وإن كان ما يسرّ علاقته وحال دون القطيعة لم يسئ إلى مصيره وإن لم يكن الحدث المشتهى ذاك الذي كان يغتبط به إلى الحدّ الذي لا يتمّ فيه إلا الحلم: يعني رحيله؛ وقال في نفسه إن المرء لا يعرف مصيبته وإنه ما كان قطّ في مثل ما يظن من سعادة.

كأن يأمل أحياناً أنّها ستموت في حادث ودونما عذاب هي التي كانت على الدوام خارجاً في الشوارع وعلى الطرقات من الصباح إلى المساء. ولما كانت تعود صحيحة سالمة كان يعجب أن يكون الجسم البشري مرناً إلى هذا الحدّ، قويّاً إلى الحد الذي يستطيع معه أن يغلب ويعطّل باستمرار جميع المخاطر التي تحفّ به (والتي يجدها «سوان» لا حصر لها منذ أن قدّرتها رغبة فيه خفيّة) ويمكّن الكائنات على هذا النحو من الانصراف في كل يوم ودونما عقاب إلى عملها في الكذب وإلى ملاحقة اللذّة. وأحسّ «سوان» قريباً جدّاً من قلبه محمّد الثاني هذا الذي كان يحبّ رسمه بريشة «بلليني» والذي طعن إحدى نسائه لما أحسّ أنّه أصبح مجنوناً بحبها كيما يستعيد حريّة فكره، حسبما يقول بسذاجة مؤرّخ حياته الذي من البندقيّة. ثم كان يثور لأنّه لا يفكّر هكذا إلّا بنفسه وتبدو له العذابات التي عانى منها لا تستحقّ أيّة شفقة بما أنّه كان يستهين إلى هذا الحدّ بحياة «أوديت».

وهو إذ لا يستطيع الانفصال عنها إلى غير رجعة، فلو اتفق له على الأقل أن رآها دون انفصال لآل عذابه في النهاية إلى سكون وحبّه ربّما إلى زوال، ولأنّها ما كانت تبغي الرحيل عن باريس رحيلاً نهائياً فقد تمّنى لو أنّها لا تغادرها البتّة. وبما أنّه يعلم أن غيابها الكبير الوحيد إنما يقع في آب وأيلول من كلّ عام فقد كان أمامه على الأقلّ متسع من الوقت يمتدّ عدّة شهور كيما يذيب فكرته المرة في كامل الزمن الآتي الذي يحمله في نفسه استباقاً والذي يتألّف من أيّام تجانس الأيام الحاضرة فيمرّ عبر خاطره شافاً بارداً يشيع الحزن فيه ولكن دون أن يتسبّب له بآلام بالغة الشدّة. ولكن هذا المستقبل الداخلي، هذا النهر الطليق الذي لا لون له، ها إن كلمة وحيدة لِ«أوديت» جاءت تصيبه حتى في صدر «سوان» وكقطعة جليد تثبّته وتصلّب سيولته وتجمّده بكليّته؛ وأحسّ «سوان» فجأة أنّه تملؤه كتلة ضخمة لا يمكن تقويضها تضغط على جوانب كيانه حتى لتفجّرها: ذلك أنّ «أوديت» سبق أن قالت له وهي ترقبه بنظرة باسمة ماكرة: «سوف يقوم «فورشفيل» برحلة في عيد العنصرة. إنّه ذاهب إلى مصر»، وفهم في الحال أنّ ذلك يعني: «سأذهب إلى مصر مع «فورشفيل» في عيد العنصرة». فإن قال لها «سوان» بعد بضعة أيّام: «هات نرَ بخصوص هذه الرحلة التي قلتِ إنك ستقومين بها مع «فورشفيل»، أجابت بطيش تقول: «أجل، يا صغيري، سنرحل في ١٩ وسنبعث إليك بمنظر الأهرامات». حينئذ كان يريد أن يعلم إن كانت عشيقة «فورشفيل» وأن يوجّه السؤال إليها هي. وكان يعلم، وهي على ما هي عليه من عقليّة خرافية، أن هنالك ضروباً من الأيمان الكاذبة لا تقدم عليها؛ ثمّ إن الخشية، التي أمسكت به حتى ذاك، من إغضاب «أوديت» حينما يسائلها ومن حملها على كرهه لم تعد قائمة الآن وقد فقد كلّ أمل في أن تحبّه من بعد.

وذات يوم تلقّى رسالة مغفلة تقول له إن «أوديت» كانت عشيقة عدد لا يحصى من الرجال (وقد أوردت أسماء بعض منهم، ومن بينه «فورشفيل» والسيّد «دو بريبوتيه» والرسّام) والنساء وأنّها كانت تتردّد على بيوت

الدعارة. وآلمه أن يفكِّر بأنّ من بين أصدقائه من كان قادراً على بعث هذه الرسالة إليه (فقد كانت تكشف في بعض تفصيلاتها أن الذي كتبها على معرفة وثيقة بحياة «سوان»). وبحث عمّن يمكن أن يكون، إلّا أنّه لم يخالجه قطّ شكّ بأعمال الناس المجهولة، تلك الأعمال التي لا تربطها روابط ظاهرة بأقوالهم. وحينما أراد أن يعلم إن كان ينبغي له بالأحرى تحديد المنطقة المجهولة التي لا بدّ أنّها رأت ميلاد هذا العمل الشائن تحت ما يظهر من طباع السيّد «دو شارلوس» أو السيّد «دي لوم» أو السيّد «دورصان» لم يجد أسباباً لربط هذه النذالة بطبيعة هذا دون ذاك إذ لم يوافق أحد من هؤلاء الرجال قط في حضرته على الرسائل المغفلة وأن كلّ ما قالوه كان يتضمّن شجبهم لها. فطبيعة السيّد «دو شارلوس» طبيعة مهزوزة إلى حدّ ما ولكنّها في أساسها خيّرة رقيقة، أمّا طبيعة السيّد «دي لوم» فهي سليمة مستقيمة وإن تكن جافّة. فأمّا في ما يخصّ السيّد «دورصان» فما لقي «سوان» في يوم أحداً يجيء إليه، حتى في أكثر الظروف غمّاً، بكلمات أوفر صدقاً في التعبير ولفتات أكثر سريّة وصواباً. حتى إنّه ما كان يستطيع إدراك الدور القليل اللباقة الذي ينسبونه إلى السيّد «درصان» في علاقته مع امرأة غنيّة، وفي كل مرّة يفكّر «سوان» فيه يرى نفسه مضطرّاً أن يدع جانباً هذا الصيت غير الحميد الذي لا يوافق هذا العدد الكبير من أدلّة اللباقة الأكيدة. وشعر «سوان» مقدار لحظة أن فكره آخذ في الإظلام ففكّر في أمر آخر كي يعود فيلقى شيئاً من الوضوح. ثم توافرت له جرأة العودة إلى تلك الأفكار. إلّا أنّه وقع عليه إذ ذاك بعد ما لم يستطع التشكيك في أمر أحد، أن يشكّك في أمر الجميع. كان السيّد «دو شارلوس» على أيّة حال يحبّه وهو طيّب القلب، ولكنّه مريض الأعصاب، فربّما بكى غداً إن يعلم أنّه مريض، وقد رغب اليوم عن غيرة، عن حنق، لفكرة مفاجئة ملكته، أن يسيء إليه. إنّ ذلك الصنف من رجال في الأساس من أسوئها جميعها. أمّا أمير «لوم» فقد كان بالتأكيد بعيداً عن أن يحبّ «سوان» بقدر ما يفعل السيّد «دو شارلوس». ولكنّه لذلك السبب

بالذات لم يكن يملك ما يملك هو من حساسيّات، ثم إنّه كان ذا طبيعة باردة ولا شكّ، ولكنّه عاجز عن القبائح مثل عجزه عن الأعمال الرفيعة. وكان «سوان» نادماً لأنّه لم يتعلّق في الحياة إلّا بمثل هؤلاء الناس. ثم يفكّر بأنّ ما يحول دون أن يسيء الناس إلى قريبهم إنما هي الطيبة وأنّه لا يستطيع أن يضمن في الأساس إلا طبائع مشابهة لطباعه مثلما كان أمر السيّد «دو شارلوس» في ما يتعلّق بالقلب؛ فإن مجرد فكرة بعث ذلك الغمّ في صدر «سوان» إنّما يثور عليها. أما في ما يخصّ رجلاً غير حسّاس ومن طبيعة بشريّة مغايرة مثلما كان عليه أمير «لوم»، فكيف تتوقّع الأفعال التي يمكن أن تقوده إليها دوافع من ماهيّة مختلفة؟ كلّ شيء يكمن في أن يكون المرء حسّاساً، وقد كان السيّد «دو شارلوس» كذلك. ما كان السيّد «دورصان» ليخلو من هذه الناحية أيضاً وكانت علاقاته، وهي ودية ولكنها قليلة الحرارة، وقد نجمت عن المتعة التي يجنيانها من التحدّث سويّة، إذ هما يحملان الأفكار نفسها حول كلّ شيء، كانت علاقاته أكثر ثباتاً من مودّة السيّد «دو شارلوس» المتهوّسة والقادرة على القيام بأفعال يحكمها الهوى أكانت صالحة أم شريرة. ولئن كان هنالك من يشعر «سوان» على الدوام أنّه يفهمه ويحبّه حبّاً رقيقاً فإنّما كان السيّد «دورصان». أجل، ولكن تلك الحياة غير المشرفة التي يحياها؟ لقد أخذ «سوان» يأسف لأنّه لم يقم وزناً للأمر وأنّه غالباً ما أقرّ مازحاً أنّه لم يشعر بعواطف مودّة وتقدير شعوراً حارّاً إلى هذا الحدّ إلّا في عشرة الأنذال. وكان يقول في نفسه الآن إن الناس منذ أن أخذوا يحكمون على قريبهم فإنّما يفعلون على أفعاله وما ذلك لغير ما سبب. فإنّما ذلك وحده الذي يعني شيئاً ما، لا ما نقول ولا ما نظنّ. يمكن أن يتجمّع لدى «شارلوس» و«دي لو» هذه العيوب أو تلك ولكنّهما من الناس الشرفاء. أمّا «دو رصان» فلا عيب فيه ربّما ولكنّه ليس إنساناً شريفاً. وقد استطاع أن يفعل سوءاً مرّة أأخرى. ثم ارتاب «سوان» في أمر «ريمي» الذي ما كان يستطيع بالحقيقة سوى الإيحاء بالرسالة ولكنّ هذا الدرب بدا له مقدار لحظة على أنّه الدرب السويّ. فقد

كان هنالك بادئ الأمر أسباب تحمل «لوريدان» على الحقد على «أوديت». ثم كي لا نفترض أن خدّامنا الذين يعيشون في حال أدنى من حالنا ويضيفون إلى ثروتنا ومعايبنا خيرات وعيوباً خيالية يحسدوننا من جرّائها ويحتقروننا سوف ينقادون حتماً إلى التصرف على غير ما يفعل أناس من عالمنا؟ وشكّ كذلك في جدّي؛ ففي كل مرّة سأله «سوان» خدمة ألم يرفضها على الدوام؟ ثم إنّه من الممكن كذلك أنه ظنّ، بأفكاره البورجوازية، أنّه يفعل في سبيل خير «سوان». وارتاب هذا الأخير أيضاً بأمر «بيرغوت» والرسّام وأسرة «الفيردوران»، ونظر بإعجاب نظرة عابرة إلى حكمة رجال المجتمع في أنهم لا يريدون معاشرة هذه الأوساط الفنيّة التي يمكن أن تقع فيها مثل هذه الأمور وربّما يقرّون بها على أنّها من المزحات البريئة. ولكنّه يذكر ملامح استقامة لدى هؤلاء البوهيميّين فيقارب بينها وبين العيش بجميع الوسائل المتاحة، وحتى بصنوف الاحتيال، التي غالباً ما تنجرّ إليها الأرستقراطية من جرّاء الحاجة إلى المال والسعي وراء الترف وفساد الملذات. وقصارى القول أن تلك الرسالة المغفلة كانت البرهان على أنّه يعرف إنساناً قادراً على الإثم، ولكنّه لا يرى سبباً لأن يختبئ هذا الإثم في أعماق طباع الرجل الودود أكثر منه في طباع الرجل غير الحسّاس، ولدى الفنان أكثر منه لدى البورجوازي، وفي طباع السيّد العظيم أكثر منه في طباع الخادم. فأيّ معيار يعتمد ليحكم على الناس؟ لأنّه ليس، في الأساس، شخص واحد من بين الذين يعرفهم إلّا ويستطيع الانحدار إلى خزي مماثل. فهل ينبغي أن ينقطع عن رؤيتهم جميعاً؟ وغام فكره، فأمرّ يديه مرّتين أو ثلاثاً على جبينه ومسح زجاج نظارته بمنديله، وإذ تبادر إلى ذهنه أن هنالك في النهاية أناساً ممّن يساوونه يتردّدون على السيّد «دو شارلوس» وأمير «لوم» والآخرين قال في نفسه إن ذلك يعني أنّهم إن لم يكونوا عاجزين عن المخازي فإنّما تلك على الأقلّ ضرورة حياتية يرضخ لها الجميع في التردّد على أناس ليسوا ربّما عاجزين عنها. واستمرّ يشدّ على يد جميع هؤلاء

الأصدقاء الذين ارتاب في أمرهم، لا يتحفّظ إلّا تحفّظاً أسلوبيّاً بحتاً من أنهم ربّما حاولوا إشاعة اليأس في نفسه.

أمّا في ما يخصّ أساس الرسالة نفسه فلم يهتمّ به لأنّه ما من واحد من الاتّهامات الموجّهة ضدّ «أوديت» يحمل أدنى مظهر للحقيقة. فقد كان «سوان» شأن الكثير من الناس خامل الفكر يعوزه الابتكار. إنّه يعلم تماماً، من باب الحقيقة العامّة، أنّ حياة الأفراد مليئة بالتناقضات ولكنه كان يتخيّل، في ما يخص كلّ شخص بمفرده، كامل الجزء الذي لا يعرفه في حياته مماثلاً للجزء الذي كان يعرفه. كان يتخيّل ما يكتمونه إيّاه بوساطة ما يقولونه له. ففي الفترات التي كانت فيها «أوديت» بالقرب منه، كانت تندّد، إن تحدّثنا سويّة عن عمل غير لائق وقع أو شعور غير لبق اتّفق لآخر سواهما، بهاتين الواقعتين انطلاقاً من المبادئ نفسها التي سمع «سوان» أهله يدينون بها على الدوام والتي ظلّ أميناً لها؛ ثم كانت ترتّب أزهارها وتحتسي كوباً من الشاي وتبدي اهتماماً بأشغال «سوان». وكان «سوان» إذاً يمدّ تلك العادات على البقيّة الباقية من حياة «أوديت» ويكرّر هذه الحركات حينما يبغي تمثّل الفترات التي كانت فيها بعيدة عنه. ولو صُوّرَتْ له على ما كانت عليه أو بالأحرى على ما سبق أن كانت عليه لفترة طويلة معه ولكن إلى جانب رجل آخر لتألّم إذ كانت بدت له تلك الصور بمظهر الحقيقة. أمّا أن ترتاد بيوت القوّادات وتُقيم الحفلات الداعرة مع النساء وأن تعيش حياة الفسق التي تعيشها المخلوقات المنحطّات فأي هذيان مجنون لا تدع أيّ مجال لتحقيقه، والحمد للّه، أزهار الأقحوان المتخيّلة وحفلات الشاي المتتالية والانتفاضات الفاضلة! ولكنّه من حين إلى آخر يدع لِ«أوديت» أن تدرك أن هنالك من يروي له، بدافع الإساءة، كلّ ما تفعله. وإذ يلجأ، بهذه المناسبة، إلى جزئيات عديمة الشأن، ولكنها صحيحة، كان قد عرفها بالتصادف، وكأنّها الجزء الصغير الوحيد الذي تركه يمر مرغماً من بين أمور أخرى كثيرة تؤلّف إعادة كاملة لحياة «أوديت» يحتفظ بها في سره، فقد كان يحملها على الافتراض بأن لديه

معلومات عن أشياء لم يكن في الواقع يعرفها لأنه إن كان في الكثير الغالب يستحلف «أوديت» ألا تبدّل في الحقيقة فإنّما ذلك، سواء أدرك الأمر أم لا، لمحض أن تقول له «أوديت» كلّ ما كانت تفعله. ولا ريب أنّه كان يحبّ الصراحة، لا ريب مثلما يقول لِـ«أوديت»، ولكنّه يحبها بمثابة قوّادة قادرة أن تطلعه على حياة عشيقته. ولما كان حبّه للصراحة لا يتّسم بالتجردّ فإنه لم يصلح من أمره. ذلك أن الحقيقة التي كان يعشقها إنّما تكمن في ما ستقوله له «أوديت»، ولكنه لا يتورع، هو، في سبيل الحصول على هذه الحقيقة، عن اللجوء إلى الكذب، الكذب الذي لا ينفكّ يصفه لِـ«أوديت» على أنّه يقود كل مخلوق بشريّ إلى الانحطاط. وقصارى القول إنّه كان يكذب بقدر ما تكذب «أوديت» لأنّه إن كان أكثر تعاسة منها فلم يكن أقلّ أنانية. أمّا هي فقد كانت تنظر إلى «سوان»، وهي تسمعه يروي لها على هذا النحو أموراً فعلتها، نظرة ارتياب وحنق - تحسّباً لأي محذور - كي لا يبدو أنّها تتواضع ويأخذها الخجل من أفعالها.

وإذ كانت ذات يوم في أطول فترة هدوء استطاع حتى ذاك أن يجتازها دون أن تعاوده نوبات الغيرة فقد ارتضى أن يذهب في المساء إلى المسرح برفقة أميرة «لوم». ولما فتح صحيفته ليبحث عمّا كان يُمَثّل أثّرت فيه رؤية العنوان: «**فتيات من حجر**» لمؤلّفها «تيودور بارييز» تأثيراً قاسياً ارتدّ معه إلى الوراء وأشاح بعينيه. ذلك أن كلمة «حجر» التي فقد القدرة على تمييزها لكثرة ما تعوّد أن يلقاها تحت ناظريه عادت فجأة إلى ساحة بصره، وقد استنارت كأنما من جرّاء أضواء المسرح في المكان الجديد الذي كانت ماثلة فيه، وذكّرته في الحال بتلك القصّة التي سبق أن روتها له «أوديت» فيما مضى عن زيارة كانت قد قامت بها إلى معرض قصر الصناعة برفقة السيّدة «فيردوران» وحيث قالت لها هذه الأخيرة: «على رسلك، إني أعرف كيف أزيل جمودك، فلستِ من حجر المرمر». لقد أكّدت له «أوديت» أنها مجرّد مزحة ولم يعلّق عليها أيّة أهمية. إلا أنّه كان حينذاك أكثر ثقة بها منه اليوم، والرسالة المغفلة كانت تتحدّث بالضبط عن حبّ

من هذا القبيل. ودون أن يجرؤ على رفع ناظريه إلى الصحيفة فتحها وقلب صفحة كي لا يبصر من بعد كلمة: «**فتيات من حجر**» وشرع يقرأ قراءة آلية أخبار المقاطعات. لقد قامت عاصفة في بحر المانش وهنالك إشارة إلى أضرار في مدن «دييب» و«كابور» و«بوزفال». وارتدّ في الحال ثانية إلى الخلف.

لقد ذكّره اسم «بوزفال» باسم بلدة أخرى في تلك المنطقة، «بوزفيل» الذي يقترن معه اسم آخر بوساطة علامة وصل تجمع بينهما، هو اسم «بريبوتيه»، وغالباً ما شاهده على الخرائط، ولكنّه لاحظ للمرّة الأولى أنّه لا يختلف عن اسم صديقه السيّد «دو بريبوتيه» الذي تقول الرسالة المغفلة إنّه كان فيما مضى عشيق «أوديت». لم تكن التهمة في ما يخصّ السيّد «دو بريبوتيه» على أيّة حال بعيدة عن المعقول؛ أمّا في ما يخصّ السيّد «فيردوران» فهنالك استحالة. فلم يكن بالإمكان أن نستخلص من أنّ «أوديت» تكذب أحياناً أنّها لا تقول الحقيقة البتّة، ولقد تعرّف «سوان» في تلك الأقوال التي تبادلتها والسيّدة «فيردوران» والتي روتها له بنفسها هذه المزحات الفارغة الخطرة التي تتفوّه بها بعض النساء لانعدام تجربتهنّ في الحياة وجهلهنّ للرذيلة والتي تكشف عن براءتهنّ فهنّ - شأن «أوديت» مثلاً - أبعد ما يكنّ عن الشعور بأيّ حنان مهووس تجاه امرأة أخرى. وعلى العكس من ذلك كان الحنق الذي استبعدت به الشكوك التي بعثتها للحظة في نفسه عن غير قصد من جرّاء روايتها يماشي كلّ ما يعرف عن ميول عشيقته ومزاجها. إلا أنّ «سوان» ذكر في تلك اللحظة، بفضل إلهام من تلك التي يتسم بها الغيارى وتضاهي الإلهام الذي يحمل للشاعر أو العالم الذي لم يتجمّع لديه بعد سوى قافية واحدة أو ملاحظة واحدة الفكرة أو القانون اللذين سيعطيهما كامل قوّتهما، ذكر للمرة الأولى جملة نقلتها له «أوديت»، لسنتين خلتا: «آه! السيّدة «فيردوران» لا ترى في هذا الوقت سواي، فإني أنا المحبوب وهي تعانقني وتريد أن أرافقها إلى السوق وأن أرفع الكلفة فيما بيننا». ولم يبصر حينئذ في تلك الجملة صلة،

أية صلة، بالأقوال اللامعقولة التي روت عنها «أوديت» والهادفة إلى التظاهر بالرذيلة، وما أبعد أن يفعل، بل أخذها على أنها البرهان على حرارة الصداقة. أما الآن فها إنّ ذكرى مودّة السيّدة «فيردوران» قد جاءت فجأة تقترن بذكرى حديثها الذي يتّسم بذوق رديء. لم يعد يستطيع فصلهما في ذهنه ورآهما يتمازجان كذلك في الواقع فالمودّة تضفي شيئاً من الجديّة والأهمية على ذلك المزاح الذي كان يفقدها بدوره بعضاً من براءتها. وذهب إلى منزل «أوديت»، وجلس بعيداً عنها. ما كان يجرؤ على عناقها إذ لا يدري إن كانت القبلة ستثير في صدرها، في صدره، المودّة أو الغضب. وأخذه الصمت وهو ينظر إلى حبّهما يحتضر. وفجأة اتّخذ قراراً وقال لها:

- «أوديت، يا عزيزتي، أعرف تماماً أنّني شنيع، ولكن لا بدّ لي أن أسألك حول بعض الأمور. هل تذكرين الفكرة التي خطرت لي بشأنك وشأن السيّدة «فيردوران»؟ فقولي إن كان ذلك صحيحاً معها أو مع أخرى سواها».

وهزّت رأسها وهي تزمّ شفتيها: وتلك إشارة كثيراً ما يستخدمها الناس للإجابة بأنّهم لن يذهبوا وأن الأمر يزعجهم وذلك لمن سألهم قائلاً: «هل ستأتي لتشهد مرور موكب الفرسان؟ وهل ستحضر الاستعراض؟» ولكنّ هزّ الرأس هذا المستخدم على هذا النحو بالعادة بشأن حدث آتٍ إنّما يدخل بسبب ذلك بعض الشكّ في نفي حدث ماضٍ. وهو إلى ذلك لا يشير إلا إلى أسباب تتعلّق باللياقة الشخصيّة أكثر ممّا يشير إلى الاستنكار والاستحالة الأخلاقية. فإذا رأى «سوان» «أوديت» تشير له أن ذلك غير صحيح أدرك أن الأمر ربّما كان صحيحاً. وأضافت بلهجة مغضبة وتعيسة: «لقد قلت لك ذلك، وأنت تعرفه تماماً».

- «أجل، إني أعرف، ولكن هل أنت أكيدة من ذلك؟ لا تقولي: «أنت تعرف ذلك تماماً»، بل قولي لي: «ما فعلتُ قطّ مثل هذه الأمور مع أية امرأة».

وردّدت على غرار أمثولة وبلهجة ساخرة كما لو تريد التخلّص منه:

- «ما فعلت قطّ مثل هذه الأمور مع أيّة امرأة».

- «هل تستطيعين أن تقسمي لي على صحّة ذلك بأيقونة سيّدة «لاغيه»؟

وكان «سوان» يعلم أن «أوديت» لن تحنث في قسمها على تلك الأيقونة. وصاحت وهي تتهرّب بانتفاضة من سؤاله الذي يضيّق عليها: «آه! ما أشدّ ما تجعلني تعيسة. ولكنْ هل قاربت أن تنتهي؟ وما الذي دهاك اليوم؟ ألعلّك قرّرت أنّه ينبغي لي أن أكرهك، أن أمقتك؟ ها إنّي كنت أبغي أن أعيد معك طيب الزمان الأوّلي وهكذا تشكرني!».

ولكنّه لم يدعها تفلت مثلما ينتظر جرّاح نهاية التشنّج الذي يوقف تدّخله ولكنّه لا يضطرّه إلى التخلّي عنه، فقال لها بعذوبة مُقْنِعَة كاذبة: «أوديت»، أنت على ضلال كبير إن تصوّرت أنّني سأحمل لك أيّة ضغينة مهما صَغُرَتْ. إني لا أحَدّثك قطّ إلّا عمّا أعلم وإني أعلم على الدوام أكثر بكثير ممّا أقول، ولكنّك تستطيعين وحدك بإقرارك تلطيف ما يحملني على أن أكرهك ما دام الأمر لم يكشف لي إلّا على يد آخرين. إنّ حنقي عليك ليس مردّه أعمالك، فإني أصفح عنك كليّاً بما أني أحبّك، بل نفاقك، نفاقك السخيف الذي يجعلك توالين إنكار أمور أعرفها. فكيف تريدين أن أستطيع الاستمرار في حبك حينما أراك تؤكّدين لي أمراً أعلم أنّه كاذب؟ «أوديت» لا تطيلي هذه اللحظة التي تشكّل عذاباً لنا الاثنين. ولئن أردت ذلك انتهى الأمر بعد ثانية وتخلصت منه إلى الأبد. فقولي ويدك على أيقونتك إن فعلت أو لم تفعلي قطّ هذه الأمور».

وصاحت بغضب: «ولكنّي لا أدري شيئاً من ذلك، أنا، ربّما كان ذلك منذ زمن بعيد جدّاً ودون أن أنتبه لما كنت أفعله، ربّما لمرّتين أو ثلاث».

كان «سوان» قد وضع في حسابه جميع الاحتمالات. فالواقع إذن شيء لا صلة له بالمُحْتَمَلَات أكثر ممّا لضربة سكيّن تصيبنا بتحرك السحاب

البطيء فوق رؤوسنا بما أن هذه اللفظات «لمرّتين أو ثلاث» رسمت في اللحم الحيّ صليباً في قبله. وإنّه لأمر غريب أن تستطيع هذه اللفظات «لمرّتين أو ثلاث»، وهي مجرّد لفظات، لفظات قِيلت في الهواء ومن بعيد، تمزيقَ القلب على هذا النحو كما لو تصيبه إصابة حقيقيّة، وأن تستطيع نقل المرض إليك وكأنّما تبتلع سمّاً. وفكّر «سوان» لا إراديّاً بتلك الكلمة التي سبق أن سمعها في منزل السيّدة «دو سانت أوفيرت»: «لم أشهد ما كان بمثل هذه القوّة مذ رأيت الطاولات الدوّارة». فهذا الألم الذي يحسّ به ما كان يشبه شيئاً ممّا ظنّ من قبل؛ لا لأنّه نادراً ما ذهب في تصوّره إلى هذا الحدّ من الشرّ حتى في أكثر أوقاته ارتياباً، بل لأنّه حتى حينما كان يتصوّر هذا الأمر فقد كان غامضاً غير أكيد ومجرّداً من هذه الفظاعة الخاصّة التي انبعثت من هذه الكلمات «ربّما لمرّتين أو ثلاث»، وخالياً من تلك القسوة المميّزة المختلفة من كلّ ما عرفه من قبل كمثل مرض يصيب المرء للمرّة الأولى. على أنّ «أوديت» هذه التي جلبت له كلّ هذا الألم لم تكن أقلّ معزّة لديه بل كانت على العكس أكثر ثمناً كما لو يتعاظم في الوقت نفسه، كما يتعاظم الألم، ثمن المهدّئ والترياق الذي تملكه هذه المرأة وحدها. كان يريد أن يحيطها بعناية أكثر كمثل مرض تكتشف فجأة أنّه أكثر خطورة. ويريد أن لا يكون بمقدور هذه الأمر الفظيع الذي قالت إنّها فعلته «مرتين أو ثلاث مرّات» أن يتجدّد. فكان لا بّد له لذلك من السهر على «أوديت». وغالباً ما يُقال إن إبلاغ صديق بخطيئات عشيقته لا يفلح إلا في تقريبه منها لأنّه لا يصدّقها، وكم ذا يزيد لو أنّه يصدّق! ولكن، يقول «أوديت» في سرّه، كيف يفلح في حمايتها؟ ربّما كان بمقدوره أن يحميها من امرأة معيّنة، لكن هنالك مئات غيرها، وأدرك أي جنون انتابه حينما بدأ في الليلة التي لم يلقَ فيها «أوديت» في منزل أسرة «الفيردوران» يتوق إلى امتلاك شخص آخر، والامتلاك مستحيل دوماً. وكان هنالك، لحسن حظ «سوان»، تحت طبقة الآلام الجديدة التي اجتاحت نفسه كمثل عصابات من الغزاة، أساس طبيعي أكثر قدماً وأوفر

ليونة يعمل بصمت شأن خلايا عضو جريح تشرع في الحال بترميم الأنسجة المصابة وشأن عضلات عضو مشلول تنزع إلى استعادة حركتها. واستخدم سكّان نفسه هؤلاء الأكثر قدماً وأصالة مقدار لحظة كامل قوى «سوان» في هذا العمل الترميميّ المبهم الذي يوهم من كان في طور النقاهة أو أخضع لعمليّة بالراحة. وفي هذه المرّة تمّ ذلك الانفراج الناجم عن الإرهاق في فؤاد «سوان» أكثر ممّا في دماغه كما هي العادة. على أن جميع أمور الحياة التي وجدت مرّة إنّما تنزع إلى أن تعيد خلق ذاتها، وكحيوان يلفظ أنفاسه وتهزه من جديد انتفاضة في اختلاجات بدت وكأنها منتهية عاد الألم ذاته تلقائياً يحفر الصليب نفسه على قلب «سوان» الذي سَلِمَ برهة. فقد تذكر العشيّات المقمرة التي كان يستلقي فيها في عربته التي تنقله إلى شارع «لابيروز» فيغذّي على نحو شهواني في نفسه انفعالات الرجل العاشق دون أن يعلم أيّة ثمرة مسمومة سوف تنتج بالضرورة. إلّا أنّ هذه الأفكار لم تدم إلّا مقدار ثانية، الوقت اللازم ليضع يده على قلبه ويستعيد أنفسه وينجح في التبسّم ليخفي عذابه. لقد عاد مذ ذاك يطرح أسئلته. ذلك أنّ غيرته التي تحمّلت مشقّة ما كان عدوّ ليتحمّلها لتفلح في توجيه هذه الضربة له وتجعله يتعرّف أقسى عذاب تعرّفه بعد في يوم، غيرته تلك لم تجد أنّه تعذّب عذاباً كافياً وكانت تحاول أن تفتح فيه جرحاً أعمق من ذي قبل. هكذا كانت غيرة «سوان»، شأن آلهة شريرة، تلهمه وتدفعه إلى الهلاك. وإن لم يتفاقم عذابه بادئ الأمر، فما كان ذلك ذنبه، بل ذنب «أوديت» فحسب. وقال لها:

- «إنّه السؤال الأخير يا عزيزتي؛ هل تمّ الأمر مع شخص أعرفه؟».

- «لا، لا! إني أقسم لك، وأظنّ أنّي بالغت على أيّة حال، وأني لم يصل بي الأمر حتى هذا الحدّ».

وابتسم وعاد يقول:

- «ما عساك تبغين؟ لا بأس عليك، على أنّه من المؤسف أنّك لا تستطيعين أن تقولي لي الاسم. فلو استطعتُ تمثّل الشخص لحال ذلك

دون أن أفكِّر به من بعد. إني أقول ذلك من أجلك لأنني لن أزعجك بعد اليوم. فما أكثر ما يهدّئ المرءَ أن يتمثّل الأشياء! أمّا الرهيب فما لا نستطيع تصوّره. ولكنّك أبديتِ حتى الآن لطفاً كبيراً ولا أريد إرهاقك. إني أشكرك من صميم الفؤاد لكلّ الخير الذي مننت به عليّ. لقد انتهيت؛ حسبي هذه الكلمة: كم مضى من الوقت على ذلك؟».

– «أوه! ألست ترى يا «شارل» أنّك تقتلني! ذلك من أقدم القديم، ولم يتفق لي أن عدت إلى التفكير به، ويخيّل إليّ أنّك راغب تماماً في إعادة مثل هذه الأفكار إليّ». ثم قالت بحماقة لاشعوريّة وخبث مقصود: «سوف تجني الكثير من ذلك».

– «أوه! أردت أن أعلم فقط إن وقع الأمر منذ أن عرفتك ولعل ذلك طبيعيّ جدّاً، فهل كان يجري ههنا؟ ألا تستطيعين أن تقولي لي في هذا المساء أو ذاك حتى أتصور ما كنت أفعل في ذلك المساء. تدركين تماماً أنّه من غير الممكن ألّا تتذكري مع من، «أوديت»، يا حبيبتي».

– «ولكنني لا أدري، أنا؛ أظن أن الأمر تمّ في «الغابة» ذات مساء جئت تلحق بنا في الجزيرة. وكنتَ قد تناولت طعام العشاء لدى أميرة «لوم»، تقول وهي سعيدة أن تقدّم ملاحظة دقيقة تشهد على صدقها. «كان يجلس إلى طاولة مجاورة امرأة لم أرها منذ زمن طويل جدّاً. فقالت لي: «تعالي وراء الصخرة الصغيرة نشاهد ما يفعل ضياء القمر على الماء». وتثاءبت بادئ الأمر وأجبت: «لا، إنّي متعبة وأنا بخير ههنا». وأكّدت أنّه لم يتّفق ما يضاهي ضياء القمر هذا. فقلت لها: «يا للمزاح!»؛ وكنت أدرك تماماً الهدف الذي تقصد إليه».

كانت «أوديت» تروي عن ذلك وهي تضحك تقريباً إمّا لأن الأمر يبدو لها طبيعياً تماماً أو لأنّها تظنّ أنها تقلّل هكذا من أهميّته أو كي لا تظهر بمظهر من أُذِلّ. وإذ رأت وجه «سوان» غيّرت لهجتها:

– «يا لك من شقيّ، إنّك تستمتع بتعذيبي وبحملي على اختلاق أكاذيب أقولها كي تتركني وشأني».

وكانت هذه الضربة الثانية التي وجّهت لِـ«سوان» أشدّ فظاعة من الأولى. فلم يفترض البتّة أنّ الأمر حديث إلى هذا الحدّ وقد خفي عن ناظريه اللذين لم يفلحا في اكتشافه، لا في ماضٍ لم يعرفه بل في عشيّات يذكرها تماماً، عشيّات أمضاها مع «أوديت» وظنّ أنّها معروفة تماماً لديه وهي الآن تتّخذ في النظرة إلى الماضي شيئاً من الالتواء والفظاعة، وتنفتح فجأة فيما بينها ثغرة فسيحة هي تلك الفترة في جزيرة الغابة». كانت «أوديت» تملك فتنة السيرة الطبيعيّة دون أن تكون ذكيّة. لقد روت، لقد مثّلت بالإيماء ذلك المشهد ببساطة كبيرة حتى إنّ «سوان» كان يرى كلّ شيء وقد ضاقت أنفاسه: تثاؤب «أوديت» والصخرة الصغيرة. كان يسمعها تقول - مرحةً، واأسفي!- «يا للمزاح!» وكان يحسّ أنّها لن تقول في هذا المساء أكثر من ذلك وأنّه ليس هنالك من تصريح جديد يمكن انتظاره في هذا الوقت، فقال لها: «سامحيني يا حبيبتي المسكينة، إنّي أحسّ أني مصدر غمّ لك، لقد انتهيت وما عدت أفكّر بالأمر من بعد».

ولكنّها رأت أنّ عينيه لا تزالان تحدّقان في الأشياء التي لا يعرفها و في ماضي حبّهما ذاك الرتيب العذب في ذاكرته لأنّه كان غامضاً والذي تمزّقه الآن، كما يفعل الجرح، تلك الدقيقة في جزيرة «الغابة» وفي ضياء القمر بعد العشاء في منزل أميرة «لوم». ولكنّما تعوّد أن يجد الحياة جديرة بالاهتمام - وأن ينظر بإعجاب إلى الاكتشافات الغريبة التي يمكن أن تتمّ فيها حتى إنّه فيما كان يتألّم حتى ليظنّ أنّه لم يستطع تحمّل مثل هذا الألم مدّة طويلة كان يقول في سرّه: «إن الحياة مدهشة حقّاً وتخبئ لنا مفاجآت حلوة. إن الرذيلة بمختصر القول شيء أوسع انتشاراً ممّا يعتقد. هذه امرأة كنت أثق بها، وتبدو شديدة البساطة والاستقامة على أيّة حال وإن كانت لعوباً، ويظهر عليها أنّها طبيعيّة وسليمة الميول: وأسائلها حول وشاية بعيدة الاحتمال فيكشف لي القليل الذي تعترف به أكثر بكثير ممّا يمكن أن يرتاب إنسان بأمره». ولكنّه ما كان يستطيع الاقتصار على هذه الملاحظات المتجرّدة. فقد كان يحاول أن يقدر تمام القدر قيمة ما روته له كي يعلم إن

كان يجدر به أن يخلص إلى هذه الأمور إنّما فعلتها كثيراً وأنّها سوف تتجدّد. وكان يعيد لنفسه تلك الكلمات التي قالتها: «كنت أرى تماماً الهدف الذي ترمي إليه» و«لمرّتين أو ثلاث» و«يا للمزاح!»، ولكنّها لا تعود إلى الظهور عزلاء في ذاكرة «سوان»، فكلّ واحدة منها تحمل سكّينها وتوجّه له طعنة جديدة. وكمثل مريض لا يستطيع الامتناع عن محاولة القيام في كلّ دقيقة بالحركة التي تؤلمه، كان يردّد لنفسه هذه الكلمات لفترة طويلة: «إنّني بخير ههنا» و«يا للمزاح!»، ولكن الألم كان شديداً حتى ليضطرّه إلى التوقّف. وكان بالغ الدهشة من أنّ أفعالاً نظر إليها على الدوام نظرة بالغة السطحيّة، بالغة المرح، قد أضحت الآن خطيرة في نظره كمثل مرض يمكن أن يؤدّي إلى الوفاة. كان يعرف الكثير من النساء اللواتي قد يستطيع أن يطلب إليهنّ مراقبة «أوديت». ولكن كيف يأمل أن ينطلقن من وجهة نظره هو وأنهنّ لن يحافظن على وجهة النظر التي ظلّت وجهته لزمن طويل والتي كانت على الدوام هادية لشهوات حياته ولن يقلن له ضاحكات: «أيّها الغيور الشرير الذي يبغي حرمان الآخرين من المتعة»؟ فمن أي باب انشقّ تحته على حين غرّة ألقي به فجأة في هذه الدائرة الجهنّمية الجديدة التي لا يرى كيف يمكن له في يوم أن يخرج منها. مسكينة «أوديت»! إنّه لا يحقد عليها، فقد كانت مسؤوليتها في الذنب جزئيّة. أفما يُقال إن والدتها نفسها قد سلّمتها في مدينة «نيس»، ولا تزال طفلة تقريباً، إلى ثريّ إنكليزيّ؟ ولكن أيّ حقيقة أليمة كانت تتّخذ في نظره هذه السطور من «**يوميّات شاعر**» للكاتب «ألفريد دو فيني» (Alfred de Vigny)، وكان قد قرأها بالأمس بلا مبالاة: «حينما يحس المرء أنّ حبّ امرأة تملّكه يجدر به أن يقول لنفسه: من ذا يحيط بها؟ وكيف كانت حياتها؟ فالسعادة كلّها تعتمد على ذلك». وكان «سوان» يدهش كيف يمكن لجمل بسيطة يوردها فكره، من مثل «يا للمزاح!» و«كنت أرى تماماً الهدف الذي ترمي إليه»، أن تؤلمه إلى هذا الحدّ. ولكنّه يدرك أنّ ما يظّنه جملاً بسيطة إنْ هو إلا أجزاء الهيكل التي ينحصر

بينها الألم الذي عانى منه في أثناء رواية «أوديت» والذي يمكن أن يعود إليه. ذلك أنّه إنّما كان يعاني ثانية من هذا الألم بالذات. وعبثاً يعرف الآن - بل عبثاً نسي بعض الشيء، على مرّ الزمان، وصفح - فقد كان الألم العتيق، ساعة يكرّر على نفسه تلك الكلمات، يعيده على نحو ما كان قبلما تتكلّم «أوديت»: جاهلاً واثقاً؛ كانت غيرته الأليمة تُحِلّه من جديد، كيما يذهل من جرّاء إقرار «أوديت» في موقع من لا يعلم بعد، ولسوف تظلّ تلك القصّة القديمة تهزّه بعد شهور عدّة وكأنها كشف جديد. كان يعجب من قدرة ذاكرته الهائلة على استرجاع الأمور. وما كان باستطاعته أن يأمل تهدئة لعذابه إلا من ضعف هذه المولِّدة التي يتضاءل خصبها مع السنّ. وحينما تبدو قدرة إحدى الكلمات التي نطقت بها «أوديت» على تعذيبه، وقد نفدت بعض الشيء، حينئذ كانت تجيء واحدة من تلك التي قلّ وقوف فكر «سوان» حيالها حتى ذاك، واحدة تكاد تكون جديدة، فتحلّ محلّ الأخريات وتضربه بقوّة ظلّت بعدُ على حالها. كانت ذكرى المساء الذي تناول فيه طعام العشاء على مائدة أميرة «لوم» مؤلمة ولكنّها ما كانت سوى مركز دائه، والداء يشعّ إشعاعاً مبهماً في جميع الأيّام المجاورة حواليه. وأيّة كانت النقطة التي يودّ لمسها في ذكرياته فإن كامل الفصل الذي كثيراً ما تناول فيه آل «فيردوران» طعام العشاء في جزيرة «الغابة» هو الذي كان يؤلمه؛ والألم شديد إلى حدّ أن صنوف الفضول التي كانت تثيرها غيرته في صدره أخذ يُبْطِلُ مَفْعُوْلُها شيئاً فشيئاً خشية ضروب العذاب الجديدة التي قد يجلبها لنفسه إن هو أشبعها. وأخذ يدرك أن كامل الفترة المنصرمة من حياة «أوديت» قبل أن تلتقي به، وهي فترة ما حاول قطّ أن يتمثّلها، لم تكن تلك المساحة المجرّدة التي كان يراها على نحو غامض، ولكنها صُنِعَت من سنوات متميّزة وامتلأت بالأحداث المشخَّصة. ولكنّه يخشى، إذ يحيط علماً بها، أن يتّخذ هذا الماضي الباهت المبهم المحتمل جسداً ملموساً وقذراً ووجهاً شخصياً وشيطانياً. وكان يستمرّ في محاولته الامتناع عن تصوّره لا من جرّاء كسل

في الفكر بل لخشية من العذاب. ويأمل أنّه سيستطيع في النهاية ذات يوم أن يسمع اسم جزيرة «الغابة» وأميرة «لوم» دون أن يحسّ بالتمزّق العتيق، ويرى من غير الحذر استثارة «أوديت» لتزوّده بأقوال جديدة وباسم أماكن وظروف مختلفة ربّما أعادت داءه الذي لم يهدأ بعد تماماً، بصيغة ثانية.

بيد أنّه غالباً ما كانت «أوديت» نفسها هي التي تكشف له تلقائيّاً، ودون أن تنتبه للأمر، عن الأشياء التي ما كان يعرفها والتي يخشى الآن أن يعرفها. ذلك أن الفارق الذي كانت الرذيلة تقيمه بين حياة «أوديت» الحقيقيّة وبين الحياة البريئة نسبيّاً التي كان يظنّ «سوان»، وما زال في الغالب يظنّ أن عشيقته تحياها، ذلك الفارق كانت «أوديت» تجهل اتّساعه: فالفاسق الذي يتظاهر على الدوام بلباس الفضيلة نفسه أمام الذين لا يريد أن يرتابوا بأمر معايبه لا يملك الرقابة كي يتبيّن إلى أيّ حدّ تجرّه هذه المعايب، التي تتنامى باطّراد على نحو لاشعوريّ بالنسبة إليه، تجرّه شيئاً فشيئاً بعيداً عن طرق العيش المعتادة. ذلك أن أعمالاً أخرى كانت في تعايشها في صميم فكر «أوديت» مع ذكرى الأعمال التي تخفيها عن «سوان» تتلوّن شيئاً فشيئاً بانعكاساتها وتسري العدوى فيها دون أن تجد فيها أيّ غرابة ودون أن تبدو ناشزة في الوسط الخاصّ الذي ترعاها فيه داخل ذاتها. أمّا إذا روت عنها لِـ«سوان» فقد كان يصاب بالهلع من جرّاء كشفها للمحيط الذي تمزّق الستار عنه. فقد كان ذات يوم يحاول، دون أن يجرح شعور «أوديت»، أن يسألها إن لم تذهب في يوم إلى بيوت قوّادات. وكان والحق يُقال متيقّناً من العكس، فقد سبق أن أدخلت الرسالة المغفلة ذلك الافتراض إلى فكره ولكن على نحو آلي، ولم يلاق فيه أي قبول ولكنّه مكث فيه في الواقع. وكان «سوان» يتمنّى كيما يتخلّص من وجود الشكّ، وهو ماديّ بحت ولكنّه مزعج، أن تقتلعه «أوديت». فقالت: «لا! لا!» ثم أضافت وهي تكشف في ابتسامة عن رضى مزهوّ لم تعد تدرك أنّه لا يمكن أن يبدو مشروعاً في نظر «سوان»: «وليس يعني أنني لا ألاقي مضايقات بسبب ذلك. فثمّة واحدة ظلّت تنتظرني البارحة أكثر من ساعتين

وكانت تعرض عليّ الثمن الذي أريد. ويبدو أنّ سفيراً قال لها: «إن لم تأتيني بها قتلتُ نفسي». وقد قِيل له إنّي خرجتُ، وذهبتُ في النهاية وحدّثتُها بنفسي كي تبارح. وددتُ لو ترى كيف استقبلتُها، فقد قالت لي خادمتي التي كانت تسمعني في الغرفة المجاورة إنّني كنت أصرخ بأعلى صوتي: «ولكنني أقول لك إنّي لا أريد! تلك فكرة خطرت والأمر لا يروقني. وأَحْسَبُ على الرغم من كلّ شيء أنني حرّة في أن أفعل ما أشاء! لو كنت بحاجة إلى مال لفهمت...» لدى البوّاب أمرٌ أن لا يدعها تدخل بعد الآن وعليه أن يقول إنّي في الريف. آه! وددت لو أنّك كنت مختبئاً في مكان ما. فأظنّ أنّك كنت سررت يا عزيزي. لا يزال لدى «أوديت» الصغيرة كما ترى بعض الصلاح مهما رأوا أنّها جديرة بالكراهية».

بيد أن اعترافاتها نفسها، يوم تجود بها، بذنوب كانت تفترض أنّه اكتشفها إنّما كانت في نظر «سوان» نقطة انطلاق إلى شكوك جديدة أكثر مما تضع حدّاً للقديمة. ذلك أنّها ما كانت تناسب البتّة على نحو دقيق تلك الشكوك، فعبثاً أسقطت «أوديت» من اعترافها كل ما كان جوهريّاً فقد كان يظلّ في الجوانب الثانويّة أمر لم يتخيّله «سوان» قطّ يرهقه بجدّته ويمكّنه من تغيير حدود مشكلة غيرته. تلك الاعترافات لم يعد بمقدوره أن ينساها، فقد كانت روحه تجرفها وتتقاذفها وترجّحها كأنّما هي جثث، وكانت تُنَغَّص من جرّائها.

وحدّثته ذات مرّة عن زيارة لها قام بها «فورشفيل» في يوم احتفال «باريس مورسي». «كيف ذلك، أو كنت تعرفينه مذ ذاك؟ آه! أجل، صحيح»، يقول مستدركاً كي لا يبدو وكأنّه يجهل الأمر. وأخذ يرتجف فجأة لدى التفكير بأنّها ربّما كانت تتناول طعام الغداء مع «فورشفيل» في «البيت الذهبيّ» يوم احتفال «باريس مورسي» الذي تلقّى فيه منها تلك الرسالة التي حافظ عليها بحرص كبير. وأقسمت له أن لا. «مع أنّ «البيت الذهبي» يذكرني بأمر لا أدريه علمت أنّه لم يكن صحيحاً»، يقول لها ليخيفها. «أجل، بأني لم أذهب إلى هناك في ذلك المساء الذي قلت لك

فيه إنّني خارجة منه حينما كنت تبحث عنّي لدى «بريفو»، تجيب (وتظنّ من هيئته أنّه عارف بالأمر) بتصميم فيه استحياء أكثر ممّا فيه وقاحة، وخشية من إغاظة «سوان» تريد أن تخفيها بداعي الاعتزاز بالنفس، إلى جانب الرغبة في أن تبدي له أنّها تستطيع أن تكون صريحة. ولذلك ضربت بدقّة الجلّاد وقوّته، دقة وقوّة خلتا من القسوة لأن «أوديت» لم تكن تعي الأذى الذي تلحقه بـ«سوان»، بل هي أخذت بالضحك ربّما كي لا يبدو عليها على وجه الخصوص أنها ذليلة خجلى. «صحيح أنّي لم أذهب إلى «البيت الذهبي» وأنّني كنت خارجة من منزل «فورشفيل». لقد ذهبت حقّاً إلى مطعم «بريفو»، ولم يكن ذلك من قبيل المزاح، والتقى بي هناك وطلب إليّ الدخول لمشاهدة صوره المطبوعة. إلا أن أحدهم كان قد حضر لزيارته. وقلت لك إنّني خارجة من «البيت الذهبي» لأنّني خشيت أن يزعجك الأمر. فأنت ترى أن ذلك كان بالأحرى من قبيل لطيف الصنيع في ما يخصّني. ولنفرض أنني كنت على خطأ فإني على الأقلّ أقولها بصراحة. فأيّة مصلحة لديّ ألا أقول لك كذلك إنني تناولت طعام الغداء معه يوم احتفال «باريس مورسي» ما دام الأمر صحيحاً ولا سيّما أنّنا ما كنّا متعارفين كثيراً نحن الاثنين يا عزيزي». وابتسم لها بالجبن المفاجئ الذي للرجل الفاقد القوى الذي صنعته تلك الأقوال المرهقة. وهكذا، حتى في الشهور التي ما تجرّأ البتّة أن يعود إلى التفكير فيها لأنّها كانت بالغة السعادة، تلك الشهور التي أحبتّه فيها، كانت قد بدأت تكذب عليه! وكمثل هذه اللحظة (في أول مساء مارسا فيه «الكاتليا») التي قالت له فيها إنّها خارجة من «البيت الذهبي»، كما كان ينبغي أن تكون ثمة لحظات أخرى تحمل في طيّاتها كذلك كذبة لم يشكّ «سوان» بأمرها. وتذكّر أنها قالت له يوماً: «ما عليّ إلّا أن أقول للسيّدة «فيردوران» إن فستاني لم يكن جاهزاً وإن عربتي وصلت متأخرة. هنالك على الدوام وسيلة نتدبّر بها أمرنا». وكان لا بدّ في الكثير من المرّات التي أسرّت إليه بكلمات من ذلك القبيل تشرح تأخيراً وتبرّر تبديلاً في وقت أحد المواعيد، كان لا بدّ

على الأرجح أن تخفي عنه هو الآخر، ودون أن يرتاب بالأمر آنذاك، شيئاً ستفعله مع آخر غيره، مع آخر قالت له: «ما عليّ إلّا أن أقول لِـ«سوان» إن فستاني ليس جاهزاً وإن عربتي وصلت متأخّرة. هنالك على الدوام وسيلة نتدبّر بها أمرنا». كان «سوان» يحسّ تحت أعذب ذكرياته وتحت أبسط الأقوال التي قالتها له «أوديت» بالأمس: وقد آمن بها وكأنّها أقوال من الإنجيل، وتحت الأعمال اليوميّة التي روت له عنها، وتحت الأماكن المألوفة كأكثر ما تكون، كمنزل خيّاطتها وشارع «الغابة» وميدان سباق الخيل، كان يحسّ بالوجود الممكن الدفين لكذبات تجعل أعزّ ما ظلّ لديه منحطّاً في عينيه (فضل أمسياتها، وشارع «لابيروز» نفسه الذي لا بدّ غادرته «أوديت» على الدوام في ساعات غير تلك التي قالت له عنها) يحسّ به يشيع في كلّ مكان شيئاً من الهلع الغامض الذي شعر به وهو يستمع إلى الإقرار المتعلّق «بالبيت الذهبي» وكمثل الحيوانات النجسة في «خراب نينوى» يزعزع حجراً فحجراً ماضيه بأسره، ذلك الوجود الذي يختفي بفضل ذلك الفائض من الوقت الذي يدع متّسعاً ومكاناً حتى في أكثر الأيّام تفصيلاً والذي يمكن أن يستخدم بمثابة مخبأ لبعض الأعمال. ولئن كان يُعرض الآن في كل مرّة تأتيه ذاكرته باسم «البيت الذهبي» الأليم فلم يعد مردّ ذلك، شأن ما وقع له منذ عهد قريب جدّاً في أمسية السيّدة «دو سانت أوفيرت»، أنّه يذكّره بسعادة فقدها منذ زمن طويل، بل بمصيبة علم بها منذ قليل فقط. ثم كان من أمر اسم «البيت الذهبي» ما كان من أمر اسم جزيرة «الغابة» وتوقّف شيئاً فشيئاً عن تعذيب «سوان». ذلك أنّ ما نخاله حبّنا وغيرتنا ليس هوى واحداً مستمرّاً غير مجزّأ. فإنّهما يتألّفان من عدد لا حصر له من صنوف الغرام المتتالية وضروب الغيرة المختلفة وكلّها سريعة الزوال ولكنّها تولّد فينا من جرّاء وفرة أعدادها التي لا تنقطع انطباع الاستمرار ووهم الوحدة. وإنّما قوام حياة حبّ «سوان» واستمرار غيرته موت رغبات لا تحصى وشكوك لا تحصى وإخلافها بالعهد، وكلّها اتّخذت من «أوديت» موضوعاً لها. فلو ظلّ زمناً طويلاً دون أن يراها لما

حلّ محلّ تلك التي تموت أخرى غيرها. ولكنّ وجود «أوديت» كان يوالي زرع فؤاد «سوان» بصنوف من الحنان والشكوك متعاقبة.

وفي بعض الأمسيات كانت تعود فتصبح فجأة معه من لطافة تحذّره بقسوة أنّه يجدر به الإفادة منها في الحال تحت طائلة ألا يراها تتجدّد قبل سنوات. كان لا بدَّ له من الدخول في الحال إلى منزلها «لممارسة الكاتليا» وكانت الشهوة التي تدّعي أنّها تعصف بها مفاجئة متعذّرة الشرح ملحّة، والمداعبات التي تغدقها عليه فيما بعد معبّرة وغريبة إلى حدّ أنّ هذه المودّة العنيفة البعيدة عن الحقيقة كانت تبعث في نفس «سوان» من الغمّ بمقدار ما تفعل الكذبة والإساءة. وبينما كانت ذات مساء قد دخل معها، بناءً على الأمر الذي وجّهته إليه، خيّل إليه فجأة، وهي تمزج قبلاتها بأقوال محمومة تناقض جفاءها المعتاد، أنّه يسمع ضجّة. فنهض وبحث في كل مكان ولم يجد أحداً ولكنه لم يجرؤ أن يستعيد مكانه بالقرب منها، فأقدمت حينئذ في أوج غضبها على تحطيم آنية وقالت لِ«سوان»: «ليس بالمستطاع عمل أيّ شيء معك!» وظلّ حائراً لا يعلم إن هي لم تخبئ واحداً شاءت أن تعذّب غيرته وتلهب حواسّه.

وكان يذهب أحياناً إلى بيوت الدعارة آملاً أن يعرف شيئاً عنها، ولكن دون أن يملك الشجاعة في تسميتها. وتقول القوّادة: «لديّ صغيرة سوف تعجبك». ويمكث ساعة في حديث مع فتاة مسكينة تعجب ألا يفعل أكثر من ذلك معها. وقالت له ذات يوم إحداهن وهي فتيّة رائعة: «ما أبتغيه أن أجد صديقاً، وحينئذ يمكنه أن يوقن أني لن أذهب قطّ مع أحد». وسألها «سوان» بقلق: «حقّاً، أتظنّين أنّه يمكن لامرأة أن تتأثّر لأنّها محبوبة ولا تخدعك في يوم؟» - «بالتأكيد، ذلك رهن بالطباع!» ولم يكن بوسع «سوان» إلّا أن يقول لتلك المومسات الأمور ذاتها التي كانت تروق أميرة «لوم». فقد قال ضاحكاً لتلك التي كانت تبحث عن صديق: «هذا لطيف، لقد وضعت عينين زرقاوين من لون زنّارك» - «وأنت أيضاً تضع كُمّين أزرقين». - «ما أطرف الحديث الذي بيننا في مكان كهذا! ألست

أزعجك؟ فربّما كان لديك ما تفعلينه؟» - «لا، لست على عجلة من أمري، ولو أزعجتني لقلته لك. إني على العكس أحبّ كثيراً سماع حديثك». - «ذلك يسرّني إلى حدّ بعيد». ثمّ يقول للقوّادة التي دخلت منذ لحظة: «ألسنا في حديث لطيف؟» - «أجل، ذلك بالضبط ما كنت أقوله في نفسي. كم هما عاقلان! ها إنّهم يأتون الآن للتحدث عندي. لقد قالها الأمير، ذلك اليوم، الأمور ههنا أفضل ممّا هي لدى زوجته. يبدو أنّ لجميعهنّ الآن في دنيا المجتمع نمطاً خاصّاً؛ إنّها فضيحة حقيقيّة! أترككما!، فلست متطّفلة». وتركت «سوان» مع المومس ذات العينين الزرقاوين. ولكنّه نهض بعد قليل يودّعها. لم تكن ذات أهمية بالنسبة إليه، فهي لا تعرف «أوديت».

لما أصيب الرسّام بمرض أشار عليه الدكتور «كوتار» برحلة في البحر، وقال كثير من الخلّص عن عزمهم الذهاب معه. ولم يستطع آل «الفيردوران» القبول بالبقاء وحدهم فاستأجروا «يختاً» ثم تملّكوه، وهكذا قامت «أوديت» بالعديد من الرحلات البحرية، وفي كلّ مرّة ينقضي بعض الوقت على ذهابها كان «سوان» يحسّ أنّه بدأ ينفصل عنها، على أنّه حالما يعلم أنّها عادت لم يكن بمقدوره المكوث دون أن يراها وكأنما تلك المسافة الروحيّة تتناسب والمسافة الماديّة. وفي مرّة ذهبوا فيها شهراً فحسب فيما يعتقدون، انطلقوا من الجزائر إلى تونس ثم إيطاليا ثم اليونان فالقسطنطينيّة في آسيا الصغرى، إمّا لأنّهم وقعوا ضحيّة إغراء في الطريق وإمّا لأنّ السيّد «فيردوران» فَكَّرَ في إعداد الأمور سلفاً كي يدخل السرور إلى قلب زوجته فلم يخبر فئة الخُلّص إلّا شيئاً فشيئاً. كانت الرحلة مستمرّة منذ سنة تقريباً. وكان «سوان» يجد نفسه هادئ البال ويكاد يكون سعيداً. ومع أنّ السيّدة «فيردوران» حاولت إقناع عازف البيانو والدكتور «كوتار» أن عمّة الأوّل ومرضى الثاني لم تكن بهم حاجة إليهما وأنّه ليس من الحذر في شيء على أيّة حال أن يسمح للسيّدة «كوتار» بالعودة إلى باريس التي يؤكد السيّد «فيردوران» أنّها في ثورة، فقد اضطرت أن تطلق حرّيتهما في

القسطنطينيّة. وعاد الرسّام معهما. وبعد عودة هؤلاء المسافرين الثلاثة بقليل أبصر «سوان» عربة نقل عام تمرّ باتجاه «اللوكسمبور»، وكان ذاهباً بعمل إلى هناك، فقفز فيها فوجد نفسه يجلس قبالة السيّدة «كوتار» التي كانت تقوم بجولة زيارات «أيّامها» وهي باللباس الرسميّ تضع ريشة في قبعتها وفستان الحرير وفروة اليدين ومظلة كبيرة وحافظة بطاقات وقفّازين أبيضين منظفين. وكانت حينما ترتدي هذه الشارات تذهب سعياً على قدميها في أيام الصحو من بيت إلى آخر في الحيّ نفسه، ولكنّها تلجأ بعد ذلك إلى عربة النقل العام وفروعها لتنتقل إلى حيّ آخر. وفي أثناء اللحظات الأولى وقبل أن تستطيع لطافة المرأة الفطريّة اختراق تصنّع البورجوازيّة الصغيرة، وإذ لا تعلم إن كان يجدر بها من جهة أخرى أن تحدّث «سوان» عن آل «الفيردوران»، قالت له على نحو طبيعي جدّاً بصوتها البطيء المربك الناعم الذي كان يغطيّه تماماً بين الحين والحين صوت العربة الراعد أقوالاً اختارتها من بين تلك التي كانت تسمعها وتردّدها في البيوت الخمسة والعشرين التي تتسلّق أدراجها في نهار واحد:

- «لست أسألك يا سيّدي إن كان رجل يجاري حركة العصر مثلك قد رأى في مبنى «ميرليتون» رسم «ماشار» الذي هرع إليه كلّ أهل باريس. فما قولك فيه؟ هل أنت في معسكر المحبّذين أم في معسكر الذامّين؟ ليس من حديث في جميع الصالات إلّا عن رسم «ماشار». ولستَ من الأناقة والنقاء على شيء، لستَ تجاري العصر إن لم تدلِ برأيك حول رسم «ماشار».

ولما أجاب «سوان» أنّه لم تسبق له مشاهدة هذا الرسم خشيت السيّدة «كوتار» أنّها جرحت شعوره بحمله على الاعتراف بذلك.

- «آه حسن جدّاً، إنّك على الأقل تعترف بالأمر صراحة» ولست تظنّ أنّه من العار عليك أنّك لم تشاهد رسم «ماشار». وإنّي أجد ذلك من جانبك جميلاً جدّاً. أمّا أنا فقد شاهدته والآراء منقسمة حوله، فهنالك من يرى فيه بعض التصنّع وبعض المبالغة وأجده أنا مثاليّاً. إنها بالطبع لا تشبه نساء صديقنا «بيش» الزرقاء والصفراء.

بيد أنّه ينبغي لي أن أقرّ بصراحة، ولن تجدني تماماً من نساء آخر هذا القرن، ولكني أقولها حسبما يخطر لي، إني لا أفهم. يا إلهي، إنّي أعترف بالصفات التي في رسم زوجي؛ إنّه أقلّ غرابة ممّا يفعل عادة ولكنّما انبغى أن يخطّ له شاربين أزرقين. أمّا في ما يخصّ «ماشار»! اسمع، إن زوج الصديقة التي أذهب الآن إلى بيتها (الأمر الذي يوفّر لي المتعة العظيمة في أن أمضي معك) قد ودعها إن هو ظفر بمقعد في الأكاديمية (إنّه من زملاء الدكتور) أن يوصي على رسم لها لدى «ماشار». ذلك بالطبع حلم جميل! وإنّ لي صديقة أخرى تزعم أنها تفضّل «لولوار». أنا لست أكثر من جاهلة مسكينة بالفنّ وربّما كان «لولوار» متفوّقاً على صعيد التقنية. بيد أني أرى أن أولى صفات الرسم، وبخاصّة حينما يكلّف ١٠,٠٠٠ فرنك، أن يكون مماثلاً وأن تكون المماثلة ممتعة.

وبعدما جادت السيّدة «كوتار» بهذه الأقوال التي أوحى بها ارتفاع ريش قبّعتها وعدد حافظة بطاقاتها والرقم الصغير المدوّن بالحبر على قفّازيها بيد صاحب المصبغة وارتباكها في التحدّث لِـ«سوان» عن آل «الفيردوران»، وإذ رأت أنّهما لا يزالان بعيدين عن زاوية شارع «بونابرت» حيث ينبغي أن يقف بها السائق، أصغت إلى قلبها يشير عليها بأقوال أخرى. فقالت له:

- «لا بدّ أنّ أذنيك طنّتا يا سيّد في أثناء الرحلة التي قمنا بها مع السيّدة «فيردوران». فما كان حديث إلا عنك».

وعجب «سوان» كثيراً إذ كان يفترض أن اسمه لا ينطق به البتّة أمام آل «الفيردوران». وأضافت السيّدة «كوتار» قولها: «لقد كانت السيّدة «دو كريسي» هناك على أيّة حال، وذلك يعني كلّ شيء. فحينما تكون «أوديت» في مكان لا تستطيع البتّة أن تظلّ وقتاً طويلاً دون التحدّث عنك، وأنت تعلم أنّها لا تتحدّث عنك بالسوء». ثم قالت وهي ترى إشارة ارتياب تصدر عن «سوان»: «كيف! أتشكّ في الأمر؟».

وعادت تقول يدفعها صدق قناعتها، ولا تقرن على أيّة حال أيّ فكرة

سيّئة بالكلمة التالية التي تأخذها بالمعنى الذي تستخدم فيه للتحدّث عن المودّة التي تجمع بين الأصدقاء فحسب:

«ولكنّها تعبدك! آه! في اعتقادي أنّه ينبغي ألا يُقَال ذلك عنك في حضرتها فقد يحلّ بمن قال ما يحلّ به! كانت تقول بصدد كل شيء، إن شاهدنا لوحة على سبيل المثال: «آه! لو كان ههنا، فهو من يستطيع أن يقول لكم إن كانت أصليّة أو لا، فليس ثمّة من يضاهيه في هذا الأمر». وكانت تسأل في كلّ وقت: «ما عساه يفعل في هذه اللحظة؟ لو عمل قليلاً فقط! من أسف أن يكون رجل بمثل مواهبه كسولاً إلى هذا الحدّ. (أنت تصفح عنّي، أليس كذلك؟) إني أراه في هذه اللحظة وهو يفكّر بنا ويتساءل أين نحن». وقد بدر منها قول وجدته غاية في الجمال: فقد قال لها السيّد «فيردوران»: «ولكن كيف تستطيعين أن تري ما يفعل في هذه اللحظة بما أنّنا على بعد ثماني مئة فرسخ منه؟» حينئذ أجابته «أوديت»: «لا شيء يستحيل على عين الصديقة». لا، أقسمت أني لا أقول لك ذلك لأدغدغ مشاعرك، إنّ لديك صديقة حقيقيّة كما لا يتوافر كثيراً مثلها. وعلى أيّة حال أقول لك إنك إن كنت لا تعرف ذلك فأنت الوحيد الذي لا يعلم. لقد قالت لي السيّدة «فيردوران» في اليوم الأخير (ففي أمسيات الرحيل يطيب التحدّث أكثر كما تعلم): «لن أقول بأن «أوديت» لا تحبّنا، بيد أنّ كل ما نقوله لها قد لا يساوي الكثير في مقابل ما قد يقوله السيّد «سوان». أوه! يا إلهي! ها إنّ السائق يوقفني وكاد يفوتني شارع «بونابرت» في ثرثرتي معك... فهل تتكرّم وتقول لي إن كان ريش قبّعتي مستقيماً؟».

وأخرجت السيّدة «كوتار» يدها ذات القفّاز الأبيض من فروتها كي تبسطها لِـ«سوان»، يدها التي انبعث منها ما يقابلها من رؤى حياة الكبار التي ملأ عطرها العربة ممزوجاً برائحة المصبغة. وأحسّ «سوان» أنّه يفيض حناناً إزاءها بقدر ما يتمّ له إزاء السيّدة «فيردوران» (وبمقدار ما يتمّ له تقريباً إزاء «أوديت» لأنّ العاطفة التي يحسّ بها نحو هذه الأخيرة لم تعد من الحبّ على كثير إذ لم يعد يخالطها الألم) بينما ظلّ يتابعها من منصّة

الحافلة بعينين مشفقتين وهي تعبر شارع «بونابرت» بخطى شجاعة، عالية الريش، ترفع بيد تنورتها وتمسك بالأخرى مظلّتها وحافظة بطاقاتها التي تكشف عن رقمها وتدع فروتها تتأرجح أمامها.

لقد غرست السيّدة «كوتار»، وهي أفضل في علاجها من زوجها، كيما تنافس العواطف المريضة التي يكنّها «سوان» لِ«أوديت»، غرست إلى جانبها عواطف أخرى من عرفان الجميل والصداقة، ولكنّها طبيعيّة، عواطف تجعل «أوديت» في خاطر «سوان» أكثر إنسانيّة (أكثر شبهاً بالنساء الأخريات، لأنّ النساء الأخريات يستطعن الإيحاء بتلك العواطف) وتعجّل في استحالتها النهائيّة إلى «أوديت» التي عشقها عشقاً هادئاً، تلك التي اصطحبته ذات مساء، بعد حفلة في منزل الرسّام، لاحتساء كوب من شراب البرتقال برفقة «فورشفيل» والتي استشفّ «سوان» إمكانية العيش السعيد بالقرب منها.

كثيراً ما فكّر بالأمس مذعوراً أنّه سوف يتوقّف يوماً عن كونه عاشقاً لِ«أوديت»، فيَعِد نفسه أن يكون متيقّظاً وأن يتعلّق بحبّه ويمسك به حالما يحسّ أنّه بدأ يهجره. بيد أنّ تناقص حبّه أخذ يوافقه في الآن نفسه تناقص في رغبته أن يظلّ عاشقاً. ذلك أنّه ليس بمقدورنا أن نتغيّر، يعني أن نصبح شخصيّة أخرى، فيما نستمرّ في الخضوع لمشاعر الشخصيّة التي لم نعد عليها. وكان يلمح أحياناً في صحيفة اسم واحد من الرجال ممّن يفترض أنهم ربّما كانوا من عشّاق «أوديت» فيعيد إليه بعض الغيرة. ولكنّها كانت هيّنة جداً وبما أنها تقدّم له البرهان على أنّه لم يخرج بعد تماماً من ذاك الزمن الذي تعذّب فيه كثيراً - الذي عرف فيه كذلك نمطاً من الشعور عامراً بالشهوة - والذي ربّما سمحت له ظروف الطريق الطارئة أن يعود فيلمح خفية في البعيد محاسنه، فإن تلك الغيرة كانت توفر له بالأحرى إثارة ممتعة، مثلما تقدّم آخر برغشة للباريسي الكئيب الذي يغادر البندقية ليعود إلى فرنسا البرهان على أن إيطاليا والصيف لا يزالان غير بعيدين. بيد أنّه كان يلاحظ في أغلب الأحيان أن هذا الزمن الخاصّ جدّاً في حياته

الذي كان يغادره، حينما يجهد إن لم يكن للبقاء فيه فعلى الأقلّ ليحتفظ منه بصورة واضحة ما دام يستطيع ذلك، كان يلاحظ أنّ ذلك لم يعد بمقدوره. كان بودّه أن يلمح هذا الحبّ الذي غادره منذ قليل كأنّما هو منظر وشيك الزوال. إلا أنّه من الصعب جداً أن يزدوج المرء وأن يقدّم لنفسه المشهد الحقيقي لشعور كفّ عن امتلاكه إلى حدّ لا يبصر معه بعد قليل، وقد خيّم الظلام على عقله، شيئاً من بعد فيعدل عن التطلّع ويرفع نظّارته ويمسح زجاجها. كان يقول في سره إنّه من الخير أن يستريح قليلاً وأن الوقت سوف يتّسع له بعد قليل فيقبع مع اللافضول في خَدَر المسافر الناعس الذي يشدّ قبعة على عينيه ليغفو في العربة التي يحسّ أنّها تنقله على نحو متسارع بعيداً عن البلد الذي طال عيشه فيه والذي عزم أن لا يدعه يبتعد دون أن يودّعه الوداع الأخير. وحتى حينما التقط «سوان» مصادفة بالقرب منه، شأن ذلك المسافر إن استفاق فحسب في فرنسا، البرهان على أن «فورشفيل» كان فيما مضى عشيق «أوديت» فقد لاحظ أنّه لا يحسّ بأيّ ألم من جرّاء ذلك، وأن الحبّ أصبح الآن بعيداً، وأسف لأنّه لم يتمّ تنبيهه إلى اللحظة التي يهجره فيها إلى غير رجعة. ومثلما حاول قبل أن يقبّل «أوديت» للمرّة الأولى أن يطبع في ذاكرته الوجه الذي حملته في نظره لفترة طويلة والذي كانت ذكرى تلك القبلة على وشك أن تبدّله، كذلك ودّ، لو استطاع بالفكر على الأقلّ، أن يودّع «أوديت» إذ هي بعد موجودة، «أوديت» تلك التي توحي بالحبّ والغيرة وتسبّب له العذاب والتي لن يبصرها الآن من بعد.

وكان على ضلال، إذ كان سوف يراها مرّة واحدة بضعة أسابيع بعد ذلك. والأمر تمّ في أثناء النوم وفي شفق أحد الأحلام. كان في نزهة مع السيّدة «فيردوران» والدكتور «كوتار» وشابّ يعتمر طربوشاً ولا يستطيع التعرّف به والرسّام و«أوديت» ونابوليون الثالث وجدّي على درب يحاذي البحر ويطلّ عليه عموديّاً تارة من ارتفاع شاهق وطوراً من بضعة أمتار فحسب حتى إنهم كانوا يصعدون وينحدرون باستمرار، فالذين ينحدرون

من المتنزّهين كانوا يغيبون عن أنظار الذي لا يزالون في صعود، وبقية النور القليلة أخذت تضعف وبدا إذ ذاك كأن ليلاً حالكاً سيحلّ على الفور وكانت الأمواج بين الحين والحين تقفز حتى الشاطئ ويحسّ «سوان» على خدّه رشاشاً بارداً جدّاً. وكانت «أوديت» تقول له أن يمسحه فلا يستطيع ويبدو خجلان من جرّاء ذلك إزاءها ومن أنّه كان أيضاً بقميص النوم. وكان يأمل أن لا يُلَاحَظَ ذلك بفضل العتمة، ولكن السيّدة «فيردوران» حدّقت إليه مستعجبة لفترة طويلة رأى وجهها يتشوّه في أثنائها وأنفها يتطاول وأنّ لها شاربين كبيرين. وأعرض عنها لينظر إلى «أوديت» وكانت شاحبة الوجنتين إلى جانب نقط حمراء صغيرة، وخطوط وجهها مجهدة متعبة، ولكنها كانت تنظر إليه بعينين تفيضان حناناً وكأنهما على وشك الإفلات للسقوط فوقه كمثل دموع، وأحسّ أنّه يحبّها إلى حدّ أنّه ودّ لو يأخذها معه في الحال. وفجأة أدارت «أوديت» معصمها ونظرت في ساعة صغيرة وقالت: «ينبغي أن أذهب»، وكانت تستأذن الجميع بالطريقة نفسها دون أن تنفرد بـ«سوان» ودون أن تقول له أين ستراه في المساء أو في يوم آخر. ولم يجرؤ على سؤالها وكان يود اللحاق بها ويضطرّ دون أن يلتفت إليها أن يجيب وهو يبتسم عن سؤال للسيدة «فيردوران»، ولكنّ فؤاده كان يخفق خفقاً مخيفاً؛ كان يشعر بالبغض الشديد إزاء «أوديت» وودّ لو يفقأ عينيها اللتين كان يحبهما منذ قليل حبّاً جمّاً ويسحق وجنتيها غير النضرتين. كان يوالي الصعود مع السيّدة «فيردوران»، يعني الابتعاد في كلّ خطوة عن «أوديت» التي تنحدر في الجهة المعاكسة. وفي غضون ثانية انقضى الكثير من الساعات منذ أن ذهبت. ودعا الرسّام «سوان» إلى ملاحظة أنّ نابوليون الثالث اختفى بعد لحظة على أثرها. وأضاف يقول: «لقد كان الأمر بالتأكيد متّفقاً عليه فيما بينهما، ولا بدّ أنّهما التقيا في أسفل المنحدر ولكنّهما لم يشاءا التوديع سويّة بسبب اللياقات. إنّها عشيقته». وشرع الشاب المجهول يبكي؛ وحاول «سوان» أن يعزّيه، فقال له وهو يمسح دموعه ويرفع طربوشه كي يكون أكثر ارتياحاً: «إنّها على حقّ

على أيّة حال؛ لقد نصحتها بذلك عشرات مرّات. فلِمَ الاكتئاب من جرّاء ذلك؟ فإنّما الرجل بالضبط من كان يستطيع أن يفهمها». هكذا كان «سوان» يحدّث نفسه، لأنّ الشاب الذي لم يستطع التعرّف به بادئ الأمر كان هو نفسه؛ فقد كان وزّع شخصيّته، شأن بعض الروائيين، على شخصين، ذاك الذي يحلم وآخر يراه أمامه يعتمر طربوشاً.

أما في ما يخصّ نابوليون الثالث فإنّما ساهم تداعي أفكار غامض ثم بعض التبديل في وجه البارون المعتاد وأخيراً الشريط الكبير لوسام الشرف الذي يحمله في إطلاق اسم «فورشفيل» عليه. ولكنّه كان بالحقيقة «فورشفيل» في كل ما يمثّله، في نظره، الشخص الحاضر في الحلم وكلّ ما يذكّره به. ذلك أن «سوان» كان يستخلص في غفوته استنتاجات خاطئة من صور ناقصة متغيّرة إذ يتمتّع مؤقّتاً على أية حال بقدرة خلّاقة كبيرة إلى حدّ أنه كان يتكاثر بمجرّد الانقسام على غرار بعض المتعضّيات الدنيا؛ فقد كان يصنع راحة يد غريبة من الحرارة التي يحسّها في راحة يده ويظنّ أنّه يشدّ عليها ويستنبط من مشاعر وانطباعات لم تتضّح بعد في وعيه كأنّما أحداثاً تسوق بترابطها المنطقي، وفي اللحظة المناسبة أثناء نوم «سوان»، الشخص الضروريّ لتقبّل حبّه أو التسبّب في إيقاظه. وفجأة حلّ ليل دامس وقرع جرس الإنذار ومر بعض السكانّ وهم يجرون هاربين من المنازل المحترقة؛ كان «سوان» يسمع صوت الأمواج المتواثبة وفؤاده الذي كان يخفق من قلق في ضلوعه بالعنف نفسه. وفجأة ضاعفت خفقات قلبه من سرعتها وشعر بألم وغثيان لا يتبيّن مصدرهما، فيما يصيح به فلّاح تغطي جسمه الحروق وهو يمرّ به: «تعال واسأل «شارلوس» أين ذهبت «أوديت» تقضي آخر السهرة مع رفيقها، فقد كان معها فيما مضى وهي تقول له كلّ شيء، فهما اللذان أشعلا الحريق». وكان الرجل خادمه الذي جاء يوقظه ويقول له:

- «إنّها الثامنة يا سيّدي وقد حضر الحلّاق، فقلت له أن يعود بعد ساعة». إلا أن هذه الأقوال إذ ولجت موجات النوم الذي كان «سوان»

غارقاً فيه لم تصل إلى وعيه إلا بعد تعرّضها لهذا التحوّل الذي يبدو به شعاع في أسفل الماء شمساً، مثلما اتخذ صوت جرس الباب قبل لحظة في أسفل تلك الهاوية رنين جرس الإنذار فولّد حادثة الحريق. ثم إن الإطار الذي كان نصب عينيه ذهب هباءً وفتح عينيه وسمع للمرة الأخيرة صوت أحد أمواج البحر وهو يبتعد. ولمس خدّه فإذا هو جاف ولكنّه يذكر مع ذلك أثر برودة الماء وطعم الملوحة. ونهض وارتدى ثيابه. وكان قد أحضر الحلاق باكراً لأنّه سبق أن كتب في العشيّة لجدّي أنّه سوف يمضي بعد الظهر إلى «كومبريه» بعدما علم أنّ السيّدة «دو كامبرمير» - الآنسة «لوغراندان»- ستقضي فيها بضعة أيّام. وإذ تقرنان في باله إلى سحر هذا المحيّا الفنّي روعة منطقة ريفيّة لم يذهب إليها منذ زمن طويل فقد كانتا توفّران له معاً جاذباً حمله في النهاية على مغادرة باريس لبضعة أيّام. وبما أنّ المصادفات المختلفة التي تضعنا في حضرة بعض الأشخاص لا تطابق الوقت الذي نحبّهم فيه بل تستطيع تجاوزه فتحدث قبل بدايته وتتكرّر بعدما ينتهي، فإن المرّات الأولى التي يظهر فيها داخل حياتنا كائن سوف ينال فيما بعد إعجابنا إنّما تكتسب في نظرنا على نحو لاحق قيمة التحذير والإنذار. فعلى هذا النحو كان «سوان» يرجع غالباً إلى صورة «أوديت» التي صادفها في المسرح في ذلك المساء الأول الذي لم يكن يفكّر فيه أن يعود فيلقاها في يوم - ويتذكّر الآن أمسية السيّدة «دو سانت أوفيرت» التي قدّم فيها اللواء «دو فروبيرفيل» إلى السيّدة «دو كامبرمير». وإنّ اهتمامات حياتنا متعدّدة إلى الحدّ الذي ليس يندر فيه أن نرى في الظرف نفسه معالم سعادة لم تقم بعد توضيح إلى جانب تفاقم غمّ نعاني منه، ولا ريب أنّ الأمر كان يمكن أن يحدث في مكان آخر غير منزل السيّدة «دو سانت أوفيرت». ومن ذا حتى يعلم، لو اتّفق له في ذلك المساء أن يكون في مكان آخر إن كانت ضروب أخرى من السعادة وصنوف أخرى من الغمّ لم تقع له ثم هي تبدو فيما بعد وكأنّها محتّمة؟ بيد أنّ ما كان يبدو له كذلك هو ما سبق أن وقع له، ولم يكن يستبعد أن يرى شيئاً من قبيل العناية

الإلهية في كونه عقد العزم على الذهاب إلى أمسية السيّدة «دو سانت أوفيرت» لأنّ عقله الراغب في إلقاء نظرة معجبة على وفرة ابتكارات الحياة والعاجز عن أن يطرح طويلاً على نفسه سؤالاً عسيراً، كأن يعلم أفضل ما كان عليه أن يتمنّاه، كان يعتبر في الآلام التي عانى منها في ذلك المساء والمتع التي تستعدّ للبروز ولا تزال بعد أسيرة التوقّع - والتي تصعب المفاضلة بينها - ضرباً من الترابط الضروري.

ولكن بينما كان يزوّد حلّاقه بإشادات كي لا يَفْسُدَ تصفيف شعره في عربة القطار، وذلك بعد ساعة من استيقاظه، عاد يفكّر بحلمه، ورأى من جديد، مثلما أحس بها قريباً جدّاً منه، لون «أوديت» الشاحب ووجنتيها الهزيليتين وملامحها المتعبة وعينيها الذابلتين وكلّ ما توقّف عن ملاحظته - في أثناء فترات المودّة المتلاحقة التي جعلت من حبّه الثابت لِ«أوديت» نسياناً طويلاً للصورة الأولى التي وافته عنها - منذ الفترات الأولى في علاقتهما التي ذهبت تبحث فيها ذاكرته ولا شك، في أثناء نومه، عن الإحساس الصحيح بها. وصاح في سره بتلك الفظاظة التي كانت تعود إلى الظهور لديه على فترات متقطعة حالما تزول تعاسته وتتدنّى في الوقت نفسه سويّة أخلاقيّته: «تصوّر أنني بدّدت سني حياتي، وأنني ابتغيت الموت، ووقع لي أعظم حبّ عرفته، وذلك من أجل امرأة لم تكن تعجبني ولا كانت من النمط الذي أرغب فيه!».

* * *

القِسمُ الثّالثُ

أسماء البلدان: الاسم

مكتبة
t.me/soramnqraa

ما من حجرة، من بين الحجرات التي كنت أذكر صورتها أكثر ما أذكر في ليالي الأرق، كانت أقل شبهاً بحجرات «كومبريه» المفعمة بجوّ تملؤه الحُبَيّبَات وغبار الطلع ويفيض بالشهيّة والورع من حجرة فندق «الشاطئ الكبير» في مدينة «بالبيك» ذي الجدران المكسوّة بالدهان التي تحوي، شأن جدران مسبح صقيل الجوانب يتخذ فيها الماء لوناً أزرق، هواء نقيّاً لازورديّاً مالح الطعم. لقد نوّع صانع الأثاث «البافاري» الذي كلّف إعداد هذا الفندق في زخارف الغرف وقد جعل على امتداد ثلاثة جوانب من جدران الغرفة التي قيّض لي أن أسكنها خزائن كتب سفليّة بواجهات زجاجيّة ينعكس فيها، حسب الموقع الذي تشغله وبفعل أمر لم يتوقّعه، هذا القسم أو ذاك من لوحة البحر المتغيّرة فينشر إفريزاً من الرسوم البحرية الزاهية تستوقفه عوارض الأكاجو وحدها. إلى حدّ أنّ الغرفة كانت تبدو كلّها وكأنّها واحد من تلك المهاجع النموذجيّة التي تقدّم في معارض الأثاث الحديث والتي زيّنت بأعمال فنيّة افتُرض أنّها قادرة على إمتاع عينَي من سوف ينام فيها وزوّدت بمواضيع ذات صلة بنوعيّة الموقع الذي ينبغي أن يقوم عليها المسكن.

بيد أنّه ما من شيء كان أقلّ شبهاً بمدينة «بالبيك» الحقيقية تلك من المدينة التي كثيراً ما حلمت بها في الأيّام العاصفة حينما كانت الريح قويّة

إلى حدّ أنّ «فرانسواز» كانت توصيني، وهي تقودني إلى «الشانزيليزيه»، ألا أسير قريباً جدّاً من الجدران كي لا يسقط بعض الآجر على رأسي، وتروي والزفرات تخنقها عن الكوارث وحوادث الغرق التي أعلنت عنها الصحف. وما كانت بي رغبة أعظم من أن أشاهد عاصفة في البحر وذلك بمثابة لحظة من حياة الطبيعة الحقيقيّة رفع عنها الحجاب أكثر منها مشهداً جميلاً؛ وَلأقُلْ بالأحرى إنّه لم يكن من مشاهد جميلة في نظري سوى تلك التي كنت أعلم أنّها لم تركّب تركيباً مصطنعاً في سبيل مسرّتي، بل كانت ضروريّة لا تتبدّل، - سواء في ذلك جمال المناظر أو الفنّ الكبير. وما كان بي فضول ولا نَهَم لمعرفة غير ما كنت أظنّه أكثر حقيقة منّي وما كان له في نظري فضل إبراز شيء من فكر نابغة عظيم أو من قوّة الطبيعة أو جمالها بالصورة التي تتجلى فيها بوسائلها الخاصة بمعزل عن تدخّل البشر. ومثلما لا تعزّينا عن فقد أمّنا رنّة صوتها الجميلة التي يعيدها الحاكي بمفردها كذلك ربّما تركتني العاصفة التي يتمّ تقليدها على نحو آليّ في مثل لامبالاتي بينابيع المعرض المضيئة. وكنت أودّ كذلك، كيما تكون العاصفة حقيقية بالإطلاق أن يكون الشاطئ نفسه شاطئاً حقيقيّاً، لا سدّاً أنشأته البلديّة حديثاً. وكانت الطبيعة تبدو لي على أيّة حال، من خلال جميع المشاعر التي توقظها فيّ، ما كان أكثر تناقضاً من منتجات الإنسان الآليّة. فكلما تناقصت سمتها فيها تعاظمت الأجواء التي توفّرها لاتّساع روحي. وكان قد علّق في ذهني اسم «بالبيك» الذي ذكره لنا «لوغراندان» على أنّه شاطئ قريب جدّاً «من تلك الشواطئ الداكنة المشهورة بحوادث الغرق الكثيرة التي يغطيّها على مدى ستّة أشهر في العام كفن الضباب وزبد الأمواج».

كان يقول: «إنّك تحسّ فيها تحت خطاك، وأكثر مما يتمّ لك في مقاطعة «فينيستير» نفسها (وحتى إن تراكمت الفنادق فيها الآن دون أن تفلح في تبديل أقدم هيكل للأرض)، إنّك تحسّ فيها نهاية الأرض الفرنسية، الأرض الأوروبية، الأرض القديمة. إنّها آخر مقام للصيّادين، الذين

يشبهون جميع الصيّادين الذين عاشوا منذ بداية العالم، قبالة مملكة الضباب الأزلية في البحار والظلمات».

وفي يوم تحدثت فيه أمام «سوان» في «كومبريه» عن شاطئ «بالبيك» هذا كي أعرف منه إن كان أفضل نقطة تنتقى لمشاهدة أشد العواصف أجابني قائلاً: «أحسب طبعاً أني أعرف «بالبيك»! فكنيسة «بالبيك»، وهي من القرنين الثاني والثالث عشر ولا يزال نصفها من الطراز الروميني، ربّما كانت أغرب نموذج من الطراز القوطيّ النورماندي، وما أغربها! تخالها من الفنّ الفارسيّ». وتلك الأمكنة التي ما بدت لي حتى ذاك إلّا أنّها من طبيعة مغرقة في القدم ظلّت تعاصر الظاهرات الجيولوجية الكبرى - وهي، في كونها خارج التاريخ البشري، وخارجالمحيط أو الدبّ الأكبر، إلى جانب هؤلاء الصيّادين المتوحّشين الذين لم يقم بالنسبة إليهم عصر وسيط أكثر ممّا تمّ ذلك بالنسبة إلى الحيتان -، لقد كان من دواعي غبطتي العظيمة أن أراها تدخل فجأة في حلقة القرون بما أنّها عرفت الحقبة الرومينيّة[1] وأن أعلم أنّ ورقة النّفل القوطيّة جاءت كذلك تمدّ عروقاً في هذه الصخور الموحشة في الساعة المحدّدة، شأن تلك النباتات الهزيلة الدائمة التي تزيّن ههنا وهناك الثلوج القطبيّة لدى حلول الربيع. ولئن وفر الطراز القوطي لتلك الأماكن وأولئك الناس تحديداً ما كان ينقصهم فقد وفرّوا له بدورهم تحديداً مماثلاً. كنت أحاول أن أتمثّل كيف عاش هؤلاء الصيّادون والتجربة الهزيلة غير المتوقّعة التي حاولوا بها إقامة علاقات اجتماعية هناك في القرون الوسطى وقد تجمّعوا في نقطة من شواطئ «جهنّم» على حضيض جروف الموت. ويبدو لي الطراز القوطيّ أكثر حياة الآن وقد استطعت، بمعزل عن المدن التي تصوّرته فيها حتى ذاك على الدوام، أن أبصر كيف نبت وأزهر في حالة خاصّة وفوق صخور موحشة على هيئة قبة جرس أنيقة. وذهبوا بي لأشاهد نسخاً عن أشهر تماثيل

---

(١) époque romane وليس roumaine أو Romaine.

«بالبيك» - الحواريّين المجعّدي الشعر الفطس الأنوف، وعذراء البوّابة، وانحبست أنفاسي في صدري من جراء الفرح حينما فكرت أنني سأستطيع مشاهدتها وهي تبرز خطوطها على الضباب الأزليّ المالح. كانت الريح حينذاك، في أمسيات شباط العاصفة العذبة - وهي تنفخ في فؤادي، الذي تهزّه بعنف لا يقلّ عن موقد حجرتي، مشروع رحلة إلى «بالبيك» - تمزج في داخلي الرغبة في الهندسة القوطيّة بالرغبة في عاصفة على البحر.

وكنت أودّ لو أستقلّ منذ اليوم التالي قطار الساعة الواحدة واثنتين وعشرين الجميل الكريم الذي ما كنت أستطيع البتة أن أقرأ في دعايات شركات الخطوط الحديديّة وإعلانات الرحلات الدائرية ساعة المغادرة دون أن يخفق قلبي: فقد كانت تبدو لي وكأنّها تشق في نقطة محدّدة من بعد الظهيرة فرضة شيّقة وعلامة غامضة لا تزال الساعات المحروفة عن طريقها تقود منها إلى المساء وحتى صباح الغد ولكنّك سوف ترى عوضاً عن باريس إحدى تلك المدن التي يمرّ القطار فيها والتي يسمح لنا بحقّ الاختيار فيما بينها؛ ذلك أنّه كان يتوقّف في مدن «بايو» و«كوتانس» و«فيتريه» و«كيستامبير» و«بونتورصون» و«بالبيك» و«لانيون» و«لامبال» و«بينوديه» و«بونتافن» و«كمبرليه»، ويذهب يُثقله حمله الرائع من الأسماء التي يقدّمها لي والتي لا أعلم أيّها أفضّل لاستحالة في التضحية بأي منها. على أني كنت أستطيع، دون حاجة لانتظاره، أن أذهب في المساء نفسه، إذا ارتديت ثيابي على عجل وأذن لي أهلي بذلك، فأصل إلى «بالبيك» عندما يطلع الفجر على البحر الهائج الذي ألتجئ من زبد موجه المتطاير في الكنيسة التي من الطراز الفارسيّ. ولكن حينما وعدني أهلي لدى اقتراب عطلة عيد الفصح أن أقضيها لمرّة في شمال إيطاليا، إذا بأحلام العاصفة تلك التي عمرت نفسي تماماً ولا منية لي سوى رؤية أمواج تتبادر من كلّ مكان متزايدة الارتفاع على شاطئ من أكثرها إقفاراً وقرب كنائس شديدة الانحدار بادية الخشونة كمثل الجروف تصيح في أبراجها طيور البحر، إذا بها يزيلها فجأة وينزع عنها كلّ سحر ويقصيها ليحلّ محلّها في

نفسي الحلم المضاد، حلم الربيع الأكثر زركشة، لا ربيع «كومبريه» الذي لا يزال يلسعك بجميع إبَرِ الصقيع، بل الربيع الذي أصبح يكسو حقول «فييزوليه» بالزنبق والشقائق ويبهر «فلورانسا» بأزرار ذهبيّة شبيهة بما خطّت ريشة «أنجيليكو» Angelico. ومذ ذاك أخذت الأشعة والعطور والألوان وحدها تكتسب قيمة في نظري. ذلك أن تعاقب الصور أدخل في نفسي تبدّلاً في واجهة الرغبة وتبدّلاً تامّاً في لون إحساسي - مفاجئاً كتلك التي تحدث أحياناً في الموسيقى. ثم اتّفق أن يكفي تقلّب جوّي بسيط ليحدث فيّ ذلك التغيّر ودونما حاجة لانتظار عودة أحد الفصول. لأنّك غالباً ما تجد يوماً من هذا الفصل تائهاً في غيره فيجعلنا نعيش فيه ويذكّر في الحال بالمتع الخاصّة فيه ويثير فينا الرغبة إليها ويقطع علينا الأحلام التي كانت تدور في رؤوسنا إذ يبكّر أو يؤخّر في دور هذه الوريقة المنتزعة من فصل آخر في تقديم السعادة المحرّف. وكمثل تلك الظاهرات الطبيعيّة التي لا يمكن لرفاهنا أو عافيتنا أن يستخلصا منها سوى مكسب عارض وطفيف إلى اليوم الذي يضع العلم عليها يده فينتجها بالمقدار الذي يشاء ويردّ إلينا إمكانية ظهور بعيدة عن وصاية المصادفة ومعفاة من موافقتها، كذلك كفّ بعث أحلام الأطلسيّ وإيطاليا تلك عن أن يكون رهناً بتغيّرات الفصول والطقس فحسب. ولم تعد بي حاجة كيما أبعثها من جديد إلا لأنطق بهذه الأسماء: «بالبيك» والبندقية و«فلورانسا» التي تجمعت في داخلها بالنهاية الرغبة التي سبق أن أوحت بها إليّ الأماكن التي تدّل عليها. فقد كان العثور على اسم «بالبيك» على صفحات كتاب كافياً حتى في الربيع ليوقظ فيّ الشوق إلى العواصف وإلى الطراز القوطيّ النورماندي؛ أمّا اسم «فلورانسا» أو البندقية فيبعث فيّ الشوق، حتى في يوم عاصف، إلى الشمس والزنبق وقصر الدوجات وكنيسة عذراء الزهور.

ولئن امتصّت تلك الأسماء إلى الأبد الصورة التي كنت أحملها عن تلك المدن فإنّما فعلت بتبديلها وإخضاع انبثاقها في نفسي من جديد لقوانينها الخاصّة؛ ولقد نتج هكذا عنها أن جعلت تلك الصورة أوفر جمالاً

ولكنّها أشدّ اختلافاً عمّا يمكن أن تكون عليه في الواقع مدن النورماندي أو توسكانا، وأن تفاقمت، من جرّاء مضاعفة مباهج خيالي الاعتباطية، الخيبة المستقبليّة التي تخلّفها فيّ رحلاتي. فقد بالغتْ في الفكرة التي كانت لديّ عن بعض أماكن في الأرض فجعلتْها أكثر خصوصيّة وبالتالي أوفر حقيقة. فما كنت أتمثّل المدن والمناظر والأبنية الأثريّة آنذاك على أنها لوحات ممتعة في كثير أو قليل وقد اقتطعت ههنا وهناك في المادّة عينها، بل أتمثّل كلّاً منها على أنّه مجهول يختلف اختلافاً جوهرياً عن غيره، ونفسي متعطّشة إليه ولعلّها تفيد مني معرفته. ولكم اكتسبت فردية أكبر من أنها سميت بأسماء، أسماء وُقِفَتْ لها وحدها، أسماء من النمط الذي للأشخاص! ذلك أن المفردات تزوّدنا عن الأشياء بصورة صغيرة واضحة مألوفة كتلك التي تعلّق على جدران المدارس لتعطي للأطفال مثلاً عمّا هي عليه منضدة العمل والطائر وبيت النمال، وهي أمور يتمّ تصورّها على أنّها مثيلة جميع ما كان من نوعها. أمّا الأسماء فتزوّدنا عن الأشخاص - وعن المدن التي تجعل فينا عادة احتسابها فرديّة ووحيدة كما هو شأن الأشخاص - بصورة مبهمة تأخذ منها ومن رنّتها المتألقة أو القائمة اللون الذي يعلوها على نحو موحّد كمثل واحدة من تلك الملصقات الزرقاء تماماً أو الحمراء تماماً التي تجد فيها، من جرّاء قصور الأسلوب المستخدم أو نزوة لدى القائم بالزخرفة، أنّ اللون الأزرق أو الأحمر لا يشمل السماء والبحر فحسب بل يشمل كذلك القوارب والكنيسة والمارّة. ولما كان اسم «بارما»، وهي من المدن التي كنت أرغب أكثر ما أرغب في الذهاب إليها منذ أن قرأت كتاب **«دير بارما»**[١]، لما كان يبدو لي كثيفاً مالساً ليلكيّاً ناعماً، فإن حدّثوني عن بيت، أي بيت، في بارما سوف أحلّ فيه فإنّما سيبعث في نفسي غبطة التفكير بأنّني سأقطن منزلاً مالساً كثيفاً ليلكيّاً ناعماً لا صلة له بمنازل أيّة مدينة في إيطاليا بما أنّني كنت أتخيّله

(١) *La Chartreuse de Parme* للكاتب الفرنسي «ستاندال» (Stendhal).

فقط من خلال هذا المقطع، الثقيل الذي يؤلّف اسم «بارما» والذي لا يتّسع لأية نسمة هواء من خلال كل ما حقنته به من عذوبة «ستاندال» وألوان البنفسج. وحينما كنت أفكر بمدينة «فلورانسا» فكأنّما بمدينة خارقة العطور وشبيهة بتويج زهرة لأنّها تدعى مدينة الزنابق وكاتدرائيتها كنيسة عذراء الزهور. أمّا مدينة «بالبيك» فقد كانت من تلك الأسماء التي تبصر فيها، كأنّما على آنية فخار نورماندية قديمة تحتفظ بلون التراب الذي أخذت منه، ارتسام ما يشير إلى عادة قديمة أبطلت وحقّ إقطاعيّ ووضع قديم لبعض الأماكن وطريقة بالية في النطق أسهمت في تركيب مقاطعها المتنافرة وما كنت أشكّ بأني سألقاها حتى لدى صاحب النزل الذي سيقدّم لي قهوة بحليب فور وصولي ويأخذني لمشاهدة البحر الهائج أمام الكنيسة والذي كنت أضفي عليه هيئة المشاكس ومظهر الأبّهة وقدم القرون الوسطى التي تطبع أشخاص الحكايات الشعريّة القديمة.

فإن رسخت صحّتي وسمح لي أهلي بأن أستقلّ لمرّة على الأقلّ قطار الساعة الواحدة واثنتين وعشرين الذي كثيراً ما سافرت فيه بالمخيّلة وذلك للتعرّف إلى هندسة مقاطعة النورماندي أو بريتانيا ومناظرهما، إن لم يسمحوا بأن أذهب للإقامة في «بالبيك»، فقد كنت أودّ التوقّف بالأفضليّة في أجمل المدن. ولكن عبثاً كنت أقارن بينها، إذ كيف أختار، بما يفوق اختياري بين أفراد متميزين لا تصحّ المبادلة بينهم، بين «بايو» الشاهقة في ثوبها الكريم الذي من الدنتيلا الحمراء، «بايو» التي تتألّق قمّتها بفضل الذهب العتيق الملتمع في مقطعها الأخير؛ و«فيتريه» التي تؤطّر حركتها الحادّة زجاجها العتيق بمعيّنات من الخشب الأسود؛ و«لامبال» الحلوة التي تتنقّل في بياضها من لون صفار البيض إلى الرماديّ اللؤلؤيّ؛ و«كوتانس»، الكاتدرائيّة النورماندية التي يتوّجها مقطعها الأخير الدسم المصفرّ ببرج من الزبدة؛ و«لانيون» وسكونها القرويّ تعكّره ضجة العربة تتبعها الذباب؛ و«كيستامبير» و«بونتورصون» المضحكتان الساذجتان بريشهما الأبيض ومناقيرهما الأصفرين تتبعثران على الطريق المؤدية إلى

تلك الأمكنة النهريّة الشاعريّة؛ و«بينوديه»، هذا الاسم الذي يكاد لا يرتبط بالضفّة ويبدو النهر وكأنه يبغي جرفه بين طحالبه؛ و«بونتافن» وهي وثبة بيضاء وورديّة لجناح قبّعة خفيفة ينعكس ظلّها المرتعش في مياه قناة مخضوضرة؛ و«كامبرليه»، وهي أوثق رباطاً، وتقيم بين السواقي منذ القرون الوسطى تمتلئ بزقزقتها وتنثر عليها من لآلئها وسط لون ضبابيّ شبيه بذلك الذي تنشره عبر خطوط الزجاج العنكبوتيّة أشعّة الشمس التي استحالت أطرافاً غير حادّة من فضّة باهتة؟

كانت تلك الصور كاذبة لسبب آخر، وهو أنها حتى كانت بالضرورة مبسَّطة إلى حدّ بعيد. وليس من شكّ أنني اختزنت في مأوى الأسماء ما كان يصبو إليه خيالي ولا تدركه حواسيّ إلّا إدراكاً ناقصاً ودونما متعة في الوقت الحاضر؛ ولا شكّ أنّها كانت تمغنط الآن رغباتي بما أنّني راكمت فيه شيئاً من الحلم؛ على أن الأسماء لا تتّسع للكثير، فإن أقصى ما كان يمكن أن أحشره فيها اثنتين أو ثلاثاً من «الغرائب» الرئيسيّة في المدينة كانت تتقابل فيها دون مواقع وسيطة. فقد كنت ألمح في اسم «بالبيك» كما في الزجاج المكبّر في مسكة ريشة من تلك التي يبتاعونها في مسابح البحر، أمواجاً تتعالى حول كنيسة فارسيّة الطراز. وربّما كان تبسيط تلك الصور أحد أسباب السلطان الذي فَرضتْه عليّ. وحينما قرّر والدي في سنة من السنين أننا سنذهب لقضاء عطلة عيد الفصح في «فلورانسا» أو البندقية رأيتني مضطرّاً، إذ لا يتّسع لي مكان لأُدخل في اسم «فلورانسا» العناصر التي تؤلّف المدن بالعادة، أن أخرج مدينة عجائبيّة من إخصاب ما كنت أظنّ أنّه في الجوهر عبقرية «جيوتّو» Giotto عن طريق بعض العطور الربيعيّة. ولأنّه لا يمكن أن نضمّن الاسم من الديمومة ما يفيض كثيراً من المتّسع الذي فيه، فقد كان اسم «فلورانسا» ينقسم على الأكثر إلى خانتين، كمثل بعض لوحات «جيوتّو» نفسها التي تظهر الشخص نفسه في فترتين مختلفتين من نشاطه، فهو ينام هنا في سريره وهناك يستعدّ لامتطاء جواده. ففي إحدى الخانتين كنت أتأمّل تحت مظلّة فنية لوحة جداريّة جُعِلَ جزئياً

فوقها ستار من شمس صباحيّة أغبر مائل متدرّج؛ وفي الثانية (ولأني ما كنت أفكر بالأسماء على أنّها مثال أعلى لا يُبلغ إليه، بل على أنّها جوّ حقيقي سأبادر للانغماس فيه فإن الحياة غير المعيشة بعد، الحياة النقيّة غير الممسوسة التي أضعها فيه كانت تضفي على أكثر المتع ماديّة وأوفر المشاهد بساطة ذلك الجاذب الذي يطبعها في أعمال الرسّامين البدائيّين) كنت أسرع في اجتياز «الجسر القديم»[١] - للإسراع إلى الغداء الذي ينتظرني مثقلاً بالفواكه وبخمرة «كيانتي» - الجسر القديم المزدحم بأزهار النسرين والنرجس والشقائق. ذلك ما كنت أبصره (مع أنّني في باريس)، لا ما كان حولي. فالبلاد التي يهزّنا الشوق إليها، حتى من وجهة نظر واقعية بسيطة، إنّما تشغل في كلّ لحظة حيّزاً في حياتنا الحقيقية أكبر بكثير من البلد الذي نقيم فيه بالفعل. ولا ريب أنّني لو صرفت آنذاك اهتماماً أكبر إلى ما كان يعمر خاطري حينما أنطق بالكلمات التالية: «الذهاب إلى فلورانسا وبارما وبيزا والبندقية» لتبيّن لي أنّ ما كنت أراه ليس مدينة على الإطلاق بل شيئا مختلفاً عن كلّ ما كنت أعرفه ولذيذاً بالمقدار الذي يمكن أن تكون عليه بالنسبة إلى جماعة انقضت حياتها على الدوام في عشيّات شتوية هذه الآية المجهولة، عنينا بها صباحاً ربيعيّاً. وقد ميّزت هذه الصور الوهميّة الثابتة المتماثلة على الدوام التي ملأت ليلي ونهاري تلك الحقبة من حياتي عن تلك التي سبقتها (والتي كان يمكن أن تختلط بها في عيني مراقب لا يرى الأشياء إلّا من الخارج، يعني أنّه لا يرى شيئاً) مثلما تدخل فكرة نغميّة أمراً جديداً في «أوبرا» لا يمكن الارتياب بوجوده إن وقف المرء عند قراءة الكتيب فحسب، بل وأقلّ من ذلك إن ظلّ في خارج المسرح يكتفي بعدّ أرباع الساعة التي تنقضي. ثمّ إن الأيام في حياتنا غير متساوية حتى من وجهة نظر الكمّ البحتة. فالطبائع العصبيّة إلى حدّ ما، كما هي حالي، تملك في تطوافها بالأيّام «سرعات» مختلفة على غرار

(١) Ponte Vecchio في مدينة فلورانسا.

السيّارات. ثمّة أيام وعرة وعسيرة ننفق زمناً لا ينتهي في تسلّقها، وأيّام على منحدر تدع لك أن تمضي فيها نزولاً بأقصى سرعة وأنت تغنّي. وفي أثناء ذلك الشهر - الذي اجتررت فيه كنغم لا أجد معه سبيلي إلى الارتواء، صور «فلورنسا» والبندقية و«بيزا» تلك التي يحتفظ الشوق الذي تثيره فيّ بسمة فرديّة عميقة كما لو كان حبّاً، موجّهاً لشخص - لم أكفّ عن الاعتقاد بأنّها كانت تقابل واقعاً مستقلاً عنّي وقد كشفت لي عن أمل جميل جمالَ الرجاء الذي يمكن أن يحمله مسيحيّ من القرون الأولى عشيّة دخوله الجنّة. ولذلك، ودون أن أهتم للتناقض القائم في ابتغائي أن أنظر وألمس بأعضاء حواسيّ ما سبق أن صنعه الحلم ولم أدركه بها - وهو بذلك أكثر إغراء لها وأكثر اختلافاً عما تعرفه - فإن أكثر ما كان يلهب شوقي هو ما كان يذكّرني بحقيقة تلك الصور لأنّه بمثابة وعد بأنّه سوف يتمّ إرضاؤه. ومع أن موضوع حماستي كان الرغبة في ملذّات فنيّة فإن الأدلّاء كانوا يغذوّنها أكثر من الكتب الجماليّة، وأكثر من الأدلّاء دليل الخطوط الحديديّة. إنّ ما كان يؤثّر فيّ هو التفكير بأنّ «فلورانسا» هذه التي أراها قريبة في خيالي ولكنّها بعيدة المنال إنّما أستطيع، إن كانت المسافة التي تفصلها عنّي في داخلي غير سالكة، أن أبلغها بطريقة غير مباشرة، بالمواربة، وذلك بسلوك «طريق البرّ». وحينما كنت أردّد - وأضفي بذلك قيمة كبيرة على ما سوف أراه - أنّ البندقيّة هي «مدرسة «جيورجيونه»[1] ومنزل «تيتزيانو»[2] والمتحف الأكثر اكتمالاً للهندسة المنزليّة في العصر الوسيط» فقد كنت أشعر بالتأكيد أنني سعيد. وكنت أكثر سعادة مع ذلك حينما أخرج لشراء حاجة وأسير مسرعاً بسبب الطقس الذي عاد فأصبح بعد مضيّ «بضعة أيّام من ربيع مبكّر طقساً شتويّاً (كالطقس الذي نجده عادة في «كومبريه» في الأسبوع الذي يسبق الفصح) - وإذ أبصر في

(١) Giorgione رسام إيطالي أحدث تجديداً في مدرسة البندقية بإدخال علاقة بين الإنسان والطبيعة (١٤٧٧ - ١٥١٠).

(٢) le Titien أشهر رسامي مدرسة البندقية (١٤٧٧ - ١٥٧٦).

الشوارع شجر الكستناء الذي غاص في هواء صقيعيّ متميّع كالماء ولكنّه شرع مع ذلك، وهو المدعوّ الدقيق الذي ارتدى حلّته ولم يدع لليأس طريقاً إليه، يدوّر وينمّق في كتله المتجمدّة الخضرةَ التي لا تقاوم التي تناهضها قوّة البرد المجهضة ولكنّها لا تفلح في إيقاف اندفاعها التدريجي - وأفكّر إذ ذاك أن «الجسر القديم» تغطيّه أكداس من أزهار السوسن والشقائق وأن شمس الربيع أخذت تلوّن مياه القناة الكبرى بلون لازورديّ قاتم وبأعداد من الزمرّد الكريم حتى إنّها كانت تستطيع وهي تتكسّر على حضيض لوحات «تيتزيانو» أن تنافسها على صعيد غنى الألوان. ولم أعد أستطيع كتم فرحي حينما شرع والدي، فيما هو يستشير ميزان الضغط الجويّ ويأسف لبرودة الطقس، يبحث عن أفضل القطارات، وحينما أدركت أن المرء يستطيع إذ يدخل بعد الغداء إلى المخبر المتفحّم، إلى الحجرة السحريّة التي تأخذ على عاتقها إحداث التحوّل من حولها، أن يستيقظ في الغداة في مدينة المرمر والذهب «التي تزينها أحجار اليشب ويكسو أرضها الزمرّد». وهكذا لم تكن هي ومدينة الزنبق لوحات وهميّة توضع أمام المخيّلة قدر ما يشاء المرء بل كانتا موجودتين على مسافة معيّنة من باريس لا بدّ من اجتيازها إن ابتغى المرء مشاهدتهما في مكان ما محدد على سطح الأرض، لا في مكان آخر، وأنهما باختصار القول حقيقيتان تماماً. وزاد من حقيقتهما بالنسبة إليّ أن قال والدي: «يمكنكم بوجيز العبارة، البقاء في البندقية من ٢٠ إلى ٢٩ نيسان والوصول إلى فلورانسا «منذ صبيحة عيد الفصح»، فأخرجهما لا من المكان المجرّد فحسب، بل من ذلك الزمان الخياليّ الذي نحدّد فيه لا رحلة واحدة بمفردها بل رحلات أخرى متزامنة وذلك دون تأثر كبير لأنها ممكنة فقط - هذا الزمان الذي يعاد صنعه حتى ليمكن قضاؤه في مدينة بعدما تمّ قضاؤه في الأخرى - وخصّهما بهذه الأيام الخاصّة التي تشكّل شهادة أصالة للأمور التي تستخدم فيها لأن هذه الأيّام الفريدة إنّما تستهلك بالاستعمال ولا تعود ولا يمكن أن نعيشها ههنا بعدما عشناها هناك. وأحسست أنّ المدينتين

المتوّجتين اللتين سيقع عليّ أن أسجّل قبابهما وأبراجهما ضمن مخطّط حياتي الخاصّة عن طريق أكثر أنواع الهندسة تأثيراً في النفس إنّما تتجهان وجهة الأسبوع الذي يبدأ في نهار الاثنين الذي كان ينبغي أن تردّ المنظّفة فيه الصدريّة البيضاء التي لطّختها بالحبر وذلك كي تغرقا فيه لدى خروجهما من الزمن المثالي الذي لم تكونا موجودتين فيه بعد. ولكنّي كنت لا أزال في طريقي إلى آخر درجات الغبطة؛ وقد بلغتها أخيراً (إذ اكتشفت إذ ذاك فقط أنه لم يتنزّه في الشوارع الخافقة بالمياه والتي تلوّنها بالحمرة ظلال لوحات «جورجونه» الجدارية، كما لبثت أتخيّله على الرغم من التنبيهات الكثيرة، لن يتنزّه في البندقيّة عشيّة الفصح في الأسبوع المقبل الرجال «المهيبون الرهيبون كالبحر ويرتدون دروعهم ذات الالتماعات البرونزية تحت ثنيات معاطفهم التي بلون الدم»، بل يمكن أن أكون أنا المتنزّه، أنا الإنسان الصغير جدّاً الذي مثّله المصوّر بقبّعة كبيرة أمام البوّابات في صورة كبيرة لكنيسة القدّيس مرقص أُعِرْتُهَا) حينما سمعت والدي يقول لي: «الطقس لا بدَّ بارد بعد على القناة الكبرى ولعلك خيراً تفعل إن تأخذ في حقيبتك معطفك الشتوي وسترتك السميكة من قبيل الحيطة». ولدى سماع هذه الكلمات بلغت ما يشبه حالة الانخطاف. وأحسست أنّي بالحقيقة أدخل بين «صخور من المرو البنفسجي شبيهة برصيف صخريّ من بحر الهند»، وكنت ظننت الأمر حتى ذاك مستحيلاً. فخلعت عنيّ بأقصى درجات الرياضة وبما يفوق قواي هواء الغرفة الذي يحيط بي وكأنّه درع لا قيمة له واستبدلت به أقساماً مساوية من هواء البندقية، من ذلك الجوّ البحري الذي لا يحيط به قول والفريد كجوّ الأحلام الذي احتبسته مخيّلتي داخل اسم البندقيّة. وشعرت بتحرر من حاجات الجسد خارق يجري في داخلي ما لبث أن رافقته رغبة مبهمة في الإقياء من تلك التي تحسّ بها إذا اتّفق أن أصابك ألم شديد في الحنجرة، فاضطرّوا أن يضعوني في سريري وبي حمّى عنيدة إلى حدّ أن أعلن الدكتور أنّه لا بدّ من صرف النظر لا عن السماح بذهابي الآن إلى فلورانسا»

والبندقيّة فحسب بل تجنيبي حتى بعدما تعود إليّ العافية تماماً من الآن وإلى عام على الأقلّ كل مشروع رحلة وكلّ ما يدعو إلى الاضطراب.

وقد حظر كذلك حظراً مطلقاً، للأسف، أن يسمح لي بارتياد المسرح لسماع الممثلة «لا بيرما»، فربما حملت إليّ الفنانة الرائعة، التي كان يجد فيها «بيرغوت» بعض العبقرية، العزاء لأني لم أذهب إلى «فلورانسه» والبندقيّة ولن أذهب إلى «بالبيك» وذلك بتعريفي بما ربما كان في مثل أهميته وجماله. كان لا بدّ من الاكتفاء بإرسالي يوميّاً إلى «الشانزيليزيه» تحت رقابة شخص يحول دون أن أتعب فكانت «فرانسواز» التي دخلت في خدمتنا بعد وفاة خالتي «ليوني». وأصبح الذهاب إلى «الشانزيليزيه» لا يحتمل في ما يخصني. فلو سبق أن وضعها «بيرغوت» في واحد من كتبه إذن لهزني الشوق دونما شك إلى معرفتها شأن جميع الأشياء التي بدؤوا فوضعوا «نسختها الثانية» في خيالي. فقد كان يبعث فيها الدفء والحياة ويزودها بشخصية، فكنت أود أن ألقاها في الواقع. أما في تلك الحديقة العامة فما من أمر يتعلق بأحلامي.

وبينما كنت ذات يوم نهب الضجر في مكاننا المألوف بالقرب من الأحصنة الخشبية أخذتني «فرانسواز» في رحلة - إلى ما وراء الحدود التي تحميها على أبعاد متساوية حصون بائعات السكر النباتي الصغيرة - إلى تلك المناطق المجاورة، ولكنها غريبة. حيث الوجوه مجهولة وحيث تمرّ عربة الماعز. ثم هي عادت تأخذ حاجاتها عن كرسيها الذي يستند إلى كتلة من شجر الغار. وكنت في انتظارها أنقل خطاي على المرج الكبير وهو هزيل العشب قصيره وقد صفّرته الشمس، وفي نهايته يقوم الحوض الذي يعلوه تمثال، حينما قالت بنيّة ترتدي معطفها وتشد مضربها إليها لبنية أخرى صهباء الشعر كانت تلعب أمام النافورة، قالت توجه الحديث إليها وتصرخ بلهجة قاطعة: «الوداع يا جيلبيرت»، إنني عائدة، فلا تنسي أننا آتون هذا المساء إلى منزلك بعد العشاء». ومرّ اسم «جيلبيرت» هذا قريباً منّي وهو يزداد تذكيراً بتلك التي يشير إليها بقدر ما لم يكن يسمّيها بمثابة

غائب يجري الحديث عنه فقط، بل كان ينادي عليها؛ مرّ على هذا النحو قريباً مني، وهو في طور الفعل، إن جاز القول، بزخم يزيد منه منحنى قذفه واقتراب هدفه؛ - وهو ينقل على متنه، وإني لأحس ذلك، المعرفة والأفكار التي يحملها عن تلك التي كان موجّهاً إليها، لا أنا بل الصديقة التي تناديها، وكل ما تعود، إذ تنطق به، تراه أو تختزنه في الذاكرة على الأقل من ألفتهما اليومية والزيارات التي تقوم بها الواحدة للأخرى، وكل ذلك المجهول الذي يزيد من تعذّر وصولي إليه وإيلامه لي أنّه مألوف جداً وفي متناول هذه البنت السعيدة التي تكاد تلمسني به دون أن أستطيع ولوجه وتقذفه بصيحة تطلقها في الهواء: - وينشر مذ ذاك في الجو عبقاً لذيذاً بعثه من بعض نقاط خفيّة في حياة الآنسة «سوان» لمسها بدقة، ومن المساء الآتي، وعلى نحو ما سيكون بعد العشاء وفي منزلها؛ - ويؤلف كمسافر سماوي وسط الأطفال والخادمات سحابة صغيرة من لون ثمين شبيهة بتلك التي تتحدب فوق حديقة جميلة من حدائق «بوسّان» (Poussin) وتعكس بدقة، كسحابة أوبرا مليئة بالجياد والعربات، زاوية من حياة الآلهة؛ ويلقي أخيراً فوق هذا العشب المنزوع وفي المكان الذي تقف فيه قطعة من مرجة ذابلة ولحظة من فترة العصير للاعبة كرة الريش الشقراء (التي لم تتوقف عن قذفها واللحاق بها إلا عندما نادت عليها معلمة ذات ريشة زرقاء)، شريطاً صغيراً رائعاً بلون دوار الشمس وكمثل ضياء لا تستطيع لمسه يغطي المكان كبساط لم أكلّ من تنقيل خطاي المتأنية الحزينة المدنّسة فوقه بينما تصيح بي «فرانسواز»: «هيا زرزر معطفك ولنمض» وألاحظ للمرة الأولى بحنق أن لغتها رعاعية وأن ليس، يا أسفي، من ريشة زرقاء في قبعتها.

أتراها تعود إلى «الشانزيليزيه»؟ لم تكن هناك في الغد، ولكني رأيتها في الأيام التالية فيها، كنت أقضي الوقت كله أدور حول المكان الذي تلعب فيه مع صديقاتها حتى اتفق أن أرسلت إليّ في مرة لم يتوافر لهن العدد الكافي للعبة «الزوايا» تسألني إن كنت أريد أن أكمل العدد في فرقتهن، ولعبت مذ ذاك معها في كل مرّة تحضر فيها. بيد أن ذلك لم يتم

في كل يوم، إذ كان ثمّة أيام تحول فيها دون مجيئها دروسها والتعليم الديني وطعام العصر، أي مجمل تلك الحياة المنفصلة عن حياتي والتي أحسست بها مرتين تمر مركَّزة في اسم «جيلبيرت»، تمر شديدة الإيلام على مقربة مني في المنحدر الصغير المؤدي إلى «كومبريه» وعلى مرج «الشانزيليزيه». كانت في تلك الأيام تعلن سلفاً أننا لن نراها، فإن كان بسبب دروسها قالت: «ما أزعجه من أمر، فلن أستطيع المجيء في الغد وستلهون جميعاً بدوني» بلهجة حزينة تبعث في نفسي بعض العزاء. أما إذا كانت مدعوة لقضاء بعد الظهيرة وسألتها، وأنا لا أدري بالأمر، إن كانت ستأتي للعب أجابتني بقولها: «أملي الأكيد أن لا! آمل أن تسمح لي والدتي بالذهاب إلى منزل صديقتي» ولكني كنت أعلم على الأقل في تلك الأيام أنني لن أراها، فيما كانت والدتها تصطحبها في مرّات أخرى على نحو مفاجئ إلى السوق فتقول في الغد: «آه! أجل، لقد خرجتُ مع ماما» وكأنه أمر طبيعي ولا يعقل أن يكون أكبر مصيبة ممكنة تحل بأحدنا. كان هنالك أيضاً أيام الطقس الرديء التي لا تريد فيها معلمتها، وهي تخشى عن نفسها من المطر، أن تصحبها إلى «الشانزيليزيه».

فإن كانت السماء مصدر ارتياب ما كنت أكف منذ الصباح عن مساءلتها آخذاً في حسابي جميع المؤشرات. فإن رأيت السيدة قبالتي تضع قبعتها قرب النافذة كنت أقول في نفسي: «هذه السيدة تزمع أن تخرج، فالطقس إذن يسمح بالخروج، فلِمَ لا تفعل «جيلبيرت» ما تفعل هذه السيدة؟»، ولكن الطقس كان يظلم وتقول والدتي إنه لا يزال بالإمكان أن يتحسن وإن شعاع شمس ربما كان كافياً في سبيل ذلك، ولكن السماء سوف تمطر على الأرجح؛ وإن أمطرت السماء فما نفع الذهاب إلى «الشانزيليزيه»؟ لذلك لم تكن نظراتي القلقة تفارق السماء المحيَّرة الغائمة. وتظل قائِمة، والشرفة أمام النافذة عابسة. وفجأة لم أكن أبصر فوق أحجارها الكئيبة لوناً أقل كمداً، بل أحس فيها ما يشبه السعي إلى لون أقل كمداً وخفقة شعاع متردد يودّ أن يحرر نوره. وإذا الشرفة بعد لحظة شاحبة

تعكس ما يشبه قطرات الصباح فيما أقبلت تحط عليها آلاف الظلال من حديدها المشبك، وتشتتها هبة ريح فتظلم الأحجار من جديد، ولكنها تعود وكأنما أضحت أليفة. فتعود الأحجار تبيضّ على نحو غير ملحوظ وأراها، بواحد من تلك التصعيدات المستمرة كتلك التي في الموسيقى تبلغ بنغمة واحدة، في ختام الافتتاحية، أقصى الشدة بتنقيلها نقلاً سريعاً بين جميع الدرجات الوسيطة، أراها تصل إلى ذهب الأيام الجميلة الثابت الذي لا يتغيّر وعليه يبرز بلون أسود ظل الحاجز الحديدي المطروق مقطعاً كأنه نبات ينمو على هواه، بدقة في تخطيط أقل الجزئيات تنم عن جد وجداني وارتياح رجل الفن، وببروز شديد ونعومة كبيرة في هدوء كتلها القائمة السعيدة حتى إن تلك الظلال العريضة الكثيرة الأوراق التي ترقد فوق هذه البحيرة المشمسة كانت تبدو بالحقيقة وكأنها تعلم أنها ضمانات هدوء وسعادة.

ألا أيها اللبلاب الآني والنباتات الجدارية السريعة الزوال! الأكثر كآبة والأقل لوناً، في نظر الكثيرين، من جميع النباتات التي تستطيع الامتداد على الجدران أو تزيين النوافذ، أما بالنسبة إليّ، فأحبّها جميعاً إلى نفسي منذ اليوم الذي ظهرت فيه على شرفتنا وكأنها ظل وجود «جيلبيرت» التي ربما وصلت إلى «الشانزيليزيه» ولعلها تقول لي حالما أصل إلى هناك: «فلنبدأ حالاً باللعب لعبة «الزوايا»، إنك من أفراد فرقتي»؛ الهشة التي تذهب بها هبة ريح، ولكنها ذات صلة لا بالفصول بل بالساعة؛ ما يعد بالسعادة الفورية التي يرفضها النهار أو يحققها، وما كان عنان السعادة الفورية أي سعادة الحب؛ الأكثر عذوبة ودفئاً على الأحجار من الطحالب نفسها؛ المعمّرة التي يكفيها شعاع لتنبثق وتبعث الفرح حتى في صميم الشتاء.

وحتى في تلك الأيام التي تختفي فيها سائر النباتات الأخرى وتُغَيَّبُ القشرة الخضراء الجميلة التي تكسو جذوع الأشجار العتيقة تحت الثلج، وحينما يتوقف هذا الثلج عن السقوط ولكن الجو لا يزال كثير الغيوم كيما

يدع لي أملاً في خروج «جيلبيرت»، حينئذ كانت الشمس التي برزت فجأة تشبك خيوطاً ذهبية وتنسج ظلالاً سوداء على الرداء الثلجي الذي يغطي الشرفة، مما يحمل والدتي على القول: «ويحك، لقد أصبح الطقس جميلاً، فعلّك تستطيع أن تحاول الذهاب إلى «الشانزيليزيه». وما كنا في ذلك اليوم نلاقي أحداً، أو لا نلاقي سوى بنية واحدة مستعدة للذهاب وتؤكد لي بأن «جبيلبيرت» لن تأتي. كانت الكراسي التي هجرتها جماعة المعلمات الوقورة المقرورة خالية. وبالقرب من المرج تجلس وحدها سيدة تقدم بها السن بعض الشيء وكانت تجيء في جميع حالات الطقس ترتدي على الدوام الثياب نفسها، رائعة بألوانها القاتمة، ولعلني كنت أضحّي للتعرف إليها في تلك الفترة، لو كانت العلاقة ممكنة، بسائر أكبر المكاسب المقبلة في حياتي. ذلك أن «جيلبيرت» كانت في كل يوم تذهب لتحيتها، فتسأل «جيلبيرت» عن أخبار «والدتها الحبيبة»، ويبدو لي أنني لو عرفتها لأصبحت في نظر «جيلبيرت» إنساناً مختلفاً تماماً، إنساناً على اطلاع بمعارف ذويها. كانت تقرأ على الدوام صحيفة «المناقشة» التي تدعوها «مناقشتي العزيزة»، بينما يلعب أحفادها بعيداً عنها، وكانت تقول للتظاهر بالأرستقراطية وهي تتحدث عن الشرطي أو عن مؤجرة الكراسي: «هذا الشرطي صديقي القديم» و«أنا ومؤجرة الكراسي من الأصدقاء القدامى».

أما «فرانسواز» فقد أصابها من البرد أكثر من أن تطيق البقاء في مكانها فذهبنا حتى جسر «الكونكورد» لنشاهد نهر «السين» المتجمد الذي كان يقترب منه كل واحد، وحتى الأطفال، دونما خشية، وكأنما من حوت قذفته الأمواج وقد فقد المقاومة واقترب من موعد تقطيعه. ونعود إلى «الشانزيليزيه». وكان الألم قد أضناني بين الأحصنة الخشبية الجامدة والمرج الأبيض المحصور في شبكة الممرات السوداء التي أزيل الثلج عنها والتي يمسك التمثال في يده من فوقها بدفقة من الجليد المضاف تبدو وكأنها تشرح حركة اليد. ثم إن السيّدة العجوز نفسها بعدما طوت صحيفتها

سألت مربية أطفال كانت في طريقها عن الساعة وشكرتها وهي تقول لها: «كم أنت لطيفة!» ثم رجت عامل الطريق أن يطلب من أحفادها العودة فإنها أصابها البرد، وأضافت تقول: «ذلك لطف منك عظيم جداً؛ وتعلم أني خجلانة!» وفجأة انشق الهواء: لقد أبصرت بين المهرج ومدينة الملاهي وفي الأفق المزدان والسماء المفتوحة ما يشبه العلاقة الخرافية، أبصرت ريشة الآنسة الزرقاء. ها هي ذي «جيلبيرت» تجري بأقصى سرعة في اتجاهي متألقة محمرة في ظل قبعة مربعة من الفرو وقد زادها البرد والتأخير والشوق إلى اللعب حيوية. وقبلما تصل إليّ بقليل تركت نفسها تتزحلق فوق الجليد، وكانت تتقدم متبسمة تفتح ذراعيها وكأنما تبتغي أن تأخذني بينهما، تفتح ذراعيها إما لتحافظ على توازنها على نحوٍ أفضل وإما لأنها تجد ذلك أوفر أناقة أو لتتصنع وقفة المتزلجات، وصاحت السيدة العجوز وقد بادرت إلى الكلام باسم «الشانزيليزيه» الصامتة لتشكر لِ«جيلبيرت» أنها جاءت دون أن تداخلها الخشية من الطقس: «مرحى! مرحى! هذا حسن جداً، ولعلي كنت أقول مثلك إن الأمر «عظيم» وإنها فعلة «قبضاي» لو لم أكن من زمن غير زمنكم من زمن الطراز القديم. إنك مثلي وفية رغم كل شيء لمنطقة «الشانزيليزيه» العتيقة، وكلانا لا نرهب شيئاً، هل أقول لك إنني أحبها حتى على هذا النحو؟ هذا الثلج، وربما سخرت مني، إنما يذكرني بفرو القاقوم!» وأخذت السيدة العجوز تضحك.

إن أول تلك الأيام - التي كان الثلج، وهو رمز القوى التي تستطيع حرماني من رؤية «جيلبيرت»، يضفي عليها كآبة يوم الفراق وحتى مظهر يوم الرحيل لأنه يغير الوجه ويكاد يحول دون استخدام المكان المعتاد للقاءاتنا الوحيدة وقد تبدل الآن وتراكمت فوقه الأغطية - إن ذلك اليوم أكسب حبّنا تقدماً مع ذلك، لأنه بدا وكأنه غم أول قاسمتني إياه. لم يكن سوانا من زمرتنا، وإن كوني الوحيد معها على هذا النحو إنما ظهر وكأنه لا بداية تآلف فحسب بل بدا لي الأمر من جانبها - وكأنها لم تجئ في مثل هذا الطقس إلا من أجلي - مؤثراً كما لو أنها تخلّت، في يوم دعيت

فيه إلى حفلة ما بعد الظهيرة، عن الذهاب لتجيء إلى ملاقاتي في «الشانزيليزيه». وأخذت أضع ثقة أكبر في حيوية صداقتنا ومستقبل صداقتنا التي ظلّت تنبض بالحياة وسط تخدّر الأشياء المحيطة وعزلتها وخرابها. وفيما كانت تضع كرات ثلجية في رقبتي. كنت أبتسم بتأثر مما يبدو لي في الآن نفسه إيثاراً تبديه لي إذ تقبل بي بمثابة رفيق سفر في هذه المنطقة الشتوية الجديدة وضرباً من الوفاء تحفظه لي في قلب المصيبة. وبعد قليل وصلت صديقاتها الواحدة تلو الأخرى، مترددات كعصافير الدُّوريّ، سوداوات تماماً فوق الثلج. وشرعنا نلعب، ولما كان ينبغي أن يختتم هذا النهار الكئيب بدايته بالفرح فقد قالت لي الصديقة ذات اللهجة الآمرة التي سمعتها في اليوم الأول تنادي على اسم «جيلبيرت»، قالت لي وأنا أقترب منها قبل أن نلعب لعبة الزوايا: «لا، لا! من المعلوم تماماً أنك تفضل أن تكون في فرقة «جيلبيرت»، وأنت ترى على أية حال أنها تومئ إليك». وكانت تناديني بالفعل كي أجيء على المرج الثلجي إلى فرقتها التي جعلت منها الشمس، إذ تضفي عليها تموجات البروكار القديم الوردية وتساقط خيوطه المعدنية، فرقة «القماش الذهبي».

إن ذلك اليوم الذي خشيت منه كثيراً كان على العكس من الأيام الوحيدة التي لم أكن فيها تعيساً إلى حد بعيد.

فأنا الذي لم يعد يفكر إلا أن لا يظل يوماً واحداً دون رؤية «جيلبيرت» (إلى حد أني لم أستطع ذات مرة لم تعد فيها جدتي ساعة العشاء أن أمتنع عن أن أحدّث نفسي في الحال أنني لن أستطيع الذهاب لفترة إلى «الشانزيليزيه» إن هي دهستها عربة، فالمرء حالما يحب لا يحب أحداً من بعد)، لم تكن تلك اللحظات التي كنت فيها بالقرب منها، والتي انتظرتها بالأمس بفارغ الصبر، والتي خشيت فيها من أجلها، والتي كنت أضحّي بكل ما عداها في سبيلها، لم تكن لحظات سعيدة. وكنت أعلم ذلك تمام العلم لأنها اللحظات الوحيدة في حياتي التي أركّز عليها انتباهاً دقيقاً لا يتحول ولا يجد فيها ذرة من السرور.

كانت في سائر الوقت الذي أنا فيه بعيد عن «جيلبيرت» بحاجة إلى مشاهدتها، فإذ كنت أحاول دونما انقطاع تمثّل صورتها إذ بي في نهاية المطاف لا أفلح في ذلك من بعد ولا أعرف بالدقة ما الذي يقابل حبي. ثم إنها لم تقل لي في يوم إنها تحبني، بل غالباً ما زعمت بالعكس أن لها أصدقاء تفضلهم عليّ وأنني رفيق طيبب تلعب معه بسرور مع أنه شارد الذهن لا يملكه اللعب تماماً؛ وكثيراً ما قدمت لي دلائل فتور ظاهرة كان يمكن أن تزعزع اعتقادي بأني إنسان يختلف في نظرها عن الآخرين لو انبثق هذا الاعتقاد من حب حبتني به «جيلبيرت»، لا من الحب الذي أكنه لها، شأن ما كان حاصلاً، الأمر الذي يجعله أكثر مناعة بما أنّه يخضعه للطريقة نفسها التي كنت مضطراً فيها، من جراء ضرورة داخلية، إلى التفكير بـ«جيلبيرت». على أن العواطف التي كنت أحسّ بها تجاهها لم يسبق لي شخصياً أن أعلنت عنها لها. صحيح أني كنت أسطر باستمرار اسمها وعنوانها على جميع صفحات دفاتري، إلا أنني كنت أشعر بعزيمتي تفتر لدى رؤية تلك السطور المبهمة التي أكتبها دون أن تفكر لذلك بي والتي تجعل لها من حولي مكاناً واسعاً في الظاهر دون أن تمتزج لذلك بحياتي، لأنها لم تكن تحدثني عن «جيلبيرت» التي لن يقيض لها حتى أن تراها، بل عن رغبتي الخاصة التي تبدو وكأنها تبرزها لي بمثابة أمر شخصي محض وغير واقعي وممل وعاجز. إن أكثر ما يستوجب التعجيل بالنسبة إلى «جيلبيرت» وإلى أن يرى أحدنا الآخر وأن يستطيع كلّ منا البوح بحبه للآخر، هذا الحب الذي لعله لم يبدأ بعد حتى ذاك إن جاز القول. ولعل الأسباب المختلفة التي تجعلني في شوق شديد إلى هذا الحد لرؤيتها، ولعلها كانت بدت أقل إلحاحاً بالنسبة إلى رجل ناضج، إذ يتفق أن نكتفي فيما بعد، وقد أصبحنا حاذقين في رعاية ملذاتنا، باللذة التي نجنيها من التفكير بامرأة على غرار ما كنت بـ«جيلبيرت» دون أن نهتم بأن نعلم إن كانت هذه الصورة تطابق الواقع، وكذلك باللذة التي نجنيها من حبها دون أن تكون بنا حاجة إلى التأكد من أنها تحبنا؛ أو أن نتخلى عن

لذة مصارحتنا بميلنا نحوها كيما نجعل الميل الذي بها نحونا أكثر رسوخاً، فنقلد بذلك بستانيّي اليابان الذين يضحون بالعديد من الزهور ليحصلوا على زهرة أوفر جمالاً. بيد أني كنت لا أزال أعتقد في الفترة التي أحببت فيها «جيلبيرت» أن الحب يتمتع بوجود حقيقي خارج ذواتنا، وأنه يقدم لنا ضروب سعادته وفق ترتيب لا نملك أن نغير شيئاً فيه، إذ إن أقصى ما يسمح لنا به أن نستبعد العقبات؛ فكان يبدو لي أنني لو استبدلت من تلقاء نفسي بعذوبة البوح تصنع اللامبالاة لما حرمت نفسي من إحدى المتع التي حلمت بها أكثر ما حلمت فحسب، بل لأنشأت على هواي حباً مصطنعاً لا قيمة له. ولا صلة له بالحب الصحيح الذي أكون قد تخليت عن السير في دروبه الغامضة والسابقة الوجود.

ولكنني حينما كنت أصل إلى «الشانزيليزيه» - ويضحي بمقدوري قبل أي شيء آخر أن أواجه حبي، لأجري فيه التصحيحات اللازمة، بسببه الحي المستقل عني - وما إن أجدني في حضرة «جيلبيرت سوان» تلك التي اتكلت على رؤيتها لتجديد الصور التي لم تعد تجدها ذاكرتي المتعبة، «جيلبيرت سوان» تلك التي لعبت معها البارحة والتي دفعتني منذ قليل إلى تحيتها والتعرف إليها غريزةٌ عمياء كالتي في السير تضع لنا قدماً أمام الأخرى قبلما يتسنى لنا التفكير بالأمر، حتى يتم كل شيء لتوه وكأنها والبنيّة التي كانت موضوع أحلامي كائنان مختلفان. فإن كنت منذ الأمس أحمل في ذاكرتي، على سبيل المثال، عينين ناريتين وسط وجنتين مليئتين ملتمعتين، راح وجه «جيلبيرت» يقدم لي الآن بإلحاح شيئاً لم أكن بالضبط قد تذكرته، استطالة حادة في الأنف اتخذت، باقترانها آنياً بملامح أخرى، أهمية تلك الميزات التي تحدد أحد الأجناس في التاريخ الطبيعي وأحالتها بنيّة من نوع ذوات الأخطام الدقيقة. وفيما كنت أستعد للإفادة من تلك اللحظة التي تقت إليها لأنصرف على صورة «جيلبيرت» التي سبق أن أعددتها قبل مجيئي والتي لم أعد ألقاها في مخيلتي، إلى ضبط للخطوط يسمح لي في الساعات الطويلة التي أكون فيها وحيداً أن أتيقن من أنها هي

التي أتذكرها بالضبط وأن حبي لها هو الذي أزيد فيه شيئاً فشيئاً كمثل قطعة تنشئها، كانت تمرر لي الطابة. وكمثل الفيلسوف المثالي الذي يأخذ في الحسبان العالم الخارجيّ الذي لا يؤمن عقله بحقيقته فإن الأنا نفسها التي جعلتني أحبّها قبلما تتأكّد لي هويّتها كانت تبادر إلى حملي على القبض على الطابة التي تمدّها إليّ (كما لو كانت رفيقة جئت ألعب معها، لا شقيقة الروح التي جئت ألحق بها) وعلى أن أقول لها بداعي التأدّب وحتى الساعة التي تنصرف فيها ألفاً من الأقوال اللطيفة التي لا معنى لها وتمنعني والحالة هذه إمّا أن أصمت فأستطيع أخيراً في فترة الصمت وضع اليد على الصورة الملحّة التي أضعتها، وإمّا أن أقول لها الكلمات التي يمكن أن يحرز بها حبّنا مراحل التقدم الحاسمة التي أراني في كل مرّة مضطّراً أن لا أحسب حسابها إلّا في فترة ما بعد الظهيرة التالية.

ولقد كان يحرز مع ذلك بعضاً منها. فقد ذهبنا ذات يوم مع «جيلبيرت» حتى كوخ بائعتنا التي كانت تبدي لنا لطافة خاصّة - ذلك أن السيّد «سوان» كان يبتاع في دكّانها كعكة المُبَهَّر، وهو يتناول منه الكثير لأسباب صحيّة إذ كان يعاني من أكزيما محلّيّة ومن الإمساك الذي يعاني منه الأنبياء -، وكانت «جيلبيرت» تريني ضاحكة صبيّين صغيرين أحدهما يشبه الرسّام الصغير والآخر عالم الطبيعة الصغير في كتب الأطفال. ذلك أن أحدهما لا يرغب في مصّاصة حمراء لأنّه يفضّل البنفسجيّة، والآخر يرفض، دامع العين، خوخة تريد الخادمة أن تشتريها له ويقول في نهاية المطاف بلهجة حماسيّة: «إنّي أفضّل الخوخة الأخرى لأنّ فيها دودة!» واشتريت كلّتين، الواحدة بفلس. وطفقت أنظر بإعجاب إلى كلل العقيق البرّاقة المحفوظة في آنية منفردة، وكانت تبدو لي ثمينة لأنّها كانت ضاحكة شقراء على غرار الفتيات ولأنها تساوي خمسين سنتيماً للقطعة الواحدة. وسألتني «جيلبيرت»، وكانوا يخصّونها بقسط أوفر من المال، أيّة واحدة أجدها أجمل. تملك شفافية الحياة وألوانها، وما وددت أن أحملها التضحية بأيّة واحدة منها. وأحببت لو تستطيع شراءها كلّها وتحريرها.

على أنّي دللتها على واحدة بلون عينيها. فأخذتها «جيلبيرت» وبحثت عن شعاعها المذهب وداعبتها ودفعت فديتها ولكنها أعادت إليّ في الحال أسيرتها وهي تقول لي: «خذ، هي لك، إنّني أعطيك إيّاها فاحتفظ بها عربوناً للذكرى».

وفي مرّة أخرى سألتها، ولا أزال تشغلني رغبة الاستماع إلى الممثّلة «لا بيرما» في مسرحية كلاسيكية، إن لم يكن بحوزتها نشرة يتحدّث فيها «بيرغوت» عن «راسين» ولا وجود لها في الأسواق. فرجتني أن أذكّرها بعنوانها الصحيح، فبعثت إليها في المساء برسالة صغيرة وسطّرت على المغلّف اسم «جيلبيرت سوان» الذي سبق أن خططته مرّات عديدة في دفاتري. وفي الغد حملت إليّ النشرة التي أرسلت في طلبها في طرد عقدت عليه شرائط بنفسجيّة وختم بالشمع الأبيض. وقالت لي وهي تخرج من كمّها الرسالة التي بعثتُ بها إليها: «ترى تماماً أن ذلك ما طلبته منّي». ولكنّي لاقيت عناء في التعرّف في عنوان تلك البرقية - التي ما كانت بالأمس سوى عجالة صغيرة كتبتها والتي أصبحت، منذ أن سلّمها عامل البرقيّات لبوّاب «جيلبيرت» وحملها خادم إلى غرفتها، هذا الشيء الذي لا يقدّر بثمن وإحدى البرقيات الصغيرة التي تسلّمتها ذلك اليوم - إلى خطوطي العقيمة المنفردة تحت الدوائر المطبوعة التي وضعت عليها في البريد وتحت الكتابات التي أضافها بقلم الرصاص أحد موزّعي البريد، وهي علامات التحقّق الفعليّ وأختام للعالم الخارجي ودوائر بنفسجيّة ترمز إلى الحياة وجاءت للمرّة الأولى تلتصق بحلمي وتمسك به وتقوّيه وتسعده.

واتفق كذلك أن قالت لي في يوم: «تدري، بوسعك أن تدعوني «جيلبيرت»، وإني على أيّة حال سأدعوك باسم المعموديّة؛ فذلك مزعج جدّاً». بيد أنّها استمرّت لفترة تكتفي بأن تقول لي «أنتم»، ولما لفتُّ انتباهها إلى هذا الأمر ابتسمت وألّفت بل أنشأت جملة، كتلك التي لا هدف لها في كتب القواعد الأجنبيّة سوى حملنا على استخدام كلمة جديدة، وأنهتها باسمي. وإذ تذكّرتُ فيما بعد ما أحسست به آنذاك كشفت

فيه انطباعاً بأنّي قد أُمْسِكَ بي لحظةً في فمها، أنا دون غيري، عارياً مجرّداً من أيّ من الشروط الاجتماعيّة التي يتمتّع بها كذلك إمّا رفاقها الآخرون وإمّا ذويّ، حينما تنطق باسم أسرتي، والتي بدت شفتاها - في الجهد الذي تنفقه، إلى حدّ ما على غرار والدها، لتنطق باللفظات التي تبغي إبرازها - وكأنّهما تنزعانها عنّي، وكأنّهما تخلعانها عنّي كما تخلع قشرة فاكهة لا تستطيع أن تبتلع سوى لبّها، فيما كانت نظرتها ترقى إلى درجة الألفة الجديدة ذاتها التي بلغها كلامها فتصيبني على نحو مباشر أكثر ولا يفوتها أن تُظهر وعيها للأمر واغتباطها به وحتيشكرها وذلك بأن تقترن بابتسامة.

على أني ما كنت أستطيع في اللحظة ذاتها تقدير قيمة تلك المتع الجديدة. فلم تكن توفرها البنيّة التي أُحِبُّها لأناي الذي يحبّها، بل توفرها الأخرى، تلك التي كنت ألعب معها، لأناي الآخر الذي لا يملك لا صورة «جيلبيرت» الحقيقيّة ولا القلب المشغول الذي كان وحده يستطيع أن يعرف ثمن سعادة كهذه لأنّه وحده تاق إليها. ولم أكن أتمتّع بها حتى بعدما أعود إلى البيت، لأنّ الضرورة التي كانت تجعلني في كلّ يوم آمل أنّي سأتأمّل «جيلبيرت» في الغد تأمّلاً دقيقاً هادئاً سعيداً، وأنّها سوف تبوح لي أخيراً بحبّها وهي توضح لي الأسباب التي اضطّرت من أجلها أن تكتمني إيّاه حتى ذاك، تلك الضرورة نفسها كانت تضطّرني إلى احتساب الماضي كلا شيء وإلى التطلّع أمامي فحسب، والنظر إلى المكاسب الصغيرة التي وهبتني إيّاها لا في حدّ ذاتها وكأنّما تكفني نفسها، بل على أنّها درجات جديدة أضع عليها قدمي وسوف تمكّنني من أن أخطو خطوة إضافيّة إلى الأمام وأن أصل في النهاية إلى السعادة التي لم أَلْقَهَا بعد.

ولئن كانت تخصني أحياناً بعلامات الحبّ تلك، فقد كانت تشقيني أيضاً إذ تبدو وكأنها تسرّ برؤيتي، وغالباً ما يقع ذلك في الأيام نفسها التي اعتمدت عليها أكثر ما اعتمدت لتحقيق أمالي. لقد كنت متيقّناً أنّ «جيلبيرت» ستأتي إلى «الشانزيليزيه» وأحسست بابتهاج كان يبدو لي محض استشفاف لسعادة عظيمة حينما علمت، - إذ دخلت منذ الصباح لأقبّل

والدتي التي وجدتها على أتمّ استعداد وقد أنهت تماماً تشييد برج شعرها الأسود بيديها الجميلتين البيضاوين المكتنزتين، ولا يزال بهما عبق الصابون - وأنا أبصر عموداً من الغبار ينتصب وحده فوق البيانو وأسمع أرغن الشوارع يعزف تحت النافذة لحن «**العودة من الاستعراض العسكري**»، أن الشتاء يرحّب حتى المساء بزيارة مفاجئة مشرقة يقوم بها نهار ربيعي. وفيما كنّا نتناول طعام الغداء قامت السيّدة التي في الجانب المقابل، وهي تفتح نافذتها، بحمل شعاع على الفرار كلمح البصر من جانب كرسيّ - يشطب بقفزة واحدة كامل عرض غرفة الطعام - شعاع كان قد باشر فيها قيلولته وما لبث أن عاد في اللحظة التالية يتابعها. كانت الشمس في المدرسة وإبّان حصّة الساعة الواحدة تضنيني من فرط الانتظار والضجر، وهي تنشر نوراً مذهباً حتى طاولتي، وذلك بمثابة دعوة إلى الاحتفال الذي لن أستطيع الوصول إليه قبل الساعة الثالثة، حتى اللحظة التي كانت تجيء فيها «فرانسواز» لتأخذني لدى خروجي فنسير باتجاه «الشانزيليزيه» عبر الشوارع المزدانة بالضياء المزدحمة بالجمهور حيث الشرفات الضبابيّة التي خلعتها الشمس من مكانها تطفو أمام المنازل كسحب من ذهب. ولكنّي لا ألقى «جيلبيرت»، وأسفي، في «الشانزيليزيه»، فلم تكن بعد قد وصلت. فأظّل لا حراك بي أقف فوق المرج الذي تغذيّه الشمس الخفيّة التي تتوهّج بها ههنا وهناك أطراف خصلة من العشب، وتبدو الحمائم حطّت فوقه وكأنّها منحوتات قديمة أعادتها فأس البستاني إلى صفحة أرض رفيعة الشأن، أقف محدّقاً بالأفق وأتوقّع في كلّ لحظة أن أرى صورة «جيلبيرت» تظهر على إثر معلّمتها خلف التمثال الذي يبدو وكأنّه يقدّم الطفل الذي يحمله والذي يتصبّب نوراً لنيل بركة الشمس. كانت قارئة صحيفة «**النقاش**» العجوز تجلس على مقعدها في المكان عينه على الدوام وتنادي على حارس تلوّح له بيدها وهي تقول بصوت عالٍ: «ما أجمل هذا الطقس!» وإذ تقترب المكلّفة منها لتتقاضى أجر المقعد كانت تتصنّع ألف حركة وهي تضع في فتحة قفّازها

بطاقة العشرة سنتيمات كما لو كانت باقة تبحث لها، من قبيل التودّد لمن قدّمها، عن أفضل مكان يبرزها. ثم هي تحرّك رقبتها، بعدما تجده، حركة دائرية وترفع ياقة معطفها وتسمّر على المكلّفة بالكراسي، وهي تبرز لها طرف الورقة الصفراء التي تظهر فوق معصمها، الابتسامة الجميلة التي تقول بها امرأة لشابّ وهي تشير إلى صدارها: لقد تعرّفتَ ورداتِكَ!».

كنت أصطحب «فرانسواز» لملاقاة «جيلبيرت» حتى قوس النصر فلا نلتقي بها، فأعود إلى المرج وفي يقيني أنّها لن تأتي من بعد حينما ترتمي عليّ البنيّة ذات اللهجة الآمرة، أمام الأحصنة الخشبيّة: «هيّا هيّا، فقد مضى ربع ساعة على قدوم «جيلبيرت» وسوف تذهب عمّا قليل. نحن بانتظارك لنلعب شوطاً من لعبة الزوايا». ذلك أن «جيلبيرت» قد جاءت، في أثناء صعودي شارع «الشانزيليزيه»، من شارع «بواسّي دانغلاس»، إذ اغتنمت الآنسة الصحو لتقوم بشراء بعض حاجات لها؛ والسيّد «سوان» يزمع المجيء ليأخذ ابنته. كان الذنب ذنبي إذاً، وكان يجدر بي ألّا أبتعد عن المرج، إذ لا تعلم البتّة علم اليقين من أيّة جهة ستأتي «جيلبيرت» وإن كان ذلك في وقت مبكر أو متأخّر، ويبلغ الأمر بذلك الانتظار أن يزيد في نفسي من تأثير لا «الشانزيليزيه» بكاملها ومُدّة ما بعد الظهر كاملة فحسب وذلك بوصفها فسحة مترامية من المكان والزمان كان يمكن أن تظهر في أيّة نقطة منها وأيّة لحظة صورة «جيلبيرت»، بل تلك الصورة نفسها أيضاً لأنني كنت أحس أنّه يختفي خلف تلك الصورة السببُ الذي من جرّائه كنت أُرْشَقُ بها في صميم فؤادي في الساعة الرابعة بدلاً من الثانية والنصف وعلى رأسها عمرة زيارات عوضاً عن قبّعة لعب، وأمام فندق «السفراء» لا بين تمثالي المُهَرِّجَيْن، واستشفّ خلفها بعض تلك المشاغل التي لا أستطيع أن أذهب فيها على أثر «جيلبيرت» والتي كانت تضطرّها إلى الخروج أو البقاء في البيت، وأضحي على اتّصال بسرّ حياتها الغامضة. كان ذلك السرّ هو الذي يقلقني بدوره حينما أرى «جيلبيرت»، وأنا أجري بناء على أمر البنيّة ذات اللهجة القاطعة لأبدأ في الحال لعبة

الزوايا، تنحني، هي الحادّة الطباع والجافة، معنا إلى حدّ بعيد، لتحيّي السيّدة قارئة صحيفة «**النقاش**» (التي كانت تقول لها: «ما أجمل هذه الشمس، لكأني بها نار حارقة») وتحدّثها بابتسامة خجولة ومظهر متكلّف يذكرني بالفتاة المختلفة التي كان ينبغي أن تكونها «جيلبيرت» في بيت ذويها ومع أصدقاء ذويها وفي زياراتها وفي كامل وجودها الآخر الذي كان خافياً عليّ. بيد أنّه ما من أحد كان يخلّف فيّ انطباعاً عن هذا الوجود كما يفعل السيّد «سوان» الذي كان يجيء بعد ذلك بقليل ليلتقي بابنته. ذلك أنّه والسيّدة «سوان» - لأن ابنتهما تقطن لديهما ولأنّ دروسها وصنوف لعبها وصداقاتها منوطة بهما - كانا يتّسعان، شأن «جيلبيرت» وربّما أكثر من «جيلبيرت»، مثلما يليق ذلك بآلهة كلّيي القدرة عليها، لسرّ لا يدرك وسحر مؤلم ربّما كان مصدرهما تلك الآلهة. فقد كان كلّ ما يتّصل بهما ينقلب في ما يخصني شاغلاً دائماً حتى إنّه في الأيّام الشبيهة بتلك والتي كان يجيء فيها السيّد «سوان» (وغالباً ما رأيته فيما مضى حينما كان على صلة طيّبة بأهلي دون أن يثير فضولي) للبحث عن «جيلبيرت» في «الشانزيليزيه»، وبعدما تهدأ خفقات قلبي التي بعثتها طلّة قبّعته الرماديّة ومعطفه الواسع، كان مظهره يستمرّ في التأثير فيّ كمظهر شخصيّة تاريخية قرأنا حولها سلسلة من المؤلّفات وأصبحت أقلّ خصوصياتها تثير شغفنا. وكانت علاقاته مع كونت «باريس»، وتبدو لي غير ذات بال حينما كنت أسمع من يروي عنها في «كومبريه»، تتّخذ بالنسبة إليّ الآن طابعاً خارقاً كما لو لم يعرف أحد غيره آل «أورليان» في يوم؛ وتجعله يبرز بوضوح فوق أرضيّة المتنزّهين العاديّين من مختلف الطبقات الذين يزدحم بهم ممرّ «الشانزيليزيه» والذين كنت أعجب كيف يرتضي الظهور فيما بينهم دون أن يطالبهم بمظاهر احترام خاصّة ما كان أحد على أيّة حال يفكر في تقديمها له لشدّة ما كان التنكّر الذي يلفّ به نفسه عميقاً.

وكان يردّ بتهذيب على تحيّات رفاق «جيلبيرت» وحتى على تحيّتي، مع أنّه على خلاف مع أسرتي، ولكن دون أن يبدو عليه أنّه يعرفني.

(وذكّرني ذلك بأنّه رآني كثيراً في الريف، وقد احتفظت بتلك الذكرى ولكن في الظلّ لأنني منذ أن عدت فرأيت «جيلبيرت» أصبح «سوان» بالنسبة إليّ والدها قبل أي شيء آخر ولم يعد «سوان» الذي عرفته في «كومبريه»؛ ولما كانت الأفكار التي أصل بها اسمه الآن مختلفة عن الأفكار التي كان يدخل فيما مضى ضمن شبكتها والتي لم أعد أستخدمها البتّة حينما يتّفق لي التفكير فيه، قد أصبح شخصيّة جديدة. ولكنّي ربطته مع ذلك بخطّ مصطنع وثانوي وعرضاني بمدعوّنا في الماضي. ولمّا لم يظلَّ من قيمة لأيّ شيء في نظري إلّا بمقدار الفائدة التي يتسنّى لحبّي أن يجنيها منه فقد كنت أعود إلى تلك السنوات بشيء من الخجل والأسف لأنّني لا أستطيع شطبها، أعود إليها وغالباً ما أصبحت فيها مساءً موضع سخرية في نظر «سوان» هذا نفسه الذي يقف أمامي الآن في «الشانزيليزيه» والذي ربّما لم تقل له «جيلبيرت» اسمي لحسن حظّي، إذ كنت أبعث من يقول لوالدتي أن تصعد إلى حجرتي لتتمّنى لي ليلة سعيدة فيما كانت تتناول القهوة أمام طاولة الحديقة برفقته إلى جانب والدي وجدّيّ). وكان يقول لِ«جيلبيرت» إنّه يسمح لها بأن تلعب شوطاً وإنّه يستطيع أن ينتظر ربع ساعة، ثم يجلس كجميع الناس على كرسيّ حديدي ويدفع بطاقته بتلك اليد التي كثيراً ما أمسك بها «فيليب» السابع في يده، فيما كنّا نبدأ باللعب فوق المرج فنحمل الحمائم على الطيران وتذهب أجسامها الجميلة القزحيّة، التي اتخذّت شكل القلوب وهي بمثابة زهر الليلك في مملكة الطيور، وتلجأ، كأنّما إلي أماكن تأوي إليها، هذه إلى الإناء الحجري الكبير الذي يجعله منقارها، إذ يغوص فيه، كمن يبادر فيقدّم، وكأنّما تلك مهمّته، وافر الفاكهة والحبوب التي يبدو كمن ينقر فيها، وأخرى فوق جبين التمثال فتبدو وكأنّها ترفع فوقه أحد تلك الأشياء المطليّة بالمينا من التي يبدّل تعدّد ألوانها في بعض الأعمال الفنيّة القديم من رتابة الحجر، كما تضع رمزاً يُكسِبُ الإلهة حينما تحمله صفة خاصّة تجعل منها، كما يفعل الاسم المختلف بالنسبة إلى إحدى الفانيات، إلهة جديدة.

وفي أحد تلك الأيّام المشمسة التي لم تحقّق آمالي لم أملك الشجاعة لأكتم «جيلبيرت» خيبة أملي، فقلت لها:

- «كان لديّ بالحقيقة أشياء كثيرة أسألك إيّاها، وكنت أحسب أنّ هذا اليوم سيكون له شأن كبير في صداقتنا. فما إن تصلي حتى تشدّي الرحال! حاولي المجيء غداً في ساعة مبكّرة كي أستطيع التحدّث إليك».

وتألّق وجهها وأجابتني وهي تثب فرحاً:

- «غداً، اعتمد عليه يا صديقي العزيز، ولكنّي لن أجيء! فلديّ عصرونيّة هامّة؛ وكذلك ما بعد الغد، فإنّي ذاهبة إلى منزل إحدى صديقاتي لأشهد من نافذتها وصول الملك «تيودوز» وسوف يكون رائعاً وفي اليوم الذي يليه أشاهد «**ميشيل ستروغوف**» وبعد ذلك سيحلّ عيد الميلاد عمّا قريب وعطلة رأس السنة. وربّما ذهبوا بي إلى الجنوب. ما أروع ذلك مع أنّه سيفوّت عليّ شجرة الميلاد. ولئن بقيتُ في باريس فلن أجيء في جميع الأحوال إلى هنا لأنّي سأقوم بزيارات مع والدتي. الوداع، فهذا والدي ينادي عليّ».

وعدت مع «فرانسواز» عبر الشوارع التي كانت لا تزال تزدان بالشمس، كما هو الأمر في عشيّة عيد انقضى. وما كنت أقوى على جرّ ساقيّ. فقالت «فرانسواز»:

- «لا غرابة في ذلك، فليس هذا الطقس في محلّه، الحرّ بالغ الشدّة. آه! يا إلهي، لا بدّ أن يكون هنالك الكثير من المرضى المساكين في كلّ مكان، لكأن كلّ شيء يختلّ هناك أيضاً في الأعالي».

كنت أردّد في سرّي، وأنا أكتم زفراتي، الكلمات التي أعربت فيها «جيلبيرت» عن فرحتها من أن لا نجيء قبل فترة طويلة إلى «الشانزيليزيه». بيد أن السحر الذي كان يمتلئ به فكري من جرّاء محض حركته حالما يفكّر فيها والموقع الخاصّ الفريد - على الرغم ممّا يحمل من أسى - الذي يضعني فيه على نحو محتوم بالنسبة إلى «جيلبيرت» الإكراه الداخلي الناجم عن عادة ذهنيّة شرعا يضيفان عصراً خياليّاً حتى إلى دليل اللامبالاة

ذلك، فتتشكّل وسط دموعي ابتسامة إنْ هي إلّا ارتسام قبلة خجولة. وحينما حانت ساعة البريد قلت في نفسي ذلك المساء كما أفعل كلّ مساء: «ستصلني رسالة من «جيلبيرت» وستقول لي أخيراً إنّها لم تتوقّف في يوم عن حبّي وتوضح لي السبب الخفيّ الذي اضطّرت من جرّائه أن تخفيه حتى ذاك وأن تتظاهر بأنّها تستطيع أن تكون سعيدة دون أن تراني، السبب الذي من أجله اتّخذت مظهر «جيلبيرت» الرفيقة المحضة».

كنت أستمتع كلّ مساء في تخيّل هذه الرسالة وأظن أنّي أقرأها وأردّد لنفسي كلّ جمّلة فيها. وفجأة كنت أتوقّف مذعوراً، فقد كنت أدرك أنّه إن تسنّى ليس أن أستلم رسالة من «جيلبيرت» فلا يمكن أن تكون بأيّة حال تلك بما أنّني أقدمت بنفسي على تأليفها. فكنت أجهد مذ ذاك في صرف فكري عن الكلمات التي كنت أودّ أن تكتبها لي مخافة إن أنا نطقت بها أن أقصي بالضبط تلك الكلمات الأخرى - الأقرب إلى نفسي والأكثر إثارة لرغبتي - من ساحة المنجزات المرتقبة. وحتى لو اتفق بمصادفة لا تصدق أن تكون الرسالة التي تبعث بها «جيلبيرت» هي بالضبط تلك التي ابتدعتُها فما كنت لأحسّ بأنّي أتسلّم شيئاً لم ينبع مني، شيئاً حقيقيّاً وجديداً وسعادة تقع خارج فكري وتستقلّ عن إرادتي وقد وهبني إيّاها الحبّ حقّاً.

وبانتظار ذلك كنت أعيد قراءة صفحة لم تسطّرها لي «جيلبيرت»، ولكنّها على الأقلّ جاءتني منها، تلك الصفحة التي كتبها «بيرغوت» حول جمال الأساطير القديمة التي استلهمها «راسين» والتي كنت أحتفظ بها على الدوام بالقرب منّي إلى جانب الكلّة العقيقيّة. لقد أثّرت فيّ طبيعة قلب صديقتي التي بحثت لي عنها. ولما كان كلّ واحد بحاجة إلى أن يلقى أسباباً لغرامه حتى ليسعده أن يرى في الشخص الذي يحبّه صفات علّمته كتب الأدب أو المحادثة أنّها في عداد الصفات الجديرة بإثارة الحبّ، وحتى ليتمثّلها بينها عن طريق التقليد ويجعل منها أسباباً جديدة لحبّه، وإن اتّفق لهذه الصفات أن تكون من أكثرها مناقضة لتلك التي ربّما سعى إليها ذلك الحبّ ما دام عفويّاً - كما فعل «سوان» فيما مضى

بخصوص الطابع الجماليّ في جمال «أوديت» - فقد أخذت، أنا الذي أحب «جيلبيرت» أوّل الأمر منذ زمان «كومبريه» بسبب كلّ المجهول الذي يلفّ حياتها والذي وددت لو أرتمي فيه، لو أتجسّد فيه وأعمل حياتي التي أصبحت لا شيء في نظري، أخذت أفكِّر الآن، وكأنّما بمكسب لا يقدّر بثمن، أنّه يمكن أن تصبح «جيلبيرت» ذات يوم الخادمة المتواضعة لحياتي تلك المعروفة المزدراة والمعاونة الطيّعة المريحة التي تساعدني مساء في أعمالي وتجمع لي النشرات. أمّا «بيرغوت»، هذا العجوز الحكيم جدّاً والقريب من الآلهة الذي أحببتُ «جيلبيرت» بادئ الأمر بسببه قبل أن أراها فقد أصبحت الآن أحبّه خصوصاً بسبب «جيلبيرت». وكنت أنظر بمقدار الغبطة نفسها التي أنظر بها إلى الصفحات التي سطّرها عن «راسين»، إلى الورق المحوّط بأختام كبيرة من الشّمع الأبيض والمربوط بغيض من الشرائط البنفسجية الذي حملتها به إليّ. وألثم الكلّة العقيقيّة التي كانت أفضل جزء من فؤاد صديقتي، الجزء الذي لم يكن عابثاً بل كان وفيّاً ويظلّ بالقرب منّي، مع أنّه يزدان بالسحر الخفي المنبعث من حياة «جيلبيرت»، ويسكن غرفتي وينام في سريري. ولكنني كنت ألاحظ أنّ جمال ذلك الحجر وكذلك جمال صفحات «بيرغوت» اللذين كنت سعيداً أن أقرنهما بفكرة حبّي لِ«جيلبيرت» كما لو أنّهما في الفترات التي لا يبدو لي فيها ذلك الحبّ من بعد سوى لا شيء يضفيان عليه ضرباً من التماسك، كنت ألاحظ أنّهما سابقان لذلك الحبّ وأنّهما لا يشبهانه وأنّه سبق أن حدّدت المهارة أو القوانين المعدنيّة عناصرهما قبل أن تعرفني «جيلبيرت»، وأنّه ما كان ليتبدل شيء في الكتاب ولا في الحجر الكريم لو لم تحببني «جيلبيرت»، وأنّه ما من شيء بالتالي يخوّلني أن أقرأ فيهما ما ينبئ عن السعادة. وبينما كان حبّي الذي لا ينفك ينتظر من الغد أن تبوح «جيلبيرت» بحبّها، يلغي ويخرّب كلّ مساء الشغل الذي أساء تنفيذه في النهار فقد كان في أعماق ذاتي عاملة مجهولة لا تدع الخيوط المنتزعة مرميّة فترتّبها، غير عابئة بأن تروقني وتعمل لإسعادي، وفق ترتيب مختلف تضفيه على جميع

أعمالها. لقد كانت تجمع أعمال «جيلبيرت» التي بدت لي غامضة وذنوبها التي عذرتُها، وهي لا تبدي أيّ اهتمام بحبيّ ولا تبدأ بأن تقرر أنّني محبوب. حينئذ كانت هذه وتلك تكتسب معنى واضحاً. كان ذلك الترتيب الجديد يبدو وكأنّه يقول بأنّي على ضلال حينما أفكّر قائلاً «إنّها طائشة أو مطواعة» إذ رأى «جيلبيرت» تذهب إلى حفلة ما بعد الظهر وتقوم بجولات في الأسواق مع معلّمتها وتستعدّ لغياب بمناسبة عطلة رأس السنة. ذلك أنّها لو أحبّتني لما ظلّت هذا أو ذاك ولو أرغمت على الطاعة لفعلت باليأس نفسه الذي كان ينتابني في الأيّام التي لا أراها فيها. كان ذلك الترتيب يقول أيضاً إنّه لا بدّ أنّي عالم بما يعني الحبّ بما أنّني كنت أحبّ «جيلبيرت»، ويحملني على ملاحظة الاهتمام الدائم الذي لديّ بأن أبرز نفسي أمامها، ذلك الاهتمام الذي كنت أحاول من جرّائه أن أقنع والدتي بشراء جزمة واقية وقبّعة بريشة زرقاء لِـ«فرانسواز»، أو بالأحرى ألا ترسلني من بعد إلى «الشانزيليزيه» مع هذه الخادمة التي أخجل منها (الأمر الذي تردّ عليه والدتي بأنّني مجحف بحقّ «فرانسواز» وأنّها امرأة طيّبة تتفانى في خدمتنا)، وكذلك تلك الحاجة الفريدة لرؤية «جيلبيرت» التي تجعلني على مدى شهور قبل الأوان لا أفكّر إلّا في محاولة معرفة الفترة التي ستغادر فيها باريس والجهة التي ستذهب إليها، فأجد أكثر المناطق إمتاعاً وكأنّها منفى إن لم يتّفق أن تكون هناك ولا أتوق إلّا إلى البقاء في باريس على الدوام ما دمت أستطيع أن أراها في «الشانزيليزيه». ولم يلاقِ عنتاً في البرهان على أنني لن أجد ذلك الاهتمام ولا تلك الحاجة خلف أعمال «جيلبيرت». فقد كانت في ما يخصّها تقدر معلّمتها على العكس حقّ قدرها دون أن تهتمّ لما أراه أنا. وترى من الطبيعيّ ألا تحضر إلى «الشانزيليزيه» إن كان ذلك لتقوم بمشتريات مع الآنسة، ومن الممتع إن كان ذلك لتخرج بصحبة أمّها. وحتى بافتراض أنّها تسمح لي بقضاء العطلة في المكان نفسه الذي تقضيها فيه فقد كانت تهتمّ على الأقلّ لانتقاء ذلك المكان برغبة ذويها وبألف من التسليات التي حدّثوها عنها، لا بأن يكون ذاك الذي

تنوي أسرتي أن ترسلني إليه. وكنت حينما تؤكّد لي أحياناً أنّها تحبّني أقلّ من أحد أصدقائها وأقلّ من حبّها لي البارحة لأنّني كنت سبباً لأن تخسر لعبتها بإهمال منّي، كنت أطلب عفوها وأسألها عمّا ينبغي أن أفعل كيما تعود فتحبّني بالمقدار نفسه وكيما تحبّني أكثر من الآخرين. كنت أريد أن تقول لي إن الأمر قد تمّ بالفعل وأتوسّل إليها في ذلك وكأنما بمقدورها تبديل مودّتها لي على هواها وهواي وكيما تبعث السرور في نفسي بمجرّد ما ستقول من كلمات وحسب حسن سيرتي أو سوئها. أفما كنت أعلم في ما يخصّني أنّ ما أشعر به تجاهها ليس رهناً بأعمالها ولا بمشيئتي؟

وكان يقول أخيراً، ذاك الترتيب الجديد الذي خطّته يد العاملة الخفيّة، إنّه إن استطعنا أن نرغب ألا تكون أعمال شخص اغتممنا من جرّائها حتى ذاك صادقة فإنّ في ما يعقبها وضوحاً لا تستطيع رغبتنا التصدّي له ويجدر بنا أن نسأله هو، لا هي، عمّا ستكون عليه أعماله في الغد.

كان حبّي يدرك تلك الأقوال الجديدة؛ وكانت تقنعه بأنّ الغد لن يغاير ما كانت عليه الأيّام الأخرى، وأن عاطفة «جيلبيرت» نحوي، وهي أقدم من أن تتغيّر، إنّما كانت اللامبالاة؛ وأنّي في حبّي لِـ«جيلبيرت» كنت المُحِبَّ الوحيد. وكان حبّي يجيب قائلاً: «صحيح، لا فائدة بعد هذا الحبّ فلن تتغيّر». وكنت منذ الغد (أو بانتظار عيد، إن كان ثمّة عيد قريب، أو ذكرى أو ربّما رأس السنة، بانتظار واحد من تلك الأيّام التي لا تشبه غيرها والتي يعود الزمان فيبدأ فيها سيرة جديدة ويرفض تراث الماضي ولا يقبل بمخلّفات أحزانه) أطلب إلى «جيلبيرت» أن تتخلّى عن صداقتنا القديمة وأن تضع أساسات لصداقة جديدة.

كان دوماً بمتناول يدي مخطّط لباريس يبدو لي وكأنّه يحوي كنزاً لأنّه يمكن فيه تمييز الشارع الذي يقطنه السيّد «سوان» والسيّدة زوجته. وكنت بداعي الاستمتاع وبضرب من وفاء الفروسيّة كذلك أنطق باسم هذا الشارع بمناسبة وغير مناسبة حتى إن والدي كان يسألني، لأنّه لم يكن شأن والدتي وجدّتي على علم بحبّي:

- «ولكن لِمَ تتحدّث دوماً عن هذا الشارع؟ فليس فيه من أمر خارق، إنّه مريح جدّاً من حيث سكناه لأنّه على بعد خطوتين من «الغابة»، بيد أن ثمّة عشرة شوارع أخرى في الوضع ذاته».

كنت أتدبّر أمري في كل مناسبة لأحمل والديّ على النطق باسم «سوان»، صحيح أنّي كنت أردّده لنفسي في سرّي دون انقطاع، ولكني كنت كذلك بحاجة إلى سماع رنّته اللذيذة وإن تُعْزَفَ لي تلك الموسيقى التي لم تكن قراءتها الصامتة لتكفيني. ومهما يكن من أمر فقد أصبح اسم «سوان» الذي كنت أعرفه منذ زمن طويل جدّاً، أصبح بالنسبة إليّ الآن اسماً جديداً مثلما يتّفق ذلك لبعض فاقدي الكلام في ما يخصّ أكثر الكلمات شيوعاً. فقد كان دائم الحضور في خاطري ولكنّه لا يستطيع أن يألفه. وكنت أفكّكه وأتهجّاه فتؤلّف كتابته مفاجأة لي. وقد كفّ عن أن يبدو لي بمظهر بريء في الوقت الذي كفّ فيه عن كونه مألوفاً. فكنت أظنّ ما يعتريني من صنوف الفرح لدى سماعه آثماً إلى حدّ يبدو لي معه أنّهم يستشفّون تفكيري ويغيّرون الحديث إن حاولت أن أجرّهم إليه. وكنت أعود إلى الموضوعات التي تتعلّق بـ«جيلبيرت» أيضاً وأجترّ الأقوال نفسها إلى ما لا نهاية، وعبثاً أعلم أنّها محض أقوال - أقوال ينطق بها بعيداً عنها ولا تسمعها، أقوال لا تأثير لها تكرّر ما هو كائن ولكنّها لا تستطيع التبديل فيه - إلّا أنّه يبدو لي مع ذلك أنّني لشدّة استخدامي وتداولي لكلّ ما يحيط بـ«جيلبيرت» ربّما استخرجت منه شيئاً سعيداً. فكنت أردّد لأهلي أنّ «جيلبيرت» تحبّ معلّمتها كثيراً كما لو أنّه سينتج في النهاية عن هذه الجملة التي أنطق بها للمرّة المئة أن تدخل «جيلبيرت» فجأة وتأتي نهائياً للعيش بيننا. وأعيد مديحي للسيّدة العجوز قارئة صحيفة «**النقاش**» (وكنت قد ألمحت لوالديّ أنّها سفيرة أو ربّما صاحبة سمّو) وأوالي الإشادة بجمالها وكرمها ونبلها إلى اليوم الذي قلت فيه إنّها بحسب الاسم الذي سمعتُ «جيلبيرت» تنطق به لا بدّ تدعى السيّدة «بلاتان». وصاحت أميّ تقول بينما أحسست بحمرة الخجل تكسو جبيني:

- «أوه! ها إنّي أرى ما الخبر. فحذار! حذار! كما كان يقول جدّك المسكين. أهذه من تراها جميلة؟ ولكنّها قبيحة وكانت كذلك على الدوام. إنّها أرملة حاجب. ولست تذكر يوم كنت طفلاً الحيل التي كنت ألجأ إليها لأتجنّبها في درس الرياضة البدنيّة حيث كانت تريد أن تأتي لتحدّثني، دون أن تعرفني، بحجة أن تقول لي إنّك «أجمل من أن تكون صبيّاً». لقد تملّكها على الدوام جنون التعرّف بالناس، ولا بدّ أن تكون من بعض أصناف المجانين، كما ظننت ذلك دوماً، إن كانت حقاً تعرف السيّدة «سوان». فلئن كانت من وسط عاديّ جدّاً فليس ثمّة ما يقال عنها، في حدود معرفتي. ولكنّه كان ينبغي لها على الدوام أن تنشئ علاقات. إنّها قبيحة وعاميّة إلى حدّ بعيد، وهي إلى ذلك «تخلق المتاعب».

أمّا في ما يخصّ «سوان»، فقد كنت أمضي كامل وقتي في أثناء الطعام، في محاولة للتشبّه به، في الشدّ على أنفي وتفريك عينيّ. ويقول والدي: «هذا الولد أبله وسوف يصبح دميماً». وددت خصوصاً أن أصبح في مثل صلع «سوان»، لقد كان يبدو لي كائناً خارقاً إلى حدّ أنّي كنت أجد من الروعة بمكان أن يعرفه كذلك أشخاص كنت أتردّد عليهم وأن يكون من الممكن ملاقاته بطريق المصادفة ذات يوم. وذات مرّة، إذ كانت أميّ تروي لنا، شأنها في كلّ مساء بعد العشاء، عن جولات التسوّق التي قامت بها الظهر، أنبرت تقول: «احزروا بهذه المناسبة من صادفت في مخزن «الأحياء الثلاثة» في زاوية المماطر: «سوان»، فأنبتت وسط روايتها المقفرة جدّاً بالنسبة إليّ زهرة سريّة. أيّة لذة حزينة أن أعلم أنّ «سوان» قد مرّ بعد هذا الظهر بشكله الخارق وسط الجمهور ليبتاع ممطرة! وفي وسط الأحداث العظيمة والصغيرة، وكلّها سواء في لامبالاتي بها، كان ذلك الحدث يوقظ فيّ تلك الاهتزازات الخاصّة التي كان يتأثّر بها على الدوام حبّي لِـ«جيلبيرت». وكان والدي يقول إنّني لا أهتمّ بشيء لأنّني لا أصغي حينما يجري الحديث عن النتائج السياسيّة التي يمكن أن تسفر عنها زيارة الملك «تيودوز»، وهو ضيف فرنسا في هذه الفترة وحليفها فيما يزعمون.

ولكن كم كنت بالعكس راغباً في أن أعرف إن كان «سوان» يرتدي معطفه الرسمي! وسألت قائلاً:

- «هل حيّا أحدكما الآخر؟».

وأجابت والدتي التي كانت تبدو على الدوام وكأنّها تخشى أن تقوم محاولة، إن هي أقرّت أنّنا على غير ما يرام مع «سوان»، لمصالحتهما إلى حدّ يجاوز ما تتمنّاه بسبب السيّدة «سوان» التي لا تحبّ أن تتعرّف بها: «بالطبع؛ لقد جاء هو لتحيّتي، إذ لم أكن أراه».

- «أفلستما إذن متخاصمين؟».

وأجابت بحدّة كما لو مسستُ بوهم صلاتها الطيّبة بـ«سوان» وحاولت العمل على إيجاد «تقارب» بينهما: «متخاصمين؟ ولكن لماذا تريد أن نكون متخاصمين؟».

- «ربّما حقد عليك لأنّك لا توجّهين له دعوات من بعد».

- «ليس ما يضطرّنا إلى دعوة جميع الناس؛ وهل يدعوني هو؟ إني لا أعرف زوجته».

- «بيد أنّه كان يحضر إلى «كومبريه»».

- «أجل يحضر إلى «كومبريه»، وفي باريس ثمّة أمور أخرى تشغله، وأنا كذلك. ولكنّي أؤكّد لك أنّه لم يكن يبدو على الإطلاق أنّنا متخاصمان. لقد ظللنا برهة معاً لأنّهم لم يجيئوه برزمته، لقد سألني عن أخبارك». وأضافت والدتي: «لقد أخبرني أنّك تلعب مع ابنته»، تقول وتفتن لبّي بالمعجزة التي قوامها أنّني موجود في ذهن «سوان»، بل وأكثر من ذلك أنّني موجود وجوداً يقارب أن يكون تامّاً كيما يعرف اسمي، فيما أرتعش حبّاً أمامه في «الشانزيليزيه»، ومن هي أمّي ويستطيع أن يجمع حول كوني رفيق ابنته بعض المعلومات حول أجدادي وأسرتهم والمكان الذي نقطنه وبعض خصوصيّات حياتنا بالأمس وربّما كانت مجهولة لديّ. على أنّه لم يظهر أنّ والدتي وجدت سحراً خاصّاً لزاوية مخزن «الأحياء

الثلاثة» الذي مثّلت فيه بالنسبة إلى «سوان» لحظةَ رآها هناك شخصيّة محدّدة يملك معها ذكريات مشتركة حفزت لديه حركة الاقتراب منها والمبادرة إلى تحيّتها.

وما كان يبدو على أيّة حال أنّها تجد لا هي ولا والدي في الحديث عن جدود «سوان» وعن لقب الصرّاف الفخريّ متعة تفوق كلّ ما عداها. وكانت مخيّلتي قد عزلت في مجتمع باريس أسرة معيّنة وكرّستها مثلما سبق أن فعلت في حجارة باريس بالنسبة إلى بيت معيّن نحتت بوّابته وجعلت نوافذه ثمينة. على أنّي كنت الوحيد الذي يرى هذه الزخارف. ومثلما كان يجد والدي ووالدتي البيت الذي يسكنه «سوان» شبيهاً بالبيوت الأخرى المبنيّة في الآونة نفسها في حيّ «الغابة» كذلك تبدو لهما أسرة «سوان» من نوع الكثير من أسر الصرّافين الأخرى. وكانا يقيّمانها تقييماً تزيد النظرة المشجّعة فيه أو تقلّ حسب الدرجة التي نهلت فيها من مزايا مشتركة بين سائر الناس ولا يجدان فيها شيئاً فريداً. أمّا ما كانا يقدّر أنه لديها فقد كانا على العكس يلقيانه في مكان آخر بدرجة مساوية أو تزيد. ولذلك كانا يتحدّثان، بعدما وجدا البيت حسن الموقع، عن بيت آخر أفضل موقعاً ولكنّه لا يمتّ بصلة إلى «جيلبيرت»، أو عن رجال مال يفوقون جدّه بدرجة واحدة؛ ولئن بدا مقدار لحظة أنّهما إلى جانبي في الرأي فمن جرّاء سوء تفاهم ما كان يلبث أن يزول. ذلك أنّه لمشاهدة مزيّة مجهولة في كلّ ما يحيط بـ«جيلبيرت» من تلك التي هي شبيهة في دنيا الانفعالات بما يمكن أن تكون الأشعة تحت الحمراء في دنيا الألوان كان والدي ووالدتي يفتقدان هذه الحاسّة الإضافية المؤقّتة التي حباني بها الحبّ.

وفي الأيام التي كانت تخبرني فيها «جيلبيرت» أنّها لن تأتي إلى «الشانزيليزيه» كنت أحاول القيام بنزهات تقرّبني بعض الشيء منها. فأصطحب «فرانسواز» أحياناً في حجّ إلى البيت الذي تسكنه أسرة «سوان»، وأحملها على أن تردّد إلى ما لا نهاية ما علمته عن السيّدة «سوان» على لسان المعلّمة. «يبدو أنّ لها ثقة كبيرة بالأيقونات. ولن

تذهب يوماً في رحلة إن سمعت صوت البوم أو ما يشبه تكتكة الساعة في الحائط أو إذا سمعت قطّاً في منتصف الليل أو طقطق خشب بعض الأثاث. إنّها امرأة مؤمنة جدّاً!» وكنت شديد الغرام بـ«جيلبيرت» حتى إنّني إن رأيت على الدرب خادمهم العجوز يقود كلباً إلى النزهة كان الانفعال يضطرّني إلى التوقّف وأحدّق بالسالفين الأبيضين بعينين يملؤهما الغرام. وتقول لي «فرانسواز»: «ما الذي حلّ بك؟».

ثم كنا نوالي السير حتى بوّابتهم حيث يبدو بوّاب يختلف عن أي بوّاب آخر تشرّب حتى في شرائط بزّته الروعة المؤلمة نفسها التي أحسست بها في اسم «جيلبيرت»، يبدو وكأنّه يعلم أني في عداد الذين يحول نقص أساسيّ على الدوام دون دخولهم في الحياة الغامضة التي كان مكلّفاً بحراستها والتي كانت تبدو نوافذ الطابق الوسيط وكأنّها تعي انغلاقها دونها وتشبه في تدلّي ستارات الموسلين الأنيقة أيّة نوافذ أخرى أقلّ بكثير ممّا تشبه نظرات «جيلبيرت». وكنّا نذهب في مرّات أخرى إلى الشوارع الكبيرة فأتّخذ مكاناً لي على مدخل شارع «ديفو»، فقد قِيل لي إنّه غالباً ما يمكن رؤية «سوان» يمرّ فيه في طريقه إلى طبيب أسنانه. وكان خيالي يميّز والد «جيلبيرت» إلى حدّ بعيد عن سائر البشريّة، ويدخل حضوره وسط العالم الحقيقي الكثير من الروعة حتى إنّي قبلما أصل إلى كنيسة «المادلين» كنت متأثراً من جرّاء فكرة الاقتراب من شارع يمكن أن يقع فيه الظهور الخارق على نحو مفاجئ.

بيد أني كنت في الغالب - يوم لا يتّفق لي أن أرى «جيلبيرت» -، وبما أنّني علمت أنّ السيّدة «سوان» كانت تتنزّه كلّ يوم تقريباً في ممرّ «الأكاسيا»، حول البحيرة الكبيرة، وفي ممرّ «الملكة مارغريت»، أوجّه «فرانسواز» وجهة «غابة بولونيا». وكانت في نظري كحدائق الحيوانات التي تتجمّع فيها نباتات مختلفة ومناظر متناقضة، وحيث تجد بعد إحدى الهضاب مغارة ومرجاً وصخوراً وساقية وحفرة وهضبة ومستنقعاً ولكنّك تعلم أنّها ههنا لتوفّر وسطاً ملائماً أو إطاراً طريفاً لمرح فرس النهر وحمر

الوحش والتماسيح والأرانب الروسيّة والدببة ومالك حزين. أمّا الغابة المتشعّبة كذلك - التي تجمع عوالم صغيرة ومغلقة - فتتعاقب فيها مزرعة زرعت فيها أشجار حمراء وسنديان أميركي وكأنها أرض زراعية في «فيرجينيا»، وحَرَجَة صنوبر على ضفّة البحيرة أو دوحة تطلع منها فجأة، في فرائها المطواعة وعينين وحشيّتين جميلتين، مُتَنَزِّهَة سريعة العدو - فقد كانت حديقة النساء؛ وكان ممرّ الأكاسيا مورد الشهيرات الجميلات من النساء وقد زُرع من أجلهنّ - كممرّ الآس في **الإنياذة** - بأشجار من العطر نفسه. ومثلما ارتفاع الصخرة الذي سيرتمي منه دبّ البحر في الماء يثير من البعيد فرح الأطفال الذي يعلمون أنّهم سيشاهدونه، كذلك كان عطر الأكاسيا قبل الوصول إلى الممرّ بكثير إذ ينتشر حواليه ويجعلك تشعر عن بعد باقتراب كيان نباتي يجمع القوّة إلى الليونة وبغرابة هذا الكيان، ثم، حينما أقترب، ما يبدو من قمّة أوراقها القليلة ذات الجمال المتكلّف والأناقة السهلة والقصّة الحلوة والقشرة الرقيقة، وعليها انقضّت مئات من الأزهار كزمر مجنحّة هزازة من الطفيليّات الثمينة، وأخيراً حتى اسمها الأنثويّ الكسول العذب، كانت كلّها تجعل فؤادي يخفق ولكن من رغبة دنيويّة، كتلك الرقصات التي لا تذكّرنا من بعد إلا باسم المدعوات الحسان الذي ينادي عليه الحاجب على مدخل المرقص. وكان قد بلغني أنني سأبصر في الممرّ بعض الأنيقات اللواتي كان يرد ذكرهنّ عادة قرب السيّدة «سوان» ولكن بلقبهنّ العسكري في الغالب، ومع أنهن لم يتمّ تزويجهنّ جميعاً. أمّا اسمهنّ الجديد، إن وجد، فلم يكن سوى ضرب من التخفيّ كان لا بدَّ لمن يتحدّثون عنهنّ من دفعه ليكون كلامهم مفهوماً. وإذ كنت أحسب أن الجمال - في مملكة الأناقات النسائيّة - إنّما تحكمه قوانين خفية تمّ إطلاعهنّ وتدريبهنّ عليها وأنهنّ يملكن القدرة على تحقيقه، فقد كنت أتقبّل سلفاً بمثابة وحي يجلّي أثوابهنّ وأدوات زينتهن وألفاً من التفاصيل التي أضع بينها اعتقادي ذاك بمثابة روح داخليّة تضفي ترابط العمل الفنيّ الرائع على هذه المجموعة المتحركة السريعة الزوال.

على أنّ السيّدة «سوان» هي التي كنت أبغي رؤيتها وكنت أنتظر لحظة مرورها مضطرب النفس كما لو كانت «جيلبيرت» التي كان أهلها، وقد تشرّبوا فتنتها ككلّ ما يحيط بها، يثيرون في نفسي مقدار الحب الذي تثيره، بل اضطراباً أكثر إيلاماً (لأن نقطة تماسهم معها كانت ذلك الجزء الرحميّ في حياتها الذي كان محرّماً عليّ)، وأخيراً (وقد عرفت منذ قليل، كما سنرى فيما بعد، أنّهم كانوا لا يحبّذون أن ألعب معها) عاطفة التكريم التي نخصّ بها على الدوام أولئك الذين يستخدمون بدون ضابط قدرتهم على إيذائنا.

كنت أخصّ البساطة بالمحل الأول في تراتب القِيم الجمالية والمراتب البشرية حينما أبصر السيّدة «سوان» تذهب سيراً على الأقدام في سترة ضيّقة من القماش وعلى رأسها قبّعة صغيرة يزيّنها جناح تدرج وفي صدارها باقة من زهر البنفسج، تجتاز معجلة ممر الأكاسيا كما لو كان مجرّد أقصر طريق للعودة إلى منزلها وتردّ بغمزة عين على الرجال الجالسين في عرباتهم الذين كانوا يحيّونها بعد ما يتبيّنون طيفها في البعيد ويقولون فيما بينهم أن ليس من كان بمثل هذه الأناقة. بيد أنّي كنت أضع البذخ موضع البساطة في أعلى مقام إن رأيت، بعدما اضطررت «فرانسواز»، التي لم تعد تطيق احتمالاً وتقول إنّ ساقيها «تثنيان تحتها»، أن تظلّ ساعة في جيئة ورواح، إن رأيت أخيراً عربة مكشوفة لا مثيل لها تقبل من الممرّ الذي ينطلق من باب «دوفين» - وهي في نظري صورة أبهّة ملكيّة وقدوم سلاطين لم تستطع أية ملكة فيما بعد أن تطبع نفسي بالشعور به لأني كنت أملك فكرة عن سلطانهم أقلّ غموضاً وأقرب إلى التجربة - تحملها انطلاقة جوادين ناريّين رقيقين ملفوفين كمثل ما نرى في رسوم «كونستانتان غي» (Constntin Guys)، وقد استقرّ على مقعدها حوذيّ ضخم بفراء قوزاق إلى جانب سائس صغير يذكّر بـ«النمر» في أعمال «المرحوم بودنور»، إن رأيت - أو بالأحرى أحسست بانغراس شكلها في قلبي عن طريق جرح واضح مضنٍ - عربة لا مثيل لها عالية بعض الشيء عن سابق

قصد يتخلّل آخر ما توصّل إليه البذخ فيها تلميحات إلى الأشكال القديمة، وتستلقي في زاويتها السيّدة «سوان» في جلسة مسترخية وقد أحاط بشعرها، الذي أصبح الآن أشقر تتخلّله خصلة بيضاء واحدة، حزام من الزهور، وهي البنفسج في الغالب، تتدلى منها براقع طويلة، وفي يدها ممطرة بنفسجيّة اللون وعلى شفتيها ابتسامة غامضة، ما كنت أرى فيها سوى عطف الملوك فيما هي تزخر بخاصّة باستثارة المرأة العاهرة، تنحني بها بلطف صوب الأشخاص الذين يحيّونها. كانت هذه الابتسامة في الواقع تقول لبعضهم: «أتذكّر تماماً، كان شيئاً رائعاً!»، وللبعض الآخر: «كم كنت أودّ ذلك! لقد ساء حظّنا!»، ولآخرين سواهم: «إن شئتم أنتم! سوف أتبع لفترة نسق السير وأقطعه حالما أستطيع». وكانت تترك حول شفتيها، حينما يمرّ مجهولون، ابتسامة معطّلة وكأنّها تتّجه إلى انتظار صديق أو إلى ذكراه فيقول من يراها: «ما أشدّ جمالها!» وكانت ابتسامتها بالنسبة إلى بعض الرجال فحسب صفراء قسرية فزعة باردة وتعني قولها: «أجل، أيّها الخبيث، أدري أنّك تملك لسان أفعى وأنّك لا تستطيع الإمساك عن الكلام! أفتراني أهتمّ بك أنا؟» ويمرّ «كوكلان» وهو يخطب وسط جماعة من الأصدقاء تصغي إليه ويرسم بيده تحيّة مسرحية واسعة لأشخاص في عرباتهم. ولكنّي ما كنت أفكّر إلّا بالسيدة «سوان» وأتظاهر بأنّي لم أرها إذ كنت أعلم أنّها ستقول لحوذيّها، لدى وصولها بمحاذاة نادي صيد الحمام، أن يقطع نسق السير ويقف بها كي تتمكن من النزول لاجتياز الممر سيراً على الأقدام. وكنت أدفع بـ«فرانسواز» في هذا الاتّجاه في الأيام التي تحالفني فيها الجرأة للمرور على مقربة منها. فقد كنت في بعض الفترات أبصر السيّدة «سوان» في ممرّ المشاة تسير باتّجاهنا وتنشر وراءها أذيال ثوبها البنفسجيّ الطويلة، وهي ترتدي، حسبما يتخيّل الشعبُ الملكاتِ، أقمشة وزينات فاخرة لا تلبسها النساء الأخريات، وتخفض الطرف بين الحين والحين على قبضة ممطرتها ولا تولي الذي يمرّون إلّا القليل من انتباهها كما لو كان همّها الكبير وهدفها أن تتدرّب دون أن تفكّر

أن الجميع يرونها وأنّ سائر الرؤوس تلتفت إليها. ولكنّها تلقي أحياناً حولها نظرة دائريّة تكاد لا تشعر بها حينما تلتفت لتنادي على سلوقيّها.

حتى أولئك الذين لا يعرفونها كانوا ينتبهون بفضل أمر غريب ومفرط - أو ربّما بفضل إشعاع تخاطريّ، من تلك التي تُثير عواصف التصفيق في صفوف الجمهور الجاهل في اللحظات التي تحلّق فيها «لا بيرما» - إلى أنّها لا بدّ أن تكون شخصيّة مرموقة. فيتساءلون: «من عساها تكون؟»، وأحياناً يستوضحون أحد المارّة أو يعقدون العزم على تذكّر ملابسها بمثابة مَعْلَم لأصدقاء أكثر اطّلاعاً يفيدونهم في الحال. ويقول بعض المتنزّهين وهم يتوقّفون لحظة:

- «هل تدري من هي؟ إنها السيّدة «سوان»! ألا يذكّرك ذلك بشيء؟» «أوديت دو كريسّي»؟

- «أوديت دو كريسي»؟ لقد كنت أسائل نفسي، هاتان العينان الحزينتان... ولكن تدري، لا بدّ أنّها لم تعد في أوّل الشباب! أتذكّر أنني ضاجعتها يوم استقالة «ماك ماهون».

- «أظنّ من الأفضل لك ألّا تذكّرها بالأمر. فإنّها أضحت الآن السيّدة «سوان»، زوجة أحد أسياد سباق الخيل وهو صديق لأمير «غال». إنّها لا تزال على أيّة حال رائعة».

«أجل، ولكنّك لو عرفتها في ذلك الوقت، ما كان أجملها! كانت تسكن داراً صغيرة شديدة الغرابة مليئة بأشياء صينيّة. أذكر أنّنا تضايقنا من جرّاء ضجيج المنادين على الصحف وانتهى بها الأمر أن تطلب منّي الانصراف».

كنت أسمع من حولها همسات الشهرة غير الواضحة دون أن أتبيّن ما يقال من ملاحظات. وكان قلبي يخفق جزعاً إذ أفكّر أنْ سوف تنقضي لحظة بعد قبلما يرى جميع هؤلاء الناس، الذين لاحظت باغتمام أن ليس بينهم صاحب مصرف خلاسيّ أشعر أنه يحتقرني، الشاب المجهول الذي لا يعيرونه أي انتباه يحيّي تلك المرأة (دون أن أعرفها بالحقيقة، ولكنّي

أحسب أنّني مخول بذلك لأنّ والديّ يعرفان زوجها وأنّني رفيق ابنتها)، تلك المرأة التي طبقت شهرة جمالها وسوء سيرتها وأناقتها الآفاق. ولكن سرعان ما أصبحتُ قريباً جدّاً من السيّدة «سوان»، حينئذ حيّيتها بحركة من قبّعتي واسعة متطاولة إلى حدّ أنّها لم تملك أن تبتسم. وكان أناس يضحكون أمّا هي فلم يسبق لها البتّة أن رأتني مع «جيلبيرت» ولم تكن تعرف اسمي، ولكنّي كنت بالنسبة إليها - كما هي حال أحد حرّاس «الغابة» أو النوتيّ أو جماعة البطّ التي ترمي إليها بالخبز في البحيرة - واحداً من الأشخاص الثانويّين المألوفين المجهولين الذين خلوا من السمات الفرديّة خلوّ «الوظيفة المسرحية» منها، في دارة نزهاتها في الغابة». وكان يتّفق لي في بعض الأيام التي لم أشاهدها فيها في ممرّ الأكاسيا أن أصادفها في ممر «الملكة مرغريت» حيث تذهب النساء اللواتي يحاولن أن يكنّ وحيدات أو أن يظهرن بمظهر من يحاولن ذلك، وما كانت تظلّ طويلاً على هذا النحو، إذ سرعان ما يلحق بها صديق يعتمر في الغالب قبّعة رماديّة عالية ولا أعرفه ويظلّ في حديث طويل معها فيما تتبعهما عربتاهما.

إن تعقيد غابة بولونيا الذي يجعل منها مكاناً مصطنعاً، وأمّا بمعنى علوم الحيوان أو الأساطير فحديقة، إنّما عدت فوجدته هذا العام فيما كنت أجتازها للذهاب إلى «تريانون» في إحدى الصبيحات الأولى من شهر تشرين الثاني هذا يورث فيه في باريس وداخل بيوتها قربُ مشهد الخريف الذي ينقضي سرعة دون أن يشهده الناس، إلى جانب الحرمان منه، حنيناً إلى الأوراق المتساقطة وحمّى حقيقيّة يمكن أن تبلغ حد إقصاء النوم عن الأجفان. وفي غرفتي المغلقة كانت تحطّ منذ شهر، وقد استحضرتها رغبتي في أن أراها، بين فكري وأيّ غرض أنصرف إليه وتدوّم مثل تلك البقع الصفراء التي ترقص أحياناً أمام ناظرينا أيّاً كان ما ننظر إليه. ولمّا لم أعد أسمع المطر في ذلك الصباح ينهمر كما في الأيام السابقة ورأيت الصحو يبتسم في زوايا الستائر المغلقة شأنه في زاويتي فم مطبق يفلت منه

سرّ سعادته، أحسست أنّ هذه الأوراق الصفراء إنّما أستطيع أن أتأمّلها، وقد اخترقها النور، في قمّة جمالها. وإذ لا أستطيع أن أملك النفس عن الذهاب لمشاهدة الأشجار أكثر ممّا ملكتها بالأمس، ساعة تنفخ الريح بشدّة في موقدي، عن الذهاب إلى شاطئ البحر، فقد خرجت للتوجّه إلى «تريانون» مروراً بغابة بولونيا. وكانت الساعة وكان الفصل الذي ربّما بدت فيه «الغابة» أكثر ما تكون تعدّداً، لا لأنّها أكثر أقساماً فحسب بل لأنّها مقسّمة على نحو آخر. فقد كان ثمّة، حتى في الأقسام المكشوفة التي تُحيط فيها العين بمساحة واسعة، كان ثمّة ههنا وهناك وقبالة كتل الأشجار السوداء البعيدة التي فقدت أوراقها أو التي ما زالت تحتفظ بأوراق الصيف صفّ مزدوج من شجر الكستناء البرتقاليّ اللون يبدو، شأن لوحة لا تزال في بداياتها، وكأن الرسّام لوّنه وحده ولم يضع ألواناً على البقيّة الباقية، وينشر في الضياء ممرّه بانتظار نزهة مرتقبة لأشخاص لن تتمّ إضافتهم إلى اللوحة إلّا في وقت لاحق.

وفي البعيد، وحيث الأشجار لا تزال تغطّيها جميع أوراقها الخضراء، شجرة واحدة صغيرة ربعة عنيدة مجزوزة الرأس تطلق في الريح شعورها الحمراء القبيحة. وتشهد في مكان آخر أوّل استفاقة لشهر أيّار الأوراقَ هذا، وكانت أوراق شجيرة متسلّقة رائعة، تبتسم كشجيرة زعرورورديّة شتويّة، فقد اكتست بالزهر منذ الصباح. لقد اكتسبت «الغابة» المظهر المؤقّت المصطنع الذي يبدو فيه مشتل أو حديقة تمّ فيهما، إما لغايات نباتية وإمّا استعداداً لأحد الأعياد، وضع نوعين أو ثلاثة من النباتات النفيسة ذات الأوراق الغريبة والتي تبدو وكأنّها تستبقي فراغاً من حولها وتوفّر الهواء وتزيد من النور. لقد كان ذلك الفصل إذاً الوقت الذي تكشف فيه غابة بولونيا عن أكثر العطور اختلافاً وتقابل بين أكثر الأقسام تميّزاً ضمن مجموعة شديدة التباين؛ وكذلك كانت الساعة. ففي الأماكن التي كانت الأشجار لا تزال تحافظ فيها على أوراقها كانت تبدو وكأنّها تتعرّض لتغيّر في مادّتها انطلاقاً من النقطة التي تلامسها فيها أشعة

الشمس، وتقارب أن تكون أفقيّة في الصباح مثلما سوف تضحي بعد بضع ساعات تشتعل كمصباح في بدايات الغسق وترسل من بعيد على الأوراق وهجاً اصطناعيّاً دافئاً وتلهب رؤوس أوراق شجرة تظلّ الشمعدان الباهت اللامحترق لقمّتها المشتعلة. وكانت تكثّف هنا على هيئة قطع الآجر وكمثل بناء فارسيّ من الحجر الأصفر برسوم زرقاء تثبّت على نحو غليظ أوراق أشجار الكستناء على صفحة السماء، وهناك تفصلها على العكس عنها فتظلّ تقلّص صوبها أصابعها المذهبة. وفي منتصف ساق شجرة تكسوه لبلابة عذراء كانت تضيف باقة عملاقة كأنّما من زهور حمراء يستحيل تمييزها واضحاً في النور الباهر، وربّما كانت صنفاً من القرنفل، وتفتّح أكمامها. كانت أقسام «الغابة» المختلفة التي يسهل الخلط بينها صيفاً في كثافة خضرتها ورتابتها، تبرز للعيان، إذ تسمح مساحات أقلّ كثافة برؤية مداخلها جميعها تقريباً أو تشير إليها أغصان فخمة كأنّما هي راية. كنت تميّز كأنّما على خريطة ملونّة «آرمنونفيل» و«بريه كاتلان» و«مدريد» وميدان السباق وضفاف البحيرة. ويبرز بين الحين والحين بناء نافل من مثل مغارة كاذبة وطاحونة تفسح لها الأشجار بتباعدها مكاناً أو يحملها مرج أمامه على سطحه الوثير. كنت تحسّ أنّ «الغابة» لم تكن مجردّ غابة وأنّها تستجيب لغاية غريبة عن حياة أشجاره؛ ولم يكن سبب الحماسة التي أشعر بها الإعجاب بالخريف فحسب بل رغبة لديّ. إنها النبع الثرّ لفرح تحسّ به النفس بادئ الأمر دون أن تعرف سببه ودون أن تدرك أن لا شيء من الخارج يدعو إليه. فهكذا كنت أنظر إلى الأشجار بحنان لا يرتوي فيجاوزها ويتّجه دون علم منّي إلى ذلك العمل الفنيّ الرائع المتمثّل في المتنزّهات الجميلات اللواتي تحتبسهنّ بضع ساعات في كلّ يوم. كنت أتّجه إلى ممرّ الأكاسيا، فأجتاز أدواحاً يبادر فيها نور الصباح الذي يفرض عليها تقسيمات جديدة إلى تقليم الأشجار والمزاوجة بين السوق المختلفة وتشكيل الباقات. ويجتذب إليه بمهارة شجرتين ويستعين بإزميل الأضواء والظلال الجبّار فيقتطع من كلّ واحدة نصف

جذعها وأغصانها ثم يجدل النصفين الباقيين معاً ويصنع منهما إمّا عموداً واحداً من الظلال يحدّده ضياء الشمس من حوله وإمّا شبحاً واحداً من الضياء تحيط شبكة من الظلال السوداء بدائرته الزائفة المرتعشة. وحينما يطلي شعاع من الشمس بالذهب أعلى الأغصان كانت تبدو، وقد بلّلتها قطرات الندى الملتمعة، وكأنها تنبثق وحدها من الأجواء المائيّة التي بلون الزمرد والتي تغوص فيها الدوحة بكاملها وكأنما تحت مياه البحر. ذلك أن الأشجار كانت توالي حياتها الخاصّة وحينما تفقد أوراقها كانت الشمس تزيد من التماعها على قراب المخمل الأخضر الذي يحتوي جذوعها أو على بياض دوائر الهدال المنثورة على قمم الصفصاف مستديرة كأنّها الشمس والقمر في لوحة «**الخليقة**» لِ«ميكيلانجيلو». ولكنّها كانت تذكّرني، وقد اضطرّها منذ سنوات طويلة نوع من التطعيم أن تحيا حياة مشتركة مع المرأة، بجنّية الغابات، بامرأة المجتمعات الجميلة السريعة الملوّنة التي تغطّيها بأغصانها لدى مرورها وتضطرّها إلى الشعور مثلها بزخم الفصل. كانت تذكرني بزمن شبابي المؤمن السعيد حينما أجيء نهماً إلى الأماكن التي سوف تتحقّق فيها لبضع لحظات روائع من الأناقة الأنثوية بين الأغصان اللاواعية المتواطئة. ولكنّ الجمال الذي تثير رغبته فيّ أشجار الصنوبر والأكاسيا في غابة بولونيا، وهي في ذلك أشدّ إثارة من أشجار الكستناء وليلك «تريانون» التي أزمع أن أراها، ولم يكن محدّداً خارج ذاتي في ذكريات حقبة تاريخية وفي أعمال فنيّة وفي هيكل للبحث تتراكم على حضيضه الأوراق الكفّيّة المذهبة. وبلغت ضفاف البحيرة وذهبت حتى نادي صيد الحمام. وكنت حينذاك قد جعلت فكرة الكمال التي أحملها في ذاتي في ارتفاع العربات المكشوفة وفي ضمور تلك الجياد الثائرة الخفيفة كالزراقط، وقد احتقن الدم في عينيها كجياد «ديوميد» (Diomède) الشرسة، تلك التي كنت أبغي الآن، وقد عصف بي شوق إلى رؤية ما سبق أن أحببت، شوق شديد كالذي كان يدفعني قبل سنوات إلى هذه الدروب عينها، كيتكتحل بها عيناي لحظة يحاول حوذيّ السيّدة

«سوان» الضخم، فيما يرقبه وصيف صغير في حجم قبضة اليد وصبياني مثلما يبدو القديس جاورجيوس، السيطرة على أجنحتها الفولاذيّة التي تتلجلج مذعورة خافقة. فما ظلّ ثمّة، واأسفي، سوى سيّارات يقودها ميكانيكيّون «مشوربون» يرافقهم خدم مديدو القامات. كنت أودّ أن أثبّت تحت عيني الجسد قبّعات نسائية صغيرة قصيرة حتى لتبدو إكليلاً بسيطاً لأتبيّن إن كانت رائعة بمقدار ما تبصرها عين الذاكرة. ذلك أنّها كانت جميعها الآن ضخمة مثقلة بالفاكهة والزهر والطيور المختلفة. وبدلاً من الفساتين التي كانت تبدو فيها السيّدة «سوان» كالملكات كان هناك نوع من الستر الإغريقيّة الساكسونية يرفع مع ثنيات ثياب من طراز ثياب التماثيل، وأحياناً من طراز عهد حكومة المديرين - خرقاً من قماش «الحرية» مفروشة بالزهر كمثل ورق الجدران. وما كنت ألقى على رؤوس السادة الذين كان من الممكن أن يتنزّهوا مع السيّدة «سوان» في ممرّ «الملكة مارغريت» القبّعة الرماديّة السالفة ولا حتى أيّة قبّعة أخرى. لقد كانوا يخرجون حاسري الرؤوس. ولم يعد لدي من اعتقاد أُدْخِلُهُ في جميع أقسام العرض الجديدة لأضفي عليها تماسكاً ووحدة وحياة؛ فقد كانت تمرّ كيفما اتّفق أمامي مبعثرة لا قوام لها ولا تتضمّن أيّ جمال كان يمكن أن تحاول عيناي تأليفه كما تفعلان بالأمس. إنهنّ نسوة عاديات لا ثقة لي بأناقتهن، وتبدو لي أثوابهنّ عديمة الأهمية. بيد أنّه، بعدما يزول اعتقاد، يظلّ فينا، لتغطية ما فقدنا من قدرة إضفاء الحقيقة على أشياء جديدة، تعلّق وثنيّ متزايد الحدّة بالأشياء القديمة التي بعثها فينا ذلك الاعتقاد كما لو يقيم العنصر الإلهي فيها لا فينا وكما لو كان لتشككنا الراهن سبب عارض هو موت الآلهة.

وكنت أقول في نفسي: يا للفظاعة! أيمكن أن نلقى هذه السيّارات أنيقة أناقة العربات القديمة؟ لا ريب أني أصبحت منذ الآن عجوزاً جدّاً، ولكنّي لم أخلق لعالم تقيّد فيه النساء بفساتين ما صنعت حتى من قماش. وما جدوى المجيء تحت هذه الأشجار إن لم يظلّ شيء ممّا كان يتجمّع

في ظلّ هذه الأغصان الناعمة المحمّرة وإن حلّت الفظاظة وحلّ الجنون محلّ ما كانت تحيط به من أمر بديع؟ يا للفظاعة! إن عزائي أن أفكّر بالنساء اللواتي عرفتهنّ، بما أنّه لم تظلّ اليوم أناقة. ولكن كيف يستطيع قوم ينظرون بإعجاب إلى هذه المخلوقات المخيفة بقبّعاتها التي يعلوها قفص طيور أو بستان خضار، كيف يستطيعون أن يشعروا بما كان يكمن من سحر في مشاهدة السيّدة «سوان» تعتمر غطاء رأس بنفسجيّ اللون بسيطاً أو قبّعة صغيرة تنطلق منها زهرة سوسن واحدة أيضاً في خطّ مستقيم؟ بل كيف كنت أستطيع إفهامهم الانفعال الذي أحسّ به في صبيحات الشتاء إذ ألاقي السيّدة «سوان» تمضي سيراً على الأقدام ترتدي معطفاً من فراء ثعلب الماء وتعتمر قبّعة بسيطة تعلوها ريشتا حجال، ولكنّما يستشفّ من حولها دفء شقّتها المصطنع بفعل محض باقة زهور البنفسج التي تتكئ على صدارها والتي يكتسب إزهارها الزاهي الأزرق، قبالة السماء الرماديّة الهواء الصقيعي والأشجار العارية الأغصان، من جرّاء أنّه لا يتّخذ الفصل والطقس إلّا بمثابة إطار وأنّه يعيش في جوّ بشريّ، في جوّ تلك المرأة، السحر نفسه الذي تكتسبه في آنية صالتها وأحواضها بالقرب من النار المشتعلة وأمام الكنبة الحريريّة الأزهارُ التي تشاهد تساقط الثلج عبر النافذة المغلقة؟ وما كان يكفيني على أيّة حال أن تكون الملابس ما كانت عليه في تلك السنوات. فبسبب التضامن العائم بين مختلف أجزاء الذكرى، تلك الأجزاء التي تحتفظ بها ذاكرتنا متوازنة ضمن مجموعة لا يُسمح لنا باقتطاع أو رفش شيء منها، وددت لو أستطيع أن أقضي آخر يومي لدى إحدى تلك النساء أمام كوب من الشاي وفي شقّة طليت جدرانها بالألوان القاتمة، كما كانت لا تزال حال شقّة السيّدة «سوان» (في السنة التي تلي السنة التي ينتهي فيه القسم من هذه السردية)، في شقّة تلتمع فيها الأنوار البرتقالية والشعلة الحمراء واللهب الورديّ والأبيض الذي لزهر الأقحوان في أواخر تشرين الثاني وفي لحظات شبيهة بتلك التي لم أستطع فيها (مثلما سوف نرى فيما بعد) اكتشاف المتع التي

كنت أتوق إليها. ولكن هذه اللحظات كانت تبدو لي الآن، وإن لم تفض بي إلى شيء، وكأنّها تملك في حدّ ذاتها روعة كافية. كنت أريد أن أعود فألقاها مثلما كنت أتذكّرها. لكن، لم يظلّ ثمّة وأأسفي، سوى شقق من طراز «لويس السادس عشر» بيضاء تماماً ومزوّقة بأزهار اللاأورطانسيا الزرقاء. وما كانت الناس تعود إلى باريس، أيّة كانت الحال، إلّا في وقت متأخّر جدّاً. ولربّما أجابتني السيّدة «سوان» من أحد القصور أنّها لن تعود إلا في شهر شباط، بعد زمن الأقحوان بكثير، لو طلبت إليها أن تعيد من أجلي تكوين عناصر تلك الذكرى التي أحسّ أنها ترتبط بسنة بعيدة، بحقبة زمنية لا يمكنني أن أقطع الزمان إليها، وتكوين عناصر تلك الرغبة التي أصبحت عزيزة المنال كالمتعة التي لاحقتها بالأمس دون جدوى. كان ينبغي بالنسبة إليّ كذلك أن تكون النساء ذاتهنّ، تلك اللواتي كانت تثير ملابسهنّ اهتمامي لأن مخيّلتي في الزمن الذي كنت لا أزال فيه على إيماني، كانت قد أضفت عليهنّ طابعاً فرديّاً وحبتهنّ بأسطورة. ولكنّي عدت فرأيت، وأأسفي، بعضاً منهنّ في شارع الأكاسيا - جادّة الآس - عجائز لم يعدن سوى أطياف مخيفة لما كنّ عليه فيما مضى، تائهات يبحثن بحثاً عمّا لا يدرين في الخمائل التي تغنّي بها «فيرجيليوس». وكنّ قد ابتعدن منذ فترة طويلة وما زلت أسائل دون جدوى الدروب المهجورة. لقد اختبأت الشمس، وعادت الطبيعة من جديد تمدّ سلطانها على «الغابة» التي ابتعدت عنها الفكرة التي قوامها أنّها حديقة المرأة السماويّة؛ كانت السماء الحقيقية رماديّة فوق الطاحونة المصطنعة، وكانت الريح تغضّن صفحة «البحيرة الكبيرة» بموجات صغيرة وكأنّها بحيرة، وطيور ضخمة تطوف سريعة في «الغابة» وكأنّما في غابة، وتحطّ تباعاً، وهي تطلق أصواتاً حادّة، على أشجار السنديان الضخمة التي كانت تبدو تحت إكليلها القدسيّ من جلال المعابد وكأنّها تعلن فراغ الغابة المهجرة اللاإنساني وتعينني على أن أدرك على أفضل وجه التناقض القائم في البحث داخل الواقع عن لوحات في الذاكرة لعلها ستفتقر على الدوام إلى السحر الذي

تضفيه عليها الذاكرة دون ان تدركها الحواس. إنّ الواقع الذي سبق أن عرفته لم يعد موجوداً، فقد كان يكفي ألا تصل السيّدة «سوان» في اللحظة ذاتها مماثلة تماماً لنفسها حتى يتغيّر الشارع. إن الأماكن التي عرفناها ليست ملكاً لعالم المكان فحسب حيث نحدّد مواقعها للتسهيل على أنفسنا. إنها لا تعدو كونها مقطعاً دقيقاً وسط انطباعات متجاورة كانت تؤلّف حياتنا آنذاك؛ وإن ذكرى صورة معيّنة إن هي إلّا الأسف على لحظة معيّنة، والدور والطرق والشوارع، كمثل السنين، واأسفي، تُمعن في الهروب.

* * *

مكتبة
t.me/soramnqraa

المحتويات

مقدّمة عامة بقلم جان إيف تاديه ٥

مقدّمة أندريه موروا ١٢٩

نبذة عن حياة بروست ١٤٥

القسم الأول: كومبريه ١٥٣

القسم الثاني: من حب لـ «سوان» ٣٥٥

القسم الثالث: أسماء البلدان: الاسم ٥٧٣

مكتبة
t.me/soramnqraa

هذا الكتاب

رواية «بحثاً عن الزمن المفقود» يروي فيها الكاتب مارسيل بروست صراعه مع الزمن بأسلوب مرهف الحس، يجعلك تعيش الماضي كأنه واقع، ولم يعتمد بروست على الأسلوب المعروف في الروايات، بل صنع لنفسه أسلوباً خاصاً به يقوم على الجمل الطويلة التي تبدو معقدة، والتفاصيل المكثفة، واستطاع بالفعل أن يثبت أن البساطة لا تصنع الجمال وحدها، وإنما التعقيد أيضاً قد يصنع الجمال. في هذه الرواية ينتبه الكاتب إلى أن الزمن ينفلت من بين يديه، وبدلاً من أن يتتبع هذا الزمن ويحاول اللحاق به أراد أن ينقضّ على الزمن باستحضار ذكريات الماضي وإحيائها حتى تصير هي الواقع... استطاع بروست أن يستحضر الماضي حتى يعيشه القارئ ويشعر بكل تفاصيله، فلا يمكن لقارئ هذه الرواية أن يمرّ سريعاً على المقاطع دون أن يشعر بما فيها من أحاسيس ومشاعر كأنه هو بطل هذه الرواية...

الغلاف : سكينة صلوّن

ISBN 978-9922605487

9 789922 605487